-

اَلثّقَافَةُ الإِ

ـِ سـ ْلا

ـَ م ـِ يـ ّ ـَ

ة

| !

إعداد

هيئة الدروس في حوزة الإمام القائم العلمية

لجنة المناهج

1424ه‍ 2003م

حوزة الإمام القائم (عج) العلمية
دمشق ـ السيدة زينب

E

أوليات الثقافة

ما هي الثقافة؟

هى منظومة من الرؤى والافكار المؤثرة فى حياة الإنسان والتى تحدد مسار سلوكه وطبيعة مواقفه هى ثقافته.. إذا لا تعتبر العلوم الطبيعية من الثقافة بـ الرغم من تأثيرها غير المباشر على الفكر والسلوك.

(الثقافة) أهم إفراز ونتاج للعقل. فالثقافة تمثل الخطوط العريضة لعقل الإ نسان، فهى الاستراتيجية الفكرية الواضحة لهذا العقل، وعلى هذا الأساس فإن الثقافة هي أهم وأبرز مفردات ومفاهيم العقل.

وقد أشار القرآن الكريم إلى (الثقافة) فى سياق آياته معبراً عنها بـ (البصائر)؛ أى الرؤى، أو مجموعة الأفكار والتصورات والمفاهيم التى تمثل الأ رضية لنمو سائر الأفكار، والسلوكيات، والقيم.

كما انّ الفكرة اليتيمة التى لا تنتظم إلى غيرها ولا تشكل مجموعة مترابطة لا تسمى ثقافة، إذ أنّ الثقافة كما تدل كلمتها هى الفكرة التى تقوّم الإنسان. أو ليست العرب تقول ثقف العود وتعني انه عدله.

وهذا سر الصعوبة البالغة فى تحديد ثقافة الفرد او الأمة وفرزها عن الأفكار الشاردة وعن القضايا العلمية المجردة.. وبالذات فى هذا العصر حيث تضخ الوسائل التوجيهية المختلفة (كتب، مجلات، جرائد، نشرات، إذاعات مسموعة ومرئية، وأفلام وصور و. و.) تضخ في أجوائنا حشدا ً هائلا ً من الأفكار.

وهكذا، لم يعد الإنسان العصرى اليوم يعانى من قلة الأفكار (كماً ونوعاً) ولكن من كثرتها المتزايدة حتى انه لا يقدر على تقييمها وانتخاب المفيد منها وهكذا يتخذ موقف اللامبالاة وتنزاح المعلومات عن قلبه كما ينزاح الماء من ا طراف بلورة أنيقة.. إن لكل إنسان شخصيته الداخلية التى تمنحه التميز والأ صالة كما أنّ له ظروفه ومصالحه وأهدافه المحددة.

أهمية الثقافة

جدل قديم، ومتجدد بين علماء الاجتماع والفلاسفة، حول دور الثقافة فى حياة الأمم أهو دور التابع أو المتبوع؟

يقول علماء الاجتماع: إن تطورات الحياة خاضعة لسفن معينة، هى التى تقودها بصفة حتمية من مرحلة إلى اخرى، وفى كل مرحلة تخضع جميع مناحى الحياة ومنها الثقافة لمجموعة سفن خاضعة لاستراتيجية المرحلة بصورة حتمية. والثقافة عند الاجتماعيين، بعض النجوم التى تدور فى أفق السفن الاجتماعية المحتومة. وحتى الفلسفة، يعتقد علماء الاجتماع أنها بعض الافرازات الاجتماعية، التى تدل على مرحلة معينة.. ومن أدوار المجتمع. فمث لا ً: فلسفة الثورة فى أوربا، لم تكن سوى ظاهرة واحدة من ملامح القرن الثامن عشر لمجتمع الثورة..الذى أفرز هذه الظاهرة. هكذا يعطى الاجتماعيون الأهمية للاجتماع بينما يجر الفلاسفة نار الأهمية إلى قرصهم فيقولون إن العامل الحاسم فى حياة الشعوب إنما هى ثقافتهم، فهى التى تحدد وجهة المجتمعات، وتصبغها بلون الثورة أو الجمود، العلم ام التقليد، الحضارة او التخلف.

يقولون: ما هو المجتمع.. ليس سوى الأفراد، ثم كيف يدير الأفراد شؤونهم بارادتهم؟ ولكن كيف يختلفون فى الإرادة اليس لأنهم يحملون ثقافات مختلفة ؟

إذا فالثقافة رائدة الحياة وهكذا يختلف الراى فى ان الثقافة ام سفن الا جتماع هي التي تقود حياة الأمم؟

وقد تنامى الشعور بخطورة دور السفن الاجتماعية فى قيادة الثقافة وتوجيهها فى العصر الحديث، حتى تسنم علم الاجتماع بفروعه العديدة قمة العلوم الحديثة. ولكن بالرغم من ذلك فإن أنصار الثقافة لا يزالون يتمتعون بنفوذ واسع في الأوساط العلمية.

وخطورة هذا الجدل ياتى من ارتباطه المباشر بقضايا الأمم المصيرية، سواء كانت متقدمة أو متخلفة. فالشعوب المتخلفة لا تفكر بالتقدم إلا ّ ويصدها هذا السؤال: ما هو العامل الحاسم فى تقدم الأمم، الثقافة الحية أم السفن الا جتماعية القوية، فإذا كانت الأولى بدأنا بها وإن كانت الأخرى فلابد من انتظار امرها؟

بينما الشعوب المتقدمة تخشى التخلف وتفكر فى تجنب الموجبات النهائية له.

والواقع: أن الثقافة رائدة ووليدة، فهناك ثقافة رائدة تفجر طاقات الإنسان، وتبعثه مجتمعا ً حيا ً نشيطا، وهناك ثقافة تولد مع هذا الانفجار كواحدة من إفرازاتها العديدة وهذه ثقافة وليدة حياتها مرتبطة بحياة المجتمع وطاقاتها محدودة بقدرة الأمة.

وتسود هذه الثقافة الوليدة ما تسود إفرازات المجتمع من سنن مقضية أبرزها سنة التناقض الطبيعى، الذى تتعرض له كل إفرازات المجتمع.. كلما بعدت عنها اشتد الانفجار الأول. وكالشمس حينما تتربع السماء تكون أشعتها

اكثر دفئا ً واشد ضياء ً عما إذا الت إلى المغيب، كذلك المجتمع ساعة إنط لاقه تكون ثقافته الوليدة أبهى وأسمى من ساعات انهياره.

وفى تاريخنا الإسلامى تبدا امتنا فى ساعة نزول القران الحكيم، حيث كانت ساعة الانفجار الضخم لنا وكانت شمسنا في رابعة السماء.

والثقافة القرآنية كانت الرائدة التي ولدتنا وهي بالتالى كانت فكرة الحضارة ..التي فجرت طاقات الإنسان في الجزيرة العربية.

وإشعاع هذه الثقافة تمثل فى ثقافة الجيل الأول الذى تلقى الوحى من مهبطه الصافى، وبالرغم من سمو ثقافة الجيل الأول، فإنها كانت وليدة المجتمع الإسلامى ومن موحياته الخيرة. وحينما هبطت الحياة الا جتماعية..هبط مستوى الثقافة الوليدة المستوحاة منه وتمثلت فى ثقافة أمى ة التي انطبعت بطابع الحياة الاجتماعية تماماً.

بهذا نستطيع تقسيم الثقافة إلى نوعين: الأول ما تولد الحضارة، الثاني ما يتولد منها، ويرتبط فى مسيرته مسيرة الحضارة وهى واحدة من إفرازاته المختلفة. وعلى الأمم الناهضة التفتيش عن الثقافة الرائدة، لتوظيفها فى حياتها حتى تستطيع ان تقوم بدور الديناميت لتفجير طاقات الإنسان الحضارية، ولكن كيف نتعرف على هذه الثقافة حتى لا تتشابه علينا وتضيع النهضة بينها؟.

التفسير حسب نوع الثقافة

ونحن عندما نستخدم مصطلح (الثقافة) فإننا لانقصد الكلمات والتعابير، لأ نها قد تكون واحدة أو متشابهة. بل نقصد مفهوما ً آخر هو نوعية تلقى الإ نسان للأفكار، وكيفية تفسيره للاحداث. فالفكرة الواحدة تعنى عند إنسان شيئا ً، بينما تعني عند إنسان آخر شيئا ً مغايرا ً.

وعلى سبيل المثال فإن الحديث المعروف: اتق شر من أحسنت إليه يفسر تفسيرين؛ التفسير الأول يقول: إن على الإنسان أن يتقى شر الآخرين من خلال الإحسان إليهم؛ أى: إنك كلما أحسنت إلى الآخرين أكثر كلما تجنبت أذاهم، وابتعدت عن شرهم، وضمنت السلامة لنفسك منهم. والتفسير الثانى يقول: إ نك إذا احسنت إلى إنسان فإن هذا الذى احسنت إليه سوف ينقلب إلى عدو يفترسك، ويحطمك، فاتق شره بأن لا تحسن إليه.

وهكذا الحال بالنسبة إلى الآية القرآنية التي تقول:

N وَلا َ تُلقُوا بِأيْدِيكُمْ إلى التهْلُكةِ M (البقرة 195)، والذى يظهر تفسير ه ذه الآية قوله تعالى فى صدرها: N وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّه...M (البقرة 195)؛ أى: إنكم إذا أنفقتم فى سبيل الله، وأعطيتم فحينئذ سوف تتجنبون الهلاك. أ ما التفسير الآخر فيقول: إن على الإنسان أن يجلس فى بيته، ويتجنب الأ

خطار، لأن الواجب عليه ان يحفظ نفسه من كل الأخطار، ولا يلقى بنفسه فى التهلكات. فلا يجاهد، ولا يقول كلمة الحق عند إمام جائر، ولا يحارب أحداً لأن الدخول فى الحرب يعنى إلقاء النفس فى التهلكة، كما يعنى اقتحام ميدان العمل السياسي والعمل الاجتماعي والإصلاحي.. تعريض النفس للأخطار.

وهكذا تختلف التفاسير فى حين ان الكلمة واحدة، ذلك لأن تلقى الإنسان للكلمة يختلف عن تلقى الآخر؛ فبينما يتلقى حامل الثقافة الحيوية الرسالية كلمة اتق شر من أحسنت اليه بمضمونها الحضارى؛ أى اعط من نفسك، وتنازل عن حقوقك من أجل الآخرين، وعش من أجلهم..نرى صاحب الثقافة الجامدة المتخلفة الفردية الضيقة الأفق يفسرها تفسيراً سلبياً على ضوء ثقافته.

ونفس الشىء يمكن أن يقال: عن تفسير هذين الفردين للأحداث والمتغيرات ، فبينما نرى صاحب الثقافة الحضارية الرسالية يفسر كل حدث بواقعية، ويلقى الضوء على الجوانب الإيجابية منه. نجد الآخر يفعل العكس من ذلك تماما، فلا يرى إلا الجوانب السلبية للحدث. فهو يرى العدم ولا يرى الوجود، ولا يرى الملايين من النعم التى تتوافر عليه من الله سبحانه وتعالى، وحتى إذا نقصت شعرة من شعرات راسه فإنّه يحول هذا النقصان إلى صحراء من الظلمات يعيش داخلها، ويجعل هذا النقص قناة ووسيلة لرؤية كل النواقص الأخرى في الحياة.

وهكذا فإن الثقافة هى الظرف الذى يستقبل الأفكار، كما يستقبل متغيرات الحياة وحوادثها، ويلونها جميعا بلونه؛ فإن كان ذلك الظرف نظيفاً شفافاً جعل كل تلك الأفكار والحوادث نظيفة شفافة، وإن كان وسخاً مليئاً بالجراثيم فإن أنظف الأفكار ستتحول فيه إلى أفكار سلبية.

الثقافة الرسالية والنهوض الحضاري

عندما يفتش الإنسان عن اساس المشاكل التى نعانيها وتعانى منها الأمة الإسلامية اليوم، لابدّ ان يقع على المشكلة الثقافية كواحدة من اخطر المشاكل التى تتفرع منها الأزمات والعقد الحضارية الأخرى. والقضية الثقافية إنما تتبوأ مكانتها الأساسية في هذا الصدد من بعدين رئيسيين :

البعد الأول: إن الأمة الإسلامية هى بالدرجة الأولى أمّة تقوم على أساس المبدأ، وتتمحور حول الرسالة، فالاعتقاد بالمبدأ، وحمل الرسالة يعنيان كل شىء بالنسبة إلى كيانها. N إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ M (الانبياء 92)، فالأمة الواحدة هنا لا تقوم على أساس الأرض ولا على أساس القومية واللغة والمصالح، بل تقوم على اساس توحيد الله تعالى وهذا هو أساس الأمة الإسلامية. ومن المعروف أن الثقافة تشكل جزءاً أساسياً من العقيدة والإيمان والعبادة، فمن دون العلم، والوعى السليم، والرؤية الصائبة لا يمكن ان تكون لدى الإنسان عقيدة أو ايمان.

البعد الثانى: هو بعد مشترك بين الأمة الإسلامية وبين سائر الأمم رغم انه بعد يميز الإنسان عن غيره، افليس الإنسان كائنا حضاريا؟

فلا ريب ان الله قد أكرم الإنسان، وحمله فى البر والبحر بما علمه: N وَعَلَّمَ ءادَمَ الأ َ س ْ م ا ء َ كُلَّهَا M(البقرة 31)، وعندما علم الله تعالى آدم الا سماء اسجد له ملائكته، فالإنسان اذن هو كائن مثقف، والثقافة تؤثر عليه. وعندما انحرفت ثقافتنا عن مسارها الصحيح انحرفنا عن صراط سعادتنا، وطريق فلاحنا، والعودة إلى هذا الطريق وذلك الصراط لن يكون إلا ّ بتصحيح الثقافة، فمن يحدثك عن الاصلاح والتغيير، وعن العمل السياسي والا قتصادى دون ان يقدم لك برنامجا سليما وواضحا فى التثقيف والتوعية فإن ك لامه هذا لا يقوم على اساس ثابت، بل الصحيح ان يزودك بالبرنامج الثقافى الذى يخلق الإنسان الحضارى، ومن ثم يامرك بالتحرك، ويعطيك البرنامج السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى وما إلى ذلك. ونحن اليوم علينا أن نتحمل هذه المسؤولية، فالإسلام يؤكد لنا ان مداد العلماء خير من دماء الشهداء ، فعلى كل واحد منا ان يتحول إلى مؤسسة ثقافية بالإضافة إلى مسؤولياته الأخرى.

الصراع الابدى الذى يلخص فلسفة الحياة، وتتجلى فيه حكمة وجود الإ نسان فى هذه الدنيا، يعبّر عن نفسه بصور شتّى؛ فمرة يكون صراعاً سياسياً، واخرى اجتماعياً، وثالثة عسكرياً، ولكن ابرز صور هذا الصراع هو الصراع الثقافي، ذلك لأن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يستطيع تحديد وجهة حياته المتمثلة فى الثقافة، فثقافته هى التى تحدد كل مفردات حياته، ولا فرق في ذلك بين إنسان واخر مهما كانت الفروق بينهما.

الصراع الثقافي هو الصراع الأول:

ولذلك فإن الصراع الثقافى يبقى هو الصراع الأول، ولأهمية الثقافة لابدّ ان يكون الرجال الذين يحملونها ويرفعون مشعلها ملتزمين بها، صابرين على الا ذى الذى قد يلحقهم بسببها. فإذا كان حامل هذه الثقافة رجلا جبانا ضعيف الإ رادة فمن الطبيعى ان يبيعها للاخرين بثمن بخس، وفى هذه الحالة سوف تغرق الجماهير فى بحر الظلام، وهذا يعنى ان الفساد سيغمرهم، والانحراف يهيمن عليهم، وتخيم عليهم الضلالات، ويكون الكفر والنفاق ديدنهم.

قيل لأمير المؤمنين 8: من خير خلق الله بعد ائمة الهدى ومصابيح الدجى قال العلماء إذا صلحوا قيل ومن شر خلق اللّه بعد إبليس وفرعون ونمرود وبعد..إلى ان قال العلماء إذا فسدوا المظهرون للاباطيل الكاتمون للحقائق... ، وفي الحقيقة فإن الإمام علي8 قد حدّد داء الأمة ودواءها.

وفى حديث آخر يحددX سعادة الأمة أو شقاءها بصلاح أو فساد طائفتين هما العلماء والامراء، حيث قال X : صنفان من أمتى إذا صلحا اصلحت امتى، وإذا فسدا فسدت أمتى، قيل: يا رسول الله ومن هما؟ قال: الفقهاء والأمراء ، والملاحظ ان النبىX قد بدأ بالعلماء، لأن الامير قد يكون قويا مقتدرا ولكنه لا

يطالب بالوعي والعلم والثقافة، والدعوة إلى الله، وحتى لو كان الامير عالما فإنه لا يستطيع ان يطبق العدالة في مجتمع فاسد متخلف؛ فالمجتمع يجب ان يكون صالحا او على الاقل يحمل بذور الصلاح، والذي يصلح هذا المجتمع هو العالم، فإذا اصبح العالم هو الداء فاين نجد الدواء اذن؟

العالم هو حامل رأية الثقافة

فالعالم هو الذي يجهز الناس بسلاح الثقافة، وهو الذي يمنحهم الثقة بانفسهم لكي ينهضوا للمطالبة بحقوقهم من خلال نشر الثقافة الرسالية بـ الطريقة التي يرتئيها، والذي نحتاج إليه في عملنا الرسالي هذا هو الإرادة و الصبر والثبات.

والعلماء هم الذين يمثلون القيادات التي يجب ان نعمل ونتحرك تحت لوائها ، ومع هذه القيادات سوف نحشر يومالقيامة: N يَوْمَ نَدْعُواْ كُلّ أُناس بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلا M (الاسراء 71)، فاللّه سبحانه سوف يثيبنا على اعمالنا الصالحة مهما صغرت وبدت تافهة كـ(الفتيل) الذي هو الخيط الدقيق الموجود داخل نواة التمرة والذي يضرب به المثل في الصغر، فاللّه تعالى يسجل اعمالنا في كتاب لا يضل ولا ينسى، وهو في نفس الوقت يعلم خائنة الاعين، وما تخفي الصدور..

وهكذا فإن من يحمل ثقافة النور يجب ان يكون في مستواها، استقامة وصبراً وتحدياً.. حتى يحمل هذا النور إلى من يحتاج اليه، وإلا فإنه سيتخبط في الظلام، وسيدخل معه الناس في هذا الظلام.

كيف نقاوم الثقافة الجاهلية

1. السبيل إلى تحدي الثقافة الطاغوتية

الثورة الثقافية في الأمة تبدا من مبدا الرفض لافكار الطاغوت، فمن دون اجتناب أفكار الطاغوت لا يمكن ان يكمل ايمان المؤمن، ففي حالة عدم رفضك وتحديك ومقاومتك لسيل الأفكار الطاغوتية فإنها سوف تنحدر إلى قلبك من حيث تشعر اولا تشعر.

فالطاغوت لا يدعك تختار افكارك بحرية، لأنه يفرض عليك افكاراً باطلة تؤيد طغيانه وجبروته، ولذلك فإنك لاتستطيع ان تكون محايداً في الفكر، بل لا بدّ ان تكون متمسكاً في هذا المجال بالحق، لأن هناك من يحاول ان يجرك إلى الباطل من خلال استخدام الوسائل الإعلامية والدعائية المختلفة؛ فإن لم تكن متحدياً لثقافتهم فإن ثقافتهم هذه سوف تتحداك لتنفذ إلى ضميرك.

فالطاغوت لاينتظر منك ان تاتي إليه لتستجيب لإفكاره، بل يبادر إلى توجيه امواج الفكر الباطل إلى ذهنك بحيث لاتستطيع ان تمنع تاثيرها عليك إلا من خلال رفضها بالانطلاق من مبدا التقوى، وتقوية الإيمان بالاخرة، ولذلك نرى الآيات القرانية تؤكد كثيراً على هذا الجانب في معرض حديثها عن موضوع مقاومة الثقافة الجاهلية، كما نلاحظ ذلك في الآية التالية: N قلِ اللّه

أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِ M (الزمر 14). فالإنسان المؤمن ينبغى عليه ألا ّ يستوحى افكاره من الجبت والطاغوت، بل من اللّه تعالى الذى يريد ان يميز بين الإنسان المؤمن والكافر، ويريد للإنسان المؤمن ان يتمتع بشخصية متميزة مستقلة إزاء الكافر؛ وهنا تكمن بداية الرفض والتحدي والمقاومة.

فالأجدر بالإنسان المؤمن ان يتقي العذاب الأخروى، وان يخشى ربه، لا ان يخشى الطاغوت، فمن لم يتمتع بصفة الخوف من اللّه تعالى لا يمكنه ان يمتلك شجاعة الرفض وبطولة التحدي. فعلينا إذن أن نجتنب الطاغوت ونرفضه ونقاومه لننيب إلى اللّه تعالى بالصلاة والدعاء والتدبر فى القران الكريم؛ وقد جاء فى هذا الكتاب العظيم حول ضرورة عدم الاتباع المطلق والأعمى لكل ما يعرض علينا من أفكار: Nوَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ = الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُM (الزمر17 - 18)

2. كيف نقاوم الثقافة الجاهلية؟

من المسؤوليات الأساسية لكل رسالي يهدف إلى تغيير المجتمع، معرفة الثقافة التى تسود المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا يعنى ان لا يكتفى بمعرفة الصبغة العامة للثقافة الاجتماعية، وهل هى متخلفة رجعية ام إسلامية، بل إن يتعرف أيضاً على كل فكرة وعلى كل موضوع يظهران فى هذا المجتمع. وإن معرفة جزئيات الثقافة تهدينا إلى مفتاح شخصية المجتمع، لأن البناء الأساسي لشخصية الإنسان قائم على ثقافته، وبالتالى فإن معرفة الثقافة هو فك لألغاز وأسرار الإنسان. وهنا تطرح التساؤلات التالية:

1. كيف تتم معرفة الثقافة؟ وما هو مقياسها؟
2. ماذا علينا أن نفعله تجاه الثقافة الباطلة التي تعرفنا عليها؟
3. إذا ما تعرفنا على ثقافة باطلة فهل يجب علينا أن نبينها ثم نردها، أم نردها فحسب؟

اتهام الثقافة

وقبل إن نجيب على هذه التساؤلات، ينبغي ان نمهد لذلك بمقدمة اساسية تتمثل فى ان الإنسان قادر على ان يبرر مواقفه بخلق ثقافة كاذبة لنفسه، ف الثقافة هى مجموعة افكار متماسكة، وقد تكون هذه الأفكار نابعة من صلب الواقع وعين الحقيقة، وقد تكون نابعة من خواطر الفكر، وتموجات الذهن البشرى، فقد تفكر لتعمل، وقد تفكر بأتك عملت؛ أي: إن الثقافة من الممكن أن تكون بادئة للعمل، وقد يكون العمل هو منشا الثقافة، وعلى سبيل المثال فإنك تحاول ان تبحث عن ثقافة تبرر اعمالك إذا ما كذبت ونافقت، وتهاونت بصلا تك، وتكاسلت عن عملك.. فالإنسان لا يتعرض لهجمات النقد عاريا، وإنما يحاول ان يستتر بمتراس، ومتراس الإنسان فى هذه الحالات ثقافته التبريرية، وهذه (حالة التبرير) هى مفتاح فهمنا للثقافة، فقبل كل شيء نحن عادة نطرح

على أنفسنا السؤال التالى عندما نستمع إلى كلام الآخرين: لماذا يقول هذا الإ نسان هذا الكلام، ومن هو المنتفع منه؟، فإن لم نعرف لماذا كتب، ولماذا طرحت هذه القضية فى هذا الوقت بالذات، فإن أمامنا السؤال التالى: هذا الكلا م يخدم من؟

وعندما تقع جريمة نرى ان علماء الجريمة يبادرون إلى البحث قبل كل شىء عن من يستفيد من هذه الجريمة، وقبل إن يفكروا فى أصدقاء المقتول فإنهم يفكرون في الأعداء، وفي أولئك الذين انتفعوا بقتله.

وهكذا ينبغى ان نفعل عندما يكتب او يذاع موضوع فى الساحة، فالثقافة فى منطقنا متهمة حتى تثبت براءتها، ونستوحى ذلك من حديث للرسول يقول: من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله عز وجل فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس [1].

ونبدأ بالإجابة عن الأسئلة التي أثرناها في مقدمة هذا الفصل:

كيف نكتشف الثقافة الباطلة؟

لقد اصبح الجواب واضحاً إلى حد ما بعد تلك المقدمة، فالثقافة الباطلة نكتشفها :

1. عندما نطرح السؤال التالى: هذه الثقافة تخدم من؟ فإذا عرفنا الشخص أو النظام الذي تخدمه هذه الثقافة فإننا نكون قد عرفنا حقيقة هذه الثقافة.

2. خلفيات الثقافة ثم القرآن الكريم ملىء بالآيات التى تفضح العوامل النفسية القابعة وراء الثقافات الباطلة. فمن المهم جداً أن نكتشف خلفيات الثقافة، والدوافع الخفية وراء الكلام، بعد ذلك علينا ان نكتشف الحالة النفسية التى يعيشها المتكلم، فإن كان هذا المتكلم يعيش حالة الجبن والتخاذل فإن ثقافته ستكون منطبقة على هذه الحالة.

3. نتيجة الثقافة: فالثقافة التى تنتهى إلى العمل الصالح هى ثقافة سليمة، وإلا ّ فإنها الثقافة التى تدعوك إلى التكاسل، وهذه هى الثقافة الباطلة، ولذلك عليك ان تحلل الثقافة المطروحة عليك؛ فتنظر إلى ما وراءها، وتحاول ا ن تكتشف إلى اى هدف تدعوك؛ هل تدعوك إلى العمل ام إلى اللاعمل، ثم هل تدعوك إلى العمل الصالح ام إلى غير الصالح؟

ومن هنا جاء فى الحديث عن النبىx قال: لا تجلسوا عند كل داع مدع يدعوكم من اليقين إلى الشك ومن الإخلاص إلى الرياء.... وتقربوا إلى عالم يدعوكم من الكبر إلى التواضع، ومن الرياء إلى الإخلاص ومن الشك إلى اليقين... [1]

وفى حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين 8 قال: ألا أخبركم بالفقيه حقاً؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: من لم يقنّط من رحمة الله ولم يؤمنهم من عذاب الله.. [2] من هنا يجدر بنا أن نفتش عن من ينتهى كلامه بنا إلى الرجاء

والأمل، وإلى العمل والتحرك والنشاط، وان نحذر من مجالسة الذى يؤدى كلا مه بنا إلى القعود واليأس..لنفرض أن كتابا ً وضع أساساً لكى ينفى إنسانية ا لإنسان، ولنأخذ على سبيل المثال كتاب تحطمت الطائرات عند الفجر ، أو كتاب وصايا حكماء صهيون ، وكتاب لعبة الأمم ، إن هذه الكتب جميعها وكثيرا ً غيرها إنما وضعت اساساً لكى تقول للمسلمين؛ إنكم لا تفهمون شيئاً، ولا تستطيعون ان تفعلوا شيئاً، وإن امور العالم كلها إنما هى بيد الغربيين، وتصورهم لنا وكانها شياطين الجن الذين يفعلون ما يريدون، فهذه الكتب تريد ان تسلب منا ثقتنا بانفسنا، ولذلك يجب علينا ان نطرحها جانبا، ولا ننخدع بها، ولابدّ أن نعى أن قوتهم لا شىء إزاء قوة الله وقدرته، فنحن نتمتع بقوة الله العظمى، وكلما رأينا شيئا عجبا قلنا الله اكبر، سبحان الله، لا اله إلا ّ الله ، لكى لا نبهر بهذا الشىء العجب، ولكى لا يسلب إرادتنا. إن القوى الطاغوتية فى الأرض إنما تستعرض قواها من اجل إرهابك أيّها الإنسان، ومن اجل سلب إ رادتك، لأنها تخشى إرادتك هذه، ولأنها تعرف ان هذه الإرادة لو تحركت فإنها ستحرقهم، وتحرق قواهم. وهكذا علينا عندما نقرأ كتاباً أن لاننظر إلى الحلة التى زخرف بها، وقد أشار تعالى إلى ذلك فى قوله عن المنافقين: N وَإِن يَقُولُوا تسْمَعْ لِقَوْلِهِمْM (المنافقون 4).

كيف نرد الثقافة الباطلة

أما بالنسبة إلى جواب السؤال الثانى وهو: ماذا يجب أن نفعله إزاء الثقافة الباطلة؟ فلا يكفى ان نعالج اى مرض باى دواء، بل لكل مرض دواؤه الخاص به ، ولكل ثقافة علاجها الخاص بها، وبناء على ذلك لابدّ ان نكتشف نوع المرض الثقافى الذى تعانى منه الأمة لنحدد نوع الدواء الذى يقتل (فيروس) هذا المرض. ولذلك علينا أن نفتش فى عمق الكلام وخلفياته.. وأن ْ لا ننظر إلى ظاهره بل إلى ثناياه وخباياه.

القران الكريم يؤكد على ذكر الأفكار الفاسدة لأعدائه، فهو لا يكتفى بنفيها وردها دون ان يعرض لها، ونحن ايضاً يجب علينا ان نفتش عن الثقافة المريضة، فإذا اكتشفناها كافحناها بالمضاد المناسب لها، لكى يعرف الناس ماذا تعنى الثقافة المريضة، ولكى تكون لديهم امثلة حية عن هذه الثقافة التى يحذرون منها. وكل ذلك يعين لنا مسؤولياتنا. فمسؤوليتنا الآن تتمثل في :

1. إن نهتم بما يقال وينشر فى الساحة لاكتشاف الحقيقة وفرز الغث عن السمين فيها أولا ً.
2. ولاكتشاف المضاد الحيوي لتلك الثقافة الباطلة ثانياً.
3. ولنقلها وتعريفها ونقل المضاد لها إلى المجتمع.

ان مجتمعنا يعانى الآن من الأمراض الثقافية اكثر ممّا يعانى من الأمراض الجسدية، بسبب عدم اهتمامه بسلامته الروحية والنفسية والثقافية. وبالطبع

فإن الهجمة الثقافية ضدنا قوية وعنيفة وبمختلف الوسائل من اذاعات وصحف، وافلام، وكتب.. وإذا اردنا ان نقاوم هذه الهجمة الشرسة الشاملة فعلينا ان نشحذ ارادتنا، ونقاومها بوعي بان يصبح كل واحد منا شمسا مضيئة تبث النور والاشعاع والدفء في كل اتجاه، فعلى كل واحد منا ان يكون خطيباً وكاتباً ومفكراً.. وأن يكون معطاء في كل أرجاء الحياة الثقافية للأمة.

دفعة عاطفية ومقاييس عقلية

ابرز سمات السلامة فى الثقافة قدرتها على توظيف جميع الإمكانات البشرية فى خدمة التقدم والرفاه. فالعاطفة يجب أن تستمر جنباً إلى جنب مع العقل، إذ هما اعظم طاقتين فى الإنسان، بيد ان الثقافة السليمة هى التى تعرف كيف تضع النفس البشرية فى محور متوازن بين العقل والعاطفة.. حتى لا يلفها جمود العقل، ولا تقتلها ثورة العاطفة. والتوجيه الثقافى مسؤول هو الآخر عن مقدار استخدامه لإحدى الطاقتين بحيث لا تطغى على الثانية فتدمر الحياة. لقد كانت الثقافة الألمانية قبيل الحرب العالمية الثانية مشبعة للتخمة بالعاطفة، فاندفعت فى اتجاه خطر، ونشرت الدمار على الأرض، بينما كانت الثقافة الفرنسية بالعكس تماماً، فانهارت فرنسا هى الأخرى.ان العاطفة ضرورة بالغة لأمة تواجه خطراً داخلياً او خارجياً، ولكنها ليست كافية، إذ انها كالمياه المتفجرة إذا لم تجد لها مجارى فإنها تتحول إلى سيول عاتية، و المقاييس العقلية هى التى تحفر المجارى الضرورية لاستيعاب تفجر العاطفة، ثم توظيفها فى الخير والرفاه. وفى الثقافة الإسلامية منابع عديدة للعاطفة، فقصص الجهاد الإسلامي منذ عهد النبيX وحتى اليوم، والسير المضيئة التى نجدها في التاريخ الإسلامي افضل مولد للعاطفة لدى الأمة، ولكن هل تكفى العاطفة للنهضة الشاملة؟ كلا بل فى الإسلام ايضاً مقاييس عقلية دقيقة جاء بها الوحي القرآني الحق، ويتبعها المسلمون جميعاً.

المراحل الاربع للثقافة

معروف كيف يموت الحى بيولوجيا: ينقطع عن التنفس فيتوقف عن الحركة.. كذلك تموت الثقافة؛ يتوقف فيها نبض الحركة فتتقلص، وتنطوى.. وتموت. وكما يمر الحى بعدة مراحل قبل إن يلفه الموت، كذلك الثقافة تمر بنفس المراحل فمن مرحلة الصحة والشباب إلى مرحلة الشيخوخة..إلى المرض..إلى الموت، وفيما يلي نحاول شرح مميزات كل مرحلة.

1. دور الشباب :

تتميز الثقافة الشابة التى لم تزل تحتفظ بكامل قواها الحركية والدفعية بنقطتين أساسيتين:

الأولى: إن هذه الثقافة تبرر دائماً دور المشيئة البشرية فى تحمل مسؤولياتها الكاملة أمام الحياة.

الثانية: إنها تستوضح للفرد أهدافه البعيدة التى يتطلع إليها، أو ينبغى أن يتطلع إليها.

والقران الكريم من ابرز واروع الأمثلة التى تجسد روح الثقافة الحية، فهى من جانب تكرس كثيراً من توجيهاته نحو المشيئة الحرة التى يتمتع بها البشر، وتعطيه جرعات كبيرة من الإحساس بالتحدى إزاء عوامل الحياة الضاغطة. يقول الله تعالى فى القرآن الكريم: N وَأَن لَيْسَ لِلإنسان إِلا مَا سَعَى = وَأَنّ سَعْيَه سَوْفَ يُرى = ثُمّ يُجْزاهُ الجَزَآءَ الأَوْفى M (النجم 39- 41). ويقول أيضاً: N فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذّبُ عَذَابَهُ أحد = وَلا يُوثِقُ وَثاقهُ أحد M (الفجر 25- 26).ويقول سبحانه: N إنّ الله لا يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بِأنفُسِهِمْ M (الرعد 11).

كل هذه الآيات تشير إلى دور الإرادة الإنسانية لعله ينتبه ذاتياً، ويقوم بخلق حياة أفضل. والقرآن من جانب آخر يقوم بشرح القيم التى ينبغى للإنسان أن يتطلع نحو تحقيقها فى حياته، ومنطق القران فى هذا المجال واضح جداً، إنما هى دنيا واخرة، والثانية خير من الأولى، ولكن ينبغى الا ننسى نصيبنا منها أيضاً...إن أهداف البشر لدى الثقافة الإسلامية واضحة جداً، والدعوة إلى تحقيقها مؤكدة جداً.

يقول الله تعالى فى القرآن الكريم: N تِلْكَ الدّارُ الآخرةُ نَجْعَلُهَا لِلّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرض وَلا فَسَاداً M (القصص /83).

ويقول الله تعالى: N وَإِنّ الدّارَ الآخرة لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ M (العنكبوت 64).

ويقول سبحانه: N وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَاكَ اللّه الدّارَ الآخرة وَلا تنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللّه إِلَيك وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأرض إِنّ اللّه لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ M (القصص 77).

2. دور الشيخوخة:

ايام الشيخوخة في الإنسان تزيد صاحبها ضعفاً وتشاؤماً، كذلك ايام الشيخوخة فى الثقافة تتسم بضعف القيم الدافعة نحو التقدم والحركة والانطلاق. في هذه الأيام تلعب السياسات التوافقية التى تنشأ من الاتحادات السطحية دوراً بارزاً فى تقرير مصير الأمم، وهذه السياسات ناشئة من لون خاص من الثقافة هى: ثقافة التوفيق ، وهذا النوع من الثقافة خالية من حماس القيم.إنها ثقافة تبحث عن حلول وسط لجميع المشاكل، وتحاول تجنب الأوجه الحادة من الأفكار، وتكرس نشاطها لمعرفة اوجه الوفاق حتى بين النظريات الشديدة التناقض. وبالرغم من اتسام هذه المرحلة من عمر الثقافة بطابع العلمية إلا أن دافعها هو الشعور بالضعف، والبحث عن الراحة. وفى الأمة الإسلامية ترى هذه الثقافة بين جمهرة كبيرة من مؤلفى القرن

الثانى الذين ضعف فيهم الإحساس الدينى واخلدوا إلى الهدوء، باحثين عن الحلول الوسطى.

عند هؤلاء المؤلفين ذهبت روعة ايات القران الكريم والروح الحركية الدافعة التى تكمن فيها.. من هنا اقتصر تفسير القرآن الكريم على مجموعة بحوث لغوية وإعرابية وكلامية عقيمة. ويكفيك أن تلقى نظرة على أى تفسير من تفاسير القرن الثانى وما بعده حتى تجد فيها الفراغ الروحى والجدل البيزنطى حيث يتبادل المفسرون الاراء والردود، ويحاربون انفسهم بسيوف من خشب، والغريب إن الكثير من هذا الجدل كان يستخدم من اجل دعم مركز السلطات الديكتاتورية الحاكمة، او تاييد بعض المذاهب العتيقة بغرض الحصول على مكاسب سياسية آنية.

وكذلك الأمر فى المؤلفات التى تتناول التاريخ الإسلامى، حيث يتناول المؤلفون الجانب الجامد من ذلك التأريخ: دفاع مستميت عن بعض الشخصيات التأريخية، دون البحث فى تلك القيم التى صاغت تلك الشخصيات، وذلك من أجل تكوين شخصيات أخرى مماثلة.

3. دور المرض الثقافي:

لكى نستطيع تحقيق نهضة متينة شامخة لابدّ ان نتعرف على جراثيم المرض التى تهدد الثقافة من اجل القضاء عليها الآن والتحصن ضد تجددها فى المستقبل. لقد حددنا العنصر المريض فى الثقافة بأنه الذى يدعو إلى الا سترخاء والتفرقة والخنوع، ولكن يجب الا تفوتنا هذه الملاحظة وهى ان دعوة الفكرة المريضة لا تاتى صريحة ومكشوفة حتى نستطيع تحديد ابعادها بسهولة، والصعوبة البالغة تنشا من اشتراك الألفاظ غالبا بين معنيين؛ احدهما مريض والثانى صحيح، ولذلك فإن حاجتنا ماسة إلى وضع مقاييس ثابتة لكشف العنصر المريض، وسناتى على ذكر طائفة منها فى نهاية الحديث، اما الآ ن فسنعرض عدة امثلة من عناصر المرض فى الثقافة، ونستشهد بثقافتنا الإس لامية لأنها أقرب إلينا.

الاستسلام للواقع:

من عناصر المرض الاستسلام للواقع اعتقادا ً بانه افضل ما كان يمكن حدوثه ذلك لأن هذا الاستسلام يميت التحفز البشرى نحو التطوير.. وتطلعه نحو حياة افضل، وبالرغم من ان الاعتراف بالواقع من مظاهر الصحة فى الثقافة، فإن الرضا به من أسباب المرض.

ولكى يكون الاعتراف بالواقع مظهراً صحياً فى ثقافة الأمة، لابدّ ان يتم بمساوئه ومحاسنه جميعا.نؤمن بسيئات الواقع لأنه الخطوة الأولى لتغييرها، ونؤمن بحسناته لأنه بدون هذا الإيمان نسقط فى بؤرة الياس حتى الاذقان، وكثيرون اولئك الذين تعمى فيهم عين الرضا فلا يبصرون سوى السواد والظلا م، ولا يشعرون بغير القلق والياس، هؤلاء الرجال يفقدون القدرة على تطوير الواقع، لأنهم فاقدون للأمل بذلك.

بين الخوف.. والرجاء

لذلك، فإن الثقافة الحقة هى التى تعترف بالواقع كله؛ حسناته وسيئاته، لتجعل الإنسان فى محور الخوف والرجاء، وتدفع به قدما ً إلى القمة. وفى توجيهاتنا الدينية نجد هذا الحديث: .. قال أمير المؤمنين على 8: ألا أخبركم بالفقيه حقاً؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.قال: من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يرخص لهم فى معاصى الله .وغريب جداً ان يفسر فريق من الأمة بعض مظاهر الصحة فى ثقافتنا بطريقة تتحول إلى عوامل المرض.

1. فمثلا ً: الشكر لله عمل شريف وواجب، وخلفية الشكر الإيمان بما فى الواقع من عناصر إيجابية، ويحتوى على شحنة كبيرة من الأمل بجانب شحنة مماثلة من الخوف، إذ انه يجعلك تعتقد ان النعمة المخولة إليك قد تزول عنك فيما إذا قصّرت فى أداء حقها، كما أنها تزداد إذا أديت حقوقها.. وهذا التوجيه افضل وسيلة ثقافية تفك طوق الياس عن الفرد من جهة الإيمان بوجود النعمة له وتحصنه ضد الترهل من جهة الاعتقاد بانه ستزول عنه النعمة إذا قصّر فى حقها. ولكن هذا الشكر يتحول إلى عنصر سالب فى الثقافة عند فريق من أبناء الأمة، إذ أنه أصبح لديهم وسيلة للاستسلام للفساد.. والخنوع للظلم وذلك بتركيز النظر إلى الجوانب الإيجابية فى الواقع دون التفكير فى الجوانب السلبية منه. من هنا جاءت أمثالهم الخانعة تقول: اليد التى لا تستطيع أن تقطعها قبلها .

إن هذه النظرة إلى الشكر بعيدة جداً عن النظرة الواقعية التى دعا إليها االا سلام. فالقرآن الحكيم يقول: اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ M (سبأ 13)، إنه يدعونا إلى العمل (شكراً) لا إلى الكسل (شكراً)، وهو أروع صيغة للشكر إذ أنه تركز على أهم عناصره وهو العمل.

الصبر على المكاره

2. ومثل ذلك الصبر، إنه يعنى احتمال الصعوبات التى يحتاج إليها الجهاد و لا يعنى بحال، الخنوع للأذى، وانتظار التغيير الطبيعى. الصبر هو تربية عالية على التضحيات الضرورية من أجل التقدم..الصبر عنٍ الرغبات المستعصية حتى تبلغ النفس تطلعاتها الكبرى، وليس الصبر عملا ً سلبياً، يعنى الانتظار الجبان للمستقبل الأفضل. N إِنّ اللّه لا يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ M (الرعد 11).

والتوجيه القرانى يضع الصبر فى موقعه المناسب على صعيد الثقافة الحية فيقول:

N يَآ أيّها النّبِىُّ جَاهِدِ الكُفّارَ وَالمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ

المَصِيرُ M (التحريم 9)..إن الصبر هنا يعنى تجاوز الصعوبات التى تعترض مسيرة الجهاد البنّاء ولا يعنى حسبما يتصوره الجاهلون التسليم والرضا لنواقص الحياة، ومساوئه. كلا، إذ أنّ الله سبحانه قدر وقضى.

النظام سنة الحياة

3. والإيمان بالقضاء والقدر وجه صحى آخر لثقافتنا وهى تعنى؛ عقلانية قرارات الفرد ضرورة بالغة الخطورة لقدرته على التقدم ولن يكون الفرد عقلا نى القرار إلا ّ بالإيمان بعقلانية الكون المحيط به. فالإيمان بوجود نظم كونية، هو الخطوة الأولى لمعرفة هذه النظم ثم توظيفها فى خدمة الأهداف. ارايت الذى يزعم فوضوية دولة، هل يمكن ان يفهم ضرورة تقيده بنظامها؟ اجل الذى يؤمن بوجود دستور منفذ فى دولة يعرف انه لن يتقدم إلا ّ بتطبيق ذلك الدستور.

كذلك الإيمان بأن الحياة ذات سنن متقنة يجريها رب قدير حكيم.. فإنّه يجعلنا نفتش عن تلك السنن، ونعمل وفقها في سبيل الحصول على أهدافنا.

فهم خاطىء

وبالتالي يجعلنا عقلانيين فى قراراتنا.. فالإيمان بالقدر والقضاء جزء من حضارة الإنسان، وعامل فى سبيل تقدمه، ولكن تلقى الأمة لهذا الإيمان بشكل معكوس تماما ً.. عاد مبررا للتقاعس، وطريقاً إلى الهروب عن تحمل المسؤوليات، فترى احدهم ينام على امل الخير الذى يرجو ان يزجيه له القدر، ويستيقظ من خوف الشر الذى يستبطنه له القدر. فأين الإرادة وأين السعى، وأين قوله سبحانه:Nوَأَن لَّيْسَ لِلإنسان إِلا ّ َ مَا سَعَى = وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى = ثُمّ يُجْزَاهُ الْجَزَآءَ الأ َ و ْ ف َ ى M (النجم39-41)لاحظوا (الا ما سعى) والسعي عملية إرادية هادفة، دونها ليس له من الأمر شيء أليس كذلك؟ فلماذا نعكس في تفسير الحقائق؟

إن التوجيه الثقافى الخاطىء هو الذى يحول فكرة القدر من عامل موجب إلى عامل سالب، ثقيل الارادة، ويكبت الحرية ويحوله من سبب للعقلانية فى القرار إلى سبب للطوباوية والفوضى. وهكذا تكون الثقافة الإسلامية عاملا بنّاء فى سبيل البناء الحضارى ولكنها تنقلب عند الأمة المريضة إلى عامل س الب ضد كل بناء حضاري.

نهاية الثقافة عند أزمة التطور

والمرحلة الرابعة للثقافة..هى النهاية، حيث تخرج الثقافة من مسرح الحياة نهائيا وتبدا الأمة بحثها عن البديل وهنا تنتهى ازمة التطور هذه التى تعصف اليوم بالبلاد الإسلامية، ولهذه الأزمة جذور عميقة يجب البحث عنها حتى نعالجها معالجة تامة، واهم جذورها فقدان المقياس الذى يميز الصحيح من

السقيم ويوصي بنبذ السقيم؛ هناك يتارجح الشخص بين اقصى اليسار واقصى اليمين ويبدأ الاختلاف العريض.

فالبعض يقول: إنه لابدّ من الثورة الجذرية الشاملة، ويريد منا التحول فجأة بعملية مسرحية تشبه عملية تحول الحطب إلى رماد، وفريق يقول بل الحطب خير من الرماد.. وبين الحطب والرماد نلقى حيارى مفتقرين إلى المنضدة التى تأتي بإصلاح الحطب لا بإحراقه، ولا بإبقائه على حالته.

التطور مسيرة لا توقف

فالتطور إذن مسيرة لا توقف. فهل يستطيع أحد أن يسمر الفلك لكى لا يدور بالحياة، هل بقدرة احد ان يامر الشمس بان تقف، ولا تعطى البذرة الراقدة فى ضمير الأرض النور والدفء وتحولها إلى حقل زاهر؟ كذلك هل بإ مكاننا ان نقول للأجيال القادمة قفوا ولا تكبروا ولا تريدوا لأنفسكم حقوق الحياة الأولية، ام نمنعهم عن اكتشاف وسائل جديدة للعيش افضل من وسائل ابائهم، كما وجد اباؤهم ما هو افضل من ذى قبل؟ إن هذه جميعا ً سنة الحياة ولن تجد لسنة الله تبديلا ً.

والدين الإسلامى يبعث الإنسان نحو التطور ومواكبة سنة اللّه فى الأرض، ويبارك فى التغيير الصالح فى كل شىء، ولكننا مع ذلك ترانا نعادى التطور. فلماذا؟ الحقيقة ليس ذلك لأنّنا لا نحب ان نرى بلادنا مزدهرة ينعم فى ظل نعيمها ابناؤنا القادمون، ولا لأتنا لم نعرف أن الشمس تجرى ولن توقفها إرادة بشر أمثالنا وإن التطور سنة لا تبدل.. لا لهذا ولا لذلك يمنع التطور إنما لواحد من عاملين:

أولهما: الهيبة؛ نحن لا نعلم ماذا وراء الاكمة، فنحذر منها ونتقى من تسلقها. حتى اليوم تعودنا على ركوب الحمار ولكن نخشى لو استبدل الحمار بالقطار أ ن يحدث أمر مكروه، فنفضل القديم بالرغم من روعة الجديد..

وثانيهما: إن قوى كثيرة فى بلادنا تعيش اليوم على نمط الحياة القديمة، وتخشى لو تطور هذا النمط ان تتاثر مصالحها به؛ وصحيح ما تخشاه، إذ انّ التطور سوف يقضى على مصالح فريق من الناس، ولكن بشرط واحد هو جمود هذا الفريق على القديم، اما إذا تطور هو ايضاً مع موكب الحياة لما تاثر شيئا ً. فعمال النسيج فى أوروبا تأثرت مصالحهم حين اكتشف المحرك البخارى، ولكن بمجرد أن تطوروا زادت أجورهم اضعافا. والنظرة السطحية فقط هى التى تجعلنا نزعم ان التطور يضر بنا، كلا إنما ينفعنا بشرط ان نعرف طريقة استثماره.

الانطلاق من قيد التقليد

ولكن كيف يمكن التطور؟ إنما يمكن ذلك بعد الإيمان بان تصحيحاً ما لابدّ ان يجرى فى الإنسان نفسه باعتباره العامل المسؤول عن التغيير، ولكن هل

يتسنى للنفس ان تصبح مغيرة واقعا دون ان تفقه ضرورة التغيير الذى يستوجب الإبداع أيضاً، إذ ما من فاسد يزال ألا وهو بحاجة إلى صالح يخلفه. ومشكلة النفس انها لا ترتفع إلى مستوى الابداع، وإذا لم ترتفع إلى مستوى التغيير الحقيقى وتنعكس هذه المشكلة على واقع الأمة الإسلامية حيث لم تستطع ان تبدع حتى وعلى ابسط صعيد، فامهاتنا اللاتى كن يشكين من تعب الظهر كلما كن يكنسن الغرف ب(المكانس) اليدوية لم يستطعن أن يبدعن فكرة إيصال عودة إلى (يدة المكنسة) حتى يقمن بالكنس وهن قائمات، بل انتظرن قروناً طويلة حتى جاء الغرب ليعلمهن ذلك. وكذلك فى كافة شؤوننا الحيوية الملحة، لم نرتفع إلى مستوى الإبداع نفسياً بالرغم من اننا كنا ذوى كفاءة عقلية كاملة.

والإنسان الذى يركن إلى ظل التقليد من المستصعب عليه ان يقلع عنه، وحتى ولو استهدف تطوراً فى حياته يروح يبحث عمن يقلده فى هذا التطور.

التقليد في التطور

وأبسط مثل لهذه الظاهرة الأصيلة فى الإنسان المقلد وهى ظاهرة التقليد فى التطور ، نجد أبسط الأمثلة لها فى حياتنا الراهنة، حيث صممنا على التطور ولكن التطور على قياس المقلدين لا على قياس المغيرين، فتورطنا فى متناقضات عديدة.

أولها: إن الغرب أبدع عدة مناهج ثم اصطلح أخيرا على التمسك ببعضها.. كالمنهج الديمقراطى والمنهج الاشتراكى، وكانت ظروف كثيرة قد اوجبت هذا الاختيار فجاء فريق من المسلمين وانبهروا بهذه المناهج المختارة دون ان تكون لديهم ذات الظروف التي كانت في الغرب.

فمثلاً فى الغرب: كانت الأحزاب قوية، والوعى الوطنى شاملاً، ونسبة الأمية منخفضة، ووسائل الإعلام متوافرة بحيث سمحت للنظام الديمقراطى بالسيادة دون إحداث فوضى فى البلاد، غير ان ذات الإمكانات فى بلادنا لم تكن متوفرة، لهذا راينا كيف فشلت النظم الديمقراطية المقلدة فى بلادنا كما يسقط الحائط الذي لا أساس له.

وأيضاً فى الغرب: حدثت أزمات متضاربة لأسباب تأريخية، انتقلت (ظاهرة التقليد في التطور) إلى بلادنا عنوة وزوراً.

إنها الأزمة بين العمل والراسمالية التي ادت إلى انواع متطرفة من الاشتراكية، هذه الأزمة كانت نتيجة طبيعية لمجموعة عوامل ابرزها التضخم الراسمالى فى الغرب ممّا سبب مظالم كثيرة للعمال انفجرت فى الثورات العمالية وأدت إلى قيام أحزاب اشتراكية متطرفة.

ولكن هل فى الشرق الإسلامى راسمال، ام هل فيها عدد ضخم من العمال، ثم هل هناك من مظالم تلحقهم؟؟ هذه الأسئلة لم يفكر فيها اولئك الذين قلدوا

الغرب فى هذه المناهج، لأن (ظاهرة التقليد فى التطور) لم تدع لهم مجالا للتفكير.

الأزمة بين الدين والعلم

وهناك الأزمة بين الدين والعلم، ورجال الكهنوت والمثقفين، تطورت هذه الأ زمة فى اوربا بفعل الطلاق الدائم الذى كان بينهما هناك، ممّا حدا برجال الدين إلى الوقوف بصلابة ضد العلماء.. وحدا بالعلماء إلى تبنى مذاهب متطرفة تجاه الدين، هذه الأزمة انعكست ايضاً على دماغ المقلدين عندنا فحاولوا تفجيرها فى مذاهب مادية، ولكن هل كانت لدينا ازمة تسمى بازمة العلم و الدين؟ كلا..إن الإسلام لم يقف فى أى يوم ضد العلم ولا وقف العلماء عندنا ضد الإسلام. فلم يكن لدينا ما يبرر هذه الأزمة المفتعلة. وفى الغرب أيضاً كانت هناك حاجات الحت على الإنسان المبدع فابتكر عدة وسائل لإشباعها، ولكن عندنا لم تكن تلك الحاجات موجودة إنما حاولنا تقليد الغرب فى إشباعها فأصابتنا التخمة. فما هى الحاجات وما هى وسائل إشباعها؟ الحاجة إلى السرعة وتقدير الوقت عبرت عن نفسها باختراع وسائل السير السريعة.

وتطوير اختراع الساعة، ونحن استخدمنا الوسائل، ولكن ليس لإشباع حاجة إليها شددنا الساعة على ايدينا ونظرنا إليها بين لحظة واخرى لكن دون ان نحاول ضبط المواعيد بها، وربما كنا اكثر اهتماماً بها قبل اختراع الساعة حين كنا نتمسك بقول الرسول X: المؤمن إذا وعد وفى [1]. واستقلينا السيارات وامتطينا اسرع الطائرات، ولكن حينما وصلنا إلى غايتنا لم نقدر الوقت، بل اهدرناه فى المسليات، وارتخينا وراء مكاتب عملنا ننتظر نهاية الدوام.

إن وسائل العيش مرتبطة بأهداف الإنسان. وأزمة البلاد النامية، إنها تستخدم الوسائل لغير أهداف محددة وهى أزمة التطور على شاكلة المقلدين. إن هذه بعض النظرات الخاطفة التى تلقى ضوءا كاشفا على بعض مشاكلنا الثقافية.

معالم الثقافة السليمة

اولا الأصالة

مقدمة في التسليم

وفى كل ذلك دلالة على ان الحق هو الشىء الوحيد الثابت فى هذا الكون، فكل شىء يفنى، ويتلاشى، والذى يبقى هو وجه اللّه الكريم، ومن ضمن مصاديق وجهه الكريم السنن والحقائق والبصائر، وفى سورة الحج يحدثنا القران عن العلم والثقافة وعن بصائر الإنسان التى تهديه الطريق، ولكنه يبدا بداية صاعقة عنيفة فيقول: N يَآ أيّها النّاسُ اتقوا رَبّكُمْM (h1)، فلابدّ أن تنمو فى نفوسنا روح التقوى والحذر والتحصن من المزالق والاخطار لك تمنع عنا هذه الروح عذاب اللّه الشديد: Nإِنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌM (h1)

وحينما تهتز هذه الأرض التى كنا نعتمد عليها ونثق بها ماذا يبقى؟، العلا قات التى بنيت على هذه الأرض سوف تتزلزل كما تزلزلت الأرض، لأن هذه العلاقات هى علاقات التراب، علاقات الأرض، فالأرض على سعتها، واستقرارها سوف تهتز وتميل فكيف بتلك العلاقات التى انبعثت منها، ولكى يضرب اللّه تعالى لنا مثلا ً قريبا ً وواضحا ً يجسم لنا علاقة الأم برضيعها التى هى أعمق وأبلغ العلاقات: Nيَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَاM (h2) فهذه العلاقة الوثيقة سوف تتفكك رغم أن مسؤولية الأم تجاه حملها هى أعظم المسؤوليات , لأنها تحس بهذه المسؤولية أكثر من إحساس الآخرين باية مسؤولية اخرى، ومع ذلك فإن هذه الأم سوف تضع حملها فى ذلك اليوم. فالإنسان سوف يتحلل فى يوم القيامة من كل ارتباط بينه وبين الآخرين، وبينه وبين الطبيعة، ليتخفف، وبالتالى يكون بمستطاعه حسب تصوره الهروب، ولكن إلى اين؟ وهل يمكن الفرار من حكومة اللّه؟، الأ رض كلها سوف تتزلزل، والجبال تندك، والسماء تصبح حمراء كالوردة الدّهان، اى سوف لا يعود بإمكانها حفظ الإنسان من الأشعة والنيازك، سوف لا تبقى سقفا ً محفوظا ً كما هى اليوم لأن الكون كله سوف يتحول ويتغير. ثم يستأنف تعالى قائلا ً: Nوَتَرَى النّاسَ سُكَارَىM (2/h)، ومن المعلوم أن الإ نسان يزداد جدية وحكمة ورؤية للحقائق فى حالة الخطر لأن الألم يزيد من الوعى، فالإنسان حينما يتالم يقترب من الحقائق، ولكن الألم يوم القيامة شديد إلى درجة أن الإنسان لا يستطيع ان يركز ذهنه، فالخطر اكبر من حجم تفكير ا لإنسان، والسكر هنا ليس هو الانتعاش والنشاط والحيوية، وإنما هو سكر الهروب من العذاب، والتحير فيما يقع فيه الإنسان. فعلينا إذن أن نسعى فى

هذه الدنيا لنحصل على الامن في ذلك اليوم، وطريق الحصول على هذا الامن يتمثل فى ان لا نعبد الأفكار الجامدة، ولا نجمد على مجموعة من القناعات التي لا نعرف مدى صحتها.

العلم الحق سبيل تحصيل الثقافة

ان هذه الآيات تحدثنا بشكل مباشر عن العلم، وعن ضرورة البحث عن العلم الحق، وعدم الاقتناع ببعض الأفكار الجامدة غير المقطوع بصحتها: Nوَمِنَ النّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللّه بِغَيْرِ عِلمٍ وَيَتّبِعُ كُلّ شَيْطَانٍ مّرِيدٍ... M (3 h)، ومن هذه الآيات وغيرها فى هذه السورة نستوحى ان هدف القران هو ان يجعلنا نلتصق بالعلم والعقل والثقافة الحقة، وان لا نسترسل مع الاهواء والشهوات و القناعات المغلوطة التي اشبعتنا بها بيئتنا، ومجتمعنا، والتي بقينا ندور فيها.

ومن امثلة هذه القناعات المغلوطة هو اننا نجد بعض العوائل تقلد مرجعاً ما منذ مائة وخمسين عاماً، أى: إن جدهم الاعلى كان يقلد المرجع الفلانى وهكذا توارثوا هذا التقليد كابراً عن كابر، فى حين ان التقليد هو علاقة مباشرة بينك وبين من تعرفه، فعليك ان تعرف عن كثب دينه وإخلاصه وفقهه واجتهاده وزهده وتقواه، وبالتالى ان تعرف بالضبط ان هذه الشروط متوافرة فيه بشكل كامل، وهذا هو المعنى الحقيقى للتقليد، وهو يجعلك يوم القيامة صاحب حجة أمام رب العالمين بشأن من تقلده.

وفي الواقع حينما تتجلى الحقائق يتبين لنا ان الأنماط الثقافية الشائعة في اوساط الأمة هي بحاجة إلى إعادة النظر، فالثقافة هى مجموعة الأفكار المؤثرة في سلوك الإنسان حسب ما يقوله علماء الاجتماع، وهى ذلك العلم، وتلك المعارف التى تتصل اتصالا ً مباشراً بحياتنا، وسلوكنا، ومواقفنا، وكل اختلاف بين الناس فى هذه المجالات إنما هو ناجم من طبيعة ثقافتهم، ف الثقافة تصنع المواقف الستراتيجية، وسلوك الإنسان.

ولكن ما هي ملامح الثقافة السليمة؟

إن الجمع بين تراث الماضى وبيئة الحاضر ليس عملية سهلة يقوم بها من يشاء، بل إنها عملية معقدة يستطيع القيام بها كل من استطاع ان يعرف روح الماضى وآلية سير الحاضر. ومن هنا تبدو صعوبة هذه المهمة، لأن الإنسان قد يتمكن من استنتاج الأفكار من الحاضر فقط ليستصدر بالتالى احكاما لهذا الحاضر وانطلاقا منه ، لكنه لا يتمكن من وضع الحلول لهذا الحاضر انطلاقا من الماضى، خصوصا وأن هؤلاء يزعمون أن الدين ماضى . ولأجل هذا السبب فإن وظيفة المفكر المسلم هى وظيفة صعبة تبعا ً للفكرة المتقدمة، لأ نه مكلف ببناء مواقف فكرية لظروف جديدة، اعتمادا على خطوط عريضة وضعها الدين. وصعوبة هذه الوظيفة تنبع من قدرة المفكر على اتخاذ الموقف الفكرى لوضع ما، وهو ما يسمى بالتناسب والانسجام. ذلك لأن ظروف الزمان المتغيرة تتطلب مزيدا من إدراك السنن والقوانين حتى يتمكن من الجمع بين الماضى والحاضر. ولكى ندخل فى رأى السيد المرجع حول موضوع الأصالة،

نشير إلى ان تيار الحداثة والتجديد يمكن ان يكون مناسبا لو استطاع ان يلتزم بمعرفة أصول الدين، ومن ثم تطبيق الفروع عليها.أما إذا تجاوز وتعدى على الأصول بحجة تيار الحداثة والتجديد،فإنه سوف يجد نفسه بالاخير في خط مناقض تماما لما بداه. وهذا بالضبط ما يسمى بمرض فقدان الأصالة. والأصالة تعنى أن يرجع الإنسان في حياتة إلى اصول وثوابت اعتمدها مسبقاً، وتعهد على أن لا يتجاوزها. والأصول بالنسبة لنا نحن كإسلاميين هي الأصول التي وضعها الإسلام كدستور وكمنهج يتبعة المسلمون في كل زمان ومكان. وللتوضيح اكثر، هى القواعد التي ينبع منها كل حكم شرعى او توجية اخلاقى ديني وتكون بمثابة محاور وأوتاد تقام عليها شرائع الدين واحكامه.. لكن المشكلة بالنسبة لمن يزعمون انهم ماضون فى مسيرة الحداثة، هى ان تطورات الزمن توحى لمن لم يتشبعوا بروح هذه القواعد والأصول، بان الفكر الإسلامي بحاجة الى عملية التقاط من الفكر المعاصر. ولسان حال هذه الدعوة أن الدين هو دين الماضى، ولابد من تجاوزه والاعتماد على اتجاهات فكرية حديثة العهد. وسوف نذكر هنا نموذجا واحدا فقط، وهو مثال طه حسين الذي كتب كتابا أثناء معاهدة والتي أعطت بموجبها بريطانيا الاستقلال السياسى لمصر بشرط ابقاء قاعدة عسكرية فى قناة السويس، وهذا الكتاب باسم مستقبل الثقافة فى مصر ، وكانت دعوته فيه الى التغريب والتمثل بالغرب واضحة جدا. فهو يركز فى كتابه على أن الإنسان المصرى والعربى يجب ان يحكم على الأشياء كما يحكم الغربى عليها، ويراها كما يراها، ويفهمها كما يفهمها، بل ويدافع عنها ايضاً بنفس الطريقة التى يدافع بها.. وتطور فى نظرته تلك حتى قال: إن مصر قطعة من أوربا. وهو بذلك يريد ان يفصل مصر عن التاريخ الإسلامى عن سابق إصرار وتعمد، ليلبسها برداء الغرب والحضارة الغربية الحديثة. وهو يقول فى ذلك: لا عودة إلى النظام القديم الدين والإسلام الذى كان سبباً من اسباب التخلف و النكوص.. ولهذا فقد عاهدنا الغرب على مجاراتة والسير معه فى طريق الحضارة الحديثة .

وهكذا نشا فى الوطن العربى هذا الخط، وتشكل فى بلاد عديدة وتحت رايات متعددة متناسية اصالة الفكر التي يجب ان يتمتع بها المفكر المسلم حتى يستطيع ان يستنبط ما هو الحكم الدينى والشرعى لأى مسالة متجددة، اعتماد منه على روح الدين وعلى قواعده العامة.. وإلا فإن مصيره سوف لن يكون افضل من الكثير من المفكرين الذين سقطوا فى هذا المطب امثال خير الدين التونسي رفاعة الطهطاوي والكثير من المفكرين المعاصرين.

السيد المرجع ادرك هذا المطلب، ولذلك سعى سعياً حثيثاً منذ بداية عهده بالدين وبالثقافة الإسلامية الى ان يرتبط بما هو الأصل فى الدين، حتى يتسنى له الانطلاق منها إلى باقي الأمور الأخرى دون تجاوز منه إليها. ولأجل ذلك فقد اعتبر سماحته ان هذه الأنماط المتغربة خاطئة، لأن تعاليم الإسلام لم تترك شاردة ولا واردة إلا وأعطت فيها حكماً وروية.. فهل يمكن لهذا الدين الذى وضع لنظافة الانسان ثلاثاً وثلاثين توصية إسلامية ان يتغافل عن الأمور

التي لها تاثير كبير على الدين والمجتمع؟

بالطبع كلا.. وهذه الإجابة هى التى تدفعنا إلى ضرورة إدراك القواعد، لكى ننطلق منها إلى كل أمر. وكإشارة بسيطة إلى ذلك نعتبر أن فلسفة الاجتهاد هى من اهم ابواب الإسلام العصرية، ودلالة على ان الإسلام يطالب الفقيه باستنباط الأحكام من الأدلة والقواعد الشرعية. وتاكيدا ً لهذا الأصل يقول السيد المرجع : إن الاستلهام من الدين يشكل القاعدة والمنطلق والأص الة، والتفتح على الحياة يشكل المسير والتفاعل.. فنحن إذن بحاجة ال ى تاصل وهذه المرحلة نحاول فيها استيعاب الفكرة الحضارية التى تتمثل في الدين الإسلامي إيمانا وعلما

ويقول في مكان آخر: إن مسألة الأصالة والتقليد ترتبط ارتباطا وثيقا بحدود دقيقة وغامضة بين ما يجب أن يبقى وبين ما يجب أن يطور، وبالتالى بين القضايا المتعلقة بالقيم الثابتة التى لا يجوز التنازل عنها تحت ضغط أى ظروف من ظروف وبين التقاليد البالية التى لصقت بها فى غفلة من الوعى أو القضايا التى كانت صالحة فى يوم ثم أصبحت من مخلفات العصور الأولي .

ويضيف سماحته قائلا: Σلأجل ذلك ليس من حق كل من هب ودب أ ن يعين هذه الحدود الدقيقة، لأنه بحاجة الى معرفة شاملة بالعصر ومتغيراته من جهة، وبالدين القيم الثابتة منه والمواضيع المتغيرة من جهة أخرى .

ولكى ندرك اصالة الفكر التى يوليها السيد المرجع اهتماما بالغا، لابدّ من ملا حقة الثوابت التى يعتمدها فى عموم رؤيته الفكرية، وتوجيهاته الثقافية، وتا ليفاتة المطبوعة. وبعد التتبع والمدارسة يمكن لنا إذا اردنا الحديث عن الأص الة أن نراها متجسدة في ثلاثة أمور:

الامر الأول: القرآن المنطلق

القران الحكيم بالنسبة لنا نحن المسلمين ولعلماء الدين بالاخص، ليس كتابا عاديا يقرأه الإنسان كما يقرأ القصص والروايات.. بل إنه كتاب دين ورسالة حضارة ودعوة للحياة الكريمة، ولذلك يعتبر القران خلاصة الدين وجوهر رسالة الله سبحانه وتعالى للبشر.. ولعل الآية الكريمة فى سورة الأعراف فيها إشارة واضحة إلى ذلك: هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ 302الاعراف.

أى: إن القران الحكيم هو أداة التبصر والية الهداية، ولذلك نجد تعاليم الإسلام توصى بقراءة اياته وسورة دائما ً، للاستفادة منه فى كل شى ء. ولا يقصد بهذا التوجيه للقراءة للبركة فحسب، على ما لذلك من ثواب كبير، وإنما يوجد لذلك هدف أكبر وأعمق، إن تلامس توجيهات القران الإ

نسان ملامسة معنوية يتفاعل معها ويطبقها على نفسه قبل إن يدعو الآ خرين للالتزام بها. وبهذه الصورة كما يقول السيد المرجع يكون القرآن كمثل الشمس تشرق كل يوم لتعطى افاقا جديدة ورونقا آخر لحياة الإ نسان اليومية، لأن أهم ما يقول به القران هو إعطاء الإنسان عقلا ً راشداً ووعيا ً متجدداً لما يدور في نفسه ولما يدور حوله.

لكن للأسف لقد تعامل المسلمون مع هذا المصدر الثر بجميع الافادات، سواء على صعيد الروح أو على صعيد الثقافة وغير ذلك، تعاملوا معه بصورة غريبة لا تليق مع مقام هذا المصدر الكبير. فبعضهم هجر القرآن هجرانا كبير، وبعضهم تفاعل معه للترنم بآياته وبقراءاته السبع أو بتجويده. وإذا زاد هذا التفاعل ارتبطوا به في أوقات محدودة للأزمات أو الأموات. وهكذا تجاهل الكثير أهميته الحقيقية في حل كافة المشاكل البشرية، وعوضوا عنه بتعامل آخر يعتبر سطحيا ً أيضا ً، لكنه يختلف عن المظاهر التي ذكرناها قبل قليل. فصاروا يتعاملون مع القران على أنه حروف بلاغة لا كمعاني، أو على أنه مصدر للأدب العربي لا كتوجيهات وروح مفعمة. وإذا تطور بعضهم أيضاً تراه يجعلة مفتاحا ً لبعض العلوم الحديثة كالتاريخ والاجتماع والوراثة والبلاغة، بل وحتى البيئة أيضا ً، لكنهم يفصلونه عن السلوكيات التي ينبغي أن يتطبع بها الإنسان ويتحلى بها.

إن عظمة القران تكمن في أنه يحتوي على كل هذه الأمور المتقدمة، بل واكثر، لأنه كتاب رسالة ودعوة لحضارة إنسانية رفيعة المستوى ورائدة لكي تبني مجتمعا حيويا.

إلا أن السوال يبرز عند هذا الكلام: كيف يمكن لنا أن نستفيد كل هذه الا ستفادة من القرآن الكريم؟

التدبر.. سبيل النجاة

إن المنهج الذي يؤمن به السيد المرجع للتعامل مع القران الحكيم وا لاستفادة منه، هو منهج التدبر في اياتة المباركات، والانفتاح عليه بكل إخلاص بشرط الابتعاد عن انشدادات الأرض وافكار الهوى. بهذا المنهج يمكن أن يتهيأ الإنسان للاستفادة من النور الذي يتجلى بين دفتي الآيات القرآنية. إن التدبر برأي السيد المرجع يعطي للإنسان فرصة كبيرة لفهم روح القرآن الحكيم. والتدبر يختلف اختلافا جذريا عن التفسير بالرأي، ولهذا دعا إلى ه القرآن بقوله: أَفَلا َ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أم عَلَى قلُوبٍ أقفالُهَا 42محمد.

وحتى يتوضح الخلاف بين الأمرين، فإن السيد المرجع يضع عدة برامج لتحقيق هذا المنهج، والاستفادة منه تكون عبر الأمور التالية:

1. إن الهدف من التدبر في آيات الذكر الحكيم، تكوين شخصية متكاملة ا لأبعاد لدى المتدبر، يكون قوامها تحديد طرق بناء الشخصية المؤمنة وكل ما هو مشروع شرعا.

2. التدبر في الآيات القرآنية يعني تفكير منطلقا وموضوعيا في معنى الآ يات الحقيقية.هذا في الوقت الذي لا يعدو فية التفسير بالرأي عن كونه اختلا قا لمعنى جديد للآية على هيئة الجبر والتركيب القسري. والفرق بين هذين المنهجين على ضوء ذلك، هو ان التدبر مطلوب بنص اية قرانية، بينما التفسير بالرأي محرم بنص روايات متعددة.

3. إن محور التدبر في الآية يعتمد على البحث عن القوانين العلمية التي تكفلت آيات القران بتوضيحها، وبعد ذلك يمكن استنباط مناهج تربوية صاغتها الآيات الكريمة، بمعنى ان الآية تحتوى على ظواهر تربوية تعبر عن باطن علمي تختبي في ثنايا الآيات القرآنية.

4. يقتصر التدبر في حقائق القرآن إلى الحد الذي يصل إلى فهمها فكر المتدبر فيما يسمى بالمحكم، اما ما لا يفقهه المتدبر فيجب عليه تركه حتى يفقهه، ويسمي هذا النوع من آيات القرآن بالمتشابه.

الأمر الثاني: التاريخ

قراءة التاريخ ليست اطلاعا على احداث تاريخية وقعت في الماضى فحسب، بقدر ما هي قراءة توثر في الحاضر والمستقبل. ودراسة التاريخ بـ النسبة لنا نحن المسلمين يعنى قراءة العصر الذى عاش فيه المسلمون مع ملا حظة حالات المد والجزر الذى حدث خلال هذه الفترة الطويلة، تبعا للظروف القاهرة التي حدثت في الأمة وجعلت الزمن لا يسير بوتيرة واحدة، وإنما بشكل مختلف تبعا للأحوال والظروف.

وعلى ضوء اختلاف هذه الحالات، نشات عدة طرق لدراسة التاريخ الإسلا مي، يهمنا هنا أن نذكر نوعين من هذه القراءات:

النوع الأول: قراءة التقديس. يعتمد أصحاب هذه الطريقة على إلغاء دور العقل، وأخذ كل ما جاء في التاريخ وحيا منزلا أو بديهة مسلمة. وأكبر خطأ في هذه الطريقة هو انها تاخذ الغث والسمين فى ان واحد، ولا تجتهد فى التمييز بينهما من أجل التوصل إلى الحقيقة. ومن المعروف أن كل تراث يحتوى على الصالح والفاسد، لأن طبيعة الدنيا جارية على هذا الخلط. ومن جهة أخرى لوجود بعض المصالح التى تدعو بعض الاتجاهات إلى تزييف بعض الحقائق التاريخية، فتسرى في المجتمع على أنها حقائق لا غبار عليها.. وهذا ما يدعونا إلى عدم تقديس كل ما ذكر فى التاريخ، بل التعامل معه بموضوعية كاملة حتى تتسنى الاستفادة منه.

النوع الثانى: قراءة التجزىء. وأصحاب هذه الطريقة يعتمدون على قراءة لون واحد من الوان التاريخ، ووجه واحد من وجوهه. وهذه القراءة فى مستو

ى خطورة الأول ان لم تكن اخطر، لأنها تصور التاريخ للحاضر وكانه سار بوتيرة واحدة وفى اتجاه معين. ممّا يعنى بالبداهة أن الحاضر يجب أيضاً أن يتقمص هذا اللون، وهذا الوجه من التاريخ. وكمثال على ذلك نذكر اصطباغ تاريخنا بالماساة والانحسار، ولذلك فإن كل ما كتب طوال فترة مديدة من الزمن كان يدور مدار الويلات والمآسى التى مررنا بها.. دون ذكر أى انتصارات حققناها أو أدوار رائدة قمنا بها. فيكون خط الحاضر على ضوء هذه الدراسة الأخذ بلون معين والسير على هداه.هذا فى الوقت الذى يجب أن تكون فية دراسة التاريخ شاملة لكل وجوهه، لا لوجه واحد من وجوهه.

إذا تمت دراسة التاريخ بهاتين الصورتين المتقدمتين، فإننا سوف لن نتمكن من ربط التاريخ بالحاضر ربطا سليما للاستفادة منه، بل وإذا استفدنا منه، سوف تودى إلى تكريس الواقع المتردى فى الأمة. وهذا يخالف الأهداف الأساسية التى يؤملها السيد المرجع من دراسة التاريخ، والتى تتجلى فى ما يلي:

الأول: إن دراسة التاريخ تعنى فهم الواقع المعاصر، ذلك لأن الاحداث الظاهرة التى تقوم اليوم ليست وليدة ساعتها، وبالتالى فإنها ليست يتيمة الجذور، بل إن لها جذور طويلة ممتدة فى عقود من الزمن، بل وأكثر. وهذا ما يجعل من الأهمية بمكان قراءة التاريخ وأدراك سننة وقوانينة، حتى نستطيع أن ننظر إلى الحاضر متناغما مع سيرة الماضى، ذلك لأن هناك نقاط تشابه والتقاء كثيرة بين العصور. وهذا هو الذى يكشف لدارسى التاريخ الأسس والقواعد التى تهيىء لاستصدار أحكام تنسجم والواقع الراهن. ومن هذا المنطلق نشأت المقولة الشهيرة التاريخ يعيد نفسه .

الثانى: التنبؤ المستقبل يتم بعد دراسة الماضى واستيعاب الحاضر، لأن المستقبل ببساطة هو نتاج الماضي والحاضر معا.

السيد المرجع تفاعل مع التاريخ تفاعلا إيجابيا لا جامداً، ولذلك استطاع من خلال رويته المتوازنة والمتطورة للتاريخ أن يؤكد على الأ صالة مفهوما والتزاما ينير له الحاضر والمستقبل. فهو من جهة لم يقدس التاريخ كله، ليصبح جامد عليه لا يستطيع تعدىه ما حدث إلى غيره، بل ارتبط به بكلة واستفاد منه فى حاضرة. ومن جهة أخرى لم ينسلخ عن التاريخ، لأن الانسلاخ عنه يعنى قطع الجذور، ومن يقطع الجذر يبقى معلقا ويضطر إلى ربط نفسه بأشياء قائمة لا تعطى أى اعتبار. والجدير بالذكر أن لهذا النوع من الانسلاخ أنصار كثيرين على طول وطننا العربي والإسلامي.

بهذا المنهج يدرس السيد المرجع التاريخ، وهو فى هذا المضمار أيضاً يؤكد على ضرورة الدراسة المتوازنة للتاريخ، لأن هذا النمط من القراءة لا يسلط الأضواء على الجوانب السلبية فى التاريخ فقط، بل يكشف

النقاط المضيئة فية التى تناساها الكثير سواء عن جهل أو عن عمد. وفى هذا المجال بالذات يدعو السيد المرجع إلى إجراء دراسات تحليلية لحياة الأئمّة الاطهار، وكان نتاج هذه الدعوة كتاب التاريخ الإسلامى الذى ألفه، وهو عبارة عن دراسة تاريخية للفترة ما بين 16- 152ه، اهتم فيه بالكشف عن الأدوار الحقيقية التى قام بها الأئمّة؛ ليس دور التبليغ والدعوة، وإنما منسجما مع الأدوار السياسية والاجتماعية و الثقافية. فعلى سبيل المثال لننظر إلى رؤية البعض للتاريخ الشيعى، وما هو تاثير هذه النظرة على الحياة اليومية.

لقد كانت الرؤية التاريخية لهؤلاء منحصرة في نقل تاريخ الماساة. وعلى حسب هذا النقل، كانت النظرة لكل حادثة ولكل واقعة على هذا ا لأساس. ولم يكتف هذا الصنف بذلك فقط، وإنما حاول أن يوجه كل دور من أدوار الأئمّة بهذا الاتجاه؛ فدور الإمام زين العابدين بدل أن يكون دورا ً صلاحيا ً رائد فى مواجهة أزمة حضارية قاتلة تعيشها الأمة، بد لا من ذلك أصبح دور الإمام فى نظر هؤلاء مثالا للانطواء وتبرير لعدم القيام بأى دور يذكر. وبدل أن ينظر إلى دور الإمام الصادق فى قيام بعملية هندسة وتأصيل للفكر الإسلامي الناهض، ينظر على أنه تعويض عن القيام بأدوار سياسية واجتماعية بالقيام بحركة تثقيفية أو علمية فائدتها تنشيط العقل وتشغيلة دون أن ترتبط بالواقع الاجتماعي.

إن نظرة إلى التاريخ بهذه الصورة فى نظر السيد المرجع لا تساهم فقط في معرفة تاريخ مضىء، بل إنه يخلق اتجاها فكريا تعشعش عند هذه الطائفة منذ زمن بعيد وقوام هذا الاتجاه كما قلنا اعتزال الحياة السياسية والاجتماعية والتعامل مع الواقع الراهن انطلاقا من هذا الأ صل .

إن المنهجية التاريخية عند السيد المرجع تفند هذه النظرية جملة وتفصيلا، ذلك لأن حياة كل إمام من الائمة الأطهار تسير فى إطار هداية إنسان عبر إقصاء كل الوسائط التى تمنع من ذلك. وهذا هو الجامع و ألقاسم المشترك بين أدوار الائمة كلهم فهم نور واحد، ولكن بألوان متعددة . وبهذه المنهجية تكون دراستنا للتاريخ متطورة تتفاعل مع العصر وتكرس الأصالة.

الامر الثالث: بين العقل والوحي

من المهمات الأساسية للمفكر، مهمة التوفيق بين الحوادث المتجددة وبين الخطوط العريضة للفكر المتبع؛ بمعنى اخر كيفية تحديد الحلول للقضايا الحادثة. وفى هذا المجال تبرز حيوية ومرونة الفكر الإسلامى النابعة من إيمان ه بفكرة الاجتهاد فى الأمور المعاصرة. وهذا يعنى بدوره الاعتماد على دور

العقل سواء في الفقه او السياسة او الاجتماع وغير ذلك، في إرجاع كل شيء إ لى صله.

وما يختص بحديثنا في هذا المجال، يمكن معرفتة بعد طرح التساؤل الا تي: كيف يمكن للعقل بتأديته لدورة أن يحافظ على أصالة مدرسة فكرية أو منظومة متكاملة؟

وقبل الإجابة على هذا التساؤل الهام، لابدّ من الحديث عن العقل ووظيفته ونظرة الإسلام اليه.

العقل هو ذلك النور الذى يمتلكه كل إنسان من بنى البشر، ويستطيع بواسطته أن يميز بين الخير والشر، وبين الصالح والفاسد. وهذا يعنى أن وظيفة العقل الأساسية هى الكشف بين أمور متباينة ومتشابكة. فهو بمثابة النور الذى يحمله الإنسان ليرى به الأشياء فى وقت الظلام. وهذا هو دور العقل الأساسي في الحياة أيضاً.

ويبدو ان تشغيل العقل وتوجيهه يعتبر احد الأهداف الرئيسية للرسالات الا لهية، بدلالة القول الشريف المروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب8 فبعث فيهم رسلة، وواتر إليهم انبياءه، ليستادوهم ميثاق فطرتة، ويذكروهم منسى نعمتة، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول؛ إذ اول ما تاتى الرسالة الإلهية توجة الإنسان لاستخدام كنوز عقلة ودفائنة المخبوءة تحت ركام الخوف والجهل والتردد. ومن هنا أيضاً تبدأ انطلاقة الإنسان لبناء الروح وتنمية العقل بهذا الاتجاه.

وهذه الفكرة تدلنا إلى فكرة اخرى لا تقل اهمية عن الفكرة المذكورة، وهى ان دور الوحى الأساسى اثارة العقل، ومن ثم ينطلق العقل إلى فعل كل خير، وعمل كل فضيلة. وهذا ما يراه السيد المرجع ، حيث يقول: إن عقل الإنسان كلما ازداد قربا من تعاليم الدين، سوف يكون صاحبه ارفع درجة عند اللّه عز وجل.

واعتماد على هذا الدور الكبير الذى اعطاه الإسلام للعقل، نشات القاعدة الشرعية المشهورة التى يؤمن بها كل الفقهاء بلا استثناء، وهى: كل ما حكم به العقل، حكم به الشرع .إن هذه القاعدة فى الحقيقة هى امتداد للفكرة القائلة بأن الوحى يثير العقل وينطلق هو بعدئذ لتحديد الأشياء. ولذا يقول الحديث الشريف عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم فى وصيته المشهورة لهشام بن الحكم: اكمل اللّه للناس الحجج بالعقول .

لكن هذا العقل الذى اعطاه اللّه سبحانه وتعالى هذا الدور الكبير، مر عليه ردح من الزمن أصبح فيه معطلا وجامداً. فمن جهة ترى البعض ينكر عقلة اساسا ويلغى دوره فى أى شيء، كما فعلت الطوائف الصوفية. ومن جهة يعطية بعضهم دور محدد كما فعل الأشاعرة، وترى بعضهم قد فتح له الباب عل ى مصراعيه كالمعتزلة. لكن مع الاسف كل هذه الطرق لم تعط العقل حقة فى إدارة شوون الحياة. فما هي الطريقة المثلي للتعامل مع العقل؟

إن المنهج السليم للثقة بالعقل واحكامه، هو التعرف على الحقائق باى

صورة وباي طريقة كانت، دون التقيد بمناهج معينة ومحددة اكتشفها بعض المفكرين والفلاسفة في الماضي. ذلك لأن لكل عقل اسلوبه الخاص به في الوصول إلى الحقائق، ولا يمكن لهذا الإنسان ان يمنع نفسه عن الوصول إلى الحقيقة بحجة انه لم يتبع اسلوبا معينا حددة مفكر ما في وصولة لحقيقة ما. وللتمثيل على ذلك، لنتصور ان شخصا جالس في غرفة محكمة، وإذا به يرى ان شعاع الشمس يخترق هذه الغرفة ويدخل فيها، يتحير الإنسان ويحاول البحث عن المكان الذي دخل منه الشعاع. فإذا لم ير هذا المكان، فهل يمكن له في تلك اللحظة ان ينكر دخول هذا الشعاع؟

بالطبع لا يمكنة ذلك. وكذلك عقل الإنسان يستطيع أن ينفذ إلى بعض الأ حكام والي بعض الأمور دون اتباع منهج معين اكتشف في الماضي.

هذا هو المنهج الاسلم الذى يراه السيد المرجع للاستفادة من العقل، شريطة ملاحظة ثلاثة أمور:

الأول:ان العقل يستقل بمعرفة الحسن والقبح، لكن هذه المعرفة بحاجة إلى الوحي، لكي تتزكي النفس وتنمو الإرادة وتثار دفائن العقول.

الثانى: ان الوحى بين كل ما يحتاجه البشر من الأحكام على هيئة أصول وقواعد عامة يستفيد منها العقل في التفاصيل والفروع.

الثالث: ان وظيفة العقل تتجلى فى ثلاث مهام؛ تصديق الوحى، وفقه الشرائع، ومعرفة التفاصيل.

اننا مطالبون جميعا باعادة النظر إلى ترتيب العلاقة بين العقل والوحى، حتى تكون الأصالة فى الفكر الإسلامى مناطة بالعقل المستنير بالوحي، والا فإن مجرد تغليب احدهما على الآخر مدعاة إلى الانحراف عن جادة الدين و العقل أيضاً. وهذا هو الذى حدث مع الاسف فى مسار التاريخ العربى والإسلا مي في تعاملة مع العقل.

وفى ذات الوقت إذا تركنا المجال مفتوحا امام العقل، فإن ذلك يعنى تجاوز فكرة الأصالة التى ذكرناها فى بداية الكلام. فما هو المطلوب اذن لتجاوز ذلك؟

لكى لا نقع فى الاشكالية المذكورة، لابدّ ان نبحث عن الضمانات التى تضمن لنا المحافظة على الأصالة مع قيامة بدورة الكبير.

لا يوجد ريب فى ان العقل الذى يتمكن من القيام بهذا الدور، هو ذلك العقل الذى يقوم بدورة الأساسى دون التاثر باى ضغط. وحسب التعريف اللغوى للعقل، فإنه ماخوذ من عقله بمعنى ربط وثاقة ليحفظة من الافلات . وهكذا فالعقل الذى نتحدث عنه ليس متروكا، بل مقيد ببعض التقييدات، وهذه التقييدات عبارة عن وصايا إسلامية يذكرها السيد المرجع كالتالي:

1. اخماد الهوى؛ ذلك لأنه عدو العقل الهوى، واتباع الهوى يعنى اتباع ما يشتهية الإنسان، وهذا هو أساس كل خطأ يقدم عليه الإنسان. والهوى يعود إلى جذر واحد هو هوى النفس، وحين يستخدم الإنسان عقلة ويجعلة قيد

لهذه النفس، فسوف يدق على الوتر الحساس الذى يبرر للشهوة. لكن هناك فكرة تتبادر إلى البعض، وهى ان سيل الهوى يعتبر سيلا جارفا بحيث قد لا يستطيع الإنسان ان يضع امامة سد.

ولكى نجيب على هذا السؤال نرجع إلى قيمة اساسية من قيم الخليقة بالنسبة للانسان، وهى قيمة الحرية. فقيمة الحرية تبقى مع الإنسان فى كل الظروف حتى لو كانت شديدة للغاية. غير أن المشكلة لدى الإنسان هى استرسالة فى العادة الموروثة والمتبعة ممّا لا يجعلة قادر على الوقوف امام تيار الهوى.أما إذا استطاع الإنسان الوقوف امام تيار الهوى، حينها يستطيع العقل ان يقوم بدوة الهام في الحياة.

2. تقوية الارادة؛ وهذا شرط مترتب على الوصية الأولى. فلكى يستخدم الإنسان عقلة ويستنير بنورة فى حياتة اليومية، فهو بحاجة إلى ارادة، لان الإرادة هى وسيلة العلم والمعرفة وطريق الايمان. واتباع الهوى هو المانع من الوصول إلى رحاب الحقيقة، سواء فيما يتصل بتغيير سلوكى او التزام عملى بالنسبة للنفس البشرية. ومن هنا فإن الإسلام يحاول ان يستثمر العقل البشرى احسن استثمار، ولذلك يدعو إلى ان تكون إرادة الإنسان قوية قادرة على ازالة الأسباب الحقيقية وراء الخطا الذى يأتى بواسطة اتباع الهوى.. ذلك لأن منهجية التفكير عند الإنسان تكون ناشئة من احد مصدرين، مصدر العقل او مصدر الهوى. ولكن كيف يمكن للإنسان ان يميز بين هاتين الفكرتين وبين دوافعهما؟

انما يمكن للإنسان ان يميز بين الفكرتين بما يسمى بالتامل الذاتي عبر توجية سلسلة من الأسئلة إلى العقل محاولا الكشف عن جذور دوافع هذه الفكرة، لأن العقل الذى هو حجة اللّه على العباد احكامة واحدة لا تتطور ولا تتغير بتغير الأوضاع السياسية والاقتصادية والفسيولوجية. وعلى ضوء هذه التوصيات للعقل يمكن له ان يقوم بادوار كبيرة، ليس في الحياة البشرية فحسب، وإنما حتى فى إدراك الأحكام الشرعية ايضاً، بدلالة ان الرسول عقل ظاهر والعقل شرع باطن وكلاهما رسولان من عند اللّه عز وجل. لكن العقل لا يعتبر حجة الا إذا ايد من قبل اللّه عز وجل. وتفصيلا لهذا الراى يقول السيد المرجع : ان أحكام العقل تتطابق مع أحكام الشريعة، وهذا التطابق هو الذى جعل هذين الرسولين بمنزلة واحدة لا يختلفان الا فى الظهور والخفاء. ولا يعجز العقل المستنير بالوحى عن معرفة حكم وقائع جزئية، استنباطا من الأحكام العامة التى تعتبر بمثابة قواعد عريضة فى الدين. وبهذه الصورة يعتبر الدين كاملا، حيث يقول تعالى فى كتابة الحكيم: اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً المائدة 31

وعلى ذلك ايضاً لا يبقى مجال للتساول عن واقعة ليس لها حكم رباني سواء من الشرع او من العقل، خصوصا وان العقل والشرع وجهان لحكمة واحدة. ولكى ندلل على مدى تطابق العقل مع الشرع الوارد فى روايات عديدة، نذكر دليلين:

الأول: ان الوجدان يحكم بذلك.

الثانى: ان الحجة القائمة على أساس العقل، تهدى الإنسان إلى الكشف عن الحقائق التفصيلية كالإيمان بالله والتصديق بالرسل والاقتناع بالايات. فهل يمكن لنا إذا كشف العقل شيئا ان لا نعتبرة حجة؟

إذا اعتمدنا الدليل الأول وهو الوجدان، فإن كل إنسان يستثير عقلة يدرك بما لامجال للشك فية بان معرفة الأحكام أمر ممكن، ولكن بعد تذكير الوحى له واثارتة إليه. وهذا الذى يفهم من الاختلافات بين الفقهاء فهم بين موید ومعارض لامكانية إدراك العقل لذلك.

ثم يؤكد السيد المرجع ان تحديد العقل هو الحلقة المفقودة فى هذا النقاش فيقول: ان العقل فى الكتاب والسنة ليس الذى يزعمه الفلاسفة. وإذا ثبت الفرق بين العقلين، فإن الإسلام نهى عن مناهج الفلسفة التى يسمونها بـ العقل واعتبرها ضلالة، وامرنا بالعقل الحق الذى هو نور الله ورسولة الداخلى. وتاكيدا لهذا الموضوع، موضوع ان العقل كما الشرع، فإن اصول الأحكام وجوامع العلم فى العقل والشرع لايختلفان. فالله يامر بالعدل والاحسان، وينهي عن الفحشاء والمنكر .

والعقل له ذات الوصايا أيضاً.اما فى الفروع فإن العقل يملك مناهج بكيفية الاستفادة من الأصول العامة لمعرفة حكم الفروع، وقد ذكر الدين ايضاً ببعض المناهج والتى اهمها العودة إلى العقل. فاذن لايوجد لدينا موضوع يستقل فية العقل من دون الشرع فى اصدار حكم شرعى، لأنّنا اساسا لايوجد لدينا موضوع نفقد فية حكم الشرع عاما أو خاصا.

بهذه الصورة وبهذه الصلاحيات ياخذ العقل دورة فى الدين، كما ياخذ دورة فى شتى مجالات الحياة. وإذا سمحنا للعقل بهذا الدور الكبير، فإننا ممّا لاشك فية سنعطية دورا اكبر فى الأمور التنفيذية والتفصيلية لمجالات الفكر و السياسة والاجتماع وغيرها. لماذا؟

لان انطلاقة الفكر وبالتالى بداية الدور البناء تبدا من اكتشاف العقل للحقائق، وهذا الاكتشاف كما أسلفنا إنما يتم باتحاد دورى العقل والوحى فى عملية تواصلية وتكاملية. فالوحى والعقل احداهما وجة للاخر، وكلما ازداد اتحادهما بانت اثارهما باجلى صورة فى الطبيعة. وهذا التعاضد بين الدورين، كما يقول السيد المرجع دعاة إلى تكاملية من نوع اخر: تكاملية بين الفعل و العقل ايضاً، إذ انّ العقل بدون الفعل يكون كثير الخطأ، والفعل بدون العقل سوف يكون عديم الفائدة أيضاً. ولاجل ان ندرك التكامل بين الدورين، ما علينا إلا أن نتدبر فى الآية الكريمة وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنّ اللّه لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ العنكبوت 96.

فالجهاد الذى هو فعل له دخل كبير فى الهداية وسلامة العقل والتخطيط بـ النتيجة.

واخيراً فإن الرجوع إلى العقل هو عبارة عن الحفاظ عن الأصالة التى

تكلمنا عنها. لأن الجذر يعود بالتالي إلى الوحي والى الأدلة الشرعية. وتفصيل ذلك أن هذه الأدلة الاربعة تتكامل مع بعضها. فالعقل يثار بالوحي، والوحي يفهم بالسنة الشريفة، والسنة تفهم بالاجماع. ولكي نعطي مثلا ً واضحا على هذا التكامل، القران الحكيم تحدث عن العدالة في قوله تعالى: إنّ اللّه َيَأمُرُ بِالعَدلِ وَالإ ِحـ ْسـ َا نِ النحل 9.

العقل من جهتة يفهم العدالة وتطبيقاتها، لكن قيمة العدالة ومصاديقها الخارجية لايمكن ان تعرف بدون السنة.اما تطبيق العدالة على الواقع، فإنه لا يمكن أن يفهم الا بواسطة العرف والاجماع.

اذن عبر هذه الثلاثة امور من اعتماد السيد المرجع على القران الحكيم وحضورة الفاعل لدية ومن النظرة المتوازنة المتطورة للتاريخ ومن نظرته لعقل المستنير بالوحي، تكشف الأصالة وضماناتها.

الأمر الرابع: الأصالة والمعاصرة

بمجرد ان يقرا الإنسان هاتين المفردتين يتصور حدوث تعارض ومنافاة بين الأصالة والمعاصرة، لأن المعاصرة ومواكبة ما يجرى من جديد وحديث حسب هذا الزعم تتعارض مع الأصالة التي هي تعبير عن الأنماط التقليدية و الماضوية في التعامل مع الأشياء.إلا أن السيد المرجع يرفض هذا الانسياق الذهني، وقد تحدثنا عن ذلك في محلة عند الحديث عن الركائز الفكرية التي يعتمد عليها في التعامل مع الأشياء ومع الأفكار، حيث يؤكد سماحته على ضرورة عرض الأفكار والقناعات الجديدة على ثوابت مركزية وضعها الإسلام، حتى تكون هذه الثوابت هي الحارس والضامن من ان الحديث والجديد لن يجري تحولات أساسية وجذرية على هذه الثوابت والأصول. واما ذا لم توجد ثوابت ومحاور، فإن قبول الإنسان آنئذ بالافكار والاشياء يصبح مائع ، بحيث يحمل افكار متناقضة ويجمع ما بين خليط لا يمكن جمعة تحت إطار واحد.

وانطلاق من هذه المقدمة على اساس فكري ايضاً، ينطلق السيد المرجع في تحديد قيمة الأصالة والمعاصرة بالنسبة للحركة الإسلامية، إذ المكونات العقائدية والتاثيرات التاريخية لا تتعارض مع عصرنة الحركة وانفتاحها على الجديد والحديث بشرط الحفاظ على الثوابت والمرتكزات. ولكي تتوضح الصورة، يذكر السيد المرجع ملاحظتين في هذا المجال:

الأولى: ان علماء الدين هم الذين يقومون عادة بتمييز الأفكار، لأنهم أكثر الفئات الإسلامية ارتباط بالجذور، وأكثرهم بالتالي استيعاب لروح الإسلام. وهذا ما يجعلهم قادرين على عرض الأفكار الحديثة على اساس المقاييس الإ سلامية السليمة. وقد أكد المستشرق الفرنسي جب على دور العلماء هذا في الأصالة والتطور في كتابة وجهة الإسلام ، حيث قال: ان التطور الحضاري في الشرق الاوسط لن يتم الا على أيدي علماء الدين .

الثانية: ان الحضارة الغربية الحديثة في بداية انطلاقتها، احدثت عند

الكثيرين، لاسيما الضعفاء منهم حالة من الانبهار بكل شيء في هذه الحضارة بخيرها وشرها. لكن بعد ان دخلت هذه الحضارة في صراع مع الزمن، بدا واضحان لديها فجوات وثغرات واسعة، كان ابرزها نشوب الحرب العالمية الأ ولى والثانية اللتين جرتا على البشرية ويلات وماسى كبيرة.هذا بالإضافة إلى بروز تيارات من داخلها تدعو إلى الاصلاح والتغيير. ومن هنا فإننا يمكن أن نستفيد من الانفتاح والمعاصرة مع ما يجري من حولنا في اتجاهين:

الأول: اتجاه التقنية العلمية، حيث إن انجازات العلم ليست حكر على احد، باعتبار ان كل انجاز علمى نتاج علوم عديدة يعود بعضها إلى قديم الزمان، وهذا هو الذي يجعلها متاحة المنال للجميع :

الثاني: اتجاه الاستفادة من التجارب البشرية المتراكمة في مختلف الحقول الإنسانية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والتاريخ وغيرها. وهنا لا ينسى السيد المرجع التاكيد على ان الانفتاح ومواكبة العصر لا تعني التقليد الغير واعى، لأن التقليد يعني اخذ ما توصل اليه الآخرون صالحة وطالحة. بينما الا نفتاح المطلوب هو الاقتباس على قدر الحاجة، بحيث لا يمس الثوابت الإسلا مية، وبشرط ان لا تكون التجربة منقولة من جو لا يتناسب مع الجو المنقول اليه. على سبيل المثال المانيا الغربية بعد هزيمتها العسكرية فى الحرب العالمية الثانية توجهت إلى البناء الذاتى، واستطاعت بعد فترة من الزمن انتشال اقتصادها المتردى، حتى وصلت إلى تقدم ملموس فى الصناعات الثقيلة. والتقليد الاعمى ونقل التجربة من المكان الخطا فى شاهدنا هذا يتمثل في أن بعض الدول الاسيوية اندونيسيا بعد ان حازت على استقلالها استدعت القائمين على مشروع الصناعات الثقلية في المانيا، ناسية ظروفها كدولة ناشئة وخبرتها ومواردها. فكانت النتائج مروعة، حيث ادى هذا التوجة إلى اضرار فظيعة في الاقتصاد الاندونيسي. من أجل ذلك لابدّ من الموازنة في المعاصرة والتقليد بدراسة الظروف الآخرى، حتى لا نقع في اخطاء لا يمكن تجاوزها الا بعد قرون!.هذا فيما يختص بالمنظار الفكرى تجاه الأصالة و المعاصرة.اما بالنسبة للحركيين الإسلاميين، فإن هذا المصطلح يمكن تحديدة بعد ذكر ثلاث مراحل للعمل الحركى، وهى: الايديولوجية والاستراتيجية و التكتيك. فالايديولوجية هى عبارة عن الأفكار العامة الموجهة للانسان، وهذا يعنى فى عرف الحركة الإسلامية انطلاقها من مبدا الإيمان بالغيب الذى ينعكس بدورة على شتى مجالات الحياة كما هو واضح فى احكام الشريعة الإ سلامية. وبعد ذلك تاتى الاستراتيجية التى هى توضيح للأفكار العامة بـ القياس إلى الزمان والمكان والقدرات، بينما التكتيك هو تفصيل الاستراتيجية قياس على الواقع والظروف.اذا عرفنا ذلك، فإننا ندرك ان ايديولوجية الحركة الإسلامية ثابتة لا يمكن التبديل فيها، وهذا هو الذى تعنية الأصالة فى الحركة ، حيث لا تتجاوز المبادى والقيم لاى سبب كان. وعلى ذلك تبقى امكانية العصرنة في المجالين الآخرين في الاستراتيجية والتكتيك.

ثم يؤكد السيد المرجع على ان الأصالة يجب ان تكون واضحة فى الثقافة

والافكار أكثر من أي شيء آخر. ويشرح سماحته هذه الأهمية بالقول: ان البلا د الإسلامية تضم ثلاثة تيارات ثقافية متداخلة ومختلطة، وهي التيار السطحي والمتغرب والمصلحي. ولتوضيح معالم هذه التيارات الثلاثة، نذكر نظرتها حول مسالة العمل والسعي؛ فالتيار الأول يدعو إلى عدم التحرك اصلا ً ويترك الظروف حسب زعمهم لكي تفعل فعلتها. والتيار الثاني يدعو إلى العمل، لكن بشرط وبقيد بناء المستقبل الشخصي مثلا ً دون الانتباة إلى مصائر الآخرين.اما التيار المصلحي فإنه يدعو إلى العمل دون التقيد بضوابط او قوانين معينة، مستفيد من النظرية الذرائعية التي تعتبر النفع هدف مقدس لا يوازية أي هدف.

ان هذه التيارات الثلاثة لا يمكن لها والحال هذه بناء مجتمع متقدم وحيوي، إذ الاشكالات الواردة عليها واضحة لا تحتاج إلى بيان. لكننا كحركة إسلامية وايمان منا بالأصالة الثقافية بالذات، لابدّ ان تقوم بايجاد تيار ثقافي يستوعب التيارات الممكنة، فنواجة التيار السطحي بمفهوم السعي في الإسلام الذي يعتمد على الآية الكريمة: وَأَنْ لَيْسَ للإنسان إلا ّ َ مَا سَعَى (39) وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى النجم 93 4.

اما التيار الغربي والاخر المصلحي والواقعي، فإننا نقوم بالبحث عن اساليب هادئة ترشد أفكارهما. وبهذا يمكننا ان نستنبط من ثقافة الإسلام ثقافة التحرك والعطاء ضمن المجموع في مقابل ثقافة الجمود وثقافة الغرب وثقافة الهروب.

وهنا يأتي سوال يتبادر إلى ذهن الكثيرين، وهو:هل ان الثقافة الإسلامية ثقافة حيوية قادرة على بناء مجتمع حيوي؟ للإجابة على هذا السوال يقول السيد المرجع : ان الثقافة الإسلامية تتميز بكل ذلك، لكن المشكلة الحقيقية تكمن في انها تعرضت لعملية تضعيف وقلب، تحولت بموجبها مفاهيم حيوية كالتقية والانتظار والشفاعة إلى عناصر ضعف بفضل التفسيرات الخاطئة. ف التقية اصبحت تعبير عن الجمود والانتظار بات يدعو إلى السكون، والشفاعة فسرت باللامسؤولية.

وإذا استطعنا تلافي التفسيرات الخاطئة تجاه الثقافة الإسلامية، فإننا نكون قد وضعنا الخطوة الأولى للمسيرة الصحيحة. لأن ثقافة الدين عموم وثقافة ا لإسلام بالتحديد ثقافة حيوية اثبتتها تجارب التاريخ. فمثلا ً الذين اعتنقوا الديانة البراهمية في فترة من الفترات ارادوا ان يطوروا انفسهم ومجتمعهم، فتنادى بعضهم إلى التخلي عن هذه الديانة كونها مانعا اساسيا عن التقدم، بينما نادى البعض إلى ضرورة التمسك بهذه الديانة مع الاستفادة من عناصر القوة وتحاشي عناصر الضعف. وفعلا بدا المشوار بين الاتجاهين، وكانت النتيجة ان الذين التزموا بالديانة البراهمية سبقوا الطرف الآخر وتقدموا في سائر الحقول العلمية والحضارية.

علىضوء ذلك اذن تعتبر الثقافة الدينية ثقافة قادرة على البناء والتقدم. فكيف يمكن للإنسان المسلم في نظر الحركة الإسلامية ان ينظر إلى ثقافتة؟

يجيب السيد المرجع بالتاكيد على ضرورة النظرة الإيجابية للثقافة الإسلا مية، وهذا يتم بالاتصال بمنابع الثقافة الأصلية كالقران الحكيم الذى تحدثنا عنه بالتفصيل فى الفصل الأول. وهذا الاتصال يتم على أيدى القمم المضيئة الذين يخوضون غمار التحدى ومجالات العمل والتحرك، لأن هؤلاء ونظراً لأ دوارهم هذه يستطيعون استنباط معالم ثقافية جديدة لكافة الأمور. وتأخذ هذه الثقافة بعين الاعتبار تصحيح نظرة الإنسان الخاطئة للأشياء، بحيث تساهم فى ابراز عناصر القوة فى الثقافة الإسلامية، مثل التاكيد على السعى وعلى مسؤولية الإنسان والتعاون والثقة بالذات وبالطاقات وبالقدرة على تجاوز العقبات والاستقامة والصبر.. بالاضافة إلى هذه العناصر هناك عناصر قوة أخرى تحتاج إلى تدقيق وتمعن أكثر فى الثقافة . وفى هذا الضمن يدعو السيد المرجع إلى تشكيل لجنة عليا من كبار العلماء والمفكرين لرسم استراتيجية فكرية وإعطاء ثقافة متجددة . وهذا ما يطلق عليه عملية التجديد فى الثقافة الحالية، وتحديد مقاييس ومعايير سليمة وثابتة واهمية هذه اللجنة تكمن فى خروجها بتحديد واضح لهذه المقاييس، إذا تم ذلك فإن مصادر التوجيه فى المجتمع من الكتاب والصحفيين والخطباء وواضعى مناهج التربية فى المدارس والجامعات سوف تعتمد على تلك المقاييس و الضوابط. هذه الضوابط نفسها هى التى تحدد أساس تعاملنا مع الثقافات الأ خرى، حيث يدعو سماحته فى هذا الإطار بالتحديد إلى دراسة مصادر التفكير وينابيع الثقافة عند الغرب دراسة موضوعية،نستطيع بواسطتها تمييز الغث من السمين فلا ناخذ كل شىء ولا نرفض كل شىء، لأن الضوابط والمقاييس هى الحكم وهى القاعدة التى يتم على ضوئها الاقتباس، والا اذا لم تتوفر هذه القاعدة، فإنه لا يسمى اقتباس وإنما هو اخذ بالكامل لافكار جاهزة . وهذا خطأ فظيع.

أولا ً: التنظيم والجماهيرية

يؤكد السيد المرجع ان الحاجة إلى التنظيم حاجة اساسية واستراتيجية للحركة الإسلامية، وهي تنبع من جهتين :

الجهة الأولى: داخلية؛ من أجل لملمة الطاقات والقدرات المتوفرة، ومن ثم صبها فى مسار واحد ولكن فى اتجاهات مختلفة، تصب بالتالى فى تحقيق الأ هداف الاستراتيجية للحركة الإسلامية. وبهذه الصورة فقط يمكن لنشاطات هذه الحركة أن تصبح كالسيل الهادر تصل إلى أهدافها بسهولة.

الجهة الثانية: خارجية؛ فالحركة الإسلامية تواجة بخطط مدروسة ومبرمجة، ولا يمكن لها فى هذه الحالة مواجهة هذا الكم والكيف من دون التنظيم، الذى يعنى كما اسلفنا تركيز القدرات وتوجية الطاقات وتربية الكفاءات التى تتناسب ومراحل المواجهة.

من اجل هاتين الجهتين يعتبر التنظيم حاجة ماسة، وعامل مساعد لجهود الحركة الإسلامية. بيد أن الاشكال الهام الذى يطرا عادة حين الحديث عن

فكرة التنظيم، هو اشكالية العلاقة بين التنظيم وبين الجماهير، ذلك لأن دور التنظيم عبارة عن اهتمام مجموعة باخرين تربية وتثقيف وتوجية من اجل الوصول إلى أهداف حركية معينة. ومن أهم فوائد هذه العملية نقل التجارب بين الأجيال الحركية اختصار للزمن، وحتى يبقى افراد التنظيم الواحد تحت مظلة توجية معين يدفعهم إلى التعاون والتنسيق والاشتراك في الأهداف.

ويرى السيد المرجع ان هذا الاشكال ينبغى ان ينتفى فى الحركة الإسلا مية، ذلك لأن التنظيم ليس بديلا عن الجماهير، وإنما هو ذراعها الضارب وقلبها النابض وعقلها المفكر. وبمعنى آخر ان وجود الحالة الحركية عند التنظيم لا يعنى انحصارها فية فقط، كلا.. وهو لا يعنى أيضاًان الاعضاء المنتمين إلى حركة هم الذين يقومون بواجب الجهاد والتحرك. كلا أيضاً، لأن الصحيح هو ان الحركة تقوم بهذا الدور فى البداية، لكنها تسعى فى كل مراحل نشاطها إلى اشراك الجماهير فى عملية الاصلاح والتغيير. ولاجل ذلك يرفض السيد المرجع الحالة النخبوية، لأن هذه الحالة دلالة على وجود حدود فاصلة بين التنظيم وبين الجماهير. ويطلق سماحته على ذلك تعبير الطليعة الذى يعنى انها ولدت وانبثقت من رحم المجتمع، وهى تتحرك من اجلة ومعة ومن دون فواصل. وكشاهد على ذلك أن الحركة الإسلامية تبحث دائم عن طريقة تحويل النمط الثقافى الذى تتبناة إلى فكر جماهيرى يمكن لها أيضاًان تومن به وتتبناة. وبمعنى اوضح؛ ان الثقافة الحركية لابدّ أن تتحول إلى ثقافة جماهيرية تتحدث بلغتهم وبمشاعرهم وعلى قدر عقولهم حتى يمكن ان يتفاعلوا معها، اما ان تتحدث مع الجماهير بلغة الكتاب والدراسة و البحث فإن ذلك سوف يكون مدعاة إلى حدوث حالة من الانفصال بين الجماهير وبين الحركات.

ومن هنا يرى السيد المرجع ان الحركة الإسلامية عليها ان لا تترك منفردة، وإنما لابدّ ان تواجه اعداءها التقليديين بالجماهير، وبكل الجماهير بلا استثناء. وعلى هذا تكون مهمة التنظيم البعيدة المدى ربط افراد المجتمع بهذا التوجة، وهذا الربط يتم بواسطة العوامل التالية:

1. الاهتمام بداية بتشكيل خلايا متعددة يمكن ربطهم بقنوات تنظيمية مباشرة، وهولاء يكونون بمثابة القلب لنشاط الحركة الإسلامية.

2. ربط أبناء المجتمع بهذه المسيرة عبر ايجاد العديد من المؤسسات التى تتكفل بادخالهم فى هذا الاطار. وهذا الربط يمكن أن يتم كما يرى السيد المرجع عبر تشكيل موسسات ثقافية واجتماعية واقتصادية، بل وحتى رياضية.. من شانها ضمان دخول كافة الطبقات فى الأمة، من مفكرين وكتاب وتجار وموظفين ومومنين صالحين. وتبقى المهة الاصعب امام أبناء الحركة ا لإسلامية الذين ينتمون مباشرة إليها، من أجل القيام بالنشاطات السياسية و الجهادية.

ولاجل هذه العلاقة الفاعلة بين التنظيمات الإسلامية وبين الجماهير، فإن هناك محاولات متكررة وتحت صور مختلفة لاحداث حالة من الانفصال بين

هذين الطرفين. وهذه المحاولات تستثمرها وسائل الاتصال المتطورة عالمي، لكي تدق على أوتار حساسة عند الجماهير، لتكريس حالة الانفصال، مستفيدة في ذلك من تراكم تجربتها السياسية والاعلامية.

ومقابل هذه المحاولات، لابدّ ان تكون الحركة الإسلامية ذكية جداً لا كتشاف هذه المحاولات والتحركات، وبالتالي وضعها امام الجماهير حتى تلتحم العلاقة بين الطرفين. وفي هذا الاتجاة يؤكد السيد المرجع على ان الحركة الإسلامية يجب ان تكون بعيدة عن وصاية القوى الضاغطة، وبدلا من ذلك تعود إلى بحر الجماهير ليكون سندها وقت الازمات. وهو هنا أيضاً يحمل الجماهير مسؤولية احتضان الحركة الإسلامية. وهذا الاحتضان لا يكون بالقاء اللوم والعتاب والتانيب على جهود الحركة الإسلامية، وتحميلها مسؤولية ما يجرى من احداث. كلا..انما يكون بتقييم ما يجري من تطور في مسار المجتمعات، تقييم حضاري ياخذ بالاعتبار المكاسب والانجازات التي حققتها هذه الحركة، قياس بوضع هذه المجتمعات سابق ومقارنة بالظروف الخانقة التي تطارد هذه الجهود من كل حدب وصوب.ان معرفة الانجازات الحضارية التي حققتها هذه المسيرة كاف لتوجة الجماهير إلى احتضان هذه الحركات، بل ودعمها.

وفي هذا الضمن لا تعني الصفة الجماهيرية في الحركة الإسلامية مجرد رفع شعار تتضمن بها الادبيات والاصدارات الثقافية، وإنما هو يقيد الا ستراتيجية الحركية لكي تصب في مصلحة الجماهير، ولتحقيق اهداف الجماهير وتطلعاتهم، بل ولحل مشاكلهم أيضاً. وبهذه الصورة تعني الحالة الجماهيرية في الحركة الإسلامية تبلور حاجاتهم الضرورية، بحيث يرى هؤلاء وكانها الناطق الرسمي لما يريدون ولما يحتاجون، غاية الأمر ان التنظيمات الناجحة هي التي تحمل الجماهير مسوولياتها تجاه الأوضاع السياسية والا جتماعية والفكرية المتخلخلة. ولتوضيح هذه العلاقة بالتفصيل يضع السيد المرجع طرقا أربع لتفادي حدوث طلاق بين هذين الطرفين، وهي كالتالي:

1 نقل الرصيد الحركي من التجارب والافكار إلى الجماهير، خصوص في المجالات التي تعتبر فيها الحركات اكثر وعي واكثر إدراك واكثر ملامسة للا حداث.

2. ان لا تتعالى الحركات على الجماهير في أي مرحلة من المراحل، لأن للجماهير انماطاً ثقافية خاصة بها، ولها نضالات واساليب وطرق خاصة يمكن ان تستفيد منها الحركات، لاسيما إذا عرفنا انه في بعض الحالات تتقدم الحالا ت الجماهيرية لاسباب متعددة على الحركات في المبادرات، وتصبح هي الرائدة للحركات كما حدث في انتفاضة الشعب الفلسطيني عام 1988م.

3. ان يكون هدف توعية الجماهير والعمل في اوساطهم هدفاستراتيجي بالنسبة للحركات الإسلامية لا يمكن التنازل عنة، وهذا يعني في الضمن فتح المجال امام كل مشاركة جماهيرية.

4. التوسع والانتشار الحركي في عموم الجماهير دون الاعضاء في طبقة

معينة كالاتحادات الطلابية او الشرائح المثقفة في المجتمع، لأن المطلوب في نظر الحركة الإسلامية هو اشراك الجماهير لكافة فئاتة وشرائحة وقطاعاتة. باعتبار ان الحركة التي تعمل في وسط قطاع معين من الجماهير سوف تصل في الاخير إلى حركة تخدم هذا القطاع، وحتى لو انتصرت فإن الديكتاتورية لا محالة عائدة، حيث سيتسلط هذا القطاع على مصائر الفئات الآخرى اولا، وثانيا سوف تحرم هذه الحركة نفسها من جهود وكفاءات تلك القطاعات بسبب الحالة القصرية التي تحكمها. وتلافيا لهذه الحالة يجب أن تكون الحركة الإسلامية متفاعلة مع كل الطبقات في المجتمع، لاسيما الطبقات الضعيفة التي لا تمتلك قدرة وقوة على التعبير عن آرائها.

وملاحظة اخيرة يوردها السيد المرجع بقولة: ان ادامة النظرة إلى الاهداف تصلح الوسائل، والتنظيم بذاتة وسيلة من الوسائل واطار من الاطر التى توصل الحركات والجماهير إلى اهدافها الاسلامية المقدسة ومن اجل ذلك فإن التنظيم لا يدور حول نفسة، وإنما هو وحدة اجتماعية منظمة تتعاون مع سائر الوحدات الأخرى في اطار كبير من التعاون والتنسيق المشترك وهكذا تتواصل هذه الوحدات، حتى تصبح دائرة واسعة يشترك فيها كل ابناء المجتمع وينضوون تحت رأيتها من اجل تحقيق اهداف مشتركة.

ثانياً : القيادة الإسلامية

ما من شك في ان مسالة القيادة الإسلامية من اعقد المسائل التي وقف عندها الكثير من المفكرين والعلماء المسلمين، ذلك لأن مفهوم القيادة الإسلا مية إنما تحقق في عهد الرسول الأكرم x والائمة المعصومين . ومنذ ذلك الحين إلى الآن لم تتح الفرصة إلى الوصول إلى هذه المرحلة، ممّا ادى إلى كثرة التاويلات حول الصيغة القيادية التى تتناسب والتعقيد السياسى والا جتماعي الحاصل الان. من أجل هذه التداخل المعقد وقف الكثير عاجزين عن ابداء راى مناسب لهذا الموضوع الحساس، ممّا دفعهم إلى رفض فكرة القيادة من الأساس.

والحركة الإسلامية باعتبارها داعية إلى الالتزام بمنهج اللّه سبحانه وتعالى وبمعارف القرأن الحكيم، كانت سباقة إلى إجراء دراسات متعددة حول هذا الموضوع، لأنه يعطيها شرعية الوجود وشرعية في التفاصيل أيضاً. ويعتبر السيد المرجع من اوائل الذين بحثوا موضوع القيادة الإسلامية في العصر الحديث في اوائل عقد السبعينات، وقد صدر في هذا الشان كتاب القيادة الإ سلامية عام 1971م الذي يعتبر خلاصة رأية في هذا الموضوع. وفي بداية الحديث يؤكد السيد المرجع ان صرح الدين الإسلامي يرتكز على قاعدة التوحيد تكوين وتشريع وعقيدة ونظام. وهذه الصفات الاربع إنما تتوفر في اللّه جل جلالة، ولذلك فإن الولاية والسيادة له فقط لا لاحد غيرة، وذلك لأن أهم هدف للقيادة والولاية هو تقييم الحقوق وتحديد الواجبات. والقيام بهاتين العمليتين لا يمكن الا بعد إجراء عملية موازنة بين معرفة الحق حتى لا يحدث الظلم ومعرفة الحياة المنسجمة مع الفطرة وبين ان يكون المشرع و التشريع مستند على هاتين المعرفتين بعيد عن موثرات البيئة وضغوط

السابقيات ونوازع الشهوة وهذه الأشياء ايضاً لا تتوفر الا له سبحانه وتعالى، وهى التى توكد السيادة القانونية له سبحانة، إذ الولاية بصيغتها الذاتية الأ صلية له فقط لا غير، بينما يمكن ان تكون الولاية اعتبارية مجعولة كما هو الحال بالنسبة للرسول والامام.

ويرد سماحته على بعض الأنماط القيادية المعاصرة، مثل الديمقراطية التى تعنى فى كثير من الاحيان حكومة الشعب على نفسة. يرد ذلك اولا بأن هذه الصورة من الحكم عجزت عن انتخاب قيادة حكيمة رشيدة تهتم لمجالات الإ نسان كلها، لا جزء منها.هذا بالإضافة إلى ان حكومة الشعب على نفسه تتناقض مع عدم قدرتة على التحصن ضد الدعاية والإعلام الموجة، خصوصا ذا كانت شروط القيادة غير محددة بمقاييس الدين وشروطة، حيث يعنى حكومة الاهواء والشهوات وسيادتها. بينما إذا كانت القيادة ملتزمة بهذه الشروط، يمكن لهذه الصورة من الحكم ان تحكم خصوص مع صعوبة الظروف.

ثم يذكر سماحته الصيغة التى يتبناها وهى رجوع الأمة إلى قيادة متمثلة فى فقية عادل، اعتماد على الصفة الاعتبارية التى اضيفت له من قبل الدين وضمن الحدود التى رسمتها الشريعة، شريطة ان يكون الرئيس تحت امرة الدين، لا ان يكون الدين مطية له ولمصالحة.

والحكم الإسلامى بهذه الصورة سوف يكون الوسيلة المثلى لتنظيم شوون المسلمين كامة وككيان اريد له ان يكون شاهد على الأمم الآخرى. وقد اسهب سماحته فى ذكر النصوص التشريعية الدالة على قيادة الفقيه العادل، إذ كما هو معروف ان ولاية هذا القائد ليست له بذاتة، وإنما ولاية للفقه والعدالة التى يتمتع بهما وبباقى الشروط المذكورة. ويذكر أيضاًادلة وجوب اتباعهم، لأنهم الحجة التى يحتج الله بها على العباد يوم القيامة. فسلطتهم هى حدود سلطة الإمام، أي بنفس الشمولية والقوة التي كانت للامام.

ثم يحدد سماحته وظائف الفقيه العادل، ويعدد ثلاث وظائف هامة:

1. القيادة الإسلامية والتوجيه الثقافي

وهذه المهمة من المهام الكبيرة التى تقع على عاتق القيادات الإسلامية فى نظر السيد المرجع ، الذى يعتبر من اوائل الذين تطرقوا إلى هذه الوظيفة. ولكى تتوضح هذه المهمة لابدّ ان نتحدث قليلا عن الوضع الثقافى فى العالم ا لإسلامى منذ الصدر الأول، حيث تداخلت ثلاث عوامل هى الثقافة الجاهلية و اليونانية والاوربية الحديثة. ولاشك ان هذه العوامل عكرت صفو الثقافة الإس لامية. وكل هذه العوامل تضعنا امام حقيقة لابدّ من الاعتراف بها، وهى اننا بحاجة إلى ثورة ثقافية تصحح الأخطاء وتتلافى الانحرافات. ولكى تتم هذه الثورة نحتاج إلى إجراء تقييم مرحلي للوضع الثقافي في خمسة مجالات:

1 .دراسة الزيادات التى دخلت فى الفكر الإسلامى سابق وحاضر، وما يمكن مستقبلا.

2 .وإذا حذفت الزوائد، يمكن أن يقع فراغ في المنظومة الثقافية، ولكننا يمكن أن نقوم بسدة بواسطة عملية الاستنباط من مصادر التشريع الموثوقة.

3 .التمييز بين الثابت والمتطور في الثقافة الإسلامية.

4 . التدقيق في اعطاء العلاجات المرحلية للثقافة الحاضرة.

5 . ان الأمة الإسلامية اليوم بحاجة إلى ثقافة ناهضة، وميزات هذه الثقافة انها جماهيرية وقوية وموحدة وسريعة الهضم.

لكن السوال الذي يتبادر إلى الذهن هو: ما هي إليه وظيفة الفقيه العادل في هذه الثورة الثقافية؟

للإجابة على ذلك نذكر ثلاث نقاط:

الأولى: ان الثقافة الإسلامية وحدة متناسقة بين الأصول والفروع، وافضل من يحيط علم بهذا التناسق هو الفقيه العادل.

الثانية: الثقافة الإسلامية على صورتها الانية خليط من الصالح والفاسد، و القادر على التمييز بين هذين الامرين هو الفقيه العادل الذى التصق لفترة مديدة من الزمن بالأحاديث الشريفة والقران الحكيم اثناء استنباطه للاحكام الشرعية.

الثالثة: العدالة شرط ضروري لتصفية الثقافة، لأن من تتلاعب به رياح الشهوة لا يجد بدا من اضافة افكار تومن له شهواته واهواءة

2. القيادة والسلطة التشريعية والقضائية

يولى الدين الإسلامى زمام السلطة التشريعية إلى الفقيه العادل، وهذه السلطة هى المسؤولة عن وضع النظام للناس. ونحن باعتبارنا مسلمين نعتقد ان الله عز وجل هو افضل من وضع نظام للبشر، وهذا النظام جاء على شكل قواعد عامة تطبق على ظروف خاصة. وكما هو معروف فإن الفقيه العادل هو الذي يختص بهذا العمل.

وللسلطة التشريعية ثلاثة ابعاد يختص بها الفقيه:

أ. وضع الدستور؛ وهو المبادى العامة والخطوط العريضة التى تبنى عليها سائر الأشياء. وعلى الرغم من أن القرآن الحكيم تكفل بهذه المهمة، إلا أن الذى يستطيع التعامل مع القرآن تفسير وتاويلا هو الفقيه.

ب. القانون؛ وهو المنهاج المفصل الذى يحتوى على سائر ما يحتاجه الإ نسان من الاحكام، وباجماع المسلمين ان هذا الأمر يجوز للفقيه العادل.

ج. اللائحة؛ وهى القرارات المنتزعة من أحكام القانون. وتاتى هذه القرارات فى التعبير الإسلامى بلفظ الحوادث الواقعة ، وهى الحوادث التى تجددت مع تطور الزمن، وتوجد لها قوانين كلية لا نصوص خاصة.

ان السلطة القضائية، ونظر لحساسيتها فهى بحاجة ماسة إلى رجل فقية يستطيع وحدة استنباط الأحكام القضائية.

3. القيادة والسلطة التنفيذية

وتعتبر هذه السلطة من اقوى السلطات فى البلاد، لأنها تمسك بزمام الحكم الحقيقى. وحتى لو كانت السلطة التشريعية والقضائية صائبة، مع وجود الا نحراف فى السلطة التنفيذية، فإن ذلك يعنى فشل هذه السلطات جميعها. فكيف يمكن تحصين هذه السلطة من الانحراف؟

يجيب السيد المرجع : ان القوة التنفيذية لا يمكن أن تحصن بقوة تنفيذية عليا، وإنما الذى يتمكن من ذلك وجود قوة فوق المادة، وهذه القوة مفقودة فى النظم الآخرى، وموجودة فى نظام الإسلام عبر الفقه والعدالة. فالفقه تبصير للواقع، والعدالة تعنى السير وفقة. ولو لم توجد فى الشريعة نصوص خاصة تعتبر هذين الشرطين فى القوة التنفيذية، لوجب علينا ان نعتبرها اعتماد على بصيرة العقل ومقياس الدين، حيث إن النصوص الشرعية التى تنهى عن طاعة الجاهل فى ابسط الأشياء، لا يمكن ان تفتح المجال امام طاعة القوة دون فقه وعدالة.

ثم يأتى التساؤل الهام: ما هو الداعى الذى يستدعى وجود القيادات الإسلا مية بهذه الصورة وبهذه الصيغة؟

يتسلسل السيد المرجع فى الإجابة على هذا التساؤل تدريج، فيؤكد ان قيمة القيادة الإسلامية نابعة من قيم المجتمع المؤمن. فهى انبثاق عن تلك القيم التى تحكم المجتمع، وهذا يعنى أن القيم التى تحكم حياة الأفراد وطبيعة شخصياتهم ونظرتهم إلى الدين. ولكى نعطى الموضوع حقة من البحث نذكر هنا نمطين من تعامل المجتمعات مع القيادة:

النمط الأول: النظرة السطحية، وتعتمد هذه النظرة على الاعتقاد بأن القيادة مبعث للرزق ومصدر للعطاء المادى. وقد جاء هذا الصنف فى كثير من الآيات القرآنية حينما نظروا إلى الأنبياء بهذه الصورة. تقول الآية الكريمة: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً (90) او تكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنْهَارَ خِلا َ ل َ ه َ ا تَفْجِيراً الاسراء 09 29.

النمط الثانى: النظرة الرسالية المعتمدة على الإيمان بالغيب. وعلى هذا الفرض لا تهتم هذه النظرة بالحالة البشرية والمعيشية، وإنما يكفيها ان تستمد هذه القيادة شرعيتها من القيم الالهية. وتفصيلا لذلك يرى السيد المرجع ان الإ سلام له منظومة فكرية متكاملة هرمية الشكل، يقع فى قمتها توحيد اللّه سبحانه وتعالى التى ترتكز عليه كل تعاليم الإسلام. ومن هذا التوحيد تنبثق القيم الأساسية للدين التى هى عبارة عن الإيمان باللّه عز وجل بمعناة الا وسع، وهو تسليم النفس البشرية لله رب العالمين. والاية الكريمة تدل على ذلك: إذ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ

ان التسليم للحقائق الغيرية القائمة باللّه سبحانه وتعالى كالتسليم للقيادة المجعولة. ولهذا التسليم عدة مراحل:

الأولى: الاذعان وهو الاعتراف بالوجود مقابل الانكار.

الثانية: الاعتراف بالحقوق، حيث إن الاعتراف ليس مطلوب لذاته، وإنما هو مقدمة لمعرفة هذه الحقوق والاذعان إليها. فالاذعان لله عز وجل يعني الخضوع له، وللحقوق التي هي امتداد طبيعي للمرحلة الأولى.

الثالثة: التعامل مع هذه الحقوق، وهى حقوق متعددة من حب الله عز وجل وحب عبادة، وحب المخلوقات.. باعتبارها اشعاعات لنور الايمان. وبعد وجود هذه المراحل الثلاث، ينعكس الإيمان إلى صور تعتبر خلاصة القيم الدينية، وهي ثلاثة أمور:

أ. حق الامن للانسان، حيث يضمن عدم الاعتداء ويامن من الظلم ويمنع عنه التجاوز ويعطية الامان في الحق والجهد والعرض وحرية المعتقد.

ب. حق الطعام، وهى توفير الغذاء كونه جزءاً مهماً لاستمرار حياة الإ نسان.

ج حق استمرار النسل وبقاء النوع.

وهنا يأتي السوال: ما هي القوة التي تستطيع ضمان هذه الحقوق للانسان ؟

يقول السيد المرجع : من هنا تنبع ضرورة القيادة الإسلامية في تامين هذه الحقوق والسهر على تحقيقها، ولهذا ايضاً يشترط في القائد ان يتمتع بدرجة عالية من التقوى التي تعبر عن قربة لروح الشريعة السمحاء، وان يكون في ذات الوقت قادر على تنفيذ هذه القيم وتحمل المسووليات. لأن ثمرة القيادة ا لإسلامية سوف تظهر إذا توفر هذان الشرطان: التقوى والاقتدار. وهذه هي النظرة الرسالية لدور القيادة الإسلامية.

القيادة والشورى

ان الذى ذكر هو عبارة عن صورة القيادة الإسلامية المثلى الذى نسعى إليه في الظروف الطبيعية. لكن إذا لم نتمكن من تحقيق هذه الصورة المثلى من القيادة التي تتمتع بشرعية مطلقة، فإن هناك نوع من القيادات التي تمتلك شرعية نسبية. وقد ذكر القرآن الحكيم عند حديثة عن قصة بلقيس أو ذى القرنين او طالوت، نعرف ان هناك شرعية نسبية للملك الغير رسول، لكن هذه الحالات استمدت شرعيتها من الله سبحانه وتعالى. بينما إذا وجدت في هذا العصر، فإنها لابدّ ان تستمدها من عبادة المؤمنين واعتماداً على مبدا الشورى كما هو الحال في قصة بلقيس. وليست الشورى في بداية انتخابة فقط، إنما هى الشورى استمرارية بدلالة ان بلقيس استشارت قومها حينما جاء رسول ملك سليمان: قَالَتْ يَا أَيّهَا المَلأ ُ إِنّي أُلْقِيَ إِلَيّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنّهُ بِسْمِ اللّه ِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ (30) أَلاّ ّ تَعْلُوا عَلَيّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيّهَا المَلأ ُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتّى تَشْهَدُونِ النمل 82 .13

اذن الشورى تعني ان تكون هناك مجموعة اجتماعية رقيبة، يعود إليها

الفضل فى استمرار الحكومة العادلة.اما الاقوال الشائعة بأن الناس يصلحهم حاكم مستبد، فإنها لا تجد نص موید فی الشرع ولا تجربة تاريخية ناجحة، لأ ن حكومة الاستبداد غالب ما تنحرف عن أهدافها.

ن-حو تحقيق القيادة الإسلامية في المجتمع

ثم يتحدث السيد المرجع عن الالية التى يمكن بها الوصول إلى القيادة الإس لامية فی الظروف المعاصرة، ولاجل ذلك يذكر ثلاث ملاحظات تفك كثير من العقد التي دارت وتدور حول هذا الموضوع عند البعض.

الملاحظة الأولى: ان انتخاب القائد الاعلى لا يكون هو البداية، وإنما إذا تكرست القيم الدينية فی المجتمع، فإن القيادات الميدانية او الوسيطة هی التى تقوم بانتخاب القائد.إذ من المعلوم ان تركيبة كل مجتمع تعتمد على مجموعة من المؤسسات والتجمعات والخلايا المتعددة، وكل موسة من هذه المؤسسات تنتخب قائد لها. فموسسة المساجد تنتخب الرجل الكفوء والقادر والتقى، وهكذا المؤسسات السياسية والتنظيمات. وعلى أساس هذه القيادات الميدانية التى تلعب دور كبير فى توجية المجتمع نحو الخير والصلاح، فإنها أيضاً تقوم بدور انتخاب الاصلح.

الملاحظة الثانية: ان القيادة السياسية هى التجلى الأبرز لطبيعة المجتمع. واعتماد على هذه الحقيقة، فإننا لابدّ ان نسعى إلى تكريس القيم الدينية فی المجتمع اولا، حتى يتم توجهها إلى القيادات الربانية.هذا التوجة الذى تفرضة علاقة التفاعل والتكامل بين ابناء المجتمع على الأساس القيمى والدينى وبين القيادة الرسالية. ومن هنا فإن الذين يسعون إلى الوصول إلى القيادة بالقفز على مرحلة الاصلاح الاجتماعى خاطئون لا محالة، لأنهم حتى لو وصلوا إلى بناء قيادي سليم، إلا أنه يقف على أساس مهتري سرعان ما يزول.

الملاحظة الثالثة: وياتى الحديث في هذه الملاحظة عن تفاصيل الشان القيادى، بدء من كيفية تركيبها وطريقة انتخابها ومنهجيتها فى الحكم والإ دارة.

ولتوضيح هذه التفاصيل نورد فى البداية فكرة مركزية توثر على نظرة الإ نسان للأشياء، وهى الاعتقاد بأن ثوابت الدين الإسلامى أكثر من متغيراته. ويمكن لنا تفنيذ هذا الاعتقاد بالرجوع إلى الشريعة، حيث نرى بان الأصول العامة والقيم المركزية ثابتة وقليلة يمكن احصاوها، بينما الفروع والمتغيرات كثيرة وهى عادة ما تخضع للاجتهاد، وهذا يعنى للعقل، وبصورة اوضح خضوعها للمصالح والظروف. ولذلك فإن منهجية الحكم وكيفية القيادة وطريقة الانتخاب ومدتة، كل هذه الأمور خاضعة لحكم العقل وتبع للظروف وطبيعة المجتمعات. وهذا الذى يعطى الفكر الإسلامى صبغة عقلانية تتدخل لرسم هذه الاطر حسب الظروف الخاصة.

واخيراً يبين السيد المرجع نقاط القوة فى القيادة المرتكزة على القيم و

التي تجعل المجتمع المؤمن سابق لغيرة من المجتمعات.

1 ان القيادة التى تستمد قدرتها من الإمكانات المتاحة تربى ابناءها على الكسل والخمول وتجعلهم بالتالى شعب مستهلك، بينما القيادة الرسالية تربى ابناءها وجماهيرها على الشجاعة والاقدام والعطاء والانتاج.

والفرق بين التربيتين؛ ان الأول همة الاستهلاك يبحث عن الاستيراد ولا يسال الا عن الواردات، فى الوقت الذى يكون فية الانتاج المحلى محاصر لا يحصل على حماية اقتصادية، بينما الثانى يكون همة تشجيع حالة الانتاج و العطاء.

2 ان القيادة الرسالية تصب اهتماماتها فى مجال التربية الأخلاقية لا تباعها، وهذه التربية هى التى تدفع المجتمع إلى مجالات التقدم والرخاء والا بداع. بينما القيادات الآخرى محافظة تخشى الأفكار الجديدة، ولهذا توقف مسيرة التطور الجماهيري تحت عناوين متعددة كالقداسة والأصالة والتراث.

3 القيادة الرسالية القائمة على القيم، تكون قيادتها سليمة وحكيمة، لأنها تقود المجتمع تجاه القيم الصالحة من العدالة والمساواة ونصرة المستضعف.. بينما القيادات الآخرى وباعتبار منطلقاتها اللاقيمية لا تستطيع ان تقود الناس الا إلى الظلم والعدوان والتمييز والتعالي على الآخرين.

رابعاً : الشمولية

تكامل الحركة الإسلامية يعنى التفاتها إلى جميع الأبعاد والتوجهات. ففى الوقت الذى تقوم فية الحركة بنشاط فى الجانب الثقافي، فهى مدعوة فى نفس الوقت إلى تطوير قدراتها وكفاءاتها فى المجالات الآخرى السياسية والا جتماعية والاقتصادية.. ويؤكد السيد المرجع على وجود هذه الصفة فى الحركة الإسلامية لاعتبارين اساسيين:

الأول: ان تعدد الأبعاد وتنوع الاختصاصات فى الحركة الإسلامية يعتبر امان لها من المفاجات والانعطافات المرحلية. وبمعنى آخر ان الحركة على هذا الفرض تكون مستعدة لاى منعطف مرحلى، سواء الانتقال من البناء الداخلى إلى العمل السياسى او التنظيم الثقافى او غير ذلك، خصوص وان اختلال ميزان القوى لصالح الأعداء التقليديين يجعل من الضرورة بمكان اخذ الا حتياط والتحسب بالبناء المتكامل الابعاد.

الثانى: لقد شهد الوطن الإسلامى العديد من الحركات ذات البعد الواحد، وعلى الرغم من انها اصلحت جوانب مهمة فى حياة الأمة الإسلامية، إلا انه لم يكتب لها النجاح فى المحصلة النهائية. وهذه الحركات بدات منذ اوائل عقد الخمسينات من حركة الشيخ محمد عبدة الثقافية إلى حركة السيد جمال الدين الافغاني السياسية أو حركة الشهيد نواب صفوي العسكرية.

ولعل السبب الأساسى فى عدم وصول الحركات ذات البعد الواحد إلى تحقيق اهداف استراتيجية، هو ضعفها فى التحليل والتشخيص لواقع المشكلة فى الوطن الإسلامى. وهذا هو الذى يدفعهم إلى الاهتمام ببعد واحد

فقط دون سائر الابعاد. والخطا الذي يكتنف هذا التشخيص، هو أن حياة الأ مم والشعوب كل متكامل، ولا يمكن حل مشكلة دون الالتفات إلى سائر الجوانب. ذلك لأن المشكلة في الوطن الإسلامي كما بحثنا ذلك في الفصل الأ ول هي حضارية بالدرجة الأولى، ولا تختص بجانب من الجوانب. ولهذا فإن حل هذه المشكلة:

1 يجب أن يكون شاملا لا جزئيا، لأن حالة التداخل بين ابعاد حياة الإ نسان ثابتة لا يمكن انكارها. ولنتصور مثلا ً ان المشكلة كانت سياسية وتوجهت الحركة إلى حل هذه المشكلة تحديد بصورة من الصور، فهل يعني ذلك أن كل المشاكل قد انتهت؟ كلا.. لأن الحالة الاجتماعية إذا كانت فاسدة، سوف تستدعي بروز جهاز سياسي على نفس الشاكلة الاجتماعية، وهكذا بـ النسبة لسائر الابعاد.

2 ولكن يأتي سوال وهو:الا يعتبر ذلك نوع من الفوضى في نشاط الحركة الإسلامية، إذ انّ ضوابط العمل المرحلي لا يمكن تحديدها على هذا الا فتراض؟ للإجابة على هذا التساؤل يؤكد السيد المرجع ان هذا لا يعتبر فوضى ، بقدر ما هي عملية موازنة ناتجة من الاحاطة بمشكلة الأمة من كل جوانها. غاية الأمر ان هناك اولويات استراتيجية تحددها الحركة الإسلامية نظر إلى مرحلتها الراهنة، وهي في ذات الوقت تهتم بسائر الأبعاد والمجالات اعتماد على العاملين اللذين ذكرناهما في البداية.

وهذه الشمولية في راي السيد المرجع تعبير عن عمق النظرية وسلامتها في الرؤية الإسلامية، بخلاف سائر الاتجاهات الآخرى، لأن الذين يحملون شعار البعد الواحد في العمل الثورى كالماركسية مثلا ً او الوجودية او الليبرالية يساهمون في سقوط الجماهير ضحية الاستضعاف والاستغلال مرة اخرى. لأن الحالة المقلوبة لابدّ وان تعود مرة أخرى بعد ذوبان النتيجة التي تحققت بالبعد الواحد، بينما الإسلام يريد ان يحل هذه المشاكل من اصلها ودون رجعة ابد.

ثم يشير السيد المرجع إلى ان إليه الشمولية وتعدد الابعاد، إنما تكون بـ البناء الشامل للأفراد الحركيين. فإذا كان هؤلاء الأفراد المنتمون للحركة الإس لامية متعددى الأبعاد ومتنوعى الاختصاصات، فإن هذا سوف ينعكس ايجاباو سلب على تكاملية الحركة. وبالإضافة إلى ذلك يمكن للحركة الإسلامية ان تخصص تبع لمعطيات الأفراد في مجالات متعددة؛ فبعضهم يهتم بالسياسة، واخرون بالاقتصاد، واخرون بالثقافة والفكر، واخرون بالإعلام والصحافة، وهكذا.. وبهذه الصورة تكون الحركة الإسلامية هي الجهاز المنظم للمسيرة المعتمدة على توفر الإمكانات والكفاءات. وهذا العمل يشبة عمل الأجهزة المخلوقة داخل جسم الإنسان. فهو ياكل على مائدة الطعام أصناف مختلفة من الماكولات، ومن ثم تقوم الأجهزة المذكورة بعملية فرز، فيحول قسم منه إلى تقوية الاعضاء وآخر إلى الدماغ، وهكذا.

ويستوحى السيد المرجع فكرة الشمولية للحركات الإسلامية من رسالة الإس

لام الذى جاء لتحرير الإنسان من العبودية والاستغلال بشتى انواعة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. غير أن المشكلة تكمن فى أن بعض الحركات ونظر لنشوئها فى ظرف معين يصطبغ بالسياسة مثلا. فإنها تبع لذلك تعتبر هذا المجال هو العمود الفقرى للحركة، وتتناسى الأهداف الأساسية التى قامت من اجلها أصلا ً مثل الدعوة إلى الإسلام كوحدة متكاملة، وتحكيمه على حياة ا لإنسان كاملة ايضا، بما فيها تطبيق التعاليم الدينية والالتزام بالفرائض و الواجبات التى من شانها ان تبنى الإنسان المؤمن المتكامل الذى يعرف ثوابت الدين ويفهم ظروف الحياة.

ثم يؤكد السيد المرجع ان التوجة المتكامل للحركة الإسلامية، لهو دليل على سلامة توجهها وعمق برنامجها التغييرى، لأن كثير من الحركات تتجة إلى القيام بعمل سطحى لا تستطيع ان تصل بواسطته إلى تحقيق مكاسب استراتيجية. وحتى لو انها وصلت إلى بعض الأهداف الجزئية، فإن هذه الأ هداف سرعان ما يحدث الالتفاف حولها.

خامسا: الاممية

نشوء الحركات التغييرية عادة ما يرتبط بتحقيق اهداف محدودة فى قطر معين وفى منطقة محدودة، وهذا هو الإطار الطبيعى الذى تتاطر به هذه الحركات. لكن هذه الحركات إذا كانت إسلامية المنطلق، فإن المعادلة تختلف كثير بالنسبة إليها كما يرى السيد المرجع الذى يدعو إلى العالمية مقابل القومية والوطنية والاقليمية. وعلى رغم صعوبة هذه الفكرة بالنسبة للحركات الإسلامية الحديثة، إلا أن السيد المرجع يدعو إليها بكل قوة. وهذه الدعوة ليست مجرد فكرة، وإنما اعتمدها السيد خلال مسيرتة الحركية طوال العشرين سنة الماضية. على سبيل المثال لا الحصر نذكر مشاركتة البناءة للثورة الإسلامية فى ايران قبل عام1979م حيث كان يشارك فى نشاطات متعددة موثرة فى بناء الطلائع المؤمنة خارج ايران او الاتصال ببعض الخلايا العاملة او الدفاع عنها فى كثير من المحافل الدولية والاعلامية، وحتى بعد عام 1979م كان يتداول الراى مع المسؤولين الإيرانيين حول قضايا متعددة سواء على صعيد البناء الداخلى أو على الصعيد العالمى. وفى هذا المجال ساهم سماحته فى تاسيس الكثير من القنوات والمحاور التى تهدف بث رسالة الإسلام الصاعد من ايران إلى باقي الدول الإسلامية.

ولا يخفى ان السيد المرجع انطلاق من هذا المبدا يرعى كل بذرة ناشئة تمد يدها للتعاون من اجل الأهداف الكبرى، بل ويتفاعل مع اى قضية إسلا مية. فعلى الصعيد الثقافى مثلا ً يخصص الكثير من توجيهاته ووصاياة لهذه القضايا، ولاجل ذلك فإن من يراجع الكتب التى اصدرها فى عقد الثمانينات بالذات يلاحظ هذا الأمر بوضوح. فكتاب مستقبل الثورة الإسلا مية الصادر عام 1985م يبحث تفصيلا بعض البرامج المتنوعة للصحوة الدينية فى الوطن العربى. وكذلك كتاب العمل الإسلامى الجزء الثالث يعالج قضايا حركية عامة، خصوص فى فصلة الثالث.ان هذه الاصدارات ما

هي الا إشارة واضحة على التفاعل الثقافي مع تيار الصحوة الدينية. وهو في ذات الوقت يساهم بدعم معنوي كبير تجاه هذه الحركات الإسلامية، سواء بـ الدعم الاعلامي أو البناء الداخلي أو العمل التبليغي وغير ذلك.

ويعتمد السيد المرجع على هذه الصفة المركزية للحركة الإسلامية انطلاق من اعتبارين:

الأول: تعاليم الدين؛ إذ أنّ رسالات الله عز وجل جاءت لانقاذ الإنسان من براثن الجهل والشرك، ولا يوجد تحديد لهذا الإنسان في أي قطر أو باي لون. وهذا يعني بصورة اخرى ان الحركات الإسلامية مدعوة إلى مد يد التعاون إلى أي جهد وبادرة من شانها تبليغ رسالة الإسلام إلى كل البشرية. وموضوع الحرص على هداية الإنسان انى كان هو ديدن رجالات الإسلام، وهذا الهدف يتقدم على سائر الأهداف الإسلامية، ولعل حديث الرسول الأكرم : يا علي لئن يهدى بك الله رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت . ولاشك ان توجة الحركات الإسلامية إلى مساعدة اخواتها في المناطق الآخرى مدعاة إلى التاييد الرباني لجهود هذه الحركات.

الثاني: تحصيل العمق الاستراتيجي؛ ولكي يتوضح هذا الأمر لابدّ أن نعرف ان الزمن الذي نعيش فية تطور سريعا، وهذا التطور في الواقع هو اداة من ادوات القوى الميهمنة على هذا العالم، وبواسطة هذه الاداة يمكنها محاصرة أي حركة معارضة بحجة مخالفتها لهذه القوى. وعلى صعيد التيار الديني برز ا لإسلام وبرزت الحركة الإسلامية على انها رقم جديد في الساحة الدولية، يمكن أن يلعب دور كبير في المستقبل. ولاجل ذلك اتفقت هذه القوى مع سائر القوى الوسيطة على السعي لتضعيف الصحوة الدينية انى كانت.

والمواجهة على أساس هذه المقدمة، مواجهة شاملة؛ أي: إن هناك قرارا دولي يمنع تحقيق أي مكاسب وانجازات للحركة الإسلامية في أي مكان كان. ومن هنا فإننا كحركات إسلامية لا يمكننا تجاه هذا التنادي العالمي ان نواجة ذلك الا بالدعم والتعاون بين الحركات الإسلامية. وهذا التعاون والدعم له فوائد كبيرة، ففي الوقت الذي تحاصر فية حركة معينة في زاوية محصورة، يمكن للحركات الآخرى ان تقوم بدور الإعلام النافع في هذا الزمان لصالح تلك الحركة. وهكذا قد نحتاج في فترة من الفترات وعند تصاعد مسيرة حركة من الحركات إلى ممارسة الكثير من الضغوط السياسية والاعلامية من اجل إنقاذ تلك المسيرة.

ولهذا نستطيع ان نقول بضرس قاطع ان هذا العمق الاستراتيجي للحركات الإسلامية يومن لها الكثير من المساعدات ومجالات الدعم المختلفة، ويجعلها كالجسد إذا اشتكي منه عضو تداعي له سائر الاعضاء بالسهر والحمي.

سادساً : الاستقلال

من اولويات الركائز التي يعتبرها السيد المرجع للحركات الإسلامية ركيزة ا

لاستقلال، والاستقلال مفهوم شامل يدخل فى مجال الدعم والامكانات إلى السياسة ومن ثم الثقافة والفكر.

وما من شك فى ان الحركات المستقلة تعانى من صعوبات عديدة، لاسيما وان تاثيرات القوى الضاغطة تحاول فى هذا الزمن بشتى الطرق وضع الخناق على هذه الحركات من اجل فرض ما يريدون عليها، خصوص وان عالم اليوم أصبح عالم المصالح لا يعطي الا إذا اخذ.

ومن هذا المنطلق يرفض السيد المرجع فكرة الوصاية على الحركات، لأن هذه الوصاية تعني فقدان القرار السياسي والحركي. وإذا ما فقد هذا القرار، فإن الحركة انئذ لا تعدو ان تكون نسخة مشابهة لاتجاهات اخرى، وحينها لا داعي لوجودها، لأنها لا تضيف جديد على ارض الواقع.

ويؤكد السيد المرجع ان الحركة الإسلامية باعتبار منطلقها الدينى تمتلك قوة هائلة يمكنها من الاعتماد على نفسها وعدم الخضوع إلى ضغوطات القوى الآخرى، وهذه القوة هي التوكل على الله سبحانه وتعالى.ان أهم ما فى التوكل من فائدة هو انه يكون مساعد للحركات الإسلامية فى جهودها المتعددة، سواء مع البناء الداخلي أو مع الصراع الخارجى. وفى كل هذه الأ بعاد يكون التوكل مصدر للقوة والتحدى ضد كل شيء من شانة سلب استقلا ل القرار. وبخلاف ذلك فإننا إذا راجعنا تاريخ الحركات التى كانت تعتمد على غير الله عز وجل وتنتظر المعونة من جهة والغطاء من جهة اخرى، مثل هذه الحركات لا تلبث ان تزول، لأن التبعية بالنسبة إليها حاجة ماسة لا تستطيع الحصول على شيء الا بها.

ويتدرج سماحته فى الحديث عن الاستقلال، فيقول: ان الجماهير هم أفضل من يوفر الاستقلال للحركة الإسلامية. فاولا تستطيع الجماهير توفير الدعم المالى والقدراتى، ممّا يجعلها سنداً قوياً للحركات امام المشاكل والهزات العنيفة. وهنا يؤكد سماحته ان من واجب الجماهير دعم الحركات الإسلامية بكافة الامكانات، لأنها الحصن المتقدم فى المواجهة مع الأعداء التقليديين. ومع واجب الجماهير هذا ايضاً فإنه لا ينسى التاكيد المتواصل على ابناء الحركات الإسلامية فى السعى لتحصيل الاستقلال والمحافظة عليه. وهذا يتحقق بأمور:

الأول: قوة المال؛ فالحركات الإسلامية هم اولى الجماعات فى حاجتها إلى بناء القوة المالية من أجل انجاز المشاريع الإسلامية المتعددة. وهنا يدعو سماحته الحركات الإسلامية إلى السعي نحو تقوية هذا المجال بنفسها معتمدة على همم أبنائها وتخطيطهم للحاضر والمستقبل، فيسعون إلى تاسيس الشركات وانشاء التجمعات الاقتصادية المختلفة حتى تضمن تحديد موارد ثابتة للحركة الإسلامية.هذا مع التأكيد على ان للإنسان الحركى أيضاً برامج خاصة تساعدة على استقلالة، مثل برامج الزهد والتقشف التى دعا إليها الدين. وفى هذا المجال يشيد سماحته بتجربة الإسلاميين فى مصر، إذ انهم بعد معاهدة كامب ديفيد عام 1987م وبعد الانفتاح الاقتصادى فى مصر توجهوا إلى القيام باستثمارات اقتصادية عبر انشاء بنوك اقتصادية إسلامية لا

ربوية، وقد نجحت هذه الفكرة وتعامل معها الكثير من الشعب المصرى، لذلك فإن مثل هذه المشاريع يبارك الله عز وجل فيها وتساهم فى تحقيق الاستقلا ل الاقتصادي.

الثانى: قوة الرجال؛ وهى المادة الأساسية الثانية المودية للاستقلال. ولا شك ان هذه القوة تاتى بعد تراكم التجربة، هذه التجربة التى تجعل شخص واحد يحمل بين جنبية قوة امة. وبالطبع المقصود من قوة الرجال قوة النوع لا الكم.

بهاتين القوتين يمكن للحركة الإسلامية ان تتحصن بمبدا الاستقلال، وحينها فقط نستطيع ان نقول ان الحركة الإسلامية تمتلك قرارها السياسى و الحركي.

وهنا لابدّ ان نشير إلى مسالة هامة، هى ان الإيمان بالاستقلال لا يعنى الا نكفاء والانعزال عن العمل ضمن المؤسسات القائمة. كلا.. بل باعتبارنا حركة إسلامية فإننا نومن بالعمل السياسى، بل وحتى التفاوض مع القوى الآخرى، شريطة عدم التراجع عن المرتكزات الثابتة لنا نحن كاسلاميين.

ثم يؤكد سماحة السيد على ان الاستقلال فى الثقافة والفكر هو اساس الا ستقلال الشامل، والاستقلال الثقافى واضح كالبديهة فى عقيدة الإسلام الذى يعتبر منظومة فكرية متكاملة فى المتغيرات والافكار والخطط. وإذا تم هذا النوع من الاستقلال، فإن الحركة الإسلامية سوف تكون قادرة على تحصيل ا لاستقلال الاقتصادي الذي تحدثنا عنه فى قوة المال. وبتوفير هذين الاستقلا لين تكون الأرضية مهيأة لتحصيل الاستقلال السياسى. واخير فإن السيد المرجع يضع للاستقلال ثلاث مراحل:

الأولى: الاكتفاء الذاتى بداية الاستقلال، لأن الاستقلال عن الآخرين يعني تدشين عملية جديدة تهتم بعملية التنمية الحقيقية التى تستخرج الإمكانات الذاتية، وتبدأ مرحلة جديدة للصناعة الوطنية.

الثانية: بناء التنظيم الاجتماعى. ويؤكد السيد فى هذه المرحلة على ان تكون الحركة الإسلامية قوية.إذ كلما قويت شوكتها، كلما كانت قادرة على تحصيل الاستقلال. وهذا هو الذى يعتبر البداية لبناء أسس الحضارة الإسلا مية.

الثالثة: بعث الهمم فى نفوس أبناء المجتمع عبر ايجاد روح التقدم فى الأ مة. وهذه الروح يمكن اثارتها بعد معرفة مجمل الموثرات التى توثر عليها، ويمكن لهذه الروح ان تتجاوز حالة التواكل واللائقة بثلاث صفات:

1 . ان السير نحو مسيرة الاستقلال يبدا من الزراعة، وهذا ما اثبتته مسيرة الحضارات القائمة.

2 . الثقة بالذات والتوكل على الله سبحانه وتعالى.

3 . الاعتزاز بالصناعات التقليدية التى من شانها تحقيق الاكتفاء الذاتى دون اللجوء إلى الآخرين.

سابعاً :الوحدة

يتحدث السيد المرجع في كثير من توجيهاته إلى الحركات الإسلامية عن الوحدة الإسلامية بمراحلها المتعددة، وهو حين يتحدث عنها يؤكد ان الوحدة ليست شعار مجرد ترفعة بعض الجهات للاستهلاك الاعلامي. كلا..انما هو تجسيد لمجموعة حقائق حاكمة على استراتيجية هذه الجهة، فهي ترفض الخ لافات والتحزبات، وتدين العصبيات والمحوريات. وهنا يكون سعي هذه الحركة سعي جاد نحو الوحدة

ومسالة الوحدة مسالة حساسة بالنسبة للحركة الإسلامية، وبالنسبة للأمة ايضاً، لما لهذه الوحدة من منطلق دينى، ولما لها من حاجة ضرورية فى مسيرة العمل الإسلامي.

ويؤكد السيد المرجع ان الوحدة بين الحركات الإسلامية مطلب استراتيجي وهام في هذه المراحل بالذات. ونحن حينما نطالب بالوحدة، فإن هذه المطالبة تمس كل شخص ينتمي إلى هذه الحركات، لأن الحركة في الواقع هي انعكاس لطبائع الأفراد. والإسلام حينما يدعو إلى الوحدة، فإنه يكلف الإنسان المؤمن بعدة برامج تجعل الأرضية مهياة للوحدة، وتبدا هذه البرامج من حسن الظن بالاخرين والتعامل الحسن معهم والتخلق بالأخلاق الفاضلة تجاههم وتنتهي بالتقوى. وبهذه البرامج يستطيع الإنسان ان يقاوم هوى التفرق والا ختلاف الذي تنزع نحوة نفسه في كل حين، وعلى ذلك نستطيع ان نقول ان الوحدة لا يمكن أن تتحقق الا بالتقوى.

ولكن ما هي الدوافع نحو وحدة الحركة الإسلامية؟

يجيب السيد المرجع عن ذلك بالاشارة إلى ان وحدة المنطلق ووحدة الأ هداف بالتالى تدعوان الحركة الإسلامية إلى الوحدة. فمنطلقها هو الدين، وهدفها إعادة الإسلام إلى مسرح الحياة. وهذان هما أساس تعاون الحركات ا لإسلامية واساس وحدتها. وعلى الرغم من هذا الامر، كيف تتم الوحدة بين ا لأمة الإسلامية؟

القران الحكيم اشار مرارالى مسالة الأمة الواحدة، ولعل الآية الشريفة التى تقول: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ .

هذه الآية فيها إشارة واضحة إلى موضوع الوحدة، بيد ان الإنسان عموم على هذا الكوكب تتنوع افكاره ومصالحة عن الآخرين، ممّا يجعل وجود الاخت لاف حالة طبيعية وغير شاذة. ومع هذا الاختلاف الحاصل والتنوع الموجود، إلا ان الإنسان إذا كان طاهر النفس فإنه سوف يسعى بالتاكيد إلى تقوية العلا قة مع الآخرين، خصوصاذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ثم يتطرق سماحته إلى الحديث عن علاقة الحركات الإسلامية ببعضها البعض. وقبل ذلك يفرق السيد المرجع بين الصراع والتنافس؛ فالصراع هو أن تقوم حركة على سبيل الفرض ببناء ذاتها وبهدم مكتسبات الآخرين، حسد منها أو جهلا. بينما التنافس هو عملية بناء فقط تتوجة فية الحركة لبناء الذات وت لافي الأخطاء من دون السعي لهدم انجازات الآخرين. ولكن للأسف عادة ما

يكون الصراع هو الدائر بين بعض الجهات، ونحن لا نشك بان وجود الصراع بدلا من التنافس إنما هو موروث من موروثات الأمة المتخلفة الذى يمنع من الوحدة والتجانس بين هذه الحركات.

اذا عرفنا هذه المقدمة، فإن التنافس يجب ان يكون حاكم فى علاقة الحركات الإسلامية ببعضها البعض.

وهنا نصل إلى الالية التى يمكننا بواسطتها توحيد الأمة الإسلامية. فالسيد المرجع يرى بأن وحدة الحركات الإسلامية هى الطريق الاقصر لوحدة الأمة، وهذه الفكرة نابعة من ان المؤسسات الاجتماعية الطاهرة هى التى يجب ان تتصدى لهذا الدور، وافضل هذه المؤسسات هى الحركات الإسلامية. وبالطبع نحن حينما نقول ذلك، فإننا نقصد الحركة الإسلامية المتصفة ببرامج التقوى التى هى عبارة عن ارضية الوحدة وعدم تاثيرها بموروث الأمة المتخلف الداعى إلى التفرقة.هذا مع اننا نومن بأن الحركة الإسلامية لكل الأمة وليست إلى جهة معينة تتحزب إليها فقط، لأنها ان تحزبت لا يمكنها أن تكون داعية للوحدة. ومن هنا صح لنا ان نقول ان الحركة الإسلامية داعية للوحدة، لا موكدة لواقع التجزئة والفرقة.

واخيراً فإن السيد المرجع يضع ثلاث مراحل تدريجى لتحقيق الوحدة بين الحركات الإسلامية وبالتالى لوحدة الأمة الإسلامية، وهذه المراحل هى التالية:

الأولى: الدعوة إلى العمل الجمعى، ذلك لأن روح الجمع والفريق تكرس الخبرة وتزيد من العمق. لكن المشكلة ان واقع التخلف المسيطر يدعو عادة إلى العمل الفردى إلى الحد الذى لا يستطيع فية أحد ان يعمل مجموع. ونظر لأن الكفة الراجحة هى كفة الأعداء التقليديين، فإننا لا يمكن ان نقابلهم بجهود بسيطة متناثرة هنا وهناك، بل المطلوب التوجة إلى العمل الجمعى لكى يكون التاثير أكبر. وهذه الدعوة لابدّ أن تجد طريقها بين الحركات الإسلامية والطلائع، ومنهم تنتقل إلى باقي المؤسسات والتجمعات.

الثانية: تاكيد القواسم المشتركة، وهذه القواسم بين الحركات الإسلامية أكثر من أن تحصى. واهمها وحدة المنطلق ووحدة الأهداف، وهذه الوحدة لا بدّ أن توثر تاثير مباشر على تحديد الاستراتيجيات وسلم الأولويات. وإذا تم تحديد ذلك بالنسبة للحركة الإسلامية، فإنها يمكن ان توجد حدادنى على اقل الاحتمالات من الروي الموحدة وطريقة العمل المشترك.

وفى هذا المجال يدعو سماحته إلى التواصل الثقافى بين الحركات الإسلا مية، سواء عبر الحوارات او الموتمرات او اللقاءات الثنائية، حتى يكون هذا التواصل رسول الحوار والتشاور والاتفاق على الحد الادنى من القواسم المشتركة. كما أنّ هذه الرسل تتكفل بمناقشة مشاريع الحاضر والمستقبل، لا ان تحاكم الماضي.

الثالثة: الدعوة إلى قيادة موحدة للحركات الإسلامية، سواء لشخص أو

لموسسة. وضرورة هذه المؤسسة تنبع من قدرتها على إدارة العمل المشترك، وامتصاص الخلافات بين الاطراف.

واخيراً فإن الوحدة مطلب ديني استراتيجي، ومن اجل ذلك لابدّ من امتصاص الأزمات وعوامل التناقض المفتعلة وصولا إلى الأهداف الكبرى التي يتفق عليها الجميع.

التمهيد

e

&

كيف يجب أن نفهم الإسلام؟

تركت الحضارة المادية المعاصرة، بفعل ما تحمل من بريق شهوِي لذيذ، تركت على المسلمين نوعين من التاثير:

النوع الأول التأثير السلبي.

النوع الثاني التأثير الإيجابي.

فهى من جانب استطاعت ان تسلب من بعض البسطاء منابع التفكير، وتدفعهم إلى التنكر للإسلام والاعتقاد بخرافيته، او على الأقل بلا جدوائيته للحياة.

وهى من جانب اخر استطاعت ان تفرض على كثيرين نوعاً معيناً من التفسير للدين، بحيث اصبح هذا الدين يبارك هذه الحضارة، ويتاقلم معها، ويواكبها..

ويستطيع أي فرد أن يطل على المجتمعات الإسلامية ليتعرف على:

أولا ً أصحاب النوع الأول :

وهم كل المتمردين على الدين سواءً الإنحلاليين منهم ام المنظمين فى الحركات المختلفة.

ثانياً أصحاب النوع الثاني:

وهم كل الذين يقبلون من الدين ما يماشى شهواتهم، ويحاولون ان يفسروا ما يخالفها تفسيراً يتفق مع تكل الشهوات، أو على الأقل لا يندد بها..

وقد وجد كل من النوعين افراداً نذروا انفسهم من اجل وضع اقوال نظرياتهم فى مزهرية الفلسفة. بحيث أصبح انفعال هؤلاء بالحضارة المادية الشهوية، كأنه نتيجة تفهم كامل للحياة والإنسان.

وإذا كان تاثر النوع الأول من المسلمين بهذه الحضارة غير ذى اهمية بالنظر إلى وقوفهم فى صف الأعداء وانكشاف انحرافهم العريض على الملأ فإن تاثير النوع الثانى، اكثر خطورة على الفكر الإسلامى، ذلك لأنهم بوقوعهم فى صف الأصدقاء أكثر قدرة على التخريب من غيرهم.

ويعتقد ان اكثر هؤلاء مخدوعون، ومنفعلون، ولكنهم على اى حال خاطئون في طريقة فهم الإسلام.

فماذا يفعل هؤلاء؟

وكيف يجب ان نفهم الإسلام؟

منذ البداية يقول الإسلام إنه يعتمد على الغيب كعنصر اساسى، ووحيد فى فهم الحياة، ويصرح بذلك القرآن الحكيم قائلا ً: ا لم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا َ رَيْبَ فِيهِ هُدى ً لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .

ومنذ البداية يصرح الإسلام بانه دين الحياة، بكلا جانبيها الدنيوى والآخروى معاً. فهو منهاج يومى لكل إنسان يمشى على وجه الأرض، ولكنه منهاج يومى من أجل الآخرة والدنيا وليس من أجل أحدهما فقط.

ولكن المنهزمين الفكريين، من النوع الثانى يحاولون، تحت تاثير بريق الماديات، ان يكشفوا عن الوجه المادى للإسلام، ولهذا فإنهم يحاولون ان يبرهنوا على الفوائد المادية الدنيوية البحتة التى يجنيها المسلم من وراء النظم والشرائع وحتى العبادات الإسلامية.

ويهدف هؤلاء من وراء ذلك: كسب ود الحضارة المادية من دون التنكر للدين. فهم يريدون أن يبقوا فى صف أصدقاء الدين، من غير أن يفقدوا التوغل في الماديات.

وينسى هؤلاء أن الإسلام حضارة فكرية متكاملة لا.. ولن يتغير حسب تغير ا لأهواء فالإسلام نابع من صميم الواقع الحياتى والكونى.. وما دام أن هذا الواقع لا يقبل التغيير فإن الإسلام هو الآخر لا يقبل التغيير.

وإذا كانت الشهوات لا الواقع الحياتى هى التى تتغير، فإن تغيرها سريع، وعنيف وزائل, وتغير الموضات تكشف عن ذلك.

بيد ان الإسلام ليس دين الشهوات، إنه قائم على العقل ولكنه بالطبع لا يتنكر للشهوات.

فإذا غيرت الحضارة المادية الآية، فبنت الحياة على الشهوة وتنكرت للعقل فهل يجب على الإسلام الذى جاء لتنظيم الحياة ان يغير هو الآخر ايديولوجيته ؟

مرة اخرى لابدّ من التاكيد على ان الإسلام حضارة فكرية مستقلة، تعرف واقع الإنسان وواقع الحياة وتحاول ان تبنى المجتمعات على اسس فكرية تعتمد على التعقل وليس على الشهوةن من هنا فإننا ندين اية محاولة لتفسير ا لإسلام فى مناهجه، ونظمه، وشرائعه، تفسيراً مادياً يتاقلم خلاله وفق الحضارة المادية.

إن الإسلام لاتبهره المظاهر اللذيذة، ولذلك فهو يدين اية محاولة لتثبيت هذه المظاهر، وتعميقها.

إن الحياة البشرية لها جانبان: جانب مرئى وهو الجانب الدنيوى منها وجانب غير مرئى وهوالجانب الأخروى منها، تماماً كما انّ للقمر مثلا ً جانبين، جانب مرئى وجانب غير مرئى، لا يستطيع أحد أن يفهم الجانب غير المرئى من الحياة البشرية إلا إذا سافر إلى الموت، تماماً كما لا يستطيع احد ان يفهم الجانب غير المرئى من القمر إلا إذا سافر إليه. وعلينا أن نخضع فى ذلك لله فحسب لأنّنا لا نستطيع فهم الجانب الثانى من الإنسان وإذا كانت الحياة

البشرية لها جانبان: دنيوى، وأخروى فإن للإنسان أيضاً جانبين: مادى وروحى و لا بد فى وضع المناهج مع ملاحظة كلا جانبيه، حتى تسعد حياته من كلا جانبيها.. كذلك.

فماذا تنفع السعادة الدنيوية، إذا كانت تنتج شقاءً اخروياً؟ وماذا يضير الإ نسان ان يكون غير سعيد في هذه الدنيا إذا كان سيمتلك السعادة الأخروية؟

إن المظاهر المادية فى الحضارة الحديثة، إنما تلاحظ الجانب المرئى من الإ نسان، وهو جانبه الدنيوى المادى، وتهمل الجانب غير المرئى من الإنسان، وهو جانبه الأخروي الروحي.

وبناء الإنسان على جانب واحد، يشبه إلى حد كبير بناء بيت على جدار واحد فبالإضافة إلى أنه لا يسعد الإنسان، فإنّه يفكك المجتمع، ويمزقه.

فإذا كان الإسلام الذى يبنى الإنسان من كل جوانبه يجمع حتى بين الأعداء: وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّه ِ عَلَيْكُمْ إِذ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّه ُ لَكُمْ ايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [1]، فإن الحضارة المادية تعمق الفردية، والأنانية، والمصلحية وتبني الإنسان من جانبه المادي فقط.

من هنا كان لابدّ ان نفهم الإسلام من الناحية المادية والمعنوية معاً ليس من ناحية واحدة فقط.

ولذلك فإن مجموعة كبيرة من واجبات الإسلام ذات اثر معنوى اخروى بحت.. وأية محاولة لاكتشاف آثار مادية دنيوية فيها فإنها محكومة بالخطأ.

إن الذين يفسرون مثلا ً: الصلاة بأنها رياضة بدنية.

والصوم بأنه رجيم صحتي!

والحج بأنه نزعة جماعية!

والزكاة، بأنها ضريبة جيدة!

والجهاد بأنه نوع من التدريب على السلاح!

هؤلاء يغفلون عن اعتقاد الإسلام القاطع في وجود جانب اخر غير مرئى للحياة البشرية، وهو الجانب المعنوى الخاص بالآخرة، والذى على اساسه نحن نرفض اية إيديولوجية لا تؤمن بالغيب وتقتصر نظرتها على حياة الإنسان فى الدنيا.

إن التفسير المادى لمبادئ الإسلام وشرائعه، يمكن ان يتحول إلى إدانة لهذه المبادئ والشرائع فيما لو قارنا بينها وبين عادات وتقاليد الحضارة المادية الحديثة.

فإذا كانت الصلاة رياضة بدنية، فإن ما لاشك فيه ان انواعاً اخرى من الرياضة قد عرفها الإنسان، وبدا يجنى منها نتائج إيجابية ومثمرة ومفيدة من الناحية المادية. مثل الرياضة السويدية، والرياضة اليابانية، والرياضة الصينية.

---

(1) آل عمران 103

ولا شك انها انواع جديدة من الرياضة، وهى انجع بكثير من الصلاة لو اعتبرها رياضة جسدية. ولو كانت الصلاة رياضة جسدية غلفها الإسلام بغلاف عبادى، لكان من المفروض أن تكون صلاة الصبح مثلا ً: عشرين ركعة، وصلاة الظهر ركعة واحدة، لأن الرياضة الجسدية فى الصباح اكثر فائدة منها فى الظهر.

وايضاً كان من المفروض فى صلاة العشاء ان تكون اكثر من اربع ركعات، لأن المشى والتحرك بعد العشاء اكثر ضرورة من المشى والتحرك بعد الظهر، فهل تنفع فى ذلك اربع ركعات فقط؟

وإذا سقطت الصلاة من الوجهة الرياضية فهل يسلم الصوم، من الوجهة الصحية فقط؟

أم هل يبقى الحج: نزهة جماعية والزكاة أجمل أنواع الضريبة والجهاد خير وسائل التدريب على السلاح.

إن فهمنا الإسلام، لا يكون عن طريق فرض الفكر المادى عليه، وإنما عن طريق فهم الحياة من زاويته الخاصة.

وإلا كان لكل واحد منا ان يسقط اى حكم إسلامى، إذا اكتشف فائدة اكثر فى الحكم المخالف للإسلام، ولكان لكل واحد منا ان يحور اى حكم إسلامى من أجل جعله أكثر فائدة من الوجهة المادية.

وهذا ما يفعله الكثيرون من أبناء الجيل المعاصر.

فما دام الوضوء مجرد نظافة قالوا:اننا نستعمل الصابون، والبودرة والشامبو كل صباح، إذا فلا حاجة إلى الوضوء.

وما دام الحج مجرد، نزهة جماعية قالوا نحن نسافر فى رحلات سياحية ممتعة، إذا فلا حاجة إلى الحج!

وما دامت الشعائر الدينية مجرد تظاهرة بشرية قالوا:نحن نستعمل تظاهرات حديثة، إذا فلا حاجة إلى الشعائر الدينية !

وبعد ذلك هل يبقى الإسلام؟ ام يتحول إلى فقاعات شهوية تتغير وتتبدل كل يوم؟

إن مشكلة الناس الأساسية تكمن فى انهم يبحثون عن الدين الذى يبارك خطواتهم، ومواقفهم وأعمالهم.

وليس هذا خاصاً بهذا الجيل، وإن كان فيه اكثر بروزاً، فالذين عاصروا الرسول الأعظمXأيضاً كانوا يفتشون عن دين يواكب شهواتهم ولا يحددها.

قول القرآن الكريم:

قَالَ الَّذِينَ لا َ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَو بَدِّلْهُ .

قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاء نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلا ّ َ مَا يُوحَى إِلَىّ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

اتدرون لماذا طالبوا بتغيير القران؟

لقد كانت ايات العذاب الأخروى تقلق مضاجعهم وتدفعهم إلى اتخاذ موقف

أكثر ابتعاداً عن مظاهر الترف والشهوة، والتوغل في المادة. وكانت آيات العطاء والبذل التي تطالب بمساعدة الفقراء وذوى الحاجة تقلق هي الأخرى مضاجعهم، وتجرح عبادتهم للمادة، وكانت ايات التحريم والتحليل التي تطالب بتحديد أهوائهم، تمنعهم عن الانحلال والميوعة.

ولهذا كله طالبوا بكتاب غير القرآن، وقد وضعوا مواصفات هذا الكتاب:

الا يكون فيه هذا حلال وهذا حرام

الا يتكلم عن الغيب

الا يتطرق لقضايا العقاب والعذاب

الا يفرض اي قانون اخلاقي

وهكذا أرادوا للقرآن أن يكون كتاب هوى فأبى إلا أن يكون كتاب هداية.

وكما قال معاصر النبي ذلك، يقول الكثيرون من المسلمين مثل قولهم «تشابهت قلوبهم»، وأهواؤهم وشهواتهم.

غير انهم اليوم لا يطالبون بتغيير الإسلام والقران، وإنما يبدلون ويغيرون حسبما يحبون، ويريدون.

واليوم نجد الكثيرين من الشباب الساقط في حمى الشهوات يقول بين اونة وأخرى:اعرف أن الإسلام يقول كذا ولكنني لا أوافقه على ذلك.

وإذا سألته: لماذا.؟

أجاب: إنه لا يلائم عقلي.

عقله...؟

لا أظن أنه يتحكم إلى عقله فى شيء وإنما الذى يحتكم إليه شهوته. فما دام أن الإسلام لا يبارك أعماله وشهواته قال: لا أوافقه على ذلك.

وقال في تبرير ذلك عقلي!

إن الكثيرين من القراء عندما يقرؤون كتاباً اى كتاب يحبون ان يكون صورة مغرقة ومشجعة لهم كما هم وبكل ما هم عليه من افكار وعواطف، ومن خير وشر، وعندما يقرؤون كتاباً دينياً يرغبون في أن يجدوا فيه، تبريراً لهم ليشهروا منه سلاحاً ماضياً على ضمائرهم ومجتمعاتهم التي تؤنبهم على كل انحراف. ومن هنا نجد اتجاه كل اصحاب فكرة ومصلحة، إلى الكتب التي تؤيدها وتبررها دون الكتب التي تنتقدها وتشجبها، ونرى الذين يحلو لهم أن يكونوا ملتزمين ياخذون منه كل كلمة توحي بما هم عليه، ويعتبرونها دليلاً على عظمة ذلك الدين، ويهملون الكلمات التي توحي بما ليسوا عليه، وكان كل فرد منهم مكان القيادة في الوجود، فله ان يصدر إرادته على كل شيء، وان يصدر احكامه على كل احد بينما يكون لزاماً على كل شيء ان يكون وفق مشيئته، ويكون لزاماً على كل احد ان يكون وفق رغبته، او كان اللّه خلقهم ليكونوا مقاييس للخير والحق، فكل ما فيهم خير وحق، وكل ما ليس فيهم شر وضلال، او كان كل نقد ذاتي انحراف، عليه ان يقابله بالإعراض والإنكار، او كان الأديان هبطت من السماء للتمسح على الأقدام والتربيت على الأكتاف، وهذه الروح المتحيزة للذات، روح اجنبية عن العالم الإسلامى، ودخيلة عليه وقد تسربت

إليه على اثر تقلص الإيمان العملي من العقول، الذى كان يملى عليها شعوراً عفوياً بان الفرد ليس كل شيء،وإنما هو جزء من مجموعة كبيرة هى بدورها خاضعة لمجموعة اخرى اكبر من القوى والمقاييس الفكرية والطبيعية التى يجريها الله وفق حكمة بالغة الدقة.

وانحسار الإيمان من العقول ترك فراغاً متعطشاً فاستغلته الأفكار المتمردة التى تملى شعوراً عفوياً بان الفرد اكبر ممّا هو، ومن واقعه وان عليه ان يتبوا مكانه الأعلى بالتمرد والرفض[1].

ويذكر التاريخ أنه عندما نزلت الآية الشريفة:

حتى إذا أتيا أهل قرية استطعتما أهلها فأبوا أن يضيفوهما؟؟؟(أية قرآنية غير مهمش لها فى الأسفل) التي تندد بأهل «الناصرة» الذى رفضوا استقبال النبى موسى ورفيقه، وانتشرت فى البلاد، حمل اهالى الناصرة مقدار بعير من الهدايا الثمينة وجاؤوا بها إلى المدينة المنورة. وكان العهد عهد الرسول الأعظم، ودخلوا بها إلى محضره الشريف، ثم قدموا له الهدايا طالبين منه ان يغير نقطة الباء فى كلمة «فأبوا» إلى نقطتين من فوق، لكى تتحول الكلمة إلى «فأتوا» حتى يرتفع عن آبائهم عار رد الضيف.

وكان جواب الرسول الأعظم X: ليس فقط حمل بعير من الهدايا.. فلو أعطيت الأقاليم السبعة على أن أبدل نقطة في كتاب الله ما فعلت .

القرآن مصدر الإسلام. وهو سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ً ولن تجد لسنة الله تحويلا ً.

قل: ما يكون لي أن ابدله من تلقاء نفسي، ان اتبع إلا ما يوحى إلي.

وإذا لم يكن للنبى X، فهل يجوز لنا أن نبدله حسب الأهواء والشهوات؟ وأن نزيد فيه أو ننقص منه لأن الحضارة المادية تفعل ذلك؟

---

(1) العلامة السيد حسن الشيرازى كلمة الله ص 24 - 25.

الدين لماذا؟

لماذا الدين..؟

هل هو حاجة ضرورية؟

قبل الإجابة على ذلك لا بد من توضيح النقاط التالية:

النقطة الأولى: أن عدد سكان الأرض حسب إحصاء عام 1969 هو 3مليارات و500 مليون نسمة كما جاء في تقرير قسم السكان في دائرة الشؤون الا قتصادية والاجتماعية التابعة للأمم المتحدة[1].

وينقسم هؤلاء السكان إلى أربعة أقسام:

المتدينون سواء المتمسكون بالإسلام او المسيحية او غيرها، وهم الأكثرية الساحقة من البشر:

فعدد المسيحيين يبلغ حوالى مليار وخمسمائة مليون نسمة. وعدد المسلمين يبلغ حوالي مليار نسمة.

وعدد البوذيين يبلغ حوالي 150 مليون نسمة.

وعدد اليهود لا يتجاوز عن 35 مليون نسمة.

لو حسبنا الذى ينتمون إلى بقية الأديان (وعددها ألف وخمسائة دين، على الأ قل) بعشرة ملايين فقط، لأصبح مجموع المنتمين إلى (دين ما) أكثر من مليارى وستمائة وثمانين مليون نسمة أي أكثر من ثلثي سكان العالم.

ب.المتوحشون، أو الذين لا يزالون يعبدون الأصنام، وعددهم يتجاوز السبعمائة مليون نسمة سواء الذين يعيشون فى الهند او الصين او إفريقيا أو أمريكا اللاتينية [2].

ج.الذين نبذوا الدين، بعد أن عاشوا متمسكين به برهة من الزمن، وهم الأ قلية من سكان العالم.

ويجب ان نعترف بان هؤلاء، وإن كانوا قد نبذوا الأديان ولكنهم اعتنقوا (المبادئ) الأخرى، إذ لا يمكن العيش على (اللاعقيدة) إلا إذا أصبح الإنسان (هيبياً) من أصحاب مبدأ الرفض الحديث.

---

(1) ملحق صحيفة النهار الدستور الصادر في 29 آذار 1970.

(2) يدعى محمد قطب أن المتوحشين فى العالم يشكلون نصف السكان انظر كتاب شبهات حول الإسلام ص17

ومن ذلك كله نستنتج اولا ً ان العيش مادياً فحسب اي العيش على اللا عقيدة غير ممكن، إذ لابدّ من العيش معنوياً ايضاً لأن ذهن الإنسان يشبه الكرة التي يستحيل خلاؤها عن كل شيء حتى الهواء وإلا ادى إلى تحطمها تحطماً كاملا ً.

ونستنتج ثانياً ان المتدينيين يشكلون الأكثرية فى حين ان الرافضين للدين لا يشكلون إلا أقلية ولا شك أن بين عشرات الألوف من مفكرى العالم. ممّا يدل على ان هناك إقبالا ً غريباً على الدين، فى كل ادوار التاريخ ومما يدل ايضاً على ان الوجدان الدينى او الحاسة الدينية التى تعتبر بعداً رابعاً فى الإنسان لا يمكن إنكارها بأي وجه.

النقطة الثالثة:ان الدين لا يعنى رزمة من الأساطير التى جمعتها المصالح والأ هواء عبر التاريخ،ولا حزمة من الخرافات التى اعتنقها طائفة من الناس، بل ليست هذه الأساطير وتلك الخرافات سوى غمامات الفكر البشرى العاجز، التى املتها عصور التخلف والرجعية، عندما كان يربط الفرد الحوادث بمشيئة حجر او حركة مدر، او غضبة مسافر، او رضا كاهن، وكان يعتقد ان لنعيق الغراب، او تعرض الثعلب اثراً فى مستقبل الإنسان من صحته ومرضه، وانتصاره وهزيمته ؟

ليس هذا من الدين في شيء.

إن الدين الذى نتحدث عنه هو الذى حرر الإنسان ورفعه إلى مستواه كإنسان، الدين الذي نزل به الوحى واقتنع به العقل.الدين الذى اشترك فى تطبيق مناهجه الأنبياء جميعاً واكتملت على يد الرسول الأعظم ، كما قال القرآن:

اليَوْمَ أكْمَلتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً [1].

النقطة الثالثة:ان المقصود من الدين ليس هو فعل المنتسبين إليه، ممن يعمل ببعض مناهجه، ويترك البعض الآخر لأن مثل الدين مثل الطائرة التى يستحيل طيرانها إلا بعد أن تكتمل كافة أجهزتها، ويتم تزويدها بالوقود.

والذي يعمل، ببعض ويكفر قد يجلب لنفسه الشقاء والوبال، كالطائرة التى إن طارت قبل اكتمال الأجهزة او قبل التزود بالوقود فإنها تعطب حتماً، وتتحطم على الأرض..

الدين هو كل مناهجه بصورة كاملة من أنظمة ودساتير، وأخلاق، وعبادة[2].

بعد توضيح هذه النقاط الثلاث التي تتلخص في:

تمسك الأكثرية الساحقة بالدين.

إن المقصود من الدين ليس هو الخرافات، والأساطير.

إن عمل المحسوبين عليه لا يمكن ان يبرر التحامل على مبادئه بعد توضيح هذه النقاط يمكن تلخيص الإجابة على سؤال: لماذا الدين؟ بأنه ضرورة حيوية لتنظيم حياة الإنسان على الأرض تنظيماً متيناً متناسقاً، يهيئه للعيش فى الدنيا،

---

(1) القرآن الكريم

(2) للمزيد من التفاصيل راجع كتاب ألف باء الإسلام للمؤلف

ويهيئه للحياة الأخرى كما يحسن علاقته باللّه، وبالناس، وبما خلق اللّه من أحياء وأشياء.

إن الدين يجعلنا نعيش أفضل ما يكون العيش.

فما هو العيش؟

العيش:هو ممارسة الطعام، والشراب، والتعامل مع الناس، والاستفادة من كل ما حول الإنسان.

اما كيف يعلمنا الدين العيش الأفضل؟

فذلك لأن الدين مثلا ً يريد ان نطعم، ولكن بالهناء والاطمئنان فلا ناكل إلا برضى صاحب الطعام، وطيبة خاطره، من غير إسراف أو تعدي.

الدين لا يريد ان تحرق امة كشعب الولايات المتحدة

الحنطة والشعير بينما يموت الألوف جوعاً وسغباً [1]

الدين لا يريد أن يشبع الرجل وجاره جائع وإلا فهو ملعون.

وان لا ياكل الإنسان وحده وفى الطعام ما يكفى لإثنين فإن من اكل وحده شاركه الشيطان.

الدين يريد ان ناكل الطيبات من الرزق ولكن بعد ان نؤدى حق اللّه، والمجتمع ، وبعد أن نتأكد من أن لنا الحق في هذا الطعام فلا يكون ظلماً أو بلا عمل.

الدين يقول:

ملعون ملعون من جعل كله على الناس وأكل على حساب الآخرين .

لا مانع من الأكل ابداً ولكن المانع هو الإضرار بالصحة فلا يجوز فى نظر الدين أكل لحم الخنزير، والميتة والدم وما شابه ذلك لأنها تؤدي إلى المرض[2].

الدين يمنع الأكل فى ما ولغ فيه الكلب، او لامسته النجاسة لأن فيه ما يؤدى بحياة الإنسان.

الدين يقول:

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا َتسْرِفُوا [3].

---

(1) جاء فى تقرير لهيئة الأمم المتحدة أن معدل الذين يموتون جوعاً هو : إنسان واحد فى كل دقيقة.

(2) أثبت العلم الحديث أن كل كائن إذا مات تصيبه الميكروبات التفنية، والرمية التى تعمل على تحليل جسمه، ويصبح لذلك كريه الرائحة ،وبه ملايين المكروبات التى تكفى لإصابة مئات بل ألوف من الأحياء . أما الدم فلم يعرف، إنه حامل الميكروب إلا مؤخراً وإذا استعصى على الطبيب تشخيص مرض لجا إلى الدم اسرع وسائل العدوى، علاوة على ما يسببه من تهيج فى غشاء المعدة لمن يتناوله وبتقدم وسائل التشريح فى القرن الأخير، عرف ان الخنزير هو العامل الأصلى للدودة الشريطية التى تصيب الإنسان عندما يتناول عن طريق اكل لحم الخنزير حويصلاتها أو أجزائها منها. وهكذا تجمع الآية الشريفة التالية من سورة المائدة حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير كل وسائل الطب الوقائى انظر مجلة الدواجن عدد 39 آذار 1970 ص 53 - 54.

(3) القرآن الكريم .

والشراب كذلك إن كان مفيداً فلا يمنع الدين منه، إنما يمنع المضر، كالخمر [1] والنجس، كما انه يمنع الترفيه بالهروبين والمارى جوانا، وما شابه ذلك من مخدرات , تسيء إلى إنسانية الإنسان.

وكما فى الأكل كذلك الدين فى كل تعاليمه، يتوخى خير الإنسان وسعادة الإ نسان وترفع الإنسان.

اما فى علاقة الناس، بعضهم مع بعض فإن الدين يبنيها على اسس متينة جداً إذ يقرر مثلا ً أن:

الإنسان اخو الإنسان احب ام كره

ويقول:

كونوا في الناس أن إذا عشتم حنوا إليكم وإذا متم، بكوا عليكم .

وهكذا يبنى الدين المجتمع على اسس نظيفة من الإحسان والإيثار والحب المتبادل:

فلا يكون المؤمن مؤمناً إلا ّ إذا احبّ للناس ما يحب لنفسه، وكره للناس ما يكره لنفسه

وإذا كان الإنسان يحب لنفسه اداء الحقوق، وحفظ الكرامة، وإسداء الخدمات، فعليه ان يحب للناس اداء حقوقهم، ويحفظ كرامتهم ويسدى إليهم الخدمات.

هذا هو جوهر الدين، وما سواه تمهيد لبلوغ هذا الهدف، ولقد بعث الأنبياء لكي يبلغوا بالناس إلى هذا الجوهر الأصيل.

كما صرح بذلك الرسول الأعظم x:

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق [2] وهذه هى الفائدة التى يجنيها الإنسان من وراء تمسكه بالدين.

ولقد استطاع الدين فعلا ً ، ان يبلغ بالمتمسكين به إلى هذه المرتبة الرفيعة، حينما اتخذوه مبدءاً وخلقاً، وشرعة حياة، فاصبحوا مطهرين من شكوك القلب، وفواحش العمل، ورذائل الخلق.

لقد كان الشعب العربى، يعانى من الجهل، والضياع والعبودية فهبط إليه الدين ليصنع منه المعجزات، وليجسد به الحب، والرحمة والإيثار.

لقد ترك اصحاب النبى مكة المكرمة، متسللين إلى المدينة فاحتضنهم اهلها،

---

(1) يذهب العلم الحديث إلى أن الإدمان على الخمر بسبب تحول الخلايا الكبدية الحية إلى ألياف ميتة لا فائدة للجسم منها. وينتج عن ذلك استسقاء البطن كما يؤدى إلى تصلب الشرايين. وما يتبعه من مضاعفات كأمراض القلب والكلى والنزيف المخى يقول الدكتور كيلبرج فى كتاب الاستعمال الطبى للخمر: من كان عنده أقل ريب أو ظل للشك فى أن الخمر ، سم فليعتبر بما يكون عند وصولها محتقناً ويخرج مقداراً، من المخلط ليحمى نفسه ونرى غدد المعدة وقواها الدافعة تسرع فى إخراج ما وصل إليها باسرع ما يكون، ويقول الدكتور مار الاسكتلاندى إن الخمر لا تشفى شيئاً ويقول الدكتور امام الجمعية الطبية البريطانية لا أعلم مرضاً قط شفى بالخمر). مجلة الدواجن العدد 39 آذار 1970.

(2) انظر كتاب مكارم الأخلاق للشيخ الطوسى.

مع فقرهم المدقع وشاركوهم فى الطعام، والشراب واللباس والمسكن حتى كان الرجل منهم لا يملك سوى قرصين من الخبز، فيضيف باحدهما اخيه، ويكتفى با لآخر.

وفى إحدى الغزوات الدفاعية،انكشفت المعركة عن جرحى يغالبون الموت، وكان من بينهم ثلاثة اصيبوا بجروح بالغة، ومن الطبيعى ان يكونوا فى حالة عطشية حادة، لأن النزيف والجراح والحركة تصيب الكبد بالجفاف والإعياء.

فقدم إلى أحدهم قدح من الماء ولكنه رفض شربه!

واشار إلى اخيه الذى كان مطروحاً فى جانب من الساحة فاقترب الساقى إليه، ليجابه رفضه، والإشارة إلى الجريح الثالث، فى جانب اخر من الساحة وعندما اقترب منه الساقى، اشار إليه بالأول، بيد انه ما وصل إلى الأول حتى وجده جثة بلا حراك ورجع إلى الثانى، ليجده قد مات هو الآخر، واسرع إلى الثالث، ولكن بعد أن قضى عليه الجرح والحر والعطش! وهكذا يفعل الدين بـ النفوس.

وهذه إجابة بسيطة على سؤال:

(لماذا الدين؟)

العلم..ام الدين؟

حجمان من غاز الإيدروجين، وحجم من غاز الأوكسجين، بعد إمرار تيار كهربائي يتحدان ويشكلان ماء

الأرض كروية الشكل، وهى تدور حول نفسها، وحول الشمس فى شكل إهليلجي (قطع ناقص).

والشمس هي إحدى بؤرتي هذا المنحني المقفل.

الجزر والمد، حالتان تعرضان البحر نتيجة جاذبية القمر.

يبعد القمر عن الأرض ب 390،000كيلومتراً، ويقطع الضوء هذه المسافة فى ثانية، وثلث الثانية فقط. هذه نماذج بسيطة للمعلومات التى توصل إليها الإنسان، ويعرفها اليوم كل الناس حتى طلاب الصف الثالث الابتدائى، فى هذا العصر.

ولقد توصل إليها الإنسان، عبر مئات السنين من التعب، فساعدته فى استخدام قوى الطبيعة لصحاله. فاخترع السيارة ثم القطار ثم الحوامة ثم الطائرة، ثم (أبولو 11) التى حملته عبر الوف الكيلومترات ووضعته برفق تام على سطح القمر!

وهذه المعلومات، ومئات من امثالها هي التى حققت للإنسان التغلب على المرض ومكنته من القضاء على الجراثيم التى كانت تفتك فى يوم من الأيام بالألوف من غير ان يمكلوا حيالها إلا الاستسلام التام، وهى التى ساعدته فى زرع القلوب، والكلى والأمعاء.

وهكذا فإن العلم نفذ إلى كل شىء وطور كل شىء بنى الصاروخ (ساترون 25) فطار برواد الفضاء إلى القمر وبنى مركبة سيوز خمسة التى طارت إلى القمر وحدها ورجعت وحدها بلا ركاب، وصنع الحوامات الذرية، التى تنغمس إلى عمق 30.000 متر تحت اعماق المحيط. صنع العقل الإلكترونى الذى تضع فى فتحة من إحدى جوانبه كتاباً فى 150صفحة، باللغة وتتسلمه بعد دقيقة واحدة فقط، من فتحة اخرى باللغة الإنجليزية او الفرنسية، او اية لغة اخرى بشرط تضغط على زر اللغة التي تريد[1].

كان الجدب إلى وقت قريب، يولد القحط والقحط يولد الموت والموت يولد الدمار والخراب، لكن العلم الحديث صنع قنابل تفجير الأمطار تفجرها الطائرة فوق المنطقة المجدبة فتنهمر الأمطار كأنها السيل المقطر.

---

(1) أعلن فى ألمانيا الغربية مؤخراً عن صنع هذا العقل الإلكترونى المترجم وسينزل إلى السوق فى أوائل سنة 1973.

كل هذا... وأكثر من هذا توصل إليه العلم.

صحيح انه هناك اكثر من ترمو متر يستطيع ان يظهر مدى القسوة، والأنانية وحب الذات الذي يحمله الإنسان في ظل العلم الحديث.

إن العلم اداة من ادوات المعرفة، وقد خطا بالبشرية خطوات واسعة في طريق الصناعة، والتكنولوجيا ولكنه لم يستطع ان يبلغ بالإنسان إلى شاطئ الأمن، بعيداً عن شبح الحرب، والعدوان وهدر الكرامة، وهضم حقوق الآخرين، ليس هذا فحسب، بل وزاد في قلق الإنسان على مصيره، بعد ان طور العلم، إلى جانب الصناعة والتكنولوجيا، الات الحرب من السلاح الأبيض إلى القنابل النووية، ومن الرمح، إلى الصواريخ ومن السهم إلى المدفع.

في الولايات المتحدة، كما في الاتحاد السوفياتي، وفي بريطانيا كما في فرنسا، تقبع على الأرض عشرات المئات من الصواريخ ذات الرؤوس النووية، بانتظار الساعة التي يضغط فيها على الزر المخصوص لتنقض على كل ما في الأرض، من إنسان ونبات، وحيوان وتجلعها دخاناً، أو شبح دخان.

إن نظرة خاطفة إلى ميزانية الحرب تكشف بوضوح عما يعانيه الإنسان من الشقاء رغم التقدم العلمي العظيم، ممّا يدل على ان العلم ليس في استطاعته أن يحتل مكان الإيمان مهما أحرز من تقدم وازدهار.

تشير الأرقام الموضوعة عن الاقتصاديات العسكرية. وعن سباق التسلح العالمي إلى ان النفقات العسكرية في العالم، تزداد بنسب اكثر بكثير من نسب ازدياد النفقات المعيشية في جوانبها الصحية والتربوية، والغذائية والاجتماعية المختلفة.

ويتبين من الإحصاءات الموضوعة ان معدل النفقات العسكرية العالمية في سنتي 1966 و1967 قد بلغ 182 مليار دولار سنوياً وأن هذا المعدل سيرتفع إلى 400 مليار دولار قبل نهاية سنة 1977 وقد جاءت هذه الأرقام في دراسة موسعة لمؤسسة جيمني نيوز سرفيس الانجليزية.

وحسب إحصاءات منظمة اليونسكو فإن حجم النفقات العسكرية العالمية يتجاوز النفقات التربوية والتعليمية في العالم أجمع بنسبة 40% ومن الوقائع التي تكشفها منظمة اليونسكو يتضح ما يلي:

أولاً: ان معدل نفقات إعداد الطفل في المدرسة لايتجاوز سنوياً 100دولار في حين أن معدل إعداد الجندي العادي يبلغ يبلغ7,800 دولار!

ثالثاً: تبلغ أكلاف النفقات العسكرية في الدول الفقيرة ضعف المساعدات التي تتلقاها من الدول الغنية[1].

ولو فرضنا ان هذه الميزانية، حافظت على معدلها خلال اربعة اعوام التالية من 1966 إلى 1970 فإن ذلك يعني أن إنسان القرن العشرين، أنفق في هذه المدة الوجيزة 728. 000. 000. 000 دولاراً للفتك بأخيه الإنسان!

بينما كان بإمكانه إعالة الشعب اللبناني كله (20. 000. 000نسمة) بهذه

---

(1) صحيفة الأنوار العدد 3382 / 31/ 1970.

الميزانية على أساس دخل فردسى فى حوالى 273. 000 ل. ل. لكل فرد فى السنة!

هذا هو مدى شقاء الإنسان، قبل استخدام هذه الأسلحة فكيف يكون حاله بعد استخدامها.

لا أحد يتمكن من التنبؤ به على وجه التحديد!

هذا عن السلاح، وماذا عن تدهور الأخلاق؟

خلال عام 1968 وحده وقعت فى نيويورك 104 جريمة قتل، و 1840 جريمة اعتداء على العرض و54405 حوادث نهب، و146. 219 حادث سرقة و173. 559 محاولة اقتحام منزل، و74440 حادث سرقة سيارة.

وتعتقد صحيفة نيويورك تايمز (new yourk tims) إن الأرقام الحقيقية أرفع من هذه الأرقام بنسبة 30بالمائة[1].

يقول ديل كارنيجي مؤسس معهد العلاقات الإنسانية:

تدل الإحصاءات فى الولايات المتحدة على انه فى كل خمس وثلاثين دقيقة يقع حادث انتحار، بالجنون وكثير من حالات الجنون على الأرجح يمكن ان يقطع دابرها إذا أصاب هؤلاء الناس شيء من الأمان والاطمئنان [2].

هذه بعض ارقام الجرائم التى تقع فى اكثر البلدان تقدماً فى العلم والصناعة والتكنولوجيا، حيث اصبح العلم عاملا ً من عوامل الخراب، والدمار، والجناية قبل إن يصبح عاملا ً من عوامل الحضارة.!.

ترى هل هناك وسيلة لاستخدام التقدم العلمى فى سبيل سعادة ورفاه الإ نسان؟

لعلنا نستطيع أن نجد الجواب الصحيح إذا عرفنا: أن الناس كلهم يعرفون أن حفظ الكرامات وعدم الاعتداء على حقوق الآخرين، والصدق والوفاء، امور ممدوحة، يستحسنها الضمير الإنسانى. ولكن قليل منهم، هم الذين يعملون بوحي هذا الضمير ويتركون ما لايحبذه.

والسبب: إن هناك فرقاً كبيراً بين العلم والفعل، بين وضع الدستور وبين تنفيذه والناحية الفارغة فى حياة الإنسان ليست هى جانب معرفة الدساتير، وإنما هو جانب العمل بها، وتنفيذ ما جاء فيها.

والإنسان لا يحتاج إلى التعليم بقدر ما يحتاج إلى التربية.

الإنسان ليس بحاجة إلى فتق الذرة، وغزو الفضاء واكتشاف اعماق البحار لكى يحقق إنسانيته، ولكنه بحاجة ماسة إلى قدر كبير من الالتزام بالقيم، و المثل، حتى لا يستخدم العلم فى غير صالحه، فيجلب لنفسه الويل، والليل، والبلاء. وعندما تكتمل تربية البشر، على أساس القيم الخلقية، على قاعدة المحبة، والتعاون والإيثار عند ذلك يستطيع الانتفاع بالعلم، والنظام الصالح.

---

(1) جريدة المحرر البيروتية 7 نيسان 1970.
(2) انظر كتاب دع القلق وأبدأ الحياة ص 291.

عندما يتساوى جانباً الروح والمادة فى الإنسان، وتكون له التربية الصالحة، إلى جانب ما عنده من إمكانات علمية، وتقنية، عند ذاك يمكنه إنقاذ نفسه من براثن الشر والرذيلة والشقاء.

أما قبل ذلك، فإنه لا يجني أية فائدة من سن الدساتير وتشريع القوانين.

اِي فائدة لتشريع لا يملك رصيداً مكافئاً من الداخل يدعو الفرد إلى تطبيقه، ويجعل من ضميره بوليسياً داخلياً، يمنعه من تجاوز القانون ومخالفة ضميره؟؟

إن الدين لا العلم، يصنع هذا الرصيد البوليسي في نفس الإنسان.

الدين تربية قبل إن يكون تعليماً الدين يزكى النفس اولا ً ، ويصفيها من أقذار الشهوة، والطمع والحسد ثم يضع لها المناهج الصالحة لضمان سعادته.

يقول الله تعالى:

هُوَ الذِى بَعَثَ فِى الأمِّيِّينَ رَسُولا ً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلا َ ل ٍ مُبِينٍ [1]

إن الإنسان لن يكون مؤمناً حتى يتكون فى داخله الوازع النفسى الذى لايفتا عن مراقبته ومحاسبته في كل صغيرة وكبيرة.

يقول ابو جعفر الباقر 8:

إنما المؤمن الذى إذا رضى لم يدخله رضاه فى إثم ولا باطل وإذا سخط لم يخرجه سخطه من قول الحق وإذا قدر لم تخرجه قدرته إلى التعدى على ما ليس له بحق .

وهذا ما عناه أينشتين بقوله: العلم يخبرنا بما هو كائن، ولكن الوحى وحده هو الذى يخبرنا بما ينبغى أن يكون[2] إن الإيمان يمنح الأحياء أملا ً فى حياة خالدة يحققون فيها كل امالهم ويستمتعون فيها بكل ما يخطر في نفوسهم من متاع، وهذا يخفف من حدة الصراع فى الأرض، ويتيح فرصة كبيرة لمشاعر الحب، والمودة والأخاء، أن تأخذ طريقها إلى قلب الإنسان.

وهذه مهمة لم يستطع العلم من إنجازها على الأقل حتى الآن بينما انجزها الدين أكثر من مرة في أكثر من قطر بكل يسر وسهولة كما يخبرنا التاريخ.

وما وقع مرة..

يمكن أن يقع أكثر من مرة!

---

(1) القران الكريم السورة 62 الآية 3.
(2) التكامل فى الإسلام ج4 ص 30

ماذا..هو الإسلام؟

اعتقد انه لو وجه هذا السؤال البسيط جداً إلى المليار نسمة من المسلمين الذين يعيشون فى اكثر من الف بلد من بلدان العلم، لجاء الجواب متنوعا إلى ما يقارب المليار نوع ومن المحقق أن يكون بين هذه الأجوبة ما يلي:

الإسلام هو: مجموعة من الأفكار والمعتقدات، والصلوات !.

وأن الإسلام هو: الاعتقاد بالله، كخالق حكيم وبالأنبياء، كسفراء من قبله، وبني الإسلام كخاتم للانبياء !.

والإسلام هو: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله !.

والواقع ان ايا ً من هذه الاجابات ليست صحيحة ابدا، إذ انّ الصلاء والا فكار وما شابه ذلك ليست إلا بعضا من الإسلام لا كل الإسلام وليس هذا التنوع الفظيع فى الاجوبة إلا دليلا ً واضحا على عدم تكون فكرة واضحة لدى هؤلاء عن الإسلام ككل.

وقد نغفر لهؤلاء هذا الاختلاف فى الاجابات، إذا عرفنا نفس هذا السؤال وجّه اكثر من مرة إلى قادة الإسلام، فجاء الجواب مختلفا ايضاً ولكن ليس لعدم معرفتهم للاسلام، ككل بل لاختلاف الظروف والاشخاص فقد قالوا مرة: انه الشهادتين: بتوحيد الله، وبنبوة محمدx، وأخرى:انه التسليم لله فى كل أمر، وثالث: انه ان تبر بوالديك !.

ولكن هل كانو يقصدون فعلا أن هذا هو كل الإسلام. حتما لا !.

فهل ان العذاب الذي تحمله النبي x وأهل بيته وأصحابه الكرام، كان لأجل أ ن يبر الإنسان بوالديه فقط؟.

أو أن يشهد ان لا إله إلا الله، وأن محمدا ً رسول الله فحسب؟.

ان الشخص العدي لو اعطى سلطة شعب لا يبلغ عدد نفوسه المليونن نسمة كشعب الكويت مثلا ً شعر بمسؤليته عن وضع دستور يؤمن للمواطنين حفظالنظام، والحقوق، والامن. فهل خلق الله العشرات الملايين من البشر، من دون أن يضع لهم الدساتير والقوانين؟.

الإسلام كدين نزل به الوحي لا يمكن إلا أن يكون نظاما وعقيدة.

وتعني العقيدة:

أ.الاعتقاد بصانع حكيم مدبر، خلق الكون وجعل له هذا النظام الدقيق[1].

ب.الاعتقاد بعدالة هذا الصانع الحكيم، وعدالة الكون.

ج.الاعتقاد بنزول الوحي من قبل الصنع على بعض الأفراد..

د.الاعتقاد برسالة نبي الإسلام..

ولكن هذه العقيدة ليست سوى ارضية الإسلام، اما البناء على هذه الأرضية فهو النظام الذي وضعه الإسلام، ويشمل كافة المرافق الحيوية للبشر.

ولكى تكون الأرضية متينة، بحيث يمكنها تحمل النظام الإسلامى فقد إهتم القران بها اهتماما بالغا، بل لقد اقتصر فى برهة من زمن الوحي بشرح قضايا العقيدة فقط، فجاءت السور المكية مثلا مقتصرة على معالجة الأسس في بناء التكوين العقيدي للإنسان.

وبعد أن تعمقت هذه الأرضية فى نفوس المسلمين، تتابعت ايات القران، وهي تعالج القضايا الاجتماعية، والسياسية والتربوية...الخ.

ومن هنا فإن الإسلام ليس هو العقيدة فحسب، كما انه ليس النظام فحسب، بل هو الإثنان معا.

وعلى ضوء ذلك يمكن ان نعرف حكمة الاختلاف فى اجوبة قادة الإسلام على السؤال السابق: ماهو الإسلام؟ إذ عندما كان السائل شخصا لم يكمل لديه بناء العقيدة الصحيحة كان ياتية الجواب: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لأنه من المستحيل على مثله معرفة النظام الإسلامى قبل اكتمال ا رضية لهذا النظام.أما عندما كانت عقيدة الشخص مكتملة فإن الجواب كان يأ تي في قضايا أخرى كـ(بر الوالدين) وما أشبه.

---

(1) يقول القران الكريم فى سورة الرعد اية 9 وكل شيء عند بمقدار، وهذه اشارة موجزة الى النظام المفروض على الكون، وكمثال على ذلك نذكر ما يلى : من الواضح ان الارض تدور حول محورها فى كل 24 ساعة مرة واحدة وسرعة حركتها فى هذه الحالة (1000)ميل فى الساعة، فلو كانت هذه السرعة 100 ميل فقط لكان طول الليل عشرة امثال ما عليه الان، وكذا طول النهار، ولاحرقت الشمس فى فصل الصيف كل ما على الارض من نبات، كما ان طول الليل فى الشتاء كان يؤدى الى انجماد المياه، وموت النباتات والحيوانات من البرد .
ومن الواضح ايضا ان درجة الحرارة على سطح الشمس التى هى مصدر الحياة لهذه الكرة الا رضية هى 12,000 درجة فهرنهايت . ويصل الينا من هذه الحرارة ما يؤى الى استقرار الحياة على الارض منذ ملايين السنوات، فلو تغيرت درجة الحرارة على سطح الارض خلال السنة بمعدل 50درجة لانعدمت الحياة كلها، وهلك الناس اما من شدة الحرارة او من شدة البرودة .
لو كانت الارض بقدر القمر، وكان قطرها ربع ما عليه الان لما كانت قوة الجذب على اررض كافية لجذب المياه والهواء، ولما استقر الماء على سطحها، لأن قوة الجذب تكون عند ذلك سدس قوة جاذبية الارض اليو، ولادى ارتفاع درجة الحرارة الى حد يؤدى الى ابادة الحياة عليها.
لو كانت الارض من حيث الكبر بقدر الشمس، لاصبحت قوة الجذب عليها 150 مرة اكثر مما عليها الان حسب قانون نيوتن ك ك ـ ق = ى + م مربع، ولنقص ارتفاع الجو حوالى 10 كيلو مرات، ولما امكن تبخر المياه ولكان الضغط الجوى على كل سانتيمتر متر مربع = 150 ك غ أى لكان وزن حيوان يزن الان كيلو غراما = 150 كيلو غراما، ولكان طول الانسان بطول السنجاب، ولاستحالت الحياة العقلية لمثل هذه الوجودات .

ومن هنا يمكن استنتاج ما يلي:

أ.ان الإسلام ليس دعوة نظرية، وإنما هو عمل يعرف حاجات الناس ويعمل على تحقيقها.

ب.ان العبادات والأذكار، وما أشبه ذلك لا تشكل الإسلام ككل، وإنما هى جزء منه وليست هي كل ما جاء به الإسلام.

ج.إن العقيدة في الإسلام هي الأرضية بينما النظام هو البناء المقصود.

د.إن للإسلام تشريعا ً في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الإنسان.

ه- .إن الإسلام يسعى فى سبيل تحقيق حاجات الناس إلى التوازن المطلق بقدر ما تطيقه طبائع البشر، وهو يستجيب لمطالب الجسد ومطالب الروح فى توازن متكامل.

ان ايات القران التى تعتبر المصدر الأساسى للفكر الإسلامى تتجاوز الستة ا لاف اية، ولا يرتبط بالعبادات منها إلا اقل من مئة اية فقط، اما بقية الآيات فإنها متفرعة لمعالجة الخطوط العريضة النظم والدساتير الإسلامية.

كما انّ الفقه الإسلامى المستخرج قواعده من الشريعة الإسلامية ينقسم حسب المفهوم القديم إلى 24 بابا ولا يرتبط بالعبادات منها إلا اربعة أبواب: تقريبا: بينما البافي (20 بابا ً) تبحث في باقي الشؤون الإسلامية[1].

والمؤسف اننا لا نعرف من الإسلام إلا بعض عباداته، وربما شيئا من سلبيات نظامه.

فنحن قد ندرس الاقتصاد الرسمالى والاقتصاد الاشتراكى ونظن ان مدارس الاقتصاد مقتصرة على هذين المدرستين وقد يتعجب الكثيرون منا إذا سمع كلمة الاقتصاد الإسلامي ويسأل بدهشة: وهل للإسلام نظم اقتصادية؟

كما انه قد يدرس الشاب عندنا العلوم السياسية التى وضعها علماء غربيون اوشرقيون لا فرق من دون ان يتصور ان للإسلام ايضاً تشريعات سياسية، مماثلة على الأقل.

ولا أدرى: كيف يفكر هؤلاء بالنسبة إلى الدولة الإسلامية الكبيرة؟ هل كانت تعيش مدة 1400 عام على الفوضى والاقتصادية والفوضى السياسية و الفوضى الاجتماعية؟.

ام انها كانت ذات نظم في كافة الشؤون؟

التاريخ يقول: لم يقع خلال أربعمائة عام فى أقطار الإمبراطورية الإسلامية إلا حادث واحد للسرقة ممّا أدى إلى تحير العلماء في حكم السارق؟.

الا يدل هذا المثال البسيط على عدم وجود الفقر والاعواز فى هذه الأقطار،

---

(1) جاء فى كتاب تشريعى واحد هو كتاب الوسائل ما يقرب من اربعين الف قانون اسلامى، كبير وصغير .

وإلا يدل ايضاً على توفر سبل العيش لكافة الناس نظرا لوجود نظم إ قتصادية وسياسية متينة تستطيع ان تقضي على اسباب البطالة وتحل المشاكل المعيشية لكافة افراد الشعب؟ حتى نعطى صورة اوضح عن الإسلام لا بد أن نبسط بعض الشيء في شؤون الإسلام: الذي ينقسم إلى خمسة اقسام:

أ الأصول : وهي العقيدة الإسلامية.

ب العبادات: وهي مركزات العقيدة.

ج الأخلاق: وهي القيم والمثل الإسلامية.

د المعاملات: وهى العلاقات التجارية وعلاقة العمال بأصحاب العمل وما شابه ذلك.

هـ الأحكام: وهي العقوبات الجزائية ووالقضاء.

وكما لا تكتمل الدار الا بتمام مرافقها من غرف، وسطوح، وماء وكهرباء كذلك لا يكتمل الإسلام إلا بتطبيق جميع جوانبه على الحياةالعملية الفردية وا لإجتماعية والسياسية اما من يصلى ولا يصدق، او يحج ولا يؤدى الامانة، او ياخذ بالاحكام دون الأخلاق، وما شابه ذلك فليس من الإسلام فى شىء، ولا يحمل تبعة اختلال توازن الحياة على الإسلام، وإنما التبعة على نفسه حيث ا خذ بناحية دون اخرى كمن ىاخذ ببعض الدواء دون بعض ممّا قد يؤدى إلى ه لاكه [1].

وهنا يأتى دور سؤال هام هو: لماذا العقيدة؟ ألم يستغن عنها الإنسان بعد ان تطورت العلوم التكنولوجية والصناعية وما شابه؟

الواقع لا !.

لان تطور العلوم هو الذى كشف عن لزوم العقيدة فى حياة الإنسان لكى يراقب تحركات نفسه بنفسه.

لا شك انك تشعر بحرج كبير عندما تعرف ان عليك مراقبة من قبل استإذ الجامعة.

ولا شك انك تواظب على كل حركة تصدر منك لكيلا تجرح شخصيتك ا مامه.

هذا لو كنت تلميذا أمام أستاذ.

وماذا يكون شعورك إذا كنت موظفا بسيطا امام رئيس الجمهورية؟

إن ما يريده الإسلام من العقيدة هو ان يوقظ فى الإنسان الشعور بانه مراقب ليس من قبل إنسان مثله، بل من قبل خالق الكون والحياة، حتى يواظب على تحركاته في الخلوات الاجتماعية.

ولذلك اخطا العالم عندما ظن ان باستطاعته الاكتفاء عن العقيدة بالتقنية، واجهزة المراقبة، وجهاز البوليس فكانت النتيجة ما ذكرته صحيفة نيويورك

---

(1) انظر كتاب عبادات الإسلام للامام الشيرازى ص 10.

تايمز في عددها الصادر في 26 نيسان 1970، واليك نصه:

بدا التحقيق فى نيويورك اليوم حول مزاعم بان رجال بوليس مدينة نيويورك يقبضون ملايين الدولارات كل سنة على شكل رشاوى من بائعى المخدرات والمقامرين ورجال الاعمال، وشكل رئيس البلدية جون ليندسى لجنة تحقيق خاصة من خمسة رجال يوم الخميس الماضى بعد ان علم ان صحيفة نيويورك تايمز على وشك ان تنشر دراسة حول ما وصفته بفساد كبير في دوائر البوليس !.

وقالت الصحيفة انها بنت دراستها التى استغرقت اعدادها ستة اشهر على مقابلات اجرتها مع عشرات من رجال البوليس الحاليين والسابقين وخبراء القانون والمواطنين، وبعد فحص سجلات البوليس والمحاكم وبضمن تقرير الصحيفة الذى يقع فى حوالى 3ألاف كلمة تفاصيل عن حوادث معينة تتعلق بدفع مبالغ إلى رجال البوليس تصل في بعض الأحيان إلى 50 الف دولار[1].

وفي الإتحاد السوفياتي أيضاً:

جاء فى تقرير برجنيف الذى القاه امام مجلس السوفيات الأعلى فى الدورة الطارئة فى كانون الأول 1969م إشارات صريحة إلى التباطىء فى المجال الصناعى معدداً الاختلاسات والسرقات، وكافة ضروب التاخير والإحتيال وسرقة أموال القطاع الصناعي (السوق السوداء)[2].

وهذا شىء طبيعى، وليس من حق برجنيف ان ينتقده، لأنه نتيجة حتمية للقضاء على العقيدة فالوزير قد يشرف على الوزارة ومرظفيها. ولكن من يشرف على الوزير؟

قد تقول رئيس الوزراء.. ولكن من يشرف على رئيس الوزراء؟

البوليس يراقب الناس، فمن يراقب البوليس؟

بوليس ثاني (ضد البوليسية)؟ فمن لهذا البوليس الثاني؟

إن النظام الصالح هو الذى يبنى اسسه على عقيدة صالحة تعمل كجهاز منبه للضمير الإنساني ليمنعه عن الظلم والطغيان، والاختلاس.

* هذا عن العقيدة.

ولكن لماذا العبادات؟

لقد فرض الإسلام العبادات للتركيز على العقيدة في داخل النفس.

فليست العبادات الإسلامية طقوسا فولكلورية فرضها الإسلام لتمجيد الرب وشكر محمد (وان كان فيها ذلك)، بل إنها تربية وأخلاق وعبادة.

مثلا:الصلاة فيهاروح الإسلام: العقيدة، من تركيز بعبودية الإنسان لله فقط وتذكير بيوم الحساب (يوم،، من أين لك هذا؟،، و،، كيف فعلت هذا؟، ،)

---

(1) 26 ـ ر ـ الحياة 27 نيسان 1970 العدد 7431.

(2) مجلة (الحوادث) العدد 700 الصادر فى 10 نيسان 1970

واتصال بمصدر الكون واعتماد على هدايته. كل ذلك فى شكل كلمات ضمن حركات.

وهذا ما عناه الإسلام بقوله:

إنّ الصّلا ة تنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ [1].

وهذاما عناها أيضا الإمام الصادق حين قال:

إن الناس لو تركوا بغير تنبيه ولا تذكر للنبى X لاصبحوا مثل ما كان الأ ولون فانهم قد اتخذوا دينا ووضعوا كتبا ودعوا اناسا إلى ما هم عليه وقتلوهم على ذلك فدرس أمرهم، وذهب حين ذهبوا. وأراد الله أن لا نيسهم أمر محمد ففرض عليهم الصلاة يذكرون الله، لكيلا يغفلوا عنه فينسوه [2].

وبكلمة فإن أهداف الصلاة تتلخص في الأمور التالية:

أ تركيز العقيدة وتعميق فهم الإنسان للروابط الكونية.

ب توثيق الصلات بين المسلم ونبي الإسلام.

ج ربط الإنسان بمصدر القوى.

قال غاندي:

بغير الصلاة كان يتحتم عليّ أن أغدو معتوها منذ أمد طويل .

وقال ديل كارنيجي:

حين تستنفذ الخطوب كل قوانا أو تسلبنا الكوارث كل إرادتنا، غالبا ما نتوجه فى غمرة الىأس إلى الله فلماذا ننتظر حتى يتولانا اليأس لنتضرع إليه ؟ لماذا لا تجدد قوانا كل يوم بالصلاة والحمد والدعاء؟ .

وقال الدكتور الكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل في الطب:

إن الأثر الذى تتركه الصلاة على الجسم والروح الإنسانيين لا يقل أهمية عن الأثر الذي تتركه الغدد المرشحة في الجسم .

ولو ان كل فرد كان يلتزم بالصلاة والدعاء إلتزاما حقيقيا لكنا نشاهد اليوم تغييرا اساسيا في جميع نواحي الحياةالبشرية.

فى الصلاة والدعاء فقط ينسجم فكر الإنسان مع روحه وجسمه فى سبيل الحصول على أغلى الملكات الإنسانية.إن الصلاة تشبه إشعاعات الراديو منبع حقيقي لقوى كبيرة تنبعث من نفسها [3].

وكما فى الصلاة كذلك فى الصوم. كذلك فى الحج وكذلك فى الزكاة.. للإس لام في عباداته أنبل الأهداف وأقدس المقاصد.

---

(1) القران الكريم

(2) انظر كتاب عبادات الإسلام ص 2

(3) كليدهاى خوشبختى ص 306 .

أما التربية الأخلاقية عند الإسلام فيكفي أن نعرف عنها:

ا ـ ان الإسلام يراعى تربية الإنسان فى كل صغيرة وكبيرة من تكاليفه وتشريعاته. وهذه ميزة الإسلام الأساسية حيث أنه يشكل وحدة ملتحمة فى نظامه وعقيدته.

فهو إذ يشرع عبادة ما، فإنه لا يشرعها كطقس من الطقوس، بل كتربية ايضاً وكذلك لا يضع برنامجاً تربوياً من دون ان يلفه بقداسة العبادة.

ب ـ إن برامج الإسلام التربوية تشمل الإنسان ابتداء من اول يوم يفتح فيه عينيه على الأرض، وانتهاءا بيوم دفنه تحت الجنادل.

ج ـ تنسجم هذه البرامج مع فطرة الإنسان وطبيعته بحيث لا يحتاج للتدليل على ذلك إلى أكثر من تجربتها.

د. لا يقول الإسلام: اكذب ثم اكذب ثم اكذب حتى يصدقك الناس بل يقول لا يجد عبد طعم الإيمان، حتى يترك الكذب هزله وجده [1]

الإسلام لا يرى أن كل عمل في سبيل الحزب عمل مقدس ومشروع.

بل يرى ان العدل، والحق، والأمانة، اصول ثابتة لا تغيرها الظروف، او البيئة ، أو المصالح!.

هذا هو الإسلام: دين ودنيا، عقيدة إلى جنب نظام، وهو بهذه الخطوة الحكيمة يوفر للإنسان تقدماً وازدهاراً.

(1) نهج البلاغة الامام على 43.

الإِسْلاَمُ وَالحَيَاة



الدين ضرورة نفسية

لماذا الدين وليس العلم؟

هل يمكن ان نستغني عن الدين الإسلامى، بما توفره العلوم الحديثة من اكتشافات ومعارف؟ وبالتالى هل يمكن ان يجلس العلم يوما على اريكة الدين؟ ببساطة: كلا. والسبب يمكن في النقاط التالية:

العلم لا يوفر للإنسان العقيدة

إن العلم لا يوفر للإنسان العقيدة ولا يعطيه الإيمان، وإنما الدين هو الذى ينعم على صاحبه بالعقيدة والإيمان، لأن الدين يثير وجدان الإنسان وينشر عليه الحب والتضحية والأمل، ويجعل الفرد يعيش فى ارتباط وثيق مع الحقائق، بينما يكتفى العلم بتفسير ظواهر الحياة تفسيرا جامدا، دون ان يكون بينها علاقات متينة. فمثلا ً العلم يتكفل بإثبات صناع قدير، ولكن الإيمان هو الذي يضمن لنا حب هذا الصانع والرغبة فيه، والخشية من عقابه.

فالعلم إذن، ضوء على درب البشرية، بينما الإيمان طاقة المسير فى هذا الدرب. فمن السفه القول بأن العلم سوف يغني البشرية عن الدين.

العلم ناقص، والدين كامل

هل يمكن ان يكمل صرح العلم يوما؟ هل يتحقق حلم الإنسان بالإحاطة بكل المعارف؟ كلا إن قافلة المعرفة تسير على طريق لا ينتهى، بينما الدين قد كمل. منذ أمد بعيد:

اليَوْمَ أَكمَلتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً .

وهل تعلمون لماذا افترق الدين والعلم فى هذه؟ السبب واضح:ان العلم وليد مسعي (الإنسان)، والدين من وحى (خالق الإنسان). ومهما علا المخلوق فلا بد ان يظل ناقصا بان تظل مساعيه مستمرة نحو الكمال، بينما اللّه كان ولم يزل كاملا ابدا ولا يبعث إلينا بدين ناقص، فهل يمكن ان نكتفى بالعلم، وهو ناقص عن الدين الحق، وهو الكامل؟ كلا.

العلم لا يغني عن الدين

بعد هذا نعرف طبيعة (الحاجة النفسية إلى الدين) لأن العلم لا يغنى عن الدين بل يظل القلب البشرى يشعر بفراغ كبير ما لم يتمسك المرء بدين.

لنفترض اسمى رجال الفكر، هل يمكن ان يفرغ قلبه م الإيمان، من الحب، من البغض؟ بيقين كلا. لأن القلب من طبيعته التعلق بشىء ولا يبقى لحظة بدون هذه العلاقة إلا بحس عميق بالفراغ المبين.

الدين قيم سامية

وهذا هو الهدف وراء سعى البشر نحو الإيمان بدين ما، وقيم ترفعه من عالم المادة الجامدة، وتحلق به فى أفق روحى وسيع. قيم تعطى الحياة هدفا تسعى إليه هدفا يحطم اسوار الضروريات اليومية، هدفا غير الطعام والمسكن والجنس، التي يضيق الإنسان بها ذرعا ويكاد يختنق تحت ضغطها المتزايد.

يريد الإنسان ان يعتصم بحبل القيم السامية، عسى ان تخرجه من هذه الضروريات.الا تسمعون ماذا تقوله الشبيبة الرافضة فى الغرب؟ يقولون كفى كفى لا تجعلون عبيدا للأكل والشرب والنظام والجنس.ان هذه لا تنفعنا ولا تشبع تطلعنا ولا تحقق إنسانيتنا، إننا نريد تحطيم اسوار الحياة المفروضة علينا.

ومن هنا قاموا بحركات الهيبة والخنفسة، لينقذوا انفسهم من وطاة الفراغ الدينى الذى يعيشونه، إنهم يقولون:اننا كنا فى قطار الحياة ليوصلنا إلى محطة الهدف، ولكن الآن اسرع القطار وتجاوزنا الهدف واصبحنا سجناء السرعة، التى لا تهدف مكانا.

وإن وسائل العيش تحولت إلى اهداف فاصبحنا ببساطة بلا اهداف، إذن لا نريد الوسائل أيضا.

وهنا كان خطاهم، لقد كان من الأفضل العودة إلى الأهداف، لا تحطيم الوسائل.القطار ليس مقصرا وهو ليس مستحقا للنسف، بل يجب أن نعود به إلى محطة آمنة.ان علاج مشكلة الحياة الفارغة ليس تحطيمها، بل البحث عما يسد فراغها من التطلعات البعيدة.

الدين ليس خرافة

وهؤلاء الذين يزعمون ان الدين تقليد فراغى،هؤلاء ابناء الشرق السخفاء، عندما نناقشهم:هل تأمروننا بترك الدين؟ نعم. ثم ماذا؟ أبقوا هكذا بلا دين. وهل فعلتم ذلك؟ نعم. ولكن نحن رأيناكم تدينون بأفكار ماركس وأعمل الينين، وسياسات برجنيف، وانتم ايّها الصينيون الستم تشيعون بين الشعب الصينى المسكين أساطير تقول:ان ماوتسى تونغ ابن الإله. وأنتم يا محاربى فيتنام الستم تقولون إن حفيد إلهكم هو شيمينه امركم بالحرب ضد الكفار الأمريكان، كما كشف النقاب عن ذلك اخيرا؟

إن اولئك الذين يتحمسون ضد الدين ويؤمنون ان العقيدة حديث خرافة، يتناقضون مع انفسهم، ذلك لأن التحمس ضد الدين بذاته قيمة، إنهم يعتنقوها هم ويضحون فى سبيلها، فهذا ابسط الأدلة على انهم يسعون نحو الإيمان، ولو كان إيمانا بعدم جدوى الدين. والفارق الوحيد بيننا أنهم يؤمنون بالباطل

ويقاتلون في سبيله، ونحن نؤمن بالحق ونجاهد من أجله:

الذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً .

إذن فليس في الدنيا بشر يعيش لنفسه، وبدون قيم ولو كانت باطلة.

الدين حاجة نفسية

فقد كشف اخر البحوث النفسية، والتي اجراها الشيوعيون الملحدون في روسيا، كشف عن بقعة في مخ البشر خاصة بالعلاقات الروحية الدينية. ورغم إحاطة الروس لهذا الكشف الخطير بالكتمان الإعلامي، فإنه بدى واضحا، مدى حاجة الإنسان النفسية إلى الدين.

جوع الإنسان النفسي

ولأن جوع الإنسان شديد إلى القيم، فإنه يبادر إلى التمسك بها دون التفكير في نوعها جيدة كانت ام رديئة، تماما كالمنهوم إذا وجد طعاما لا يفكر في نوعه بقدر ما يفكر كيف يلتهمه، إن الشعور بالحاجة النفسية إلى الدين هو الذي يدفع البشرية إلى عبادة الأصنام، التي لا تضر ولا تنفع، وإلى عبادة الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب. وإن استعجال الإنسان في إيمانه بـ القيم، هو الذي يدعوه إلى التمسك بالمبادئ الباطلة والأفكار الخرافية، ولو لم تكن هذه الحاجة شديدة إذن لوجد البشر متسعا من الوقت يفكر خلاله فيما يؤمن به ويضحى من اجله، هل هو يسعى فعلا لذلك؟ ام ليس سوى ضلال باطل؟

الدين ضرورة حياتية

الإنسان فرد صغير وفاني

إن عمر البشر لمحدود، وإن جسمه لصغير، وإن حياته على الأرض لقصيرة، وإنه بالقياس إلى هذا الكون الهائل درة هائمة تائهة لا قيمة لها، يعيش في اقل من ومضة برق بالنسبة إلى ازمان الأزل والأبد، ارايت ما قيمة وزنه وهيكله بالنسبة إلى حجم ووزن السماوات والأرض؟ وما قيمة عمره بالنسبة إلى عمر الأرض البالغ ملايين السنين فيما مضى وفيما بعد؟

علاقة الإنسان بالله

ولكن هذا الفرد الفاني، هذه الذرة التائهة، يملك ان يتصل بلحظة واحدة بقوة الأزل والأبد، ان يرتبط بها في ان يحس انه منها وإليها، يملك ان يستمد قوته من تلك القوة التى لا تهن امام قوة الكائنات كلها، فيواجهها بقوة مثلها وأقوى منها، كل ذلك بأن يتصل برب الأزل والأبد برابطة العقيدة والإيمان.

العقيدة ترفع الإنسان

هذه هى العقيدة، وهذه هى قيمتها فى الحياة، وهذا سر قوتها وسر قوة النفس العامرة بها وصمودها، فى مواجهة ما فى الأرض من سلبيات ومتناقضات بقوة وثبات. وهذا هو السر فى أن أصحاب العقيدة الراسخة لا يخافون من شيء، مهما كبر او طفى، ولا يخضعون لشيء مهما عظم او استعلى. فالسجن والتعذيب والقتل أشياء تافهة لا يخشى منها صاحب العقيدة ، كتفاهة الماكل والشهوة والبنين عنده، إنه ارفع مستوى من هذه جميعا، ما دام يعيش في جنة العقيدة.

العقيدة..نظام للبشرية

إن فى الحياة لمشاكل، وإن فيها لفوادح، وإن للبشر نظم موضوعة لكل هذه المشاكل ورفع تلك الفوادح. بيد أنها لا ولن تعطى النفس قوة التنفيذ لحل هذه المشاكل. وهذه النظم صادرة منهم أنفسهم، وليست لها هيمنة عليهم، ولذلك هى لا تقدر على مقاومة نوازعهم وشهواتهم فى سبيل تطبيقها. لكن العقيدة هى التى تاتى بالنظم، من رب السماء المهيمن على البشر، وتاتى بما يضمن تطبيقها. تلك هي قوة الإيمان المنبعثة من داخل النفس.

العقيدة.. تملأ الفراغ النفسي

إن فى وجدان البشر لفراغا لا يسد إلا بالعقيدة، وإن بنفسه لمقاما لا يملأ إلا بها، يشهد على ذلك النزوع الطبيعى إلى الإيمان، سواء بالله، او الشمس أو

القمر أو الأصنام أو الحزب أو غير ذلك. ويشهد بذلك أيضاً إحساسها بالضياع عند فقدان العقيدة، كما حدث لشباب الغرب الذينانتكسوا إلى مستوى البهائم حينما صاروا هيبيين أو وجوديين، أو ما أشبه من العقائد الفاسدة.

وما اغنى البشر منذ ان كان، وإلى اليوم ما اغناه النظام المادي كما لم تغنه الفلسفة الجامدة، وكان ان ابتلى بالقلق وما تسبب منها، وبالسلبية وما تسلسل منها أو عنها. وهيهات أن يملأ فراغ العقيدة إلا الإيمان بالله الحق، ذلك الإ يمان الذى يمنح النفس السكينة والأمل، ويربطها باللّه الذى يسجد له كل من فى السماوات والأرض فيعيش الإنسان بالإيمان، وسط جو متناعم من الكائنات في تحابب ووئام.

الوحدة في العقيدة والنظام

إن شخصية الإنسان واحدة، فى المنبع والمجرى والمصير، وإن اية فلسفة تنظر إلى بعض الجوانب دون البعض، او تحاول تجزئة ما في الكون بعضه عن بعض فى سبيلها وغايتها، فإنها فلسفة مريضة خاطئة، وهى لا تقدر على إسعاد البشر.

كما انّ اى نظام يحاول تجزئة الحياة، وتقدير بعضها بعيدة عما سواه، فهو نظام مريض لا يسعد الإنسان أبدا. لأن الإنسان لا يملك جانبين لكل منهما نظام مختلف، بل إنها حياة واحدة، فلا بد لها من نظام واحد. ومن هنا فإن روحانية المسيحية القائلة: ما الله.. لله، وما لقيصر لقيصر فاقدة لروح السعادة، بنفس النسبة التى تفقد بها مادية النظام الغربى الذى يعطى الناس الحرية فى الإعتقاد والسلوك والأخلاق، هو خاطئ كنظام الفن للفن.

والسبب فى خطأ هذه النظم جميعا هو سبب واحد، الا وهو نظرتها الجنبية إلى الإنسان، واثر بعض الجوانب على حساب بعضها، وعدم التماسك بين حياة الشخص الواحد بعينه، ممّا يسبب تهرءتها أو تفككها وتناقض بعض واجهاتها مع الآخر، ومن ثم يشقيها إلى الأبد.

وهذا هو الذى حدث فى الفصل فى النظم البشرية السائدة اليوم، كالنظام الراسمالى الذى لا يبنى نفسه على اساس فلسفة، ولا يعنى بالسلوك الشخصى للفرد ولا بالعقيدة الروحية له، ممّا ادى إلى شقة الخلاف بين افراد الأمة الواحدة التى يحكمها هذا النظام، لعدم وجود قاعدة ثابتة لها ترتكز عليها الحياة.

والنظام الإشتراكى مثله، لعدم اعتنائه بالجوانب السلوكية والروحية للفرد، والجماعة التى تحكم بها ذلك، لأنه لا يؤمن راسا بوجود جوانب اخرى للإنسان غير الجانب المادي.

الإسلام حقيقة واحدة

بيد ان حقيقة الإسلام، تحيط بالحياة من جميع جوانبها، وتضع لها جميعا نظاما مبنيا على أساس متين من العقيدة بالله. وبهذه العقيدة يطهر القلب من الحقد والجشع والحسد والعداوة والبغضاء والإيمان بالخرافات وما أشبه.

وهذه العقيدة يزكى سلوك الإنسان فردا وجماعة، من العادات السيئة والأعمال الدنيئة، التى تدعو إلى المحرمات. وبهذه العقيدة تنظم الحياة الاجتماعية، اقتصادها وسياستها وقضائها وإدارتها. فإذا بالحياة مبنية على أساس رصين ك البنيان المرصوص، فإذا الإنسان سعيد بهذه الحياة المتماسكة الأطراف.

العقيدة.. حلول للمشاكل البشرية

ثم إن هذه العقيدة، هى التى تضمن النظام الصحيح الذى يحل جميع المشاكل الفردية والجماعية، بما لا يتمكن عليه البشر نفسه لأن البشر:

لا يعرف كل ما يصلحه، حيث إنه جاهل بنفسه ومعترف بهذا الجهل، كما سجل صاحب كتاب الإنسان ذلك المجهول ولأنه جاهل بكل ما فى الحياة من خير من خير وشر ولربما يرى أن شيئا ينفعه هو يضره.

إنه لو فرض جدلا عرفانه فإته بكل ما يصلحه، فإته يحتاج إلى نظرة موضوعية بعيدة عن التاثر بالهوى والمصلحة الشخصية، ومن هو بعيد عن التاثر بالمصالح كليا؟ وكيف نضمن ذلك، وكيف نقنع الناس بذلك لو فرض ان هناك شخص لا يتاثر بهواه وإن كل احكامه صادرة عن حكم عقله فقط، مع ان الناس كلهم يدعون ذلك.

ولو فرضنا وجود عالم لا يتاثر بالهوى والمصلحة، ورسم لهذا العالم قوانين فمن يا ترى ينفذ هذه القوانين؟ واية قوة تقف امام نوازع البشر واهوائه المقاومة للتوجيه الخارجي؟ من المعلوم ان ليست هناك اية قوة تملك ذلك، إذ انّ القانون الذى وضعه الناس انفسهم، ينقضونه بانفسهم، واول شاهد على ذلك قوانين الأمم المتحدة التى لا تراعيها اية دولة لأنها من وضعها لا من وضع من هو أعلى منها.

المشاكل العالمية وضرورة العقيدة

وإن ازدياد التعقيد فى المشاكل العالمية، وعدم غناء ما وضعه وما سيضعه البشر من حلول وأنظمة. وإن ازدياد المحرومين من الشعوب فى كل الآفاق من أوليات حقوقهم المادية والمعنوية. وإن تصاعد الحروب، واستمرار احتلال إسرائيل للأراضى العربية. وإن تبذير آلاف من الدولارات بل آلاف الملايين سنويا فى سبيل التسلح لإبادة البشرية. وتفشى الظلم فى كل أنحاء الأرض وعدم توفر السعادة لأى إنسان، كل ذلك ليزيدنا إيمانا بالعقيدة وضرورتها للحياة السعيدة، هذا الإيمان الذى يدفعنا قدما إلى العمل الصالح الجاد لإرجاع العقيدة إلى واقع الإنسان أيا كان.

الدين ضرورة سعادة

هل الدين رمز الجهل والتأخر

لقد شاءت الدعاية الأجنبية، ان تصور الدين لشبابنا البسطاء، مبعث التعاسة والشقاء فاحتاجت لتصوير هذا الباطل إلى الف تهمة والاف الافترات، فقالت إن الدين رمز الجهل والتعصب والمرض وكل شر مستطير.

وفي غفلة من المسلمين، انتزع المستعمرون والدخلاء من اذنابهم عن المسلمين روح الدين، فازلوهم إلى بؤرة التعاسة ودرك الشقاء، فإذا بهم قد أخرجوا من نور الدين إلى ظلام الكفر وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ .

فإذا بالحروب تترى منهم، وإذا بالمسلمين يذوقون الوانا من الشقاء وانواعا من العذاب.

المسلمون والمسئولية الخطيرة

والحقيقة إن مسؤولية المسلمين لما اصابهم، اضخم من مسؤولية اي إنسان اخر، ذلك انهم كانوا قد جربوا الكفر والإيمان معا، ورأوا كيف فعل الكفر باجدادهم اهل الجاهلية، وإن الدين كيف انقذهم، فكان عليهم الا يغتروا بـ الدعاية الكاذبة او يكونوا شتاتا من القبائل المتحاربة التي قد سادها الخوف و المرض والجهل، ثم جاءهم الدين فانقذهم من كل ذلك، فاصبحوا به امة واحدة ذات كرامة وكيان، لا يضام فيها فقير، ولا يطغى فيها قوي، ولا يوجد فيها محروم تنحسر عنها النقم، وتترى عليها النعم، إن تلك تجربة ماضية، وهذه تجربة حاضرة، فأين بنا من هذا الدين القويم؟.

ما هي عوامل الشقاء؟

إن كنا لا نقتنع بالتجربة دليلا على الحق، فلنعمل بوحي عقولنا ولننظر في الأمر بنظرة موضوعية بحتة، فإن الأمر لا يمكن ان يستهان به، إذ انه يرتبط بكياننا ووجودنا وكل ما لنا من كرامة ومجد، لنعرف اولا ما هي عوامل الشقاء، ثم لنعرف كيف إن الدين يعالجها؟ لكي نعرف اخيرا هل الدين هو مبعث الشقاء ام انه سبيل السعادة؟

إن للشقاء عوامل هي:

الأمراض النفسية.

الأمراض الجسمية.

الأمراض الاجتماعية.

الكوارث الطبيعية.

اما كيف إن الدين يحول هذه العوامل حتى لا يدع من اثرها إلا مالا يمكن أن يزول فلما يأتي من بيان:

أولا:الأمراض النفسية:

إن عامل الأمراض النفسية يتجسد فى الصفات النفسية الرذيلة: كالحسد و الحقد والقلق والفراغ والكبر وما اشبه من الرذائل فإن الدين يزكى النفوس بما يوحي إليها، من ان رضى اللّه تعالى والدار الآخرة والكرامة البشرية لهي الأ منيات الطيبة التى لا بد للإنسان ان يتحلى بها، وإن اضدادها لهى الرذائل التى لابدّ أن يتجنبها الإنسان.

إن الصفات النفسية تحدث غالبا من أحد الأسباب التالية:

حب المادة..

فالحرص الذي ينشأ منه القلق والتنافس المفرط، من منشآت حب المادة. كما أنّ كثيرا من أقسام الحقد والحسد من ناشئات الحب المفرط للمادة.

التضخم الدموي..

فمن عدم معرفة الفرد قدر الواقع يشعر انه اكبر قدرا من سائر الناس، فيبدا بالتكبر على الناس فيشعر أنهم يهيبوه.

التعقد النفسي..

فالرجل الذى اهينت فى المجتمع كرامته، او غصب منه حقه، فيبده بالشعور بانه اقل الناس قدرا، او انهم هكذا يحسبونه فيدعوه حبه لذاته إلى الإنتقام من الناس، بالاستهانة بهم والتكبر عليهم، والاعتداء عليهم.

ولكن كيف نطهرها؟..ان الدين يزكى القلب من آثار هذه الأسباب، ويطهرها تطهيرا، ويحقر المادة السبب الأول ويرغب الناس عنها، وبذلك تنهار كل المقاييس المادية التى تخلق التوتر والتنافس والتناحر بين الناس، ويحذر الدين من التكبر السبب الثانى بما يوحى إلى الأنفس من ان مالها من مواهب وكفاءات لا يحق أن تتكبر بها على غيرها. ومن هنا فلا مكان للتضخم الناشئ من الغرور بالمواهب.

والدين يحل التعقد النفسى السبب الثالث بما يمنع من ان يستهان باحد مهما كان ضعيفا او فقيرا وبما يربيهم على التوكل على اللّه، والثقة به بسبب حصانة النفس من الخوف والقلق، الذي يؤدي إلى التعقد النفسي.

وبالقضاء على هذا العامل من عوامل الشقاء، يتم القضاء جزئيا على العاملين الآخرين هما المرض والظلم الاجتماعى، إذ انّ النفس تتخلص كامراض الأعصاب والقلب والمعدة وكثير من أقسام مرض السرطان. ذلك لأنها تنشأ من هواجس القلق والتوتر. كما أنها تتخلص بذلك من بعض المظالم الاجتماعية إذ انّ كثيرا من حوادث الظلم والاعتداء فى المجتمعات تنشا من العقد النفسية و الصفات الرذيلة التي يحمله أصحابها.

ثانيا:الأمراض الجسمية:

ويعالج الدين عامل المرض الذى يسبب شقاء كثير من الناس بما يفرضه على الملتزمين به من تعاليم صحية، كالتعاليم الوقائية عن الميكروبات، و

الجراثيم الموجودة في لحم الميت ولحم الخنزير والكلب وما اشبه ذلك، الذي لو أردنا إحصائه لوجب أن نذكر في ثلث الدين تقريبا.

ويعالج ايضاً بما يدعو إليه وما يوفره من الثقافة الصحية من لزم تعليم الطب والصيدلة ووجوب تأسيس المستشفيات وتوفير الأدوية للناس، ثم من لزوم تعلم كل فرد ما يلزمه من إرشادات طبية وما إلى ذلك، ولم يبق بعد هذا كله إلا ما لا يمكن عليه من أقسام المرض لا وقاية ولا علاجا.

ثالثا: الظلم الاجتماعي

او لنقل عامل الجريمة، فإن النظم الدينية في حقل الاجتماع كنظم القضاء والحدود والقصاص ونظم الاقتصاد والسياسة كفيلة بالقضاء على الجريمة و الظلم والاعتداء قضاء مبرما. ذلك أن الدين يضع لكل فرد مراقبا من ضميره يشعره بانه يجازى من قبل اللّه العليم الحكيم، بالإضافة إلى وضعه امام محاسبة الضمير الذي لا يداهن أحداً أبدا.

رابعا:الكوارث الطبيعية

في عقيدة المؤمن ان اللّه تعالى هو المدبر لهذا الكون، وإنه عادل لا يصيب احد إلا ما يستحقه من الجزاء، وبناء على العقيدة والمستدل عليها في مقامها، فإن المسلم الحقيقى سيبقى بعيد عن الكوارث الطبيعية ايضاً بقدر كبير وهذا ما يؤكده الحديث الشريف التالي: لا يصيب الناس شيء إلا من عند أنفسهم . وما تؤكده الآية الكريمة: وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفسهم يَظْلِمُونَ .

الدين تربية وتعليم

الطريق إلى السعادة

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا ً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلا َ ل ٍ مُبِينٍ .

ما هي الوسيلة التى تهدينا إلى شاطئ الأمن والسعادة، بعيد عن شبح الحرب والعدوان، وهضم الحقوق وهدر الكرامات بعيدا عن استخدام القوة؟ وكيف يمكن ان يستخدم تقدم العلم وتقدم الصناعة، في سبيل السعادة والرفاه ، قبل إن يستخدم في سبيل التدمير للمدن، وإزهاق الأرواح وتشريد الملايين وبعث التوتر في حياة الملايين؟

الفرق بين العلم والعلم

لعلنا نستطيع ان نجد الجواب الصحيح، إذا عرفنا ان الناس كلهم يعرفون الصدق والوفاء واداء الأمانة والحقوق وحفظ الكرامات صفات حسنة، ولكن قليلا منهم الذين يتصفون ويعملون بهذه الصفات ويتركون أضدادها. والسبب ان هناك فرقا واحدا بين العلم والعمل وبين إطار الدستور، وبين ما احتواه الدستور.

الإنسان بحاجة إلى التعليم والتربية

والناحية الفارقة فى حياة الإنسان ليس هو جانب المعارف والدساتير، بل هو جانب العمل بها، وتنفيذ ما فيها. والإنسان يحتاج إلى التعليم بقدر ما يحتاج إلى التربية، ولا يحتاج إلى فلق الذرة، وغزو الفضاء، وكشف الأعماق، ولكنه يحتاج قبل ذلك إلى قدر كبير من الإنسانية، والإلتزام بالقيم، لكى يستخدم العلم فى غير صالحه، ويجلب لنفسه الشقاء، فإا أكتملت تربية البشر على اساس القيم الخلقية الفاضلة، وعلى قاعدة التحابب والتعاون والإيثار، فقد استطاع أن ينتفع بالعلم والنظام الصحيح.

ومتي تساوى الإنسان فى مقياس العلم والعمل المادى، وكانت له التربية الصالحة، بقدر ماله من إنسانية احرز السعادة من سن الدساتير، فاى معنى للتشريع وهو لا يملك رصيدا من الداخل يدعوه إلى تطبيق تلك المناهج وتنفيذ تلك القوانين. والدين تجسيد لذلك الرصيد التربوى الذى يدعوا إلى القيم العليا من داخل النفس.

الدين.. تربية ثم تعليم

الدين تربية قبل إن يكون تعليما، والدين يزكى النفس ويصفيها من اقذار الشهوة والطمع والحسد والحقد، ويجعل لها المناهج الصالحة والضامنة لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا ً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلا َ ل ٍ مُبِينٍ

اى ان الكتاب المبارك هو للأميين يتلونه تزكية لهم، ثم يكون تعليما وحكمة.اذن فالجانب التربوى أهم الجوانب وهو الجوهر للدين. يفقد الدين من فقده، ويجده من وجده، ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون فيه هذا الجوهر.

هذا الرصيد الداخلى، هو الوازع النفسى الذى لا يزال يراقبه ويحاسبه ويدفعه نحو الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة.

ففى المأثور عن الإمام الباقر8: إنما المؤمن الذى إذا رضى لم يدخله رضاه

فى معصية ولا باطل، وإذا سخط لم يخرجه سخطه من قول حق، والذى إذا قدر لم تخرجه قدرته إلى التعدي إلى ما ليس له بحق .

ولقد كان هذا الوازع هو المانع الوحيد عن اقتراف الجرائم فى المسلمين الأ ولين، ولا تعجب أن ترى فيه نماذج من هذا النوع، فهذا (كعب بن مالك) الذى تخلف عن رسول اللّه فى غزوة تبوك، فلما رجع الرسول وساله عن سبب تخلفه عن الغزو، فابى إلا ان يصرح بانه تخلف بدون عذر، فامر الرسول بمقاطعته، فإذا بالمسلمين والأقارب والأصدقاء يهجرونه حتى ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، فاغتنم ملك غسان الفرصة فارسل إليه كتابا يدعوه فيه إلى اللحوق به وهجرة المسلمين، فقال: فقلت فى نفسى هذه واللّه فتنة ثانية، فرميتها فى التنور وحرقتها، فما انقضت فترة قصيرة حتى نزلت الآية الكريمة: وَعَلَى الثّلا ثَ ةِ الذِينَ خُلِفُوا حَتّى إِذا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ انفسهم وَظَنُّوا انْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللّه إِلا إِلَيه ثُمّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنّ اللّه هُوَ التّوّابُ الرّحِيمُ .

بهذه الروح العالية، يربى الدين اصحابه، ويجعل فى نفوسهم رصيد ضخما يدعوهم إلى تطبيقه. قال الإمام علي 8 يصف أصحاب الرسول:

لقد رأيت أصحاب محمد، فما أرى أحد يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا قد باتوا سجدا، او قياما، يراوحون بين جباههم وجنوبهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، فإن بين اعينهم ركب المعزى من طول سجودهم، إذا ذكر اللّه هملت اعينهم من الدمع حتى تبل جيوبهم، ومالوا كما يميل الشجر يوم الريح العاصف خوفا من العقاب ورجاء للثواب .

الدين منهج شامل

لماذا تأخر المسلمون؟

عاش حكم اللّه اربعة عشر قرنا من الزمن، سائدا على نصف الكرة الأرضية وعاشت به الأمة الإسلامية فى سعادة من العيش، ومناعة من الأمن، وسؤدد من المقام بين الأمم، ثم عصفت بها رياح سود فانقلبت تلك السعادة إلى ويلات ، وتلك المناعة إلى مذلات، وتلك الكرامة إلى عبادة وهوان وإذ نذوق نحن اليوم ماساة هذه الرياح فمن واجبنا ان نفكر بالأمر بمزيد من الجدية و الموضوعية، ثم نرى السبب فى هذه الانتكاسة التى ردتنا عن الدين، وما كان لنا فيه من سعادة ومناعة، وسؤدد.

الإعلام الاستعماري ضد الإسلام

والواقع ان عوامل شتى فتنتنا عن ديننا، ولكن من ابرزها كانت الدعاية المسمومة التى بثها الإستعمار بتاييد من الجاهلية الحاقدة، والتى تبثها بين

المسلمين مستهدفة نزع الثقة من الدين، وبدساتيره القيمة، وكانت ما ترمى إليه هذه الدعايات فصل الدين عن الحياة وعزله داخل إطار خاص من الشؤون الشخصية، والطقوس العبادية، والمكارم الخلقية.

دلائل شمولية مناهج الدين

ولكى نفضح هذه الدعايات ومدى تناقضها مع واقع الدين، لا بد لنا ان نسرد اربعة حجج تدحض مزاعم الجاهلين وتثبت بيقين شمولية مناهج الدين للحياة كلها وللأجيال كافة.

الله كامل.. فالدين كامل

لقد دل هتاف الفطرة، وقامت حجج العقل على ان اللّه رحيم وحكيم، وإن لرحمته كان خلق البشر فى حين كان غنيا عنهم، وإن لحكمته اراد ان سعدهم فى الدنيا والآخرة، إذ الحكيم لا يعذب احدا بغير سبب، وإذ ان البشر عاجز عن الإحاطة بما فى نفسه وبما فى الكون من اسرار لم يكن قادرا على وضع منهاج عادل وكامل يكفل له الفلاح فى الدنيا والآخرة، وكان بذلك محتاجا إلى وضع المنهاج لأن اللّه لم يخلق البشر لكى يعذبهم، وقد اصبح لازما عليه برحمته ان يرفع عنهم هذه الحاجة العامة وأن يبعث إليهم نبيا يأتيهم بذلك المنهاج.

إذن فالدين نعمة من اللّه جاءت لتغطية نفس البشر وعجزه عن إدارة نفسه بنفسه، فلا بد ان يكون شاملا لجميع ما يحتاج إليه البشر من النظم، حتى لا تكون هناك ثغرة فى حياته تسبب له الشقاء، فتبطل حكمة اللّه التى اراد له السعادة والرحمة التى خلقه من أجلها.اذن فالحجة على شمولية الدين من العقل هى:ان اللّه رحيم ولرحمته خلق البشر ليسعدهم، وإنهم لو لم يكن دينه كاملا لم يصبحوا سعداء، وكان خلافا لرحمته. وإلى هذه الحجة ترجع الحجة التي تقول:ان اللّه كامل بذاته فلا بدان يكون دينه الذي يرسله للبشر كاملا.

التشريع لله وحده

فى عقيدة المسلمين الحقة، ان القران كتاب صادق، لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد قال تعالى فى إحدى آياته: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسلام دِيناً

والدين فى اللغة والتفسير هو:السلطان القانونى والسيادة الدستورية، وعلى ذلك فإن معنى الآية:ان اللّه قد أكمل للبشر ما يحتاجون إليه من قانون ودستور.

والإسلام يحرم التشريع، ويدعو الذى يشرع من قبل نفسه مشركا باللّه، ويصب عليه اللعنة وسوء العذاب. ويقول: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللّه ُ . ويظهر من هذه الآية إن الذى يشرع دينا لم يأذن به اللّه، فقد اتخذ شريكا من دون اللّه، إذ انّ اللّه هو المشرع وهو قد حض لنفسه حق التشريع، ويقول فى صفة الشركاء والمشركين وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّه ِ فَقَدْ ضَلّ ضَلَا ً لا ً بَعِيداً .

وإذا حرم التشريع فلا بد ان يكون قد شمل الحاجات البشرية إلى القانون،

وإلا فهل يعقل ان يمنع الحكيم ذى حاجة من طلب حاجته من غيره، ثم لا يأتيه بها وهو قادر عليها ويقول الرسول فى أخريات ايام حياته وهو الصادق الذى لا ينطق عن الهوى يقول: أيها الناس اتقوا الله. ما من شىء يقربكم إلى الجنة ويباعدكم عن النار إلا وقد خرجت به السنة من الرسول وجاء إلى الإ مام الباقر رجل يسأل: يا محمد بن على أنت تزعم أنه ليس شيئا إلا وله حدا، إذ جاز به ذلك الحد فقد تعدى حد الله فيه فقال الرجل متحديا فما حد مائدتك هذه؟ فقال 8: ذكر اسم الله حين توضع، وتحمد الله حين ترفع، وتقم ما تحتها أى تنظف المحل قال فما حد كوزك هذا. قال 8: لا تشرب من موضع اذنه، ولا من موضع كسره، فإنه مقعد الشيطان، فإذا وضعته فى فيك فاذكر اسم الله، فإذا رفعته فاحمد الله وتنفس أنفاس، فإن النفس الواحد يكره .

الإسلام رصيد ضخم في المعارف

إننا إذ نقول ان الدين الإسلامى كامل وشامل مناحى الحياة الإنسانية، فهو إقرار منا على انفسنا وعلى ديننا، إذ سنكون مطالبين بحل الأزمات العالمية وإعطاء راى محدود إزاء جميع المشاكل، وإلا فسيقول العلم فاين تلك النظم الشاملة التى لا تدع صغيرة ولا كبيرة إلا وقد احاط بها، ووضع لها حدودا دقيقة؟ ولا بد لنا هناك ان نسكت او ناتيهم بما يطلبون من الإسلام، اما تلك التى تاتى بها لو طالبنا العالم فهى ما بين ايدينا من النظم والتعاليم والمعارف التى لا تكفى البشر فى اولاه وعقباه فحسب، بل وتخط له طريق إلى قمة شاهقة ليس فوقها قمة أبدا.ان الإسلام يملك رصيد من المعارف، يتناول ب البحث كل ما يمكن ان يبحث عنه فكر الإنسان من قضايا المبدا والمصير، وما بينهما من مسائل الحياة الأولية التى يطلق عليها اليوم الفلسفة الأولية، وحسبنا أن نعلم أن كتاب (بحار الأنوار) الذى يقع فى أكثر من مائة مجلد ضخم، وموسوعة (وسائل الشيعة) التى تقع فيما يساويه ضخامة، إنهما يبحثان فى الأغلب، المعارف الإسلامية الأساسية وما بلغ إليه فكر الإنسان وما لم يبلغ.

ويملك الإسلام رصيد فى التشريع، يبحث حتى فى ارش الخدش والجلدة، ونصف الجلدة حسب تعبير الحديث ويكفى أن نعرف أن موسوعة (جواهر الك لام) تحتوى على أكثر من (60/000) مسألة قانونية فى مختلف البحوث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأحوال الشخصية، ممّا لا يوجد أية موسوعة قانونية أخرى فى العالمين القديم والحديث. والجدير بالذكر أن الإس لام قوانين عامة وقواعد كلية قد رتبت ونسقت بما تكفل إدارة الحياة، وجميع ما يحيط بها أنى امتدت اتسعت وتطورت.

والقوانين العامة التى وضعها الدين، وصاغها الفقهاء بنصوص دستورية مثل كل شىء لكل طاهر وحلال حتى تعلم أنه نجس وحرام ، واحلت لكم الطيبات وحرمت عليكم الخبائث) أية قرآنية (والصلح جائز بين المسلمين) (وأوفوا بالعقود) وما أشبه.

هذه القواعد الكلية التى تبلغ اكثر من مائة قاعدة، جمعها احد الفقهاء فى كتاب خاص اسماه العناوين هذه القوانين لا تجعل الدين مناسبا فحسب بل وتجعل الدين كذلك، قادرا على حل كل المشاكل، على ضوء هذه القواعد العامة

، ولكن القواعد بحاجة لاستنباط الفقيه.
وإننا نتحدى اى فرد ياتينا بشريعة او دستور، قد بحث فيه فعلا كل ما يحتاج البشر فى جميع حالاته، كما نتحدى اى فرد يدعى ان هناك فريضة لم يتم بحثها في الإسلام، ونطالبه بإعطاء مثال واحد لذلك.

التجربة الإسلامية.. دليل الشمولية

عاشت الأمة الإسلامية هذه الحقبة سيدة العالم، وقد كان لها كل ما للحياة من مسائل ومشاكل، فهل عاشت من دون نظام؟ والواقع ان المؤرخين مجمعون على ان النظام الذى كان لها والذى كان سائدا على الأمة الإسلامية، فى سياستها وإدارتها كان أدق وأشمل نظام عرفته البشرية فى تاريخها الطويل. ذلك أنه استطاع إدارة أوسع دولة إسلامية كانت مفعمة بالنقائص المناخية والحضارية، وإدارتها فى كافة الشؤون والنواحى المعاشية، ثم لم تنجم عنها أية مضاعفات.
ومما يبعث العجب ان هذه الإدارة ظلت تسود تلك البلاد عدة قرون، ممّا لم ير لبعضها مثيلا فى تاريخ الإنسانية، ولا ريب ان هذه النظم كانت مستوحاة من الدستور الإسلامى لا اقل فى خطوطها الأساسية فهل يعنى هذا إلا ان الدين شامل لجميع نواحى الإنسان وإذا لم يكن هذه هو معنى الشمول، فما هو المعنى الآخر لكلمة الشمول؟

الدين منهج دائم

الكون خطان.. دائم ومتطور

فى الكون خطان: دائم ومتطور. فإضافة ثلاثة أقلام إلى ثلاثة أقلام أخرى تساوى ستة اقلام، وهذه حقيقة لا يمكن ان تتطور، إنما الأقلام ذا عرضة للتطور. ورغم أن أبسط الناس إدراكا يفقه هذا الواقع ويلاحظ بوضوح الفرق بين خطى الدوام والتغيير، رغم ذلك فإن منهم من لا يملك مقياسا دقيقا يميز بينهما.

مقياس الدوام ومقياس التطور

وفى بداية دوام الدين وتطوره يجدر بنا إعطاء مقياس واضح للتطور و الدوام، لعله يفيدنا في سائر الحقائق أيضا.

ما هو الدائم في الحياة؟

إن هناك ثلاثة أشياء لا تطور فيها:

اللّه تعالى: الذى كيف الكيف، وأين الأين، وخلق التغير، وأبدع التطوير، فإنّه يستحيل عليه عقلا أن يكون عرضة للتغيير والتطور.

المجرد: كالعقل، فإنما نعرف هذا خير وهذا شر، ونعرف حسن هذا وقبح ذاك، ونختار ايهما نشاء كل ذلك هو من العقل إذ هو بالتدرج العلم اى المعرفة و التمييز والاختيار والقدرة وهذا لا يتغير، فالعلم مثلا ً يقول بان النهار يخلف الليل وإن الشمس تسير والقمر يجرِى، ليس بقابل للتغيير مع العلم ان اختلاف الليل والنهار يتعرض للتطور والتغيير الدائم، أى: إن هناك فرقا بين؟؟ بالتغيير وبين التغيير نفسه فالأول في حال ثبات، والثاني في حالة صيرورة.

كما انّ معرفة حسن الخير وقبح الشر ليس بعرضة للتطور، لكن هناك امر خير ثم يصبح شرا، أو يكون قبيحا يصير حسنا. واستطاعة البشر وحريته فى اختيار ما يحب وما يشاء، هذه الاستطاعة ليست بقابلة للتغيير، إذا ان الإنسان حر أبدا سواء عاش في هذا العصر أم في عصور ما قبل التاريخ.

وما هو المتطور؟

إن هناك شيئا واحد يتطور ابدا وهو المادة، ليس خالق المادة ولا العلم لها، و لا قوانينها بل المادة نفسها. فالأرض من أطرافها والبحار والجبال والإنسان كل ذلك عرضة للقوة والضعف والدمار والموت وغير ذلك من انواع التطور و التغيير.

ما هو الدائم في الدين؟

والدين مركب من أشياء أربع: ثلاثة منها لا تتطور وهى:العقائد أو (المبادئ) والتعاليم أو (الدساتير) والشرائع أو (النظم) وواحدة تتغير هى اللوائح و القوانين أو (التطبيق الخارجي للأحكام).

اذ ان تلك الأمور الثلاثة ترتبط بالأشياء التى لا تتغير فى الكون،وهى التى مر بحثها فى مقياس الدوام، وتلك الأخيرة ترتبط بالأشياء التى تتغير فى الكون.

1- المبادئ (العقائد)

إن المبادئ ترتبط باللّه، إذ انّ التوحيد، والعدل،إيمان بوجود رب واحد، و الرسالة إيمان بحقه فى التشريع وهى صفة دائمية من صفاته، والإمامة امتداد للرسالة، والمعاد إيمان بصفتى العدل، والقدرة عنداللّه تعالى وبما ان المبادئ (العقائد) حقائق عن اللّه الذى يستحيل عليه عقلا أن يتغير، فهى أيضاً لا تتغير.

2- الدساتير (التعاليم)

والدساتير، هى الصور التشريعية للحقائق العلمية، التى كشفها الوحى لنا او ذكرنا بها، فالعدل والإحسان اللذان أمرنا اللّه بها، وقال: إِنَّ اللّه َيَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِ ِحـ ْسـ َا ن ِ صورتان عما يأمرنا به العقل المجرد الذى لا يتغير

والصدق والأمانة اللذان دعانا الدين إليهما فقال: عليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة ، منبعثان عن عقل الإنسان. وقوله بلزوم المساواة بين الناس، بأن يؤخذ من كل غنى بعض ماله ويعطى للمعدمين، وان يامر الفرد بالمعروف ويعمل به، وإن يغفر للذين اعتدوا عليه. ومن تدبر فى القرآن الذى يحتوى على كل الخطوط الدستورية العامة للدين الإسلامى عرف ان احكامه ليست إلا ذكرى للبشر للذى تحسنه عقولهم، تلك العقول التى لا تختلف من زمن إلى اخر، ولا من مكان لآخر، وفى الحديث: إن العقول حجة باطنة، والرسل حجة ظاهرة .

3- الشرائع (النظم)

اما الشرائع التى يعبر عنها اليوم بالنظم والتى تبين تفصيل الأحكام، فهى صورة تشريعية عن السن الكونية فمثلا ً قوله تعالى: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ، الذى يعطى الرجال حق القيمومة والسيادة فى البيت، بما فى ذلك حق الطلاق والطاعة والإشباع، فإنما هى تصوير تشريعى لسنة الله لكل انثى، إنها أقل حظا بطبيعتها عن الرجل، فى الوظائف البيولوجية. وقوله تعالى: السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا (تعبير تشريعى عن أن القدر الكافى لردع السارق عن جريمته هو قطع يده، ولا يكفى أقل منه...) وإنه لأن تقطع يد سارق خير من أن يخطف الأمان أمة بكاملها.

اللوائح القانونية هو المتطور في الدين

اللوائح القانونية، أو (التطبيق الخارجى للأحكام)، ترتبط بالمواضع المادية، وتختلف باختلافها. فالتسلح القادر على حصانة الأمة عن الاعتداء الخارجى، و التصنيع الداخلى ضرورة حيوية وقد قال الله فيها: وَلَوْلا َ دَفْعُ اللّه ِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرض ولعل معنى الآية ان الطبيعة الدفاعية التى جعلها الله تعالى فى الناس دَفْعُ اللّه ِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هو الذى يمنع من أن يفسد المعتدون فى الأرض. ولولا هذه الطبيعة الدفاعية فى الإنسان لفسدت الأرض، إذ انّ الدفاع عن النفس هو الذى يمنع المعتدى من القيام باى عمل تخريبي في المجتمع.

وهذه سنة طبيعية فى البشر لا تختلف فيها شريعة زمن عن شريعة زمن اخر، إذما اجتمع البشر بعضهم إلى بعض، وما ان تركهم الله لاختيارهم، ومنحهم الحرية الكاملة فى ممارسة الحياة، حتى طغى القوى منهم على الضعيف، وبغى العالى على الدانى فقتل قابيل هابيل واستضعف فرعون بنى إسرائيل، ودمر النازيون العالم وحطمت أمريكا فيتنام. كل ذلك لاشتراكهم فى طبيعة البشر المختارة بين الخير والشر، الذى يختار الشر يفسد فى الأرض، ولذلك جاءت الشريعة الواحدة أبدا وقالت: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) .

ثم ترك اللائحة والتطبيق الخارجى للظروف، حتى تحكم لنا ان القوة هى السيف أو المسدس أو المدافع أو الصاروخ أو القنبلة الذرية.ان هذا هو الذى يرتبط بالمادة، وبما أن المادة تتطور، فإن هذا يتطور أيضا. وعلى الفقهاء أن

يحكموا حسب التطور على امتداد الزمان ما يرونه صالحا وموافقا للناس فيهما.

هل الدين متأخر؟

صحيح ان البشر تقدم عما كان عليه حين جاء الدين، ولكن هذا لا يعنى تأخر الدين كما يزعمون ذلك، إن تقدم البشر ينقسم إلى قسمين:

التقدم المدنى، المرتبط بالمادة فقط، فقد عرفوا كيف يسخروا البحار، فالنار فالكهرباء فالذرة، فى صنع القطارات والباخرات والطائرات والصواريخ. والدين يواكب هذا التطور ويبارك له، إذ أنه لا يمس الشريعة أصلا.

التقدم الحضارى، الذى يرتبط بالفكر. فالبشر لم يكن يعلم أن للمرأة خصائص فسيولوجية وسيكلوجية، ليست للرجل، وبالعكس ولم يكن يعلم ان للزنا تأثيرا على النفس والنسل وعلى العقل. لم يكن يعلم ثم علم هذا جميعا.

وهذا التطور يؤثر على التشريع بصورة واضحة، ولكنه يؤثرعلى تشريع البشر فحسب، لأن هذا التاثير ناشىء عن جهل البشر بالمبادئ الأساسية للكون والإنسان وبالسنن الفطرية فيها، ومن الواضح ان هذا لا يجرى فى الدين، إذ انّ واضعه عليم بكل الأمور، فيصنع منذ البدء ما يوافق، والمبادئ العليا، ويتناسق مع السنن الفطرية ولا يمكن ابدا ان يؤثر هذا التطور الحضارى على مبدا واحد من مبادئ التشريع الدينى، بيد ان هذا التقدم الحضارى ربما أيد الدين فى كثير من تشريعاته التي وصل إلى سرها الدفين.

فلسفة الدين الإسلامي

لماذا فلسفة الدين؟

بعد سلسلة من الكلمات الموجهة حول ضرورة الدين وشموليته وديمومته، لا بد أن نلقى نظرة خاطفة على فلسفة (الدين الإسلامى) الذى يجهله أبناؤه، بقدر ما يجهله أعداؤه.

ونبدأ الحدث بتعريف لكلمتى (الدين والإسلام) ونستعرض بعدئذ الخط العريض لفلسفة العقيدة والشريعة والمثل في الإسلام.

تعريف الدين..

في اللغة:الإلتزام بالسيادة القانونية الحكم.السلطان.القوة.

في المصطلح: مجموعة من العقائد والتكاليف المنسوبة إلى الوحي.

تعريف الإسلام..

في اللغة:التسليم النفسي أو القانوني لشيء.
فى المصطلح:التسليم لشريعة الله، سواء كانت نازلة على إبراهيم أو موسى أو عيسى أو محمد x قال تعالى: قولوا آمَنّا بِالله ِوَمَا أُنْزِلَ إلينا وَمَا أُنْزِلَ إلى إبْرَاهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النّبِيُّونَ مِنْ رَبّهِمْ لا نُفَرّقُ بَيْنَ أحد مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .
إنما يتحقق إسلام الأمة بنص الآية، حينما يعترفون بكل ما انزل به الله ويخضعون له تسليما.

أولا: فلسفة العقيدة

1- فلسفة التوحيد..
ليس الإيمان باللّه اىّ كان، وكيف كان هو التوحيد، إنما التوحيد هو الإ يمان باللّه الحق الذى هو واحد احد، ليس كمثله شىء وخارج من إطار النفى والعدم، وإنه موجود، ليس بجسم ولا صورة ولا عرض ولا جوهر، بل هو مجسم الأجسام، ومصور وخالق الأعراض والجواهر.
لو كان اللّه تعالى ناقصا إذن لكان محتاجا وكان كسائر خلقه، وإذن لم يكن بحاجة إلى القول بان الخلق بحاجة إلى الخالق، ذلك لأننا كلنا نحتاجه، لما عرفنا منهم من النقص فلو كان الخالق مثلهم فى النقص كان مثلهم فى الحاجة إلى خالق آخر سبحانه.

2- فلسفة العدل..
او يامرهم به، ثم يضطرهم إلى تركه، كما ليس من العدل ان يذر اللّه عباده يطغى بعضهم على بعض، ثم لا يعاقبهم عليه، إن افعال البشر مخلوقة لله خلق تقدير فهو الذى اعطاهم الحول والقوة وهو الذى وهب لهم المشيئة والعقل ولكنها ليست مخلوقة لله خلقا تكوينيا بالمباشرة خلقة ليست جبرية وَمَا رَبُكَ بِظَلا م ٍلِلعَبِيدِ ولم يظلمهم، هل لأنه يبغضهم؟ لماذا خلقهم إذن؟ أم أنه يخشى منهم وهو القادر عليهم أم لأنه يجهل مصلحته؟ وهو العليم الحكيم.

3- فلسفة الرسالة..
إن المعطيات الحتمية للعقيدة بالتوحيد والعدل بالرسالة، اليس الخلق مح تاجا ً ً جاهلا وهلوعا، فكيف يقدرون على إدارة حياته بما فيه خيرهم وص لاحهم، وإذا لا يمكنهم ذلك فكيف يدعهم الله ليهلكوا.هذا عدل حياتهم بما فيه خيرهم وصلاحهم، وإذا لا يمكنهم ذلك فكيف يدعهم الله ليهكوا.هذا عدل منه ام ظلم؟ وكذلك ابتعث اللّه الرسل كلما تمادى الناس فى ظلالة، جاءهم رسول من انفسهم يهديهم، وكل واحد منهم ياتى بمزيد من البيان يلائم تطورهم حتى ختم الرسالة بالنبى محمدx، فأوتى بما أوتى من قبله وما يحتاج إليه الناس من بعده إلى يوم القيامة.
فلسفة الإمامة..
والإنسان اجتماعى نفسيا وحضاريا، ولا بد للمجتمع من حكومة إنّمَا أنْتَ

مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ، وإن الرسول يحدد كسائر البشر بزمن مخصوص ومكان معلوم، فلا يسعه بيان كل ما يحتاج إليه البشر ولا يتم لذلك رحمة الله اللا محدودة على العباد، فكان عليه إتماما للنعمة أن ينصب ائمة يتزعمون الأمة من جانب، ويعلمونهم الدين من جانب آخر. وقد فعل ذلك حينما نصب عليا إماما واستخلف حسنا ً ً وحسينا ً ً وأبناؤهم.

4. فلسفة الجزاء..

وامر اللّه الخلق ونهاهم، فمنهم من امن واتقى، ومنهم من ادبر وتولى، ثم ماتوا على سواء، اليس من الحكم والعدل أن يبعثهم تارة اخرى ليجزي كل بما عمل، فيخلق جنة ونارا وينصب ميزانا وحسابا؟.

ثانيا: فلسفة الشريعة..

1- فلسفة الواجبات..

لقد امر اللّه تعالى بتكاليف لم يامر بها، إلا لما فيها من سعادة، وفى تركها من شقاء فامر بإقامة الصلاة توكيدا لعقيدة التسليم لله الحق بما فيها من ركوع وسجود وذكر وترتيل. وبما فى مقدماتها من الطهارة عن الخبائث والأحداث فتسبب تهيئة النفس لرحلة معنوية إلى رحاب اللّه الخالق، ومن بحث عن ماء مباح ومقام وملبس مباح، لما فيه من تنفيذ الأحكام وأداء حقوق الناس.

وامر بالصوم لما فيه من ترويض للنفس على الطاعة، والارتفاع بها إلى مستوى الضبط والتحكم بالشهوات، وإحساس بالم الجوع والعطش، لعله يخفف من طغيان النفس وغرورها، ولما فيه من صحة فى الجسم عن طائفة من الأرض من الأمراض وقاية وعلاجا.

وأمر (بالزكاة والخمس) توزيعا للثروة، ورعاية للمصلحة العامة، وما جعل على البشر من واجب العناية بنظيره،ولولاهما لطغى الأغنياء ولبغى الفقراء ولفسدت الأرض.

وواجب الحج على الناس بعيدهم وقريبهم، لكى تتوحد الأمة على بعد مناطقها واختلاف ظروفها، فتحل مشاكلهم وتتدارك احوالهم ثم يخضع الناس جميعا للواجبات إظهارا لتسليمهم لله وتصديق لعقيدتهم بدينه ولكى تهدأ نفوسهم عن طغيانها إذ الطغيان علة كل شر وفساد.

وفرض (الجهاد) دفاعا عن كيان الأمة ومنة لحضارتها، ولتكون كلمة اللّه هى العليا وكلمة الجاهلية هو السفلى. وإذا كان دين اللّه هو الحق والهدى و الخير والرفاه، فإن حمله إلى الآفاق، والتضحية لأجله بالدم فضيلة ما أشرفها وما أرفعها مقاما.

والولاية بعدئذ وهى السلطة التى تحكم باسم اللّه وتدفع المعتدى، وتاخذ منه الحق وتراعي المصالح العامة هي أهم فريضة عقلية وشرعية بعد العقائد.

وأوجب (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)، إذ كان المعروف كل خير أمر به الدين او العقل، والمنكر كل شر نهى احدهما عنه وليس تنفيذ الواجبات

وترك لمحظورات أقل أهمية منها، إذ لا مصلحة فى تشريع لا تنفيذ له. وهذا الواجب هو التنفيذ الإجتماعى لكل الأحكام، وإن فى رشد الأمة وشعورها بمسؤليتها وتحصنها من الفتور واللامبالاة، وتمتين الروابط بينها.

وأوجب (صلة الرحم) لما فيها من أثر فى تكوين الخلايا الاجتماعية التى هي بمثابة تعاونيات فطرية.

وفرض معونة المظلوم والتعاون معه، ومع كل ذى حاجة لما فيها من تكافل في العيشوأمان للحياة.

2ـ فلسفة المحرمات..

وحرم الزنا واللواط ونكاح الأقارب والعادة السرية وتبرج النساء، والنظر إليهن وكل ما يثير شهوة بباطل كل ذلك، ليحفظ فطرة الحياة التى جعلت الشهوة لامتداد الجنس، فإذا صرفت فى غير ذلك، سببت فسادا كبيرا ولما فى ذلك من حصانة للأسرة عن عدم قيامها بدورها فى بناء المجتمع المترابط المتعاون المتحابب ابدا ولو كان الدين قد اباح الشذوذ الجنسى أو الخلاعة لسبب امراضا جسمية، واخرى نفسية، وثالثة اجتماعية يكتشفها البشر يوما بعد يوم.

الإيمان تعقل

الإيمان والعقل

ليس الإيمان على نوع واحد، فقد يؤمن عقل الإنسان وضميره، وقد يؤمن لسانه فقط. والإيمان الأول هو الإيمان المستقر الثابت لأنه نابع من العقل و الوجدان، والإيمان الآخر هو الإيمان المستودعع، لأنه لم يستقر فى عقل الإ نسان وروحه.

والإيمان المستودع ياتى نتيجة التفكير والتدبر، بينما الإيمان المستودع يأتى نتيجة التقليد والإتباع الأعمى. ولأن أى شيء يعتمد على العاطفة ينهار بسرعة، فإن الإيمان الناشئ عن التقليد والشك يتلاشى بسرعة، فلا يصمد أمام الشبهة.

الإيمان والتقليد

ومن هنا وجب ان نؤمن عن تعقل، وليس عكس الإيمان النابت عن التفكير و التعقل إلا التقليد.

فقضية الإيمان لا تحتمل الغفلة واللامبالاة، لأنها تقرر مصير الإنسان فى الدنيا والآخرة.

الإيمان والحق: وإذا لم يكن هناك من يتحمل بدلا عن غيره مصيره في يوم القيامة، فلا بد ان نبحث عن الحق بانفسنا، ولا نقلد الآخرين فى هذه القضية، مهما بلغت ثقتنا وحبنا لهم.

والقضية ليست مجرد ان نؤمن اولا نؤمن، فهذا هو المبدا وعليه تترتب عدة قضايا مهمة. بمن نؤمن؟ كيف نؤمن؟ ما معنى الإيمان والتزاماته؟..الخ.

فلا بد ان نستخدم فى كل هذه القضايا العقل وليس التقليد العاطفى الأعمى، لأن أي خطأ نرتكبه في هذه المجال، سنرى آثاره المريرة إلى الأبد.

إن ثقتنا بطريقة ابائنا الأولين، لا تعطينا العلم بانهم كانوا على حق، إنما هو مجرد ظن واحتمال. ولا شك أن الظن لا يغنى عن الحق شيئا. لأن احتمال كونهم على باطل قائم إلى أن يحكم العقل في الموضوع.

الإيمان والقيامة

إن الإنسان كائن حر مستقل، هكذا خلقه الله. ويجب أن يكون مستقلا فى اختيار عقيدته، ولا يجوز له ان يصبح مقلدا لغيره، ولا يجوز للغير ان يستعبد عقله ويفرض علىه دينه، لأن الإنسان كما خلق مستقلا فإنه سيحاسب على عقيدته واعماله بصورة مستقلة أيضا، ولذلك يجب ان يؤمن بمحض اختياره وتفكيره وتعقله، وباستقلال كامل عن الآخرين.

وإذا كان الإنسان يرفض ان يقلد اباءه فى حياته الشخصية، افلا يجب عليه أن يرفض التقليد الأعمى في أهم قضية ترتبط بسعادته ومصيره الأبدي؟.

إن التقليد عاطفة خبيثة تغطي عقل الإنسان بحجاب سميك، بالخصوص في قضية العقيدة والإيمان. ولأن الإيمان بالله قضية تقوم على العقل وحده، لذلك فإن اى شيء يعطل دور العقل مضر بالأيمان ومن هنا فإن دعوة الأنبياء كانت تقوم على اساس دفع الناس إلى ضرب الإتباع الأعمى للآباء وبعث العقل في نفوسهم، في الحديث: ليثيروا لهم أي للناس دفئن العقول.

جذور الكفر

إذا كان الإيمان بالله نابعا من أمرين:اما العقل أو العاطفة، فإن الكفر لن ينشأ إلا من الهوى، اى الصفات النفسية السيئة المستقرة فى العاطفة ومن الشهوات أيضا. فليس هناك أبدا أى فرد اختار الكفر بالله على الإيمان به، بعد دراسة وتدبر وتفكير.

ولأن العقل هو العنصر المقابل للهوى والشهوات، وفى صراع مستمر معها، فإن انتصار العقل يعنى انتصار الإيمان على الكفر، وعندما يحدث العكس ينتصر الكفر على الإيمان.

وإذا درسنا الدوافع النفسية للكفار على مدار التاريخ، نجد انها لا تخرج عن أحد.الأسباب التالية، وقد يكون وراء كفر البعض أكثر من سبب واحد:

الغفلة والشهوات
الغرور والتكبر.
التعقد النفسي.
التقليد الأعمى.
والصفات الثلاثة الأخيرة، هي أبرز صفات الهوى في نفس الإنسان.

الغفلة والشهوات

الغافلون عن هدف وجودهم، وعما يحدث للإنسان بعد الموت، هم الذى يستسلمون غالبا لشهواتهم الحيوانية، فهم من هذه الناحية لا يختلفون عن الحيوانات والبهائم، كلاهما لا سيئل نفسه: لماذا خلق؟ ومن الذى خلقه؟ ولماذا خلقه؟ وما هو مصيره بعد الموت؟

والغفلة على نوعين: فقد يغفل الإنسان لأنه يعيش فى مجتمع وحشى متخلف لا يعقل ولا يفهم، وإنما يعيش فقط، وهذا جاهل لا حيلة له إلى العلم و لا عتب عليه. وقد يكون نتيجة تغافل إرادى، فهو بالرغم من تعايشه فى مجتمع يعرف معنى الإيمان، الا يحاول الهرب من هذه القضية، ليعيش مستمتعا بشهواته دون رقيب أو حسيب.

والتغافل قد يكون ظاهرة فردية فى مجتمع يؤمن بالله، ويلتزم بدينه، فقد يوجد فى مثل هذا المجتمع بعض الأفراد ممن يرفض الإلتزام بالدين، مفضلا العيش فى حصن شهواته الحيوانية. وقد تكون الغفلة الظاهرة التى تنشا فى كل مجتمع يغيب فيه التوجيه الدينى، فترى الجميع يفكر ويتعب ويعمل من اجل إرضاء شهواته، وتحقيق المزيد من الملذات الجسدية الرخيصة.

وإلى هذه التقارير تشير الآية الكريمة: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا 19/59.

إن الاستسلام لشهوات النفس ملازم دائما للاستهانة بالدين، والانفلات من حكمه والتزاماته بصورة نهائية. وهذا هو الكفر بعينه، لأن الكفر لا يعنى عدم الا عتراف بوجود الله فقط، بل هو الجحود به أيضا: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفسهم .

والذين ينغمسون فى الشهوات والمعاصى، لابدّ ان ينتهى مصيرهم إلى الكفر ، كما قال تعالى فى الكتاب الكريم ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ، 330/10.

إن المعصية قد تصدر من المؤمن إلا انه يندم ويتوب، ولكن الذى يستسلم لشهواته، دون خوف، ويستهين بالله ودينه دون رهبة، هو الذى يكفر فى النهاية.

ومن اجل ذلك، فإن الأحزاب الإلحادية تعمق الالحاد فى نفوس افرادها، عن طريق حشرهم فى محيط موبوء بالهوى والشهوات، وعندما يسقط الإنسان

في مستنقع الشهوة، يجرفه الشيطان إلى النهاية فيموت كافرا مرتدا.

الغرور والتكبر

الغرور حالة نفسية لا تؤثر فى سلوك الإنسان فقط، وإنما تؤثر فى البداية على عقل الإنسان ولذلك فإن المغرور يفقد الكثير من المقاييس العقلية ويتصرف بصورة غير منطقية، ولهذه الحالة النفسية ثلاثة اسباب رئيسية هى:الشعور بالغنى والقوة والسلطة. يقول تعالى (إن الإنسان ليطغى إن رآه استغنى).

ولأن الإيمان باللّه تعالى يعنى الخضوع له، والتسليم لأوامره، فإن المغرور يرفض الإيمان، فهو لا يشعر بالحاجة إلى اللّه، ولا يرهب سطوته.

ولأجل هذا السبب فإن المؤمنين غالبا، من الطبقة العادية او الفقيرة، بينما الكافرون من طبقة الأغنياء والمترفين. لأن الطبقة الفقيرة لا تجد أى حاجز نفسى على الإيمان، عكس المترفين الذين يحجبهم عن الإيمان ستار كثيف من الغرور والتكبر. يقول اللّه تعالى وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نذيرٍ إلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إنا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ .

ولأن طبيعة الإنسان واحدة، فلا يختلف إنسان هذا العصر عنه فى الزمن القديم، ففى مبدأ الخليقة كفر إبليس باللّه لأنه تكبر على امر اللّه بالخضوع يقول تعالى أَسْتَكْبَرْتَ أم كُنْتَ مِنَ العَالِينَ . وفى عهد موسى بن عمران ، كفر قارون وهو ابن خالة موسى عندما استشعر الغنى او الثروة، بينما كان من اشد المؤمنين به في أيام فقره وبساطته.

فى حوار هادئ بين مؤمن وكافر، يكشف لنا القران عن غرور الثروة، وشعور المغرور بالاستغناء والرفعة على الآخرين، يقول تعالى: وَاضْرِبْ لَهُمْ مثلا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأحدهما جَنَّتَيْنِ مِنْ أعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (32) كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ اتتْ أكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أنَا اكثر مِنْكَ مَالا وَأعَزُّ نَفَراً (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أظُنُّ أنْ تَبِيدَ هَذِهِ أبَداً (35) وَمَا أظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إلى رَبِّى لأجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أكَفَرْتَ بِالذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا (37) لَكِنَّا هُوَ اللّهُ رَبِّى وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّى أحَداً (38) وَلَوْلا إذ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللّه لا قُوَّةَ إلا بِاللّه إنْ ترَنِ أنَا أقَلَّ مِنْكَ مَالا وَوَلَداً (39) فَعَسَى رَبِّى أنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (40) أو يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (41) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أنْفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أحَداً (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّه وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً 18/40.

ولأن الغرور والتكبر يقف وراء اكثر من حالات الكفر، فإن الكافر المغرور يستكين فوراً عندما يفقد مصدر غروره فإذا فقد ثروته، او احد اعزائه، تنقشع من فوق ضميره غيوم الغرور والغطرسة، وعندئذ يندم الكافر على موقفه

فيقول: يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً . وهذه القضية قد تحصل للإنسان فى الدنيا وقد لا تحصل إلا بعد الموت، ولكن حين لا ينفع الندم.

إن المغرور ينسى ان مصدر وجوده وقوته وثروته من الله، وإن الكفر بخالقه يعنى الإنتحار، فيظل سادراً فى طغيانه إلى ان تاتى ساعة الحسم، فيتوب ويرجع أو يموت فيهلك مع الهالكين.

إن التكبر والغرور يقف وراء كفر الزعماء والمترفين والملوك، لأنهم فى الغالب لا يكفرون بدافع الغفلة أو اتباع الشهوات، بل للكبر والغرور. ومن هنا جاء في الحديث: إن الله يهلك الدهاقين الإقطاعيين بالكبر .

واغلب من رفض رسالة الأنبياء كانوا من طبقة المترفين والحاكمين، لا بتهمة حصلت لهم، أو شك ترددوا فيه، بل فقط للتكبر والغرور. يقول الله تعالى: ثُمّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ .

ينقل التارى خ عن الوليد بن عبد الملك انه استفتح يوما بالقران، فخرجت الآية الكريمة: وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، فأخذ السهم ومزق القرآن بالنبال وأنشد يقول:

فها آنذا جبار عنيد فقل يا رب مزقنى تهددنى بجبار عنيد إذا ما جئت ربك يوم الوليد حشر

إن الفرق بين كفر الغافل، وكفر المتكبر واضح فى اسلوب مناقشتهما، فالأول يحاول ان يعرف الحق، بينما الثانى يحاول الإنهزام منه، فلا يبحث فى أصل الإيمان، بل يحاول إثارة قضايا جانبية للتبرير والتلهية. فمثلا عندما طلب موسى من فرعون أن يؤمن بالله قال له فرعون: فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأولى ولم يجب موسى على هذا السؤال الجانبى، فقال: عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى ثم طلب منه أن يحدد موقفه بدون موارية.

وموقف المتكبرين من الإيمان بالله واحد فى كل زمان، فعندما بعث الرسول ق ال المتكبرون: وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ وكأن المجد الاجتماعى دليل صدق الرسالة، ثم قالوا: فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أو جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ثم طالبوا الرسول بنفس المعاجز التى نزلت على الأنبياء السابقين: وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّه إنهم لا يريدون مجرد اية، بل الآيات التى نزلت على الأنبياء السابقين. وإذا نزلت على الرسول الآيات المطلوبة، لم يؤمنوا، وإنما يطلبون شيئا اخر، لأن القضية ليست قضية شك او شبهة، بل هى عقدة التكبر، وإلا فإن القرآن أكبر معجزة فلماذا لا يؤمنون: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأولى .

لقد جرب اللّه المتكبرين من الأمم السابقة، وحقق لهم كل ما طالبوا به، ثم ارتدوا على أدبارهم كافرين. الم يبعث اللّه مع موسى العصا، ومع عيسى حياء الموتى؟ الم يرفع عن قوم فرعون العذاب سبع مرات، بعد ان كان ياخذ منهم موسى عهدا بالإيمان في كل مرة، ثم استكبروا وأصروا على الطغيان؟.

إن الآيات على اللّه تملأ الأرض والسماء، ولكن المتكبر لن يؤمن ولو راى كل آية، بينما يؤمن من يبحث عن الحقيقة بآية واحدة: وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا .

ولتبرير جحودهم وطغيانهم، لا مانع لديهم من ان ينهموا انفسهم بالوقوع تحت تأثير السحر والشعوذة، كما هو عادة المستكبرين، لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولينَ (13) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إنما سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ .

التعقد النفسي

قد يحصل للمرء في بعض الأحيان عقدة نفسية تجاه الدين، فيرفض الإيمان كله، فقد يواجه صدمة بلاء قاسية في حياته فلا يتحملها، او يجهل فلسفة بعض احكام الدين، فتحصل له شبهة معينة، او تشمئز نفسه من بعض المظاهر الدينية الزائفة، او من بعض رجال الدين، فيتعقد تجاه الدين كله، فيكفر باللّه ورسالاته والدين كله.

وبالطبع لا معنى لأن يرفض الإنسان الدين كله لمجرد ان تعقد من بعض من ينتسب إليه، او جهل فلسفة بعض احكامه، ولكن النفس الإنسانية إذا تعقدت شوهت رؤية العقل، وهكذا يصاب الإنسان بالعمى فلا يرى الأشياء إلا من خلال عقدته.

ولا شك ان من يبحث عن الحقيقة، يستطيع ان يميز بين الإيمان باللّه، كقضية أساسية لا تقبل الشك أو الجدل، وبين الظاهرة التي زرعت فيه العقدة. غير ان المشكلة مع من لا يبحث عن الحق، بل يحاول دائما ان يتشبث بالأوهام والظنون. وإلى هذا النوع من النفوس المريضة تشير الآية الكريمة: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّه مَرَضاً .

وللتميز بين النفوس المريضة والنفوس السليمة، انزل اللّه في الكتاب ايات محكمات وأخر متشابهات، فالنفس السليمة تتمسك بالمحكم، بينما النفس المريضة تتشبث بالمتشابه. يقول تعالى هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أم الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ .

والتعقد النفسي من الدين ظاهرة فردية غالبا، غير ان مؤسسات الإلحاد تبعد الناس عن الدين عن طريق تعقيدهم تجاه رجال الدين وزرع الشبهات في عقول الجاهلين منهم، يساعد على سرعة انحرافهم والشباب منهم خاصة غياب التوجيه الديني بصورة عامة.

التقليد الأعمى

لا شك أن الإنسان يتأثر في تفكيره وسلوكه بآبائه السابقين. فالتاريخ يعتبر احد العوامل المهمة في صناعة الإنسان، إلى جانب المحيط الاجتماعي و التربية.

غير ان هذا التاثر قد يتحول إلى تقليد اعمى فيخرج عن كونه مجرد تاثر عاطفي، إلى عمل مقدس وواجب والتقليد الأعمى لسيرة الآباء الأولين، موقف عاطفي محض، يترسخ عادة في المجتمعات المنغلقة، والمتاخرة وهذه العادة النفسية السيئة تغطى عقل الإنسان بحجاب سميك، تماما مثل اتباع الشهوات، وربما اشد لأن صاحب التقليد الأعمى، لا يفكر في وجود طريقة افضل من طريقة ابائه، ويعتبر اية طريقة اخرى ضلالة وانحراف، لا لسبب عقلي، بل لمجرد أنه مخالف لسيرة الآباء. فمقياس الحق والصواب عندهم ليس العقل بل طريقة الآباء فقط؟

إن كل المجتمعات التي بعث إليها الأنبياء كانت تقدس سيرة الآباء، وتعتبرها حقا لا يمكن مخالفته.

يقول تعالى: وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا ۙ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ .

ولذلك فإن الأنبياء لا قوا مصاعب شديدة لرفع هذا الحاجز السميك الذي يفسدالعقل والضمير لأنه من السهل ان تقنع شخصا بفكرة بعقله، ولكن من المستحيل إقناع رجل لا يقبل العقل مقياسا لمعرفة الحق وتمييزه عن الباطل.

ولقد حارب الأنبياء هذه القدسية الذاتية للآباء بطريقتين:

بتذكيرهم المستمر بضرورة التفكر والتدبر، وعدم التسليم لآية عقيدة بدون تعقل مسبق ذلك لأن العقل وحده يستطيع ان يهدي الإنسان إلى الحق، والأ نبياء كلهم، حجة ظاهرة تؤيد حجة الله الباطنة وهي العقل.

بالتاكيد على ان كل إنسان يتحمل مسوؤليته بنفسه، فإذا كان اباء المرء على باطل، فإنهم وحدهم سيتحملون مسؤولية أخطائهم. وإذا كان كل فرد يتحمل مسؤوليته بنفسه، فلماذا اتباع الآخرين؟ وما معنى تقليدهم؟ إنهم عاجزون عن إنقاذ أنفسهم، فلماذا يتبعون من لا يملك حولا ولا قوة. يقول الله في القرآن الكريم: وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ .

إن الضعفاء في كل مجتمع يقلدون كبراءهم، تماما كما يقلد جيل جديد الجيل الذي سبقه.

وإذا كان دافع تقليد الأبناء للآباء هو الارتباط النسبي القائم بينهم، فإن دافع تقليد الضعفاء هو المودة الدنيوية القائمة بينهم. ومن هنا فإن الأنبياء يذكرون الناس، بأن هذه المودة القائمة بينهم في الحياة الدنيا ستزول في يوم القيامة. وقال: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

وعندئذ لن ينفع أحد أحدا. تماما كما أنّ الارتباط النسبى القائم بين جيلين، ا لآباء والأبناء، ستزول فى يوم الحساب فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ .. يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لأن كل إنسان مسؤول عن نفسه، ولن ينفعه، إذا كان كافرا، إيمان الآخرين، كما لا ينفع صحة الغير لشخص مريض.

وإذا كان عامل التقليد الأعمى وراء كفر الأمم السابقة، فلا يزال هذا السبب يقف وراء كفر الأمم الكافرة فى هذا العصر أيضا. فالقبائل الوثنية فى أفريقيا، وملايين الهنود العابدين للبقر فى الهند، وملايين البشر العابدين للأصنام و الطواغيت فى اليابان يمنعهم عن تجديد النظر فى عقيدتهم، واختيار الدين الأ فضل، حسب التقليد للأجيال الغابرة. بالإضافة إلى انعدام التوجيه والتبليغ للدين الصحيح الأفضل، وكما استطاع الأنبياء وهم افراد، تغيير امم برمتها، ب الصمود والصبر فى تبليغ رسالات اللّه، فإن المؤمنين فى هذا العصر سيوفقون حتما لهداية الأمم الضالة إذا ما عملوا وصبروا، ثم عملوا وصمدوا، وكان اللّه مع الصابرين.

الإيمان: طمأنينة

إذا كانت غاية الإنسان في الحياة ان يكون سعيدا، فإن غاية السعادة هي الأ من والطمأنينة النفسية. وبالإيمان بالله فقط نحصل على الطمأنينة، ذلك أن مرارة الحياة ومشاكلها تغطي على حلاوتها، فالدنيا كما قال الإمام علي 8: دار بالبلاء محفوفة وبالغدر معروفة .

والمؤمن بثقته باللّه وبالدار الآخرة، وحده يستطيع ان يصمد امام مشاكل الحياة، بل ويستقبلها بقلب منشرح وضمير مرتاح.

يقول الله تعالى: ألا بِذِكرِ اللهِ تَطمَئِنُّ القُلُوبُ .

إن المؤمن والكافر كلاهما يواجه مصاعب الحياة، من مرض وخوف وحزن وفقد احبة وما اشبه، ولكن المؤمن يرضى بقضاء اللّه ويعتبر كل ما يصيبه خيرا له، سواء كان بلاء أو رخاء. بينما يدمر الجزع حياة الملحدين، لأنهم لا يرجون بعد الموت ثوابا ولا تعويضا: فى الحديث عن فضيل بن يسار يقول: دخلت على الإمام الصادق 8في مرضة مرضها، لم يبق منه إلا رأسه، فقال: يا فضيل إننى ما أقول ما على رجل عرفه الله هذا الأمر. لو كان فى رأس جبل، حتى يأتيه الموت. يا فضيل:ان المؤمن لو أصبح له ما بين المشرق والمغرب، كان ذلك خيرا له. ولو أصبح مقطعا أعضاؤه كان ذلك خيرا له، يا فضيل:ان الله لا يفعل بالمؤمن إلا ما هو خير له .

وفي حديث آخر قال رسول الله x: عجبا للعبد المؤمن، إن ينصر في الدنيا على اعدائه، فقد جمع له خير الدارين، وإن امتحن فى الدنيا، فقد اخر له فى ا لآخرة مالا يكون لمحنته فى الدنيا قدر عند إضافتها إلى نعم الآخرة. وكذلك عجبا للعبد المخالف لنا اهل البيت، إن خذل فى الدنيا، وغلب بايدى المؤمنين، فقد جمع عليه عذاب الدارين، وإن امهل في الدنيا واخر عنه عذابها، كان له في الآخرة من عجائب العذاب، وضروب العقاب ما يود لو كان في الدنيا واخر عن عذابها، كان له فى الآخرة من عجائب العذاب، وضروب العقاب ما لو كان فى الدنيا مسلما، وما لا قدر حصل لنعم الدنيا التى كانت عنده، بالإضافة إلى تلك البلايا.

فلو احسن الناس نعيما فى الدنيا، واطولهم فيه عمرا من مخالفينا، غمس يوم القيامة فى النار غمسة ثم سئل:هل لقيت نعيما قط؟ لقال: لا. ولو أن أشد أصعب الناس عيشا في الدنيا، واعظمهم بلاء من موافقينا وشيعتنا غمس يوم القيامة فى الجنة غمسة، ثم سئل:هل لقيت بؤسا؟ لقال: لا فما ظنكم بنعيم

وبؤس هذه صفتها، فذلك النعيم فاطلبوه، وذلك العذاب فاتقوه .

بهذه الرؤية يستقبل المؤمن مصاعب الحياة الدنيا، وما اشد اطمئنان الإ نسان ورضاه إذا كان مؤمنا باللّه واليوم الآخر وبالعكس، وما اشد قلق الكافر على مصائب الدنيا.

الغرب والأزمات النفسية

إن مقارنة بسيطة بين الحياة والمؤمنين والملحدين يكشف لنا عن درجة الطمأنينة في حياتهما.

فرغم توفر كل انواع الرفاه الاقتصادى فى الغرب، فإن الإنسان يعانى من أزمات نفسية عنيفة، وقلق روحى مدمر.ان طمأنينة النفس شيء لن يحصل با لثروة والإقبال على الشهوات، بل هى إنما تزداد اكثر بالإيمان فقط، وبهذه الرؤية تهون مصائب الدنيا في سبيل نعيم الآخرة عند المؤمن.

إن حوداث الإجرام وحبوب النوم، والأمراض العصبية المنتشرة فى اوروبا وأمريكا، تكشف لنا عن أضرار الإلحاد على سعادة الإنسان. تقول التقارير الرسمية:انه من كل عشرين شخص فى أمريكا، يدخل شخص واحد مستشفى الأعصاب.

ويشترك مع الملحد، كل من لم يدخل الإيمان قلبه، وإنما لمس ظاهر لسانه فقط. فهو كذلك لم ينعم بالطمأنينة.

الفلاح في الآخرة

إذا كان الإنسان يبحث عن السعادة فى حياة قصيرة زائلة، افلا يرجوها فى حياة أبدية خالدة؟.

والحياة الحقيقية هي في الآخرة، حيث لا موت ولا مشاكل ولا بلاء، بل نعيم أبدى دائم.ان الشعور بالفلاح فى الآخرة، والفوز بالجنة ورضوان اللّه، هو الذى يثلج صدور المؤمنين، ويدفعهم إلى تحمل المشاق والمصاعب. فعندما حضرت الإمام علي الوفاة فتح عينيه، وألقى نظرة على جنة اللّه الواسعة، وما أعد له فيها، ثم التفت إلى أصحابه وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون .

إن عزة المؤمن ليست بعشيرته ولا باصدقائه، ولا بامواله وثروته، ولا بجاهه وسلطانه، لأن كل هذه الأشياء زائلة وفانية. وربما ترك الإنسان أصدق أصدقائه وحيدا فريدا، إنما اللّه وحده هو الذي يبقى السند الأبدي والمدافع القوى عن المؤمنين.

ولذلك فإن المؤمن لا يستوحش في طريق الهدى لقلة اهله، لأنه مطمئن بربه ، وكفى به مؤنسا وصاحبا. في الحديث: قال رسول اللّه: بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء فقيل: ومن هم يا رسول اللّه؟ قال:الذين يصلحون إذا فسد الناس، إنه وحشة ولا غربة على مؤمن وفى حديث آخر: ما ينبغي للمؤمن أن يستوحش إلى أخيه فمن دونه، المؤمن عزيز في دينه .

يقول الله تعالى: وَالذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ أولئك أَصْحَابُ الجَنّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وفِي الحديث: قال أبو عبد الله:ان الله ضمن للمؤمن ضمانا. ق ال المفضل: قلت: وما هو؟ قال: ضمن إن أقر لله بالربوبية، ولمحمد بالنبوة، ولعلى بالإمامة، وأدى ما افترض عليه، أن يسكنه فى جواره. قال: فقلت:هذه و الله هى الكرامة التى لا تشبهها كرامة الأدميين ثم قال أبو عبد الله: اعملوا قليلا تنعموا كثيرا .

فوائد الإيمان وأصرار الإلحاد

هذه هى فوائد الإيمان: كرامة، وعزة، وأمن، وفاح أبدى. وهذه إضرار الإ لحاد:

ذلة الشهوات، واضطراب روحى، وعذاب أبدى مقيم: فهل خسر المؤمنون؟ يقول الله تعالى: وَالعَصْرِ (1) إِنّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ (2) إِلا ّ َالذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ (3) .

الإيمان: سعادة

الإنسان يفتش عن السعادة

كل من ياتى إلى هذه الحياة يفتش فى البداية عن السعادة، ويظل يبحث عنها إلى آخر عمره.

وكل إنسان يتصور سعادته فى شىء معين، ومعظم الناس يخفقون ويصابون بخيبة أمل مريرة، لا لأنهم يخطئون طريق السعادة، ولكن لأنهم يخطئون الهدف، فلم يعرفوا أي شيء يحقق لهم السعادة الحقيقة.

إن مثل البشر مثل الطفل يتصور ان سعادته فى اللعب بالنار، وعندما تلمس اصابعه الجمرة اللاهبة، يرتد إلى الوراء مولولا باكيا، كذلك الناس فى بحثهم عن السعادة الكاملة، بعضهم يركض وراء المال، واخر يتعب من اجل مركز اجتماعى مرموق، وثالث يتصور سعادته فى الاستمتاع باكبر قدر من الشهوات واللذات الجسدية المادية. وينقضى العمر فى الكدح والتعب بحثا عن السعادة المفقودة. وأخيرا، لن تحصل السعادة.

فاين تكمن سعادة الإنسان؟ وكيف يمكن الوصول إلى هذا الهدف الذهبي؟

ما هي السعادة عند المؤمنين؟

إن سعادة البشر لن تتحقق إلا بعد ان يعرف ان الدنيا ليست محلا للخلود، وإن وراء هذه الحياة حياة أخرى ابدية، وإن الله خلقنا فى هذه الحياة، لكى نعمل من أجل تلك الدار: وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الحَيَوَانُ .

هذه الرؤية إلى الحياة هى التى تمنح للإنسان السعادة الكاملة، والذى يؤمن بهذه الرؤية ويعمل في الدنيا على وحيها، فإنه قد استكمل حقيقة الإيمان.

لأن حقيقة الإيمان هو العزوف عن الدنيا، والنظر إليها نظرة عبورية وليست نظرة ذاتية.

وبهذه الرؤية تختلف معنى السعادة بين المؤمن والملحد، فيما يرى المؤمن ان على المرء ان يسعى فى سبيل السعادة الأبدية وليس فقط ملذات الدنيا الفانية، يجد الملحد أن ملذات الدنيا هي غاية السعادة المطلوبة.

الإيمان لا يهدى الإنسان إلى طريقة الفوز بالسعادة الأبدية فى الآخرة فقط، بل ويهديه إلى السعادة الدنيوية أيضا. لأن الدنيا والاخرة يرتبط بعضهما ببعض الآخر، والطريق إلى السعادة الأبدية يمر على الدنيا اولا، لأنها مزرعة الآخرة.

ملامح السعادة في الدنيا

إن الإيمان يمنح الإنسان ثلاث صفات ضرورية للشعور بالسعادة وهي:

الكرامة الدنيوية.

العزة الدينية.

الاطمئنان النفسي.

ولا سعادة حقيقية للإنسان في الدنيا، بدون هذه الصفات الثلاث هذا ما يعطيه فى الدنيا أما فى الآخرة، فالفلاح والجنة، وتلك غاية السعادة للإنسان، فى الحديث عن الإمام الباقر: (إن الله أعطى المؤمن ثلاث خصال:العز فى الدنيا والفلاح فى الآخرة، والمهابة فى صدور العالمين)، ذلك لأن الإيمان يرفع ا لإنسان في مستنقع الحيوانية.

الكرامة الدنيوية

إن الرجل المؤمن لا يكبت غرائزه الحيوانية، فقد احل له إشباع غرائزه ب الطرق المشروعة. ولكنه لا يجعل اللذة الجسدية هدفا لوجوده، ذلك أنه مشغول بشيء اكبر من اللذات الجسدية، إنه مهم باللذات الروحية، وبالعمل من أجل الفوز بالدرجات العالية في الجنة.

ولأن الدنيا كلها فانية زائلة فلا قيمة لها عنده، ولذلك فإنه لا يذل نفسه فى سبيل الحصول على شيء من حطام الدنيا. فى وصيته إلى والديه الحسن و الحسين يقول الإمام علي 8: ولا تحزنا على شيء زوي منها عنكما .

اما الذى لا إيمان له حقيقة، فإنه يجعل شهواته هدفا لأتعابه واعماله، اى انه يصبح عبد حقيرا لجسده. فلا يفكر ولا يعمل ولا يتعامل مع الناس، إلا على أساس خدمة شهواته وملذاته، تماما كما لا تهتم البهائم إلا بملذاتها. يقول تعالى عن الكافرين: وَالذِينَ كفَرُوا يَتَمَتّعُونَ وَيَأكُلُونَ كمَا تأكلُ الأنْعَامُ وَالنّارُ مَثْوًى لهُمْ

يقول الإمام علي : كان لي أخ في الله وكان يعظمه في عيني، صغر الدنيا فى عينه، وكان خارجا من سلطان بطنه، فلا يشتهى ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد .

العزة الدينية

شعور المؤمن باتصاله بخالق الكون والحياة، ومشيه فى الطريق المستقيم، يفوق شعوره بأى شيء اخر فى الحياة، ذلك لأنه لا شيء اعز من الإيمان فى نفس المؤمن، لأن كل شيء فى الحياة أقل قيمة من الله. فى وصف المتقين يقول الإمام علي : عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم .

إن المؤمن يرتفع بالإيمان إلى مستوى الملائكة والأنبياء والصديقين و الشهداء والصالحين، وهذا الشعور بالرفعة يزيد في سعادته وعزته.

كما أنّ شعوره بقيمته عند أمته فى الدنيا والآخرة، يمنحه عزة نفسية فائقة. فقد جاء في الحديث عن الإمام الباقر : إن الله ليدفع بالمؤمن الواحد عن القرية الفناء . وروى أن رسول اللهx نظر إلى الكعبة فقال: مرحبا بالبيت ما

أعظمك وأعظم حرمتك على الله، والله للمؤمن أعظم حرمة منك .

هذا فى الدنيا، وأما فى الآخرة فقد جاء فى الحديث عن الإمام الباقر : إن المؤمن ليفوض الله إليه يوم القيامة، فيصنع ما يشاء قلت: حدثنى فى كتاب الله حين قال: قوله: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ . فمشيئة الله منوطة إليه، والمزيد من الله مالا يحصى .

فهل هنالك شعور بالعزة والكرامة أكبر من هذا؟ يقول الله تعالى: وَلِلهِ العِزّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلمُؤْمِنِينَ .ان عزة المؤمن لا تنبع من شعوره بالغنى والثروة، أو الجاه والسلطة، فما اتفه هذه القيم فى مقياس المؤمنين، وإنما بارتباطه الوثيق باللّه، خالق الكون والحياة، وقد سئل رسول اللّهx مرة عن حدة المؤمن فقال: لأن عزة القرآن في قلبه .

الاطمئنان النفسي

ولأنه لا شيء اكبر من العزة النفسية النابعة من الإيمان، فإن المؤمن لا يخضع للتهديد أو الترغيب. فلا تذله حاجاته المادية، ولا يقهره ضغط الطغاة و الظالمين.

فِي الأحاديث عن موسى بن جعفر : إن رجلا جاء إلى سيدنا الصادق 8فشكى إليه الفقر، فقال، ليس الأمر كما ذكرت، وما أعرفك فقيرا، فقال: وأمن يا سيدى ما استبنت، وذكر من الفقر قطعة، والصادق يكذبه، إلى أن قال: خبرنا لو أعطيت بالبراءة منا، مائة دينار أكنت تأخذ؟ قال: لا، إلى أن ذكر ألوف الدنانير، والرجل يحلف أنه لا يفعل رغم فقره المدقع، فقال له الإمام: من معه سلعة يعطي هذا المال لا يبيعها أهو فقير؟ .

ولأن عزة المؤمن باللّه، فإنّه لا يخشى من احد، مهما بلغ من القوة والقهر و السلطان، لأن الله أكبر من كل شيء.

إن المؤمن لا يرضى الدنية فى دينه، ولن يتنازل عن إيمانه ولو كلفه حياته، لأنه لا معنى للحياة بدون إيمان، عندما ألقى السحرة ساجدين لموسى بن عمران، هددهم فرعون بالصلب والإعدام قال:امنتم له قبل إن آذن لكم، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر، فلسوف تعلمون. لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلا ف، ولأصلبنكم أجمعين. وكان جواب السحرة صريحا وقويا لا خوف فيه ولا تردد: قالوا لا ضير، أنا إلى ربنا منقلبون، إنا نطمع أن يغفر لنا خطايانا إن كنا أول المؤمنين.

هكذا يصنع الإيمان، فيفصل الموت مع عز الإيمان به، على الحياة مع ذل العبودية لغيره.

عندما جاء احد عمال الخليفة عثمان بن عفان إلى ابى ذر الغفارى بصرة مملوءة بالمال فى محاولة لشراء ضمير أبى ذر المؤمن التفت إليه أبو ذر قائ لا: وهل أعطى الخليفة مثل هذا لبقية المسلمين؟ قال الرجل: لا، وإنما هى

منحة خاصة لك فقط، فقال أبو ذر :ارجع لأحوج ما أكون إلى درهم واحد من هذه الدراهم، لكني لا حاجة لي في هذا المال.

هذا هو الإيمان الحق الذى يقول عنه الرسول الأكرم X: المؤمن أشد من الجبل، لأن الجبل يستقل منه والمؤمن لا يستقل من دينه شيء . ويقول عنه ا لإمام الصادق : إن المؤمن أشد من زبر الحديد، أن زبر الحديد إذا دخل النار تغير، وإن المؤمن لو قتل ثم حشر ثم قتل لم يتغير قلبه .

فى الحديث عن الإمام الباقر : قال: لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال:الموت أحب إليه من الحياة، والفقر أحب إليه من الغنى. والمرض أحب إليه من الصحة. قلنا: ومن يكون كذلك؟ فقال الإمام: كلكم، ثم قال:ايما أحب إلى أحدكم يموت فى حبنا، أو يعيش فى بغضنا. فقلت:نموت والله فى حبكم أحب إلينا قال: وكذلك الفقر والغنى والمرض و الصحة. قلت:اي والله .

هذا هو المؤمن الحق.اما الكافر، فإنه يحس فى قرارة ذاته بالذلة والهوان، ذلك أنه لا يجد قيمة لحياته أكثر من قيمة شهواته وأهوائه. وعندما يقيس المرء قيمة ذاته بمقياس قيمة شهواته، فإنّه سيكون اذل من البهائم فى الحديث: من كان همه بطنه، فقيمته ما يخرج من بطنه .

إن الكافر قد يشعر بعزة الثروة والغنى او الجاه والسلطة، ولكنها عزة ظاهرية اما فى اعماق نفسه، فإنّه عبد ذليل لشهواته واهوائه وعندما يقيس المرء قيمة ذاته بمقياس قيمة شهواته، فإنّه سيكون اذل من البهائم فِى الحديث: من كان همه بطنه، فقيمته ما يخرج من بطنه .

إن الكافر قد يشعر بعزة الثروة والغنى او الجاه والسلطة، ولكها عزة ظاهرية.اما فى أعماق نفسه، فإنّه عبد ذليل لشهواته الحيوانية.هارون الرشيد وكل المترفين من امثاله ملك نصف الأرض واصبح له المال والكرسى و الصولجان، ولكنه كان أذل وأحقر من أن يستطيع مقاومة شهواته الحيوانية.

الوليد بن عبد الملك. ماتت جاريته المحببة حبابة فمنع من دفنها، وأقام على جثتها ثلاثة أيام كاملة.هذه هى نفسية الكافر.اما المؤمن فإن عزته فى نفسه، كما جاء فى الحديث: ولذلك فلا يهمه أقبلت عليه الدنيا أم أدبرت، احترمه الناس أم أهانوه، فهو عزيز في نفسه.

وفِى الحديث عن الإمام الباقر ، ثم قال: يا عبد الواحد، ما يضر رجلا إذا كان على هذا الرأى ما قال الناس له، ولو قالوا: مجنون وما يضره، ولو كان على رأس جبل حتى يجيئه الموت ، وهكذا عاش بعض الناس على وجه الأرض فهل خسروا شيئا؟. لاشك أنهم كانوا أسعد حالا ً ً من الذين جعلوا كل همهم، التفكير فى البطن والبذخ وباقى الشهوات؟ الكل ماتوا واصبحوا ترابا، ولكن المؤمنين فقط ربحوا الآخرة بينما خسر الملحدون كل شيء.

يقول الله تعالى: وَالعَصْرِ (1) إنّ الإنسان لفِي خُسْرٍ (2) إلا ّ َ الذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3) .هارون الرشيد الذى كان يرفل فى النعيم، وكان قصره الفخم يغص بالوف الخدم والغلمان، والوف الجوارى الحسان، اين ذهب اليوم؟ وما الذى بقى منه؟ وكيف هو حاله الآن فى عالم البرزخ؟

بالمقابل، ما الذى خسره الإمام موسى الكاظم الذى عاش حياته زاهدا مجاهدا؟.

إن التاريخ كله يكشف لنا عن صنفين من الناس: مؤمنين عملوا من أجل الآ خرة، فماتوا فوفاهم اللّه اجورهم، وملحدين كافرين، عبدوا شهواتهم وفضلوا الدنيا على الآخرة، فماتوا، فلقوا جزاءهم نارا حميما.

الإيمان.. عمل

بين الإيمان الصادق والإيمان الكاذب

لكي نضمن السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، لا بد ان نكون مؤمنين حقا، لأن الإيمان الكاذب ليس فقط لا ينفع صاحبه بل ويجره إلى هلاك أكيد ف الطريق إلى الجنة واحد وهو الإيمان الصادق، وأي لون اخر من الإيمان لن يكون نتيجة سوى النار الأبدية الخالدة.

وقبل إن نتعرف على علامات المؤمن الصادق والمؤمن الكاذب، علينا ان نعرف عدة نقاط:

ليس للمؤمنين فضل على الله

الأولى: ليس للمؤمنين أي فضل على الله ورسوله، بل له المنة الكبرى على ا لإنسان، إذ هداه إلى الإيمان به، ولم يتركه عبثا كالحيوانات: يقول الله تعالى: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفسهم . وفى آية أخرى يقول الله تعالى: قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ وفى آية ثالثة: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ .

العلم والإيمان شيئان منفصلان

ثانيا:ان العلم بالدين شيء، والإيمان به شيء آخر. فقد يكون المرء علامة فى دينه، ثم لا يكون له من الإيمان نصيب، وقد يكون العكس. وربما اجتمعا فى شخص واحد، وربما لم يكن للبعض أى نصيب منهما. (فالعلم والإيمان) شيئان منفصلان. وبذلك فلا يمكن أن نحكم على إيمان الشخص بمقياس علمه بالدين، وكذلك العكس.

حقيقة الإيمان ومصادر الشريعة

ثالثا:ان كل شيء أنزله الله إلى البشر على يد أنبيائه ورسله فهو (دين) يجب الإيمان به. وكل شيء لم ينزله الله فهو ليس بدين، مهما كان صالحا ومفيدا في نظر الإنسان.

ومن هنا فإن معرفة حقيقة الإيمان لا يمكن ان يحصل بالرجوع إلى كتب اللغة، بل بالرجوع إلى مصادر الشريعة، أى إلى من أنزل الله على أيديهم الدين.

وأى تحديد للإيمان لا يكون نابعا من القرآن والسنة فهو لغو لا اعتبار له. غير ان مشكلة الناس فى هذا العصر هو انهم نتيجة للضعف الدينى العام لا يستلهمون (حقيقة الإيمان) من مصادره وإنما يستمدون من أنفسهم ذلك، وهذه أخطر حالة دينية تمر بها أمة مؤمنة. فليس ما يعتقد الإنسان أنه (دين) يصير دينا منزلا من عند الله، لأن الدين ليس من صناعة الإنسان وإنما هو من صناعة الله وحده.

كيف انحرفت المسيحية واليهودية؟

وعندما ترفض امة ما الخضوع والتسليم للدين وتحاول تحوير الدين وفق ما تشتهيه الأنفس والمصالح والشهوات، عندئذ تنقلب كل المقاييس الدينية، وتبدأ الأمة سيرها التدريجى نحو الإلحاد والانقلاب من الإيمان. كما حدث ذلك فعلا للأمة المسيحية.

لقد انحرفت المسيحية واليهودية يوم ان بدا رجال الدين اليهود، وبعدهم المسيحيون بما يسمى بـ (تطوير دينهم) وفق المصالح والشهوات، وبدأ الإيمان بالمسيحية الحقة يزول تدريجيا، ويحل مكانه إيمان مهلهل بمجموعة معتقدات صناعية، ما أنزل الله بها من سلطان.

ولقد شدد الله النكير على علماء اليهود والنصارى وعلى اممهم ايضا، لأنهم ليس فقط كفروا بالله، بل وايضا جعلوا انفسهم فى مقام الآلهة، إذ سمحوا لأنفسهم بتحريف دين الله، وخلق دين جديد.

وكيف ينحرف المسلمون؟

والمسلمون اليوم يواجهون نفس المشكلة، مشكلة (قلب القيم الأساسية للدين) وتبديله بقيم جديدة. وهذا أخطر جداً من مجرد تعطيل مؤقت لبعض حكام الدين وقوانينه، لأن هذا يسمى (معصية) يمكن أن تغفر، وذلك يعتبر (شركا) صريحا لا يمكن أن يغفر أبدا. إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .

الإيمان بين القرآن ورؤية الناس

وقلب مقياس الدين يبدأ دائما بقلب مفهوم الدين نفسه. وفيما يلى نقارن بين مفهوم الإيمان فى القران والأئمة، وبين مفهومه فى ذهن عامة الناس فى هذا العصر.

يقول الله تعالى: فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفسهم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً . وفى تفسير هذه الآية يقول الإمام الصادق إن هناك حاجزا رقيقا جداً يفصل بين الإيمان و الشرك، هو أن نسلم لله فى كل شىء، فنكون (مؤمنين) صادقين أو لا نسلم له في شيء واجد فنكون (مشركين).

إن كثيراً من المتدينين فى هذا العصر، يرفضون (القبول) ببعض المعتقدات

بحجة أنه لا ينسجم مع (فكرهم) الضيق المحدود. ويرفضون (العمل) ببعض أحكام الإسلام، بحجة أنهم غير مقتنعين بجدواها وفائدتها، وكان الله لم يعرف ذلك عندما أنزل الدين. وهذا العبد الجاهل هو أعرف بالتمييز بين ما يصلح وما لا يصلح. وبعض الحكام يستبدل بعض أحكام الدين بغيره، بحجة أن ذلك أفضل.

كل هذا يدل على إيمان كاذب، إذ يعنى ان الإيمان لم يدخل فى عمق وجداننا، وإننا لم نعرف الله حق معرفته، ولم نعتبره (إلها عليما) بكل شيء وقادرا على كل شيء، وإنما اعتبرناه مجرد (ناصح) قد لا يعرف الصالح فى بعض الأحيان نعوذ بالله.

الإيمان سلوك وعمل

يقول رسول الله : الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان . وفى حديث آخر: الإيمان قول وعمل..اخوان شريكان وفى حديث آخر عن ا لإمام علي : لا إسلام إلا بتصديق، ولا تصديق إلا بيقين، ولا يقين إلا بعمل .

هذه الأحاديث تؤكد على أن الإنسان ليس مجرد (علاقة متينة) بين الإنسان وربه، بل هو (سلوك وعمل) أيضا. لأن الإيمان القلبى، الذى لا يظهر أثره على سلوك الإنسان وعمله، إنما هو إيمان رمزي كاذب.

والقرآن الكريم يشفع دائما بذكر (الإيمان) بأنه (العمل الصالح) فى أكثر من 75آية.

ويجعل العمل الصالح مقياس صدق الإيمان وكذبه فيقول: أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ، فليس له اليوم ها هنا قرين). لأنه لا يمكن أن يجتمع (الإيمان الصادق) مع (العمل السيء)، لأن سلوك الإنسان وعمله هو دليل عقيدته وإيمانه.

ولأن العمل الصادق هو مقياس الإيمان الصادق، فإن المظاهر ليست دليلا على الإيمان الحقيقي أيضا:

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ اولئك الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

صفات المؤمنين الصادقين

فالذين صدقوا لهم ثلاثة علامات:

إيمان قلبي عميق بالله وبالآخرة.

تضحية بالمال والنفس.

الاستقامة والاستمرار في التضحية.

الإيمان الصادق والعمل الصالح

والإيمان الذى ينجى الإنسان فى يوم القيامة هو الذى يقترن مع العمل الصالح، ولا يكون مشوبا بالسيئات يقول تعالى: الذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئك لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ .

ولقد جعل الله (العمل الصالح) غاية الخلق، ومقياس الفضل، ومجالا وحيدا للتنافس فى درجات الفضل فى الدنيا والآخرة. ويقول تعالى: تَبَارَكَ الذِى بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (1) الذِى خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .

وينقل الله فى القرآن على لسان المؤمنين، الدعاء التالى: رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيعَادَ .

التضحية في سبيل الله

هذا ما يرجو كل مؤمن من اللّه، ولكن اللّه لا يستجيب إلا للعاملين منهم فقط، الذين لاقوا مختلف أنواع الأذى والصعوبات وبذلوا الكثير من التضحيات فيقول: فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللّه وَاللّه عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ .

فطريق النجاة من النار ودخول الجنة، هو العمل فلا قرابة بين اللّه وبين أحد من عباده ولا قيمة في الدنيا والآخرة إلا للإيمان مع العمل الصالح.

وليس كل عمل دليل صدق الإيمان، بل (التضحية)، لأنها فقط تستطيع أن تثبت ان صاحبه يقدم إيمانه بالله على متاع الدنيا، وإنه لا يستخدم الإيمان طريقا إلى مصالحه الدنيوية. وتشير الآية التالية إلى مقياس صدق العمل أيضاً بقوله: مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّه عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً .

فالموت فى سبيل الله أو انتظار (الشهادة) هو دليل صدق المؤمن، وفى النهاية سورة الحجرات يحصر بحرف إنما المؤمنين الصادقين فيمن تحمل مسؤولية الإيمان، فتضحى وجاهد بالمال والنفس فقط فيقول: إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الذِينَ آمَنُوا بِاللّه وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللّه أُولئك هُمُ الصَّادِقُونَ فى الحديث: لما استقبل رسول اللهX حارثة بن مالك بن النعمان الأنصارى قال له: كيف أنت يا حارثة بن مالك فقال: يا رسول الله مؤمن حقا فقال له رسول الله: لكل شىء حقيقة فما حقيقة قولك. فقال يا رسول الله عزفت بنفسى عن الدنيا فاسهرت ليلى واظمات هواجرى، وكانى

انظر إلى اهل الجنة يتزاورون فى الجنة، وكانى اسمع عواء اهل النار فى السفار .

هذا هو حقيقة الإيمان الذى يمنح الإنسان امنا فى الدنيا ونجاة من النار فى الآخرة. ويظهر هذا المفهوم الذي ذكرناه أن الإيمان الصادق ثلاث صفات:

التسليم النفسي الراسخ.

التضحية بالمال والروح.

الاستقامة في طريق الجهاد.

المفهوم الخاطئ في الدين

غير ان هذا المفهوم قد انقلب فى منطق كثير من المتدينين فى هذا العصر فلا يعنى الإيمان التسليم الكامل، بل يمكن ان يرفض بعض احكام الدين بحجة عدم موافقتها مع العقل.

إن معصية بعض احكام الإسلام، مع الخوف والحذر من نتائج هذه المعصية شىء، ورفض هذه الأحكام بحجة انه عتيقة وبالية وغير قابلة للتطبيق، او انه غير مهمة، شىء آخر.ان حرمة السفور والغناء وما أشبه تنتهك فى مجتمعاتنا، دون ان يشعر احد بان الدين قد انتهك، بل يحاول صاحب المعصية ان يبرر عمله ويوفقه مع الدين، وربما يعتبره عملا دينيا أيضا.

وبالنسبة إلى المعاصى التى لا يمكن الجدل فى حرمتها، كالربا وشرب الخمر والزنا، يحاول البعض ان يتمسك برحمة اللّه، لكى لا يتهم بضعف الدين او بـ الخروج عن الإيمان.

ويبدو أن (التمييع) لمفهوم الإيمان، كان سائدا فى أواسط اليهود الذين تركوا دينهم وراء ظهورهم، وأقبلوا على ملذات الدنيا منهمكين. يقول اللّه تعالى فى القرآن الكريم: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

مقياس النجاة من النار فى الآخرة هو الإيمان الصادق، وفى مقياس متدينى هذا العصر ان مجرد التواجد فى مجتمع يحمل صفة الإيمان يكفى للفوز بـ الجنة. فالمسلم الملتزم بمسؤوليات دينه، سواء مع المسلم الذى لا ينتسب إلى الإسلام إلا بالوراثة أو بالجغرافيا فقط.

القيم الجاهلية والقيم الإسلامية

وبهذا المنطق كان يتمسك بعض اليهود والمسيحيين فى عصر الرسول، عندما كان الاسم هو مقياس الفوز بالجنة، لا التمسك بالقيم والعمل من أجلها. يقول تعالى عنهم: وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ

مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . ويقول تعالى فى آية أخرى، موجها الكلام إلى المسلمين: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أهل الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ .

إن مقياس النجاة والفخر ليس الأماني الفارغة، ولا القيم المادية، ولا الا نتساب إلى قريش فخر، ولا الانتساب إلى العجم ذلة، لأنه لا شرف فوق شرف الإسلام كما جاء في الحديث.

وفى حديث للإمام الصادق8 يلغى فيه آية قيمة ذاتية جبرية لا دخل لإرادة الإنسان فى صنعه، ويرجع كل القيم التى يفتخر بها الجاهلون إلى (قيم إرادية) نابعة من الإيمان بالله فيقول: المؤمن علوى لأنه علا فى المعرفة، و المؤمن هاشمى، لأنه هشم الضلالة، والمؤمن قرشى انه اقر بالشىء الماخوذ عنا. والمؤمن عجمى لأنه استعجم عليه أبواب الشر. والمؤمن عربى، لأن نبيه عربى، وكتابه المنزل بلسان عربى مبين. والمؤمن نبطى لأنه استنبط العلم. و المؤمن مهاجرى لأنه هجر السيئات. والمؤمن أنصارى لأنه نصر الله ورسوله وأهل بيت رسول الله. والمؤمن مجاهد لأنه يجاهد أعداء الله عز وجل فى دولة الباطل بالتقية، وفي دولة الحق بالسيف [1].

(1) البحار ج67ص172.

الإيمان حاجة

الإيمان نعيم والكفر خسارة

لا شك إنه لا (خسارة) فى الإيمان بالله واليوم الآخر، إنما الخسارة فى الكفر وحده، لأنه لو كان الحق مع المؤمنين فإن الكفر يعنى العذاب الأبدى، بينما الإيمان يعنى النعيم الأبدى وإن كان الحق مع الكافرين ولم يكن هناك رب ولا حساب، فإن المؤمن لم يخسر بإيمانه شيئا، يقول الله تعالى: وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً .

الإيمان في صالح الإنسان

إن الإيمان (ينظم) حياة الإنسان، بينما الكفر يشجع الإنسان على الفوضى و التحلل وعدم التقيد (بالمصالح الأساسية) للإنسان، فى سبيل التمتع بملذات وقتية زائلة. فمثلاً ، شرب الخمر يضر بصحة الإنسان وهى مصلحة أساسية ورئيسية فى حياة الإنسانية، بينما اللذة التى يحصل عليها شارب الخمر تنتهى بعد وقت قصير.

ومن هنا كان الفرق بين المؤمن والكافر، فالأول يتمتع بطيبات الحياة، مع مراعاة مصالحه الأساسية فى الدنيا والآخرة. بينما الثانى يتمتع بالحياة، دون مراعاة مصالحه الرئيسية الهامة.

الإنسان بين الخسارة الأبدية والربح الأبدي

ولو افترضنا جدلا ان الإيمان يحرم الإنسان من كثير من الملذات، ولكن ما أحلى هذا الحرمان المؤقت في سبيل نعيم أبدي لا يزول.

إن كل ما يطمع فى الدنيا للوصول إلى أمنياته، لا بد وإن يذوق طعم (الحرمان) لفترة من الوقت، قد تكون قصيرة وقد تكون أطول من فترة تمتعه بالوصول إلى أهدافه.اما الحرمان من نعيم أبدى فى سبيل لذة عابرة فهذا هو الحيف العظيم.

وإزاء هذه القضية، الخسارة الأبدية او الربح الأبدى، لا يمكن ان ينهزم الإ نسان من اتخاذ موقف محدد. فالقضية ليست قضية ربح عابر أو خسارة طفيفة، بل هي قضية سعادة أو شقاء، لا شقاء بعده ولا سعادة وراءها.

ولقد ضحى فى سبيل قضية الإيمان، كل انبياء الله ورسله وكثير من المؤمنين. ونصف تاريخ الناس على وجه الأرض ترسمها (قضية الكفر والإ

يمان)، فالدماء التى أريقت باسم الإيمان على وجه الأرض، لا تزال تجرى فى عروق المؤمنين ولن تجف. ولا بد من الإختيار بين الطريقين إما الكفر والعذاب الأبدي أو الإيمان والنعيم الأبدي.

الإنسان خاضع لقوانين الله

عمليا يخضع كل إنسان لله، سواء اعترف هو بهذه الحقيقة ام لا؟ فهو جزء من هذا الكون الكبير الذى تحكمه قوانين اللّه، دون ان يملك ابسط حرية فى رفض أو قبول هذا الواقع.

والإنسان رغم كل عقله وعلمه، لا يستطيع أن (يغير قانونا) واحداً فى الكون ، إنما فقط يستطيع أن (يستخدم) هذه القوانين. والحرية التى يملكها، رغم انها محدودة بالموت والنوم، إلا انها مع ذلك مقيدة بالقوانين التى تحكم الكون بأمر الله.

إن الإنسان فى يد الأقدار اشبه شيء بالدمية فى يد الإنسان فهو يصنع الدمية ويلعب بها، ثم يقضى عليها دون أن تعرف هى ذلك أو تشعر. كذلك يولد بدون علمه، ثم تعمل اجهزة جسمه دون معرفته، ثم يموت بدون علمه او اختياره، فهو خاضع في تكوينه لله خضوعا مطلقا.

والمطلوب من الإنسان ان يعترف بهذه الحقيقة، ويؤمن بهذا الإله الذى يحكمه ويحكم الكون من حوله. وبالطبع لن يؤثر إيمانه أو كفره فى وضع الكون، فلن يملك الإنسان حريته بالكفر، كما انه لن يتبدل شيء فى الأرض بالإيمان.انما نتغير نحن بالإيمان والكفر، فبالإيمان بهذه الحقيقة الكبرى نشترى سعادتنا، بينما نشتري بالكفر شقاءنا.

الكفر يضر الإنسان فقط

وسواء آمنا أو كفرنا، فلن يضر الله شيئا. فإن الذى خلقنا من لا شيء لا يحتاج إلى إيماننا به، كما إنه لن يتضرر إذا ككفر به الناس: قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ انْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ .

على الإنسان ان يؤمن باللّه واليوم الآخر، ليس فقط لأن ذلك في منفعة الإنسان، وإنما لأن ذلك حق، والحق أحق أن يتبع. ورفضه لا يضر أحدا سوى شخص الرافض فقط.

فإذا رفض الأعمى وجود الشمس فهل تنعدم الشمس بهذا الرفض؟ كذلك إذا رفض الكافر بل كل من فى الأرض الإيمان باللّه، فهل يتنازل اللّه عن الألوهية.

إن بعض الملحدين يتساءل عن فائدة الإيمان، وكأن (النفع الشخصى) هو مقياس الحقيقة.ان اللّه واليوم الآخر حق، ومن أجل ذلك لا بد من الإيمان بهما. وإذا لم نؤمن بهذه الحقيقة، وهى أكبر وأوضح حقيقة فى الحياة، فلن

يمكن الاعتراف بأية حقيقة فأما أن نرفض كل الحقائق، أو نقبل بها جميعا.

الحرية بين الكفر والإيمان

والبشر لا يملك (حرية أبدية) تجاه الإيمان والكفر، إنما يملك (حرية محدودة). ففى فترة الحياة الدنيا فقط نملك أن نختار بين الإيمان والكفر، أى اننا نملك أن نشترى سعادتنا فى هذه الفترة القصيرة التى نعيشها على وجه الأرض. فإذا لم نؤمن بالله فى هذه الفترة مختارين، فسنؤمن به مجبورين، لكن حيث لا ينفع الإيمان.

إن كل الأمم التى كفرت بالله امن به عندما رات العذاب، ولكن بدون جدوى. وحدهم قوم يونس أنقذهم الإيمان من العذاب: فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ .

لقد آمن فرعون بربه بعد أن أدركه الغرق فقال: آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسرائيل

ولكن لم ينقذه هذا الاعتراف بعد أن ضيع الفرصة: (الآن وقد كفرت قبل).ان كل الملحدين يؤمنون بالله لحظة الموت، ولكن: لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أو كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً .

هذا فى الدنيا، وفى الآخرة، عندما يقف الناس على شفير جهنم عندئذ ياتى النداء: وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَليس هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى .

أو هل ينفع عندئذ: بلى يقول الله تعالى: قُلْ آمِنُوا بِهِ أو لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ

الإيمان حاجة نفسية

لا يستطيع الإنسان ان يعيش بدون الإيمان بإله يقدس ويخضع له، إلا إذا قرر أن يعيش بدون إحساس.ان البديل عن (الإيمان بالله) ليس هو (الإلحاد المطلق) بل هو الإيمان بشيء آخر، أي الخضوع لشيء آخر، قد لا يعترف به كآله، ولكنه عمليا يخضع له ويقدسه كآله معبود.

تاريخنا كان الإنسان يفتش عن (أقوى إرادة) فى الكون. فيتخذه إلها خوفا من سطوته أو طمعا فى رحمته. وفى قمة غروره كان يتصور أن أقوى إرادة فى الكون هى إرادة الإنسان نفسه فكان يعبد ذاته، فالبحث عن الله بدافع العجز الذاتي. وعبادة الآلهة كان بدافع الاستعانة واستمداد القوة.

أقسام الإيمان

ومن هنا انقسم الناس تاريخنا بالنسبة إلى إيمانهم، إلى أربعة أقسام:

قسم (عبد الأصنام) أي (الطاغوت).

وقسم عبد (الأصنام والله) معا.

والقسم الثالث (عبد ذاته).

أما القسم الرابع فقد (عبد الله وحده).

ولقد كان فى متصور كل أمة، أن إلهها (أقوى كائن) في الوجود، وإنها تملك التاثير الكلى فى تسيير شؤون الحياة، ومن هنا كانت الآلهة تتعدد باعتبار ان (القوى) ليست في يد إله واحد، بل هي في أيادي متعددة.

فالذين عبدوا الشمس، اعتقدوا بانه مصدر القوة والحياة فى الأرض، والذين عبدوا النجوم امنوا بان النجوم هى التى تدبر دفة الحياة وتتصرف فى شؤون الناس.

وكذلك الذين عبدوا الطواغيت كامة فرعون ونمرود اعتقدوا بان ملكهم، هو الذى يملك حياة الناس، ويدير شؤونهم باعتباره مصدر السلطات والقوى فى الأرض.

ولا يزال كثير من الشعوب الجاهلية فى الهند وافريقيا وجنوب اسيا تؤمن بالأصنام باعتبارها أقوى إرادة في الأرض.

واليوم رغم انقراض الأشكال القديمة للأصنام لدى الشعوب المتحضرة، إلا أنها لا تزال تعبد الأصنام ولكن فى صورة جديدة. فبدل تقديس الأصنام تقدس الصناعة، أو الحزب. وبدل عبادة الملك، يعبد رئيس الحزب.

واغلب الملحدين فى الغرب يعبدون شهواتهم ويقدسونها، سواء عن وعى ك الوجوديين، أو بدون وعي كمعظم الناس.

وكل أشكال العبادة القديمة لا تزال باقية فى كثير من البلدان. ففى الهند تنتشر الأصنام بكثرة، ولا تزال الملايين تعبد البقر. وفى اليابان يعبدون الأ مبراطور، وكذلك فى التبت.اما فرنسا فإن الوجوديين يعبدون الأهواء و الشهوات، باعتبار أنه لا مقياس فوق ما يرغب فيه الإنسان ويقرره. يقول الله تعالى عن هذا النوع من الناس: أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ .

الإيمان قضية حتمية

فالإيمان (قضية حتمية)، لأنها (حاجة نفسية). وعمليا ما استطاع أ؛د أن يعيش فى فراغ دون أن يقدس شيئا فى الحياة ويخضع له، الله أ, واحد مخلوقاته، والذى يكفر باللّه لا بد ان يخضع للجبت او للطاغوت او ان يعيش معتوها.

إذا كان الخضوع والعبادة لقوة ما مطلبا حتميا، فلماذا يعبد الإنسان ذاتا ضعيفة ذليلة، ولا يختار ذاتا قوية عزيزة؟ لماذا يخضع لبشر مثله او لحجر ميت، أو لغرائزه الحيوانية ولا يخضع للجبت أو للطاغوت أوان يعيش معتوها.

إن الإله الأقوى، افضل من الإله الضعيف، ومن السخف ان نخاف من إله لا يستطيع ان يلحق بنا اِي ضرر، او ان نطمع فِي خير إله لا يستطيع ان ينفع نفسه.

لماذا نعبد غير الله؟

إن غير اللّه لا يستحق العبادة، لأنه مخلوق وعاجز ومسخر بيد القوانين و السنن الكونية. فمن أولى بالعبادة؟ الخالق القوى الحر أم المخلوق الضعيف المسخر؟. إن (الأصنام) التى تعبد من دون الله بمختلف أشكالها وألوانها ميته، لا تستطيع التأثير فى نفسها، فكيف تؤثر فى غيرها؟ إنها مسخرة فى يد الإ نسان، فكيف يعبد الإنسان ما يصنعه بيديه؟. و (الطواغيت) هى الأخرى عاجزة عن التحكم فى ذاتها، فكيف تستطيع ان تتحكم فى غيرها؟ إن البشر عاجز عن دفع الموت عن نفسه فكيف يرفعه عن غيره؟ عاجز عن تحقيق أمانيه إلا في حدود ما يريد الله فكيف تستطيع تحقيق أماني غيره؟.

فِي حوار ساخن بين إبراهيم ونمرود قال إبراهيم: إذ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .

إن الطاغوت ليس اقوى إرادة فِي الأرض، ففوق إرادته إرادة اللّه وهو إذا كان يملك بعض القوة، فإنما هى قوة مزيفة غير حقيقة.ان الطاغوت الذى يعبد من دون الله أضعف من ذبابة من ميكروب صغير يفتك بجسم ثم يرديه ميتا.

اين الجبابرة الذين عبدوا من دون اللّه؟ اين فرعون ونمرود وشداد الم يصبح الكل ترابا؟ إن كل ما يقدسه البشر من دون اللّه عاجز وضعيف، بل هو لا

شيء إزاء إرادة الله. يقول الله تعالى: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً .

إن أكبر قوة في الأرض لا تستطيع أن تخلق ذبابة صغيرة: يَا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ .

إن كل قوة في الأرض خاضعة لإرادة الإنسان، ولذلك فإنها مسخرة لمصالحه ومآربه، ولكن مع ذلك تصبح لا شيء في مقابل إرادة الله. فالموت هو إرادة الله، لا أحد يستطيع ان يدفعه عن نفسه، النوم وحاجات البدن، وحركة الكواكب والأفلاك والنظام التكويني الذي يحكم الأحياء، كل ذلك من إرادة الله. ولا يملك الإنسان إزاء هذه الإرادة أية قوة وإرادة، فلماذا لا يعبد الإنسان هذه الإرادة الخالقة القوية المختارة؟.

إن الله تعالى في القران يذكر الإنسان بضعفه، وطريقة خلقه بدون اختياره وعلمه، وحاجته إلى ما خلق الله له من ماء وغذاء.

ثم عجزه في الأقذار، والتقاؤه إلى رحمة الله، كل ذلك لكي لا يتكبر الإنسان ويطغي ويتمرد على ربه، إذا ما شعر بالقوة أو امتلك قليلا من المال والسلطة.

كما يذكر الإنسان بأنه (مسخر) لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا حياة ولا نشورا.

تماما مثل بقية الأحياء على وجه الأرض، لا تملك لنفسها رزقا ولا حياة.

أسباب الإيمان بالله

على البشر أن يؤمن بالله لثلاثة أسباب :

لأنه حق، والحق أحق أن يتبع، بل إن الله أكبر وأوضح حقيقة في الكون.

لأن الإيمان بالله ينفع ولا يضر عكس الكفر، ولأن السعادة الأبدية وهي اهم مطلب للإنسان، لن يحصل إلا بالإيمان.

لابد ان البديل عن الإيمان بالله، هو العبودية للأصنام الميتة، او الطواغيت العاجزة أو للغرائز الحيوانية الحقيرة.

ولا شك ان عبادة إله قوي ورحيم افضل من عبادة مخلوق لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا.

الإيمان: تحدي

الإنسان ومعرفة الهدف

معظم الناس يعيش فى الحياة ولا يعمل من أجل (الهدف) الذى خلق من أجله، لأنه أساسا لا يبالي ولا يفكر في هذا الموضوع.

والسر فى ذلك هو ان الإنسان يولد فى مجتمع يسير وفق منهج معين، فيقلد نفس المسيرة دون تفكير أو دراسة. ولأنه ينشأ فى هذا الوضع القائم، فإنه فى البداية لا يتصور طريقة اخرى فى الحياة غير تلك الطريقة، وكان ذلك قدر مفروض لا يستطيع مخالفته.

إن الكثير من الناس يقلدون مسلك آباءهم بدون مناقشة، ولا تفكير. و البعض الآخر يحاول أن يعرف (الهدف) الذي من أجله خلق الإنسان.

ولا شك أن سلوك الإنسان، يختلف فيما لو عرف هدف وجوده. فكما أنّ (معرفة الهدف) من صنع الإله، تحدد نوع الإنتفاع بها، كذلك الإنسان إذا عرف الهدف من وجوده يعرف كيف يجب ان يستخدم حياته وعمره؟ وكيف يجب أن يتعايش مع الآخرين؟.

وهذه المعرفة، هى ابرز الفوارق بين المؤمنين وغير المؤمنين، فالأول يعرف بالضبط الهدف الذى من اجله جاء إلى الدنيا، ولذلك فهو يسعى باتجاه ذلك الهدف، رغم كل العوامل التى تحاول الانحراف به فى طرق اخرى، بينما يسير الكافر في طرق مختلفة متناقضة، لا يعرف بدايتها ولا نهايتها.

طريق الله أم طريق الشيطان

إن طريق المؤمن طريق واضح محدد المعالم ومحدد الأهداف.اما الكافر فلا طريق له، إنه ضلال وجهل وتيه وعمى.

إن المؤمن يعرف بالضبط كيف خلق؟ ومن خلقه؟ ولماذا خلقه؟ وماذا سيجري عليه بعد الموت؟ والكافر جاهل بذلك كله.

ولأن المؤمن واع لمسيرته وهدفه عكس الكافر فإن (طريق الإيمان) طريق واحد فى كل زمان ومكان أما (طرق الكفر) فكثيرة لا حد لها. يقول الله تعالى: (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى، أمن يمشى سويا على صراط مستقيم)، لأ ن هذا هو الفرق بين من يعرف الهدف الذي يسير نحوه، وبين من يجهل ذلك.

وفى آية أخرى تمثل القرآن وضع الفريقين فيقول: مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كالأعْمَى وَالأصَمّ وَالبَصِيرِ وَالسّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا ً ؟

فى أحد الأيام كان رسول اللهxمع قلة من أصحابه، فأخذ يخط على الأرض

خطوطا متعرجة، إلى جانب خط بارز مستقيم. ثم غمض عينيه، وبعد لحظة فتحها ليقول: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ وأضاف:ان على رأس كل طريق شيطان يغوي الناس .

إن (طريق الله) واحد، أما (طريق الشيطان) فكثير، بعدد الشهوات والأهواء والرغبات والغرائز.

لا بد من اختيار الطريق

ولا يستطيع الإنسان أن يقف حائرا بين طريق الإيمان وطريق الكفر. فإما ان يختار طريق الإيمان عن وعى وبصيرة، او يختار طريق الكفر عن جهل او غفلة ومعظم الناس اليوم يعيشون فى حالة من الغفلة واللامبالاة، تجاه اختيار الطريق الصحيح فى الحياة، إنهم يولدون فى مجتمع او بيئة تسير فى طريق معين فينساقون بدافع التقليد الأعمى، فى السير فى نفس الطريق دون سؤال أو جواب. ولاشك أن (الاختيار عن وعى) أفضل من (الاختيار بالتقليد) أو الجبر أو الغفلة بمختلف أشكالها.

ما هو الهدف من خلق الإنسان؟

إن أول قضية لا بد أن يطرحها الإنسان على نفسه هو: لماذا خلقنا؟

لا شك ان اللّه الذى خلق الكائنات من لا شىء، ليس بحاجة إلينا، فهو الغنى الحميد. ولو أراد الله أن يبيد البشر فى لحظة، لم يخلق ملايين الناس و الكائنات، ولفعل بدون أى تكلف. يقول فى القرآن الكريم: وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ .

فاللّه خلقنا لكى يرحمنا، واعطانا العقل والشعور لكى نتلذذ بهذه الرحمة و العطف الإلهى. غير أن الدنيا ليست محلا لرحمة الله، لأنها فانية زائلة. وطبيعة هذه الحياة التى تنتهى إلى الموت، تدل على أن الإنسان لم يخلق من أجلها. فنعيم الدنيا لا يمكن ان تكون منتهى الرحمة الإلهية، لأن هذا النعيم زائل بسرعة أولا، ثم إنه مزيج من الشقاء والبلاء ثانيا. فلا بد أن يكون وراء هذا النعيم الزائل نعيم أبدى مقيم. يقول تعالى: (خلقتم للبقاء لا للفناء) ويقول فى القرآن الكريم: وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

إذن فنحن لم نخلق لكى نلعب ونلهو ثم نموت ونصبح ترابا بل خلقنا للجنة ا لأبدية؟

الهدف هو الامتحان

(خلق الله) الإنسان فى الدنيا لكى يمتحنه ويجربه، وخلق من أجله الأرض كلها، بما فيها من خير ونعيم وملذات: خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً .

و(فضل الإنسان) على جميع المخلوقات: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً .

وهيا له كل وسائل الحياة من ماء وتراب وغذاء، ثم ارسل له الأنبياء و الكتب لكى يبنون لهم (الطريق المستقيم)، طريق الله، ويحذروهم من مغبة اختيار طريق الشيطان.

وأعطى للإنسان (العقل) لكى يميز طريق الله من طريق الشيطان، وأعطاه (الحرية) لكي يختار أي الطريقين دون إجبار من أحد.

وربما يتساءل البعض عن سر اختصاص الإنسان بهذا الامتحان دون سائر المخلوقات؟ وعن سبب تفضيل البشر على غيرهم؟

والجواب:هو أن الله خلق الإنسان من عنصرين متضادين، أحدهما التراب، و الآخر هو الروح. فهو موجود ذو بعدين ترابى وروحى. وتتركز فى العنصر الأ ول كل الغرائز الحيوانية، بينما يتركز العنصر الروحي العقل والإرادة.

وهذه ميزة فريدة للإنسان. لأن الملائكة لم تخلق من عنصرين متضادين كا لإنسان، كذلك الحيوانات فهى بالرغم من انها تملك الروح، ولكنها ليست من ذلك الروح الذي قال عنه الله تعالى فى القران عندما ذكر قصة خلق ادم من تراب: وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي .

العقل والحرية ثم الإرادة

إن أهم ما يميز الإنسان عن سائر المخلوقات هو العقل والحرية. (فالعقل) يفى قدرته على التمييز بين الخير والشر، ويشترك فى ذلك مع الملائكة. ويختلف عن الحيوانات التى لا تستطيع التمييز بين الخير والشر، رغم قدرتها على التمييز بين الجيد والرديء، أي في الأمور المادية الحسية فقط.

و(الإرادة) يعنى قدرته على اختيار الخير ورفض الشر، أو العكس، ولا يشترك فى هذه الصفة الأخيرة لا الملائكة ولا الحيوانات، سوى الجن فقط، الذين يبدو من القرآن أنهم كائنات تملك مثل الإنسان والعقل والإرادة.

إن الحيوانات تعمل بدوافع غريزية لا تستطيع ان تتمرد عليها، فهى مجبورة على الخضوع لها، بينما يستطيع الإنسان ان يتمرد على غرائزه ومشتهياته، باستخدام إرادته وحريته في الاختيار.

والعقل والإرادة هما الجوهران اللذان يؤهلان الإنسان، لكى يكون موضع (تجربة وامتحان) لمعرفة ما إذا كان مطيعا لله، فعلا، أم هو متمرد عليه؟. وهى الأمانة الثقيلة التى رفضتها كل الخلائق، بينما حملها الإنسان: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً .

والدنيا هى دار امتحان هذه الإرادة، وهذا الامتحان هو الذى يحدد بين مصيره في الآخرة:الجنة أو النار.

التاريخ صراع بين الكفر والإيمان.

ولكى يكون الإنسان على بينة من امره، فلا يختار طريق الشهوات فيسقط

فى امتحان المصير، فقد بعث الله الأنبياء للناس مبشرين ومنذرين: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى َ ى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ولأن طبيعة الإنسان طبيعة مزدوجة فإن الإنسان يعيش صراعا داخليا مستمرا بين نفسه الأمارة بالسوء، وبين النفس اللوامة التى تدفعه إلى الخير، بين العقل وبين الشهوات، بين إيمانه بالله، وبين شيطانه الذي يغويه من الداخل.

وإلى جانب هذا (الصراع النفسى) هناك (صراع آخر خارجى) يخوضه الإ نسان على الصعيد الاجتماعى، فمغريات الكفر تجره من جانب، بينما تدفعه حقائق الإيمان من جانب آخر، بين طريق الكفر وبين طريق الإيمان.

والتاريخ هو قصة هذا الصراع بين المؤمنين وبين الكافرين بين من اختار الروح على المادة وبين من اختار العكس. بين الذين أحبوا الدنيا وملذاتها، وبين من فضلوا الآخرة على الدنيا ونعيمها.

ولكن الإنسان بإرادته الحرة، يقف فوق ضغوط هذا الصراع، فيستطيع ان يحسم الصراع ويتخذ أحد الطريقتين بعزم وشجاعة.

وقد يقرر الإنسان السير فى أحد الطريقين، ثم يتراجع فى منتصف الطريق. ولأن التقرير النهائى للإنسان هو المهم، فهو الذى يحدد مصيره فى الآخرة، وعندما ينتهى الإنسان من تقريره النهائى ويختار احد الطرق ياتيه الموت، ثم لا خيار له بعد ذلك، ورغم أنه سيطالب بالرجعة، إذا كان قد اختار طريق الكفر: قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ .

وفى آية أخرى يقول الله تعالى فى جواب المطالبين بالعودة: أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وفى آية أخرى يقول: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ .

الفوارق البشرية لماذا؟

وإذا كان أصل الحياة الدنيا من أجل الامتحان فإن كل ما فيها من خير أ شر، من شدة ورخاء، ونعمة وبلاء، وفقر وغنى كل ذلك إنما هو من اجل الا متحان أيضا.

والفوارق القائمة بين البشر ليست دليلا على شىء، لأنها عرضية زائلة. ف الفوارق العنصرية والطبقية والجنسية، ليست فوارق ابدية، ولا تدل ابدا على ميزة معينة. فليس الغنى دليل الكرامة، والفقر دليل الإهانة، لأن هذه الفوارق رغم انا فى نظر الناس لها اعتبارات معينة، إلا انها لا قيمة لها فى مقياس خالق الحياة، إنما مقياس الكرامة والذلة هو إطاعة الله أو اليسر فى ركب الشيطان. إن بعض السطحيين من الناس يتصورون ان الفوارق المادية بين الناس، تدل على فوارق أخروية عند الله أيضا: (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه، فيقول ربى اكرمن، واما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن).

وهذه الفوارق ضرورية، لأن الحياة كلها هى تناقض بين الخير والشر، لكى

يستطيع الإنسان أن يختار بحرية كاملة.

ففى كل مجتمع وكل زمان، لابدّ ان يكون هناك طريقان متناقضان، طريق اللّه وطريق الشيطان، ولا بد أن يكون لكل من الطريقين انصار واتباع، بل مع كل قضية يواجهها الإنسان فى حياته لا بد وان يجد امامه موقفين متناقضين، موقف للشيطان وموقف آخر للرحمن. لأنه لم يكن هناك سوى موقف واحد، فلا خيار للإنسان في اتخاذه، لأنه لا بديل عنه.

إن بعض من لا يفهم حكمة الخلق يطالب بمحو كل التناقضات، وهذا امر مستحيل لأنه يتناقض مع الحكمة التي من أجلها خلقت الدنيا وما فيها.

الإنسان حر بين الكفر والإيمان

إذا كان الهدف من خلق الإنسان فى هذا الجو المتناقض بين الحق والباطل، هو امتحان إرادته فلا بد أن يكون هذا الامتحان حرا لا فرض فيه ولا إكراه.

ولأجل المحافظة على (حرية الاختيار) لك يفرض اللّه على أحد الإيمان، بل بين فقط طريقه، ثم ترك الحرية للإنسان نفسه: وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِيعنى الطريقين إِمّا شَاكِراً وَإِمّا كفُوراً .

والأنبياء لم يبعثهم اللّه لكى يكرهوا الناس على الإيمان، بل فقط بعثهم مبشرين ومنذرين: إِنمَا أَنتَ مُذَكِرٌ(21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ .

وفى لهجة توحى بالقوة يقول اللّه لنبيه محمدX قائلا: أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وفى آية أخرى: (فإنما عليك البيان وعلينا الحساب) وآيات أخرى كثيرة بهذا المضمون.

اما لماذا كان يقاتل بعض الأنبياء؟ فليس من اجل إكراه الناس على الدين، بل فقط من اجل الدفاع عن المؤمنين، وعن حرية المستضعفين فى الأرض فقط: لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فالهدف من الحرب لم يكن فرض الإيمان على الكافرين، إنما كان الدفاع عن حرية المؤمنين فى إيمانهم بربهم. وأيضا عن حرية الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلا .

إن اللّه لم يغرق فرعون إلا بعد ان طارد موسى وقومه واراد التنكيل بهم، لم يعذب الأمم السالفة إلا بعد أن قتلوا أنبياءهم أو هموا بذلك.

الحفاظ على الحرية، مسؤولية كبيرة

ولأن حرية الإنسان وإرادته هي التى تقرر مصيره إلى الأبد، فإن على الإنسان أن يحافظ على هذه الحرية ضد كل من يحاول القضاء عليه، فالدفاع عن حرية الإيمان باللّه واجب على المؤمن، تماما كما يجب عليه الدفاع عن نفسه.

على الإنسان ان يحذر نفسه من ثلاثة اشياء تسرق منه حريته وإرادته وعن مثله وعقله وشعوره وهي:

تقليد الآباء الأولين.

تقليد البيئة والمجتمع المنحرف.

الاستسلام لضغوط الهوى والشهوات.

مقاومة الضغوط من اجل الحرية

ولا شك ان لتقليد سيرة الآباء، وتقمص افكارهم وعقائدهم، ضغطا شديدا على إرادة الإنسان. كذلك البيئة التى يعيش فيها الإنسان، لأن كل فرد يتأثر طبيعيا بالبيئة الاجتماعية التي ولد ونشأ فيها، غير أن الوعي فوق ذلك كله.

فمهما كان تاريخ الإنسان الفردى او العائلى او الاجتماعى فإن وعى الإنسان وحريته هما فوق ذلك.

إن السحرة الذين آمنوا بموسى في يوم الزينة، كان وراءهم ضغط شديد بـ التهديد بالقتل والاعلام، ولكنهم لم يابهوا بالضغط لأنهم وعوا الحقيقة وعيا صادقا.

كذلك اصحاب الكهف، كان إغراء المال والجاه والسلطة شديدا فى نفوسهم، كما انّ ضغط البيئة الكافرة وسيرة الآباء المنحرفين كان يوهم إلى الاستمرار فى طريق الكفر، ولكنهم تفوقوا على هذا الضغط كله واختاروا طريق الإيمان باللّه، رغم انهم فقدوا فى الظاهر حريتهم المادية بانهزامهم من طاغوت زمانهم، ولكنهم كسبوا مصيرهم وضمائرهم، وهذا هو المهم.

وكذلك فعل كل اولئك الذين تمردوا على انحراف مجتمعاتهم وبيئاتهم، وانظموا إلى دعوة الأنبياء في الزمن القديم.

وكلما كان الإسلام ليس مجرد الاعتقاد باللّه، بل ورفض المعتقدات الأخرى. وهذا هو معنى كلمة الحنيف فى قوله تعالى: حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

ولأن مقاومة الضغط الاجتماعى والعائلى والتاريخى امر صعب، خاصة إذا كان هذا الضغط قويا وشديدا، فإن السابقين إلى الإيمان بالأنبياء لهم اهمية خاصة: (والسابقون السابقون أولئك المقربون). ذلك أن مقاومتهم لهذا الضغط، يعنى ان اختيارهم لطريق الإيمان كان حرا مائة بالمائة، لم يكن عن تقليد ولا عن اتباع، بل عن وعى كامل وإرادة قوية. يقول رسول الله x: أنا سابق العرب، وبلال سابق الحبش، وصهب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس .

والذى يؤمن فى بلد لا إيمان فيه، حشره الله يوم القيامة (قانتا)، كما حشر نبي الله إبراهيم8.

ما هي أفضل الأعمال؟

إذا كانت الدنيا ممر إلى الآخرة، والطريق إلى الجنة هو العمل بما امر اللّه، فما هو أفضل أعمال الخير فى الدنيا؟ فقبل الجواب على هذا السؤال: لا بد أن نعرف أولا أن الله وليس البشر يعين أى الأعمال أكثر قدسية وثوابا. والذى يبلغ

عن اللّه هم الأنبياء واوصياؤهم فقط، وسائر الناس لا يتكلمون إلا عن ارائهم الشخصية، ولا ينطقون عن الله طبعا.

العمل من أجل القيم الإلهية

ثانيا:ان أى عمل مهما كان فى الظاهر نافعا وطيبا، لا قدسية له إذا لم يكن من أجل الله. فاللّه وحده هو القدوس، وكل شىء ارتبط باللّه يكتسب منه القدسية، ينفس درجة القرب والارتباط. لذلك فلا يمكن قياس الأعمال بأحجامها وضخامتها، إنما تقاس الأعمال بدرجة قربها إلى اللّه فقط.

من هنا فإن على الإنسان أن يعمل وفق (قيم ربانية) وليس وفق (قيم شخصية) لأن كل قيمة لا تنبع من قدسية التقوى، تسقط عن الإعتبار.ان التضحية بالمال والنفس لا قيمة له، إذا كان من اجل قيم زائفة، ولا قيمة للقتل في سبيل الرئاسة والزعامة الدنيوية؟

كما لا قيمة للفداء في سبيل الطواغيت؟

إن (التضحية) هى الأخرى تكسب الأهمية من (القيمة) التى تتم من أجلها التضحية. فالذين يقتلون فى المعارك دفاعا عن الحرية والاستقلال أو الرفاهية ، لا قيمة لهم إلا إذا كان دفاعهم منبعثا عن (دوافع دينية).

إن الحرية فى حد ذاتها ليست قيمة مقدسة، إلا إذا كان يرتبط بامة مؤمنة، وعندئذ يكون للكفر، أو لرفاهية شعب لا يؤمن باللّه.ان القيم التى يقاتل فى سبيلها كثير من الناس، هى (قيم زائفة) لا تستحق الإيمان بها، فضلا عن التضحية في سبيلها.

يقول اللّه تعالى: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّه ِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ مَنْ آمَنَ بِاللّه ِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ .ان إيتاء المال لا قيمة له فى ذاته، إلا إذا كان من أجل اللّه، وفي سبيل حبه.

وكذلك كل عمل خير يكسب قدسية من درجة قربه إلى رضى اللّه، واى عمل خير ليس لله فيه نصيب فلا قيمة له.

ويقول تعالى فى آية أخرى: وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّه ِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ فاللّه أول، ثم المستضعفون. وهؤلاء لا قيمة لهم إلا لأنهم مرشحون للانضمام إلى صفوف المؤمنين، فالدفاع عنهم دفاع عن دين اللّه بالنتيجة.

بناء على ما سبق فإن علينا ان نعرف من الأنبياء فقط افضل الأعمال عند اللّه، لكي نكرس حياتنا في سبيل تحقيقه فماذا يقول الأنبياء والمرسلون؟.

العمل من أجل هداية الناس

الهدف الذى ضحى من أجله الأنبياء هو (هداية الناس)، الأمر بالمعروف و

النهي عن المنكر، ولأن هداية الناس يعني إنقاذهم من نار جهنم فهي من افضل الأعمال، كما قال الرسول الأكرم X: يا على لأن يهدى الله بك رجلا واحدا، خير لك ممّا طلعت عليه الشمس وكما قال الإمام على : وما أعمال البر كلها إلى جنب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كقطرة في بحر لجي .

الإيمان: مسؤولية

مسؤولية المؤمن في الدفاع عن إيمانه

المؤمن مسؤول عن إيمانه، اكثر من ان يكون مسؤولا عن حياته، ذلك ان الإ يمان اعز واغلى من حياة الإنسان، ولذلك فإن المؤمن لن يذوق حلاوة الإيمان، حتى يكون اللّه ورسوله احب إليه من الدنيا وما فيها، فهو فى سبيل المحافظة على دينه يضحي بماله وأولاده وروحه التي بين جنبيه.

ولأن الإنسان مسؤول عن إيمانه، فإن عليه أن يدافع ضد كل (العوامل) التى تفتنه وتضله عن إيمانه.

فالصمود امام ضغط الطغاة والجبابرة، وجهاد الملحدين والكافرين، والا بتعاد عن الأجواء الفاسدة، واصدقاء السوء، والأعمال السيئة، كل هذا واجب مقدس على المؤمن للمحافظة على إيمانه ودينه وعقيدته.

مجاهدة النفس

إن الإنسان فى الدنيا يعيش فى (صراع نفسى) مستمر بين عوامل الخير وعوامل الشر. فنفسه الأمارة بالسوء تجره من جانب، بينما تجره النفس اللوامة من جانب اخر، قبل إن يؤمن وبعد الإيمان وعليه ان لا يغفل عن عوامل الشر فى نفسه، حتى ولو أصبح من أتقى المتقين. لأن المؤمن إذا لم يجاهد نفسه باستمرار تغلبت عليه شروره: إنّ النّفْسَ لأ َ م ّ َ ا ر َ ة ٌ بِالسُّوءِ كما قال يوسف الصديق .

وإذا كان الأنبياء والأئمة يخافون على إيمانهم من شرور انفسهم افلا نكون خائفين نحن البشر العاديين؟.

مجاهدة العوامل الخارجية

وكما يجب مجاهدة النفس الأمارة بالسوء للمحافظة على إيماننا وعقيدتنا، كذلك يجب (مجاهدة العوامل الخارجية) التي تغوي الإنسان وتفتنه عن دينه.

عندما اشتد ضغط فرعون على بنى إسرائيل، سالوا اللّه ان ينجيهم من فرعون وقومه، لا خوفا على حياتهم منه، ولا تخلصا من قهره وإرهابه، وإنما للمحافظة على إيمانهم باللّه وإخلاص العبودية له، يقول تعالى: فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إلا ّ َ ذُرِّيّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ .

وقال موسى: رَبّنَا إِنّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأ َ ه ُ زِينَةً وَأَمْوَالا ً فِى الحَيَاةِ

الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . واستجاب الله دعاء موسى، فنجاه وقومه وأغرق فرعون وأتباعه.

الهجرة في سبيل الدين

إن الهجر من ارض لا يمكن إقامة الشعائر الدينية والنظام الإسلامي فيها واجب شرعى على كل مسلم. لأنه إذا لم يمكنك المحافظة على إيمانك فى وطنك، فيجب عليك المهاجرة إلى ارض اخرى، فإنه إذا لم تكن النفس اعز من الإيمان فهل يكون الوطن أعز منه. يقول تعالى: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ثم يضيف الله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ .

فإذا كان لا بد من الموت، فلا فرق ان يموت الإنسان على هذه الأرض او تلك ؟ المهم أن يخرج من الدنيا فى سلامة من دينه.ان سلامة الجسد ليست بأكبر أهمية من سلامة الإيمان. لأن كل شيء فى الدنيا لا يساوى الإيمان، لأن بها تحصل السعادة الأبدية وبدونها يسقط الإنسان في الجحيم.

و (الهجرة من وطن) لا يمكن المحافظة فيه على الإيمان هى الحل الأخير، بعد أن يبذل المرء كل محاولة لإصلاح مجتمعه.

إن أصحاب الرسول فى مكة لم يهاجروا إلى الحبشة، إلا بعد أن لاقوا أشد انواع الضغط من قريش، وبعد جهاد طويل ومرير وتعذيبات مادية وروحية عنيفة امتدت سنوات طويلة. بعد ذلك كله هاجر جعفر بن أبى طالب ، وثلة من المؤمنين إلى الحبشة، حيث لاقوا معاملة طيبة من الشعب واستقبالا حافلا من الملك.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) إنما شرع، ليس فقط من أجل كسب افراد جدد إلى الإسلام، وإنما لتثبيت الإيمان فى قلوب المؤمنين، والمحافظة عليه من عوامل الشر والإلحاد.

ذلك لأن الأعمال السيئة تنتهى بالمؤمن إلى الكفر، عكس الأعمال الصالحة التي تهدي بعض المنحرفين إلى الإيمان.

ومن هنا فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، يصنع حصنا اجتماعيا واقيا للإيمان ضد كل العوامل المضادة. وكلما انهار من هذا الحصن المنيع جزء، انهار من الإيمان جزء مماثل، لذلك فقد جاء فى الحديث وما أعمال البر كلها إلى جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كقطرة في بحر لجي .

إن (ضعف الإيمان) فى مجتمعنا الآن، ناشئ من (ضعف الدفاع) الاجتماعى ضد الكفر والفسق والفجور، وضغط الطغاة، وكل الوان الفساد الذى يدخل إلى مجتمعنا، ومن ثم إلى قلوبنا دون رادع او مانع، ولا شك ان إيمان المرء ينهار

في بحر هائج من الفساد.

ومن هنا كان لابدّ من تحمل (مسؤولية الدفاع عن الإيمان) إذا كنا مؤمنين حقا. فالإيمان ليس مجرد اعتقاد جامد، بل هو صراع يومى مع النفس ومع العوامل المضلة.

بل إن الشيطان يحاول ان يغوى المؤمنين اكثر من الكافرين، لأنه قد استراح من الكافرين، وبقي عليه أن يضل المؤمنين.

وإلى جانب الشيطان تأتي فتنة الله للمؤمنين، يقول الله تعالى: أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ .

فالإيمان يزيد فى مسؤولية الإنسان، ويجعله فى اتون صراع حاد بين عوامل الشر والخير فى نفسه، وعليه ان يصمد ويصبر ويستقيم، لكى يخرج من الامتحان الإلهي مظفرا منتصرا. يقول تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ .

مسؤولية المؤمن تجاه إيمان الآخرين

والمؤمن كما هو مسؤول عن إيمان نفسه، فإن عليه ان يحافظ على إيمان أهل بيته، وكل من يقع تحت نفوذه. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ فأنا مسؤول عن إيمانى أولا وثم تأتى الأسرة، ثم ياتى المجتمع ثم الصديق الذى اصاحبه، كما انا مسؤول عن إيمان اخى وابنى، لأن المؤمن يجب أن يحافظ على دعوة الله في الأرض قوية عزيزة منتصرة.

بل إن المؤمن مسؤول عن جميع الناس. فهو صاحب رسالة ودعوة وأمانة من أمته إلى كل إنسان، فاينما حل وارتحل، كان عليه ان يبشر بهذه الرسالة، ويدعو الناس إلى هذه الدعوة. فلا يختلف إنسان عن إنسان ولا أرض عن أرض ، فالدعوة للجميع، فمن آمن فلنفسه، ومن كفى فإلى الجحيم. يقول تعالى: لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .الحج /78.

حضارة في بيت العنكبوت

(تعلو البناية 500 متر وتتسع لألف وخمسمائة عائلة.. والله أنها عظمة تفتخر الإنسانية بها حقاً.. حقاً).

هكذا يفكر الرجل الساذج عندما يمر فى بعض الطرقات فى اميركا يرى اضخم بناية على وجه الأرض، ولكنه لا يرى عدة أشياء تكمن وراء هذا البناء الشاهق.. وتحمل بذور فنائه.

لا يرى: صاروخاً، نووياً ضخماً، يرقد فى بعض القواعد الروسية، فى أوروبا الشرقية وهو موجه بالضبط باتجاه موقع هذه البناية الضخمة.

حتى إذا دقت الساعة الخطرة تحولت البناية إلى خندق عميق يلتهب ناراً.

لا يرى اجهزة الكترونية جبارة يلعب بها فريق من السراق ويسلبون الراحة من نفس اصحابها، حتى انّ بعضهم لا يمكنهم أن يسدل جفنه باطمئنان فوق عينيه المرهقتين.

لا يرى سياسة امريكا التى سوف تسبب لأصحاب هذا البناء البرد والظلام وا لاختناق بسبب ازمة الطاقة، التى يُسببها تعنت اميركا عن الاستجابة للمطالب المشروعة للدول المنتجة للنفط.

ولا يرى بالتالى:ان هذا البناء الضخم جذع خاو أشبه شىء ببناء غرف فى بيت العنكبوت.

ولا تبقى الأسطورة فى حدود العمارة الضخمة، ولكنها تتعدى حتى تشمل كل مظاهر حضارة اهل الأرض الكاريكاتورية التى شبهها احد فنانى المسرح في ألمانيا ببيت صنع من علب كارتونية وضعت بعجل على بعضها.

إن رواد هذه المسرحية الكوميدية كانوا اعمق الناس شعوراً بهذه الحقيقة المرة، لأنهم كانوا وسط هذه الحضارة وأعرف الناس بـ(لا جدوائية) مظاهرها الخاوية، ولذلك فقد ازداد عددهم بصورة هائلة.

ولو افترضنا ان عدداً من سكان السماء لو كان فيها سكان زاروا كوكبنا وعرفوا حالنا تماماً، عرفوا من جهة مدى تقدمنا فى البحوث العلمية والإ نجازات الرائعة الباهرة الرائعة، وعرفوا من جهة اخرى على ضخامة إنتاجنا للوسائل التدميرية التى صنعت لهدم هذه الإنتاجيات، واستخدمت اخر تلك البحوث العلمية.

اعتقد انهم يظلون ساعة يضحكون علينا وساعة ثانية يكون لنا رثاء بحالنا وبخفة عقولنا، وعلى السنتهم هذا السؤال، لماذا صنعتم هذه، ولماذا تريدون هدمها؟

وحين يعزم هؤلاء الذين هبطوا علينا من السماء، من سكان سائر المجرات، حين يعزمون على الرحيل ينبغي ان نسالهم بماذا تنصحوننا؟

وهم بدورهم لا بد أن يقولوا: إنكم لا تحبون الناصحين، بين أيديكم القرآن الحكيم يقول لكم بصراحة :

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الآيات 29 - 41.

إن حضارتكم هي حضارة العنكبوت تفتخر ببيتها ولكنها مسكينة لا تعرف أنه أوهن البيوت.

وما هو السبب؟ الا تقولون لنا؟

نعم في قرآنكم قد ذكر السبب بوضوح قال لكم ربكم هناك:

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ الآيات 29،42،43.

إنكم تعبدون اشياء جامدة فانية فى طبيعتها، زرعت بذور الفناء والانهيار وتذرون عبادة الله الحي القيوم الباقي الدائم سبحانه وتعالى.

ومن يعبد الشيء يفنى حينما يفنى هذا الشيء الا تريدون مثلا ؟

إن حضارة، تعتمد كلياً على النفط مثلا متى تنتهى؟ عندما ينتهى النفط، فإذا جفت آبار البترول، ماذا تصنع السيارات والطائرات والمصانع والصواريخ.. و.. و.

وهل تبقى قوة عسكرية تذكر؟

وهل تستطيع دولة اعتمدت زماناً على هذه القوة العسكرية ان تفرض احترامها على الآخرين.

وبالتالي هل تبقى حضارة؟.

طبعاً.. لا..

لقد خفضت بعض الدول المنتجة للنفط إنتاجها 25بالمئة فقط، فماذا كانت النتيجة؟ الم يعد الناس إلى عهد الحجر، ركبوا الخيول والعربات التى يسرجها الحمار، وحلت الطاقة البشرية محل الطاقة النفطية.

لقد راينا جميعاً كيف ركب رئيس وزراء هولندا على الدراجة بينما امتطى شعبه الخيول وعوض البابا فى روما عن سيارته الفخمة بعربة تجرها الخيول الكسولة.

هذا بالطبع ليست نهاية المسرحية إنها بعض الأدوار الأولى فقط، إذ انّ بذور الحضارة ليست قليلة.

فقد يمكن ان يعتمد العالم على مصادر اخرى للطاقة ولكنها ليست هى الأ خرى مطمئنة إليها، إذ الذرة ايضاً شيء قابل للفناء، والاعتماد عليها كلياً يعنى ا لاعتماد على الفاني.

لقد كانت على هذه الأرض حضارات وامم سبقتنا، وورثتنا بعض الآثار التى نجد بعضها فى مصر، متمثلة فى إهراماتها الشامخة وفى صيت عظمائها المحنطة ونجد بعضها الآخر فى المدائن فى طرف الجزيرة العربية وبالتالى نجد جزءاً منها في وسط العراق بابل.

ونحن فى سفراتنا السياحية، قد نتمتع بهذه الآثار العجيبة ولكن قليلا ً ما نستفيد منها، ونستخلص دروسها العظيمة، إنها تدل على أن فى الحياة سنناً فطرية يفرضها اللّه على الإنسان فرضاً، والإنسان ضعيف بين ايدى هذه السنن التى لا ترحم، وعليه ان لا يفكر يوماً بتجاوزها وإلا فإن نهايتها لن تكون احسن من نهاية تلك الحضارات السابقة تعدت سنن اللّه فى الأرض، فاخذها اللّه بذنبها ودمرها تدميراً.

لنستمع إلى ربنا يبين لنا جانباً من حياة هذه الأمم، وتلك الحضارات فى حوار رائع بين الأمم وبين انبيائها وبالتالى بين الحضارات وبين تلك السنن التي انتقمت منهم.

إبراهيم وحضارة بابل

قبل كل شىء يذكرنا القران الكريم بالسنن ويامرنا بالتفكير فيها من خلال سيرة الأمم السابقة، ويقول لنا:

قُلْ سِيرُوا فِي الأرض فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثمّ اللّه ُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخرة إنّ اللّه َ عَلَى كلّ شَيْءٍ قديرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقلبُونَ .

ثم يذكرنا بان كل ما بنينا من حضارة فإنها اضعف من القدر، اضعف من الأ رض التى تحتضننا واضعف من السماء التى ترزقنا، والأرض والسماء جميعاً بيد اللّه يقول ربنا:

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَلا َ فِي السّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّه ِ مِنْ وَلِيّ وَلا َ نَصِيرٍ 29-22.

ثم قال إبراهيم لقومه:

إِنّمَا اتّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّه ِ أَوْثَاناً مَوَدّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا ثمّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ 29 - 25.

ذكرهم إبراهيم بان الأشياء التى يعتمدون عليها والتى يَرمزون إليها بالأ وثان فوقنا، يقدروه، كرمز للمطر وثناً كرمز للغضب ووثناً كرمز لمياه نهر الفرات ووثناً كرمز للنار والوقود.

إنها أوثان خاوية لأنها رموز لأشياء فانية وليست لقيم باقية.

والقيم هي التي تستطيع أن تمكن علاقاتكم ببعضكم وليست الأشياء هذه.

ليس شط الفرات شيئاً يركن إليه فى بناء حضارة لأنه إذا جف هذا الشط وهو قابل للجفاف فعلا ً فسوف تنهار علاقاتكم ويلعن بعضكم بعضاً.

كذلك ليست الأراضى الخصبة التى تحيط ببابل من كل صوب هى التى

يمكن ان تصبح رمز علاقاتكم، لأنها قد تفنى هى الأخرى فتفنى حضارتكم الشيئية المادية.

قال لهم:اعبدوا الله.. واجعلوا الله رمز علاقاتكم الإنسانية. ورمز حضارتكم حتى تدوم هذه الحضارة، بدوام تلك العلاقات التى تبقى بدورها ما بقى اللّه الحي القيوم.

ولكنهم لم يقبلوا نصيحة إبراهيم 8، وبنوا مجتمعاً مادياً انهارت تلك الأوثان المادية وانهار مجتمعهم هو الآخر.

وكانوا مثلا ً سابقاً لحضارة القرن العشرين، والتى تعتمد هى الأخرى على البترول والذرة والآلة والإنتاج.

وتجعل هذه الأشياء لا القيم رمزاً لعلاقاتها وسوف تنهار هذه الحضارة هى ا لأخرى حين تنهار الأسس المادية التي اعتمدت عليها.

لندع الحضارة فى القرن العشرين ونمضى مع انبياء اللّه فى حوارهم مع الأ مم، والذي يمثل (حوار السنن والحضارات).

فإبراهيم، نعى للبابليين حضارتهم وارادوا ان يحرقوه، ولكن اللّه انجاه من النار ودمر أعداءه البابليين واعتزلهم وذهب إلى كنعان، حيث بنى حضارة من نوع آخر..

حضارة اللّه والقيم.. لننظر كيف كانت قصته:

فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ 29 - 27.

امتدت حضارة اللّه والقيم، امتدادين:

عمودياً، وافقياً، فامن له لوط، من جانب، وبارك اللّه فى ذريته، من جانب اخر، ورزقه إسحاق ويعقوب، وكونوا حضارة بقيت حتى نزول القران الحكيم متمثلة في اليهودية والمسيحية وبقيت حتى الآن متمثلة في الإسلام.

فأيهما كانت أبقى حضارة الشيء أو حضارة القيمة؟.

حضارة المادة أم حضارة اللّه؟.

تلك كانت بعض القصة أما بقيتها:ابراهيم8 كون مجتمعاً صغيراً وقوياً، أخذ يقاوم، كل المجتمعات المادية، وينتصر عليها، بسرعة هائلة، لىس بما لديها من قوة مادية ولكن بما كانت تمتلك من علاقات إيمانية ودعم غيبى إلهى، واخيراً بما كانت متفقه مع سنن الحياة الفطرية.

فإبراهيم، امن له لوط، ولوط هذا دك صرح اكبر حضارات المنطقة، وقد تفكرون أن هذا التعبير فيه تسامح ومبالغة.

فكيف يستطيع رجل واحد أن يهدم حضارة ضخمة؟ ! وأنا أيضاً أفكر فى ذلك وليست الحقيقة بهذه البساطة التى نتصور، فالرجل الواحد مهما اوتى من

عبقرية فهو اضعف من حضارة شامخة مثل حضارة قوم لوط، الذين بنوا لأ نفسهم بيوتاً ضخمة من الصخور التي اتكات على جبال المنطقة وكانها اميركا أو روسيا اتكأت على قواعدها النووية الحضارية.

ولكن ما هي الحقيقة كاملة؟.

الحقيقة هى ان قوم لوط هم الذين هدموا حضارتهم هم الذين سمحوا لأ نفسهم أن يبنوا غرفة فى بيت العنكبوت، وحضارة معتمدة على اشياء دون القيم.

ولذلك فهم الذين حطموه من اول يوم لنستمع إلى القران، كيف يبين اللّه فيه الحقيقة كاملة:

وَلُوطاً إِذ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحد مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ .

إن حضارة احتوت على بذور فنائها كيف سيكون مصيرها؟.

أليس الانهيار؟.

إنه كان مصير حضارة قوم لوط.

أولا ً: كانوا يعانون من شذوذ جنسى غير مسبوق، فهم كانوا يأتون الرجال من دون النساء.

وثانياً: كانوا يمارسون الظلم ضد الطبقات الضعيفة إلى حد السطو على الناس في الطرقات وقطع السبيل عليهم.

وثالثاً: كانوا يتجاهرون بالمنكرات الأخرى جميعاً علناً فى النوادى المكشوفة ونحن جميعاً نعرف كيف كانت نهاية هذه الحضارة، حتى ولو كانت حضارة القرن العشرين.

نقوم بمقارنة بسيطة، بين حضارة قوم لوط وحضارتنا المادية القائمة.

حضارتنا اليوم تتحرك إلى شاطئ الإفلاس لأنها افرغت المحتوى الحقيقي للحضارة، الا وهي القيم المقدسة التي تعلو على الأشياء والأشخاص وتوجههما توجيهاً رشيداً.

القيم التى تنظم علاقة الإنسان بالأشياء، وعلاقة الإنسان بالإنسان على أساس سليم متفق مع سنن الحياة الفطرية.

على أساس حرية الإنسان وكرامته، وعدم استعباد أى شىء له. من شىء أو من بشر..

والسؤال العريض كيف تكاد هذه الحضارة ان تفلس من القيم وتتفرغ من المحتوى الحقيقي للحضارة؟.

لا نعرف الإجابة الصحيحة على هذا السؤال إلا إذا عرفنا ان واقع الحضارة هي القدرة على التعامل مع ثلاثة حقائق تعاملا ً سلباً وبناء.

مع الذات.

مع الناس.
مع الأشياء.
فإذا تناقض الإنسان مع ذاته، وبتعبير افضل إذا لم يستطع إدارة نفسه، فإنّه سيتحطم داخلياً، ودون حاجة إلى أي عامل خارجي.
وإذا تناقض الإنسان مع مجتمعه، فإن هذا التناقض كفيل بتحطيم المجتمع وتحويله إلى ركام.
وإذا تناقض الإنسان مع اشياء الحياة، فإنّه سيتعرض للخطر عاجلا ً او اجلا ً.
والحضارة المادية الراهنة مزيج من التناقض مع الذات ومع الناس ومع الأشياء، ونحن ندعو رواد هذه الحضارة أن يستمعوا إلينا دون غضب ولا تعنت و لا غرور حتى نسرد لهم أدلتنا المدعمة بشواهد من حياتهم هم.

تناقض مع الذات

لقد صدر كتاب جديد فى الولايات المتحدة الأميركية باسم: من أجل أميركا خضراء، ومؤلفه: شارلز رأيخ (أستاذ القانون في جامعة بال) يقول فيه:
تتعاطى أميركا تجارة الموت ليس بالنسبة إلى شعوب الدول الأخرى فحسب بل هى تتاجر بالموت مع شعبها أيضاً، وبنظرة واحدة إلى الصفحات الأولى من الصحف اليومية نلاحظ تفسخ هذا المجتمع وانحلاله نتيجة لجو القلق والرعب الذي تعيش فيه .
وجاء فى دراسة قامت بها إحدى مؤسسات الإحصاء فى الولايات المتحدة، (إن مصانع الأدوية فى أميركا تنتج كل عام عشر مليار قرص (حب) مهدئ للأعصاب، وهذه الكمية تكفى لأن يحصل كل أميركى على 72 حبة فى السنة الواحدة!! .
وأكدت الدراسة أنه خلال عام 1968 حدثت ثلاثة آلاف حادثة انتحار. وتعزى كثرة الإقبال على الانتحار إلى الأوضاع الدولية الراهنة وكثرة الهموم.
هذا فى اميركا، وكذا الحال فى اوروبا، وفى فرنسا، اما الحضارة الحديثة فقد انتهى مؤتمر إحصاء الفرنسيين للأمراض الهضمية، إلى ان امراض جهاز الهضم تقتل عدة من الناس قبل سن الخمسين فبين سن الثلاثين والخمسين يموت بأمراض جهاز الهضم 11بالمئة من مجموع الموات وتأتى فى المراتب الأولى قرحة المعدة والإثنى عشري، ومما اثبتوه بالإحصاء ان ثلث المصابين بهذه القرحة إنما يتدرجون في فئة المضطربين العصبيين السريعي الانفعال.
وفى الجناح الشرقى للحضارة المادية اى فى الدول الاشتراكية فإن النتائج ليست بأحسن من الجناح الغربى للحضارة. وقد نشرت موسكو أخيرا إحصائية مفادها أن خمسين بالمائة من الأمراض سببها نفساني!!!
هناك إذا تناقض مع الذات مرده عجز الحضارة عن إيجاد علاقة سليمة بين الإنسان وبين ذاته، الم اقل لكم إن الحضارة اليوم تتحرك إلى شاطئ الإفلاس

بسرعة، فى هذا الجانب تتشابه هذه الحضارة بحياة قوم لوط التى عبر عنها القرآن الحكيم بقوله:

وَلُوطاً إذ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أحد مِنَ الْعَالَمِينَ 28 - 29.

اما رد الفعل الطبيعى لهذا الإفلاس فى الحضارة فى إدارة الذات، فإنه الموجة العارمة من الهيبيز، والخنافس من نوع من التصوف المخنوع، ويقول عنها:

فقد انتشر بسبب هذه الحقيقة التى لا سبيل إلى الشك فيها موقف يحظى بـ الكثير من فهمنا وراج هذا الموقف لا سيما بين أوساط الشباب واضعاً إياهم فى خدمة اصنام اصبح طقس عبادتها اليوم يحتل مكانة واسعة فوق جميع زوايا الشوارع، وفى كل المجالات الدورية، هذه الأصنام هى الشخصية و التجربة الشخصية وكل منهما يتصل بالآخر على نحو حميمى وحميم بينما يسود الانطباع بان الثانية تؤلف الأولى وتكونها وتنتمى إليها فالناس يوسعون انفسهم جهداً وإجهاداً فى محاولتهم الرامية إلى تجربة الحياة شخصياً لأن ذلك يليق بالشخصية التى تعى مرتبتها ومركزها وإذا لم تنجح فى اختبار الحياة ومعاناتها ينبغي لنا على الأقل التظاهر بأننا نملك هبة النعمة.

التناقض مع المجتمع

يبدا المجتمع مع الأسرة، والأسرة تبدا مع العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى، ومتى ما فشلت الحضارة من تحقيق علاقة جنسية سليمة فإن كل احلامها في بناء الأسرة، تذهب معها بالطبع قدرتها على بناء المجتمع السليم.

والآن نتساءل الم تكن حضارتنا المادية فاشلة تماماً فى إدارة الإنسان جنسياً؟ افلم تعجز عن إيجاد تكامل عضوى نفسى واقتصادى بين الذكر والأنثى؟.

لقد قضت سنة اللّه فى الأرض ان يتكامل الزوجان، او يفشلا، لقد خلق اللّه الذكر مختلفاً عن الأنثى ليس فقط فى ادوات الجنس البارزة، كما يتصور البسطاء من الناس بل في كل شيء.

من الحجم واللون والخشونة إلى العقل والعاطفة والذكاء إلى الأعصاب و القلب، والدم، إلخ...

لكن الحضارة الحديثة شأنها شأن حضارة قوم لوط خربطت هذا التكامل.

لأن هذه الدعاية الواسعة للعملية الجنسية اوصت إلينا بفكرة خبيثة هى ان الجنس الآخر هو فقط للتمتع والتلذذ فإذا قالوا:المرأة، تذكرنا كل شيء في حياتنا المادية الفردية البحتة إلا شيئاً واحداً اصيلا ً فى علاقتنا مع المرأة وهو التكامل العضوى والنفسى والإرادى معها، تذكرنا، السيارة الفارهة التى راينا فى الجريدة صورة امراة شبه عارية فى جانبها، تذكرنا قلم شيفرز الذى صورته المجلة على يد ناعمة لامرأة جذابة.. تذكرنا علبة كنت إلى جنب امرأة غرقت فى السرور والبهجة كما تصورها دعاية كنت.. وبالتالى تذكرنا آخر الأ

زياء في المجلات.
ولكن لم نتذكر حياتنا البيتية المليئة بالحيوية والتعاون والجد وبذل نفقد ا لإحساس بواقع المرأة إلى خيالها.
افرطت في جانب من الجنس، واستغلته بشكل فظيع تاركة سائر الجوانب ضامرة هزيلة.
حتى ارادت هذه الحضارة ان تشرب الشاي بدافع الشهوة إلى الجماع، وتركب السيارة بدافع التلذذ بثدى الأنثى، وتستخدم القلم بتذكر العملية الجنسية وهكذا.
زرعت الجنس في كل مكان، فأفقدت الجنس من محتواه الإنسانى السليم.. وافقدت الإنسان القدرة على العامل السليم مع الطرف الثانى وحسبنا المراة أداة لهو ومتعة لا طرف عمل وجد، لذلك شاع البغاء بدلا ً من ازدياد الزواج. وزاد الاكتفاء بالجنس المثيل، بدلا ً من التكامل مع الجنس الآخر..
واخيراً زادت الأمراض الجنسية بدلا ً من ان يصبح الجنس عاملا ً صحياً، يحصن الإنسان من أمراض خطيرة ومتنوعة.
هذا الإفراط من هذا الجانب لم يسعفه التفريط من جانب ما ابتليت به الحضارة الغربية وهي:
حملت المراة تكاليف انقضت ظهرها، اجبرتها على خوض غمار الحياة فى كل مكان من مصنع الحياكة إلى ميدان الحرب.
وبهذه المشاركة الواسعة وجهت الحضارة الحديثة خطرين كبيرين للعلاقة بين الذكر والأنثى.
الأول: تحطيم المرأة بيولوجياً.
الثانى:اغناؤها عن الرجل حتى لا تحس بالحاجة إليه فترتبك العلاقة بينهما ويفقد التكامل بينهما.
إن قوم لوط كانوا ايضاً عاجزين عن فهم العلاقة السليمة بين الذكر والأنثى، فحطموا حضارتهم التى لم تكن انئذٍ أكثر من غرفة فى بيت عنكبوت انهارت في لحظات حتي قال لوط: رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو اهلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ اهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ اعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَاهْلَهُ إِلا ً امْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .
ولنترك قوم لوط يصيبهم رجز من ربهم ونعود إلى حضارتنا المادية لنتساءل ماذا عملت في حقل العلاقة بين الناس خارج إطار العلاقة الجنسية.
وليس العجز عن إيجاد علاقة بين الزوجين هو العامل الوحيد وراء عجز الحضارة عن تامين علاقة سليمة بين الناس خارج إطار العلاقة الجنسية، فمثلا ً: صراع الأجيال..
الطبقات

القوميات

العناصر

كل اولئك قنابل موقوتة تنفجر فى جسم الحضارة المادية، تنسقها بالتدريج نسقاً تاماً ومضبوطاً.

إن هذه الصراعات، التى تتغلف اليوم بمبادئ زائفة وتتجسد فى الأحزاب و المنظمات المتناحرة، لهى الماكنة النشطة التى تصنع قنابل هذه الحضارة، و التى انفجرت واحدة منها واحدة فقط فى فيتنام فقتلت زهاء مليون ونصف وانفجرت الثانية في بنغلادش فأعدمت زهاء الثلاثة ملايين!!

والحرب النووية التى لا تهدد الإنسان فحسب بل تنذر كل الأحياء على الأ رض، ليست هذه الحرب التى تعيش اليوم على شاطئ منها سوى دليل واحد على ازمة الحضارة المادية، التى فشلت فى إرساء قواعد سليمة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، وعلاقة المجتمعات ببعضها.

يبقى ان نعرف ان فرنسا وحدها خسرت الفى مليون فرنك بسبب الثورة التي فجرها الشباب نتيجة صراع الأجيال.

والسبب الجذرى وراء هذا الصراع كان فشل حضارة المادة من إقامة علاقة سليمة وبناءة بين الآباء والأبناء.

هذا عن صراع الأجيال، اما عن صراع الطبقات فلا اعرف بالضبط كم خسرت الشعوب بسبب الصراع بين البرجوازية والبروليتارية وبالضبط بين طبقة الأغنياء وطبقة الصعاليك..اما ما يعرفه الجميع فهو أكثر الثورات الشعبية.. والتخريب والقتل.. و..اتية من هذا الصراع الذى يزداد عنفاً كلما ازداد الإنسان توغلاً فى حضارة المادة، وكلما ازداد إفلاس هذه الحضارة من إرساء علاقة سليمة بين الطبقات.

لقد سمّي مالك بن نبى الماركسية بـ(أزمة الحضارة الحديثة) وهى تسمية صحيحة لأن الحضارة التى تخلق فى اضلعها مواد الانفجار الذاتى هى حضارة مريضة ومتأزمة.

اما حرب فيتنام، وحرب الشرق الأوسط، وفى شبه القارة الهندية، وهى الحروب التقليدية الكبرى فى العقد الأخير نتيجة عدة صراعات، ولكن صراع القوميات لا ريب أهمها جميعاً.

ولولا فشل الحضارة فى إيجاد علاقة متينة بين القوميات، لما كانت تقع هذه الحروب المدمرة الضارية.

بينهم صراع العناصر.. يكاد يفجر المجتمع الأميركى الذى يعتبر نفسه حاملاً مشعل الحضارة الحديثة، فالسود والحمر يعانون من ابشع الوان الظلم وانتقاماً لأنفسهم يقومون هم بكل ما يستطيعون من أعمل التخريب حتى انه بلغت خسارة اميركا من ثورة الزنوج فى عام واحد فقط حوالى الفى مليون دولار، وسيبقى هذا الرقم الخيالى من الدولارات بسيطاً لو قيست بالأضرار المعنوية التي أصابت جذور الحضارة الأميركية فنخرتها حتى الأعماق.

وفى افريقيا وكما فى امريكا مظاهر عديدة للصراع العنصرى إذ ينفجر حيناً فى روديسيا، وموزامبيق وجنوب افريقيا ويرقد احياناً تحت رماد الاتفاقات الدولية ولكنه صراع عنيف، تغذيه روح الحضارة الحديثة المادية.

وبعد هذه الصراعات العنيفة الا يحق لنا التاكيد مجدداً إن حضارة الشيء التى تقبع فيها، هى حضارة مفلسة، وسيزداد إفلاسها يوماً بعد آخر..؟ إلى أن تحيط بها خطيئتها وتدمر عن آخرها.

ويكون مثلها مثل تلك الحضارات التى انتهت فى ساعة من التاريخ لأنها ارتبطت بأشياء انتهت هي الأخرى.

لقد كان فى أطراف الجزيرة العربية بلد يدعى ب- (مدين) لا تزال آثاره العظيمة تشهد على مدى تقدم أبنائه حضارياً.

فاين الآن مدين واهل مدين؟ لماذا دفنوا فى بيوتهم حين امطر عليهم العذاب من السماء؟.. يجيب القرآن على هذه الأسئلة بإيجاز نستمع قليلا لنكشف سر البقاء أو بالأحرى سر الفناء.

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّه وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخر وَلا تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ (36) فَكَذّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ 29 - 37.

قوم شعيب وسكان مدين عبدوا الأشياء، من دون اللّه، فحينما انتهت الأشياء بفعل الزلازل انتهوا، هذه هي خلاصة القصة.

وطبعاً يتدخل الغيب ايضاً وهنا كل شيء لا نعرفه يصبح غيباً، المهم ان نعرف النتيجة ونعتبر بها، وهي ان الزلزلة تنهى حضارة الشيء، لأنها اي الزلزلة تنهي الشيء ذاته.

وعبر الحضارات متنوعة، واسباب فنائها ايضاً متنوعة يقول القران عن ذلك:

وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيّنَ لَهُمَ الشّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدّهُمْ عَنِ السّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأرض وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39) فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا 29 -38 - 40.

وأخيراً العبرة من كل ذلك هي:

وَمَا كَانَ اللّه لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أنفسهم يَظْلِمُونَ 49 - 40.

إذ الظلم يستدرج الإنسان إلى مقصلة الجزاء والظلم انواع والجزاء انواع بقدرها وكل ظلم له جزاء على شاكلته وربك لعزيز ذو انتقام.

واعظم ظلم اقترفه الإنسان كان عبادته لأشياء الحياة وارتباطها الشديد بها وأخذته سنة الحياة وهي الفناء.

قوم عاد ارتبطوا بصخور الجبال وزعموا انها هي وحدها الحضارة التي

تجمع كلمتهم وتضمن لهم سعادتهم المنشودة وكان جزاهم متناسباً مع الصخور ذاتها إذ تحولت تلك الصخور إلى حاصب من السماء فدمرهم تدميرا.

وكان غرور قوم ثمود بإجراءات امنهم التى زعموا انها كافية لبناء حضارة مادية وارفة كان ذلك الغرور بعض ما انتقم منهم حيث إن اللّه سبحانه ارسل عليهم صحية فاصبحوا فى ديارهم جاثمين هنالك اكتشفوا وبعد فوات الأوان حقيقة مرة هى ان كل الوسائل المادية لن تغنيهم ولن تمنع اللّه خالقهم ان يقتلهم وهم في قلاع أمنهم.

وحين ارتبط قارون بكنوز الأرض بذهبها وفضتها ومعادنها الثمينة، واراد ان يقاوم سنن الحياة بهذا الركام الزائف، كانت النتيجة ان سنن الحياة انتقمت منه، أو بتعبير افضل ان عمله وهو ارتباطه بتلك الكنوز المادية هو الذى انتق منه فدقت ساعة الجزاء وابتلعت الأرض قارون وانتهت حضارة الكنوز.

ولم يبق منه ومن كنوزه سوى شيء واحد والدرس الذى يجب ان يتعلمه إنسان القرن العشرين فيبتعد عن عبادة الذهب والفضة، ويكف عن بناء حضارة النقود المنهارة.

واعظم الدروس التى نتعلمها من قصة الحضارات هي ما خلفتها حضارة مصر الزراعية حين عبدت النيل واتخذته ولياً من دون اللّه، وتدخل التفكير الشاعرى فى هذا الارتباط بين النيل وبين حضارة مصر الفرعونية واخذوا يغدقون على النيل نعوتاً كهنوتية، ويقربون لها قرابيناً بشرية ففي كل ربيع كانوا ينتخبون ملكة جمال مصر، ثم يلقونها لتغرق في النيل هدية مباركة له وتجنباً لغضبه.

ولكن هل نفعت اهل مصر الحضارة الزراعية؟ كلا بل اضرتهم، حيث إن سنة الحياة احاطت بهم واصبح إله مصر الماء هو الذى ابتلع حضارتهم، حين نبذ فرعون وقومه في اليم نبذاً.

إن حضارة ترتبط بالماء، وتنتهي بالماء أيضاً.

والسؤال العريض الذى يبقى اهم سؤال يجب ان نطرحه على انفسنا ونحن نعاني من أزمات حادة أحدثتها حضارة المادة للبشرية جميعاً السؤال هو:

ما هو إله هذه الحضارة الجديدة هل هو البترول ام هى الذرة؟ ام هى الأ نظمة الاقتصادية والاجتماعية التى شرعت بعيداً عن توجيه اللّه وشرائعه المقدسة؟

والسبب فى توجيه هذا السؤال، هو محاولة التعرف على نوع النهاية المحتومة التى تتعرض الحضارة المادية لها، هل هى نهاية بترولية، هل يقطع العرب هذه المرة عن الإنسان النفط فإذا اصبح النفط غوراً فمن ياتينا بنفط معين؟.

واخشى ان يبحث علماء الآثار بعد مئات من السنين في بعض الخرابات في أميركا فيجدون قاعدة أكبر عمارة في الأرض فيكتبوا عنها:

هنا قاعدة أكبر بناية ضخمة أفرزتها حضارة البترول.

وقد تكون الذرة هى المرشحة لإنهاء هذه الحضارة حين يخشى ان تنطلق الصواريخ العملاقة فى ساعة مشؤومة من ذات ليلة سوداء فتحصد زرع الحضارة الذرية بلا رحمة ولا تأخير.

هذان الافتراضان ممكنان ولكن الأقرب منها هو انفجار الحضارة داخلياً بفعل انتقام السنن الفطرية التى اصطدمت بها الحضارة الحديثة فالاقتصاد الراسمالى يستبطن عدة ميكروبات سوف تنهش فى جسم الحضارة إلى ان تموت.

إن الراسمالية تثير احقاد المستضعفين وتسبب التضخم النقدى وارتفاع الأسعار، وتدعوا الشعوب إلى استغلال بعضها الذي يفجر بدوره حروباً ضارية.

والإفلاس من القيم كما راينا مرض حضارى اخطر من فقر الدم الذى يبتلى به الجسم، وكذلك يستتبع عدة أمراض خطيرة.

والشذوذ الخلقى يدفع بالإنسان إلى ممارسة انواع من السرقة والجريمة و الفساد والرشوة، ويسبب في تحطيم الحضارة.

مهما تكن عوامل انهيار الحضارة، وموتها فإن النتيجة واحدة، (إذ تعددت الأسباب والموت واحد).

وحين تموت هذه الحضارة يستفيض فكر الإنسان ليكشف حقيقة هامة، هى ان القيم هى الخلفية القوية التى يجب ان يركن إليها الإنسان فى بناء حضارته ، وفى إنشاء علاقاته بالآخرين وهى الحقيقة التى أوضحها القرآن الحكيم فى آيات سبقت ثم لخص الفكرة بالقول:

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ 29،41،44M.

حضارة بلا مصير

جاء فى تقرير رفعه كورت فالدهايم سكرتير الأمم المتحدة عن المجاعة فى أفريقيا:انه قد مات على أثرها زهاء مائة ألف إنسان.

وجاء فى التقرير ان دول العالم لم تستجب كاملا ً لنداءات الأمم المتحدة لإسعاف الملايين من المتاثرين بهذه الكارثة العظيمة واضاف ان المشكلة المستعصية كانت تكمن فى قدرة المواصلات التى كان يجب ان تؤمن المواد الغذائية للمواقع المنكوبة والمتضررة.

وجاء فى تقرير سابق:ان عدد الفقراء المعدمين فى العالم يربو على أربعين مليون فقير.

أما عدد الذين يعيشون دون مستوى المعيشة فهو يربو على نصف العالم.

والسؤال العريض والملح الذي يفرضه علينا هذان التقريران هو:هل حدث كل ما حدث نتيجة نقص فجائى فى المواد التى تدرها علينا امنا الأرض فعجزت عن إرضاع ثلاثة آلاف مليون من أبنائها البشر؟.

ام جاء نتيجة تخلف في مستوى الانتاج، اي جاء بسبب عجزنا نحن عن استدرار الأرض واستخراج ثرواتها واستخدامها في توفير الحياة السعيدة لنا؟

أم لذلك كله سبب آخر؟.

الحقائق الحضارية تشهد بان الإجابة الأولى والثانية خاطئة والسبب يكمن في شيء آخر.

ذلك لأن الأرض لا تزال غنية بالمواد الأولية، فلا تزال المساحات غير المزروعة أكبر من المساحات المزروعة منها ولا تزال مصادر الطاقة (البترول، الغاز، الفحم الحجرى، الفحم الطبيعى ثم الذرة) طافحة بالمواد الخام، التى تبدو لكثرتها وفورها وكأنها غير متناهية.

الكشف العلمى التالى الذي تنبات به إحدى الكويتية يدل على مدى سخاء الأ رض، في عطائها لنا، الحدث كما ترويها الجريدة الكويتية، هو:

يفكر العلماء حديثاً في طريقة لحقن الأرض بالغاز المنبعث منها، وذلك لأن الوف البلايين من الدولارات من الغاز الطبيعى الثمين تحترق سنوياً، لعدم القدرة على استيعابها، وصرفها كطاقة في الصناعة.

يدل هذا الكشف العلمى الطريف على اننا عجزنا عن استيعاب الأرض فى الوقت الذي تزخر الأرض بالمزيد من الطاقة فاخذنا نجهد انفسنا فى سبيل إعادة الحليب إلى بطن الأم الحنون.

إذاً مواد الأرض وافرة، فهل طريقة الانتاج عندنا تخلفت؟.
الجواب أيضاً بالنفي.
وبوضوح نحن اليوم على ابواب الثورة الصناعية الثالثة حيث اخذ العلم يستغنى كلياً عن الإنسان بالآلة وعن المخ بالعقول الإلكترونية، اصبح باستطاعة بضع رجال إدارة مدينة صناعية كبيرة دون أي إرهاق.
وكذلك اصبحت امم صغيرة العدد نسبياً كاليابان مثلاً ً ثالث دولة فى الإ نتاج بفضل الأساليب الصناعية العملاقة.
إذاً، لماذا بقي الفقر؟ لماذا ارتفع عدد الفقراء وازدادوا مسكنة وفاقة؟.
لو القيت هذا السؤال على بعض رجال المعسكر الاشتراكى لأجابك فوراً إن سبب ذلك يكمن في سيطرة الرأسمالية على خيرات الأرض ووسائل الإنتاج.
بينما يقول لك المعسكر الرأسمالى: الجواب الأصح هو أن وجود غول الشيوعية وسيطرتهم على نصف أهل الأرض هو السبب.
ولكن لنا نحن المستضعفين رأي آخر نقول:السبب هما معاً.
وقد يبدو هذا الجواب إجحافاً بحق هؤلاء إذ الجواب الأصح هو ان السبب الصحيح يكمن في سيطرة النظرة المادية الضيقة على أعين البشرية جميعاً.
إن طغيان المادية على الإنسان كان هو السبب فى اهتمام الإنسان بإنتاج وسائل التدمير، اكثر من اهتمامه بتوفير اسباب الرفاهية، وقد جاء فى بعض التقارير الرسمية إن مقدار ما تصرف الدول فى الميزانيات الحربية اكبر ممّا تصرفها فى وسائل التقدم والعمران ولا ريب ان هذه النسبة لو تحولت إلى أرقام كانت مذهلة..
ومذهلة حقاً.. لقد أنفقت دول العالم على التسليح فى عام 1979م زهاء ثمان وتسعين وثلاثمائة مليار دولار بينما لم تنفق على الصحة وهى ابسط حقوق الإنسان واشد ضروراته الوجودية بعد الطعام لم تنفق سوى مائة وثمانين مليار دولار.
إن هذه الأرقام تعنى أشياء كثيرة، من أهمها:ان الطاغوت المادى الحديث اخذ يقتطع من جسد البشرية اكثر لحومها وافضل اعضائها ويمتص من عروقها أروع دمائها وأحسنها.
إذ ان افضل الاختراعات واحسن العلماء واوفر الوسائل العلمية، اصبحت اليوم وقفاً على المؤسسات العسكرية.
اليس يعنى ذلك انها سرقت من خزينة الإنسان لتصرف فى اهداف الشيطان.
اولا يعنى انها لو كانت تصرف فى سبيل سعادة الإنسان لكانت ماساة الفقر أصبحت اليوم أسطورة أو تاريخاً.
ولكن لو أعدنا صياغة السؤال بوجه آخر وقلنا:هل أن الشعب الأميركى أو الشعب الروسى والصينى يحبذون تحطيم سعادة الإنسان وامتصاص دمائها

في سبيل أهداف الشيطان أم ماذا؟.

بالطبع ليس الشعب هو المسؤول المباشر إنما تلك القوى التي استعبدت الشعب وسخرت خيراته وإمكاناته في هذا الطريق هي المسؤولة الأولى عن ذلك.

ولنعد لنسأل: من الذى مكن هذه القوى من رقاب الشعوب حتى استطاعت أن تجر إليها هذه الويلات؟.

أوليس هم الشعوب أنفسهم؟ نعم، ولكن لماذا؟.

لأنهم (أي الشعوب) تجردوا من الروحية الصحيحة وأخذوا ينظرون إلى مصالحهم كأفراد أو كعنصريات قبل إن ينظروا إليها كقيم ومقدسات.

فحين استهدف الشعب الألمانى سيادته الذاتية وعظمته وجبروته، وبالتالي حين تحولت قيمه المقدسة السامية إلى نظرات مادية ضيقة، حينئذٍ ايد النازية ، ومكنها من السيطرة على رقاب ابنائه واللعب بخيراته وإمكاناتهم، وجرته تلك النظرة المادية إلى مذبحته الشهيرة.

وكذلك الشعب الأمريكى حين يطلب مصالحه، وكبرياءه فإذا دعا الطغاة من كبار الراسماليين إلى الحرب باسم مصالحه، وباسم كبريائه القومية، يلبيهم ويمكنهم من رقبته ومن خيراته ومن إمكاناته.

والقضية ذاتها صادقة فى الشعب الروسى حين يمكن الطغاة (كبار الشوعيين) من نفسه وآنئذٍ لا تكون حرب كوريا وفيتنام، ومناوشات الحدود بين الصين والروس، ولا تكون الميزانيات الضخمة التي تخصص للشؤون العسكرية، والتى ترهق الإنتاج البشرى ولا يكون بالتالى رقم مليارى فقير فى العالم، لا يكون كل ذلك إلا نتيجة طبيعية لهذا الوضع المتردي.

ويصدق آنئذٍ قول الله سبحانه إذ يقول: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ13-M11، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ M.

N كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَM. 53 - 8.

خلاصة القضية ان حياة اهل الأرض مرهونة بقيمها الروحية، فحين يتجردون من هذه القيم، ويقعون فى شراك المصالح، فإن اقل ما يهددهم هو الفقر، اما الأكثر فهو قارعة تعم الأرض، يحدد وقتها ربنا سبحانه حين تعم المادية سطح الأرض، فيأذن للحرب العالمية الثالثة، ان تتحرك لتبتلع فى بضع ثوان كل إنتاج أهل الأرض، وينتهي كل شيء في لحظات.

وكما أنذرنا الله سلفاً وقال سبحانه:

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ M.

إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ

بِهِ كَافِرُونَ (14) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (16) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (13 - 17 - 41).

إن اهل الأرض مهددون اليوم بمثل تلك الصواعق المدمرة الشاملة لأنهم ينحدرون بسرعة إلى ذلك الدرك السحيق الذي انحدرت إليه الأمم السابقة التي أهلكها الله بذنوبهم ولكن هل هناك من يحس؟.

الذخائر الروحية هي الحل

الحل الوحيد هو التوبة إلى الله، والعودة بصدق وإخلاص إلى الإيمان به وا لاستفادة من الذخائر الروحية المتوفرة لدينا.

والسؤال:هل توجد لدينا ذخائر روحية؟.

نعم في الأديان السماوية منابع ثرية تزخر بهذه الذخائر وعلى العالم ان يكتشفها ويستخرج كنوزها الغالية.

بيد ان الدين الوحيد الذى يملك قدراً كافياً منها يسد جوع الإنسانية ويقاوم ضغوط المادية الطاغية ليس هو بالتأكيد الديانة المسيحية أو اليهودية.

ولسبب بسيط هو ان هاتين الديانتين انحرفتا عن مسيرتهما الروحية المستقيمة بفعل مزيد من الأهواء والضغوط التي تعرضت لها.

فانحرفت المسيحية إلى لاهوتية صوفية مشركة وانحرفت اليهودية إلى مادية ماكرة وضاعت بينهما التعاليم الروحية السليمة.

وإذا اراد العالم العودة إلى واحدة منهما لم يجد امامه إلا ركاماً من التوجيهات المتناقضة.

فابتدا من مذابح المؤمنين المسيحيين على يد الجلادين اليهود باسم ديانة موسى A وانتهاء بمذابح العلماء المتحررين على يد محاكم التفتيش باسم ديانة عيسى ساعدت كل تلك على طمس معالم الروحية فى المسيحية و اليهودية.

وبقي الإسلام يتميز:

أولاً: باحتفاظه على قرآن صادق لم تمتد إليه اليد التحريفية الضالة، وكما وعدنا الله بذلك: Nإِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ9M - 15.

ثانياً: بامتلاكه (سيرة) وضاءة طبقت تعاليم هذا الكتاب فكانت قدوة ص الحة لحياة سعيدة.

وبالرغم من ان تاريخ المسلمين لم يسلم هو الآخر من انتهاكات فظيعة لمبادئ القران والتى ارتكبت باسم القران ذاته، إلا انها لم تستطع تغيير معالم

الدين الإسلامى المتوفرة فى نصوص القران الحكيم، بل ولم تستطع ان تشوه تلك السيرة الوضاءة التي استوعبت تلك المعالم في التاريخ.
لذلك كان الإسلام أفضل ذخيرة روحية مبتغية للإنسانية، وقادرة على إنقاذها من براثن المادية الطاغية ومن تهديدها لها بالفناء والدمار.

الروحية الرافضة

ولكن اخطر مشكلة تواجهها الإنسانية اليوم هى ان تضل الطريق الصحيح إلى الروحانية الصافية، فيهديها إلى الروحانية الرافضة التى تدل كل الدلائل اليوم على انبعاثها من جديد، حيث اخذت تنتشر فى اوروبا واميركا انتشار النار في الهشيم اليابس.
وهذا الانتشار بقدر ما هو خطر فهو طبيعى، إذ انّ طبيعة الإنسان هى التراوح بين تطرف يمينى وتطرف يسارى، وقليلا ً ما يستطيع الإنسان الا عتدال والبقاء في الطريق الوسط.
لذلك اخذ ابناء الحضارة المادية يتوجه مرة إلى المذاهب الرافضة مثل الوجودية.. ومرة أخرى إلى المذاهب الروحية الرافضة مثل الديانة البوذية فهذه الديانة التى تدعو إلى التجرد الكامل من مظاهر الحياة والاعتناء كلياً بطهارة الروح لتتخلص من شرور المادة التي تأتي من شهوات الجسد.
وخطورة هذا الاتجاه الجديد ناشئة من انها تستقطب حاجة الإنسان إلى الروحية فتصرفها فى غير طريقها الصحيح، وبعدئذٍ حين يجد الإنسان ان هذه الروحية لم تعطه حياة سعيدة لأنها رفضت ضرورات الجسد وحاجات الحياة حينئذٍ تقود البشرية برة اخرى إلى المادية الخالصة وتبقى ارجوحة الإنسانية تتحرك بين مادية طاغية وروحية رافضة، دون ان تبنى حياة روحية مادية سليمة..
والإسلام...هو الحل الوسط والصراط المستقيم... فهو يأمر بالاتجاه إلى القيم التى تعمر الأرض وتبنى الحضارة، التى لخصها القران الحكيم فى تعاليمه الرشيدة:
وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّه ُ الدّارَ الآخرة وَلا َ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّه ُ إِليك وَلا َ تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأرض إِنّ اللّه َ لا َ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ M (77 - 28).
N قُلْ مَنْ حَرّمَ زِينَةَ اللّه ِ الّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطّيّبَاتِ مِنَ الرّزْقِ قُلْ هِىَ لِلّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ M 32 - 7.
Nرَبّنَا آتِنَا فِي الدّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخرةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النّارِM

الإسلام أفضل من البترول

اليوم أصبح البترول وقود الحضارة الحديثة. فيسعى الناس إلى استخراجه وتكريره وعملوا المستحيل من أجل شرائه بأغلى ثمن.
ولو عرف الإنسان ما فى القران لما ترددوا لحظة عن التامل فيه لاستخراج

كنوزه والسعي وراء تطبيق تعاليمه بأي ثمن.
ولكن لعن اللّه الجهل، إنه يبعد عن الإنسان خيره ويدعه يذوق طعمه الأ لم والدمار.
حين جهل الناس واقع المصلحين هموا بهم لياخذوهم ويقتلوهم وبعدئذٍ حين عرفوا حقيقة أمرهم قدسوهم وكادوا يعبدونهم.
وحين كان يجهل الناس قيمة البترول كان الذين يملكون البترول اذل الناس في أعينهم أما اليوم فقد أصبحوا أعزة صالحين.
والآن يجهل الناس قيمة القرآن لذلك تراهم يعرضون عنه.
وحين يتسنى لهم معرفته انئذٍ يعرفون اى كتاب نبذوه واى سعادة حرموا أنفسهم منها وأي إمكانات أنكروها فانتقمت منها أي انتقام شديد.
إن اول ما يصنع القران للناس، يعرفهم انفسهم، ليضعوها فى مستواها الرفيع ولا يرضوا لها بالتخلف والضعف والجريمة والذنب.
ذلك لأن الجهل بالنفس يشكل ركن الفساد في حياة الإنسان.
إن الإنسان الذى يزعم انه عبد الأصنام المنحوتة وغير المنحوتة، يتدنى إلى مستوى عبادتهم، فإذا به يعبد الأحجار.
يعبد الأخشاب.
يعبد الذهب والفضة والكراسي والمناصب.
لماذا يعبدون هذه الأصنام؟. ببساطة.
لأنهم لا يعرفون انفسهم معرفة حقة، ولو عرفوها إذا ما تمرغوا فى وحل الكفر والشرك.
والقران الحكيم، يرفع نظر الإنسان إلى نفسه ويجعله يعبد اللّه وحده فيرتفع عن كل شيء من دونه.
يقول القرآن للإنسان...
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّه ِ مَا لا َ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ شَيْئاً وَ لا َ يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلا َ تَضْرِبُوا للهِ الأمْثَالَ إِنّ اللّه َ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا َ تَعْلَمُونَ M.
N ضَرَبَ اللّه ُ مثلا ً عَبْداً مَمْلُوكاً لا َ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكثرهُمْ لا َ يَعْلَمُونَ M.
N وَضَرَبَ اللّه ُ مثلا ً رَجُلَيْنِ احدهما ابْكمُ لا َ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كلّ عَلَى مَوْلا ه ُ اينمَا يُوَجّهْهُ لا َ يَاتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ M.
N وَاللّه ُ اخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أمّهَاتِكُمْ لا َ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السّمْعَ وَالأ بْصَارَ وَالأفْئِدَةَ لَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ M.
N أَلَمْ يَرَوْا إلى الطيْرِ مُسَخرَاتٍ فِى جَوّ السّمَاء مَا يُمْسِكُهُنّ إلا ّ اللّه ُ إِنّ

فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَM. 73 - 79 - 16.

إن هذا التوجيه الرفيع المستوى لا يدع الإنسان يعبد اشياء الدنيا، ويخضع لها لأنه يعرف أنها أنزل مستوى وأقل وزناً منه، فلن يعبدها؟.

ويضرب لنا مثلا ً ، بعبد مملوك لا يقدر على شيء، إنه مثل الذي يعبد الأصنام، فيضطر إلى الخضوع لها والاستسلام لأوامرها التعسفية.

لا يستوي هو وذلك الإنسان المتحرر من عبادة الأصنام الذي يامر بالعدل وهو على صراط مستقيم إنه مثل الإنسان المؤمن باللّه الرافض لعبادة الشركاء.

إن العبد الأول أبكم، وفقير وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير.

لماذا، هل لأنه لا يملك الطاقات التى يملكها الآخرون؟ هل لأنه يفقد الحركة والقدرة والطاقة؟.

أم لأنه لا يستعمل كل ما يملكه من الطاقات؟... لماذا؟.

فالقران يصور لنا المؤمن بانه حر مطلق وغنى بالإمكانات الجبارة لأنه يعرف قدر نفسه، فيفجر طاقاته، ويستخدم إمكاناته بينما الذى يعبد الأصنام لا يعرف قيمة نفسه فلا يفجر طاقاتها وكذلك يعمل القران على استجلاء نظر الإنسان إلى ذاته وهذا أول ما يصنع القرآن في طريق تربية القيم في نفس الإنسان.

ثم يدفع به في ذات الطريق قدماً إلى الإمام، ويهديه إلى قيمة الناس، من حوله وانهم أحرار مثله، وانهم سواسية أمام اللّه الذى إنما فضل بعضهم على بعض في الرزق لحكمة بالغة وليس ابداً لكرامة الغنى ولا لهوان الفقير عليه، بل وجعل أقرب الناس إليه أحسنهم تقوى، وأكثرهم خيراً.

N قُلْ إنما يُوحَى إِلَيّ إنما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ M

N يَا ايّها النّاسُ إنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّه ِ أَتقاكُمْ إنّ اللّه َ عَلِيمٌ خَبِيرٌM

وهكذا حين ترتفع نظرة الإنسان إلى نفسه فوق مستوى الماديات ترتفع نظرته إلى الناس بذات المستوى فترتفع حواجز اللون والطبقية والعنصرية والإقليم.

وتسود الإنسانية علاقات جديدة مستمدة من روح الإيمان باللّه والتسليم له وحده، من دون الشركاء.

في سيرة إبراهيم التي يقصها القران الحكيم نجد هذا الارتباط الوثيق بين نظرة الإنسان إلى نفسه كعبد كريم لله وحده وبين نظرته إلى الآخرين بنفس المنظار، يقول القرآن الحكيم:

N أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّه ِ مَا لا َ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا َ يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّه ِ أَفَلا َ تَعْقِلُونَ M

N وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلا ّ ً جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إليهم فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصّلا َ ة ِ وَإِيتَاءَ الزّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَM (21 - 67 - 72).

فعل الخيرات وإيتاء الزكاة جاء في هذه الآيات نتيجة للإيمان الخالص ب اللّه وحده وذلك لطبيعة الرؤية إلى النفس التي تشترك بين النظر إلى الذات و النظر إلى الآخرين.

فانطلاقاً من هذه الرؤية تصبح اعمال الإنسان خيرة وعلاقاته بالأشياء سليمة وبناءة.

لا... لأن الأشياء من حوله تصبح مقدسة أو ذات قيمة نهائية، كما تتصور الفلسفات الصوفية المتوغلة فى التجريد والمثالية إنما لكونه كإنسان ذى قيمة وذى مقام كريم، وماذا تنتظر ان تفعل لو كنت انت عظيماً وكبيراً اولست سوف تتجنب الطيش والسفه، وتبتعد عن الإسراف والترف، وتفارق الرذيلة والجريمة ؟.

حين تتبدل رؤية الإنسان إلى نفسه من نظرة تصورها دابة همها علفها إلى إنسان كريم فضله اللّه على كثير ممّا خلق تفضيلا ً ، وحين تتبدل الرؤية فسوف تحدث تحولات كثيرة فى سلوكه وتصرفاته جميعاً ولا ريب ان علاقاته مع الأشخاص والأشياء والأعمال اهم معقل تؤثر فيه النظرة الجديدة، ذلك لأنه قد كشف علم النفس الحديث، ان الجريمة والطيش في التصرفات واللاالتزام ياتى نتيجة مركب النقص الذى يجعل صاحبه يشعر بالذلة فيقترف الجرائم بلا هوادة، ويرتكب الأخطاء بدون تورع.

ولكن لم يكشف لنا علم النفس عن العلاج الجذري لهذه النظرة الدونية إلى النفس وكان الأفضل لعلم النفس ان ينسحب لياتى الإسلام فيكرم الإنسان عن نفسه بإعطائه رؤية واقعية سليمة عن نفسه فإذا به يرتفع فطرياً عن الجرائم و الأخطاء.

ما هي هذه الرؤية؟.

هي الفكرة التي توحي بها الآية:

N وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ M

N فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا ً M 70 - 17.

N هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأرض جَمِيعاً M29 - 2.

N أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللّه َ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرض M20 - 31.

وعلماء التربية اجهدوا انفسهم فى سبيل إعطاء الأشخاص والأشياء صبغة من القيمة والكرامة لكي يحترمها الفرد، فيرتبط بها بعلاقات خيرة.

وكان سعيهم فى ذلك مشكوراً إلا أنه كان سعياً مبتوراً لم يثمر. ولم يغير من سلوك الإنسان شيئاً يذكر.

فنسبة الجرائم فى تصاعد مستمر. والمخدرات الروحية تزلزل بنية المجتمعات وتهدر مكاسب الحضارة الحديثة والعلاقات البشرية لم تزل علا قات مادية بحتة.

اوليس يكفي كل ذلك دليلا ً على فشل التربية الحديثة عن تزكية الإنسان،

وتوجيهه؟. ذلك لأن الأساليب التربوية عاجزة، لأنها نابعة من نظرة خاطئة إلى الإنسان على انه مجرد حيوان، وشانه شان ما على هذا الكوكب، من احياء أخرى.

والسؤال هو انه لم يات ذلك الحين الذي يحس الإنسان بفشل اساليبه وضرورة العودة إلى الوجهة المثلى.

ألم يأن للعالم أن يفكر قليلا ً في واقعه.. ويعود إلى الإسلام الذي يفك العقدة البشرية في التربية الاجتماعية انطلاقاً من الإنسان ذاته، وبالذات انطلا قاً من رؤيته إلى نفسه وحين تطهر رؤية الإنسان إلى النفس من التشويش وتصفى رؤيته إلى كل شيء من حوله يصبغ عليها الاحترام والقيمة التي يشعر هو بها، لننظر إلى القران كيف يوضح لنا الرؤية حين يقص علينا القران قصة ا لإنسان الأول ادم يتحدث عن طبيعة هذه الرؤية ويبين ان كل شيء في العالم يديره ملك كريم. حين تخضع الملائكة لأحد، فهذا يعنى أن الخليقة كلها قد خضعت له واستسلمت لعظمته.

وعندما خلق ادم من طين لم يامر ملائكته بالسجود عليه، لانه طين، و الطين من ماء هذا الكوكب ومن ترابه وهو بطبيعته خاضع لعناصر الكون، بل إنما أمر بذلك حين زود الإنسان بالروح.

N فإذا سَوّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ المَلا ئِ كَ ةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إلا ّ إبليس أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السّاجِدِينَ M 31 - 32 - 15.

فحين انبعثت روح من اللّه في كيان الإنسان ارتفع الإنسان وسجد له كل شيء إذ انّ سجود الملائكة يعني استسلام كل عناصر الكون للإنسان ليس با لطبع لجسد الإنسان..انما لروحه لعقله وإرادته.

هذه النظرة العالية للإنسان متصل بروح من اللّه، يجعل الملائكة يسجدون له.

وبالتالي يجعل كل شيء أقل من قيمته فهو عظيم وذو مقام كريم.

لا رؤية لا شيء:

وحينئذٍ تصبح علاقات الإنسان وسلوكه منسجماً مع هذه الرؤية الصافية إلى نفسه والنابعة من الإيمان بربه ومن العلاقة السليمة التي يوفرها هذا الإ يمان بينه وبين الأشياء، اما بدون هذا الإيمان فانه يملأ قلبه فراغ كبير فراغ في النفس وفراغ في السلوك وفراغ في الاجتماع، فراغ في كل شيء وماذا ينتظر الفرد من الفراغ؟.

في البداية يصبح كل شيء من حوله بلا هدف بلا معنى بلا مبرر حتى انّ الحياة ذاتها تفقد ضرورتها عنده، إذ انها تنقلب إلى قشرة ليس فيها لب، إلى قوقعة في طرف البحر، فيقوم بسحقها بالثورة عليها، وتتخذ هذه الثورة عدة مظاهر.

حينا تظهر بشكل الجريمة وطوراً في ظاهرة الانتحار، وفي اكثر الأحيان

تنفجر بشكل حروب ضارية ملعونة.

وكل ذلك نابع من عين واحدة هي النفس التي تعيش الفراغ، من هنا نرى ان الجريمة تنتشر في العالم بشكل فظيع، وتتصاعد النسبة المئوية من سنة لأ خرى.

لماذا؟.

لأن الإنسان لم يعد متمسكاً بقيمه فلا يعرف قيمة لأخيه الإنسان ولا لماله و لا لشرفه ولا لدمه، إذا يقوم بالجريمة.

وبالرغم من ان نهاية الجريمة معروفة لدي المجرم تماماً، فقد تكون النهاية حبساً او تعذيباً او إعداماً ولكنها نهاية لا تخوف مجرمي القرن العشرين ولسبب بسيط هو ان هؤلاء المجرمين لا يبالون بانفسهم إنهم يستهينون بمستقبل حياتهم، في أعينهم حقيرة لا تستحق الاهتمام فلماذا يلتزمون بالنظم والتعاليـ م؟.

وما الذي يردعهم عن ارتكاب أبشع الجرائم؟.

إن المجرم يشعر بلذة كبيرة حيث يقدم على سحق حياة الآخرين لأنه يري استمرار هذه الحياة بلا مبرر بل ويرى استمرار حياته هو بلا مبرر فبضربة واحدة يستطيع القضاء على كلتا الحياتين، فريسته سيذهب إلى المقبرة ويذهب هو إلى السجن وتمضي هذه الحياة التي لا معنى لها ولا هدف ولا مبرر.

لماذا كل ذلك وإلى متى؟ سؤالان خطيران ولكن السؤال الأخطر منهما، هو لماذا لا يفكر الإنسان فى هذين السؤالين الخطيرين ولا يجيب عنهما إجابة شجاعة حازمة.

فى الإجابة على هذين السؤالين يقول بول نيلش الأستاذ فى جامعة هارفارد في كتاب مغامرات العقل ص92:

حقاً إن فقدان بعد العمق هذا إنما يعود إلى علاقة الإنسان بالكون وبنفسه فى هذا العصر الذى اصبحت فيه الطبية تخضع علمياً وتقنياً لسيطرة الإنسان ففي هذه الفترة استبدل الإنسان بالحياة ذات بعد العمق حياة ذات بعد افقي ففي مجتمعنا الصناعي الذي نكون نحن جزء من عند القوى المحركة فيه افقياً لا عمودياً .

والإنسان يحول كل ما يواجهه إلى اداة وفى عمله هذا يصبح هو ذاته اداة ولكن لو سئل لمن هذه الأداة التى تحول إليها فإن الجواب على هذا غير موجود.

وعندما يتخلى الإنسان بهذه الطريقة عن بعد العمق ويحرم منه ومن الرموز التي تدلل عليه فإنّه يصبح عندئذٍ جزءاً من المستوى الأفقي إنه يفقد ذاته ويصبح شيئاً من مجموعة الأشياء.

إن مشكلة العصر:هو الفراغ العقائدي الذى يعنى غياب الدين عن الساحة ولأ ن الناس اصبحوا جزءاً من المادة جزءاً من الأفق الذي ينتشرون عبره فإنهم لا

يستطيعون التفكير العميق التفكير في جذر مشاكلهم في ديناميت انهيارهم لأ ن الإنسان الغائب عن الحياة لا يفكر في مشاكله، إن هذا يفسر لنا السبب في أن الإنسان لماذا لا يفكر حتى يوجه إلى نفسه السؤالين الخطيرين:

لماذا كل ذلك الفساد؟

وإلى متى يبقى؟..

وكلمة أخيرة

حين ننادي بالعودة إلى الذخائر الروحية، نريد الاستمرار في حل مشاكلنا الراهنة هذه المشاكل التى طغت وكادت تستوعب حضارتنا وكيانّنا ومستقبلنا ولم تع لنا ولا بصيصاً من الرجاء، إلا فى ذلك الرجاء الآتى من نافذة السماء ومن روح الله التي نفخها في أبينا آدم .

البناء الحضاري بين لا ونعم

لا كلمة سريعة التلفظ سهلة الاختيار.
وهي مؤلفة من حرفين فقط (ل،أ).
ولكنها في الوقت نفسه خشبة ناشرة في عجلة الحياة.
لا..
جربتها مرة.. وكانت لي معها قصة
جلست ذات يوم لتاليف كتاب فى موضوع معين جمعت المصادر ركزت فكرى للكتابة، فإذا بصديق يدخل علىّ رحبت به قال: ماذا تكتب؟ قلت موضوع كذا، فلم يتأخر أن قال:
لا
تكتب في هذا الموضوع.
لم يقل لماذا ولم اساله ولم اعرف دواعيه، ولكن اعرف انني بعد ان غادر حاولت ان اعود إلى الكتابة فلام اقدر إذ كنت اشعر وكان يداً خفية تمسك بمعصمى تقول لى: لا تكتب وإلى الآن لم أتغلب على نفسى، ولم أكتب فى ذلك الموضوع شيئاً.
وبعكس كلمة لا بالضبط كلمة نعم.
وكانت لي معها أيضاً قصة طريفة:
كنت جالساً مع الأصدقاء عشية فوز فريق المنتخب الكويتى بكاس الخليج قلت لهم: فى عقيدتى أن التشجيع كان أفضل عامل مساعد للفوز، عندها لا حظنا طفلاً فى الربيع الخامس من عمره يحاول التسلق على عمود قلت للأ صدقاء دعنا نجرب تاثير التشجيع فى الإنسان، وهو هنا طفل فى الخامسة ولكن الرغبات واحدة بين مختلف الأعمار بالرغم من التنوع فى التعبير عنها و الوسيلة المتبعة لإشباعها قال الأصدقاء تفضل جرب، فنهضت بالطفل اشجعه قائلاً أحسنت أي..رائع بني.. بعد
وإذا بنا نرى وكأنه زود بطاقة إضافية وأخذ يتسلق العمود ببراعة.. ثم نزل وأمرناه أن يتسلق مرة ثانية فلم يفلح لأنّنا لم نشجعه.
تلك كانت كلمة.. لا.. وهذه كلمة..نعم.. ويكمن بينهما سر الحضارة الإ نسانية الذى يبدو غامضاً عند الكثيرين بالرغم من توفر دراسات مسهبة تناولت نشأة الحضارات والخط البياني لتقدمها أو انهيارها.

وبعيداً عن الجدل الفلسفى الواسع الذى احتد حول هذا الموضوع (سر الحضارة) والذي تحول إلى علم حديث موضوعه الحضارة البشرية.
اقول بعيداً عن هذا العلم وذلك الجدل يبدو ان سر الحضارة يكمن فى الهوة بين كلمة نعم ولا.
ذلك ان الحضارة ببساطة هى العلاقات البناءة البداوة او الجاهلية هى خلا فها وهي تتمثل في:
لا علاقات، فبدونها ليست هناك حضارة فالبدو الرحل الذين يتتبعون الماء و الخصب، لا يمكن ان تنبت لديهم حضارة، إذ انّ الحضارة لا تحمل على ظهر الجمال، إنها بحاجة إلى أرض، وإلى استقرار طائفة عليها.
وإذا كانت علاقات ولكن لم تكن بناءه فايضاً لا حضارة كمثل اهل مكة فى الجاهلية كانوا متواجدين فى ارض واحدة وكانت تحكمهم علاقات ولكن كانت علاقتهم سلبية هدامة أكثر من ان تكون إيجابية وبناءة فلذلك لم تكن لهم حضارة.
وليس المهم كمية الأفراد البشر الذين تتكون بينهم علاقات بناءة لكى نحصل على حضارة إنما المهم كيفية هذه العلاقات فترتبط مدى اندفاع الحضارة وصلابة تماسكها وقدرته على تحدى سائر الحضارة ترتبط بنسب الإ يجابية فى العلاقات التى تخلقها الرؤية الإنسانية السلمية والقيم الفوق مادية الخلاقة بهذا نعرف سر الحضارات، ولنضرب مثلا ً لذلك:الحضارة الإسلامية متى ابتدأت.
بعض المؤرخين يضعون إصبعهم على عهد هارون الرشيد ويقولون: من هنا بدأت حضارة المسلمين.
ويبرهنون على قولهم بسعة الرقعة الأرضية التى شملتها إمبراطورية الخلا فة الإسلامية وبعدد الجماعات البشرية التى ابتعلتهم سلطة العباسيين ووزرائهم البرامكة.
ويستشهدون أحياناً بقوله هارون للسحاب شرقي غربي فخراجك إليّ.
ولكن هذا الراى ساذج إذ كانت خلافة العباسيين نتيجة تسطح الحضارة الإ سلامية او بتعبير اخر تحول التكوين الذاتى إلى مرحلة الإنتاج الخارجى وإنما ابتدات نقطة الانطلاق الأولى فى الحضارة الأولى فى اللحظة التى اخى الرسول X بين المهاجرين والأنصار حيث قضى بذلك على كل الفوارق العرقية والإقليمية والطبقية والثقافية، وبنى علاقات جديدة بين المجموعة البشرية التي التفت حول الدين الجديد.
وكذلك وكانت وتكون قاعدة الانطلاق فى اية حضارة هى العلاقات البناءة التي تربط الإنسان بالإنسان.
وهذه هى الفكرة التى يعبر عنها القرآن الحكيم سبحانه (وبالتعاون على البر والتقوى).
إذ ان التعاون هى العلاقة التى تربط الفرد بالفرد هذه العلاقة تكون على

أسس بناءة عبر عنها القرآن (بكلمتي البر والتقوى).
والبر هو القيام بالمعروف بينما التقوى هي التورع عن المنكر.
والسؤال متى نستطيع ان نكو ّن علاقة إيجابية وبناءة بين الإنسان وا لإنسان.
فِي الإجابة نعود إلى حديثنا فِي بداية الموضوع وهو ان الخطوة الأولى إلى هذه العلاقة معرفة دور كلمتي (لا و نعم) في الحياة البشرية.
ذلك إن (لا..نعم) تعبر عن عمل معين وسلوك معين (لا) تعبير عمل عن سلبي بينما (نعم) تعبير عن عمل إيجابي.
وكما يقول أحد كبار علماء العلاقات الاجتماعية:
إن وراء كل كلمة: (لا) ركام عظيم من السلبية والهروب هذا الركام يعبر عن نفسه بكلمة: لا.
وكذلك نعم: ليست كلمة فارغة تدور فى الفضاء إنها هى الأخرى تعبير عن إيجابية عملية.
وسواء الإيجابية او السلبية تاتى كنتيجة للرؤية العامة التى ينظر الإنسان من خلالها إلى الحياة، وإلى أحياء ومثل ذلك كمن زود عينه بنظارة سوداء لا يسعه أن يرى الأشياء من حوله إلا قاتمة.
بينما الذي يتمتع ببصيرة سليمة يمكنه أن يرى كل شيء كما هو بلا تغيير.
إذاً:هناك بعد أن للحضارة وبعد التعبير اللفظى (الذى يدور بين كلمتى لا نعم)، وبعد الرؤية الشاملة.
دعنا نتحدث عن هذين البعدين بتفصيل أكثر.
الكلمة الحسنة البعد الأول:
فِي بريطانيا اجرت مجلة شهيرة مسابقة عن افضل ما ينمِي الثقافة فِي البِ لاد؟.
أو تدري من فاز؟.
فازت كاتبة كتبت كلمة واحدة وارسلتها إلى المجلة تلك كانت كلمة التشجيع.
والسبب واضح وهو أن هذه الكلمة تعبر عن نعم.
نعم تجعلك تحس ان كل شيء من حولك يساعدك فى عملك، وإذا اصطدمت بعقبة فعن طريق هذا الإحساس يمكنك إن تتجاوزها بسهولة.
ولقد أوحى الدين الإسلامي للناس بالتشجيع، فجاء في الآية الكريمة:
N كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ اَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ (24) تُؤْتِى اُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا M
فالكلمة الطيبة هى التى توجه نحو الفضيلة التى هى بدورها طريق التقدم

الحضاري.
والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مثل اخر من امر الإسلام بالتشجيع على الخير ويقول الله عنهما:
N وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِM
وسواء الأمر بالمعروف او النهى عن المنكر فهما فى النتيجة يدعوان إلى غاية واحدة هي تشجيع عمل الخير في المجتمع.
فإذا اردت أن تساهم فى بناء حضارة امتك فابدا من اليوم بتشجيع عمل الخير أنى وجدته وعود نفسك بكلمة نعم أبداً.
وتذكر قول الشاعر العربي الفرزدق في وصف الإمام زين العابدين 8 :

لولا التشهد كانت لاؤه نعم	ما قال لا قط إلا فى تشهده

هل تحب أن تتبع زين العابدين8 إذا قال نعم للحياة.

حوار الكلمة والواقع:

بين الكلمة والواقع حوار لا يمكن تجاهله..اذا كانت الكلمة حسنة، جاء الواقع حسناً وبالعكس إذا جاءت الكلمة خبيثة، كان الواقع خبيثاً وأصبحت:
N كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأرض مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍM.
والقول الثابت، دليل الموقف الثابت، ومن لا قول له لا موقف له.. وهما معاً آية الإيمان الخير الصادق: N يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِM
وهكذا انتفاع الكلمة والواقع فى علاقة وثيقة تبدو انها وراء المساهمة العظيمة والتي تقوم بها الكلمة في البناء الحضاري.
بحيث لو أردت حضارة كان لا بد لك ان تردد الكلمة الطيبة وإلا فإن الطريقة يهدى بك إلى الجاهلية، وساءت مصيراً، والكلمة تقسم الناس نوعان فمن الناس من انتكس فى الحياة عيونه إلى الخلف ولسانه ملطخ بالسوء، فلا يرى إلا شراً ولا يقول إلا خبيثاً.
إن هذه الفئة من الناس فيروس المرض فى جسد المجتمع يعرض علاقاتهم للانهيار.
ومن الناس من يبقى متطلعاً إلى الإمام عيونه تبحث عن الحقول ولسانه يغنى بذكر البراعم ومثله ومثل صاحبه الأول إن هذا كالنحل، يفتش عن الزهور فيلتقطها ويحولها إلى عسل سائغ.
بينما صاحبه كالذباب يبحث عن الأوساخ ويحمل على لسانه الميكروبات و السؤال لماذا يفعل هكذا؟.
والجواب: لأن نفسه منتكسة إلى الوراء إلى الجاهلية فإنّه يبحث عن صراع فيعذبه بسجيته وعقده ويصب عليناره زيتاً جديداً وبترولا ً.

فإذا راى صديقين يمشيان على طريق التعاون، والبر والتقوى لم يعجبه الوضع، واخذ يمشى بينه بنميمة يلفق كذبة من هذا على ذاك ومن ذاك على هذا وكما يفعل سرطان الدم يفصل بين الكريات البيض والحمر ويفصل بين الرجل وصديقه.

وربنا الحكيم يخبرنا عن نفسية المشاء بين الأحباب بالنميمة يخبرنا بصدق فيقول: N وَلا َتُطِعْ كُلَّ حَلا َف ٍمَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ M 68 - 10 - 14.

إنه يحلف كثيراً، لأنه مهين يشعر بعقدة نفسية، ولا يكف عن السخرية بـ الناس من ورائهم فهم هماز ويمشى بين الناس بالنميمة، مثل هذا الرجل يمنع الخير عن الناس ويعتدي على حرماتهم.

إن هذا الرجل يخشى عن مواجهة الصراع بلا يقف بعيداً عن التل يشاهد حرب الصديق مع صديقه، يضحك على ذقنيهما وتمتلئ نفسه الخبيثة إعجاباً بما حققته من إنجاز.

الا تريد مثلا ً لهذا الرجل؟ هو المستعمر فى بلادنا قام احدهم مرة بهذا الدور واعتبره مثالا ً لطريقة الاستعمار في العمل على تفرقة الشعوب.

كيف كانت قصة ذلك؟.

على جانبى زقاق ضيق كان يجلس مسكينان مكفوفان تربطهما من قديم صداقة المسكنة وزمالة التسول.

قال لصاحبه:هل تحب أن ترى كيف نفرق بينكم ونضحك على ذقونكم، قال افعل ما اظنك تقدر، قال إذا انتظرنى بعيداً، ثم وقف بين الرجلين الفقيرين ونادى خذ هذه عشرة دنانير نصفهما لك ونصفها لصديقك.

وبالرغم من ان كلا الفقيرين مدا ايديهما فإنه لم يعط اياً منهما شيئاً بل انسل من بينهما إلى زاوية.

مرت لحظة هذا الفقيه يزعم بان صديقه استلم العشرة دنانير، وهو يعتقد العكس.

قال أحدهما للآخر:اين نصيبى؟ فقال الآخر الله يلعنك تأخذ الدنانير ثم تريد مني نصيبك، بل أعطني نصيبي وابتدأ العراك، وأخذ المستعمر يضحك.

هذا الأسلوب الداني، بعض ما يتبعه الاستعمار فى بلادنا ولكنه ليس الوحيد يعمل ذلك، بل هنالك السلبيون والفاشلون الذين نذروا انفسهم للتفرقة المقتية، وهم يساهمون بقسط وافر مع المستعمر في تفكيك عرى المجتمع السليم.

إن الله ينهي بشدة عن هذه الصفة فيقول:

N لا َيُحِبُّ اللّه ُ الْجَهْرَ بِالسُّوء مِنَ الْقَوْلِ إلا ّ َمَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللّه ُ سَمِيعاً عَلِيماً M4 - 148.

فالجهر بالسوء من القول، لا يحبه اللّه باي اسلوب كان، لأنه ينشر السوء فيلوث البيئة الاجتماعية.

أما النبىx فيقول عن ذلك والذى يسميه بالغيبة كلاماً حاسماً وشديداً، المؤمن حرام على المؤمن أن يظلمه ويخذله أو يغتابه أو يدفعه دفعة [1].

ويعتبر النبىx الغيبة نوعاً من الحدث الذى يبطل ثواب الأعمال الصالحات فيقولx:

الجلوس فى المسجد انتظاراً للصلاة عبادة ما لم يحدث، قيل يا رسول الله وما يحدث؟ قال:الاغتياب .

والسؤال لماذا هذا الموقف مع صاحب الغيبة.

والجواب:ان الإنسان بطبيعته مقلد أكثر من مبدع وأيسر شىء على الفرد أن يتخذ قدوة فيتبعها.

والمشكلة ليست فى هذه الطبيعة بقدر ما هى فى كيفية اختيار القدوة؟ هل تدرى من الذى تقتدى به فى حياتك؟ ليس العظماء والصديقين بقدر ما هو الغالبية الساحقة ممن حولك هؤلاء الذين يمتلئ بهم الشارع والسوق.

إنك تفضل ان تتبع سلوك الناس من حولك على ان تبحث فى ضمير التاريخ عن قدوة صالحة تتبعها.

فإذا عرفت ان الناس كلهم اخيار، اجتهدت ان تكون مثلهم خيراً، اما إذا علمت العكس فمن الصعب عليك تحدي الناس.

ولكن من اين تعرف الناس؟ من احاديث من حولك، إذا نقلوا إليك ما فى الناس من خير قلدتهم فى الخير وإن لم يقصوا عليك إلا سوء ما فيهم فما عساك أن تفعل، أفلست تناجي نفسك وتقول: حشر مع الناس عيد؟.

ولهذا الأمر اعتبر الإسلام نقل أنباء الجريمة إشاعة للفاحشة وقال عنها: N إِنّ الّذِينَ يُحِبُونَ اَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِى الّذِينَ امَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ فِى الدُنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللّه ُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا َ تَعْلَمُونَ M 24 - 20.

إن نشر الجانب السلبي من حياة الناس ليس إشاعة للفاحشة فقط.

بل هو يعتبر ايضاً نقضاً لميثاق الأخوة التى تربطك باخوتك الذى تنتشر عنهم الأنباء السيئة.

اولست اخاً فى الدين مع الناس التى تغتابهم، وهل تحب ان تقتطع من لحم أخيك قطعة؟ إذا لماذا تحب أن تنال من شخصيته في غيبته وأما الآخرين؟.

عن هذه الصفة غير الإنسانية يقول الله في القرآن الحكيم:

N وَلا َ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً اَيُحِبُ اَحَدُكُمْ اَنْ يَاكُلَ لَحْمَ اَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتقُوا اللّه َ إِنّ اللّه َ تَوّابٌ رَحِيمٌM 49 - 12.

والتوجيهات الدينية، عنيفة مع المغتابين بحيث:

يدهشنا حقاً، ويدعنا نتساءل عن السبب الكامن وراء هذا العنف، ولكن هل

---

(1) الوسائل ج 5ص597.

تعرف كم هو صعب التحفظ عن نقل الأخبار السيئة، حاول ان تجرب نفسك يوماً واحداً أحضر في الأندية وتجنب الغيبة هل تقدر؟.

إذاً كنت تقدر على ذلك فاعرف بأنك تتمتع بسلامة النفس وإيجابية الرؤية.

بينما اكثر الناس لو اكتشفوا انفسهم مبتلون بالتشويش فى النظر والسلبية في الرؤية.

والسبب ان الإنسان حين يقيم نفسه، يقيمها على اساس واقعى يضع في حسابه نواقصه ونواقصه وبالتالى اخطائه وخطيئاته وإذا طالبه احد بالمثالية والعصمة قال: سبحان من لا يخطئ سبحان من لا يظلم.

ولكن حين يقيم الآخرين يتوقع منهم المثالية الكاملة ويصطدم باى خطا او خطيئة وكأنهما ناشزان عن طبيعة الناس الذي تصورهم معصومين.

لا، ليس هذا من المروءة ان تطالب بما لا ترضى ان يطالبك به الناس، وتنتظر منهم العصمة ولكن تندهش إذا طالبوك بمثلها، لماذا؟.

جاء في حديث حكيم:

عجبت ممن اشتغل بعيوب الناس ونسى عيوب نفسه ، ولقد جسد تمثال قديم هذه الكلمة وذلك إنه فى حضارة اليونان وفى إحدى المعابد وبالذات كانوا قد نصبوا تمثالا ً كل شيء فيه عادي إلا عيناه كانتا مقلوبتان.

اما الحكمة فى ذلك فإنها كانت تشير إلى ضرورة اشتغال الفرد بنفسه ومحاولة إصلاحها قبل إن ستعد لعيوب الناس.

إن الغيبة تدل على ان صاحبها اشتغل بالناس واشغل الناس عن انفسهم بالآ خرين، ولذلك كانت خطيئة كبرى.

والمجتمع الذى اشغل نفسه بتتبع عيوب بعضهم، لا يمكنه ان يكون مجتمعاً قديراً ولا مجتمعاً نشيطاً، وبالتالي لا يمكنه أن يبني حضارة.

والسبب ان عيوب ابناء هذا المجتمع لا تلعب دوراً إيجابياً إنها تراقب من لا يمكنها إصلاحهم وأهم الآخرون بينما تدع من يجب إصلاحهم وهم أنفسهم.

فى هذا المجتمع يستعد الناس لنشر السلبيات والتوسع فيها فإذا بالحبة تصبح بيدراً والظنة تصبح حقيقة وتغشى عيون الناس حجب من السلبية السوداء.

كيف يكون ذلك؟.

إذا جلست في بعض الأندية بإمكانك أن تعرف ذلك بوضوح كامل:

يبدا المجتمع عادة باغتياب هذا وذاك، فيحصون على الناس عيوبهم الجديدة والقديمة وتبقى لديهم فضلة من الوقت، وكالنار تبحث عن حطام.

فإذا لم تجد احرقت نفسها كذلك السلبيون إذا لم يجدوا امامهم حقائق لفقوا تهماً وروجوها.

والتهم بالطبع لا تاتى من العدم بل إن لها مواد اولية، اهما الظنة، والتفسير

السلبي للأحداث، وأخيراً أرضية النفس المنافقه الخصبة.
وتبدأ مرحلة الإشاعة..
والإشاعة كموج البحر، يدفع بعضها بعضاً، حتى تتوسع فى حلقات وتقيد ضمير المجتمع بألف غل وغل.
ولكن لو لم تكن ارضية المجتمع مستعدة لتقبل امواج لإشاعة، لو كان كل منهم كصخرة الشاطئ تقاوم الأمواج لو قال كل فرد في نفسه لا علم لي بذلك وقد تمثل قول الله سبحانه: Nأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَM.
لو كان كل ذلك، إذاً، لماتت الإشاعة وهى فى المهد، ولكن الأرضية الموبوءة هي التي تساعد على تكاثر ميكروب الإشاعة في جسم المجتمع.
كانت هذه الأرضية موجودة فى عهد الرسول x وفيما بين المنافقين بالذات ، وكانت لها قصة نقلها القرآن وأعطى فيها حكماً فاصلا ً.
مرة، لفق أحد المنافقين تهمة الزنا على بعض زوجات الرسولx.
ولم تكن المشكلة في وجود هذه التهمة، بل فى انتشارها الفظيع فى الأ وساط المنافقه والجاهلة ونزل القران ليعطى الأمة رؤية واضحة فى مثل هذه المشاكل، جاء القرآن يقول:
N إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِ ِ فْ كِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا َ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِ ِ ثْ ِ مِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌM.
ثم بين القران الأسلوب الذى كان مفروضاً على المسلمين اتباعه فى مواجهة الشائعات الكاذبة يقول الله تعالى:
N لَوْلا َ إِذ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12) لَوْلا َ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللّه ِ هُمُ الْكَاذِبُونَM.
إن شائعة تتناول جريمة يجب ان نعود إلى قوانين القضاء، لنخرج من بين السنة الجماهير..إلى إطارها الصحيح فى القضاء حيث يطالب كل قوال بأربعة شهداء (فى بعض الجرائم) أو شاهدين (فى بعضها الآخر)، وهناك فقط يتبين مدى صحة الإشاعة أو بطلانها.
ولماذا وضع الجهاز القضائى اليس لكى يقوم بالفضل فى الشائعات؟ فلماذا ندع كل الناس يساهمون فى القضاء ما داموا غير اخصائيين فيه، هل نحن نستفتى الجماهير فى الهندسة، حتى ندعهم يساهمون فى إلصاق تهمة باحد او نفيها عنه؟.
إذاً، في كل شائعة، لابدّ من مراجعة القضاء ليقول فيها كلمته الحاسمة.
ويتابع القرآن توجيهه ليقول:
N وَلَوْلا َ فَضْلُ اللّه ِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا

أفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إذ تلَقّوْنَهُ بِألسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيّناً وَهُوَ عِنْدَ اللّه ِ عَظِيمٌ M.

ليست القضية بهذه البساطة ولا بهذا الهون، لا إنها عظيمة عند اللّه إن هذا اللسان الذى يتلقى التهمة بسهولة وينشرها على حائط المجتمع بدون علم وبدون يقين إن هذا اللسان يتحمل مسؤولية كبيرة، فعن طريقه ينتشر فى الناس حب الخير أو الرغبة في الفاحشة، ثم يقول اللّه بكل صراحة:

N وَلَوْلا ً إذ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أنْ نتَكلمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمَ اللّه ُ أنْ تعُودُوا لِمِثْلِهِ أبَداً إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ M سورة النور.

وانتهت الشائعة الكاذبة التى لفقت ضد زوجة الرسول بنفى التهمة انتهت بحكم القضاء مدعماً بحجة قاطعة إذ تبين أن الرجل المنسوب إليه الزنا كان (عنيناً).

ولكن هل انتهى الدرس الذى يجب على المسلمين استيعابه من هذه القصة التاريخية؟.

بالتي هي أحسن:

قام الملك من نومه فزعاً وأحضر المعبرين، قال لأحدهم:رأيت فى الحلم وكأن أسناني سقطت جميعاً، فهل تستطيع أن تفسر رؤياي؟.

أجب المعبر:اطال عمر مولاي لو صحت رؤياك فإن جميع أقاربك يموتون.

قبل إن يتم المعبر كلامه قال الملك لمن حوله خذوه واضربوا عنقه.

وجىء بالمعبر الثانى، وقص الملك عليه رؤياه وحذره من التعبير السىء، بيد أن المعبر قال: طول اللّه عمر الملك لست أعرف تعبيراً يختلف عن تعبير صاحبي، اشتد غضب الملك وأمر به إلى السجن.

واحضروا المعبر الثالث وبعد ان حذره الملك قص رؤياه فتبسم المعبر وقال نعمت الرؤيا هذه فهي تعنى ان عمرك سيكون اطول من عمر جميع اقاربك فتبسم الملك راضياً وأمر بإكرامه.

ماذا اختلف عند المعبرين حتى ادى بعضهم إلى العذاب وبالبعض الآخر إلى الإكرام؟.

بالطبع لا شيء سوى القول بالتي هي أحسن.

فكلهم عبر الرؤيا بموت اقارب الملك ولكن طريقة البيان اختلفت فالأولان قا لا: يموت الأقارب وقال الأخير يعيش الملك بعد موت الأقارب، وكان الفرق كبيراً لأن التعبير كان مختلفاً.

من هنا قال سبحانه: N وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا الّتِى هِىَ أحْسَنُ إنّ الشّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ M.

ما هى الكلمة (التى هى أحس)؟ لا بد أن نبحث عنها طويلا ً حتى نجدها فقد تكون كلمتان حسنتان ولكن لا يمكن ان نكتفى بذلك إنما يجب ان نفتش

عن الأحسن منهما.

والغاية الاجتماعية التي يتوخاها القران الكريم من هذا الأمر الرشيد هو المحافظة على وحدة المجتمع وتكامله وتعاونه، فهو يدري ان الشيطان ينزع بينهم.

فالشيطان هذا المخلوق الخفي الذي نذر نفسه للتخريب يستغل الكلمة البذيئة لنستطيبها ويصل بها إلى قلوب الناس فيغطيها بطبقات من السلبية، و الزيغ.

فمثلا ً لا احد يغضب عليك لو قلت له إن الصدق صفة جميلة، والإحسان يزيد في الحب، والنظافة من الإيمان، لا احد يغضب عليك بالرغم من أنك قد تؤثر فيهم بصورة غير مباشرة وتدعوهم بكلامك إلى الصدق والإحسان و النظافة.

بينما لو غيرت من كلماتك، وامرتهم مباشرة بالصدق والإحسان والنظافة فربما تثير فيهم الغضب، ويقولون أو تزعم إنا، نكذب أو نعتدى اولا نعمل بـ النظافة؟.

من هنا كانت اوامر اللّه لعباده صريحة حاسمة فيما يخص استعمال اجمل الكلمات حتى في مجال الدعوة إلى الإسلام يقول اللّه: Nادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلهُمْ بِالتِي هِيَ اَحْسَنُM

لماذا؟ لأن إثارة الناس لا تخدم مصلحة الدين ولا تزيد في عدد المؤمنين بل تدفع المجتمع إلى رحاب الحساسية التي تحجب التقييم العقلي الصحيح.

واخطر من ذلك إثارة الناس تحول الصراع حول المبادئ إلى صراع حول الأ شخاص، وتجعل الكفار اعداء باشخاصهم اكثر من ان يكونوا اعداء بافعالهم وصفاتهم.

وهناك يستحيل هدايتهم أو التأثير الفكري فيهم.

ويضرب لنا القرآن الكريم مثلا ً لطريقة المحاولة مع الناس فيقول: N وَإنّا أو إيّاكُمْ لعَلَى هُدىً أو فِي ضَلا َ ل ٍ مُبِينٍM 24 - 34.

ذلك لأنه حين يكون منطلق الإنسان نحو بنيان الدين الجديد بهذه المرونة، تذوب حساسية الناس تجاه الدين وينجذب المجتمع نفسياً إلى الدين وقبل إن ينجذبوا عقلياً.

إن المشكلة الأساسية التى قد يتورط فيها المتدينون والمصلحون الا جتماعيون هى اعتمادهم المفرط على (صحة مبادئهم) بضرورة التزام الناس بها ممّا لا يدعهم يفكرون في الأساليب كثيراً بل يزعمون انه ما دام جوهر الفكرة سليماً وصحيحاً فلا حاجة ولهم بالمظهر الخارجي لها ولكنهم يخطئون خطا كبيراً ذلك لأن الناس الذى يريدون جذبهم يعتنون كثيراً بالمظهر فلا يمكن الاستهانة به.

هذا عن التعبير الحسن، ولكن السؤال من اين ياتى العبير الحسن والجواب من الرؤية السليمة التى هى البعد الثانى للحضارة ذلك لأنه لدى دراسة مستفيضة لتاريخ الحضارة البشرية نصل إلى هذه النتيجة جوهر الحضارة و الفاصل بينها وبين البداوة والجاهلية، ليس سوى واقعية العلاقة الرابطة بين ا لإنسان والإنسان وبنائيتها.

ذلك لأنه منذ اقدم التواريخ التى نعرفها عن الحضارات وحتى اليوم نجد محددات كثيرة ومتنوعة تطرأ على واحدة من الحضارات ولا تطرأ على الثانية دون أن يؤثر ذلك على الحضارة كحضارة.

فلو اتخذنا واحدة من هذه المحددات بصفة عامة للحضارة كحضارة إذا كان علينا ان نحذف اسم الحضارة عن طائفة من الحضارات التى يتفق جميع المؤرخين على أنها كانت حضارات فعلا ً.

فمثلا ً: لا يشك أحد فى أربعة نماذج من الحياة البشرية فى التاريخ أنها كانت ذات حضارة وهى اثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد وبغداد فى القرن التاسع من الميلاد وفلورنسه فى القرن الخامس عشر وباريس فى القرن الثامن عشر.

فما هو القاسم المشترك الذي يحتوي هذه الحضارات الأربع؟.

لا نجد ما يمكن ان يكون قاسماً مشتركاً مثل الواقعية والبنائية فى العلاقات الاجتماعية.

إذاً يمكن ان نعتبر ذا القاسم المشترك هو الجوهر الذى تشترك فيه الحضارات، وعلينا أن نتساءل: من أين تأتي بنائية وواقعية العلاقات؟.

بالتاكيد انها تاتى نتيجة عدة رؤى سليمة تتمسك بها جماعة بشرية فتتكون ظاهرة الحضارة فيهم وهذه الرؤى تعبر عن ذاتها بالسلوك الطيب، والكلمة التى هي أحسن.

والسؤال الجدير حقاً بالبحث هنا، هو:

ما هى الرؤى السلمية التى يجب ان نتمتع بها لكى تكون علاقاتنا واقعية وبناءة؟.

والواقع انه، كما بناء الصرح الشامخ يتم فى مراحل فإن الرؤى هذه ذات مراحل ندرج عبرها حتى نصل إلى النتيجة وهي:

مرحلة التعارف

من هم الناس من حولك، وما هى مستوياتهم ومن انت وما هو مستواك؟، وما هى علاقتك بواحد واحد من الناس؟ وما هى علاقة واحد واحد من الناس بك؟.

لو استطعت الإجابة عن هذه الأسئلة فاعلم باتك نجحت فى المرحلة الأ ولى.

لقد وضع الإمام على بن الحسين رسالة سميت برسالة الحقوق أوضح من

خلالها علاقة الإنسان بكل من تربطه به صلة اجتماعية، وبين ايضاً طبيعة الرؤية الصحيحة فيها وجدير بنا ان نضع هذه الرسالة نصب اعيننا ونعاود عليها صباح مساء.

وإذ ذاك نضمن لأنفسنا رؤية سليمة في تكون العلاقة بالآخرين.

فى ذلك لأن المعرفة الصحيحة اساس السلوك الصحيح واللّه سبحانه لم يهدف من وراء تقسيم الناس إلى شعوب وقبائل إلا أن يتعارفوا فقال:

ولقد ذكر أحد علماء النفس المعاصرين أنه وجد في دراساته المتنوعة:

إن الاهتمام بالناس يبدأ من التعرف عليهم، ويدعم قوله بقصة فيقول:

(سأل خبير فى علم النفس مجرماً قاتلا ً: ماذا عن السيدة زوجة رجل البوليس الذى قتلته؟ إذ لا يكون لها سوى راتب ضئيل من الشرطة وها هى اصبحت ارملة لا زوج لها فيحميها وقد اصبح ابناؤها يتيمين هل فكرت فيها حين أقدمت على جريمتك؟.

فأجاب القاتل: كلا. لتذهب إلى الجحيم فإني لا أعرفها.

نعم لأنه لا يعرفها لم يهتم بها، وكان المرجو لو عرفها الا يقدم على جريمته بحقها.

وكذلك بدات التعاليم الدينية بالترغيب فِى التعارف مع الناس لأنه المنطلق السليم في العلاقة بهم.

ولقد جاء فِى محتوى حديث: عليكم بالتعارف والتواصل وإياكم و التباغض والتدابر .

وفى حديث حكيم جاء هذا التوجيه الرائع: العارف بأهل زمانه لا تهجم عليه الغوائل .

إنك لو عرفت من حولك قيمت نفسك بالنسبة إليهم تقييماً عادلا ً ووضعت كلا ً منهما فِى درجته التِى يستحقها، ومشيت فِى دربك معتمداً على عصا هادية بينما لو (خربطت) فى مراتب الناس تسبب الفوضى فى العلا قات التِى تبنيها معهما فتحرم التافه وترفع الجاهل وتهين الكريم وتستامن الخائن وتصادق العدو وتترك نصيحة الحكيم فتهجم عليك القوافل.

ليس هذا فحسب بل سوف تسبب هذه الفوضى فى انتقام الناس منك، إنهم يعرفون انفسهم ولا يرضون عنك بهذه الفوضى فينتقمون منك وتبدا حلقة الهجر بينك وبين الناس والهجر المضاد والعتاب، ورد، العتاب وتنهار وحدة المجتمع بينما تبقى انت المسؤول الأول لأنك لم تكلف نفسك تعب التعرف عليهم من أول يوم.

وهذا الواقع كما يصح فى الأفراد يصبح فى المجتمعات فلقد اوجز مؤرخ قديم سبب انهيار دولة بنى امية بانهم وضعوا الشريف فى مكان الوضيع، و الوضيع في مكان الشريف.

وكما يبدو ليست هذه الحالة من نصيب حكم بنى امية فقط بل من نصيب

كل الدول والمجتمعات التي انهارت في التاريخ.
والآن إذا احببت النجاح فى علاقاتك حاول ان تعرف طبيعة الناس من حولك لتنهى المرحلة الأولى فى تكوين الرؤية السلمية وتبدا المرحلة الثانية وهي:

مرحلة الإنصاف

ذات مرة وضع أحد الرؤساء شعاراً مرحلياً لبلاده قال فيه:
وطنى دائماً على حق فقلده العمل فى تظاهرة خرجت من اجل دفع الغلاء وزيادة الأجور ولكنهم حرفوا الشعار قليلا ً حتى أصبح هكذا (بطنى دائماً على حق).
وعقدة الحضارات هى بالضبط هذه الشعارات فالوطن يصبح دائماً على حق.
فيظلم سائر الأوطان ثم يتدرج هابطاً حتى يصبح البطن دائماً على حق فيظلم سائر البطون.
وهذه هي العقدة التي جاءت الرسالات السماوية لحلها عن حياة الإنسان.
فليس هناك معصوم من الباطل، 52لا الوطن بين الأوطان ولا البطن فيما بين البطون إنما القيم هي دائماً على حق.
والقيم هى الحق الذى امر الإنسان بالبحث عنه والدفاع عنه انى وجده عند نفسه أو عند الآخرين يقول الله في القرآن.
N كونوا قوّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أنْفُسِكُمْ M.
إن الشهداء لله تعنى إنصاف الناس من نفسك ومن اقاربك الأدنيين، وإذا فعلت ذلك كنت قد ارتفعت إلى مستوى الإيمان الصادق حيث جاء فى الحديث: من علائم الإيمان إنصاف الناس من نفسك .
إن الإنصاف يعنى الاعتراف بحقوق الناس فى العيش فإذا رايت احدهم يسعى من أجل مصلحته فلا تحقد عليه ولات ضق به ذرعاً.
وإذا وجدت الناس يطالبون بكرامتهم فلا تقف في طريقهم.
إن الذين يريدون العيش وحدهم في الدنيا هم الذين يتميزون حنقاً وغضباً إذا وجدوا احداً يعيش مثلهم وظاهرة الحسد، واحدة من الصفات النفسية الناتجة عن هذه النظرة الضيقة إلى الآخرين.
ولقد نهى القرآن الكريم عن هذه النظرة الباطلة فقال:
N يَا ايّها الّذِينَ امَنُوا لا َ يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قوْمٍ عَسَى انْ يَكونوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا َ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أنْ يَكُنّ خَيْراً مِنْهُنّ M.
إن ظاهرة الاستهزاء نابعة من الاستخفاف بالنكاس ولكن القران يحارب هذه الظاهرة بالتوجيه إلى حقيقة جهل الإنسان بواقع الشخص الذى قد يستهزئ به فقد يكون هذا الشخص خيراً منه عند الله، وخيراً منه فى الواقع

فهل يغني الاستهزاء به شيئاً يورطه في مشاكل لا تنتهي؟.

مرحلة التقييم السليم

من السمات الإنسانية للشخصية الحضارية هي المنهجة في التفكير.

فالإنسان المتحضر لأهواء عاجلة ولا لآثارات عاطفية وقتية فى حكمه على الأشياء ولكن يهتدي بنور عقله، وطبيعة رؤيته إلى الحياة.

والشخصية الإسلامية تتمتع هى الأخرى بمنهجية التفكير التى توفر له سلا مة التقييم، وذلك انطلاقاً من وصية الله للإنسان حيث يقول سبحانه: وهو يصف المؤمن الصادق:

N الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه M.

وبعكس المؤمن الصادق، والإنسان المتحضر يخضع الرجل البدوى، والمنافق للأهواء في تقييمه للأشخاص، وللأحداث.

وهذا التقييم المرتجل هو وراء طائفة من الخلافات الاجتماعية.

ولقد حارب الإسلام بشدة الارتجال فى التقييم والذى سمى ب-(سوء الظن) وفي المقابل أمر ب-(حسن التقييم) حيث يقول على لسان الإمام علي 8:

ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك منه .

ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوء وأنت تجد لها فِي الحيز محملا ً (1).

ولأن الإنسان لا يرتقي مدرج الحضارة، وإلا بقوة التحدي لسلبيات النفس و المجتمع، فإن التوجيهات الإسلامية كانت فى بعض الأحيان شديدة إلى ضرورة تفسير عمل الناس بأحسن ما يمكن، فقد قال الإمام الصادق 8كذب سمعك وبصرك وصدق أخاك المؤمن .

ماذا يصبح المجتمع لو التزم كل ابنائه بهذا التوجيه؟ كيف تكون علاقاتهم اوليس تتحدى الإشاعات المفرقة، او لتفتت او ليس يكون المجتمع كالبنيان المرصوص يهزا بالعواصف ويتحدى كل الصعوبات؟ فى طريق اداء هدفه فى بناء الحضارة؟ ولكن متى تصبح مجتمعاتنا هكذا متبعة لتوجيهات الدين العميقة القادرة على بناء حضارتنا المنشودة؟.

متى؟. بالضبط حين يبدأ كل بنفسه بتعميق الروح الإسلامية الحضارية، وبتطبيق تعاليمه بوعي كامل.

---

(1) الوسائل ج5ص614

حضارتنا في عصر البترول

عندما سافر مسؤول عربى كبير إلى فرنسا واستقبله الرئيس جورج بومبيدو بحفاوة بالغة فاقت الحد المتصور، قال احد كبار المعلقين السياسيين هناك: (ظننت أن الرئيس الفرنسي سيعلن إسلامه عند ذلك المسؤول)!

وعندما زار كيسنجر السعودية قال للملك فيصل بعد دقيقة صمت (الرئيس نيكسون يهديكم تحياته ان تتفضلوا بزيارة الولايات المتحدة فى اقرب فرصة تسمح لكم، ولم يجبه الملك إلا بالقول:

الأمور مرهونة بأوقاتها ونحن مسغولون هنا .

إذا عرفنا ان كيسنجر يمثل اميركا وان بومبيدو بمثل اوروبا وهما يمثلان الحضارة الحديثة يطرح هذا السؤال الخطير:

كيف تخضع اولا اقل تتظاهر بالخضوع الحضارة الأوروبية بامتدادها الأ ميركي لدولة عربية بترولية؟.

لقد تنبأت دراسة أعدها علماء من 19دولة بأن البلدان الاشتراكية والولايات المتحدة والصين لن تستورد النفط بعد قرن من الآن فيما سيبقى الخليج اكبر مصدر للنفط فى العالم وجاء فى هذه الدراسة التى تقدم بها المعهد الدولى لتنظيم التحاليل التطبيقية الذى تموله الاتحاد السوفياتى والولايات المتحدة و 11دولة أخرى..

اكدت الدراسة على هيمنة النفط العربى حتى ما بعد الربيع الأول من القرن القادم وقالت الدراسة ان مستوردى النفط الكبار من الخليج سيكون فى السنة 2030 أوروبا الغربية واليابان ودولا ً نامية[1].

الا يعنى ذلك تطوراً فى العالم اتياً من ان كل اقتصاديات العالم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالبترول وإذا عرفنا ان ثلثى احتياطى البترول تمركز فى دول الشرق الأوسط، عرفنا ان شيئاً جديداً راح يحدث فى هذا الكوكب، ولا ريب انه سيحدث فى صالح الدول البترولية وانئذٍ يجدر بنا ان نطرح هذا السؤال هل إن حضارتنا تجددت في عصر البترول؟.

تتاكد خطورة هذا السؤال عندما ينجح استخدام البترول فى الصراع الإسلا مى الإسرائيلى، اكثر من نجاح الأسلحة العسكرية فى الجبهات الساخنة ففى هذا النجاح أهمية خاصة كشفت عن حقائق تاريخية.

---

(1) مجلة الموقف العربى، العدد22.

فأولا ً:اسرائيل، مرتبطة، عضوياً بأوروبا الغربية عن طريق المصالح المشتركة والتطلعات الاستعمارية الواحدة، والإيديولوجيات والأحزاب المتقاربة والمتشابكة.

حتى اننا لا نجد فرق كبير بين حزب العمال فى إسرائيل وذات الحزب فى بريطانيا، وحين تجتمع الأحزاب الاشتراكية فى لندن يحضر المؤتمر كل رؤساء حزب العمل في إسرائيل وبريطانيا.

وأوروبا مرتبطة بأميركا بكل الخيوط الممكنة ارتباط الشقيقة بالشقيقة.

وأميركا مرتبطة بإسرائيل بلك الوشائج الحيوية ارتباط الأم بابنها المدلل.

ومع هذا الارتباط الوثيق كيف تسمح اوروبا الموحدة لنفسها بالثورة على جميع صلاتها بإسرائيل والتنديد صراحة بضرورة تراجع إسرائيل من الأراضى المحتلة، وإعادة حقوق الشعب الفلسطيني؟.

كل ذلك بعد تناقص البترول عنهم؟ الا يدل ذلك على انه قد اصبحت للبترول كلمة عالية ومسموعة في كل أرجاء العالم.

وإن هذه الكلمة قد تصبح كلمة الحضارة الإسلامية التى سوف تدوى من جديد في المعمورة؟

ثانياً:ان كل حضارة في التاريخ تعتمد على نقطة ارتكاز ونقطة انطلاق.

في الصين الحديثة كانت الكثافة السكانية نقطة ارتكاز وانطلاق.

فى روسيا الثورة كانت الفكرة الشيوعية، والتوسع الأرضى، نقطة ارتكاز وانطلاق.

فى اميركا كانت العناصر المثقفة والذين هربوا إلى الأرض الجديدة فراراً من ملاحقة الكاثوليك والإقطاع مضافاً للثروات المعدنية الطائلة نقطة ارتكاز ثم انطلاق كبير.

والأمة الإسلامية ارتكزت فى بداية انطلاقها على الفكرة السماوية التى هبطت عليها كما يهبط المطر الربيعي على ربوة مباركة.

والسؤال:هو:هل أن بترول الشرق الأوسطى سيكون نقطة ارتكاز وانطلاق لحضارة جديدة؟.

الا يلعب النقد الفائض الذى سيشكل طوفاناً على ارض الشرق فى حجم الطوفان الذي شكله احتياطي البترول تحت هذه الأرض الثرية.

ثالثاً: يقول خبراء الاقتصاد:ان ميزان النقد العالمى فى صالح الأمة الإسلا مية بشكل يهدد حسب تعبيرهم مصالح الدول المتقدمة وقد كان هذا الموضوع مثار جدل واسع بين خبراء الاقتصاد فى الدول ذات النظام الرأسمالي في أكثر من مؤتمر عقد لتدارس أوضاعهم المتردية.

والأرقام تدل بوضوح على هذه الحقيقة فكما نعلم جميعاً ان الدول الخليجية حين رفع سعر نفطها بنسبة 17بالمئة كانت الزيادة فى نصيبها اثنين وعشرين ألف مليون دولار سنوياً.

هذه الزيادة الجنونية في المدخول النفطي تعطي الدول الإسلامية القدرة على التحرك بشكل سريع وفعال في سبيل بناء اكبر قاعدة صناعية ودون اية حماية عسكرية، إذا النفط ليس مجرد ثروة معدنية هائلة بل هى ايضاً قوة سياسية كبيرة.

ذلك لأن مصالح الدول جميعاً مرتبطة بالمنطقة ولا يمكن ان ترضي اية دولة بدفع المنطقة إلى اتون الحرب، ليس حباً في علي، ولكن بغضاً لمعاوية، وبالضبط ليس حباً في المنطقة وأهلها وإنما خوفاً من تهديد مصالحها هي.

هذه المصالح التي لا تقتصر على مجرد توقف الوقود عن محركات السيارات بل وايضاً توقف كل المصانع عن العمل لافتقادها للوقود والمادة الخام التى أصبح البترول يشكل نسبة كبيرة منها الم نصنع من البترول افضل ملابسنا وفرشنا وأمتعة بيتنا وحتى أدويتنا وبعض من مأكولاتنا.

والدليل على ذلك ان تخفيض الدول النفطية الإسلامية لمنتوجها البترولى فى الفترة الأخيرة أثر فى معدل إنتاج المواد الصناعية فمثلا ً: تسبب فى انخفاض الانتاج الياباني بنسبة 20بالمئة.

وتسبب في تهديد صناعة الولايات المتحدة التي لا تشكل الدول الإسلامية.

إلا نسبة ضئيلة من مصر وفاتها النفطية فقد اضطر إلى اتخاذ تدابير صارمة بهدف، الاحتياط فى الطاقة وكما هو معروف: شكلت لجنة عليا للطاقة فى البلاد، وتعالت صيحات الناصحين بضرورة العمل السريع والحاسم للخروج من الأزمة.

فمثلا ً: أعلن جون وينفر نائب رئيس مصر تشيس الأميركي (أن الإجراءات التى اتخذتها دول النفط العربى ستكون لها اثار بالغة على الاقتصاد الأميركي وبالتالي على العالم غير الشيوعي، وإن النقص فى البترول سيتجاوز 15بالمئة وأنه من غير الممكن حالياً تموين عمليات تنقيب جديدة فى مناطق أخرى من العالم.

وذهب بعضهم إلى حد القول:ان الحضارة الغربية كلها بما فيها أميركا و اليابان تعيش او بدات تعيش ولو بنسب مختلفة تحت رحمة حفنة من الملوك وشيوخ النفط العربى.. ويقولون: إنه كما قتل الإنسان بالرصاص يمكن خنقه بخيط من حرير .

والمقصود انه عوض تدمير الحضارة الغربية بالقنابل الذرية يقوم المسلمون بتدميرها بقطع النفط عنها.

والدليل البسيط على هذه الحقيقة:هو تدهور الوضع الاقتصادى فى أميركا بشكل مخيف إذ أنه قد بلغ النقص من 5 بالمئة إلى 10بالمئة ممّا ينذر أميركا بشكل جدي.

أما في اليابان فقد بلغ الانخفاض بنسبة 20بالمئة وكذلك فى دول أوروبة عديدة، كانت نسبة الانخفاض كبيرة، إن هذا الانخفاض يدل بوضوح على عمق ارتباط الحضارة الحديثة بالبترول والمصدر من الدول الإسلامية، ولو شمل

التخفيض إيران، ونيجيريا، وإندونيسيا، لكانت النتائج أكبر من مجرد كارثة.

لابد من الحذر

وهذا الارتباط سيعمق يوماً بعد آخر وسيكون ذا نتائج عديدة أهمها ما يلي:
تحول النقد العالمى إلى الدول النفطية الإسلامية بشكل قد لا تستطيع هذه الدول حتى مجرد استيعابها.
زيادة الاستثمارات الدول المتقدمة فى أراضى الدول الإسلامية (يقدر بخمسمائة مليارد دولار فى الحقبة القادمة حسب راى احد البنوك العاملة فى حقل الطاقة).
مما يشكل مزيداً من الارتباط بينهما وبالتالى يسبب فى زيادة قدرة الدول النفطية من التأثير في الدول المتقدمة.
مضاعفة اعتماد الإنتاج العالمى على النفط الإسلامى الذى يشكل اخم احتياطي للنفط في العالم.
إن هذه النتائج هى الخطوط العامة التى ترسم خريطة المستقبل بالنسبة لنا وتدعونا إلى التفكير جديا في طرح هذا السؤال الكبير.
هل قدر لنا ان تكون حضارتنا في عصر البترول؟
نحن بحاجة إلى فترة اخرى من الوقت حتى نستطيع ان نؤكد ان الدول النفطية تدق اليوم ابواب حياة جديدة، ولكن الذى يمكننا الاعتقاد به الآن يقينا هو ان البترول وضع الدول الشرق اوسطية فى تيار الحضارة البشرية، لينظر الله هل نستغل هذا التيار وندفع بانفسنا فى خضمه الهادر قدماً حتى نحقق أملنا في بناء حضارة إسلامية رشيدة أم لا؟.

تجربة إرادة

هذا الوضع الدقيق الذى خلقه تدفق الذهب الأسود فى بلادنا جعلنا امام تجربة إرادة تشبه تجربة إرادة ذلك البدوى التائه الذى قدم على قرية فى يوم كانت تقاليد اهلها انتظار اى قادم ياتيهم فى ذلك اليوم لينصبوه ملكاً عليهم لمدة عام.
فإذا جاء مثل ذلك اليوم في العام القابل ركلوه وأبعدوه عن الديار مهاناً.
إن بلادنا اليوم في وضع مشابه لذلك البدوى المحظوظ حيث اعطانا الله مقاليد الطاقة في الأرض فإذا كان البدوى يستغل هذا العام من ملكه ويهرب لنفسه من الثروة ما يعيش عليه مستقبلاً ً كان سعيداً وإلا فإن ايام الرغد كانت تتولى عنه سراعاً وتأتي من بعدها أيام بؤس وشقاء.
فهل تستغل بلادنا ايام رغدها لبناء مستقبل زاهر؟ بمقدار ما تكون الإجابة على هذا السؤال إيجابية تكون حضارتنا قد ابتدأت.. وإلا فسيذهب البترول يوماً وسنعود إلى المتاهة مثل ذلك البدوي المسكين.
وها هى تجربة الإرادة، التى لابدّ من اجتيازها حتى نستعد لدخول عصر

الحضارة.

والسؤال الآن.. كيف نجابه هذه التجربة؟.

والجواب:

الاستهلاك الموجه

بسهولة يمكنك ان تصرف كل الف دينار ولكن السؤال هل من السهل ايضاً أن تضمن لنفسك ألف دينار يومياً وفي المستقبل المديد؟.

كذلك قصتنا مع البترول فبفرح بالغ يستقبل مواطنونا قرار رفع المرتبات للموظفين، وتبدا هذه المرتبات بغزو اسواق الاستيراد، ويصبح بلد نفطى مثل الكويت أول دولة في العالم في الاستيراد.

ولكن الصعوبة إنما هى فى كبح جماح الاستيراد.. وتوعية الأمة بضرورة القصد فيه ووضع شبكات (تصدير دنانير الناس) الضائعة بين محلات الموديل ووضعها في الطريق السليم للاستثمار الكبير.

كنت فى إحدى الدول النفطية ورايت كيف يتهافت الناس على اشتراء الأسهم التى عرضت انئذٍ لمجموعة شركات استثمارية وكيف أن تحركت حول 50مليون دينار فجأة فى شارع الاقتصاد الوطنى، وبالتالى كيف منعت الدولة بهذا التدبير الاقتصادي الحكيم هروب هذه النقود إلى الخارج.

وتساءلت نفسى بأسى: ما دامت هذه التدابير الاقتصادية ناجحة فى بلادنا فلماذا لم نتخذها سلفاً.. ولماذا لا نتخذ المزيد منها اليوم

الطريق السليم

إن طرح هذه المشاريع واحدة من طرق شتى توجه الاستهلاك المحلي، ولا تدعه يبتلع ثروات مستقبلنا بنهم يشبه نهم الأثرياء الجدد فى بلادنا فى تبديد أموالهم عبثاً.

هل ندع المال يستقطب على ارضنا كل طامع وحاقد، لا يهدف سوى تمييع إرادة شعوبنا ليسهل له الركوب عليهم إلى اهدافه الرخيصة، وقد نستغرب من هذه الحقيقة ولكن الشواهد تدل عليها إذ انّ دول النفط تتعرض اليوم لضغط متزايد من تجار الجنس والخلاعة والفساد يهدف غزو المنطقة بسيل من وسائل الإلهاء والتمييع.

ابتداء ً من الصور الخليعة..؟ وانتهاء بالمباغى العلنية وسكس شوبات السافرة.

فى دولة نفطية واحدة.. تباع شهرياً مئات الأفلام المفسدة التى تصور العملية الجنسية بتفاصيلها المكشوفة، وتهاجر إليها شهرياً اسراب من الفتيات الباغيات التي تتوزع بشكل مفضوح في المزارع والمعاقل والشوارع والبيوت.

فهل تدع دول النفط هذه الأفلام تتسرب إلى كل غرفة من بيوت ابنائها لتفسدهم وتنتزع من نفوسهم الصلاة والنشاط والحياء والدين وتحولهم إلى

قطعان من شباب الهوى والفساد.. والجريمة والمخدرات وتنتهى بهم فجأة إلى سواء الجحيم؟.

إذا سمحت هذه الدول بذلك فإنه يعنى ان النفط كان نقمة عليها وكان خيراً لها إلا ينبع من ارضها ولا قطرة من بترول ينعم بها الآخرون، ويشقى اهلها بمآسيها وويلاتها.

إننا اليوم بحاجة إلى مزيد من الحزم فى الاستهلاك وليس فقط لكى ندخر الثروة من حاضرنا لمستقبلنا البعيد، بل وايضاً لكى لا تفسد الثروة اجيالنا الطالعة وتحطم صلابتهم وإرادتهم وتنتزع منهم الحياء والدين.

ضرورة الوعي الاقتصادي

وليس طرح المشاريع هو الطريق الوحيد لتحديد الاستهلاك فهناك التوعية المنتظمة، التي تستطيع أن تلعب دوراً فعالا ً في توجيه الاستهلاك.

يجب ان نوعى الجماهير بحقيقة الثروة وإنها سلاح ذو حدين ذلك لأن هذه النقود الهائلة التى ترقد اليوم بجنبنا بكل وداعة واطمئنان ليست كما يبدو صديقاً وديعاً وهادئاً.

إنها اكثر ثروة من بئر نفط جديدة تفجر فى الصحراء فإذا وضعت لها (بايبات جامحة) وفرضت بدقة وتحت إشراف خبراء فنيين ثم نقلت بحكمة إلى المصافى وكررت هنالك تحولت إلى اداة تقدم وعمرت الأرض، وحركت عجلة الحضارة، ولكنها لو تعرضت لأدنى تفريط فليس لا تنفع شيئاً فحسب بل وقد تحرق أرضاً واسعة.

إن قارون كان من قوم موسى المؤمنين وحين اوتى المال كان نقمة عليه إذ بغى على موسى وبدد ثروته فى نشر الفساد فى الأرض واحاطت به خطيئة فأصبح من الهالكين.

وكذلك سيكون مصير كل من يؤتى مالا ً دون ان يكون له الحزم و البصيرة والتدبير الكافي للتصرف في هذا المال.

هل دول النفط ستتصرف فى المال بحزم وبصيرة وتدبير، ام تدع هذا المارد الطاغى (المال) يلعب فى مقدراتها ويسير شؤونها حسب ما يشاء؟. فهل مثلا ً تدع هذه الدول المال ليفسد اجيالها القادمة، ويربيها على الترهل و الكسل، والاعتماد كلياً على الآخرين حتى إذا نفذت الثروات انهارت كما ينهار حائط بال كان يتكئ على جذع منخور؟. ويبقى السؤال كيف نتصرف فى المال تصرفاً معقولا ً ومفيداً؟.

الجواب:انه بحاجة إلى عدة عناصر ولكن أهمها:

الانسان المفقود

ومع كل ذلك تبقى المشكلة الأم..هي الإنسان المفقود كيف نوجده.

لا اقصد بذلك الكثافة السكانية فهي موجودة في الشرق الأوسط إنما نعنى بالإنسان ذلك العالم الذى يحرك التاريخ قدماً إلى الإمام، وهو لا يكون إلا بعد

توافر شرطين:
الأول:الإيمان
الثاني:العلم
فلكى يقوم بالتضحية السخية فى سبيل تقدم بلاده يحتاج إلى الإيمان ولكي يعرف كيف يقدم هذه التضحية؟ وأنى متى يقدمها ويحتاج إلى العلم.
والإيمان والعلم جناحات متكاملان يطير بهما الإنسان.
إذ بدون الإيمان يفقد الإنسان الاندفاع الضرورى لأى عمل وتنتهى حياتنا إلى زمهرير قاتل: ويكون مصيرنا وبالتالى مصير تلك الشعوب التى تثلجت فى براد العلم، والفاقد للإيمان.
بينما الإيمان بغير العلم، اندفاع شديد بدون توجيه صائب او حتى بدون أدوات عمل.
ولو تمسكنا بالإيمان دون ان نستجيب لنداء الإيمان الذى يدعونا إلى طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، يخشى ان يكون مصيرنا، إن نفقد الإيمان أيضاً.
والسؤال الذى يفرض نفسه: كيف نصنع الإنسان الحضارى الذى نعهد إليه بمسؤولية التقدم ويكون عالماً وكفواً؟.
إن هذا السؤال هو اخطر قضية تواجهها دول الشرق الأوسط وهى العقبة الكؤودة التى تعترض اندفاع هذه الدول نحو التقدم فى سبيل بناء ملاكات علمية.
والسؤال فى العلم اهون منه فى الإيمان، للمفارقات الكبيرة التى بينهما فطريق العلم معبد قد سار فيه رجال اخرون وعرفوا معالمها التى يجب ان تتبع وايضاً طريق العلم واحدة للجميع بينما طريق الإيمان ليست واحدة إذ لكل امة قيمها التى تؤمن بها وتدافع عنها، وعملية زرع الإيمان اشد فشلا ً من زرع قلب الإنسان في بطن قرد.
ولذلك فإن العلم قد نستورده والعلماء قد نستقطبهم ولكن الإيمان هو الذى سيبقى بعيداً عن الاستيراد.
إن الطريقة الوحيدة التى نستطيع ان نشبع بها ابنائنا الإيمان هى العودة إلى الفكر الإسلامي السليم الذي يربي الإنسان المؤمن السليم.
هذه مفارقات العلم والإيمان هى التى تجعل مشكلة فقد العلماء والكفاءات الحضارية اهون من مشكلة الإيمان ونقص الاندفاع والتضحية والهدف فى أبنائنا.
ولكن كل ذلك يبقى السؤال الحاضر ينتظر الجواب كيف نوفر لبلادنا الملا كات العلمية؟.
والجواب:

يجب ان نسعى بكل جهد ممكن فى سبيل بناء جيل من الكفاءات العالية من الذين يواكبون تقدم العلوم فى كل الحقول يوماً بعد يوم، وهذا حل اخذت به بلادنا فعلاً ولكن لا تزال فيها طائفة من نقاط الضعف يجب تجاوزها أبرزها:

محاولات القسر والتطويع والترويض التى يتعرض لها الجيل المثقف والتى يجب أن تتوقف لكي تضمن للعلم جواً ملائماً يساعده على النمو والتكامل.

وللكفاءات الخيرة من أبنائنا، بأخذ مواقعهم المتقدمة في إدارة الوكن.

ولكن هل تكفى كفاءاتنا فى إدارة دفة الحضارة الضخمة التى نبنيها اليوم؟ هل يكفي مهندسونا لبناء الاف الورشات؟

وهل يكفي التقنيون الذين نملكهم لتوجيه وتشغيل القاعدة الصناعية الضخمة التي ينبغي أن نبنيها؟.

الجواب يكون بالطبع كلا.

إن علينا ان نستورد هذه الكفاءات من شتى انحاء الأرض ونوفر كل ما يحتاجون في سبيل بناء المستقبل.

والذين يخالفون استيراد الكفاءات ليس عليهم إلا ملاحظة العالم المتحضر قليلاً ليروا كيف تقوم بينها حرب الكفاءات السرية.

حيث تحاول كل دولة ابتزاز كفاءات الثانية.

أميركا تسرق كفاءات أوروبا.

أوروبا تسرق بعض بلدانها كفاءات الآخرين.

الدول النامية تشكون من نهب منتظم لعقولها المفكرة.

ونحن هنا فى بعض دول البترول، نستاء من استيراد الكفاءات إنه حقاً (سفاهة).

والكفاءات، لا تعمل بالاستئجار ولا تعمل تحت مطرقة المحاسبة الدقيقة ولا تنشط عن طريق تهديدها بالطرد، كما هو حادث في بعض بلادنا.

الكفاءة تاتي فى مناخ حر وتعمل عندما ترى انها صاحبة العمل تشترك عملياً فى بناء الوطن، بل حينما تتفاعل مع تراب الوطن، كانها حبة من رمال صحارينا الغنية.

وبتوضيح أكثر:

الكفاءة تعمل إذا منحت لها كافة حقوق المواطن، الجنسية البيت الاشتراك في الحياة السياسية و.. و..

هناك تستريح نفسيتها على ارضنا، تشرع بالبناء الحقيقى بكل ما اوتيت من نشاط.

وقديماً لم تتقدم الدولة الإسلامية الأولى إلا بعد ان امتصت كفاءات الحضارات التى احتوتها.. وعن طريق التفاعل مع أبناء هذه الحضارات وعن طريق إشعارهم انهم هم اصحاب الدولة، قفزت حضارتنا فوق المراحل وبنت

نفسها بسرعة مدهشة.
وأميركا كما يعلم الجميع تحركت حضارتها بالكفاءات المستوردة.
وليست الكفاءات المستاجرة إذ كل من ذهب إلى اميركا منح بعد فترة قصيرة جنسية اميركية واشعر بانه مواطن اميركي وانئذٍ لم يدخر جهداً في سبيل تقدم بلاده الجديدة أميركا.
أولسنا قادرين على اتباع نفس الخطة؟ بلى. ولكن.
الإيمان
بلادنا تحتفظ اليوم بطاقات إيمانية هائلة ولكنها اشبه شيء بمنابع النفط التي كانت فيها لمئات السنين دون أي استغلال.
فلو تنبهنا لهذه الطاقات واستخرجناها تحرك العملاق. ,. عملاق حضارتنا المجيدة.
هذه الطاقات الإيمانية هي التى حصنت امتنا من الانهيار امام الغزو الحضارى حينما لم تكن امتنا تملك وسيلة للدفاع عن ذاتها إلا هذه الطاقات الهائلة من الإيمان والحق والحرية...
هذه الطاقات هي:
رصيد ثقافى كبير فى كتاب اللّه الكريم الذى كان وسيكون زاد امتنا فى رحلتها الحضارية، الطويلة وكان وسيكون حبل اللّه المتين الذي يتمسك به أهل الأرض ويرعاه ربنا من السماء.
رصيد تاريخى ضخم يتمثل فى بطولات ابائنا الخالدين الذين ضربوا اروع ا لأمثلة في الإيمان وخلفوا لنا مشاعل نيرة نستنير بها في طريقنا نحو التقدم.
رؤية سليمة وواضحة ومحددة نابعة من فلسفتنا الأصلية فى الحياة والتى دعمتها الشواهد التاريخية والتجارب الشخصية.
وبالتالي فكرة حضارية تعطينا أكثر من مجرد الإيمان بالوطن.
بل تعطينا الإيمان باللّه وبالإنسان وبالخير، وتشعر بذلك اننا لسنا بناة حضارة شرق أوسطية فقط وإنما حملة (رسالة حضارية) إلى العالم ودعاة أوفياء إلى اللّه من أجل كرامة الإنسان وإشاعة الخير والصلاح في الأرض.
إن هذه الطاقات الإيمانية الكبيرة والفذة هى التى تشحن قلبنا بحب العمل وحب التضحية والإيثار.
فلو استطعنا استخراج هذه الطاقات امتلكنا بإذن اللّه الإنسان المؤمن.
وبالإنسان الكفؤ وبالإنسان المؤمن نستطيع بناء حضارتنا بالاعتماد على مواردنا النفطية الهائلة...
وإلا..
وإلا إن لم نستطع بناء الإنسان المؤمن الكفوء، فإن كل ثرواتنا النفطية لن تغنى عنا شيئاً، سوف تستهلك فى اقل من ربع قرن وسوف نبقى حائرين فى

صحراء التخلف نجتر الأسى والأماني الحلوة.
ولا تنسوا ذلك البدوي الذي توج ملكاً لفترة عام وسرعان ما انتهى فنبذ في العراء.

حضارتنا ومتى وكيف؟

بعد هزيمة حزيران لخص الشاعر نزار قبانى اسباب الهزيمة فى بيت واحد... حينما قال:

خلاصة القضية توجز في عبارة...

لقد لبسنا قشرة الحضارة والروح جاهلية.

وبعد انتصار رمضان، زعم الكثير ان الروح قد اصبحت حضارة، إذ المقياس كان لديهم هو التغلب على عسكرية إسرائيل وقد فعلوا.

وكان لهذا الزعم ما يبرره وهو:ان الروح الحضارية، هى التى دفعت بـ الجيوش العربية إلى صنع البطولات.

وهي التي وحدت الدول المختلفة على هدف واحد..

وهي التي تقبلت تقديم التضحيات الكبيرة عندما حظرت النفط.

ولكن هل نستطيع ان نقول إن الروح اصبحت حضارية بمعنى الكلمة؟

ولكن هل نستطيع ان نقول إن الروح اصبحت حضارية بمعنى الكلمة؟

يقول البعض،نعم لأننا قد دخلنا نادى الحضارة القرن العشرينية عندما اصبحت دولة من دولنا السعودية رابع دولة فى الثراء بينما اصبحت الأخرى إيران عاشر دولة منها.

واصبح الفائض من النقد الذى سوف تملكه الدول الإسلامية اكثر من 500بليون دولار وذلك في عام 1985.

ولكن هل صحيح هذا القول؟ وهل إن الحضارة تقاس فعلا ً بمقدار فائض النقد أو بالانتصار في حرب؟.

كلا لأن الانتصار لم يكن ممكناً لو لم يدخل فيه عنصر البترول وفائض النقد، أما فائض النقد فإنما هو (قدر فرضه علينا نظام العالم الذى نعيشه وهو أشبه بـ البترول الذى كان تحت ترابنا، فلو افترضنا مثلا ً:ان مجاعة عالمية اجتاحت دولنا فهل تغنى او تسمن الدولارات احداً منه، او لو افترضنا ان الدول التى تستضيف الآن فائض نقدنا لو ثارت ضدنا واممت ثرواتنا فماذا ينفعنا النقد؟.اوليس كل شىء فى عالم اليوم ممكن!!.. حتى المستحيلات تغتدى ممكنة في عالم تسوده المصلحة بل يسوده الغرور.

لقد كنا نملك بترولا ً من قبل وكان العالم ينهب هذا البترول فى وضح

النهار ولم يشفع لنا خلق ولا دين فى هذا العالم الذى رفض الدين والخلق منذ فترة طويلة.
واصبحنا اقوياء تحدينا، اتحدنا، ضحينا، وناضلنا حتى اعطينا للبترول قيمة.
إن ذلك يدل على ان القيمة الأساسية لم تكن للبترول بل للنضال، الذى قيم البترول.
وكذلك النقد الفائض لا قيمة له، ابداً حتى الأعراف الدولية لا تعطى للنقد الفائض قيمته، إنما الرصيد الوحيد الذى يصلح قاعدة لقيمة النقد الفائض هو النضال وإرادة التضحية.
وفى بلادنا من يقول: إن الحضارة هى التقنية، فلو بدلنا النقد الفائض الذى سوف نملكه إلى تقنية متقدمة إلى مصانع الطائرات والدبابات ومفاعلات ذرية.. و.. و.. فإنا سوف نصبح أقوياء وأثرياء وسعداء وهذه هى معالم الحضارة .

معنى الحضارة

ولا ريب ان هذا القول الأخير اصبح له اليوم رواد كثيرون من الحكومات الإ سلامية كما لا ريب في أنه يجسد طموح الملايين من أبناء الأمة.
لاريب فى انه يمثل جزءاً كبيراً ودون ان يكون الحقيقة كلها، لسبب بسيط هو:ان الحضارة ليست أشياء بل حالة فى أشخاص صحيح أن هذه الحالة تصنع أشياء ولكنها على أي حال، ليست ذاتها.
النقد ليس حضارة بل قدرة الإنسان على صنع النقد والحصول عليه هذه القدرة هي الحضارة.
ولذلك يمكن ان نفترض حضارة بلا اشياء ابداً، مثلا ً اليابان بعد الحرب، الصين قبل الاستقلال، المانيا بعد الهزيمة، كل تلك الدول كانت دولا ً متحضرة، لا ريب فيها، ولكنها لم تكن تملك شيئاً.
لا نقداً لا مصنعاً ولا حتى مدرسة او علماء، ولكنها كانت تملك حضارة سرعان ما حصلت على النقد والمصنع والمدرسة والعلماء وكل شيء.
لماذا؟.
لأن الحالة الحضارية كانت موجودة هناك، وكذلك يمكن ان نفترض العكس..
اشياء بلا حضارة مثلا ً ، الدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر كانت قوية وقادرة على ضرب اية قوة ولكنها كانت تفقد حالة الحضارة فما هى هذه الحالة؟
إذا عرفنا الجواب الصحيح لهذا السؤال كنا عند البداية فى اهم قضية نعيشها أمتنا اليوم قضية تنطوي على خيار أسهلها صعب.

اما اللحاق بالركب الحضارى الحديث او الاستسلام لمن يملكون هذه الحضارة.

هذه الحالة هى إرادة التقدم فهذه الإرادة التى إذا كانت فى الفرد سميت الأنانية وهي التي وجدت في الأمة سميت الحضارة.

فكيف توجد أساساً هذه الإدارة؟.

الحضارة من أين

إذا صادفت صعوبة فى طريقك إلى البيت تقف لحظة وتفكر، لماذا انا ذاهب إلى البيت؟ هل للراحة، أم للأكل؟ أم لرؤية الأهل؟ لماذا؟.

وحين تحدد الهدف تسرع فى تقييمه هل هو يساوى او يربو على قيمة التغلب على الصعوبة؟ إذا عرفت ذلك تقرر تجاوز الصعوبة وإلا فلا.

وهكذا فى سائر شؤون الحياة إذا كان للفرد هدف، وكان يعرف قيمة هذا الهدف، تجاوز صعوبة الطريق إليه..انى كانت.

والتي قد تكون من نوع الصعوبات النفسية...

وكما فى الفرد وفى المجتمع لو كان يملك من حيث المجموع، هدفاً سامياً يسعى إلى تحقيقه بشتى الوسائل الممكنة، فإنّه يتجاوز العقبات النفسية و الخارجية في هذا الطريق.

وابسط مثل لذلك هى ظاهرة المانيا قبل الحرب الثانية، كانت هناك فكرة واحدة استهوت الجميع هى صنع الانتصار من بعد هزيمة جرحت كبرياء الألمان.

بعد وجود هذه الفكرة كان بسيطاً جداً تفجير طاقات الشعب وتوجيهها بسهولة فى اتجاه البناء الذاتى، وكان بسيطاً ايضاً توحيد هذا الشعب وتكتيل قواه باتجاه محدد.

وكذلك وجدت حالة حضارية فى الشعب الألمانى بعد الحرب، بالرغم من ان كل الأشياء قد ذهبت طعمة للحرب حتى الرجال أنفسهم ذهبوا.

هذه الحالة هل هي موجودة عندنا اليوم؟.

الجواب، نعم، ولكن بشكل جزئى وذلك فى قضية فلسطين التى استهوتنا وحركت فينا قيماً دفينة كان الغبار قد سطى عليها.

فاصبح الجندي، ينطلق فى تدريبات شاقة، ليس من اجل مصلحته الخاصة وإنما من وحي الإيمان بقضية فلسطين.

وهكذا العالم في المصنع، والفلاح في الأرض، والإداري في المكتب و..

و.. كلهم كانوا يملكون ذات القيمة ويسعون وراء تحقيقها.

وهكذا حركت قضية فلسطين مياه الأمة التى ظلت لفترة طويلة تعانى من الركود ودخلت هذه القضية فى وعى كل شخص وانتجت سلوكاً افضل وعملاً أفضل.

ولكنها كانت قضية صغيرة بالنسبة إلى تطلعات الأمة وكانت تفقد رسالة إنسانية شاملة، وبالتالى كانت مثل قضية المانيا قبل وبعد الحرب، قضية محصورة بين جدران قومية واحدة.

بينما الحضارة بحاجة إلى رسالة تتجاوز ابعاد العصر والإقليم والعنصر كمثل قضية الأمة الإسلامية فى اول يوم إنها لم تكن محصورة بانتصار اهل المدينة المنورة على أهل مكة أو القبائل العربية على اليهود في الجزيرة.

إنما كانت رسالة اللّه إلى الإنسان هكذا بهذا الشمول والسعة ولذلك كانت قادرة على تحريك طاقات الإنسان أي إنسان في كل العصور.

الدين ذخيرة حضارية

ولا يزال الدين ذخيرة حضارية نستطيع ان نستفيد منه، لأنه يعطينا روحاً وهدفاً وقيماً تتجسد في السلوك والإنتاج.

ولكن يجب أن نحذر هنا من مفارقة قد تسبب في غلطة كبيرة لا تغتفر.

هذه المفارقة هى:ان الدين يختلف معناه المقصود هنا عن المعنى الدارج فإننا هنا لا نعنى من الدين مجرد الطقوس والشعائر والأذكار بل ذلك الإيمان العملي الذي يكون العمل بهذه الواجبات جزء منه لا أكثر.

والإيمان اساساً يعني التسليم المطلق فى الفكر والنفس والسلوك للحقيقة لله الحق ولكل ما امر اللّه به حقاً ولكل حق للرسالات السماوية، للحياة للموت للحياة من بعد الموت وللقدر والقضاء وللحساب والجزاء وبالتالى لك شىء حق.

والتسليم يعنى امتلاك بعد العمق الذى يفقده الكافر، إذ الكافر يعيش على السطح ومع القشور إنه ينظر إلى الأشياء كانها مفككة لا رابطة بينها ولا قاعدة تستقر عليها ثم يتعامل مع الأشياء ذاتها دون التعامل مع اهدافها البعيدة، لأنه تستقر عليها، ثم يتعامل مع الأشياء ذاتها دون التعامل مع اهدافها البعيدة، لأنه أساساً لا يؤمن بوجود أهدافاً للحياة.

إن الدين إذاً: يعني التجذر إلى روح الحياة والتعامل معها والتسليم لها.

والطقوس الدينية، تهدف فيما تهدف إلى تعميق هذه الرؤية وتوسيعها حتى تأتي في السلوك على شكل هدف أسمى وإنتاج أفضل.

والتعاليم الدينية إنما هي برامج يومية لتحقيق تلك الرؤية.

والعالم اليوم حيث كفر بالدين، فقد بعد العمق فى حياته فاخذ يتعامل مع الذوات تعاملا ً مفككاً وسطحياً وفى ذلك يقول:استإذ فى جامعة هارفارد ويدعى بول فيليش في كتاب (مغامرات العقل).

إن العنصر الأساسى فى محنة الإنسان الغربى فى عصرنا هذا هو فقدانه لبعد العمق.

والتعبير، بعد العمق بالطبع تشبيه ماخوذ عن عالم المكان ليطبق على حياة ا لإنسان الروحية فماذا يعنى هذا التعبير إنه يعنى إن الإنسان قد فقد الجواب

على السؤال التالي: ما معنى الحياة من أين نأتي وإلى أين نذهب؟؟.
ماذا علينا ان نعمل ماذا علينا ان نصبح فى الفترة القصيرة الممتدة بين الميلاد والوفاة؟.
إن أسئلة من هذا النوع لا يجاب عنها بل لا تطرح عند فقدان بعد العمق.
وهذا بالضبط ما حدث للإنسان في عصرنا هذا.
لقد فقد شجاعته على التقدم بمثل هذه الأسئلة وهو جاد إلى ابعد حدود الجدية، كما كانت الأجيال السابقة تفعل وفقد شجاعته على سماع الأجوبة عن تلك الأسئلة مهما يكن مصدر تلك الإجابات.
واقترح ان نسمي البعد الديني في طبيعة الإنسان ببعد العمق وكون الإنسان متديناً يعنى التساؤل بتلهف عن معنى وجودنا ويعنى كذلك الاستعداد لسماع الأجوبة.
وهذه الحقيقة امر معروف عند الجميع فقد اصبحنا ندرك كيف يتحكم بنا بناؤنا الاجتماعي حتى وإن كان المرء يعرف هذا الأمر او كان واحداً من الفئة التي تشرف على مثل هذا التحكم.
ثم يبين الكاتب آثار افتقاد الإنسان لبعد العمق، فيقول:
وهكذا اصبح من العسير على الإنسان ان يفلت من إطار مصيره إنه قد يصبح شيئاً من هذه الأشياء التي ينتجها نتيجة المؤثرات هذه فيصبح الفرد مجموعة من الانعكاسات المفروضة دون ان يكون له حرية التصرف والتقدير و المسؤولية الذاتية.
وقد يمكن ان يكون إحياء الاهتمام الديني قوة خلاقة فى ثقافتنا إذا امكن له أن يتطور إلى حركة للبحث عن بعد العمق المفقود.
خلاصة القول إن بعد العمق هو روح الدين وهي التي تعطينا وبالتأكيد:هدفاً اسمى، نسعى إلى تحقيقه ونستطيع ان نشع فى انفسنا من وحيه حالة الحضارة وهي أهم قضية مصيرية تعيشها أمتنا اليوم.

(ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل).
هكذا قال احد شعرائنا الأقدمين، والحضارة هي قمة عيش الأمة، ولذلك لا يمكن أن تكون حالة الحضارة إلا مع وجود أمل محدد.
والأمل:هو الغاية التي لابدّ أن تتحقق فى المجال الواقعي والإنسان بدون الأمل يعيش في زنزانته ذاته.
وحين بدا الإنسان مسيرته لم يكن يملك شيئاً إنما كان يملك املاً ، فبهذا الأمل بحث عن الصيد وبهذا الأمل عمر، وصنع، واخترع.
ولو خامر الياس قلب مخترعينا الكبار لكنا لا نزال نعيش اليوم في الأكواخ ونمتطي الأنعام فى ماربنا، ولكنهم حدا بهم رجاء المستقبل فتحركت فيهم نوازع الطموح حتى وصلوا إليها.

وبين الطموح والأمل صلة وثيقة، فلولا الطموح ما تحقق الأمل، ولولا الأمل مات الطموح، هل تطمح أن تعيش ألف عام؟ لا.

لأنك تعرف سلفاً أن لا أمل في ذلك.

والإنسان طموح فطرياً فهو بعقله وإرادته الحاسمة لا يرضى بحدود ولا آفاق.

ولكن جدران الفرد يتحرك بطموحه وكذلك الإنسان الأمة، والأمة التى لا أمل لها لا طموح لها.

الدين...الأمل.

والدين بذاته نوع من الأمل المستمر لأنه يرتبط بين الإنسان مباشرة وبين الله القدير الذي ليس لقدرته حد محدود ويقول في توجيهاته الرشيدة:

N ا لم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا َ رَيْبَ فِيهِ هُدى ً لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلا َ ة َ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَM.

ولكن لا يقف الدين عند هذا الحد بل يتعداه إلى وضع (قيمة أمل) و(واقع أمل) ووضعهما أمام الأمة الإسلامية لكى تتطلع إليهما فى سيرتها الحضارية وتحقق شيئاً فشيئاً.

جانباً منهما فما هما تلك القيمة وذلك الواقع؟.

القيمة الأمل هى الفكرة الإسلامية التى تبشر بتحقيق مجتمع الفضيلة و الرفاهية في يوم آت لا ريب فيه يقول عنه الله سبحانه وتعالى:

N وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَM

N وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَM القصص.

N وَعَدَ اللّه ُ الَّذِينَ امَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا َ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً M النور.

هذه القيمة منحدرة فى الثقافة الإسلامية وتعطى شحنات كبيرة من الأمل ل لأمة التي تستوعب هذه الثقافة.

واما الواقع الأمل فهو ظهور المهدى الذى يتطلع إليه المؤمنين ابداً باعتباره أملا ً يضيء في المستقبل المجهول.

والإيمان بهذا الظهور راسخ فى وعى الأمة، ومنذ ابتداء مسيرتها بحيث لا نكاد نجد حركة إصلاحية داخل الأمة، وعبر تاريخها الطويل إلا وقد استلهمت من هذه العقيدة العزم والإصرار.

إن المصلح العربى الكبير الذي بشرت به رسالات السماء كان مثلا ً للإصلا ح الجزئى الذى تقوم به مجموعات من الأمة عبر التاريخ وإذا كان ذلك المصلح مؤيداً بنصرة الله، فإن الله ينصر من ينصره أيضاً.

ولقد بشر النبي x بهذا المصلح الذي يحدد معالم الإسلام في يوم آتٍ لا ريب به ليجعل خاتمة الدنيا سلاماً وصلاحاً، كما كانت بدايتها بشر به النبي x في أكثر من مناسبة فقال فيما قال :

لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لبعث الله فيه رجلا ً من أهل بيتي يملؤها قسطاً وعدلا ً كما ملئت ظلماً وجورا . (أخرج الحديث الإمام أحمد الترمذي وأبو داود وابن ماجه عنه).

إن القيمة الأساسية التي يستهدفها الإسلام في الأرض هي إشاعة العدل في حقول الحياة جميعاً والواقع الذي لابدّ ان تنتهي إليه الدنيا هو العدل الشامل أيضاً.

وقال الرسولx أيضاً: لن تنقضي الأيام والليالي حتى يبعث الله رجلا ً من اهل بيتي يواطئ اسمه اسمي يملأها عدلا ً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً . (أخرجها الشيخ المفيد المستدرك على الصحيحين).

ولم يفت النبي x أن يربط بين ظهور الإمام المهدي وبين الظروف المعاكسة التي تعيشها الأمة من الظلم والجور حتى إذا شاءت هذه الظروف بالذات لا يستبد الياس بهم وإنما يزدادون املا ً بالمستقبل وإيماناً بإمكانيات تغيير الواقع من هنا يربط الرسول x في حديث آخر بين (المهدي) وبين أشد الظروف شقاء للأمة، حتى يكون هذا الواقع وميضاً من الأمل في آفاق الظلمات، يقول الرسول x:

ينزل بأمتي في آخر الزمان بلاء من سلطانهم لم يسمع بلاء أشد منه حتى تضيق عليهم الأرض الرحبة وحتى تملأ الأرض جوراً وظلماً لا يجد المؤمن ملجا يلتجئ إليه من الظلم فيبعث الله رجلا ً من عترتي فيملأ الأرض قسطاً وعدلا ً كما ملئت ظلماً وجوراً، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض لا تدخر الأرض من بذرها شيئاً إلا اخرجتها ولا السماء من قطرها شيئاً إلا صبه الله عليهم مدراراً .

إن حياة العدل والرفاهية ليست ممكنة، على الأرض فقط وإنما هي واقعة في يوم وعلى الإنسان الا ييأس منها، بل ويسعى جاهداً لتحقيقها حتى ولو اتسع الظلم وساد الفساد.

وأحاديث الرسول x لم تبشر فقط بهذا الواقع الآتي إنما يبين بتفصيل طبيعة الحضارة التي تسود العالم في عصر المهدي المنتظر ممّا نعرف ان الهدف المتوخى من وراء تلك الأحاديث التي بلغت الفين وسبعمائة واربعة احاديث، كان وضع نقطة بيضاء في جبين المستقبل ليستهدفها المجتمع الإ نساني في مسيرته الصاعدة.

خصوصاً وقد ربطت قسم من تلك الأحاديث الأمة بتلك الحضارة الآتية عن طريق ضرورة انتظارها وتوقعها والسعي وراء تحقيقها (جاء في بعض تلك الأ حاديث : أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج).

إن هذا الأمل العظيم لو دخل في وعي الأمة لكانت النتيجة الحتمية له نمو

طموح الأمة والطموح ركن الزاوية في بناء حضارتنا المنتظرة ويبقى الركن الثاني العلم الذي يساهم الدين ايضاً فيه ولكن قبل المضى قدماً في الحدث عن العلم والدين دعنا نستعرض صلة العلم بالحضارة، لنعرف ان العلم الحضارى يختلف عن غيره.

لا نعنى من العلم هنا (جمع) المعلومات و(تصفيفها) إلى بعضها فى الحافظة ، إنما أقصد العمل العلمي الذي لابدّ أن ينتشر في كافة أرجاء حياة الإنسان.

إن علمنة العمل هى نتيجة حالة توجد فى النفس تسمى عادة ب(الحكمة) وهذه الحالة تدعو الإنسان إلى تحصيل العلم ثم إلى تطبيقه.

وهذه الحالة لا توجد إلا عند المتحضرين بينما الإنسان البدائى لا يرى نفسه محتاجاً إلى العلم، لأنه يكفى بالخرافة، اما عمله فإنه يخضع للفوضى لا للخطة ، وأما سلوكه فللصدف والمفاجئات لا للرؤية المستقبلية الواضحة.

والحضارة تبدا، من لحظة الشعور بالحاجة إلى العلم وهذا الشعور لا يتجزا فليس الإنسان يحتاج إلى العلم فقط فى الطب والجراحة إنما يحتاج إليه أيضاً في طريقة الأكل والنوم والاتصال الجنسي.

والذى نحتاجه نحن ويدعو إليه الإسلام ليس المعلومات بل الشعور بضرورة العلم للعمل.

وبلادنا اخذت تبحث عن المعلومات ونسيت البحث عن العلم ولذلك اخذت تكدس المعلومات، وتسبب التناقضات الداخلية لنفسها، والتى من مظاهرها، إنك ترى واحداً منا يركب اخر موديلات السيارات، والمزودة باحدث الأجهزة المكيفة، وعلى معصمه تنام افضل ساعات العصر، ويراجع عندما تصيبه مشكلة افضل الأطباء، ولكنه لا يعتمد العلم فى اية ناحية من نواحى سلوكه، إنه لا يرى المستقبل ولا يكيف سلوكه حسب هذه الرؤية.

ويأكل ويشرب وينام ويتزوج ويتعامل مع الناس وفق الصدف و المفاجئات..

و.. و... لماذا هذا التناقض؟.

إن منشا هذا التناقض فى السلوك هو البحث عن المعلومات لا عن العلم، ولذلك فنحن لا نشعر حتى اليوم بقيمة العلم ولا بقيمة البحث العلمى، ومن المؤسف جداً ان تستمر فى بلادنا هذه الحالة بعد مائة سنة من الاتصال بـ الحضارة الغربية والتى إن دلت على شىء فإنها تدل عن عدم اهتمام الأمة بـ العلم.

والإسلام أمر بالحكمة (التى هى السلوك وفق العقل والعلم) فيقول: N وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا M كما دعى الإنسان إلى تطبيق العلم فى كافة مجالات حياته، واهم من هذا حين وجه الإنسان إلى العقل، وحذر من الجهل، وجعل امامه تطلعاً اسمى، حين فعل كل ذلك كان قد دفع الإنسان إلى العلم، واصبم مثله مثل من يحدد لنا غاية معينة ثم يهدى إلى الصراط المستقيم الذي يؤدي إليها.

وكلمة اخيرة، حالة الحضارة، والأمل والعلم هى العوامل الأساسية التى نرجو أن تصنع لنا الحضارة.

السلامة والانطلاقة في الدستور الإسلامي

ما هى مميزات الدستور الإسلامى على سائر الدساتير القائمة فى عصرنا الحاضر وكيف يستطيع هذا الدستور تحقيق التطلعات السامية للإنسان المسلم ، وبالتالي للبشرية؟.

فى الإجابة، لابدّ ان نقول إن الأهم، فى فهم الدستور فهم بنوده وقوانينه وإطاراته، وإنما الأهم هو المحتوى الحقيقى لسائر بنوده والفكرة العامة التى تكمن وراء إطاراته والروح التي كتب الدستور انطلاقاً منها واعتماداً عليها.

وقبل كل شيء لابدّ ان نعرف ان اى دستور فى العالم يجب ان يحقق تامين سلامة وامن الإنسان وتامين تلك الروح التى تدفع بالإنسان إلى العمل والانطلا ق، فالدستور الجيد هو الدستور الذى يحقق السلامة ويحقق الانطلاقة، هذان البندان هما المقياس لتقييم الدستور الجيد عن غيره.

بالنسبة للسلامة

يريد الإنسان ان يكون حراً وان يمتلك جهوده، وان يمتلك الأمن، فالحرية تناقض السلطوية وامتلاك الجهود يتناقض الابتزاز والاستغلال، والأمن يناقض الفوضى، والدستور الجيد هو القادر على تحقيق هذه المعطيات، اى على تحقيق مظلمة كافية لأن يعيش الإنسان فى ظلها حراً دون ان تكون هناك سلطة خارجية عليه وان يعيش مرفهاً وسعيداً دون ان تكون هناك قوة تستغله وكذلك بالنسبة للأمن على نفسه وماله.

هذا بالنسبة للقسم الأول من المقياس، اما القسم الثانى فهو تحقيق الانطلا قة.

يجب الا ّ يكون الدستور جامداً ومجمداً، بل يعطى للذين يطبقونه روح التقدم والانطلاق، فالدستور الذى يجمد المجتمع لا يستطيع ان يكون دستوراً جيداً، ففى هذا العصر إذا كان هناك دستور متخلف او دستور جامد ومجمد فسوف يكون موت الدستور محتماً لأن الدستور لن يطبق.

فهل فى الدستور الإيرانى الجديد هذا المقياس، مقياس السلامة والانطلاقة ؟.

هل نستطيع ان نكشف هذا المقياس لكى نستطيع القول ان هذا الدستور يقدم الحياة السعيدة والرغيدة للمجتمع الإسلامي والإنساني بوجه عام؟.

القسم الأول: السلامة

هنا يضع الدستور ضمانات لكى لا تكون هناك قوة مستغلة للشعب، ونلخص هذه الضمانات في:

توزيع مراكز السلطة واتخاذ القرارات وفصل السلطات الثلاث (القضائية و التشريعية والتنفيذية) عن بعضها البعض وجعل الشعب هو مصدر الحكم فى

البلاد بنص المادة السادسة من الدستور الإسلامي: في جمهورية إيران الإسلا مية يجب ان تدار شؤون البلاد اعتماداً على آراء الجماهير عن طريق الا نتخابات انتخاب رئيس الجمهورية، وأعضاء مجلس الشورى الوطنى (الإسلا مى) وأعضاء مجالس الشورى المحلية ونظائرها، أو الاستفتاء فى الموارد التى تعين في المواد الأخرى من هذا الدستور .

وعن السلطات الثلاث:التشريعية والتنفيذية والقضائية فإنها كالتالي:

السلطة التشريعية

تنص المادة الثامنة والخمسون (الفصل الخامس) على: تمارس السلطة التشريعية من خلال (مجلس الشورى الوطني الإسلامى) الذى يتكون من النواب المنتخبين من قبل الشعب، ويبلغ اللوائح المصادق عليها إلى السلطة التنفيذية والقضائية للتطبيق بعد المرور بالمراحل الآتية في المواد القادمة .

وتنص المادة التاسعة والخمسون: (يمكن فى القضايا الاقتصادية و السياسية والاجتماعية والثقافية المهمة ممارسة السلطة التشريعية بواسطة الا ستفتاء والرجوع إلى راى الشعب، وطلب الرجوع إلى راى الشعب يجب ان يتم بمصادقة ثلثي أعضاء المجلس).

والمادة السادسة والسبعون (الفصل السادس القسم الثاني) تنص:

لمجلس الشورى الوطنى الإسلامى حق التحقيق والفحص فى كل شأن من شؤون البلاد).

كما أنّ المادة التاسعة والثمانين تعطى (نواب مجلس الشورى الوطنى الإس لامى) حق طلب الاستيضاحات اللازمة من مجلس الوزراء أو أى واحد من الوزراء في أي مجال يرونه ضرورياً .

السلطة التنفيذية

تنص المادة الستون (الفصل الخامس):

تم ممارسة السلطة التنفيذية بواسطة رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء و الوزراء باستثناء الشؤون المخولة وفقاً لهذا الدستور للقيادة .

والمادة الثالثة عشرة بعد المائة فى الفصل التاسع تعين رئيس الجمهورية كاعلى سلطة رسمية في الدولة بعد منصب القيادة، وهو يراس السلطة التنفيذية إلا فى المجالات التى ترتبط مباشرة بالقيادة وهو ينتخب من قبل الشعب مباشرة لمدة اربع سنوات ويمكن انتخابه ثانية بصورة متوالية لدورة واحدة فقط، ورئيس الجمهورية هو الذى يرشح لرئاسة الوزراء وبموافقه مجلس الشورى الوطنى الإسلامى، ورئيس الوزراء يراس مجلس الوزراء الذي يمارس السلطات التنفيذية ويحق لمجلس الوزراء المبادرة الو وضع القرارات واللوائح القانونية من اجل اداء المسؤوليات الأدارية وضمان تنفيذ القوانين وتنظيم المؤسسات الإدارية .

السلطة القضائية

وهي مستقلة تماماً، وقد ورد في ديباجة الدستور وبسبب الحساسية الأساسية لمسالة القضاء وضرورة الدقة في عقائديتها وإسلاميتها فإنها يجب ان يكون هذا النظام بعيداً عن أي نوع من العلاقات والروابط غير السليمة وN وإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَاسِ أَنْ تحْكُمُوا بِالعَدْلِM.

والمادة السادسة والخمسون بعد المائة الفصل الحادي عشر تنص على ان السلطة القضائية هي سلطة مستقلة تدافع عن الحقوق الفردية والاجتماعية وهي مسؤولة عن تحقيق العدالة والقيام بالوظائف التالية: بند 2 إحياء الحقوق العامة وبسط العدل والحريات المشروعة .

وبالإضافة إلى هذه السلطات الثلاث هناك جهة اخرى تتمتع بسلطة قيادية وهي القائد او مجلس القيادة وحسب المادة السبعة بعد المائة في الفصل الثامن تكون للقائد او مجلس القيادة، المؤيد من قبل الشعب مباشرة او المعرف اليهم من قبل مجلس الخبراء المنتخب من قبل الشعب ايضاً، تكون له ولاية الأمر المادة الخامسة وكافة المسؤوليات الناشئة عنها، وله عدة وظائف وصلاحيات ذكرتها وحددتها المادة العاشرة بعد المائة.

من هنا فإن السلطات متمركزة في الشعب، فالشعب يقود نفسه وفقاً للمادة السادسة من الدستور، من خلال اجهزة وسلطات موزعة على قنوات متعددة بحيث تقضي على الدكتاتورية والاستبداد والانفراد بالقرار، وفي المادة الثالثة من الدستور ورد: على حكومة الجمهورية الإسلامية مسؤولية توظيف كافة إمكانياتها في سبيل تحقيق الأمور التالية:

البند السادس: محو أي نوع من الاستبداد والأنانية واحتكار السلطة.

البند الثامن:اشتراك عامة الناس في تقرير مصيرهم السياسي والاقتصادي و الاجتماعي والثقافي.

وتتجلى الروابط المبدئية الدينية لدى الشعب في عملية انتخاب الإمام، لأن الإمام يجب ان يكون مظهراً للإنسان المسلم، نموذجاً للأئمة المعصومين، مجسداً لكافة القوى الإسلامية، وهذا يعني ان الأمة بدافع الإيمان وسائر القيم المقدسة تنتخب الإمام، فلا تختار هذا الإمام بدوافع مصلحية عرقية او عاطفية، كلا وإنما تختاره بدافع إيماني محض، فكما يحج المسلم وكما يصلي وكما يجاهد في سبيل اللّه فكذلك يتولى اولياء اللّه ويتبرأ من اعداء اللّه بذلك الدافع، انذاك تتجلى سيطرة الإنسان على ذاته وشهواته، فيحكم العدل والحق لتحقيق العدالة والحرية.بعد وجود الضمانات القانونية والعملية عن طريق تعددية الانتخابات وعدم جعلها متمركزة، هناك ضمانات روحية معنوية متمثلة في ان يكون الإمام مهيمناً على الشعب، عن طريق هذا كله يضمن الدستور عدم السلطوية وعدم تحكيم القوة في إبراز الشخصية.

كيف يمكن لرجل ان يفرض نفسه على الآخرين؟ حين خلق اللّه الناس سواسية (الناس كلهم من آدم وآدم من تراب)، إذا لماذا وكيف يمكن لرجل مثل فرعون ومثل يزيد ان يتحكم في رقاب الآخرين وان يتسلط الديكتاتوريون على الآخرين من الشعب؟ يتم ذلك عن الطرق الثلاثة التالية:

1 . القوة، 2 . الإعلام المزيف، 3 . التوجيه الخاطئ للدين.

هذا الثالوث الفاسد المفسد هو الذى يصبح اداة لتسليط إنسان على إنسان بينما الدستور الإسلامي ياتى لضرب هذه القيم فالقوة لا تستطيع ان تكون مقياساً لتسليط جماعة، لأن القوة لا تستطيع ان تختار إمام الأمة، القوة تستطيع ان تزور، فى الانتخابات، بينما المجلس الذى ينتخب من قبل الشعب لا يكون كذلك، فتعدد القوى يقلل ويضعف من الفرص المتاحة امام المخربين إن لم يكن يعدمها إطلاقاً، إن الشعب الذى يطبق قول الإمام على A لا تكن عبد غيرك هذا الشعب سوف يقاوم القوة والتزييف.

الأداة الثانية هي :الإعلام المزيف

ودستور الجمهورية الإسلامية يحافظ على ان يكون الجهاز الإعلامى غير مزيف، ففى ديباجته جاء أنه يجب أن تعمل وسائل الإعلام العامة (الإذاعة و التلفزيون) فى اتجاه المسيرة المتكاملة للثورة الإسلامية، وفى خدمة بث الثقافة، وان تستفيد فى هذا المجال من المواجهة السلمية بين الأفكار المختلفة كما عليها ان تحترز بشدة عن إشاعة وبث القضايا التخريبية و المضادة للإسلام، وتنص المادة الخامسة والسبعون بعد المائة (الفصل الثانى عشر): يجب تأمين حرية النشر والإعلام حسب المعايير الإسلامية فى وسائل الإعلام العامة (الإذاعة والتلفزيون) وستدار هذه المؤسسة تحت إشراف السلطات الثلاث القضائية (المجلس الأعلى) والتشريعية والتنفيذية ويحدد القانون كيفية ذلك .

وهكذا نجد ان الإشراف على وسائل الإعلام العامة لا تنفرد به جهة واحدة فضلا ً عن شخص واحد، بل إننا إذا عرفنا ان السلطة القضائية، تاتى على اساس اختيار الإمام والشعب من جهة، والسلطة التشريعية والتنفيذية تاتيان من انتخابات الشعب، فإن الإشراف على الإعلام العام يكون من قبل الشعب.

وفى اجهزة الإعلام الأخرى تتحكمها المقاييس الإسلامية، فالعالم فى الإسلا م يكون في خدمة الإنسان لا في خدمة تسلط الإنسان على الإنسان.

الأداة الثالثة هي:التوجيه الخاطئ للدين

نحن نعرف أن الإسلام هو تحرر من الوصاية، ونامل ان تكون هذه الميزة فى نهج الإسلام سبباً لفهمه مباشرة ويكون ذلك بإزالة الوسائط بين الإسلام و المسلمين وبين مصادر الفكر الإسلامى والمسلمين، وهذه النقطة هامة لأنها تمنع من استخدام الدين ضد الشعب، فالدستور الإسلامى عين هذا الطريق تضميناً لحرية الإنسان ولعدم تسلط أحد على آخر بالقهر والقوة.

وهناك سلامة ثانية وهى سلامة (جهود الإنسان) فيجب أن لا يكون هناك مستغل ومستغل، ولا تكون هناك قوة تستغل واخرى تستثمر، فوضع الدستور ا لإيرانى لتحقيق ذلك ضمانات مثل تأميم الصناعات الثقيلة (جعلها ملكية عامة للشعب) والمعادن أو ما يسمى فى كتاب الله العزيز الأنفال، ونجد أيضاً أن الدستور يحرم الربا الذى يعنى استغلال الإنسان للآخر، فالغى الآن الفائدة على

القروض وخسرت البنوك واحداً وثلاثين مليارد ريال إيراني على هذا الأساس، بالإضافة إلى ذلك توفير العمل لكل عامل وإعطاء الأراضي بدون مقابل، وحرم بيع الأراضي، وأمر بالإشراف على المصانع وإدارتها عن طريق الشورى (المواد 44 - 45 - 49).

وفي ديباجة الدستور جاء:ان تأمين الفرص المساوية والمناسبة وتوفير العمل لجميع الأفراد ورفع الحاجات الضرورية من اجل استمرار الحركة التكاملية الصاعدة، هي من مسؤوليات الحكومة الإسلامية.

وبالنسبة للأمن بالمعنى الخاص، بمعنى ان ينام الإنسان مطمئناً في بته، هذا يضمنه الدستور بتوفير الحريات والحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وتقول المادة الثانية والعشرون: (إن شخصية وروح ومال وحقوق ومسكن وعمل الأشخاص مصونة من التعرض إلا في الموارد التى يجوزها القانون). وكذلك ضمن الدستور توفير الأمن بطرق أخرى تربوية وإعلامية ودينية.

اما من الوسائل القانونية فإن الأحكام الإسلامية الصحيحة حازمة بالنسبة ل لإنسان المجرم فالقضاء يحاول ان يقضي على الجريمة بكل حزم وردع وقوة، والإسلام يطالب بالقضاء على الجريمة وهي بعد في مهدها، وذلك بتوفير التربية السليمة والظروف المعيشية السليمة.

القسم الثاني:الانطلاقة

ويعمل الدستور الإسلامي على تامين الروح التى تدفع بالإنسان إلى العمل و الانطلاق، والضمانات التي يوفرها الدستور لتحقيق (الانطلاقة) في الأمة هي:

التعليم المجاني والإجباري، وتؤكد المادية الثلاثون، في هذا المضمار على ان الحكومة مسؤولة عن توفير وسائل التربية والتعليم المجانى لكافة ابناء الشعب.. .

الخدمات الصحية المجانية، والضمان الاجتماعى للجميع، وفى هذا المجال يؤكد الدستور في (المادة التاسعة والعشرون) أن: إن حق التمتع بالضمان الا جتماعى في مجالات التقاعد، والبطالة، والشيخوخة، والعجز، عن العمل، وفقد القيم، والانقطاع فى الطريق، والحوادث، والطوارئ والخدمات الصحية، والعلا جية والرقابة الصحية، في صورة التامين او غيرها، هو حق عام، والحكومة مسؤولة ان تعمل، وفق القوانين ومن العائدات العامة، والعائدات الناتجة عن المساهمة الجماهيرية على توفير الخدمات، والضمانات المالية السابقة الذكر، لكل فرد فرد من أبناء الشعب. .

توفير فرص العمل وإمكانات للجميع، ويقول الدستور بالنسبة لهذه النقطة بكل وضوح من وظائف ومسؤوليات حكومة الجمهورية الإسلامية هو:

توفير فرص، وإمكانيات العمل للجميع، بهدف الوصول إلى مرحلة انعدام البطالة، ووضع وسائل العمل تحت تصرف كل من هو قادر على العمل.. كما جاء في البند (2) من المادة الثالثة والأربعون..

وتعميقاً لحالة الانطلاقة في واقع الأمة ولجعلها انطلاقة شاملة، فإن الدستور يؤكد على ضرورة تنظيم البرنامج الاقتصادي للدولة، بصورة يكون معها شكل ومحتوى وساعات العمل بحيث تمنح لكل فرد بالإضافة إلى جهوده العملية الفرصة والقدرة الكافية على بناء ذاته معنوياً، وسياسياً، واجتماعياً، و المساهمة الفعالة فى قيادة الدولة، وتنمية مهاراته ومواهبه البند (3) المادة الثالثة والأربعون.

إذن فالانطلاقة لا تكون محصورة فى البعد المادي فقط وإنما الأهم هو العمل على توفيرها فى البعد المعنوي لحياة الإنسان أيضاً، وهذا هو ما يركز عليه الدستور. تحقيق الاكتفاء الذاتى فى مجالات الصناعة والزراعة وتطويرهما، وحول هذه المسألة الهامة يؤكد الدستور فى البند (13) من المادة الثالثة على أن من مسؤوليات حكومة الجمهورية الإسلامية هو: تأمين الا كتفاء الذاتى فى العلوم، والفنون، والصناعة، والزراعة، والشؤون العسكرية وأمثالها .

وهنا كلمة أخيرة:

إن الدستور دستور جيد وعصرى ومتكامل ويتميز عن كل الدساتير، ولكن يجب أن لا ننسى:

إن الضغوط الخارجية والهجمة الاستعمارية والحملات الإعلامية والتعاون مع قوى النفاق ستبقى عقبة فى تطبيق هذا الدستور وحائلا ً دون استغلال الشعب لجهوده. فنحن لا نستطيع أن نحقق ما نصبوا إليه إلا بعد أن نخوض حروباً، حتى نجبر العدو على الهزيمة او على تحييده، حتى يعرف انه لا يستطيع أن ينال من كرامتنا.

عامل الأخلاق: كل قانون سواء كان القناة، الإطار، المظهر، يجب أن يكون رداؤه تلك الأخلاقية الرفيعة المستوى التي تطبق ذلك الدستور وتستثمر طاقة الشعب في تحقيق أهدافه وفي تحقيق السعادة.

وبدون التطبيق لا ينفع الدستور شيئاً، او ليس القران الحكيم ارفع دستور، واكمل قانون على وجه الأرض، ولكن لعدم تطبيقه بالتجاهل او غيره، فلم يؤتى القران ثماره، ولذا فلا يجب ان ننتظر تحقق شيء من الدستور بمجرد سنه ولكن إرادتنا واخلاقنا وتطلعاتنا وروحنا الحضارية الإيمانية تستطيع ان تحقق لأمتنا السعادة والرفاه من خلال التطبيق العملي للدستور الإسلامي.

CC

الثّقَافَةُ الرّسَالِيّة



ما هي دعائم التشيع وأبرز مفاهيمه؟

وهل نحن اولئك الشيعة الذين تتجسد فيهم تلك الدعائم؟
دعنا نعرف؟

دعائم التشيع:

الولاية: والكلمة جاءت في أي من القرآن الكريم أبرزها: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ 5.55

وجاءت الكلمة في السنة حيث قال النبي ﷺ: الست أولى بكم من أنفسكم؟، فلما قالوا: (اللهم بلى) قال: من كنت مولاه فهذا على مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

والولاية تعني فيما تعني ثلاثة انتماءات.

أ.الانتماء القلبي المتمثل في حب جبهة الحق وبغض جبهة الباطل.

ب.الانتماء الاجتماعى المتمثل فى تذويب الشخصية فى حزب الله، والانقطاع عن الانتماءات العرقية والاقليمية واللغوية، وإلى الانتماء الرسالي.

ج.الانتماء السياسى المتمثل فى الطاعة لولى الأمر باعتباره أعلى سلطة سياسية، ولا سلطة شرعية سواه.

والولاية بهذا المفهوم الواسع الصحيح ترسم حدود الحركة.. لتفصلها عن التحركات العشوائية، أو النشاطات السياسية الفوضوية ولتربطها بخط واضح وتجمع متماسك، وبذلك تكون الولاية رفضاً عملياً للقيادات الكيفية والدخيلة والمرتجلة، وهي التي يسميها القران بالجبت والطاغوت كما تكون انتماءً واندماجاً عملياً بالقيادة الأصلية النابعة من عمق الرسالة، فالولاية إذن تجسيد لمبدا التوحيد فى الواقع الخارجى وهى تعبير عن التشيع الذى قلنا انفاً إنه الصيغة التطبيقية لمبدأ التوحيد.

الإمامة العصمة

الغيبة الشفاعة

وتتبع (بصيرة الولاية) عدة (بصائر) متصلة بالقائد وهي:

أ.الإمامة: وهى تعنى فى بصيرة التشيع إن الله اختار للأمة (أئمة) تميزوا

عنها بأنهم كانوا أكثر (يقيناً) بآيات الله و(صبراً) على طاعة الله وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ 24/32

وهؤلاء الأئمّة (12) قاموا بدور النبى ع فى تكريس القيم الرسالية وتبيان شرائع الدين وقيادة الصفوة المؤمنة من الأمة.

ومن دون جدارة عملية لهؤلاء الأئمّة لم يكن اللّه سبحانه يختارهم ائمة لخلقه، ولم يكن النبى ع يوصى بهم الأمة بتلك اللغة الصريحة ذات التأكيدات المتتالية.

ولم تكن جدارة الأئمّة لمنصب القيادة اتية من انهم ذرية رسول اللّه كما لم تكن رسالة الرسول اتية من انه ابن عبد اللّه وكما لم تكن جدارة اى رسول من رسل اللّه فى التاريخ البشرى اتية من كونه ابن فلان او ابن فلانة، بل لما فيه من كفاءات بلغها بسعيه وإرادته، وإن اللّه لم يبعث رسولا إلا بعد ان علم انه (أكثر الناس يقيناً به وصبراً من أجله).

ب.العصمة: ولكن الأئمّة كما الأنبياء لا يمكنهم أن يتبوءوا مناصبهم الرسالية، من دون العصمة. والعصمة هي: أعلى درجات التقوى، وتعني أمرين:

الأول:ان يكون صاحب العصمة (عارفاً بالدين) فلا يخطئ فى فهمه للرسالة.

الثاني:ان يكون عاملا بالدين فلا يرتكب خطيئة أبداً.

وليست العصمة ذاتية تدل على اختلاف عنصر الأئمّة والأنبياء عن عنصر البشر قُلْ إنما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيّ كما أنها لا تفقد الأنبياء والأئمة شهواتهم الإنسانية وقدرتهم على ارتكاب المعصية وإنما هي تاييد من اللّه للإ نسان الذى يتجاوز ذاته وواقعه بعد ان يرتفع بإرادته الحرة إلى مستوى تلقى هذا التأييد.

ج- الغيبية: وبعد دور الإمام المعصوم يأتى دور الإمام العادل وهو الفقيه العارف بالدين والمخالف للهوى من كان من الفقهاء صائناً لنفسه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوأم أن يقلدوه ، والإمام العادل قد يرتكب خطأ أو خطيئة لأنه غير مؤيد بروح القدس حتى يكون معصوماً إنما الخطا والخطيئة ستذوب فى حياته، وسرعان ما يتمكن من إصلاحه، لأن حياته مبنية على أسس مستقيمة وليس فيها ما يدعوه للانحراف.

والإمام العادل قد يقترب إلى درجة العصمة، إلا ان حكمة اللّه قضت بالا تسرى عليه احكام العصمة لئلا يتخذها بعض الناس وسيلة لتغيير الدين فإذا بهم يتخذون الأشخاص مقياساً للحكم الشرعى، ولكن تبقى رقابة الأمة فعالة على مدى تطبيق الإمام الأحكام.

وغيبة الإمام المنتظر تعنى أن مقياس الشريعة ليس (أشخاص الفقهاء)، بل هناك (قيم) تتجمع فى شخص الإمام الحجة باعتباره التجسيد الحى لها وا لامتداد الرسالى الصحيح والمستقيم للنبى ولطريقته فى تنفيذ مبادئالرسالة،

وبتعبير آخر: إن أى (فقيه عادل) لا يحكم الأمة إلا باسم الإمام الحقيقى الغائب وهو يمتلك منصب (نائب الحجة) وهذه النيابة مقيدة بشروط لا بد أن يلتزم بها وإلا يسترد (الحجة) اعتباره من الفقيه ويسحب نيابته.

وليست الغيبة انتظاراً سلبياً لواقع معسول ياتى فى اخر الزمان كما انها ليست (فراغاً) فى قيادة الأمة إنها هى عملية فصل بين..الأشخاص والقيم لكي لا يصبح الأشخاص هم القيم.

د.الشفاعة: ولأن الولاية مسؤولية كبيرة يتقبلها الشيعى طوعاً، ولأن الحسنات الكبيرة تذهب بالسيئات الصغيرة إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ 14/11، فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ 27/25 فإن انتماء الإنسان العاطفى والعقيدى والاجتماعى والسياسى إلى جبهة الحق يغطى على هفواته وسيئاته الصغيرة، ويكون هذا الانتماء بمثابة شفيع له عند الله لحط ذنوبه وقبول طاعاته.

وحيث تتجسد الولاية فى شخص الإمام تكون الشفاعة للإمام والواقع انها ليست للإمام، وإنما هى لعمل الإنسان وتحمله لمسؤولية الانتماء إلى الإمام وحبه وطاعته له، وتضحيته في سبيل الله تحت لوائه.

ولا تختص الشفاعة بالإمام المعصوم، فإن الإمام العادل(المرجع الفقيه) و (المؤمن الرسالى) يمتلكوننصيباً من الشفاعة عند الله إذ أنّ الانتماء إليهم و التعاون من اجلهم، والخدمة لهم تتحول إلى الخدمة من اجل الله بطريقة غير مباشرة، إذ انّ الخدمة للفقيه او المؤمن الذى جند نفسه لله تعتبر خدمة فى سبيل الله.

ومن هنا تصبح (بصيرة الشفاعة) أداة لترسيخ الانتماء الرسالى وطريقة لتحويل القوة الدينية إلى طاقة عملية منتجة، حيث يصبح شخص الإمام أو الفقيه او المؤمن الرسالى طريقاً إلى الله وطاعته سبباً لغفران الذنوب فسيسعى الناس لخدمتهم والتعاون معهم لمرضاة الله وحسن.. مثوبته، وبذلك يتحول إيمانهم إلى اداة منتجة للواقع العملى، وليس مجرد عقيدة بلا عمل، او عمل فوضوي لا يرتبط بالجبهة المؤمنة إذا تقوم الشفاعة ب:

تحويل القوة الإيمانية إلى طاقة انتاجية.

تحويل الطاقة الانتاجية إلى انتماء اجتماعي وسياسي.

تحويل الانتماء الاجتماعي والسياسي إلى دعم جبهة الحق.

وهذا المفهوم الصحيح للشفاعة لا تجعل الشفاعة بديلاً عن العمل، إنما هي طريقة في العمل، وهي طريقة خدمة الإمام أو الفقيه أو الرسالي.

وليست الشفاعة بهذا المفهوم بديلاً عن الإيمان بالله، إذ الشفاعة تكون عند الله، ولا تكون سلطة على الله بل دعاء إليه فإن شاء استجاب وإن شاء لم يستجب.

والنصوص الدينية تؤكد أن الشفاعة ليست للأشخاص فقط (الإمام الفقيه أو الرسالى) بل (للتشيع) أيضاً، فيكفى أن تكون شيعياً لكى تغفر ذنوبك وتنقلب سيئاتك حسنات شرط ان تكون شيعياً حقيقياً اما فى غير هذه الحالة فإن السيئات تزداد ثقلا ً ، والحسنات تحط وتذوب كما الملح في البحر.

لماذا؟..

لأن الشيعى يتحمل مسؤوليات كبيرة ذات حسنة ثقيلة فى ميزان الله ممّا إذا قورنت بالسيئات الخفيفة فلن تؤثر كثيراً.

ومن هنا..نعرف أن الصلة التى تربط الشفيع بصاحب الذنب هى صلة العمل الصالح الذى يرضى الرب، ورضاء الرب ضرورة لتمشية الشفاعة بل من دون رضاه لن يجرأ احد من القيام بالشفاعة لا َ يَمْلِكونَ الشّفاعَةَ إلا ّ َ مَنِ اتخَذَ عِنْدَ الرّحْمَنِ عَهْداً

إذ الشفاعة الحقيقية لله جميعاً.. قُلْ للهِ الشّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَا لأرْضِ 44/39.

وليست الصلة الرابطة بين الشفيع وصاحب الذنب صلة القرابة النسبية الا ترون كيف نهر الله شيخ أنبيائه نوحاً حين وعده أن ينقذ أهله من الغرق وإذا يأتيه يلفه الغرق (ونادى نوح ربه قال: رَبِّ إِنّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ . 11/45 47.

إن صلة الأهل التى يعترف بها القران هي الصلة الإيمانية ودونها ليست هناك صلة معترف بها ابتداءً من صلة القرابة وانتهاءً بصلة الشرك التى قال عنها الله: وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ 94/6.

عصر الغيبة

الاجتهاد البدعة

التقليد الانتظار

هل ينتهي واجب الولاء بعد عصر الأئمّة؟

وهل تعنى غيبة الإمام الحجة انتهاء دور المسؤولية الإنسانية فى الأرض وتتبخر اوتوماتيكياً كل حكم الله في خلق البشر؟

وهل يعنى انتظار الشيعى لظهور دولة الحق فى عهد الإمام الحجة المرتقب، هل يعني انتظاراً سلبياً ساكناً.؟

بالتأكيد: كلا..انما عصر الغيبة هو عصر جديد انتقل إليه الشيعة بعد أن نضجت فيهم رسالة التشيع وادوا حقوقها، ذلك ان الله الذى اختار الإسلام خاتم رسالاته اختار له امناء عليه هم الأئمّة الاثنا عشر فكفى الله بهم عن مسؤولية اختيار القادة ووجههم إلى اداء مسؤوليات الرسالة الخاتمة و المهيمنة على الرسالات، فلما علم الله أن الأمة تشيعت.. بالرسالة وانبثقت منها طائفة تنبعث بامر الله اختار لوليه الغيبة ليحمل الأمة مسؤوليتين،

مسؤولية العمل بالرسالة ومسؤولية الطاعة فكانت على الشيعة فِي عصر الغيبة مسؤولية الإمامة والتي تعني ثلاث مسؤوليات ثقيلة:

مسؤولية العمل من اجل خلق الظروف الملائمة لخلق القادة الذين تبرز فيهم صفات الأئمّة الطاهرين.

مسؤولية التعرف على هؤلاء..القادة.

مسؤولية الوقوف إلى جانبهم، وسد الباب أمام القادة غير الكفوئين.

وهذا يعنى ان عصر الغيبة يشبه العصور التى تلى مباشرة رحيل الأنبياء حيث تحول المسؤولية الرسالية من كاهل المرسلين إلى كتف الصالحين بعد ان اكمل أولئك واجبهم فى نشرها وخلق الجيل الصالح لتحملها، وكذلك عصر الغيبة فبعد أن أكمل الأئمّة أدوارهم فى خلق النماذج..الصالحة لتحمل رسالة الإسلام ومذهب التشيع عبر الأجيال.. بعدئذ جاء الصالحون لتحمل مسؤولية التشيع. وإنما الفرق بين الأنبياء ونبى الإسلام كان يكمن فى أن الإسلام كان يمكن الأخيرة التي نطقت بها السماء فكان احوج إلى أوصياء يكرسونها فى واقع الأمة ان تراقبه وتتحسس بهيمنته وتتبع الوكلاء الذين يقومون بدوره فِي تسيير امور الحياة، وهم الفقهاء العادلون العالمون الذين هم فِي الوقت ذاته أمناء على الرسالة[1].

الفقيه: علم الدين، عارف بالحياة، كفوء للقيادة

والفقيه هو العالم بالدين، والعارف بالحياة، والقادر على ربط الدين بـ الحياة..انه يعرف التطورات التى تجرى على الساحة فى ضوء رؤيا متكاملة شاملة للرسالة، ويقدر على إعطاء حكم إسلامى فيها انه اداة لتطوير الرسالة وفق الظروف المتغيرة (وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا) كما قال الإمام الحجة.

وفى ذات الوقت فهو امين لايخون الرسالة ولا يزيد فيها ولا ينقص ولا يحرف وأما من كان الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعا لأ مر مولاه، فللعوأم أن يقلدوه.

وفى ذات الوقت فهو اقدر الناس على حمل الرسالة، ويتميز عن الآخرين بقدراته العقلية والجسدية والعلمية والخلقية التي تمكنه من قيادة الأمة[2].

وليس الفقيه هو ذلك الذى لا يعرف الحياة بل لا يعرف من الدين إلا شيئاً

---

(1) روى أن رسول الله قال: (رحم الله خلفائى) فقيل يا رسول الله ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يحيون سنتى ويعلمونها عباد الله وقال الإمام على ، العلماء ورثة الأنبياء

(2) قال الله تعالى ؛ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ السجدة 24

توحى هذه الآية الكريمة ان صعود البشر إلى درجة الإمامة سيكون من على سلم الصبر واليقين فلما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون انتخبهم الله أئمة ليهدوا بأمره.. وفى هذا المفهوم جاء فى الحديث المأثور عن الإمام على ما يدل على انه اولى الناس بامر الإمامة اعلمهم بكتاب الله، وأقدرهم على تطبيق واجباته.

قليلا ً..انه لا يصلح للقيادة ذلك الفقيه الذى يفقد المؤهلات الفكرية أو الجسدية او العلمية او الخلقية التى تحتاجها قيادة الأمة فى الحقبة الزمنية التي يعيشها.

البدعة: الان-حراف عن الرسالة

إنما البدعة الخروج عن الأصول العامة للدين او المذهب وقطع الصلة بين ا لأمة ومنابع ثقافتها من الكتاب والسنة والعقل والإجماع، وهى بالتالى استصدار حكم وصنع شريعة لا تمت إلى الدين بصلة..

وليست البدعة تطوير الشريعة وفق متغيرات الظروف والاعتماد على القواعد الرسالية والبصيرة الدينية.. ذلك أن التطوير السليم دعم للرسالة وعطاء لها.

وإذا تصورت طائفة من الأمة واقع البدعة على اساس انها سد امام احتمالا ت التطور الصحيح فإنما ذلك جمود وتخلف وتقوقع على الماضي البالي.

والقياس السليم المعتمد هو الآخر على أصول الفكر وحدود الشرع (والذى يسمي بالقياس العلمى أو فهم المناط) ليس حراماً، بل يعتمد عليه تطوير الفقه، إنما الحرام هو القياس الصبيانى الذى ينطلق من قواعد كيفية يختلقها الناس وفق مصالحهم وأهوائهم..

التقليد والاتباع:

واجب الأمة اتباع الإمام وتقليد الفقيه.. ولكن ليس ذلك الاتباع السلبى و التقليد الأعمى الذى يريح الإنسان من تبعات التفكير، وحرية الراى، ومسؤولية الاختيار إنما ذلك الاتباع الواعىS[1]R الذى يساهم صاحبه فى مسؤولية القرار ويتحمل جزءاً من تبعته..إذ على الأمة أن تختار إماماً فقيهاً تقياً قادراً، حسب المواصفات التى تحددها الشريعة، ثم تبقى تراقبه لكيلا تتغير فيه هذه الصفات ثم تتبعه وهناك يكون الاتباع واعياً وبصيراً.

إن المفهوم الخاطئ من التقليد هو الذى يتصوره السلبيون حين يزعمون ان التقليد يعنى الابتعاد عن المسؤولية بجعلها فى رقبة المجتهد.. كلا..ان مجرد كون إنسان رجلا ً فقيهاً. وكون آخر جاهلا ً , لا يعنى تعطيل هذا الفرد الجاهل في الحياة وتعطيل دوره فيها.

الانتظار: أمل وإعداد

---

(1) جاء فى القرآن الحكيم آيات عديدة تهزأ بالاتباع وتصور لنا كيف أنه لا يصلح تبريراً للفساد و الإثم .. من تلك الآيات ما جاء فى سورة البقرة الآية (165): وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ َ شَدِ ِ يدُ الْعَذَابِ (165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ ُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ .

الواجب العملي للأمة في عهد الغيبة هو التقليد الواعي البصير للفقيه التقي اما الواجب النفسي لها عندئذ فهو الانتظار والاستعداد للعمل ولا يعني الانتظار ذلك الجلوس الساذج في قبو الأنانية في انتظار الغيب المجهول من وراء ستار المستقبل كلا وليس ذلك الارتخاء الشامل لكل مرافق النشاط بالتخدير المستمر للأعصاب لكيلا تشعر بثقل الألم فتثور ضد الفساد والجريمة.. كلا.. وليس الخروج عن حاضر الزمان بحرارته ونشاطه وإمكاناته، والعيش في مستقبل الآمال بخموله وضعفه.

إن هذا هو انتظار العاجزين والكسالى والمخدوعين اما الانتظار الحق الذي يسري في عروق الشيعي مجرى الدم فهو الأمل والاستعداد، ذلك الأمل الذي يعطيه في كل ظروف الهزيمة هدى وضياء يقاوم الظلم والفساد ويستعد للتضحية في سبيل ذلك [1]

إن الطاعة صبر، ومقاومة المعصية صبر، وتحمل الأذى صبر [2] وهذه جميعاً أعمال وفاعليات إيجابية وليست ردود فعل سلبية.

متى وكيف ان ـ حرفنا؟

الإنسان: المسؤول الأول عن تاريخه

عندما يتوقف الإنسان عن العطاء يتوقف كل شيء في الحياة، هذه الحقيقة تفسر كل منعطفات التاريخ الكبيرة لماذا خارت او انحرفت الرسالات العظيمة التي اعادت بناء حياة الإنسان على اسس جديدة من الخير والصلاح، كرسالة نوح وإبراهيم وعيسى ومحمدﷺ فإذا الجاهلية تعود إلى الإنسان، وإذا بالطغاة من نمرود وشداد وفرعون واصحاب الأخدود وبني امية ينزون على منابر الرسالات ويتبوأون مقاعد الحكم ويكررون مآسي الإنسان ولماذا لم تعد تلك الرسالات تبني الحضارة وتصنع الحرية والرفاه للإنسان؟ ولماذا جمدت او فسدت الثورات الجبارة التي سخنت بها نفوس الملايين من البشر كثورة كونفوشيوس وبوذا ومانى وسقراط.. فإذا بها بعد التوهج والانطلاق وبعد أن أعطت الإنسان خيرات لا تحصى فإذا بها بعدئذ صارت احاديث ترويها كتب التاريخ، ولم يبق منها سوى روافد صغيرة من بعدئذ صارت احاديث ترويها كتب التاريخ، ولم يبق منها سوى روافد صغيرة من بعد سير عارم؟ ولماذا ركدت او انطوت الحركات العلمية الضخمة التي شهدتها حياة البشرية منذ خمسين ألف سنة.. من حركة المصريين الذين ولعوا بدراسة النجوم وزراعة الأرض وخلفوا الأهرامات العظيمة..إلى حركة اليونان الذي خلفوا جمهورية أفلاطون ومنطق ارسطو واليأذة حامورابيس وإلى حركة المسلمين العلمية التي صنعت الساعة وطوروا صناعة الورق والبارود وخلقوا علم الجبر والمقابلة.. فإذا بها كالبحر

---

(1) في صفات المؤمن قال الإمام علي 8: فمن علامة أحدهم أنك ترى له فقهاً في دين وصبراً في شدة) البحار ـ ج67 ص319)

(2) جاء في الحديث عن الصبر ما معناه: البعد عن معصية الله والصبر على طاعة الله ،والصبر على الأذى في جنب الله..

بعد العاصفة ركود قاتل وانطواء قاس.

لماذا ولماذا.. ولماذا.. !!

أأقدار، أم حتميات أم سنن لا تجد لها تحويلا ً ؟ أم ماذا؟..

لا ريب ان هناك اقداراً ومقتضيات وسنناً ممّا ذكرها علماء التاريخ ولكن لا ريب كذلك ان اهم حقيقة تفسر هذه الظاهرات التاريخية هِي الحقيقة المتقدمة..

(عندما يتوقف الإنسان عن العطاء يتوقف كل شيء في الحياة)

فالذين حملوا الرسالات.. والذين فجروا الثورات، والذين قادوا الحركات العلمية إنما هم بشر، أمثال كل البشر، فحتى الأنبياء قالوا واعترفوا قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلا ّ َبَشَرٌ مِثْلُكُمْ .

ولكنهم بشر أعطوا من أنفسهم العطاء المتناسب مع إنجازاتهم.. بشر عملوا الصالحات.. صبروا على الصعاب.. والذين جاؤوا من بعدهم.. كانوا أيضاً بشراً.. ولكنهم بشر لم يفعلوا شيئاً عظيماً، لأنهم بشر توقفوا عن العطاء الحقيقي.

إن كل عظيم خلق شيئاً عظيماً حقق هذه المعادلة:

بشر + عطاء = أمة

وقد تكون جهود واحد من الناس فقط هي التي فجرت طاقات مجتمع ولكن هذا الواحد كان هو الآخر بشراً اراد فاعطى فحرك المجتمع والمجتمع بدوره أفراد استجابوا لهذا الواحد.

إن إرادة الإنسان والتى تتحول إلى عطاء فعظمة فحضارة فحركة تاريخية خالدة..هذه الإرادة لا يمكن تعليلها وتفسيرها ووضع قواعد لها بحيث نعرف متى توجد ومتي لا توجد..الإنسان ذلك الكائن الحر الذى منحت له الاستطاعة ولم تمنح لكائن آخر، وبهذه الاستطاعة.. يريد أو لا يريد كيف ومتى شاء.

وهذه الحرية تعني القدرة على تحدي كل الظروف وكل المقتضيات..

ولأن الإنسان حر فهو مسؤول.. ولكن لأن الحرية تتبع المسؤولية وتحمل المسؤوليات ليس سهلا ً إن البشر يجنح إلى حذف الحرية الإنسانية ودورها فى تفسير الحياة بطريقة تجعلها خاضعة لحتميات معينة وكذلك تفسير التاريخ.

فمن الصعب علينا ان نقول إن إرادة الأنبياء ومحض اختيارهم غير المشروط، كانت الأرض الطيبة التى هبطت عليها رسالات السماء، وإن إرادة المسلمين والمفكرين هي التي صنعت الحضارات الكبيرة.

ولكن ذلك هو الواقع وهو الراى الصحيح فى تفسير التاريخ كله، والتاريخ الشيعى بوجه خاص.ان الشيعة هم الذين حملوا مسؤولية التشيع، وهم الذين جعلوه حركة ثورية رسالية عارمة..

وحينما ذهبت اجيال الشيعة الثائرون خلف من بعدهم خلف اضاعوا التشيع وعافوا رسالة الثورة.. لماذا؟ لأنهم أرادوا ذلك كما أراد..اباؤهم خلاف ذلك.

لقد كان التشيع نتاج إرادة مكثفة لطائفة واسعة من الأحرار والثائرين و المخلصين من أجل الله.. وأما خمول التشيع فى قرون لاحقة فقد كان هو الآ خر نتيجة ضعف في إرادة التحرر وخور في عزيمة الثورة.

لقد بلغ الإخلاص بالشيعة ان دفعهم إلى مقاومة اعتى الحكومات الظالمة، وبناء أكبر حركة تحررية فى التاريخ.. وحين ضعف هذا الإخلاص ضعفت تلك الحركة وأصيح الشيعة طائفة تجمعها مفاهيم تقليدية لا روح فيها.

وحين تعقد اجيال الشيعة اليوم العزم الراسخ لإعادة الروح إلى الأمة فسوف لا تتمكن من ذلك فحسب بل وتخلق بمدى عزمها امتدادات جديدة للفكر الشيعي وأمواج جديدة للرسالة.

إن التخلف الشيعى اليوم إنما هو تخلف مركز افرزته اجيال واجيال، فكلما جاء الجيل اضاف على بدع الماضين اوزاراً جديدة فإذا بها اجتمعت عندنا كما تجتمع رواسب رافد مر علىالأوساخ فطهرها وحملها معه فى.. حفرة ونحن فى تلك الحفرة اجتمع عندنا رواسب تخلف عديدة.

ولذلك فإن عملية التحول فى الرسالة الشيعية لم تجر مرة واحدة إنما بـ التدريج، فحين توقف كل جيل بل حينما توقف كل فرد.. فرد من أبناء الجيل الواحد عن اداء رسالته، وبدل جانباً من المفهوم الثورى عنده وسكت الآخرون وتراضوا به.. حينئذ نشأ التخلف الاجتماعي في جيل ثم في أجيال.

من هنا.. تحمل كل فرد.. فرد من أبناء الأجيال مسؤوليته فى..التخلف الشيعي.

ولكن لا يعنى هذا أن التشيع لم يعد يملك عناصر حية.. بلى..ان نهر التاريخ لم يحمل إلينا رواسب التخلف فقط، بل حمل ايضاً ماءً يصلح لدى التصفية أن يكون سائغاً وطهوراً.. ذلك هو ماء معين التشيع العذب.

فهنالك الثقافة الرسالية الغنية التى عن طريق إعادة تفسيرها وبلورتها تصلح ان تكون افضل اداة للتفجير الرسالى، وهنالك التاريخ النضالى العظيم الذي عن طريق إعادة تقييمه وصياغته نحصل على كنز من الذخيرة الرسالية.

وبقاء هذا التراث الحى من التاريخ هو الآخر رهين جهود افراد من اجيال التخلف، فلولا نضالهم لماتت الثقافة والتاريخ الشيعي كلياً..

إنهم هم الذين ألفوا الكتب وحافظوا عليها وراعوا التقاليد الثورية (مثلا ً إعادة ذكريات النضال الشيعى) بل هم الذين استوحوا من التشيع وقاوموا الباطل مقاومة لم تبلغ درجة التشيع الأول، ولكنها كانت ذات شأن.

من هنا نعرف ان التاريخ كله والتاريخ الشيعى بوجه خاص صنعته إرادة الرجال وعزائمهم وبمدى وجود هذه الإرادة يوجد تاريخ عظيم، وبقدر فقرها تقل عظمة التاريخ ومجد الإنسان.

صحيح أن الحتميات لا توجد فى التاريخ، وإن التاريخ تصنعه إرادة..الإ نسان وإرادة الإنسان حرة.

إلا أن فى التاريخ مقتضيات تساعد على نوع من الإرادة.. فهناك مثلا ً ظروف (تقتضى) الثورة كما إذا تحدت حضارة غالبة شعوباً مستضعفة، وهناك ظروف (تقتضى) الميوعة كما إذا نجحت الثورة فى رد التحدى ووصلت إلى مكاسب مادية مغرية.

بيد ان قدرة الإنسان تستطيع تجاوز الظروف، فلذلك قد تختار الجمود في ظروف الثورة وقد تختار الثورة في ظروف الميوعة، إنما في الأكثرية تستجيب إرادة الإنسان لضغط الظروف وهذا ما حدث فعلا ً فى الإنسان الشيعي.

فعندما كانت الثورة الشيعية اداة معارضة للحكومات الجائرة ووسيلة تنفس للشعوب المضطهدة ضد طغاة بنى امية وبنى العباس كان عناصر..الشيعة نابعين من أرض الجماهير الثائرة، فلم يكن يقبل التشيع إلا كل من وطن نفسه سلفاً على التضحية من أجل الله، إذ اساساً كان التشيع اختياراً واعياً يتقبله الشخص بعد تفكير جدى..انه كان انتماءً مسؤولا ً وكما يكون اى انتماء إلى حركة ثورية خاضعاً لاختيار الشخص ذاته، كذلك الانتماء إلى التشيع، ولم يكن ميراثاً رخيصاً يورثه الأب كرها لابنه ونحن نلاحظ ان التشيع لم يكن يعرف النسب، فهناك اباء شيعة وابناء مستسلمون وهناك اباء يعيشون في كنف الحكم وأبناء يرفضون سيرتهم وحيناً يقتلونهم.

ولكن حين نجحت ثورات الشيعة فإذا بها تشكل في عصر المامون العباسي وما بعده قوة سياسية ضاربة، وحين ترى من السياسة التعايش مع الحكومات لإصلاح الأوضاعالفاسدة [1] وفى عصور تالية نجحت ثورات الإسماعيلية فى السيطرة على مصر واجزاء من المغرب العلوى ونجحت الثورة ال بويه فى انتزاع السلطة الحقيقية من يد الخليفة في العاصمة (بغداد).

هناك بدا خط التحول فى مذهب الشيعة إذ حقق مرحلة من مراحل نضاله فإذا بالشيعة هم الحكام، وإذا بالمبادئ الرسالية مطبقة بشكل ما.

ولقد انتهى فى العصر البويهى دور الشيعة كبناة حضارة ودعاة إلى رسالة إلى رعاة حضارة وعاملين من أجل تثبيتها وضرب القوى المعارضة لها.

وقد حدث مثل ذلك فى فجر الإسلام، حين حكم الإسلام على الجزيرة وتحول عند كثير من المؤمنين به إلى اداة السلطة ووسيلة العيش، إلا إن المعركة صفين جاءت لتخلق جبهة معارضة لهذه الطريقة من التفكير حيث تمكنت هذه الجبهة من إجراء عملية فصل بين إسلام الكراسى والمصالح، وبين إسلام التضحية والرسالة الحقيقية.

---

(1) تقبل الإمام الرضا 8ولاية العهد، وعين أبناءه عند الخلفاء العباسيين، فى محاولة لإصلاحهم قدر المستطاع.

وبعد ان سيطرت هذه الجبهة على الحكم في نهاية القرن الثالث تحولت هي بدورها إلى أداة للسيطرة ووسيلة للمعاش.

الشيعي في إيام البويهيين في العراق والفاطميين في إفريقيا العربية، الشيعي لم يكن ينتمي إلى التشيع بانتخابه الشخصي، ولم يكن يعرفه كانتماء ولائي وسياسي إلى حركة تغييرية إنما كان يرثه كما يرث الواحد منا متاعاً، وكان يدخل في التشيع، لأنه مذهب السلطة ومذهب الأكثرية الساحقة من الناس.

امام هذا التطور وقفت جبهة الفقهاء الذين رصدوا التغيير في التشيع وادانوه، ولكننا لا نعهد في التاريخ الشيعي وللأسف بديلاً ثانياً لمعركة صفين حيث فصلت بين دين الحاكم ومنطقه النابع من مصالحه وبين دين الله النابع من الحق الخالص إنما اقتصرت جبهة الفقهاء بتعرية الحكام وبيان زيف إدعائهم في أنهم يمثلون التشيع الصحيح.

وحين سقطت الحكومات الشيعية، عاد التشيع مرة اخرى إلى طبيعته الثورية، ولكن ليس بالشكل الذي كان عليه سابقاً إذ حمل معه رواسب من عصر السلطة.

ولا ريب أن الحركات السرية التي تحولت إلى مذاهب باطنية (أمثال العلويين، الدروز، النصيريين وغيرهم) هم جزء من هذه الرواسب.

وعاد التشيع مرة اخرى إلى الحكم في العهد الصفوي، وعادت معه بالطبع رواسب العهود الماضية بالإضافة إلى أفكار جديدة خلقتها ظروف السلطة الجديدة وبالإضافة أيضاً إلى الأفكار الصوفية والوثنية، التي صبت في رواسب التشيع من مجاري الثقافات العتيقة، واصبح التشيع اليوم يعاني من أفكار القيد السلطوي القديم ومن أثقال الثقافات الدخيلة.

لقد قاوم الفقهاء بكل الوسائل المتاحة لهم تلك الأفكار الدخيلة [1] الصوفية والوثنية، ولكنهم لم يقاوموا بتلك الشدة والحزم لأفكار السلطوية التي نبتت في حقل التشيع بسبب ابتعاده عن الثورية الرسالية.

وحين يعود التشيع إلى سابق رسالته، فسوف يكتشف الشيعة الجدد الذين لا يعتبرون التشيع ميراثاً ولا يعتبرونه موضة مرغوبة عند الناس ولا محلاً تجارياً رابحاً، سوف يكتشف هؤلاء الشيعة الجدد الذين سوف ينتمون إلى التشيع على اساس انه رسالة ومسؤولية ثقيلة، وارتفاع إلى مستوى التضحية الكاملة من أجل إنقاذ الإنسان من العذاب.

نقول:

سوف يكتشف الشيعة الجدد:ان التشيع ضياء تلفه غيوم الأفكار السلطوية والثقافات الدخيلة.. فيتخلصون منها مرة واحدة

---

(1) حارب العلامة المجلسي الأفكار الصوفية والوثنية الدخيلة في إيران، واستطاع أن يقتلع جذورها من ارض الجماهير وذلك في نهاية المئة الأولى بعد السنة الألف من التقويم الهجري.

حين تصبح الرموز قشوراً

الرسالة محتوى وإطار، محتوى الرسالة: الصدق والعزيمة وحب الناس، و التضحية، والإيثار، وبالتالى الإيمان والعمل الصالح..اما الإطار فهوالصلاة، و الزكاة وتلاوة القرآن، والالتزام بالعبادات.

وحين يتعهد الإنسان بالرسالة عن قناعة وفهم، فهو يستهدف المحتوى الرسالي من خلال ممارسته لإطارتها المعلومة.

فهو يستهدف صدق العزم وحب الناس والإيمان من الصلاة فالصلاة بالنسبة إليه إطار ومحتوى.

اما حين يرث الإنسان الرسالة إرثاً، فهو يفرغ الإطارات من محتوياتها فإذا به لا يفهم من الصلاة إلا بضعة حركات ونشاطات جسدية فحسب، وهنا تضيع الصلاة عند هذا الجيل، إذ أنها لا تؤدي رسالتها، وكما يقول ربنا:

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ اضَاعُوا الصّلا ة وَاتّبَعُوا الشّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّا

ولكن لماذا يحدث ذلك؟ وكيف يفرغ الذين يرثون الرسالة، الرسالة من محتواها؟

يحدث ذلك بسبب بسيط هو ان العقل البشرى يشبه المصباح المنطفئ لا يضيئ من حوله، لو لم يمسه النار، والنار التى تشعل مصباح العقل هى الحاجة، فمتى ما احس الإنسان بالحاجة، تحرك عقله ليكتشف الوسيلة التى تشبع حاجته.. لذلك لما جاع آباؤنا الذين عاشوا فى الكهوف اكتشف عقلهم وسيلة الصيد، وحين مرضوا وتالموا من أكل اللحم النيء استثار الالم عقلهم فاكتشفوا النار وعرفوا فن الطبخ، وحين شعروا بالبرد حركوا عقولهم لتبتدع لهم اللباس والمأوى.

وهكذا الأمة، حين تتحداها أمة قوية غازية تستثير عقلها. لتكتشف طريقة مقاومة العد ّو فإذا بها تكتشف حضارة عملاقة هكذا اكتشفت شعوب اوربا حضارتها بعد التحدى؟؟؟؟، فإذا به يضيء وحين لا يوجد لدينا نار نقتدح بها المصباح فإنّه لا يضيء، وكذلك حين لا توجد لدينا حاجة فإن العقل يتوقف.

وماذا يحدث لو توقف العقل؟ تحدث تماماً القشرية حيث، لا يفهم الإنسان من الدنيا إلا ظاهراً من قشورها، اما اللباب التى هى الحقيقة من وراء القشور فإنّه لا يعرفها، لأن مصباح عقله ظل منطفئاً لأنه، لم تمسه نار الحاجة.

الرجل الذي يحتاج إلى التدفئة، فيثير عقله ليكتشف اللباس والمسكن يختلف عن ذلك الذي يرث اللباس والمسكن دون شعور بالحاجة إلى التدفئة، فهذا لا يعرف من اللباس والمسكن إلا ظاهرهما وقد يتخذهما زينة وترفاً، بل وقد يتخذ لباساً لا يدفي، ومسكناً لا يغني عن البرد شيئاً.

هكذا الأمة التي ورثت الرسالة من بعد اهلها الحقيقيين، إنها لم تتحسس بـ الحاجة إليها، وتبعاً لذلك لم تحرك عقلها لاكتشاف الأهداف المتوخاة من طقوسها، إنما اتخذت ظاهراً من الطقوس تقليداً وراثياً، وتركت اللباب لا تعمداً بل جهلاً.

والأمة الإسلامية مشتركة فى هذا الداء جميعاً داء القشرية إلا ان البلاء عند الشيعة أعظم، لأنهم كانوا الحركة الثورية داخل هذه الأمة.. كانوا صرخة المعارضة الساخنة.. كانوا الروح اليقظة التي تحملت مسؤولية مقاومة التحريف، واعطت فى هذا السبيل الكثير من التضحيات لذلك كانت النظرة القشرية بالنسبة إليها تعني شيئاً مؤسفاً واليماً.

إنها تعنى الحرفية فى حركة ثورية في تجمع نضالى، فى انتماء رسالى.. بينما تعنى القشرية لدى الأمة حرفية التطبيق فى الدين، فى نظام اجتماعى سائد، في ثقافة راكدة تدعم هذا النظام.

من هنا كانت النتائج القشرية الحرفية فى تطبيق التشيع اكبر خسارة منها في تطبيق الإسلام عموماً.

دعنا الآن نلقي نظرة على هذه النتائج الخطيرة.

القشور هي التي بقيت

لأن الشيعة كانوا في يوم أحق الناس برضوان الله وأقربهم إلى جناته.

ولأنهم كانوا فى يوم ينتمون إلى حركة اصيلة، منسجمة مع روح الإسلام وكل قيمة رسالية.

ولأن تاريخهم ملىء بالتضحيات القيمة في سبيل الدفاع عن الرسالة ومقاومة التحريفية السياسية والاجتماعية والثقافية.

ولأنهم عاشوا في ظروف رهيبة ورثوا مرارتها وماسيها، وبالتالي فهم حتى اليوم مطاردون من قبل اعدائهم بالأمس الذين هم بدورهم ورثوا من ابائهم البغضاء والشنآن وحب الانتقام ضد الشيعة.

لكل ذلك اصبح الشيعة يزعمون انهم هم الشعب الذى خصهم الله بجناته وكتب لهم رضوانه إلى الأبد.

او بتعبير آخر الثقافة الشيعية التاريخية كانت قشرة ولباب.القشرة كانت المآسى الظاهرة، الجدليات الفكرية التي تثبت واقعية المذهب..العداوات العديدة المزروعة فى افئدة الطوائف الأخرى بفعل حنيفية المذهب ورفضه المستمر لكل الأوهام والأساطير الشائعة ذلك اليوم..اما اللباب فكان الالتزام

المسؤول بالخط الصحيح فى الحياة، إيماناً وتشريعاً خلقاً كانت الثورية الهادفة تغيير كل انحراف باطل داخل الأمة الإسلامية.. وكانت بالتالى الثورات المتلاحقة التى فجرها الشيعة ضد الطغاة والمنحرفين والمستسلمين للواقع الفاسد.

اما اليوم فقد ذهب اللباب، والقشور هى التى بقيت، كما العاصفة تمر، ويبقى وراءها غبار كثيف.. يزعم السذج أنه هو العاصفة كما يزعم شيعى اليوم ان التشيع ليس سوى اجترار وتكرار الجدليات والاستمرار فى خط العداء ضد كل الفئات الأخرى.

وللأسف اصبح الشيعى اليوم يتمتع بهذه الصفات الثلاث التى حولت الثورة الشيعية التاريخية إلى حروف فارغة، كما شجرة اجتثت من فوق الأرض.. وهي:

اجترار المآسي.. والدموع اللامسؤولة

ليس فى تاريخه حسب فهمه لتاريخه سوى الماسى والويلات.. قتل، وتشريد، وحروب فاشلة تتصل بمذابح دامية، وامال محطمة، كما تتحطم أمواج البحر فوق صخور الشاطئ..الف واربعمائة عام من تاريخ أمة لم يبق منها سوى مذابح وكوارث فجرت دموع الملايين من الشيعة، وهم يرددون هذه الرائعة الشيعية التى كانت فى يوم انشودة الجهاد، وتحولت بفعل الفهم الخاطئ إلى أداة يأس وحرمان..

نحن بنو مصطفى ذوو غصص يجرعها فى الأنام كاظمنا
ونحن اعيادنا ماتمنا يفرح هذا الورى بعيدهم

الدموع الشيعية كانت فى يوم وسيلة إعلامية ضد أعدائهم.. كانت دموع فاطمة الزهراء تمهيداً لخطبتها التى قالت فيها: الا قد أدى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وابعدتم من هو احق بالبسط والقبض، وركنتم إلى الدعة، ونجوتم من الضيق بالسعة، فمجتم ما وعيتم، ووسعتم ما تسوغتم، فإن تكفروا انتم ومن فى الأرض جميعاً فإن اللّه لغنى حميد إلا وقد قلت ما قلت على معرفة منى بـ الخذلة، التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم

وكانت دموع زينب ابنة فاطمة تذليلا ً لعنجهية الأمة، ولتعبر كلماتها الرسالية إلى أفئدتهم الصخرية.. تلك الكلمات التى قالت فيها: أتبكون وتنتحبون؟ فلا رقات الدمعة ولا هدات الرنة، إنما مثلكم كمثل التى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً، تتخذون ايمانكم دخلا ً بينكم، الا وهل فيكم إلا الصلف النطف، والعجب والكذب وملق الإماء وغمز الأعداء، او كمرعى على دمنة، أو كفضة على ملحودة..الا بئس ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط اللّه عليكم، وفى العذاب أنتم خالدون.. فتعساً ونكساً وبعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي وتبت الأيدي،وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من اللّه ورسوله .

ومآسى زين العابدين 8كانت مجرد أداة رسالية لخطابه العظيم فى المسجد

الأموى، ذلك الخطاب السياسى الذى زلزل عرش أمية فى عاصمة ملكها، وقال فيه (وهو يؤنب خطيب البلاط الأموى) لقد اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق، فتبوأ مقعدك في النار .

وقال مشيراً إلى الطاغية يزيد عندما امر المؤ ّ ذن ان يقطع عليه خطابه بالآذان أسألك محمد جدى أو جدك؟ فإن زعمت أنه جدك فقد كذبت وكفرت، وإن قلت إنه جدي فلم قتلت أبي ظلماً وعدواناً، وانتهبت ماله، وسبيت نساءه؟

ولكن ماذا بقيت من الدموع الشيعية؟ بقيت قطرات ماء رخيصة تتساقط على احضاننا المليئة بالجريمة والفساد، لتغسلها، ولتقوم من مجلس العزاء محصنين ضد عذاب الله، وضد محاسبة التاريخ.. تماماً كبكاء أهل الكوفة بعد مقتل سيد الشهداء..اليس كذلك؟

اصبحت الدموع وسيلة للتحلل من المسؤولية، بدل ان تكون وسيلة لتكريس المسؤولية، وتعميق الشعور بها.

ولكن إلى متى نجتر المآسى؟ ومن يقول: إن هذه المآسى هى مآسينا؟ أو كنا في يوم فى خط فاطمة الزهراء عليها السلام حتى ندعى ان ماسيها هى ماسينا، ونبكى عليها؟ إننا يومياً نقتل عشرين فاطمة، ونذرف فى المساء الدمع عليها؟ لماذا نقتلها، ولماذا بعدئذ نبكى عليه؟ إن هذا هو الطلاق بين التشيع الصحيح والشيعة اليوم.

وكما فاطمة كذلك الإمام على 8، فسيوفنا تحاربه وتحارب أولئك الذين يمثلونه فى الواقع اليومى.. تحارب مبادئه السامية، وقيمه المقدسة، وقلوبنا تبكى عليه..ايدينا تصافح معاوية بن أبى سفيان كل صباح. ومساءً تلهج ألسنتنا بلعن معاوية بن أبي سفيان.

وزينب الكبرى هي التي نسبيها يومياً، نعتقلها في سجون مظلمة، نعتقل مناهجها الرسالية وفلسفتها فى الحياة، ونحبس نورها عن الملايين من نسائنا، ونساء العالمين، ولكننا وبدون خجل نلطم صدورنا فى المساء حزناً على زينب بنت علي .

ومن الناحية النفسية.. سيكون هذا التناقض بين السلوك والتفكير هو أكبر ضامن لبقاء السلوك المنحرف، حيث إننا نتخلص من وخز الضمير تجاه واقعنا الفاسد، بتبرير انتمائنا الكاذب إلى التاريخ الصحيح، حيث نرجو ان يشفع لنا هذا التاريخ تخلفنا عن اداء مهامنا اليومية، فترانا نبكى على الثائرين بدل ان نكون نحن الثائرين، وترى اعيننا تفيض من الدمع حزناً لماسى الثائرين، وايدينا تقطر دماً لاشتراكنا في ذبحهم يومياً.

ليس البكاء وسيلة خداع الذات، إنما هو وسيلة تفجير طاقات الإنسان، كما ليس لأحد الحق ان ينسب نفسه إلى جيل الثورة ويبكى عليها لو لم يكن عملياً في الثورة الأبدية ضد الظلم والفساد، وضد تحريف حكم الله.

تكرار الجدليات

الف دليل من العقل والف دليل من النقل، جمعناها فى كتاب كبير لإثبات أحقية علي8 بالخلافة بعد الرسول x.. وهل كان حق علي فى الخلافة محتاجاً إلى هذه الأدلة..نهج على أبسط دليل على حقه فى الخلافة، مواقفه، سلوكه، متاجرته بنفسه مع الله.. كانت هى أقوى دليل على حقه فى الخلافة الرسالية ولكن يوم كان علي 8شخصاً يمشي بين الأشخاص لم يكن يهدف أن يجلس مكان فلان وفلان بشخصه، بجسده بنسبه، بصباحة وجهه، بشجاعة يديه كان يهدف أن يجلس نهج على على عرش الأمة، ومن قبل فى نفسية الأمة.. لذلك أبى الإمام على 8أن يتوسل بالخداع، بالمكائد التى برع فيها هو كثيراً وأكثر من خصمه معاوية وقال وما معاوية بأدهى منى أبى أن يقول (نعم) لسيرة الشيخين يوم مد إليه عبد الرحمن بن عوف يده ليبايعه بعد مقتل عمر، أبى عرض أبى سفيان بتأييده، ضد أبى بكر.. لماذا؟ لأنه أراد نهجه ولم يرد شخصه، ولو عمل بهذه الطرق كان يربح شخص علي ويفشل منهجه، وهذا ما لم يرده علي.

واليوم.. مضى الإمام على، وأخذنا نؤيد شخصه عوضاً عن منهجه، ونلهث وراء أدلة عقلية ونقلية تثبت أن شخص على 8كان أحق بالخلافة من شخص فلان.. ويضيع ألف عام في هذا الجدل

كل ذلك، بديلاً عن مبادئ علي 8، وليس وسيلة له أو لا أقل رديفاً له..

شخص علي 8استشهد في محراب صلاته في الكوفة، وصلى عليه ربه من فوق عرشه، وجزاه عن الإسلام خير جزاء الصالحين..

ولكن نهجه هو الذى بقى فى ايدينا فاين نحن منه؟ وماذا تجدى الجدليات الفارغة فى اثبات نهج على.. بل أساساًنهج على 8، واضح كالشمس، إنما علينا أن نجسده بالأعمال.

وإن كان لابدّ من اثبات، وإن كان فينا حب عميق وولاء ثابت للإمام على 8..اذاً دعنا نجسد مناهجه لتكون هى قبل كل شيء أكبر شاهد على سلامة تفكيرنا.. وإلا.. فإن اللسان الذي يلهج بمدح علي 8، ثم يمارس الفتنة، ويشيع الفاحشة، ويسخر من قوم مؤمنين إن ذلك اللسان يمسخ مدح على ويسيء إلى صاحبه.

إن الجدليات اصبحت اليوم تبريراً للواقع الفاسد الذي نعيشه ولنقول لأ نفسنا إن كنت لست من الصالحين فإني أحبهم..

لأصبح منهم عند العداد أحب الصالحين ولست منهم

إن الله لا يضيع في الحساب، وهو الذي قال سبحانه لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ (123 4)، (52 22).

ولذلك فإن كل نفس رهينة باعمالها، وليس بعواطفها ولا يشفع للإنسان

شيء بمثل عمله وقد فضح الإمام الصادق 8هذا الحب الكاذب في بيتين من الشعر:

هذا لعمرك في الفعال بديع تعصي الإله وأنت تظهر حبه
إن المحب لمن احب مطيع لو كان حبك صادقاً لأطعته

وقال الإمام علي8 أيضاً يا ابن جندب بلغ معاشر شيعتنا، وقل لهم لا تذهبن بكم المذاهب فوالله لا تنال ولايتنا إلا بالورع والاجتهاد فى الدنيا، ومواساة الأخوان في الله [1].

دعنا نترك الجدل إلى العمل، والعاطفة إلى العقل

ج. الانطواء على الذات

لأننا الطائفة المختارة التى خصها ربها برضوانه، ولأننا على حق فى حبنا لآ ل البيت وولائنا لهم.. فإننا إذا أفضل الناس، ولأننا كنا أعداءً تقليديين لكل الولا ة الطغاة فلابدّ ان نبادل الناس العداء ونحاربهم، وننطوى عنهم، ونعتزلهم وما يعبدون من دون الله.

لو كنا شيعة حقاً لكان الانطواء طبيعياً.. لأن التشيع ثورة رسالية، وهى نفى لمناهج الحياة السلبية، ولذلك يعاديها المستسلمون للواقع الفاسد، ولكننا لسنا شيعة إلا بالإسم والإسم ابداً لا يفصل طائفة عن اخرى، فلماذا إذا نحارب الناس، ونتقوقع في اقبية الماضي؟

وأعداؤنا.. لماذا يستمرون فى محاربتنا؟ لماذا أصبحت الشيعة عقدة دفينة في خلفية شعورهم.. بينما نحن قد ألقينا السلاح منذ دهر بعيد، واستسلمنا لواقعنا وواقعهم الفاسد؟

إن الانطواء ليس سوى جزء متخفى من شعورنا بالعزلة التى يفرضها اعداء الثورة لأبعادها عن الجماهير، وهو داء يجب التخلص منه، فى حالة الثورة، فكيف ونحن مستسلمون؟

هذه ملامح عامة عن ممارستنا القشرية للتشيع..اما التفاصيل فسوف، نستعرضها تباعاً في أحاديث عن..

قشرية الشعائر.. وقشرية القرآن.. وبالتالي قشرية الأنظمة.

الشعائر.. وسيلة أم هدف؟

الشيعى الأول كان يصلى.. ويحج، ويصوم..الشيعى اليوم هو الآخر يصلى، ويحج، ويصوم..انما الفارق الكبير هو أن الشيعى الأول، كان يتخذ الصلاة وسيلة للتزود بالإيمان الصادق الذى يعطيه المزيد من القدرة على العمل الصالح فى واقع الحياة، وبذلك كانت مقدمات الصلاة عنده (من وضوء وطهارة

---

(1) تحف العقول ص23.

8) وارتياد المسجد و.. و) تهيئة نفسية، فإذا به (كما حدث للإمام الحسين حين يقوم للوضوء يصفر لونه، ويخضر حيناً اخر، وترتعد فرائصه فيسأل ما بك يا ابن رسول الله؟ فيقول:اتدري بين أيدي أي جبار أريد أن اقف؟

أما التكبير فهو يعنى عنده مفهوماً حقيقياً يمارسه ويكرسه فى واقعه.. فهو يعنى عنده الله أكبر من كل طاغوت متسلط فى المجتمع ومن كل جبت مستبد بالقلب.

إن كلمة (الله أكبر) لا تتناقض عند الشيعى الأصيل مع واقع حياته إذ أنه لا يعطى قيمة نهائية لشخص او لشىء إلا بقدر ارتباطه بالله سبحانه، ولأن كلمة الله أكبر لا تتناقض مع حياة الشيعى فإنه يلفظها بتفهم وحرارة ومن دون تكلف.

وحين يقرا الشيعى سورة الحمد او سورة الإخلاص، وحين يركع لله ويسجد ويقوم لله، ويقنت قائلا ً:ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، فإن أية كلمة أو هيئة يمر بها لا تناقض هى الأخرى واقع حياته.. ولذلك فهو يهوى الصلاة وينطلق منها فى ممارسة وتكريس التوحيد والعمل الصالح فى الحياة [1].

إنطلاق وهو المكان الذى يربط السماء بالأرض، وإذا بالمسجد مدرسة علم، ومنال هدى، ومركز تجمع.. من أجل التعاون على البر والتقوى، ودائرة تخطيط للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وإذا بالمؤمن إذا دخل المسجد يدخله ليتلقى التوجيه في حياته ولتتوثق علاقته بالآخرين من أبناء الأمة.

أما صلاة الشيعى البديل، فإنك تراه كل يوم..اما المقدمات الطهارة الوضوء) فإنها تحولت إلى طقوس ظاهرية، هم الإنسان منها ملاحظة إيصال الماء إلى جميع (بالتركيز) أعضاء الوضوء، ولا بأس إذا اراق من ماء الشرب عدة غ الونات، وتأخر عدة ساعات،أما مسائل الوضوء فإنها كقصة (ألف ليلة وليلة) تبدأ ولاتنتهى.. وحين الوضوء لا بأس بممارسة الغيبة والتهمة، ولابأس بـ التفكير فى الغش وأكل السحت.. فما دامت غالونات الماء تصب على يدك فإن الوضوء نور. وأهم شىء يجب عليك أن تعرفه ولا تنساه هى النية، وعليك أن تتقن مسائلها بدقة،وإلا فقد يعنى بطلان الوضوء وبطلان صلاتك، وخراب بيتك.

ولا باس ان تعرف ان الوضوء حسب ما جاء فى القران غسلتان ومسحتان، وإن صب الماء على اليد من فوق، وليس من تحت، ذلك لأنه قد تقا ّبل رجلا ً من مذهب اخر، وعليك أن تتقن الدليل المضاد له خصوصاً وهذا اهم مسالة خلافية بين المذاهب.

إن صرف نصف ساعة فى مقدمات الوضوء لا بأس به.. بل هو واجب و

---

(1) روى أنه كان النبى x يقول لبلال:إذا حان موعد الأذان، يا بلال، ارحنا بالصلاة لما كان يعيشه النبى من شوق لهذه الفريضة العظيمة، وهكذا كان الشيعى الصحيح.

السبب أن الوقت زائد، والأمور مقضية، والحمد لله.

اما حين يقف الشيعي الجديد إلى الصلاة فإن اهم شيء عنده ان يتاكد من إمام الجماعة، ومن أصله، ومن نسبه إلى سيدنا آدم 8، وإنه هل يوجد عنده زلة فى عمره، عنده أو عند أحد من أقاربه. وأذن..الصلاة فرادى خير، لأن إمام الجماعة فاسق..

وقبل الصلاة عليك أن تتقن النية[1] وهياخطار بالقلب وقبل إن تتأكد كلياً من صحة نيتك فلا تكبر، وإذا كبرت وكانت نيتك باطلة فاعد التكبير، وعليك أن تدور (فرة ونصف) من أجل أن تبطل تكبيرك الأول.

وعند التكبير ليس مهماً ما تقصده، إنما المهم ان تتلفظ بحروف التكبير بشكل جيد، وإلا.. فأعد التكبير مرة وعشر مرات ومئة مرة والوقت زائد والأ مور مقضية.

وكذلك القراءة.. فلا عليك أن تعرف معنى سورة الحمد ولا مدى ارتباط هذه السورة بحياتك، إنما عليك أن تتلفظ بحروف (ع ض ق غ) بشكل لا يتحول (ع إلى أ) ولا (ض إلى ظ) ولايتبدل (ق إلى غ) أو بالعكس.

أما إذا قلت (قير المغضوب عليهم) فإن كل صلواتك باطلة.

اما المسجد فإن كلام الدنيا حرام فيه، وعليك ان تقبع فى زاوية منه، وتجتر كلمة لا إله إلا الله ولا بأس أن تفكر حينئذ فى أى شيء آخر غير الله..إذ الأذكار ليست وسائل للتذكير والانتباه، إنما هى وسائل لتحريك اللسان.. واستجماع الذهن للتفكير.

أما العالم الدينى الذى يبحث فى السياسة والاقتصاد والاجتماع و.. و.. و . فإنّه فاسق، ومسجده مسجد الشياطين.

وكما الصلاة، كذلك الصيام، فإذا بشهر رمضان لكل انواع التسلية والترفيه، دون أن يكون للصوم فيه أي أثر اجتماعي أو خلقي يذكر.

وبذلك فرغ الصوم من مسؤولياته الاجتماعية، وتحول إلى قشر هو الجوع والعطش. وتغيير مواعيد الطعام والمنام.

---

(1) جاء في الحديث (نية المؤمن خير من عمله) (لكل أمرئ ما نوى) وجاء في آية كريمة قل كل يعمل على شاكلته حيث فسرت كلمة شاكلته بالنية .. ومعنى النصوص إن العمل لن يتصف بالصلاح، او الفساد إلا بالهدف الذي يريد الإنسان تحقيقه به فمثلا ً الصلاة بهدف الطاعة عمل صالح، والصلاة ذاتها بهدف الرياء عمل صالح، والصلاة ذاتها بهدف الرياء عمل طالح، وكذلك كل عمل لايتخذ صبغته إلا من خلال نية المرء . تلك الـنية التي تقرر ماذا كان العمل،مفيداً او ضاراً، وبالطبع لا تعني النية التلفظ باللسان او همساً او اخطاراً إنما تعني الغاية التي يقصدها الفرد من وراء العمل فلو استهدف الإنسان التظاهر بعمل الخير ليعجب الناس ثم تلفظ بالقربة فلن تكون صلاته قربة إلى الله بل بعداً منه.

الحج..اصبح الإطار الفارغ[1]

والحج لم يعد تلك الفريضة الروحية المادية التى تخلق زخماً جديداً فى ضمير الأمة كل عام، وفرصة لإعادة التقييم في كافة البرامج الحياتية..

لم يعد الحج مؤتمراً إسلامياً يقرر مصير (الخليفة) الثالث عثمان، وينحيه من الحكم، كما يقرر من قبل مصير المشركين وينحيهم من جزيرة العرب بقراءة سورة (البراءة).

لم تعد (عرفات) تحتل مركز (مجلس الأمن) الإسلامي أو (الأمم المتحدة) ا لإسلامية، ولم تعد (منى) (الكومنولث الإسلامى) أو (السوق الإسلامية المشتركة).

كما لم تعد المناسك الأخرى تعنى معانيها.. فلا الطواف يهدف بيان معنى القربان والتضحية، ولا السعى يهدف تكريس معنى السعي والعمل من اجل الله ، ولا الإحرام يرمز إلى معنى التقوى عن كل المحرمات وفق حكم الله ولا التلبية تعني إعادة البيعة مع الله لتطبيق شرائعه، ولا، ولا..

إنما الباقى من الحج مجموعة ممارسات وقراءات تتخللها اعمال غريبة يجب التعبد بها دون التفهم لها ولمعانيها، وبعيدة عن كل الممارسات فى حياتنا اليومية، ولذلك حين يعود الحاج إلى بيته،لم يحمل معه زاد الدنيا، كما لم يفلح بالحصول على زاد التقوى، كما أمر بهما الله تعالى فى كتابه (البقرة 197 و 30 h27).

إنما حمل معه (اسم) الحاج ولا يحق له أكثر من هذا الإسم، إذ أنه مارس مجموعة أسماء، وكان نصيبه منها اسماً لا أكثر.

والحاج لم يعد فى عرف الجماهير، ذلك الذى يحمل معه سلوكية جديدة تعطيه المزيد من الثقة بعلمه وعدالته، إنما وفى بعض الأحيان، اصبح الحاج عند الناس ذلك الرجل الذي عرف كيف يحور معانى الدين فيستخدم ذلك فى مصالحه.

---

(1) الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ البقرة 197وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ h27- 30

القرآن حروف بلا معنى

تتغذى الأمة بمصادر ثقافتها، فإذا انقطعت عن تلك المصادر فسوف تنقطع با
لطبع عن الأصالة والاستمرار.

والشيعة لم يعودوا يفهمون لغة المصادر الثقافية، وانفصلوا عنها، وانقطعوا بذلك عن مصادر ثقافتهم.

صحيح ان القران نزل بلسان عربى مبين، وكذلك الأدعية والزيارات، وخطب نهج البلاغة والأحاديث وما اشبه، وصحيح اننا عرب ننطق بلغة الضاد، ولكن ا لأصح سطحية الرؤية التى ننظر من خلالها إلى الأشياء، تحجبنا عن الاتصال بروح القرآن الحكيم وروح الأدعية والزيارات والأذكار الدينية.

وفرق بين أن لا تفـ ـهمها لغة أو تفهم بشكل خاطئ.. بل الثانى أدهى وأمر، وهو الذي حصل فينا وللأسف.

إننا نفهم القران والرسالات الأخرى كحروف مطلوبة بذاتها وإذا فهمنا معنى منها، فإننا سوف ننظر إلى ذلك المعنى بالذات منقطعاً عن اصله وسياقه وروحه، وبذلك نميت الكلمة، ونميت مفهومها، لو بقي لها مفهوم والسبب؟

السبب، إن فهم اية لغة بحاجة إلى ان تكون فى الأجواء المناسبة لها، اترى هل من الممكن أن تفهم لغة الرياضيين، أو علماء الفلك أو الكيمياء أو..او.. من دون ان تعيش في اجواء تلك العلوم؟

كذلك لا يمكن فهم القران، إلا إذا ارتفع المرء إلى مستوى لغته وبالضبط إلى جو الرسالة التي عنها ومن خلا ـلها ينطلق القرآن.

ولأننا نعيش حياة الوارثين للرسالة من دون فهم او قناعة ومن دون إحساس بالحاجة، فإننا لا نفهم القران، وماذا تعنى اياته؟ واية مشاكل تريد أنهائها ومعالجتها؟ تماماً كالذى ورث بيتاً بنى من اجل إشباع حاجات لا يحس بها، وتوفير ضرورات لا يفهمها، فإذا به لا يستفيد من مرافقها، بل يزعم انها زينة ونوافل، كذلك القرآن جاء ليحل مشاكل، ويشبع حاجات ويوفر ضرورات.. إلا ان امة التخلف لا تشعر بالمشاكل، ولا تتحسس الحاجات، ولا تفهم الضرورات، ولذلك فهي لا تستطيع معرفة القرآن.

ولأننا لم نفهم القران، اتخذناه رسماً نتلهى بقراءته، فإذا بنا نصرف مزيداً من الوقت (الفائض) فى معرفة (القراءات السبعة) وتحديد كمية حروف القرآن، وبتعيين (خواص السور) فسورة (يس) 0للأموات، وسورة (الرحمن) للأحياء، وسورة (المائدة) للرزق،وسورة (B) للكربات، وسورة (البقرة) للحليب وسورة

(آل عمران) للعمارة.. و و..

وإذا بالمقرئين يتغنون بايات القران ويجعلونها متعة للمكروبين، وتسلية للفارغين.

وإذا بالتفاسير تنبش اصول الكلمات، وتحول القران حيناً إلى ملعب مباراة فى علوم الصرف والنحو والفقه واللغة، وحيناً إلى ساحة مع ّركة بين سيبويه ونفطويه والأخفش وابن العصفور،وإذا تجاوز التفسير كشفيات (الكشاف) في اللغة وقع في وهميات الرازي في الفلسفة.

وجاء المفسرون الجدد يجعلون القرآن كتاب علوم، ومرجع اكتشافات، ويستنبطون من كل لفظة في القرآن مفتاح علم من العلوم.

القران كتاب رسالة، كتاب حضارة كتاب الإنسان فاين تذهبون؟ ولكن القشرين لا يفهمون، إنهم اتخذوا القرآن رسماً ولم يعرفوا أنه لغة الحقائق (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها).

وإذا اهتدى واحد منهم سبيلا ً لفهم القران اراد ان يفهم منه الآيات التى تكرس مصالحه في الحياة، او لا اقل لا تعارضها، وترك سائر الآيات او اولها حسبما شاءت اهواؤه، وبذلك نتج الفهم التجزيئى للقران الحكيم، ذلك الأمر الذي عارضه القرآن بشدة وأوعد القائمين به أشد العذاب، وقال.. الذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ الحجر 91، 92.

إذا اراد التجزيئى فهم اية، اقتطفها من سياقها واراد ان يفهمها لوحدها، وذلك لكي تكون له مطلق الحرية في التأويل فيما إذا عارضت أهواءه.

إنما القران كل لا يتجزا، وفهمه لن يكون إلا بمراجعة كله لو ترك علمه لأ هله..

القرآن وبصائر وهدى

جاء فى القرآن أن القرآن بصائر وهدى [1] والبصيرة هى الرؤية هى المنظار الذى يوضح ويبلور النظر إلى الأشياء، هى الوسيلة إلى الفهم والعقل والسبيل إلى السعي والعمل.

والبصيرة بالتالى هي رمز، ونحن نختار هذه الكلمة الرمز لأنها اقرب إلى ادبنا الحديث، ورموز القران ّ ، تماماً كاية رموز اخرى لا تستطيع ان تؤدي رسالتها الا إذا اتخذت سبيلا ً إلى ما وراءها من الحقائق.انظر فى قصة آدم يقصها القرآن فى عدة مناسبات لتبيان طبيعة الإنسان، وكيف يهبط إلى مستوى المعصية، ثم يتوب ويسمو مرة اخرى بعد ان يلقى جزاءه العادل فى الدنيا والآخرة.

إنها ليست قصة شخص تاريخى كان يدعى (آدم) وزوجته التى كانت تدعى (حواء) وليست نظرية علمية لطريقة خلق الإنسان فى الأرض، وإنما هى قصة

(1) ق ـال ال ـله تعال ـى: هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى ً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (45-20) هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُم ْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون (7- 203).

الإنسان كإنسان.. وآدم هنا رمز للذكور جميعاً، كما أنّ زوجه رمز للنساء جميعاً.
فإذا اتخذنا قصة ادم رمزاً فهمنا الحقائق التى وراءها، اما إذ اتخذنا حقيقة، بدءنا نبحث عن آدم هذا.. فى أى مكان كان؟ومتى كان؟ وأية أرض هبط عليها ؟ اكانت فى الهند، ام فى السند؟ ام فى إفريقيا؟ وباية لغة تك ّلم؟ وكيف زوج ابنته لابنه ليستمر النسل ثم إن الشجرة التى نهى عنها، هل كانت شجرة الحنطة ام العنب ام كانت شجرة الحسد؟
دعنا نستعرض ايات هذه القصة لنجعلها نموذجاً لأسلوب القران الرمزى فى تبيان الحقائق، ثم نموذجاً لفهمنا القشري لآيات الكتاب.
يقسم القران القصة إلى ثلاث فصول، فصل عن فلسفة التمرد فى حياة الإ نسان، والتى تختصرها قصة إبليس، وفصل عن فلسفة العصيان وتختصرها قصة ادم وزوجه، وفصل اخير عن ا لعبرة وراء تلك القصتين التى تتصل بحياتنا جميعاً.. يقول القرآن:

فلسفة التمرد في حياة الإنسان

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمّ صَوّرْنَاكُمْ ثُمّ قُلْنَا لِلمَلا ئ ِ ك َ ة ِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلا ّ َ إبليس لَمْ يَكُنْ مِنَ السّاجِدِينَ
قال: مَا مَنَعَكَ ألا ّ َ تسْجُدَ إذ أمَرْتُكَ.
قال: أنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ.
قال: فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أنْ تتَكبّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إنّكَ مِنَ الصّاغِرِينَ.
قال: أنْظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ
قال: إنّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ
قال: فَبِمَا أغْوَيْتَنِي لأ َقْعُدَنّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ (16) ثُمّ لآتِيَنّهُمْ مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا َ تجِدُ أكثرهُمْ شَاكِرِينَ.
قال: اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تبِعَكَ مِنْهُمْ لأ َمْلأ َ ن ّ َ جَهَنّمَ مِنْكُمْ أجْمَعِينَ الأعراف 1118.
وينتهي الفصل الأول من القصة عند هذا الحد ليعطينا عد ّ ة دروس.
أولا ً: فى مصير المتكبر، ذلك الذى يفتخر بأصله، ويزعم انتماءه إلى عنصر جيد (النار مثلا ً) يجعله أقرب إلى الله، ويعفيه عن مسؤولية الطاعة ويؤمنه الجزاء العادل.
ثانياً: فى جزاء المتكبر الهارب عن مسؤولية الطاعة إنه الصغار العاجل، و النار في النهاية.
ثالثاً: ان صاحب التكبر يسعى ليشرك الآخرين فى عاقبته السوئى، فيدعوهم إلى النار.
رابعاً: وبذلك نعرف أن الشيطان سيأتينا من كل الجهات، وسوف يستخدم

كل وسيلة ممكنة لإغواء الإنسان، فعليه يجب ان يكون البشر فى قمة اليقظة لكي لا يتورط في شرك إبليس.

إن هذه الدروس والعبر التى تشكل رؤى شفافة يستطيعالإنسان ان يبصر من خلالها دربه فى الحياة، ترى كيف يحورها القشريون الذين راحوا يبحثون عن حسب إبليس ونسبه وعشيرته وابناءه وكيف يتناسلون، واين هم الآن، وكيف يعذب إبليس بالنار وهو مخلوق منها، وكيف امهل الله إبليس وهو يعلم انه راح يغوى الناس، ثم لماذا السجدة لآدم؟؟ والف سؤال تافه اخر ممّا اشغل بالهم.

2فلسفة العصيان

أما عن الفصل الثاني فيقول الله:

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

فلسفة الأثم، ودواعيه وغروره ومصيره،هى بعض ما يتحدث عنه هذا الفصل، حيث يبين بأسلوب الرمز أن:

أ.الحرام لا يشمل كل المتع،بل بعضاً منها وهو قليل جداً بالنسبة للطيبات، حيث يقول فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ممّا يدل على أن القاعدة هي الحلية، والحرمة شذوذ واستثناء فيها.

ب. وطبيعياً قلب البشر نظيف، ولا يجنح إلى المحرمات إنما الشيطان ذلك العدو الأبدى هو الذى يخلق فى القلب، حب المحرمات، ويوسوس للإنسان حتى يدفعه إليها.

ج. فى البدء يخلق الوسوسة والتردد، ثم يزيد غروره بالحكم على أن الحرام لا يختلف كثيراً عن الحلال، ثم يصعد تضليله بالقول بان الحرام هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الأحلام البشرية فى الخلود والعظمة، ويختم قوله بالتأكيد على هذه الأكذوبة الكبرى وقاسمهما إني لكما من الناصحين.

د.ان هذه سبيل كل الآثمين فى الحياة، يبدؤون قبل كل شىء بالوسوسة، وينتهون إلى وضع يزعمون ان السبيل الوحيد إلى المجدهو الحرام، فعليه لا بد أن نخشى بداية المنحدر الوسوسة لكي نتجنب الهاوية.

ه.ان الإنسان لا يرتكب الحرام ليوفر لنفسه ضرورات حياته من الطعام و الماوى والجنس، إنما بدافع إشباع طموحه فى المجد والخلود، فادم كان فى الجنة ياكل منها حيث يشاء رغداً وكانت إلى جانبه حواء، يسكن إليها وتسكن

إليه، ولهم فى الجنة مستقر وأفضل مأوى..انما حب العظمة والخلود هو الذى مكن الشيطان من تضليلهما. إلا ّ أنْ تكونا مَلَكيْنِ أو تكونا مِنَ الخَالِدِينَ .

و. ثم القضية تختصر بالغرور، إذ الحرام لن يكون معراجاً إلى العظمة أو الخلود، إنما العكس هو الواقع إذ حين ذاقا الشجرة بدا العد العكسى لهبوط نجمهما.

ز.اول ما حدث هو ما حذر ربنا منه فى البدء.. لقد قال إن هدف الشيطان إنما هو إظهار سوءاتهما، وفعلا ً بدت لهما سوءاتهما.

ماذا ترمز هذه الكلمة؟ الجواب:

إن فى النفس البشرية جوانب عجز لا يستطيع التخلص منها من طمع وجهل وسذاجة وتسرع وتمرد.. والشيطان يقوم بدور الفتيل فى تفجير هذه النوازع السيئة، بينما التقوى هى كساتر وارف يخفى سوءات البشر كما اللباس يخفى سوءات البشر، وقد تجسد، هذا الواقع حين ذاق ابونا وزوجه الشجرة، فإذا بهما مجردين من اللباس، ويحاولان ان يسترا انفسهما باى شىء ممكن، حتى إذا كان ورقة الجنة: وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ .

إن السوءة هى كل شر لابدّ منه، ولا بد من ستره والحرام وسيلة لإظهاره، وا لإنسان مدعو إلى تجنب الحرام، لكي لا تظهر سوءته.

ح. ولا يترك الإنسان عند هذا الحد، ليغرق فى بؤرة اليأس، بل تفتح أمامه أبواب التوبة ويأتيه النداء الرقيق ألم انهكما ويتوب ويقول: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا .

إن هذه هى رموز القصة، كما ينبغى ان يفهمها الرسالى، بيد ان القشرى الذى يهتم بالرمز كحقيقة، وبالوسيلة كهدف، هذا القشرى يسعى لمعرفة آدم: متى كان؟ هل قبل تسعة الاف سنة او اكثر؟ واين كانت جنته التى هبط منها؟ وما كانت حقيقة الشجرة التى نهى عنها؟ هل كانت شجرة التين، او الزيتون ام العنب أم الحنطة؟ وعن هذا الشيطان. كيف دخل الجنة؟ فى جلد حية أم تحت ريش الطاووس؟ ثم كيف طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة؟ وبالتالى هل وفقا للحصول على ورقة التين؟ وإلى هذه البحوث التى تشارك فى إبعاد النظر عن الحقائق التى ترمز إليها الآيات والتى لا بد ان تتحول إلى مناظير لرؤية الأشياء من خلالها.

3معراج العظمة ومنحدر الرذيلة

ثم إن هذه الرموز هى التى يبينها القران الحكيم فى الفصل الأخير من القصة، حيث يقول:

قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ (24)

قَالَ فِيهَا تحيَوْنَ وَفِيهَا تمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25)

يَا بَنِي ادَمَ قَدْ انْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ

ذَلِكَ مِنْ ايَاتِ اللّه ِ لَعَلَهُمْ يَذّكَرُونَ (26) يَا بَنِي ادَمَ لا ً يَفْتِنَنّكُمُ الشّيْطَانُ كَمَا اخْرَجَ ابَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا ً تَرَوْنَهُمْ إِنّا جَعَلْنَا الشّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلّذِينَ لا ً يُؤْمِنُونَ الأعراف 24 27.

وبهذا الفصل ينهى القران القصةالرمز ويوفر لنا بصائر واضحة تهدينا لمعرفة خفايا النفس البشرية، وفلسفة الحلال وفلسفة الحرام وفلسفة التوبة ومعراج العظمة ومهبط الرذيلة.

ولأن القران رموز، ولأن الرمز لا يفهم إلا بشروط، فلفهم القران تلك الشروط التي هي في الواقع، شروط فهم أي رمز.

1 أن يستثير القارئ عقله به، ليتفقه فيما وراء آياته من رموز باطنة إن تعطيل دور العقل فى القران، اشبه بتعطيل العين فى المنظار، زعماً بان وجود منظار قوى بيد الإنسان سيغنى عن البصر،كلا إن احدهما مكمل للآخر، وجيل التخلف عطل العقل بحجة ان كتاب اللّه اسمى من ان تناله العقول، كما فعل جبل التخلف فى الأديان السابقة، حيث عطلوا كتبهم بحجة عظمتها وكما فعلت الفلسفة الإغريقية والغنوصيون حيث عطلوا دور اللّه فى الحياة بحجة أنه أعظم وأكبر من مباشرة هذه الشؤون.

وقديما قال الإمام على 8: قرنت الهيبة بالخيبة وحين تهيب جيل التخلف القران وعظمه على حساب عقله صغر بذات النسبة عقله، وضعف على حساب فهمه القرآن، وبالتالى على حساب القرآن [1] ولم يبق من القرآن لديهم إ لا رسوم[2] زاعمين أن، الإسلام يريدمنهم ذلك، واتخذوا من بعض الأحاديث حجة على تعاملهم مع القرآن كالأحاديث التى تقول: من فسر القرآن برأيه فليتبوا مقعده من النار ناسين ان القران جاء ليفهم وليتدبر فيه الناس، بلى ليس التفسير المطلوب هو تفسير القران بالآراء بل بالعقول النيرة المجردة عن أغلال الهوى والتقليد.

ونود ان نسجل ههنا كلمة مسؤولة، ونعلن صراحة ان تعطيل القران، هو بمثابة إنكاره رأساً.

2يجب تطبيق آيات القرآن على الحياة تطبيقاً حياً والاعتقاد بأن لكل بصيرة فيه اشخاصاً تتحرك، واحداثاً تقع يومياً، فهى كالشمس تشرق كل يوم على نهار جديد وحياة جديدة واناس واشياء وحوادث حية،كذلك القران يطلع علينا كل يوم ليشرق على اناس واشياء وحوادث ليكشفهم وليضىء لنا خباياهم، ويبين طريقة التعامل معهم.

---

(1) تاريخياً كان القرآن فى بداية نزوله، كتاب رسالةزةد الأمة رؤى واضحة ،وأيقظ فيهم العقل والمسؤولية، ولكنه اتخذ بعدئذ ـ سلاحاً سياسياً فى الصراعات الداخلية التى شهدتها الأمة، حين طفق كل فريق يستفيد من القران وفق اهوائه واتجاهاته، ولمقاومة هذا الاستغلال المشين لكتاب اللّه والرسالة قاد الأئمة المعصومون حملة كبيرة ضد تفسير القران بالراى ، وقالوا فيما قالوا: من فسر القرآن بالحديث وبالقرآن ذاته،وبالعقل السليم أيضاً.

(2) فى الحديث عن أوضاع زمان التردى ولا يبقى من الإسلام إلا اسمه،ومن القرآن إلا رسمه وهذا تماماً ينطبق على جيل القشرية.

لقد نزلت اية الشجرة الملعونة، ثم الشجرة الطيبة في ابنِي امية وثم ال البيت بالترتيب، وذهب بنو امية، واستشهد ال البيت، فهل انتهت تلك الآية؟ ك لا إن لعصرنا اليوم بنو آمية وآل بيت تنطبق عليهما الآية أيضاً.

بهذا التطبيق الحى للقران يكتسب القران حرارة وحركة ويكتسب الإنسان رؤية وهدى، اما في غير هذِي الحال، تتسمر ايات القران على إحداث ا و,أشخاص ماتت قبل أربعة عشر قرناً، ولا يعني القرآن آنئذ شيئاً بالنسبة لنا.

إن جيل التخلف عوض ذاته عن الجهل بزمانه بمحاولة ازدياد المعرفة بتاريخه، او بالأحرى بتاريخ حقبة معينة من ماضيه، فإذا به ينبش القبور، ليحيي من قضوا اجلهم، ويصرف المزيد من وقته فيمن نزلت ايات القران، هل ف ّ ى زيد ام في عبيد، وتعال اسمع القيل القال،بينما يترك البحث عمن تنطبق عليه حالياً آيات القرآن وذلك خشية تطبيقها، فمثلا ً.. تخوفا من تطبيق اية الشجرة الملعونة عليه او على من لا يشاء يحاول الْصاقها ببنى امية الذين اقتلع اللّه شجرتهم الملعونة قبل اكثر من الف عام، والحمد لله رب العالمين.

صحيح ان القران نزل في قضايا حية عاشتها الأمة يوماً بيوم، ولكن الأصح هو ان تلك الطريقة من تنزل القران كانت لحكمة وهى ارتباط الأمة بالأحداث من خلال منظار القران لكى يبصرونها فى ضوءه وعن طريق مكبراته ومجاهره[1] وأن تلك الحكمة هى التى تدفعنا للمطالبة بربط القرآن بالأحداث، لنكون أصفى نظراً وأوضح رؤية للأحداث.

3ـ ألا يقرأ الواحد منا القرآن بذهنية مشحونة بالآراء والنظريات والأهواء و المصالح فيحاول تركيبها على القرآن وتفسير آياته بها..انما يسعى ليكون تلميذ القرآن الفارغ الذهن المستعد لقبول الحق، والتوق إلى المعرفة الصحيحة.

والقرآن لا ينفع جيلنا المتخلف ما دام يقرؤه من خلال..افكاره السلبيةالتى ورثها من ماضيه، فإذا به لايبصر فى القرآن إلا تلك النقاط التى تدعم افكاره، وتكرس رواسبه.

كفانا افتراءً على اللّه، وتحريفاً لقرانه، دعنا نطهر انفسنا ساعة من نهار عن رواسب العصور المتخلفة.. فلعل القرآن يشرق على عقولنا نوراً وهدى ويقظة.

4وألا يقرأ القرآن بديلا ُ عن العمل، وإنما سبيلا ً إليه فقراءة القرآن، وتكرار آياته والتدبر فيه، واستثارة العقل به وفهمه.. كل ذلك لن يغني عن العمل والممارسة الخارجية فى صعيد الواقع شيئاً، إذ العمل هو الهدف، والقران وسيلة له وسبيل إليه وحين انشغل المسلمون بالقران واعتبروه هدفاً ووقعوا فى آياته بحثاً وتشريحاً وقضوا أوقاتهم فى تلاوته وحفظه وتصحيح قراءاته. انئذٍ عن القران ذاته، إذا القرآن الذى نزل من السماء كان سبيلا ً وصراطاً

(1) اشار القرآن إلى هذه الحكمة حيث قال وَقَالَ الذِينَ كفَرُوا لوْلا َ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلنَاهُ ترْتِيلا ً (32) وَلا َ يَأْتُونكَ بِمَثَلٍ إلا ّ َ جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ ت َ ف ْ س ِ ي ر ا ً 25، 32- 33.

وطريقاً و.. و.. وبالتالى كان وسيلة بينما القرآن الذى قرأه المسلمون أرادوه غاية ونهاية وهدفاً.. وبينهما ما بين السماء والأرض ولذلك لم يجدوا..القرآن الحقيقي ولم يفهموه ولن يفهموه ما داموا كذلك.

القراءات البديلة

وليس القرآن فقط.. بل كل ثقافة تصبح بديلة عن العمل فهى لا تنفع شيئاً بل ستكون عقبة فى طريق البناء. ونحن لم نحول القرآن وحده من سبيل إلى العمل، إلى غاية فى ذاته.. بل جعلنا كل الثقافات التى بأيدينا كذلك فكانت أشبه شيء بحقل عقيم، لا يعطي ثمراً.

فالأدعية الدينية وفى مقدمتها (الصحيفة السجادية) التى كان لا بد أن تكرس فى انفسنا ضمير التقوى والخشية من اللّه والتطلع إلى المستقبل الأفضل.

والزيارات التى كان لا بد ان تربط بيننا وبين قادتنا الطاهرين، لكى نستلهم منهم العزيمة والجهاد والتضحية.

والتراث الثقافى الذى خلفه جيل المجاهدين والذى يأتى فى مقدمته (نهج البلاغة) والذى كان لابدّ أ، يغنى فهمنا للقرآن، كل هذه الثقافات التى كانت وسيلة إلى السعى والعمل حولناها إلى هدف فى ذاته.. فأصبحنا نزعم أن لمجرد قراءة الأدعية والزيارات تاثيراً غيبياً فى اوضاعنا فى الدنيا او فى الآخرة.. فمن قرأ زيارة عاشوراء أربعين يوماً فسوف تقضى حاجاته فى الدنيا والآخرة، لافرق بين ان تكون هذه القراءة بتفهم او من دونه، ومن اجل العمل او عدم العمل بمعانيها، وهي معاني أنبل ثورة رسالية في تاريخ الإسلام.

وكلمة أخيرة

إن قشرية التعامل مع الحياة حين انسحبت إلى مصادر التوجيه كانت نتائجها السلبية خطيرة جداً..إذ فصلت الأمة عن تلك المصادر وأبعدت طاقاتها التوجيهية الضخمة.

وبعد

ترى امة هذه التى لا تستطيع الاستفادة من مصادر توجيهها؟ وماذا تبقى لها من عناصر الأمة؟

تطبيق الأحكام الشرعية تطبيق رسالي

لعل اكثر الناس لا يعرفون ان هناك ارتباطاً وثيقاً بين الروح الرسالية ونوعية تطبيق الأنظمة الاجتماعية..إذ قد تكون أطر الأنظمة ذاتها تمارس فى ا لأمة، ولكنها تختلف في المحتوى بين التطبيق الرسالي والتطبيق القشري.

ولكن هذه حقيقة يشهد لها ازدياد تمسك الأمة بالأنظمة كلما، انحدرت نحو القشرية، لأنها تغدو انئذ بلا صعوبة إذ انها مفرغة من محتوياتها الحقيقية، وتصبح بديلة عنالعمل الرسالي، لذلك نلاحظ ارتباطاً طردياً بين نسبة قشرية ا لأمة ونسبة تضخم الاهتمام بالأنظمة.

والفارق الرئيسي بين الأنظمة ذات المحتوى الرسالي والأخرى غيرها هو ان الأولى هي قنوات لاستيعاب الروح المبدعة النشيطة، ثم إنها مرتبطة بالهدف ا لأساسى الذى تستهدف الأمة تحقيقه فى الحياة وهو (خلق أمة مؤمنة ذات رسالة خيرة إلى الأمم الأخرى وبانية حضارة متقدمة) فترى أن كل نظام من ا لأنظمة يحظى من الاهتمام بقدر قدرته على تحقيق هذا الهدف.. فإذا عجز كلياً سقط النظام وجاء بديله.

لذلك فالأنظمة ذات المحتوى الرسالي تتسم بالسمات التالية:

إن هذه الأنظمة مترابطة في خط واحد،وهو تحقيق الهدف الأسمى للأمة ا لإسلامية. وللإنسان المؤمن في الحياة.

إن هذه الأنظمة متكيفة مع العصر.. فكلما عجز النظام عن تنفيذ واجب الأ مة الأساسى سقط الياً، لأن الأمة تعرف واجبها الرسالى وتهتم به اكثر من اهتمامها بقشور الأنظمة.

إن هذه الأنظمة إطارات لاستيعاب النشاط والإبداع ولذلك فهى ليست بديلة عن النشاط والإبداع، لاعقبة فى طريقهما وبذلك، كلما اصبح نظام حجر عثرة أمام سيرالأمة إلى الإمام أزيح واستبدل بالقوة.

إن الأمة لا ترتبط بإطارات هذه الأنظمة بشكل اعمى، إنما بما لكل منها من ملاكات وحكم. فإذا حرم الكذب وكان ملاك الحرمة وحكمتها الإضرار بالإنسان ورات الأمة ان كذبة تنفع الناس وتصلحهم كانت تلك الكذبة فريضة، لأن عدمها هو الآن يضر بمصلحة الأمة.

التطبيق السطحي للأنظمة

هذه هى سمات التطبيق الرسالى للأنظمة.. دعنا الآن نلقى نظرة على

التطبيق السطحي، والذي يتسم بنقيض تلك السمات الأربع وهي:

الأحكام الشرعية تطبيق قشري:

لا تفهم الأمة وجود صلة بين العبادات او فى المعاملات بين العقود والإ يقاعات وبين الحدود و؟؟، او الأطعمة والأشربة من جهة والسبق الرماية من جهة ثانية.

إن الفهم التجزيئى ميزة تتمتع بها كل امة متخلفة، إذ انها لا تشعر بهدف سام للحياة، وهذه الميزة حين تنسحب على الأنظمة تسبب، الفوضى وبلبلة الرؤية، وهي التي حدثت في الأنظمة عند الأمة الإسلامية اليوم.

هل هناك سمات عامة للأمة المسلمة فى تركيبتها الاجتماعية والاقتصادية و السياسية واهدافها الحضارية، وعلاقاتها الأممية وفى رسالتها واهدافها فى الحياة[1]

هل هناك اصول عامة تتفرع عنها كل ابواب الفقه، وهى التى تستهدفها الشرائع الدينية، وتريد تحقيقها وتكريسها من العدالة الاجتماعية والحرية و الرفاه و و ..؟

وبالتالى.. هل هناك قيم ثابتة يستطيع الإنسان فهمها والانطلاق منها فى معرفة الدين والدنيا؟

بالطبع.. يوجد لدينا كل ذلك.. وبالطبع أن الأمة التى لا يوجد لديها شىء من ذلك لا تسمى امة، ولكن اين هذه الذخائر؟ فى اى غيهب دفناها، وفى اية بئر عميقة أخفيناها؟؟ حقاً في غيهب القشرية، وفي بئر الجهل العميق.

إن النظرة القشرية هى التى عملت كالسكين فى تقطيع الجسد الواحد للشريعة، فإذا بالإيمانيات والعقائد انفصلت عن الأخلاقيات والآداب.. وإذا بهما انفصلتا عن الأحكام.. والأحكام بدورها انفصلت عن بعضها[2] وزهقت روح الجسد الواحد.. ومات الجسد (رحمه الله).

أليست روح الجسد هى أهداف الشريعة.. فأين هى؟ لماذا لا يتركز الحديث حولها؟ بل لماذا لا توجد لدينا كتب خاصة بهذا الموضوع؟..

الأحكام الشرعية جمود وتقليد

---

(1) توجد لدى الأئمة رائعة عظيمة فى هذا الحقل ..هى .. رسالة الحقوق للإمام على بن الحسين 8كما توجد روائع اخرى عن الشخصية المؤمنة فى وصايا النبى والإمام على والإ مام جعفر الصادق عليهم جميعاً صلوات الله. ومدرجة جميعها فى كتاب الروضة من بحار الأ نوار إلا أنها مهملة بشكل عام وللأسف، لعدم شعور الأمة بالحاجة إليها نظراً لرؤيتها القشرية.

(2) قالوا لتحقيق القدرة على الاستنباط والوصول إلى درجة الاجتهاد لابدّ أن يعرف المرء اللغة وعلوم العربية،وعلم الأصول ،وشيئاً من علم الدراية والرجال، وشيئاً من البلاغة والأدب .. أما تاريخ الإسلام وتفسير القرآن، والعقائد والفلسفة الإسلامية وعلم الأخلاق، و و فليس من الضرورى أن يعرفها الإنسان ليصبح فقيهاً مستنبطاً ..لماذا؟ لأن الفقه لا يرتبط بـ التاريخ، ولا يرتبط بالفلسفة الإسلامية، ولا بالأخلاق الإسلامية ولا .. ولا .. انظر كيف فرقنا ديننا وقطعناه تقطيعاً.

وحين تتفشى فينا النظرة القشرية، ونهتم بجسد الأنظمة بدون روحها، وتحدث فينا الحرفية التطبيقية.. حينئذ لا نهتم بفهم العصر وقياس الأنظمة به للتعرف على ما يجب أن يبقى منها، وما يجب أن يستبدل[1] ويتحول الا ستنباط إلى مجرد تغيير وتطوير مسائل فرعية، وذلك تبعاً لاختلاف السليقة او لنوع بسيط من التقدم فى فن الأصول، او لمفاجئة فى اكتشافات بعض الحقائق من علم الرجال.

اين الحوادث الواقعة؟ اين المسائل الحديثة؟ واين نظرة الإسلام فى الا قتصاد الراسمالى الحر، والاقتصاد الاشتراكي الموجه؟ واين نظرته فى مختلف تيارات علم النفس وعلم الاجتماع؟ واين نظرته فى المشاكل الدولية والحروب او الأزمات الراهنة؟ وبالتالى اين نحن من عصرنا ومن حضارته العملاقة التى اخذت تجرف الماضى وتخلق واقعاً يتجدد فى كل يوم؟ الا تكفى هذه الرياح العاصفة أن تحرك.. بركتنا الراكدة ونحن فيها كتلك الضفدعة التى زعمت أن الحياة تتلخص في بركتها الصغيرة.

اين العلماء الذين هم ورثة الأنبياء؟ اين الفقهاء الذين هم حجة الأئمّة علينا ؟ اين راى الدين ووصية القران ذلك الكتاب الذى لم يدع صغيرة ولا كبيرة من شؤون الحياة؟

الجمود كأنه سلسلة جبال هملايا يجثم فوق كل شيء منا لماذا وإلى متى.؟

حقاً..ان اليوم الذى ينظر إلى الدين كرؤية متكاملة ذات..اهداف رسالية..هنالك ستتغير منه الكثير حتى يزعم الناس أنه دين جديد[2].

احكام أم أغلال؟

ولأن الأنظمة فرغت من حكمها وملاكاتها.. وبالتالى من وظيفتها المتمثلة في استيعاب النشاط والإبداع.. تحولت إلى عقبة في طريق النشاط والإبداع..

فإذا بهاجس الحرام يلاحق كل مسلم الا يفكر فى الإبداع، او ليس الإبداع بدعة؟ أو ليست البدعة ضلالة؟ وكل ضلالة في النار..

إذاً دعنا نستريح في كهف التقليد ولانورط انفسنا في البدعة الحرام

صحيح ان البدعة هى كما سبق الحديث حولها التغيير الجذرى فى الدين ولكن سوء فهم او سوء استخدام الكلمة سحبها إلى كل إبداع جديد، حتى القطار والسيارة والملابس المصنوعة فى اوربا كلها حرام، لأن شر الأمور محدثاتها.

وإلى عهد قريب.. كانت الجبهة الدينية تحارب كل شيء جديد، زاعمة أنه مخالف للدين. كما لو أن الدين هو كل شيء عتيق مهترئ، ولذلك كان على

---

(1) بالمناسبة ليس من المفروض أن يكون الفقيه المستنبط عارفاً بزمانه، لأن الفقه ثابت ك السماء الرابعة فى فلك بطليموس وحلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة).

(2) جاء فى الحديث أن الإمام الحجة 8يأتى بدين جديد (أى يتصور الناس أنه جديد).

الجهات التقدمية أن تحارب الدين لسوء استخدامه عند المؤمنين به.

وكثير من العقود التى يحتاج إليها تطور الحياة حوربت بحجة إنها حرام.. لماذا؟ أو ليس الله قد قال: (أوفوا بالعقود)؟ أولا تعنى الكلمة أن كل عقد تراضى عليه الطرفان ووافق عليه العقلاء هو صحيح، ويجب الوفاء به؟ ولكن القشريين اخترعوا نظرية تقول ان كل عقد كان فى عهد الرسول هو العقد الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه.. وكل العقود التى ثبت وجودها فى عهد الرسول كانت أربعة عقود فقط.

بهذه النظرية حاربوا عقد التامين خصوصاً التامين على الحياة وعقود المعاطاة التى لا تذكر فيها الألفاظ وحرموا (السرقفلية) وأباحوا حقوق الطبع و التقليد والنشر.. ولم يعرفوا معنى (لحق الاختراع) و(حق الماركة المسجلة).

وفى هذا الجو الموبوء بخوف الوقوع فى الحرام يتجمد نشاط الإنسان حتى ولو كان باندفاع السيل، إذ كيف تبحث عن عمل حلال وكل شىء من حولك حرام؟. ولا تستطيع أن تعمل بعيداً عن الدنيا؟..

إن دراسة العلوم الجديدة حرام.. حسناً والتعامل مع البنوك حرام... حسناً وكل العقود الجديدة حرام.. حسناً.. وعليك أن تكتسب من الحلال..هل يمكن ذلك؟

لم يفكر القشريون ان للإسلام اهدافاً كبيرة يجب تنشيط الأمة لبلوغها، ويجب التضحية ببعض القيود البسيطة على العمل لكى تتمكن الأمة من سرعة الخطو، وبالتالى.. لم تفهم الأمة قاعدة المهم والأهم لأنها كانت فاقدة للهدف ا لأسمى الذي يحدد المهم والأهم[1].

احكام بلا حكم..

وانتشرت القشرية فى الأحكام كما تنتشر الأرضة فى الخشبة فتفرغها من كل لباب، حتى تحول الحكم الشرعى إلى الفاظ حروف وبعيداً عن حكمه البالغة.. وأدت هذه الممارسة الحرفية للحكم الشرعى إلى حذف دور العقل كلياً عن مجال الشرع. وبالرغم من أنه لم يزل أحد المصادر الأربع للأحكام. والرجل التقى هو الذى يمارس الشرع على انه بلا حكمة وانه كالرياضة حركات تعبدية لا شان له بفهمها، وقد تؤدى به هذه الممارسة إلى ما يخالف حكمة الله فى تشريع الحكم.

فمثلا ً ، فلسفة النكاح، هى إيجاد رابطة متينة بين الذكر والأنثى تحافظ على حقوق الجانبين وتبنى اسرة صالحة، وهذه الحكمة مفقودة فى الزنا، وهى العملية الجنسية التى لا توصل الجنسين بعلاقة متينة بل تركز الانتباه إلى لحظة الاتصال والارتواء الشهوي.

وقد شرع إلى جانب عقد النكاح الدائم، عقد الزاوج المؤقت الذى ينتهى

---

(1) خالف بعض هؤلاء مبدأ المهم والأهم وزعم أن معرفة هذه القاعدة لن تكون إلا بنص خاص، ومن دونه فليس الفقيه أن يحكم بأهمية حكم على حكم إلا نادراً.

بإنقضاء المدة او الموت دون الطلاق، والذي يجب ان تتوفر فيه كافة عناصر الزواج الدائم، فيما بينها الكلام الذي يعبر نه والذى يدعى ب صيغة العقد ومنها بالطبع التزام الطرفين بواجب القيام بمهام وشؤون الزواج من احترام الفراش، إلى تبادل الحقوق والواجبات وإلى بناء الأسرة الطاهرة (باعتبار أن هذا الا لتزام هو مفهوم العقد).

ولكن جيل القشريين، يزعمون أن (المتعة) هى (زنا) يتحول عن طريق تركيب (صيغة العقد) عليه، إلى عمل مشروع، بل مستحب فتراهم يسوغون لأ نفسهم الممارسة الجنسية مع زانية، لقاء مال متفق عليه وهم يعرفون كما تعرف هى ان ليست هناك اية التزامات يرتبطان بها فيما وراء الفراش منتهى ا لأمر أنهم يتفضلون بإجراء صيغة العقد زاعمين بأن وجود كلمات (متعتك نفسى + قبلت) سوف تبدل واقع الزنا إلى واقع النكاح، ويقولون (إنما يحلل الكلام ويحرم الكلام)[1].

بلى،ولكن ليس الكذب كلاماً، وليست حروفاً (متعتك نفسى+قبلت) التى لا تعبر عن القصد من الطرفين، ليست هذه الحروف كلاماً ولكن القشريين يزعمون أن كل صيد الرسالة في جلد الحروف.

والتعامل بالربا المشروع، هو الآخر اسلوب يثير الضحك، لأنه موغل فى الفهم السطحى للدين، إذ أنهم يقرضون بالربا، ويتراضون على مقدار (الربا الفائدة) ومدة القرض وكل شيء ثم يبدؤون بإجراء صيغة شرعية «لتديين عملهم» وهو بيع (علبة دخان) يعطيها المقرض فى مقابل الفائدة التى يأخذها، فترى ان الفائدة قد تكون فى صفقه ربوية اكثرمن الف دينار تفوض بعلبة دخان بالله عليكم هل هذه صفقه معقولة؟ ام هى عملية تحليل الربا، الذى حرمه الله، واعلن الحرب على من تعاطاه؟

وكما بيع الفائدة بعلبة دخان او ما اشبه، كذلك المعاملة التى تسمى ببيع الشرط، فهى ايضاً تثير الضحك، لأنها هى الأخرى موغلة فى الاحتيال على الدين بممارسة الشكل بعيداً عن أي مضمون.

والواقع ان هذه الشكلية الساذجة فى الفقه التى كانت وراء تديين مجموعة من الأعمال غير المشروعة، كما كانت وراء إحداث هوة سحيقة بين الفقه الرسالى وبين الفقه الموجود[2] ولو جاء فقيه شجاع وعاد إلى المصادر الأولية للفقه متجاوزاً لركام الألف عام الماضية، لراينا اى فقه جديد وناصع تمتلكه

---

(1) هذا نص حديث موثق، وهو يعنى أن الإرادة التى تعبر عنها الكلمة هى التى تغير الأشياء، كما يدل عليه سياق الحديث ،مما يدل على انه تعبير اخر عن القاعدة الفقهية الشهيرة (العقود تتبع المقصود) راجع كتاب البيع، للعلامة الأنصارى.

(2) قالوا إن العقد هو اللفظ، أو بتعبير آخر هو صيغة التعامل بينما العقد فى واقع اللغة ،وفي تفسير الشرع، هو التزام الطرفين وتراضيهما بشيء اخر ،وقالوا إن المناط الإرادة الظاهرة، بينما الأصح،ان الاهم الإرادة الباطنة للمتعاقدين باعتبارها هى حقيقة العقد، وقالوا إن المعاطاة باطلة لافتقارها للفظ العقد، بينما هى صحيحة لوجود الالتزام، وهو حقيقة العقد، وهناك أشياء كثيرة قالوا بها باطلة,

رسالة الإسلام.

الثقافة الرسالية معالمها وقيمها

بعد سبات طويل لف الأمة الإسلامية طوال ستة قرون اثناءها كانت اوربا تستعيد أنفاسها لبناء نهضتها المعاصرة..

بعذئد بات علينا لزاماً تجديد حضارتنا على اسس متينة لظروف التحدى التي تخضع لها الأمة، في كافة المجالات السياسية منها والاقتصادية.

ولكـ ّن، ما هي معالم هذه الحضارة؟

لتحديد معالم العمل الحضارى لابدّ ان نعود إلى ثقافتنا كما يعود الظمان إلى عين ماء متدفقة.. لماذا؟ لعدة أسباب .

1لأن الثقافة هى مصدر اشعاع روحى ضخم يعطينا الاعتزاز بأنفسنا، وميزات شخصيتنا، ويزيدنا إيماناً بقدراتنا الكبيرة.

إن ارتباطنا الروحي بامجاد الأمة، وببطولات عظمائها وميزات شعوبها، ومساعيها الكبيرة من أجل خير الإنسان،إنه يدفعنا إلى الاقتداء بهم، والجهاد من أجل المحافظة على تراثهم العظيم.

2كما غدير ماء فرات تتجمع فيه روافد الأنهار كذلك تختزن الثقافة خلاصة تجارب الأمة في الحياة تجاربها فى البناء تجاربها فى النهضة، فى محاربة الأغ لال الاجتماعية، فى تطوير الوسائل وفق متغيرات الزمن، فى محاربة الأ عداء

إن كل جيل يقوم بجهود جبارة من اجل حضارة الإنسان ثم يذهب الجيل، وتختفى جهوده، ويبقى كتاب الثقافة يختزن تلك الجهود، لتقوم الأجيال الآتية بالتزود منها متى ما شاؤوا.

ولأن كل امة لها ظروفها الخاصة، فلكل امة ثقافتها الخاصة وكما لا يستطيع الإنسان ان ينفصل من تاثير ظروفه عليه من بيئته او مناخه، كذلك لا يمكن ان يهجر الإنسان ثقافته الخاطئة، لأنها تعكس ميزاته،وميزات ظروفه

3. تزيد الثقافة الإسلامية التى تنتمى إليها الأمة، على بقية الثقافات، بأنها تمتلك رؤى واضحة للحياة، لأنها ثقافة الوحي التي جاءت بصائر للناس وهدى.

وحاجتنا إلى رؤى واضحة إلى الحياة حاجة ماسة لأننا امام خيارات صعبة نتيجة احتكاكنا بالحضارات المادية.

لهذه الأسباب الثلاثة، ستحتوي بحوثنا القادمة عن الثقافة الرسالية على :

أولا ً : بحث حول معالم الثقافة الرسالية وقيمها..

وثانياً: يحث عن الثقافة الرسالية والفكرة المسؤولة..

وثالثاً: بحث عن الثقافة الرسالية والأفكار اللامسؤولة

ندعو الله أن يوفقنا ويسدد على درب الحق خطانا..

ما هي الثقافة الرسالية

قبل إن نجيب على سؤال. ما هى الثقافة الرسالية؟ يجب أن نتساءل: ما هي الثقافة؟

الثقافة في المصطلح الحديث، لا تشمل كل العلوم، إنها تلك التي تتصل مباشرة بسلوك الإنسان،ليست الجغرافيا او الرياضيات، أو علوم الفلك والنجوم، ثقافة، لأنها لا تهدف تغيير سلوك الإنسان.

ونستطيع تعريف (الثقافة) بأنها المعارف التى تعطى الإنسان بصيرة فى الحياة، ونوراً يمشى به فى الناس ولذلك تعبير فلسفة الحياة، وفلسفة التاريخ، وفلسفة الاجتماع كلها ثقافات.

لماذا؟ لأنها تعطي صاحبها رؤى ينظر من خلالها إلى الحياة.

والكلمة التى أطلقها القرآن بديلة عن الثقافة هى (البصيرة) كما اطلق كلمة (الهدى) و(الحكمة) بديلة عن (الفلسفة).

فالبصيرة، هى الثقافة المفضلة التى تهدف إصلاح الإنسان وإصلاح سلوكه، بينما الهدى هي المبادئ العامة لهذه الثقافة.

والآن..

ما هي الثقافة الرسالية؟

هى (الثقافة السليمة والإنسانية،الشجاعة التى تنتج الإصلاح الجذرى لمشاكل الأمة اليوم).

من هنا نعرف الخصائص العامة التي تتميز بها الثقافة الرسالية وهي:

ثقافة لأنها بصائر ورؤى تمكن الإنسان من تفسير الحياة من حوله، تفسيراً متصلا ً بسلوكه، وبقيمه فيها.

ولولا انها ثقافة لما استطاعت ان تعطينا فكرة عن الحياة ونوع محدد من السلوك فيها، وهذا هو الذى يمز الثقافة اساساً عن سائر العلوم حيث إن العلوم الأدنى لا تتصل بالسلوك مباشرة.

وهى ثقافة سليمة، تعتمد الحق وسيلة وهدفاً، فمن اجل الحق، وباسلوب حق، تضمن الثقافة الرسالية للإنسان الثورة والإصلاح.

الحق لا الواقع سمة الثقافة الرسالية، وجزء من الحق متصل بالواقع على انه حدود تطبيقه لا على انه ملهم تشريعه ان الثقافة الرسالية كاية ثقافة ثورية فى العالم لا تؤمن بالواقع إلا مؤقتاً، وفيما يتم إصلاحه وتطويره وفق مقتضيات الحق.

والحق هو الذى يهدى إليه العقل السليم، البعيد عن شهوات الواقع المادى، و

البعيد عن سيئات المجتمع المادي والبعيد عن تراث التخلف.

الحق،هو الذى تهدى إليه سنن الحياة العامة، وتهدى إليه النظرة الموضوعية الشاملة لأحداث الحياة اليومية ولمسيرة التاريخ المديد.

والثقافة الرسالية هى ثقافة حق إنسانى، تهدف إصلاح الإنسان، وسيلة وهدفاً

إذ ليست القيمة النهائية للحياة سوى تدريب البشر لحياة أخرى.

هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1) إِنّا خَلَقْنَا الإِنسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ

الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ

وإذا كانت المهمة الأولى والكبرى التى لا بد أن يحققها البشر فى الدنيا هى تهيئة الذات البشرية للحياة الأخرى.. فإن كل شىء فى الدنيا لا بد أن يوضع لتحقيق هذه المهمة.. مهمة تزكية الإنسان وتربيته. من هنا فليست الحياة تهدف عمارة الأرض، بالرغم من ان عمارة الأرض، ضرورة لاستمرار حياة الإنسان عليها، إلا انها ليست غاية نهائية للحياة، وهذا هو الفرق بين حضارة السماء وحضارات الأرض كلها..

إن الغاية النهائية لحضارة السماء، هى تزكية البشر لتهيئة نفوسهم لدخول جنة عرضها السماوات والأرض اعدت للمتقين، بينما حضارة الأرض هى فى انتاج اكبر قدر مستطاع من وسائل الانتاج، تصنيع التراب،وتزيين ما على الأرض، ولو كان على حساب تهذيب الإنسان، وإعداده للحياة الأخرى.

يقول القرآن الكريم عن هذه الحقيقة. إِنّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا .

فالزينة فى بصيرة القرآن، إنما هى (وسيلة) للتهذيب بينما حضارة الأرض تجعلها (غاية) بذاتها ومن حقنا أن نتساءل من دعاة الحضارة المادية إذا استنزفت عمارة الأرض طاقات الإنسان وتحطم الإنسان ثم ارتفعت على حساب تحطمه البنايات الضخمة العملاقة وازدهرت المدنية، وازدانت الأرض كلها، فلمن تبقى كل هذه الانجازات؟ وماذا تنفع؟

إذاً الإنسان هو هدف حضارة السماء، وفى نفس الوقت هو وسيلة هذه الحضارة، فعن طريق تغييره وإصلاحه، وتزكيته، وتهذيبه تصلح الدنيا وتتغير ملامحها. إِنّ اللّه لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ .

فى حضارة الأرض، تصبح الآلة اداة لتغيير البشر، تصبح النظم الاقتصادية فى (رأى ماركس) أو النظم الاجتماعية فى رأى (دركايم وماكس) والآلة الحربية والإغراء المادى، كل ذلك تصبح وسيلة ممتازة لتغيير الإنسان، او لعمارة الأرض. ولكن ثقافة الرسالة ترى هذه الوسائل غير ذات أهمية بالنسبة إلى تغيير الإنسان ذاته بل ولا بالنسبة إلى بناء الأرض، وتحقيق حضارة مادية

عليها، إذ أنّ الحضارة المادية هى الأخرى رهينة قيم معينة من (النشاط، و التعاون، والإيثار، والمثابرة) وهى لا تتوافر من دون فكرة ثقافية، والفكرة تأتى نتيجة تطور الإنسان نفسه، فمثلاً ، كان الحديد فى الأرض، ومنذ ملايين السنين وكانت المعادن الأخرى وكانت النار واليد العاملة، وكل شىء.. بينما لم تكن طائرة (كونكورد) إلا عندما توفرت عند الإنسان فكرة حضارية جعلته يبحث ويعمل ويثابر، ويتعاون، ويصنع طائرة (كونكورد).

إن إصلاح الإنسان، هى الوسيلة المثلى لبناء الحضارة اكانت حضارة الأرض أم حضارة السماء. وحضارة السماء تهدف أيضاً تزكية الإنسان كهدف بعيد للحضارة. وهكذا تكون (الثقافة الرسالية) ثقافة إنسانية وسيلة وهدفاً..

4. والثقافة الرسالية، ثقافة إصلاح جذرى، لأنها تهدف بناء الإنسان، وترى ان هنالك مشاكل جذرية تعانى منها حضارات الإنسان المادية، وتسبب الشقاء والحرمان للبشرية، وانه من دون معالجة حاسمة لتلك المشاكل الجذرية، فلن ينفع الإنسان شىء من المعالجات الفوقية العاجلة، وبذلك تصارح الثقافة الرسالية الدنيا بأن أسس حضارتها خاطئة.

ومن هنا نستطيع ان نقول إن الثقافة الرسالية هى ثقافة إصلاح جذرى، تفضح جذور مشكلة الإنسان فمثلاً تقول:ان الحروب هى نتيجة لعبادة المادة على حساب كرامة الإنسان، وإن الأزمات الاقتصادية الخانقة هى نتيجة تورط الإنسان فى هذه الحروب التى تبتلع ثلث خيرات الأرض، وتحولها إلى دخان، وإن الحروب الباردة، والقلاقل المتلاحقة، والأزمات السياسية، اتية من ا لأزمات الاقتصادية وان الإنسان يدور فى حلقة مفرغة ما دام لم ينتبه للخطا الرئيسى الجذرى فى نفس الوقت وهو عبادة التراب، وسحق كرامة الإنسان من أجل عمارة الأرض والتراب وانتاجه وتكريره وبالتالى: تناسى وهكذا تصبح ثقافة الرسالة هي الثقافة الشجاعة التي تتخذ الحق،والإنسان وسيلة وهدفا)

ولكن..اين هذه الثقافة الرسالية؟

اين ينبوعها الثر؟ وعينها الصافية؟

إنها متكاملة في القران الحكيم، كما نتحدث عنه في الفصل الآتي

القرآن بصائر وهدى

هل القران كتاب سياسى كان يهدف تغيير نظام الحكم فى الجزيرة العربية؟ ام هو كتاب اخلاقى يهدف ترويض الناس على مبادئ السلوك الفاضل؟ ام هو كتاب فلسفة وقصص تاريخية وعبر؟ صحيح ان القران كل ذلك، ولكن الأصح أن القرآن هو فوق ذلك كله.. فهو ليس بكتاب سياسة أو أخلاق أو ثقافة وعلوم،إنما هو كتاب إنسان، وإذا تحدث عن السياسة او الأخلاق او التاريخ فبقدر ما يمت إلى خلق الإنسان بصلة.

حين ننظر إلى القران من خلال هذا الأفق الوسيع نرى كل شىء فى القران موجود.. ولكن بقدر ارتباطه بخلق (الإنسان الإنسان).

ونرى أن القرآن حين يصنع (الإنسان الإنسان) يضمن السياسة الرشيدة، والا

جتماع الفاضل، والرؤية الصحيحة إلى التاريخ.

إنما الفرق ان القران بهذه البصيرة الشاملة لا يفصل السياسة الرشيدة عن الا جتماع الفاضل، ولا التاريخ الحق عنهما، ولا الدين عن الحياة ولا الآخرة عن الأ ولى..إذ هو يدور حول الإنسان ويهدف بالأصل إصلاحه والإنسان يتصل إصلا حه بإصلاح السياسة والاجتماع والتاريخ والقان لا يتوغل فى تفاصيل السياسة أو الأجتماع أو التاريخ أو شيئ يتصل بهدفه. خلق الإنسان إنما يلقى؟؟ عليها بقدر ما يرتبط بالإنسان،ولكن كيف يحقق القران الحكيم هذه الغاية الحميدة، أى خلق (الإنسان الإنسان) الذى يمثل صفات الإنسان المثلى في سياسته واجتماعه ودينه ودينا؟

الجواب:

القران يهدف توفير البصائر والهدى للإنسان، يهدف تغيير منظار الإنسان، ورفع الحجب التى تفصل بينه وبين الرؤية الصحيحة للحياة.. وبالتالى يهدف القرآن إيقاظ العقل البشرى من سباته، وتكريس قيمه ومقاييسه فى حياة الفرد والمجتمع وفضح المقاييس الزائفة التى قد تخدع الإنسان وتظهر له الفساد بمظهر الصلاح، وإعطاء الإنسان دفعات من الإرادة الشجاعة لمحاربة الا نحراف..

من هنا كان أبرز صفات القرآن أنه كان هدى وبصيرة وتذكرة ونوراً وضوءً.. هكذا نعت القران نفسه، وبهذه الصفات طرح نفسه طريقاً لإصلاح الناس جميعاً وقال:

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ .

هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ 5710

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ 8916

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ 9 - 15

وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ 50 21

إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ 6936

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ

وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ 120 11

وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (53) هُدىً وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ 5440

طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى 13 /20

تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ 8 50

فَالَّذِينَ امَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ اولئك هُمُ الْمُفْلِحُونَ 157 7

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً 174 4

القران إذا كتاب نور وهدى وتبصرة وتذكرة، وهذه جميعاً وسائل لشفاء ما فى الصدور وخلق الإنسان الذى يجتبى ويتقى ويؤمن، وبالتالى خلق الإنسان الصالح.

ولا يدع القران الصلاح فكرة غامضة تعيش فى فراغ إنما يخط لها صراط مستقيماً، ويضع على جانبيه النور الذى يضيئه، فإذا بالقران يشرح الخلق العظيم والعمل الصالح ويفصل القول فى الحياة الاجتماعية ابتداءً من تكوين ا لأسرة وانتهاءً بتكوين الدولة. ويبين النظام الأمثل للاقتصاد..ابتداءً من فريضة الإنفاق والزكاة، وانتهاءً بوظيفة المال وانه قوام الناس وعليه ان لا يتعدى وظيفته.

ولكن كل هذه التفاصيل تاتى فى القران الحكيم بهدف وضع الإطار المناسب لإصلاح الإنسان ولكى لا يكون ذلك فكرة غامضة تعيش فى الفراغ، ف لا تثمر شيئاً ولذلك تجد القرآن يعود إلى إصلاح الإنسان والذى هو (الغاية الأ ساسية فى القرآن) يعود إليه كلما ذكر تفصيلا ً لحكم اجتماعى أو اقتصادى أو خلقي.

ويبقى سؤال أخير.

لماذا جعل اللّه القران كتاب الإنسان ولم يجعله كتاب اقتصاد او اجتماع او أخلاق أو سياسة أو..او؟

الجواب: لأن كل شىء يصبح صالحاً بنسبة صلاح الإنسان الذى يرتبط به ويريد أن يطبقه وينفذه.. وكنموذج دعنا نتخذ الحياة السياسية مثلا ً لهذه القاعدة.

النظام الحر الذى يصبو إلى تحقيقه كل إنسان كيف يمكن تحقيقه؟ يمكن تحقيقه ضمن الشروط التالية:

مجتمع واع يفهم مصالحه الحقيقية ويستعد للتصويت لكل من ينادي بها.

وجود مرشحين صادقين يضحون فى سبيل مصالح المجتمع ويستطيعون تحقيقها.

وجود ثقة متبادلة بين هؤلاء وأولئك.

اليست هذه الشروط هى ضرورية لنجاح النظام الحر والتى من دونها يتعرض هذا النظام للفساد والتزييف والخداع الجماهيرى والفحشاء، والميوعة وبالتالى يتعرض لكل ما تعرضت له انظمة العالم الحر، فى كل من اوربا وامريكا وبعض البلدان الإسلامية التى قلدتهما فى النظام الحر مثل إيران وباكستان ومصر قبل الثورة.

إذاً كيف يمكن توفير هذه الشروط؟ او ليس عن طريق بناء الإنسان، ف

المجتمع الواعي، والمرشح المخلص، والثقة المتبادلة كلها من سمات الإنسان الصالح، ولا يمكن توفيرها جميعاً من دون بناء هذا الإنسان الصالح.

وكما السياسة وكذلك الاقتصاد والاجتماع والأخلاق و.. و.. لا تغنى عن الإ نسان الصالح شيئاً، إذ مهما كانت الأنظمة صائبة ومتكاملة، فمن دون الأفراد القادرين على فهمها، والمستعدين لتنفيذها، لاتعني تلك الأنظمة شيئاً.

مشكلة الإنسان الأساسية إذن، ليست فى الأنظمة انها صائبة ام فاسدة، بل مشكلته كامنة فى ذاته، هل هو مستعد لتطبيق النظام الصالح، ام يحوره ويبدله كيفما شاء؟ والقرآن جاء لحل هذه المشكلة، وبذلك كان كتاب الإنسان.

وحسب تعبير القرآن ذاته أصبح كتاب الناس، قال الله تعالى: هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ 138 3

هَذَا بَلَا ٌ غ ٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ 5214.

والفلسفات التى ابتدعها البشر، منذ شريعة حمورابى وجمهورية افلاطون، حتى المدينة الفاضلة للفارابى وإلى ماركس ولينين و.. و.. كلها تشترك فى أنها كانت تعالج مشكلة الإنسان، ابتداءً من النظام الاجتماعى او الاقتصادى او السياسى وبذلك تريد تصفية الروافد الجارية عن العين، دون العمل على تصفية العين ذاتها ولذلك كلما اصلحوا رافداً، وصفت مياهه، جاءتها مياه جديدة تحمل التراب والوسخ.

بينما القران اولى اهتمامه بتصفية العين ذاتها، بالرغم من انه اصلح الروافد ايضاً، وبذلك ضمت تدفق المياه العذبة فى كل المجارى، وهذا سر شمول القران ونجاحه.

وتصفية القرآن للعين وللروافد، وبالتالى: إصلاحه (الإنسان) كان عن طريق إعطائه البصائر والهدى.

ولذلك نستطيع أن نقول:ان توجيه القرآن الرئيسي هو توجيه ثقافي.

الفكرة المسؤولة

ما هي المقاييس السليمة التي تفرق بين سلوك حق وسليم،واخر باطل ومنحرف؟ما هو الفرق بين التيه والضلال، وبين الدرب المستقيم؟ هذا السؤال هو اكبر سؤال تفرضه حياة الإنسان اليومية، وممارسته للأحداث الغامضة فيها..

وتاتى اهمية هذا السؤال من وجود خيارات عديدة امام الإنسان كل يوم لا بد ان يختار منها واحداً، ويود الإنسان لو يوفق لاختيار سليم، وتجيب الثقافة الرسالية عن هذا السؤال بالتالي:

القرآن فرقان: حين يخلد العقل البشرى إلى سبات عميق فتتكاثف عليه حجب الشهوات، وعقد التخلف حينئذ تنطفئ فيه شعلة التفكير، ولا تبقى امامه فرصة التعرف على الحقيقة، إلا بالتوسل بهدى السماء، لأن اى شىء ينتجه عقل هكذا لِ ـشر لا ينفعه، إذ انه قد عطل واتبع الشهوات، واعتمد التخلف، وترك التفكير وتعقد نفسياً نتيجة القيم الزائفة نقول بصراحة اى شىء تنتجه حضارة هذا البشر فسوف لا تكون سليمة من جراثيم المرض ولا يمكن إصلاح المرضى بجراثيم تُحذف، ولا إصلاح الفساد بفساد آخر.

والخلاص الوحيد هو الإقلاع كلياً عن الأرض إلى السماء، بالتماس هدى اللّه الذي تعالى عز وجل عما في خلقه من سبات العقل، وعقد التخلف.

وهدى ربنا متوافر فى كتابه الذى لا ريب فيه هدى للمتقين والذى ذكرنا الرسول x بضرورة العودة إليه..اذا التبست علينا الأمور، وتكاثفت غيوم الشبهات، وضاعت القيم، وتعددت الخيارات. قال:

فَإِذَا التَبَسَتْ عَلَيْكُمُ الفِتَنُ كقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالقُرْآنِ فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ وَ مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ وَ مَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ

العودة إلى هدى القران إذا هى الوسيلة الوحيدة للخلاص فى وضع بشر يملك ميراثاً ضخماً من التخلف الحضارى.. يقلع عن الالتحاق بركب التقدم ويحجب بصيرته عن رؤية واقعه، ويغل عقله بإغلال التعصب والجهل والتردد.

وامتنا اليوم هى ذلك البشر وريث جبال التخلف وعليها العودة إلى هدى القران، والنظر إليه من خلال أوضاعها، ومشاكلها الراهنة لا من خلال رواسبالماضي، وأوضاع الماضي ومشاكل الماضي.

عليها ان تحكم القران كمقياس اصيل للتعرف على شخصيتها كاملة،

ورسالتها بين الأمم الأخرى.

عليها ان تحمل القران كمقياس ثابت لمعرفة متغيرات الحياة، وايها اقرب إلى الرشد، اى انواع التقنية، واى انواع الأنظمة السياسية، والاقتصادية، واى أنواع الفنون التشكيلية وغير التشكيلية، واى انواع الأدب والشعر، واى انواع الزى والموضات و.. و نقول: علينا أن نحكم القرآن فى كل هذه الخيارات اليومية التى تفرض علينا عندما نحتك بالحضارة، لكى لا نرفض او نقبل عبثاً ومن دون قياس ثابت، وقد نرفض شيئاً صالحاً، ونقبل شيئاً ضاراً، وقد نرفض اليوم شيئاً نقبله غداً، او نقبل شيئاً نرفضه غداً، او يرفض اليوم شيئاً نقبله غداً، او نقبل شيئاً نرفضه غداً، او يرفض فريق منا ويقبل الآخرون شيئاً يزعم كل فريق أن اختياره هو الصحيح.

إن افتقار الأمة إلى الرؤية الواضحة الثابتة، جعلها ترتبك وتتردد وتختلف، وتتخذ كل يوم طريقاً، وبالتالي تضيع عليها فرص النجاح.

وهذه الرؤية متوفرة بالكامل فِي القران الحكيم، وعلينا العودة إليه من اجل استيضاحها، للحصول على مقياس ثابت في الحياة، او حسب تعبير القران ذاته، للحصول على فرقان بين الحق والباطل[1].

العقل المتحرر فرقان:

والعقل المتحرر من قيود الشهوات مقياس ثابت آخر لمعرفة الحق والباطل.

إلا أن مشكلة العقل الأساسية هي في: سباته وغفلته.

حجبه بغيوم الشهوات

فِي هذه الحالة يحتاج البشر إلى هدى السماء، إلى رسول يتلو صحفاً مطهرة[2] نقية عن رواسب التخلف، عن الغفلات والشهوات.

وحين يهبط كتاب السماء طهوراً على قلب رسول طاهر يقوم اول ما يقوم بغسل قلوب البشر، ليذهب عنها رجس الغفلة والشهوات، وكما مصباح يحجبه غبار كثيف، فنظفته ليضيء ما حوله، كذلك القرآن و(الثقافة الرسالية) التى فيه، تطهر مصباح العقل من درن السبات والشهوة ليضيء دروبنا في الحياة.

ذلك أن (الثقافة الرسالية) ذاتها سلسلة إجراءات من أجل خلاص العقل، من السبات ومن نير الأغلال النفسية والاجتماعية و.. و .. وبالتالى من أجل إثارة فعالة تهدف إخراج العقل من تحت ركام الخرافات.

والعقل حين يتنبه من سباته، ويتخلص من اغلاله يشع كالف الف شمس على الحياة ويضع أمام الإنسان خريطة متكاملة لدروبها.

---

(1) كلمة الفرقان تدل على معنى الميزان وتعني الشيء الفارق بين شيئين وجاءت الكلمة فى القرآن فى قوله تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً 1- 25.

(2) لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ . 1- 2 :98

ومن هنا نعرف أن (الثقافة الرسالية) تؤمن المتحرر من الشهوات (بالعقل) الواضح الذي تطمئن إليه النفس ويستريح عليه القلب.

فهذا العقل تكرر فى القران الدعوة إلى تنبيهه مرة بعد مرة حيث قال اللّه تعالى: (أفلا تعقلون؟) (لعلكم تعقلون) (إن كنتم تعقلون) (أفلم تكونوا تعقلون) (لقوم يعقلون) (أفلا يتفكرون) و.. و.. وكما جاء في السنة الدعوة إليه: العقل رسول باطن والرسول عقل ظاهر إن لله على الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فإما الظاهرة فالرسول والأنبياء والأئمة، واما الباطنة فالعقول و (قد) نصب الخلق بطاعة اللّه، ولا نجاة إلا بالطاعة، والطاعة بالعلم، والعلم بـ التعلم، والتعلم بالعقل يعتقد، ولا علم إلا من عالم ربانى، ومعرفة العالم بالعقل بحار الأنوار ج78، ص300

وقال الإمام على 8 : العقل عقلان: عقل الطبع، عقل التجربة وكلاهما يؤدي إلى المنفعة، والموثوق به صاحب العقل والدين، ومن فاته العقل والمروءة، فرأسماله المعصية وصديق كل امرئ عقله، وعدوه جهله، وليس العقل من يعرف الخير من الشر ولكن العاقل من يعرف خير الشرين.. بحار الأنوار ج 78 ص6.

رأي القيادة الرشيدة.. ميزان

إذا عجز البشر عن الاهتداء بنور الوحى، وضياء العقل، فماذا يصنع؟ هل يبقى فى حيرة ورياح الشبهات تعصف به إلى اليمين وإلى الشمال؟. كلا إنما تجب العودة إلى (القيادة الرشيدة المستلهمة من القرآن والعقل الحكيم) فـ القيادة الرشيدة، كما النبى وكما اوصياؤه هي التي تستنبط من القران وتهتدى بضوء العقل وتختزن تجارب الأمة، وهى بالتالى تكون اعرف بمواقع الصحة و الفساد،والهدى والضلال، وبذلك تكون العودة إلى (القيادة) هى ميزاناً لمعرفة الحق والباطل.

يقول القرآن الحكيم: فَاسْأَلُوا أهل الذِّكرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (43) بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا . 4416

ويقول: وَإِذَا جَاءَهُمْ أمر مِنَ الأَمْنِ أو الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأمر مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ 83 4

ويقول الحديث: وإما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة اللّه..

والقيادة الرشيدة، هى افضل قيادة ممكنة فى ظروف الأمة الراهنة، وليس من الصحيح انتظار القيادة الرشيدة والتملص خلال فترة الانتظار من مسؤوليات الطاعة، كما تصنعه الأغلبية الساحقة من الأمة، فإذا بها تتعلل بان الفقهاء العدول غير كفوئين للقيادة، وغيرهم لا يجوز الارتباط بهم، إذا دعنا نرتع كالأغنام السائبة، وعملياً يعيشون الفردية المطلقة، والفوضى الشاملة وعدم الالتزام أبداً بأي شيء.

كلا..انما الصحيح في ظروف كهذه أن تقوم الأمة بأمرين:
1.البحث عن أفضل قيادة ممكنة، والالتفاف حولها وطاعتها بالخير والصلاح.
محاولة إصلاح القيادة، أو صنع قيادة صالحة.
والبقاء بلا قيادة رشيدة، يعنى البقاء بلا خطة، بلا استراتيجية بلا هدى وبالتالي خسارة الحياة.
وقد تجبر الظروف الاستثنائية الإنسان إلى العمل مع قيادات باطلة، لأنه لم يفتش عن القيادة الصحيحة في الظروف العادية.

الفكرة المسؤولة

إذا اردت ان تكتشف شيئاً فإن امامك طريقين، إحداهما التعرف على مصدره، والثانية التعرف على آثاره.. فحين ترى عين ماء تكتشف الماء كما أنك حين تكتشف الماء.. تعرف وجود العين.. فالعين مصدر، والماء أثر لها، وبكل واحد منها تستطيع أن تكتشف الآخر.. لا تكتشفه وحده، بل وأيضاً تتعرف على سماته وصفاته.

كذلك فى الأفكار..اذا اكتشفت مصدرها عرفت طبيعتها ومصدر الأفكار بـ الطبع هى الدوافع التى وراءها.. فحين تعرف أن وراء انتاج فكرة مصلحة مادية فإنك لا تحتاج إلى ذكاء لتعرف أن هذه الفكرة إذا هى فكرة باطلة او على الأقل لا تمثل الحقيقة تماماً.

كما انك لو اكتشفت النتائج الطيبة والخبيثة التى تنتهى إليها الفكرة لا بد أنك تعرف طبيعة الفكرة، طيبة أو خبيثة.

اما إذا حاولت ان تستبين طبيعة ثقافة، فإن عليك ان تستعير طريقة الكيمياويين،وتقوم بتجزئة الثقافة إلى اقل وحدة ممكنة ثم تدرس كل وحدة فكرية على ضوء نتائجها المرتقبة، فتطرح، السؤال هكذا.. إلى أى عمل توحى هذه الفكرة؟

هناك تتميز الفكرة الطيبة عن الخبيثة، فإما الطيبة فهى التى تنتهى بالعمل الصالح، بينما الخبيثة التي تكون عاقبتها التثبيط عن العمل الصالح.

وإذا أحببنا أن ندرج على مصطلح، فلابدّ أن نسمى الفكرة الطيبة ب (الفكر المسؤول) ونسمى اختها (بالفكر اللامسؤول) باعتبار أن أهم ميزة فى الفكرة الطيبة هي المسئولية.

ولكن المسئولية تتصل بالحرية، بل هى البنت المدللة لها، فلولا الحرية لا يتحمل أحد تبعة عمله إن خيراً أو شراً.

أما المجبر على عمل، فإنّه يتحلل عن مسؤوليته، وله الحق في ذلك.

حتى الأطفال إذا ارتكبوا جنحة برروها بانهم كانوا مجبرين عليها، إذ

يعرفون بفطرتهم أن المسؤولية تأتي بعد الحرية.

إذاً فاية فكرة توحي بالكسل، او تنفي المسئولية او تناقض حرية الإنسان، وتوحي بأن الإنسان مجبر على أعماله، فإنها فكرة خبيثة لا مسؤولة.

وبالرغم من وضوح وبساطة هذه الحقيقة فإنها يكاد لايهتم بها في حقل التوجيه الثقافي، خصوصاً في جماهير أمتنا المتخلفة.

فنحن ومع كل الأسف نتعرض يومياً لتسليط امواج من الفكر اللامسؤول على أدمغتنا في محاولة لتخديرها وإبعادها عن القيام بدورها في الحياة.

ولأن هذه النوعية من الأفكار مدانة من قبل الإنسان لأن فطرته تابى له إلا الحريةالتامة، فإن الثقافة المتخلفة تقوم بعملية غسل الدماغ، عن طريق هذه ا لأمواج الفكرية اللامسؤولة.

والتخلف فى الأمة سيتجذر بنسبة استسلامها للجبرية من اى نوع كانت، كما سيكون رفضها للتبرير، ومطالبتها بالحرية بداية نهضتها.

وفى ما يلى من البحوث سوف نستعرض جوانب من الفكر المسؤول ابتداءً من رؤية (الثقافة الرسالية) عن الهدف..الرئيسى من خلق الإنسان، ومدى اهمية لحظة القرار في تكوين الإنسان ومروراً بفكرة الأمانة، وارتباطها بـ المسؤولية وايضاً فكرة الجزاء والهداية، وفلسفة الإسلام فيها وفى تفسير التاريخ.. وانتهاءً بالأفكار اللامسؤولة وسبب نشوءها وانتشارها وطبيعتها وكيفية محاربتها.

المسؤولية هدف الحياة

تؤمن الثقافة الرسالية بالفكر المسؤول، وترفض بإصرار الأفكار اللامسؤولة، كل الأفكار الرجعية التى ورثتها الأمة من اجيال التخلف، كما ترفض الثقافات الحتمية[1] التي استوردتها الأمة من الخارج.

وإيمان الثقافة الرسالية بالمسؤولية اتية من رؤيتها الواضحة إلى الحياة و الهدف منها.

تلك الرؤية التى تنسجم مع الحق والفطرة، كما تستلهم من نصوص الرسالة، وهي تتلخص في..

إن الحياة ليست عبثاً وإنما تهدف تجربة إرادة الإنسان.

والسؤال الأول: ما هو العبث، وهل الحياة عبث؟ أليس كل شيء بلا هدف هو عبث، أي بلا بداية بلا مسير وبلا مصير إما ذاك الشيء الذى يتحرك من نقطة محددة عبر مسير واضح إلى مصير مرسوم سلفاً هل يمكن ان نزعم انه عبث؟ كلا..

دعنا الآن نلقى نظرة على العالم من حولنا..هل الشمس خلقت عبثاً.؟ إننا لم

---

(1) الحتمية التاريخية، والحتمية الاقتصادية والاجتماعية أو السياسية التى ظهرت فى الثقافات الغربية فى عهد متاخر من نهضتها نتيجة تشوش الرؤية الحضارية عندهم، وسوف نعالج طائفة من الأفكار اللامسؤولة والحتمية فى الفصول القادمة إن شاء الله.

نكتشف بدايتها ولم نر نهايتها ولكننا نجدها تتحرك في خط مرسوم لتؤدي هدفاً واضحاً.

هل الرياح والسحاب والأمطار والأنهار والعيون والحقول الخضراء عبث.؟ اوليست كلها سائرة في طريق لتؤدي اهدافاً محددة؟

وكذلك الإنسان لا يمكن ان يشذ في هذا الكون فتكون حياته بلا هدف، هل اليدان واللسان والعينان والأذنان والأنف وشعرات الرأس وخلايا المخ..الخ و.. و..اي صغير وكبير في جسد الإنسان صنع عبثاً؟ لا يؤدي وظيفة ولايتحرك في مجرى محدد؟

إذا كان كل شيء في جسم الإنسان حتى الشعرة الصغيرة وحتى الخلية الصغيرة وحتى الذرة المتناهية في الصغر، ذات سبيل واضحة واهداف محددة فكيف يكون خلق الإنسان ككل بلا هدف؟

ارايت شخصاً يصنع مصنعاً ضخماً يصنع كل شيء فيه لهدف وضمن خطة ممّا يدل على مدى حكمته وعلمه، ثم لا يكون له هدف من وراء المصنع ككل؟.

سبحان من خلقنا، وتعالى عن العبث علواً كبيراً.

ما هو الهدف إذاً؟ إنه كما يقول اللّه، عبر رسالاته جميعاً إعداد الإنسان لحياة سعيدة خالدة تجربة إرادته وحريته وتجربة طاعته ومسؤوليته وبالتالي تجربة تحمله الأمانة المخولة إليه.

هذا هو الهدف الأسمى الذي من دون وضعه والاهتمام به في الحياة لا يكون للغز الحياة حل معقول. وهذا الهدف ينعكس أيضاً في الممارسات اليومية للحياة، إذ أنها هي الأخرى تجارب متواصلة لإرادة البشر. ومدى قدرته على التحدي والصمود.

ويتفاضل الناس بينهم بمقياس إرادتهم في مواجهة ضغوط الحياة.

وفطرة الإنسان تستجيب هي الأخرى لهذا الهدف، فإذا به يود ان يتحرر من التقليد والشهوات، يود أن يتفدى حريته بكل ثمن. ليجسد أمنيته في استقلال الإرادة والاختيار.

بل إن فطرة الإنسان، ووجدانه المتحرر يهمه الاختيار اكثر من اي شيء، إذ أنه يرى أن (لحظة الاختيار) هي (لحظة الإنسانية) من (هذه اللحظة) تفيض القدرة والروعة والتحدي والتكامل للإنسان ومن هذه اللحظة تنشا بالتالي حضارة البشر فوق الأرض.

ذلك.. حين لحظة الاختيار يجد الإنسان ذاته وأنه شيء في مواجهة الأ شياء لا في عداد سائر الأشياء، وانه قادر على مقاومة الأشياء، تحديها رفضها، قبولها، وتطويرها، و.. و..اذا فهو شيء ومن دون هذه اللحظة، يتحول الإنسان إلى اداة في يد الطبيعة، إلى جهاز في مصنع الفطرة، إلى ورقة في شجرة الحياة بغير استقلال ولا ذاتية مميزة

وحين لحظة الاختيار يجد الإنسان طعم حريته، تلك النعمة التي تسوى عند

من تذوقها واحس بها كل شيء

وحين لحظة الاختيار، يجد الناس الروعة، لأن الحرية تمنحهم التنوع، فإذا بكل فرد يختار درباً ومهنة ولوناً وفناً ومذاقاً.

وحين لحظة الاختيار يتحدى الإنسان الطبيعة، فلا يخضع لبرد او حر او عرى او جوع ويتحدى البيئة والإقليم، فإذا به يسيح فى الأرض ويلتهم المسافات الشاسعة بالوسائل التى قد تتطور إلى الكونكورد إلى الصواريخ العابرة للقارات.

ويتحدى الإنسان الإنسان، فلا يستقر نظام واحد، ولا يستمر اشخاص معينون، ولا تبقى قيم جامدة، بل يغيرها ويطورها الإنسان وفق اختياراته ويقدم فى سبيل ذلك التضحيات، وكل صراعات التاريخ دليل على ذلك، إنها لحظة الاختيار،حين يجد الإنسان إنسانيته وإنها هي مسؤوليته في الحياة.

ولأن المسؤولية هى اهم هدف فى حياة البشر فإن اللّه يسمى الدنيا دار بلا ء ويسمى إحداث الدنيا بأنها فتنة ويقول:

هَلْ أتى عَلَى الإنسانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1) إنّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً

وَاعْلَمُوا إنما أمْوَالُكُمْ وَأوْلا ُ د ُ كُ ُ م ْ فِتْنَةٌ وَأنّ اللّه َ عِنْدَهُ أجْرٌ عَظِيمٌ

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشّرّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً

وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أتَصْبِرُونَ

المسؤولية وفكرة الأمانة

والثقافة الرسالية، ثقافة مسؤولة، وبالرغم من عدم إمكانية فصل فكرة المسؤولية عن الثقافة الرسالية، لأنها صبغتها الأساسية التى امتزجت بكامل جوانبها، إلا اننا سنشير إلى بعض تلك الجوانب من اجل استجلاء رؤى الرسالة في الثقافة، وأبرز تلك الجوانب فكرة الأمانة.

1. بالطبع ليست الحبوب في المخازن أمانة، إذ أنّ المخازن لا تستطيع أن تخون وتبتلع الحبوب، وكذلك الثلاجة ليست مستامنة على الفواكه ولا الفواكه أمانة فيها، إذ لا تستطيع الثلاجة أن تخون وتأكل الفواكه.

والأمر يختلف في الإنسان لأنه يقدر على الخيانة فهو قادر إذا على الأمانة وبالتالي يتحمل المسؤولية.

من هنا حينما اراد القران الحكيم ان يعطي ميزة اساسية للإنسان عن غيره لم يقل إنه حيوان ناطق كما فعل المناطقة منذ ستة الاف سنة، ولم يقل إنه قرد متحضر كما فعلت الحضارة الحديثة، إنما ميزه عن كل شيء بانه امين وبهذه الكلمة بين ثلاثة نقاط هامة في الإنسان:

القدرة.

الحرية.

الشرف.

بالقدرة يستوعب الإنسان الأمانة، وبالحرية يختار إما ردها او خيانتها وبالشرف يرتبط بردها، فالشرف ذلك الإحساس العظيم الذى يربط الفرد بكلمته ، ويدعو الآخرينإلى الثقة به، والتعامل معه.

هذه الحقيقة نجدها نصاً في الآية الكريمة.

إِنّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسان إِنّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72) لِيُعَذّبَ اللّه ُ المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالمُشْرِكِينَ وَالمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللّه ُ عَلَى المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللّه ُ غَفُوراً رَحِيماً . 7272 23

هنا بين الكتاب الحكيم..

أولاً: ان الأمانة كبيرة وعظيمة إلى درجة أشفقت السماوات والأرض و الجبال من حملها[1].

ثانياً: ان الأمانة التى حملها الإنسان بحاجة إلى صفتين هما العدالة والعلم، أما الظلم والجهل فإنهما يدعوان البشر إلى الخيانة.

ثالثاً: ان الظلم والجهل مرتبطان بذات البشر، وعلى الإنسان أن يتحدى هذا الضعف، بالتحرر من الظلم والجهل.

رابعاً: ان عاقبة خيانة الأمة هى العذاب، بينما التوبة والمغفرة هى جزاء المؤدين لها.

وبهذه القضية يربط القرآن بين الأمانة وبين الجزاء.

المسؤولية وفكرة الإنذار

إطار السيارة التى تتحرك بدفع الوقود، وتتوقف بضغط جهاز الفرامل، و الوقود، الذى يشتعل حينما تمسه النار، والفرامل التى تهتز حين تحركها قدم السائق، ليست هذه جميعاً قابلة للإنذار او البشارة، ولا اية اداة جامدة اخرى، لأ نها مجبرة في حركتها بإتجاه محدد.

اما الإنسان فإنه ينذر ويبشر لأنه يستطيع ان يختار طريقه ومن هنا اوضح القرآن في آيات عديدة فكرة الإنذار وقال:

لأنه يستطيع ان يختار طريقه ومن هنا اوضح القران فى ايات عديدة فكر ا لإنذار وقال:

لِيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشّرَ المُؤْمِنِينَ الّذِينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحَاتِ أَنّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (2) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً الكهف 2

---

(1) ليس المهم أن نسأل متى وكيف تم عرض الله الأمانة على السماوات والأرض والجبال، إنما المهم ان نعرف رموز هذه الكلمة ودلالاتها والتى منها بالطبع عظمة الإنسان بالنسبة إلى أشياء الحياة، وذلك بفضل عقله وحريته وشرفه.

الجزاء حقيقة أنْ تقولوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 19 /5

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ 35/24

فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ 213 /2

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ 56 /18

المسؤولية بين الحرية الجزاء

وفي طليعة الحقائق التى يذكر بها ا لقران الحكيم هي حرية المشيئة البشرية، تلك النعمة التى انعمها اللّه علينا ومن يكفر بنعم اللّه فسوف يلقى جزاءً موفوراً، ولم يكتف ربنا بإعطاء الإنسان نعمة الحرية بل منحه كافة الوسائل الكفيلة بالدفاع عنها.

وفي طليعة هذه الوسائل رسالات السماء التى انزلها اللّه على البشر، لكى تـ وفر له أفضل الفرص للتحرر من الأغلال الذاتية ومن القيود الاجتماعية.

وبشر اللّه في الكتاب برسوله محمد X باعتباره منقذ الإنسان من كل أنواع العبودية وقال:

الذين يَتبِعُونَ الرّسُولَ النّبِيّ الأمّيّ الذي يَجِدُونَهُ مَكتُوباً عِندَهُمْ فِي التّوْرَاةِ وَا لإ ن جـ يـ ل يَأمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلّ لَهُمُ الطّيّبَاتِ وَيُحَرّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأغْلا َ ل َ التِي كانَتْ عَلَيْهِمْ1577 .

إن الإصر والأغلال هما الجانب النفسي للجبت والطاغوت، والجبت بما فيه من قيود الشهوات والخرافات والأوهام الباطلة والطاغوت بما فيه من ضغوط الحكام والتجار ومحترفي الديانات و..

والإصر والأغلال هما أفضل تعبير عن العبودية التي حاربتها رسالات السماء عامة، والإسلام بصورة خاصة.

حيث إن اهم بنود رسالة الإسلام كانت محاربة العبودية لأي شيء او شخص سوى اللّه، وأن شعار الرسالة (لا إله إلا اللّه) هو شعار رافضى بالدرجة ا لأولى، إذ أنه يشدد على (رفض) كل أنواع العبودية لغير اللّه.

ومن هنا امر الإسلام امراً صريحاً ومؤكداً بواجب الكفر بالجبت والطاغوت باعتبارهما سارقاً حرية البشر، فقال اللّه عنهما:

فَمَنْ يَكفُرْ بِالطّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللّه ِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى 256 ، 2

أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطّاغُوتِ 51 4

ولكى يحافظ الإنسان على حريته، زوده اللّه بفطرة خالصة يتمكن ان يكتشف بها الصراط المستقيم من بين السبل المتفرقة، فقال ربنا عنها: إِنّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2) إِنّا هَدَيْنَاهُ السّبِيلَ

إِمّا شَاكِراً وَإِمّا كفُوراً 76/23

الفطرة رأسمال الإنسان

إن فطرة الإنسان الخالصة،هى تلك الثروة العظيمة التى تبقى مع الإنسان في كل ظروف الفقر والمسكنة، حيث يسرق الطغاة والمجرمون ثرواته الفكرية والمادية الأخرى ليستعبدوه لقاء ماء وخبز يجودون عليه،ولقاء اسمال فكر بـ الية، يغطون بها جرائمهم ولكن هيهات ان يبقى الواقع كذلك، إذ انّ الطغاة يقدرون على سلب البشر رزقه، وتغذيته بافكار باطلة تدعم سلطانهم عليه، ولكنهم لا يقدرون على سلب الإنسان فطرته الخالصة.

تلك الفطرة التى تبقى تهدى الإنسان إلى طريق الخلاص من عبودية الطغاة المادية والفكرية.

هذه الفطرة، هذه الروح العظيمة، هذه الثروة الهائلة هى التى مكنت البشر من تحدى سلطان الطغاة ومحاربتهم ودحرهم والتقدم بالحياة فى كافة الحقول.

إن الطغاة من حكام الجور، وتجار الظلم، ومحترفى الدين ارادوا للإنسان البقاء حيث هو، ليستعبدوه ويبددوا طاقاته فى سبيل شهواتهم، وكادت الإ نسانية تخضع لهم ولأساليبهم الماكرة الملتوية لولا الفطرة التى زود الله بها الإ نسان ليحافظ على حريته.

وكانت الفطرة افضل سند للرسل والمصلحين فى مواجهة الطغاة المجرمين.

وبعد ان منح الله الإنسان نعمة الفطرة ونعمة الرسالات التى تستجلى الفطرة بعدئذ دعاه للمحافظة على حريته، ومقاومة الضغوط الاقتصادية والا جتماعية والوراثية التي تعارض تلك الحرية.

وامر الله البشر بالهجرة بحريته فى ارض الله حتى يستطيع تحدى الطغاة، وتحرير الأرض منهم.. فيأمر بالهجرة ويقول: يَا عِبَادِيَ الّذِينَ آمَنُوا إِنّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيّايَ فَاعْبُدُونِ العنكبوت 56)

ثم ينذر الذين لا يهاجرون

إِنّ الّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً النساء 97

ثم يرغب في الهجرة ويقول:

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً 100 4

إن الهجرة ليست فراراً من الطغاة، إنما هى استعداد من اجل محاربتهم و العودة إلى الأرض بعد تحريرها من نيرهم.

وفيما يقدر الإنسان على التحدي والصبر على الأذى حتى، يتمكن من استعادة حريته فعليه ان يفعل ذلك، حتى ولو تحمل اذىً كثيراً مثلما فعل المؤمنون في عهد فرعون، حيث يتلو علينا القرآن نبأهم ويقول:

وَقَالَ الْمَلأ ُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ اتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الأرض وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ وَإِنا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ الأعراف 127

هذا كان منطق فرعون صاحب المال والسلطان، ومهندس التعذيب الوحشى ، ولكن ما هو منطق الرسالة؟ هل هو الإستسلام لضغوط فرعون؟ أم التصدى له؟ لنستمع القرآن يقول: قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ ِ وَاصْبِرُوا إِنّ الأرض للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ إن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأرض فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ الأعراف 128 129

لا للطغاة

والتصدى للطغاة قد ينتهى بالموت إلا ان القران يستهين بالموت فى سبيل الحرية، ويدعو الإنسان إلى نبذ الخوف إلا من الله ويقول: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاسُ إِنّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا 3 173

ولكى لا يتهيب البشر قدرات الطغاة، فيتكاسل عن مقاومتهم واستعادة حريته منهم، يستهين القرآن ويهزئ بهم ويضرب عنهم مثلا ً حين يقول: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّه ِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ العنكبوت

ارايت كيف ينهار بيت نسجته العنكبوت كذلك ينهار كيان الطغاة، إن كيد الطغاة ضعيف، وان الإنسان الذى يدافع عن حقه فى الحرية اقوى منهم وامتن كيدا.

هكذا يهيئ الله الإنسان للقيام بواجب المحافظة على حريته وهكذا يجعل الحرية ميزة الإنسان، وهكذا بالتالى تتوفر للإنسان فرصة القيام بمسؤوليته اعتماداً على نعمة الحرية.

إن الله منح الإنسان الحرية، ولم يستعبد الإنسان جبراً عليه بالرغم من انه هو الذى خلقه، ورزقه وإليه المصير، فكيف يرضى بأن يستعبد الناس حرية بعضهم.

واكثر من هذا إن الله لم يجبر الناس على الهداية، لأنه لم يشا ان يسلب منهم حرية القرار، حيث إن الحرية هى أهم نعمة وهبها الله للإنسان. من هنا ق ال الله:

أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللّه ُ لَهَدَى النّاسَ جَمِيعاً 3113

وَلَوْ شِئْنَا لا َ ت َ ي ْ ن َ ا كُلّ نَفْسٍ هُدَاهَا 13 32.

إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ 37 16

ولولا ان الله جعل الدنيا دار بلاء وفتنة، ولولا ان جعل الحرية البشرية قيمة اساسية فيها، ولولا أنه وفر على الإنسان كل ما يمكنه من ممارسته حريته، إذا لهداه الطريقة جبرية، لأنزل مثلا ً ملائكة من السماء او فجر الأرض للأنبياء ينابيع، واعطاهم مفاتيح الحياة جميعاً، ولكن لماذا لم يفعل؟

لأنه اراد ان يختبر الإنسان، ان يفتنه، فيما اتاه فوهب له العقل والشهوات، وقال الله سبحانه وهو يستعرض اقتراحات الكفار للأنبياء:

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً (90) او تكونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَا لَ هَا تَفْجِيراً (91) او تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً او تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَا ئِ كَ ةِ قَبِيلا ً (92) او يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ او تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلا ّ بَشَراً رَسُولا ً

المسؤولية وفكرة الجزاء

إن الجزاء مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمسؤولية بينما هو نتيجة مباشرة للعمل، وقد أوضح القرآن ذلك فى آيات عديدة (كرر القرآن كلمة الجزاء حوالى 130 مرة) حيث قال الله سبحانه:

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى 15 20

وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ 22 45

كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ 28 45

مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً 4 123

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا 4 93

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ 2212

سَلَا مٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ 25 46

فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلا ّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ 25 46

فالساعة موقع الجزاء فى الآخرة والجزاء مرتبط بما كسبه الفرد وهو عادل لا ظلم فيه، لأنه ينبعث من مقياس هو كتاب كل امة وليس هنالك ما يحول بين المرء وبين جزاء عمله من ولي او نصير، وليس الجزاء فى الآخرة فحسب، وإنما يلقى المرء جزاءه فى الدنيا ايضاً حيث يجزى الله المحسنين بالحسنى، ويجزى المجرمين بالتدمير الكامل، حتى لا يرى إلا مساكنهم اما هم فقد ذهبوا وأصبحوا أحاديث تروى.

هكذا يوضح القرآن الحكيم فكرة الجزاء التي هي نتيجة المسؤولية.

الجزاء والمسؤولية

وتاكيد الثقافة الرسالية على ربط الجزاء بالعمل يجعل كثيراً من إحداث الحياة، مرتبطة بعمل الإنسان ربطاً طبيعياً أو غيبياً.

وتماماً، بعكس الفكرة المنتشرة فى الشعوب المتخلفة ونحن منهم والتى تسحب الغيب إلى منطقة الشهود، وتجعل (الميتافيزيق) فوق الطبيعة محل (الفيزيق) الطبيعة، وبذلك يتحلل الإنسان من كامل مسؤوليته تجاه الأحداث، تماماً بعكس هذه الفكرة توصى الثقافة القرانية الرسالية، إذ تجعل الغيب و الشهود، (الطبيعة وما وراء الطبيعة) متصلين بعمل الإنسان، وبهذه الطريقة يتحمل إنسان مسؤوليته كاملة.

فبنيما يستمر فى العقلية العربية، ذلك الجناح الغيبى الممدد ويحل ما وراء الطبيعة (الميتافيزيق) فى نواحى عديدة مكان الطبيعة (الفيزيق) ولا تؤخذ وتنشر من الدين إلا القيم الاستسلامية وشعارات الطاعة والقناعة والفناء[1].

فالقرآن في الطرف الآخر يقول:

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ 30 42

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ 38 4

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى 36 41 53

وتكريساً لهذه الحقيقة الكبيرة التي يتهرب منها فكر الإنسان المتخلف باية وسيلة ممكنة يقص علينا كتاب ربنا الكثير الكثير من إحداث الماضى من خلال بصيرة الجزاء ومنظار المسؤولية، ليربط بين عاقبة الأمور وين طبيعة اعمالهم، دعنا نتدبر في بعض هذه القصص، يقول الله:

وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفسهم يَظْلِمُونَ العنكبوت 3840

إن الجزاء جاء نتيجة عملهم وكان جزاءً عادلاً ، وبالرغم من ان طريقة الجزاء كانت غيبية (ما وراء الطبيعة) فإن الجزاء كان متصلاً فى كميته ونوعيته بعمل أصحابه، فخسفت بيوت (عاد) القوم الذين ركنوا إلى الجبال واستكبروا اعتماداً عليها، وزلزلت بيوت القوم الذين بنوا من الصخور بيوتاً فى الوادى (ثمود) وخسفت ثروة ذلك الرجل الذى استكبر على الناس بماله (قارون) إما أولئك الذين عشقوا النيل واستكبروا فى الأرض بإنهاره الجارية فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا فقد أغرقوا.

---

(1) هذه المعانى مستوحاة من الآيات السابقة الذكر آية آية.

بهذا المنظار المسؤول يقص علينا القران قصصه الحق على الأمم الخالية ليكرس في ذهن المؤمن تلك الصلة الأبدية بين العمل والجزاء.

الهداية مسؤولية

ما اهتديت إلى الحق.. ولذلك ما عملت به، وما عرفت الواجب وأذن لم أقم به، والمناهج الفكرية التي اتبعتها كانت خاطئة فقادتني إلى طريق باطل.

هذه الحجج سخيفة في مقياس (الثقافة الرسالية) وفى منطق الرسالة الإسلامية،ولن يرضى بها اللّه أبداً، وسيلقى المبررون بها جزاءهم العادل فى الدنيا والآخرة.

إذ الهداية هي مسؤولية الإنسان نفسه، ولقد زود البشر بنور العقل الذي يكفيه هادياً إلى الحق لو اتبعه بصدق وأمان.

وإذا اصبح الإنسان مسؤولاً عن هدايته تحرر فكره عن اغلال التقليد و التبعية، وكان يقظاً لمواجهة كل احتمالات الوقوع فى الخطا وعليه ان يتحرى الرشد فى تفكيره، عليه ان يفكر بعقله لا بهواه وان يبحث عن الحقيقة بحثاً مستميتاً، وأن يدور العالم تفتيشاً عنالصراط المستقيم.

وما دام قادراً على معرفة الحق، فإن أي تبرير آخر يصبح سخيفاً ومرفوضاً.

وفى طليعة هذه التبريرات هى انتظار الهداة الداعين إلى الحقيقة، او انتظار ما يسمى عندنا (بالتوفيق) إن أبلغ الهداة إلى الحق هو عقل الإنسان الموجود عند كل فرد.

العقل رسول باطن، كما أنّ الرسول عقل ظاهر

خلق اللّه العقل فقال له: اقبل فأقبل، ثم قال له ادبر فأدبر، فقال ما خلقت خلقاً أحب إلى منك، بك أثيب وبك أعاقب

ونور العقل مقسوم سواسية بين الناس، ولايختلفون إلا فى مدى الانتفاع به، والانتفاع عمل، والإنسان مسؤول عن عمله شاء أم أبى.

والقران، تكريساً لفكرة المسؤولية عن الهداية، لا يربط بين الهداية وبين العقل كنور يوجد عند الناس جميعاً، إنما يربط بين الهداية وبين العمل بالعقل، والصيغة المعبرة عن هذه الحقيقة فى القرآن هى: (يعقلون)، و(يشعرون)، و (يتفكرون)، و(يتدبرون).

ومعروف ان هذه الصيغ افعال فى تعبير اهل العربية وليست جوامد، و الفعل لا يدل فقط على الحركة، بل وأيضاً على المسؤولية يقول ربنا سبحانه:

وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ 43 29

كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ 73 2

وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ 169 7

وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ 10010

كذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ 113 26
إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا ّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ 113 26
وَمَا يَمْكُرُونَ إِلا ّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ 123 6

الأفكار اللا مسؤولة.. كيف ولماذا؟

لماذا وكيف انتشرت الأفكار اللا مسؤولة فى الأمة؟ وكيف يمكن فضحها وتعرية زيفها من أجل إنقاذ الجماهير منها؟[1]

فى ضمير (الإنسان الفرد) تتصارع قوتا العقل والشهوات يدعوه العقل إلى اللّه والخير والجمال والحق والتحرر، بينما تدعوه الشهوات إلى اللذة العاجلة فى التشرع والإفراط وفوق العقل والشهوات تعلو إرادة الإنسان التى تعبر بمثابة حاكم قوي يحسم الموقف لصالح إحدى القوتين.

وحين يختار الإنسان جانب العقل فاين تذهب الشهوات؟ هل تندحر كما يندحر ظلام الليل حين تشرق شمس النهار؟ كلا..ان الشهوات تبقى توسوس فى قلب الإنسان، ويحتاج الإنسان إلى سلاح يحارب هذه الوسوسة، ذلك السلاح هو (التسلية).

ماذا تعنى التسلية؟ وكيف تتم عند الإنسان؟ دعنا نجسدها فى حوار يجرى عادة داخل الضمير.

العقل:هذا وقت الصلاة، اذهب إلى المسجد.

الشهوات: ولكنك جائع، اذهب إلى البيت للغداء.

الإرادة: كلا سأذهب إلى المسجد.

هنا تعود الشهوات توسوس، وتقوم الإرادة بالتسلية.

الشهوات: كلا، إنك جائع، كيف تصلي وأنت جائع.

الإرادة: بلى، ولكن سوف اتغدى بعد الصلاة، ثم إن اللّه أعد جنة عدن فيها ما تشتهيه النفس من الأكلات والطيبة وغيرها وجعلها للمطيعين من عباده، ثم ماذا تنفع أكلة عاجلة تعقبها ندامة ونار في جهنم.

هذه هي التسلية تاتي حين يختار الإنسان جانب العقل، ولكن كيف إذا اختار جانت الشهوات؟ هنالك يبقى العقل يوخز الضمير، فماذا تصنع الإرادة؟ إنها تقوم بعملية التبرير والتي تشبه عملية التسلية.

فالتبرير يحدث لاسكات دعوة إلى الحق ونبذ الباطل.. دعنا نعيد الحوار

---

(1) فى بحوث أخرى عالجنا جوانب من هذه الأسئلة، وهنا نعالج جانباً آخر منها، وهى طريقة كشف الفكرة، عن طريق كشف دوافعها، بالتطبيق على واقع أمتنا المتخلف.

المتقدم بطريقة ثانية.
العقل: هذا وقت الصلاة.
الشهوات: بل هذا وقت الغداء.
الإرادة:نعم اذهب إلى الغداء.
العقل: ولكن كيف تجيب ربك؟
الإرادة:اولا ً: يمكن تأخير الصلاة. وثانياً: قبل إن نموت سوف نتقرب إلى الله. وثالثاً: من يقول: إن الصلاة واجبة على الجائعين؟
وفي الواقع الاجتماعي كما في الواقع الفردي حين يتوانى المجتمع عن واجباته يقوم بتبرير هذا التقاعس، والأفكار التي ينتجها هذا المجتمع تكون عادة تبريرية.
وكل فكرة تبريرية هي فكرة باطلة، وذات اثر سيء في تقدم الإنسان، لأن الدوافع التي تكون وراءها هي دوافع ذاتية خبيثة.
والأفكار التبريرية لا تستطيع ان تكون خلاقة، لأنها جاءت وليدة اختيار الإ نسان، فهي أضعف من أن تكون قادرة على صنع واقع جديد.

أممية الأفكار التبريرية

والأفكار التبريرية ذات صبغة اممية، إذ تمر كل امة بحين من الدهر تنتشر فيها روح اللامسؤولة والكسل وتتشبث لتبرير هذه الحالة بأفكار معينة.
هذه الأفكار نستطيع ان نسميها بالإفكار الصوفية، والتصوف في التاريخ هو الإسم الذي كان يطلق على السلبية الكاملة في الحياة تماماً مثل (الهيبز) في العالم الغربي اليوم.
والأفكار الصوفية نجدها في كل امم الأرض، لأن كل امة لابدّ ان تكون قد مرت بفترة جمود وتقاعس فتشبثت فأفكار صوفية لتبرير جمودها وتقاعسها.
وحين تكاسلت الأمة الإسلامية استوحت من ثقافة التبرير الصوفية التي كانت منتشرة في الأمم الأخرى، استوحت الكثير من الخرافات التي سميت خطأ (بالتصوف الإسلامي) تماماً كما انتشرت في العالم الغربي اليوم أفكار التصوف الهندي في هذه المرحلة التي تمر الحضارة الغربية فيها بمرحلة ضعف وانهيار إذ انّ الفكر الصوفي هو مخصص بطبيعته لهذه المرحلة من مراحل الحضارات.
خصوصاً وكانت الحضارة الإيرانية والرومانية والهندية تعيش مراحل ضعفها وانهيارها في تلك الفترة التي جاء الإسلام وكانت الأفكار الصوفية هي السائدة على محافل الفكر وحتى تسللت هذه الأفكار إلى العالم الإسلامي عبر حركة الترجمة في القرن الثامن في الجماهير المسلمة منذ القرن الثاني مع امت لاكهم لرسالة إسلامية نابضة بالحيوية والحركة، ذلك لأن هذه الجماهير تركت هذه الثقافة تعمداً وركنت إلى الضعف والجمود.. لا لضعف في الثقافة أو عيب

وإنما كنقص فيهم. والأفكار الصوفية انتشرت منذ القرن الثانى فى الأمة وتكاملت فى القرن الثالث والرابع على يد (الحلاج) و(السهرودى) و(ابن الفارض) و(ابن عربى) ثم تحولت إلى كتل اجتماعية على يد عبد القادر الجيلا ني في عام 561.

إن هذه الأفكار كانت ترتكز على ثلاثة مفاهيم تنسق المسؤولية البشرية أمام الأحداث وتبرر الجريمة والفساد وهي:

وحدة الوجود: تشويش الرؤية

وهذا المفهوم كان يهدف تمييع الحدود الموجودة بين الأشياء وبالتالي جعل الأشياء جميعاً فى حالة ضبابية كبيرة لا تميز بين الخير والشر والكبير و الصغير. بل بين الخالق والمخلوق حيث قالت الصوفية إن خالق والمخلوق واحد، وكانت نتيجة ذلك، إنه لا حاجة إلى عبادة اللّه، وإذا افترضنا ان عبادة اللّه واجبة، فليست هنالك طريقة واحدة لهذه العبادة هي التوجه إلى الكعبة إذ انّ كل شىء فى الوجود هو اللّه، فعبادة الأصنام هى الأخرى عبادة لله، يقول الشاعر الصوفي الفارسي ما ترجمته:

غايتي من الكعبة ومعبد الأصنام انت..انت وما الكعبة والأصنام إلا ذرائع

ولم يكن صراع الأنبياء مع اعدائهم حول التوحيد، بمعنى الدعوة إلى إله واحد لا إله إلا هو، إنما كان حول التوحيد بمعنى جعل كل شىء إلها، وعدم التفرقة بين الصنم والشمس، والنجوم والأنهار وما إلى ذلك من عبادات.

فموسى 8 والكلام للصوفية لم يقل لفرعون لماذا تعبد الشمس، إنكاراً لهذه الدعوة، إنما إنكاراً للاكتفاء بها، فكان معنى كلامه لماذا تعبد الشمس وحدها؟

وهذا المفهوم يميع الصراع بين الحق والباطل، فلا يدع حدوداً معقولة بينها حيث يقول شاعرهم:

وأننا اعتقدت جميع ما عقدوه	عقد الخلائق فى الألى عقائدا

إنه ينزع الفتيل من أي نوع من الحركة السياسية في العالم.

ترى ان الأمة التى تتحداها قوى معادية عسكرياً واقتصادياً وفكرياً كم تتضرر بمثل خرافة وحدة الوجود التى تشبه برميل ماء مثلج يصب على حرارة الاندفاع في النفوس وتبعدهم عن التضحية والفداء.

والواقع ان الأمة الإسلامية لما تعبت من الحرب واختارت التقاعس، وركنت إلى الخفض والدعة، أخذت تبتدع هذه النوعية من الأفكار التى ظاهرها حب السلم للجميع، وباطنها التهرب عن المسؤولية، والانطواء على الذات.

من هنا كانت ابرز المنافع التى سيفوز بها الصوفى هو سقوط التكاليف الشرعية، والواجبات الاجتماعية عنه، وكلما ازداد تمسك الصوفى بمذهبه، كلما ازداد هروبه من مسوؤلياته.

يقول الدكتور (غنى) فى كتابه المسمى (بتاريخ التصوف الإسلامى) فى ص

الصوفي الناضج لا يريد ان يقيد نفسه بالأنظمة الشرعية والآداب والعادات المصطنعة التى يهتم بها الناس، وبالتالى ليست للشريعة والأعمال الظاهرية فيها قيمة عند الصوفي .

ويضيف قائلا ً في ص 386:

يقول كبار الصوفية، حيث يفنى الصوفى فى ذات اللّه، كما تفنى القطرة فى البحر، يسقط عنه اى تكليف، حتى انه يستوى عند العارف الذى وصل إلى مرحلة الفناء يستوي عنده الكفر والإيمان .

فكرة الحلول عبادة الذات

وهى تزعم ان روح اللّه تعالى تحل فى جسم الإنسان وهذه الفكرة متوغلة فى اللامسؤولية إلى حد بعيد، إذ انها تعطى الشرعية لكل عمل يقوم به الصوفى، لأنه حسب هذه الفكرة يجسد اللّه فى تصرفاته، إذ اللّه قد حل فيه حلولا ً ، تعالى اللّه عما يقولون.

وانطلاقاً من هذه الفكرة، ليس هناك ما يسمى بمقياس (الحق) الذى يكتشفه ويدعو إليه عقل البشر وفطرته، إنما هو مقياس (الحب والهوى والشهوات) التى يدعو لها الشيطان، إذ ما دام اللّه رمز (الشرعية المطلقة) قد حل فى الذات، فكل عمل يصدر منه فهو مشرق، والحق الذى يتجسد فى القران الحكيم ، غير مقبول على ظاهره، إنما يجب تاويله بما يتناسب مع افكار الصوفية اللا مسؤولة يقول العلامة (نيكولسون) فى وصف أسلوب ابن عربى فى كتابه المسمى (الفصوص).

(إنه يأخذ نصاً من القرآن أو الحديث، يأوله بالطريقة التى نعرفها فى كتابات (فيلون) اليهودى، و(أريجى) الإسكندرى ويستند كل (فص) من الفصوص السبعة والعشرين إلى طائفة من الآيات القرانية والأحاديث النبوية المتصلة بالكلمة الخاصة (النبى) الذى تنسب حكمة (الفص) إليه (يعنى أنه يسمى كل فص باسم نبى، مثل فص موسى، فص هارون، فص محمد، وهكذا..)

يعمد ابن عربى فى ذلك، إلى تخريج المعانى التى يريدها من الآيات والأ حاديث، بطريقة خاصة فى التاويل، فإن كان فى ظاهر الآية ما يؤيد مذهبه، مهما كانت دلالته على التشبيه والتجسيم اخذ بها، وإلا صرفها إلى غير معناها الظاهر.

إن هذه الطريقة فى تاويل القران وفى تفسير التاريخ، تتناسب مع روح اللا مسؤولية التى يعيشها الصوفى الهارب من الحياة إذ انه يعطيه طريقة التخلص من القرآن، كتاب الحق، كتاب الهداية الفرقان بين الشهوات والعقل.

اما اللّه الحق الثابت، الذى عليه يجب ان نقيس حقائق الأشياء اما اللّه فلم تكتف الصوفية بإنكاره اعتماداً على فكرة وحدة الوجود وإنما ايضاً جعلوا انفسهم مكانه اعتماداً على فكرة الحلول، وبذلك تمت لهم اللامسؤولية المطلقة،إذ انهم هناك قالوا ليس المعبود شيئاً واحداً، وهنا قالوا بل الواحد

شيء واحد، وهو شهواتنا فالشهوات أصبحت هى (الإله)،وأما العقل فإنّه محارب بشدة من قبل الصوفى الصحيح، يقول ابن عربى: إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب، لتقلبه فى انواع الصور والصفات، ولم يقل لمن كان له عقل، فإن العقل قيد .

هكذا يتهاوى عند الصوفى أسس الحق من (عقل) أو (قرآن) أو (اله) وتبقى الشهوات محور الاختيار.

الزهادة الصوفية:التحلل عن المسؤولية:

الزهد بالمفهوم الإسلامى هى (الفاعلية الإيجابية، العمل والمسؤولية) جاء فى الحديث (ليست الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال وإضاعة المال، ولكن أن يكون المرء بما عند الله أوثق منه بما فى يديه) جاء فى الحديث ليس الزهد أن لاتملك شيئاً ولكن أن لا يملك شيء .

هذا هو الزهد فى المفهوم الإسلامى، اما الزهد فى المفهوم الصوفى فإنّه نتيجتة الفكرتين السابقتين إذ تدعو فكرة الزهد إلى اللامسؤولية، بل وتقدسها مباشرة، بينما فكرة وحدة الوجود تمهد لها بتمييع الصراعات، والحدود والأنظمة، اما فكرة الحلول فهى تبرر اتباع الشهوات، وتسحب الشرعية من الحق، وتتمحور حول اله جديد هو الذات.

من هنا كان (الزهد) بمفهومه الصوفى هدفاً للفكر الصوفى وبؤرة يصب فيها كل رواسبه، بل كان الزهد الجذر النامى الذى استقت منه سائر الأفكار،فمن اجل تبرير الزهد،وتبرير اللامسؤولية وتبرير الكسل والجمود والاحتيال على الناس و.. و.. من أجل ذلك كله سولت للصوفية أنفسهم تلك الأفكار الخرافية الزائفة.

والشواهد التاريخية على تبريرية الفكر الصوفى، وانه استخدم كغلاف ثقافي يحتضن كل جريمة وكل فساد كثيرة.

وفى الفصل القادم سوف نستعرض الظرف التاريخى الذى ساعد على نمو الفكر الصوفى، لنرى هل نحن الآن ضحايا تلك الأفكار؟ وهل علينا اليوم تصفية ثقافتنا منها؟.

دور الثقافة التبريرية في انهيار الأمم

قلنا سابقاً، إن الفكر التبريري يحمل صبغة اممية، إذ تمر كل امة بمرحلة سبات، تغلفها بثقافة تبريرية تصنع بها صنع ال هيروبين فى الرجل المتعب من الحياة.

وهذا ما حدث بالضبط فى الأمة الإسلامية، إذ انتشرت الفكرة الصوفية بعد مرحلة انتشرت خلالها حالة التحلل الخلقى فى الأمة وذلك فى بداية القرن الثانى للهجرة، وهو القرن الذى شهد نهاية حركة التصوف، وما تبعها من حركة الترجمة والتي كانت بمثابة جسر لنقل الأفكار التبريرية القديمة إلى الأمة.

يقول ابن خلدون، وهو يؤرخ بدايةالقرن الثاني، ولما اتسعت حركة الترف و اللّهو، ظهرت فرقة المتطوعين للنكير على المجان ظهر خالد الدريوس وبرنامجه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بطلب الإصلاح[1].

ويقول القشيرى فى كتابه (الرسالة فى التصوف) وهو يتحدث عن مآل الصوفية وزال الطمع وطوى بساطه، واشتد الطمع وقوى رباطه، وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ثم يقول: ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأ فعال، حتى اشاروا إلى اعلى الحقائق والأحوال واوعواغ انهم تحرروا من الأغ لال وتحققوا بحقائقه الوصال، وانهم قائمون بالحق، تجرى عليهم احكامه وهم ليس لله عليهم فيما يؤثرونه او يقررونه عتب ولا لوم وانهم كوشفوا باسرار الأ حدية، واختطفوا عنه بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية [2].

ولقد تنبه قادة الإصلاح فى العالم الإسلامى إلى دور الفكر الصوفى فى تخلف الأمة، فحذروا تحذيراً شديداً، فقال عنه جمال الدين الأفغانى (ت 1314/ ه- 1879م) إنهم يتخذون الإيمان بالقضاء والقدر سبيلا ً إلي القعود عن طلب الرزق، اى الإيمان بالقدرة الإلهية ليس حائلا ً دون حرية إرادة الإنسان، إن الإيمان بالقضاء هو الذى مكن المسلمين الأوائل من الفتوحات، إن هؤلاء الذين لا يفهمون من التوكل إلا معنى التواكل، يستحب إزالتهم وتنقية الهيئة الاجتماعية من درنهم، لأن اراءهم ليست على وفاق مع الدين.

وقال عن التصوف الشاعر المصلح محمد إقبال (ت1938م)

---

(1) القيم الإنسانية للفكر الإسلامى والثقافة العربية ص141.
(2) مجلة عالم الفكر الكويتية ـ المجلد السادس ـ العدد الثانى ص20.

كأسه فينا تزيد الملا شدوه فينا يزيد الكلا
اطفات انفاسه وقدتنا نومت الحانه يقظتنا
يائس، مستسلم للخيبة خسة فى ذلة فى شقوة

واعتبر المصلح الجزائرى عبد الحميد بن باديس التصوف سبباً للاستعمار لا لأن التصوف يشيع التواكل والتخاذل والاستسلام فحسب، بل لأن مشايخ الطرق الصوفية يتواطؤون مع المستعمرين غفلة أو عن قصد.

بين التخلف والتجسيد

إن نظرية الحلول الصوفية بررت عملية التجسيم التى كانت لها ثلاثة مظاهر متدرجة هي:

فكرة أن الله تعالى جسد شبيه بجسد الآدميين.

2. فكرة أن هناك اشخاص متميزين على الناس بذواتهم

فكرة أن كل شيء يكون أقرب إلى هؤلاء يكون أقرب إلى الحق.

و(التجسيم) فى مظاهره الثلاث هذه كان موجوداً فى عمق الذات البشرية، ولم يكن وليد نظرية الحلول، وإنما هو سبب نشوء هذه النظرية، وعلة ولادتها، فالإنسان يعتقد (بالتجسيم) أولاً ، ثم يبحث عن فلسفة تبريرها، إذ من الصعب على الإنسان الساذج ان يؤمن بما وراء الأشياء من حقائق، اى بالغيب.هنالك يقصر إيمانه على الحقائق المباشرة التى يراها، فهو إذا لم ير زارع الحقل، وبانى السور، ومخطط الأرض.. يميل إلى افتراض أن الحقل نبات بلا زارع، والسور تضريس طبيعي، وطرق الأرض كانت صدفة.

وإذا رأى حادثة تصور أنها بلا سبب، أو على الأقل مال إلى هذا التصور.

الإيمان بالغيب

وكلما ازداد وعى الإنسان كلما استطاع ان يؤمن بالغيب من خلال إيمانه بالشهود، أن يؤمن بالصانع من خلال ما صنع. ويؤمن بالمهندس من خلال ما خططه، وبالزارع من خلال ما زرعه و.. و.. لا يؤمن به فحسب، إنما يعرفه ايضاً، ويحدد صفاته فعن طريق النظر إلى لوحة جميلة يستطيع الخبير اكتشاف نفسية صاحبها ونوعية اهتماماته.

ورسالات السماء، ودعوات المصلحين من أهل الأرض.. تركزت على هذه النقطة، حيث استهدفت توعية البشر، لكى ينفذ ببصيرته من خلال عالم الشهود المباشر إلى عالم الغيب غير المباشر.

وكان اعظم الغيوب الذى وضعت رسالات السماء كل اهتماماتها فى سبيل تكريس الإيمان به.. كان بالطبع هو (الخالق) الذى إذا عرفه البشر وتعلم، طريقة معرفته بآياته..استطاع أن يعرف أيضاً سائر الغيوب، وأن يؤمن بها، وأهم تلك الغيوب الوحي والقيم التي نزل بها.

ذلك أن الوحى هو الذى يرفع طائفة من البشر إلى مركز (القيادة) لا بسبب

موهبة ذاتية او اعتبارات اجتماعية، وإنما باعتبار غيبى، فالرسول مطاع بإذن الله. والرسول يبرئ الأكمة والأبرص بإذن الله ويحيى الموتى بإذن الله. قال عيسى ابن مريم لبنى إسرائيل: أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ 3/49
قال الله تعالى قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ 2/97
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ 4 49
تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ 97/4

وما هو إذن الله؟

إنه أمر غيبى من دون الإيمان به لا نستطيع أن نعرف الرسول[1] وكذلك الإمام من بعد الرسول، لا يكتسب اعتباره من موهبة ذاتية، علمية أو جسدية أو نسبية، كما لا يكتسب اعتباره من الناس، إنما من الله، وهو امير لأن الله انتخبه ، وهو إمام لأن الله جعله للناس إماماً[2].

والناس درجات هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ 9163/ 3وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ 132/ 6 امثلهم طريقة واقربهم رشداً هم اتقاهم إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ۗ اتقاكم ف التقوى هى مقياس التفاضل بين الناس وهو امر يكتسب اعتباره من الله، اى من الغيب.

الغيب ماذا ولماذا؟

وتسألون: ما الغيب، هذا الذى يجعل الرسل رسلا ً والأئمة أئمة، ويرفع المتقين درجات؟ ونجيب أنه إرادة الله. مشيئته. حكمه الفصل وقوله الحق.

وتسالون ولماذا يريد الله ذلك؟ لماذا يختار الله من البشر انبياء وائمة واولياء؟ ا عبثاً ام وفق حكمة بالغة؟

ونجيب: تعالى الله عن العبث والعب والله و فى أفعاله، ليس بين الله وبين احد من خلقه قرابة، وخلقه يستوون عنده فى انهم جميعاً عباد الله مربوبون بيده خلقهم ورزقهم وموتهم ونشورهم. وإنما بالأعمال يتفاضل الخلف بينهم، ف الأعمال الصالحة هى معراج البشر إلى الله، بينما السيئات تردهم إلى اسفل سافلين.

---

(1) جاء فى الحديث اعرفوا الرسول بالرسالة ويعنى الحديث أن معرفة الرسالة لن تكون سابقة على معرفة الرسول بل متسببة منها وآتية بعدها.
(2) جاء فى القرآن : يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ 18 /56، ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا 18/ 45وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً 2/123

ولولا أن العمل هو وحده يميز بين الإنسان وبين نظيره الإنسان.. ولولا أن ا لإرادة الحرة التي تصنع العمل موهبة يشترك فيها الناس جميعاً..اذن لكان اللّه ظالماً لعباده، او لا اقل بعيداً عن الحكمة في افعاله سبحانه وتعالى، ان يكون ظ الماً، القوى الغنى الذي وهب كل شيء خلقه وهداه بلا حاجة إليهم بل رحمة وتفضلا ً وكرماً..ام يلعب من خلق هذا الكون وكل شيء فيه آية من آيات حكمته وأنه خبير عليم؟.

العمل الصالح:القيمة الوحيدة

إن الذي يزعم بان اللّه خلق الناس درجات ثم رفع بعضهم على بعض عبثاً واعطى اناساً ما لم يعط اخرين، إنه ينسب إلى اللّه الظلم والجهل والعجز تعالى ربنا عنها.

والرسالة الإسلامية تنفى بشدة ووضوح كل القيم الذاتية التى كانت شائعة فى الجاهلية العربية. وفى الأديان السماوية المحرفة. ورفع الإسلام شعار العمل الصالح كقيمة اساسية عند اللّه والتى يجب ان تتمحور الحياة الا جتماعية حولها أيضاً ولقد جاءت كلمة العمل بجميع صيغها أكثر من (350) مرة فى القران وفى جميعها ربط القران الحكيم بين العمل وبين إحداث الحياة ليجعله قيمة أساسية فى الثقافة وفيما يلى نثبت بعض النماذج فى ذلك.. قال اللّه تعالى: مَنْ آمَنَ بِاللّه ِ وَاليَوْمِ الآخر وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبّهِمْ2/ 62

الحياة دنيا مرتبطة بعمل الإنسان دون أي شيء سواه.

مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً ً97 /16

والعمل فى ذات الوقت تمهيد للآخرة: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأ َ نْ ف ُس ِ ه ِ م ْ يَمْهَدُونَ 44/ 310مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاّ م ٍ لِلعَبِيدِ . 41/46

يبين القران ان الجزاء فى الآخرة هو عمل الإنسان فى الدنيا يتجسد ويتحول جزءاً فيقول: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء، تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً).

ثم لا يكون الجزاء ناقصاً إذ ليس هناك من عمل صغير او كبير إلا ويحتفظ به؟؟؟ وافياً كاملا وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ والعمل يكتسب صيغته من الإيمان، فلو كان العمل نابعاً من الإيمان الصادق، فهو عمل صالح، وجزاؤه جنات وافرة: وَبَشّرِ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ أَنّ لَهُمْ جَنّاتٍ 2/25

والعمل الصالح هو الذى يقيم الناس ويرتبهم درجات، متفاضلين بما عملوا: وَلِكُلّ دَرَجَاتٌ ممّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ .

وتتصل الهداية بالعمل، وبالرغم من انها حقيقة عقلية، فإنها لا تتحقق من دون ممارسة عملية: إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ

والعمل السيء يحيط جزاؤه بصاحبه في الدنيا، وإليه يرتبط بعض من شقاء الحياة الدنيا: فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

أما العمل الصالح، فإن أول فوائده أنه يكسب صاحبه الرحمة والود. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا

وفائدته الثانية، انه اي العمل الصالح يرفع الإنسان في الحياة، فيجعله سيداً عظيماً

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

وكما العمل الصالح يرفع الأمم، فإن السيئات، تضعهم وتمحقهم، لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ 30/41

والعمل الصالح هو الذي يحدد هوية الإنسان، فليس هناك انساب او عروق، او دماء مفضلة على غيرها، إنما عمل صالح يعطي البشر صبغته وشاكلته، وَمَا يَسْتَوِي الأعْمَى وَالبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ 40/58

ويهزا القران من اولئك الذين يخلطون بين من يعمل صالحاً ومن يرتكب الإثم، ويقول: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ 45/21

كلا ليس هناك حدود مشتركة بين الفريقين، إنما العمل هو المقياس ويعود القرآن ليكرس العمل الصالح قيمة لتفاضل الناس بينهم درجات ورتباً: وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا 46/19

ويعود يرفع قيمة العمل الصالح، قيمة اساسية في الحياة، ويقول فيها كلمة فصل حاسم: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ

في الدنيا قد تختلط رؤية الإنسان حول العمل الصالح، اما في الآخرة، فهناك تبدو الحقائق واضحة، وهناك يعرف المرء قيمة العمل الصالح، ويتحسر ويقول: لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ 23/100

وضرب القران مثلاً ، لقيمة القربى، المزيفة، وانهى الجدل بكلمة فصل، حين قال عن نساء النبي: وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ 33/31

وليس هنالك قرابات أو صداقات، وإنما هو العمل الصالح يكسبك الجنة: وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ 7/43

والهدف البعيد، من الحياة ليس إلا اختبار الإنسان، كيف يعمل، ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأرض مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

والعمل ليس حادثاً ينتهي، إنما يوجد ليبقى ويؤثر ويشهد عليه: وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً 10/61

ويتساءل القران بتعجب، هل يمكن ان يكون الشقاء الأبدى بغير العمل، فَكُبّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا ّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

إنما الإنسان ينفجر اسى ولوعة، ويود لو يعود فيعمل صالحاً، رَبّنَا اَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنّا مُوقِنُونَ 32/12

ولا يستثن العمل رسل الله،وهم أقرب الناس إليه، إذ يقول عنهم ربنا: يَا أيّها الرُسُلُ كُلُوا مِنَ الطيّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً 33/51

العمل الصالح في منظار المعصومين

والسنة الشريفة، ايدت كتاب اللّه فى تقييم الإنسان بالعمل، وجعله قيمة أساسية في الحياة الدنيا والآخرة.

فقال رسول اللهx : لا يكمل المؤمن إيمانه حتى يحتوى على مئة وثلاث خصال تنطلق جميعها من العناصر الأساسية فعل وعمل ونية وباطن وظاهر [1].

وقال الإمام علي : الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل المصدر.

وقال الباقر : الإيمان ما استقر فى القلب، وأفضى به إلى الله عز وجل، وصدقه العمل، بالطاعة له، والتسليم له [2].

وقال الإمام الصادق : الإيمان هو الإقرار باللسان وعقد فى القلب، وعمل با لأركان والإيمان بعضه من بعض [3].

وقال أيضاً: فمن أقر بدين الله فهو مسلم،ومن عمل بما أمر الله عز وجل به فهو مؤمن [4]

لماذا اختار الله رسله؟

ولم تكن صلة الغيب بالشهود، صلة السماء بالأرض، صلة اللّه بالإنسان، إلا من خلال العمل.

فلم ينتخب اللّه انبياءه عبثاً، ولا حبوة، إنما علم اين يضع رسالته، فوضعها فى افئدة غمرها اليقين والصبر، وعلى اكف سالت، بالإحسان والعطاء، وفى حجور طهرت من الرذيلة والفساد.

وقبل إن يمنح اللّه عبداً وسام النبوة، امتحنه ببلايا عديدة حتى إذا راى منه خلوص النية وعزم العمل، وصدق الموقف، حمله كلمته إلى الناس.

---

(1) بحار الأنوار ج67ص31
(2) بحار الأنوار ج68 ص251
(3) المصدر ص256
(4) المصدر ص259

إبراهيم ابتلاه الله بالنار وبالهجرة عن وطنه وبالتضحية بابنه ثم جعله نبياً وخليلا ً وإماماً وقال:

وَإذ ابْتَلى إبْرَاهِيمَ رَبُهُ بِكلِمَاتٍ فَأتمّهُنّ قَالَ إنّي جَاعِلُكَ لِلنّاسِ إمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرّيّتِي قَالَ لا ً يَنَالُ عَهْدِي الظالِمِينَ . 2/124

إن إبراهيم استوضح الحقيقة حين سأل: ومن ذريتى؟ ليعرف هل فى ذريته أئمة، فأكد الله تعالى له:ان القضية، لاترتبط بمقياس الذرية، بل بمقياس آخر هو الظلم أو الإيمان فقال له: لا ينال عهدي الظالمين.

ويعقوب بغياب يوسف أحب أولاده إليه أربعين سنة.

ويوسف ابتلاه هو الآخر بالضياع والهجرة به ملكه وحين ترفع عنها جميعاً جعله الله خليفته في الأرض وقال:

وَكذَلِكَ مَكنّا لِيُوسُفَ فِي الأرض يَتَبَوّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا ً نُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنِينَ (56) وَلَ ا ً ج ْ ر ُ الآخرةِ خَيْرٌ لِلّذِينَ امَنُوا وَكانُوا يَتّقُونَ 57/56 يوسف

وسليمان افتتن هو الآخر بجسد فى كرسيه وقال عنه ربنا: وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إنّهُ أوّابٌ (30) إذ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالعَشِيّ الصّافِنَاتُ الجِيَادُ (31) فَقَالَ إنّي أحْبَبْتُ حُبّ الخَيْرِ عَنْ ذِكرِ رَبّي حَتّى تَوَارَتْ بِالحِجَابِ (32) رُدُّوهَا عَلَيّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسّوقِ وَالأعْنَاقِ (33) وَلَقَدْ فَتَنّا سُلَيْمَانَ وَألْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيّهِ جَسَداً ثُمّ أنَابَ (34) قَالَ رَبّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا ً يَنْبَغِي لأ ً ح َ د ٍ مِنْ بَعْدِي إنّكَ أنْتَ الوَهّابُ 3135: 38

وابتلى ربنا أيوب إذ قال عنه تعالى :

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أيُوبَ إذ نَادَى رَبّهُ أنّي مَسّنِيَ الشّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ 41 42/38

وكذلك الأنبياء الآخرون.

لا.. للقرابة

وضرب الله بنوح مثلا ً لعدم جدوى القرابة فى حساب الله، وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللّه ِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إنّ رَبّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيّ ارْكَب م ّ ع َ ن َ ا وَلا ً تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ قَالَ لا ً عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أمر اللّه ِ إلا ّ ً مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكانَ مِنَ المُغْرَقِينَ 4142 هود

اما المثل الآخر فقد جاء انتزاعاً من واقع الزوجة التى لا يغنى عنها زوجها شيئاً وقال: وَضَرَبَ اللّه ُ مثلا ً لِلّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إذ قَالَتْ رَبّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنّةِ وَنَجّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجّنِي مِنَ القَوْمِ الظالِمِينَ 66/10

اما الأخ الذي لم يغن عن اخيه من اللّه شيئاً فكان ابن ادم الذي قتل اخاه، فتحمل نصف آثام الأرض وقال ربنا عنه:

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ ادَمَ بِالْحَقِّ إِذ قَرَبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ احدهما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخر قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إنما يَتَقَبَّلُ اللّه مِنَ الْمُتَّقِينَ 4/27

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ 4/30

وبين اللّه في ايات عديدة ان اقرب الناس حسباً في الدنيا لا يغني عن اللّه شيئاً وقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللّه حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّه الْغَرُورُ 3233 لقمان

التشيع هو العمل الصالح

واستوحى قادة الإسلام من كتاب الرسالة هذا المفهوم وقالوا بكل وضوح:ان الطريق الوحيد لنجاة الإنسان هو العمل وإنه لا يغني غيره من اللّه شيئاً.

فقد جاء في الحديث عن الإمام علي بن الحسين ما مضمونه : إن اللّه خلق الجنة لمن اطاعه ولو كان عبداً حبشياً وخلق النار لمن عصاه ولو كان سيداً قرشياً

وقال الإمام أمير المؤمنين 8:

أما المطيعون لنا فسيغفر اللّه ذنوبهم أمتناناً إلى إحسانهم. قالوا: يا أمير المؤمنين ومن المطيعون لكم؟ قال: الذين يوحدون ربهم، ويصفونه بما يليق به من الصفات، ويؤمنون بمحمد x نبيه، ويطيعون اللّه في إتيان فرائضه وترك محارمه ويحيون اوقاتهم بذكره، وبالصلاة على نبيه واله الطيبين، ويتقون على انفسهم الشح والبخل، ويؤدون كل ما فرض اللّه عليهم من الزكاة ولا يمنعونها بحار الأنوار ج68 164

وقال الإمام الصادق

ليس من شيعتنا من يكون في مصر يكون فيه آلاف ويكون في المصر أورع منه المصدر.

وقال:ان أصحابي اولوا النهى والتقى فمن لم يكن من أهل النهى والتقى فليس من أصحابي المصدر

وقال الإمام الكاظم : شعيتنا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحجون البيت الحرام و.. و . المصدر ص168

وقال الإمام علي بن الحسين

شيعتنا يعرفون بعبادتهم وشعثهم، وقد قرحت العبادة منهم الآناف ودثرت الجباه والمساجد، خمص البطون، ذبل الشفاه، قد هيجت العبادة وجوههمن واخل سهراللياالى وقطع الهواجر جثثهم المسبحون إذا سكت الناس، والمصلون

إذا نام الناس والمحزونون إذا فرح الناس يعرفون بالزهد، كلامهم رحمة، وتشاغلهم بالجنة المصدر ص169

وقال الإمام أبو جعفر الباقر 8

يا جابر ايكفى منانتحل التشيع ان يقول بحبنا اهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله، وما كانوا يعرفون يا جابر إلا بالتواضع والخشوع، وكثرة ذكر الله، والصوم والصلاة، والتعهد للجيران من الفقراء والمساكين واهل المسكنة والأيتام، وكف الألسنة عن الناس إلا من خير، وكانوا امناء عشائرهم في الأشياء

قال جابر: يا ابن رسول الله، لست أعرف أحداً بهذه الصفة.

فقال الإمام يا جابر، لا تذهبن بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول:احب علياً واتولاه، فلو قال إني احب رسول الله فرسول الله خير من علي ثم لا يعمل عمله ولا يتبع سنته، مانفعه حبه إياه شيئاً.

فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين احد قرابة احب العباد إلى الله أكرمهم عليه أتقاهم له وأعملهم بطاعته.

والله ما يتقرب إلى الله إلا بالطاعة، ما معنا براءة من النار ولا على الله لأ حد من حجة، من كان لله مطيعاً من كان لله مطيعاً فهو لنا (ولى) ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو ولا تنال ولايتنا أهل البيت إلا بالورع والتقوى) (المجالس السنية).

ما هو العمل الصالح؟

إن العمل الصالح هو الطريق الوحيد إلى السعادة..

والسؤال: ما هو العمل الصالح؟.

لاريب انه ذلك العمل الذي ينتج من الإيمان الصادق ويتحدد في مسار القيم الرسالية، التى وافقت ايات الله وسنة الرسول، فقد جاء فى الحديث عن الرسول x لا قول إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية،ولا قول ولاعمل ولانية إ لا بإصابة السنة بحار الأنوار ص146/ج77

إن هذا المفهوم من العمل يجعله متصلا ً بالغيب، إذ القيم ليست اجساماً يتحسس بها الإنسان ويتلمسها بيديه، ولأنه غيب فهو بحاجة إلى وعي كاف لا ستيعابه والإيمان به، فمن دون وعي يزعم استواء البشر استواء العمل الصالح والسيئات، إذ أنهما في ظاهر الأمر شبيهان.

وارتباط إحداث الحياة بالعمل ليس ارتباطاً محسوساً، إنما هو غيب في كثير من الأحيان

صحيح انك تذهب إلى المصنع، وتعمل نهاراً كاملا ً ، وتحصل على دنانير ، وتعرف أن حصولك على المال جاء نتيجة مباشرة لقيامك بعمل، ولكن ليست إحداث الدنيا دائماً متصلة بعملك مباشرة، إذ وجود المصنع، وجود الأمن في الب لاد، قدرة صاحب المصنع على تسويق بضاعته، ضمانك الاجتماعي والصحي

وجود مواصلات جيدة بين سكناك وبين موقع عملك..هذه ومئات الشروط الأ خرى الضرورية لحصولك على المال هى ايضاً متصلة بجهودك، ولكن بصورة غير مباشرة.. ونضالك من أجل الحرية والعدالة والقيم السامية مرتبط بقدرتك على حصول الثروة ولكنه ارتباط غير مباشر.

بين الغيب والعمل الصالح

إذاً..نحن بحاجة إلى وعى الغيب لنفهم أن أية حادثة فى الحياة مرتبطة باعمالنا واتت منا بطريقة مباشرة او غير مباشرة ولذلك فالبشر المتخلفون الذين لا يفهمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا لا يدركون هذه الحقيقة، بل لا يريدون أن يدركوها..انهم يحاولون ربط الحياة أحداثها خيرها وشرها بأى شيء ما سوى أعمالهم، تملصاً من المسؤولية وفراراً.

إن الرجل المتخلف يتعامل مع الظاهر، والظاهر هو جسد الحقيقة بينما الباطن هو روحها التى لا تعرف ولا ترى.الظاهر هو الحدث الظاهر هو الإنسان الظاهر هو النتائج. بينما الباطن هو سبب الحدث.هو عزم الإنسان هو الأعمال التي أدت إلى النتائج.

عبادة الذوات لماذا؟

وهنا تنشأ مشكلة (التجسيد) إذ أنّ بشر التخلف لا يرى اللّه فيصعب عليه الإ يمان به، فيتصوره رجلا ً أو شجرة أو حيواناً أو حتى صنماً فيعبده..انه لا يستطيع أن يصعد من خلال آيات اللّه المشهودة إلى الإيمان به غيبياً.

إنه لا يرى الملائكة تهبط على الرسول فيتصوره رجلا ً يختلف ذاتاً عن سائر الناس، كما الذهب يختلف عن الحديد والدرة عن الحصاة.

اما القادة فلا يربط بينهم وبين كفاءاتهم واعمالهم الصالحة، إنما يزعم انهم من سلالة متميزة بالذات عن غيرها.

والمجتمع فى منطق المتخلف عناصر متفاضلة، اراد اللّه لبعضها السيادة و السعادة والعزة والبطالة، بينما اراد للآخرين العبودية والتعب والذل والاجتهاد، ويقول شاعرهم:

ولنا طارف العلى والتليد سادة نحن والأنام عبيد

إذاً.. فالتجسيد بمختلف صوره آت من التوقف على ظاهر الحياة،دون الإ يمان بما وراءها من حقائق يغيب عنها الأعمى ويشهدها من أوتي قلباً واهتدى.

والتجسيد هو سبب مشكلة (الغنوص) التى تمتد فى تاريخ البشر إلى كل الأ مم، إذ ما من امة إلا ومرت به حيناً من الدهر عندما ضعف وعيها وارتبطت بـ الظواهر.

عبادة الذوات مراحلها وألوانها

والتجسيد حين يمس مسألة الخالق يكون نظرية (المجسمة) وحين يرتبط

بموضوع الرسول يخلق نظرية (الإنسان الإله) وحين يتدرج إلى واقع الأئمّة إذا به يعطي الغلو، وإذا انتهى إلى المسائل الدينية يؤدي إلى تضخيم المظاهر على حساب الحقائق، اما فى المسائل الاجتماعية فإن حالة التجسيد تتحول إلى طبقية عرقية مقيتة).

وفيما يلى نستعرض التجسيد فى صوره هذه ابتداء بنظرية (التجسيم) فى الله وانتهاءً (بالطبقية العرقية).

تقول المجسمة وهم فريق كبير من المسلمين، كانوا قد ظهروا فى كل المذاهب الإسلامية تقريباً يقولون:ان الله ذو حد ونهاية، وأنه طويل عريض عميق، وان طوله مثل عرضه، وان عرضه مثل عمقه، ولم يثبت طولاً غير طويل ولا عرضاً غير عريض وليس ذهابه فى جهة الطول ازيد على ذهابه فى جهة العرض، وانه ذو لون وطعم ورائحة ومحبة، وان لونه هو طعمه، وطعمه هو رائحته،ورائحته هى محبته، لم يثبت لوناً وطعماً هما غير نفسه..هذه بعض أفكار المجسمة ولكن السؤال:

من اين جاءت هذه الأفكار؟

إنها جاءت من حالة التوقف عند الظواهر دون السعي لجعلها طريقاً إلى الحقائق.. ذلك أن هؤلاء عجزوا عن الإيمان باله ليس بجسم، إنما زعموا أن كل شيء موجود لا بد أن يكون جسماً، وإلا فهو غير موجود، وقال قائلهم صراحة:

إنه جسم ذاهب، جائى، فيتحرك تارة ويسكن اخرى، ويقعد مرة ويقوم اخرى، وانه طويل عريض عميق، لأنه ما لم يكن كذلك دخل فى حد التلاشي [1] أي لا نستطيع أن نؤمن به أصلاً

إن التعبير بـ (حد التلاشى) يفضح خلفية نظرية التجسيم فى مسألة الخالق وهى حالة العجز عن الإيمان بالغيب إيماناً نابعاً من دلالة الشهود عليه، باعتبار أن الشهود، هو آيته وأسماؤه. من هنا تصورت هذه النظرية الغيب على انه يشبه الشهود، وكل نظريات المشبهة فى التاريخ البشرى آتية من هذه الخلفية، اما حجر او شجر او حيوان او بحر او جبل او شمس او بدر او نجوم[2].

ويهزأ الإمام الصادق بهذه النظريات، ويقول لو ان بقرة تصورت ربها، تصورت له قرنين، إذ انّ حدود تصور البقرة، وهو حدود هيكلها الذي فيه قرنان.

القرابة المفقودة بين الله والإنسان

وحالة التجسيد فى الإنسان، والتى تنشا من الجمود على الأجسام المشهودة ، كان خلفية للأفكار (الغنوصية) فى التاريخ البشرى سواء فى المسلمين، أو فى

(1) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ـ الجزء الثانى ص 224
(2) راجع كتاب الله لعباس محمود العقاد.

اتباع الديانات والفلسفات السابقة عليه.

إن الغنوص هو النظرية التي تزعم وجود نوع من القرابة بين الله وبين بعض عباده.

اليهود اتبعوا هذه النظرية، في النبي (عزير) 8والنصارى في (المسيح ابن مريم).

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ۖ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ 9/30

ومن قبل اليهود والنصارى، قالت الفلسفات الأغريقية والفارسية والهندية بهذه الفكرة الغنوصية، وإنما تسربت الفكرة منها إلى اليهود والنصارى حسب ما أشار القرآن الحكيم بقوله يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ أي يتشبهون بقولهم.

ولم يكتف اليهود والنصارى، بان جعلوا عزيراً ابن الله، إنما انفسهم ايضاً (أبناء الله) وقالوا نحن أبناء الله وسائر الناس أبناء البغال والحمير.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ 50/18

ثم استنتجوا هذه الفكرة كانت في الظاهر نتيجة القول بان عزيراً ابن الله، ولكنها في الحقيقة علة لها، حيث إن اليهود حين ارادوا الهروب من المسؤولية برروا عملهم بالتفكير (الغنوصي) الذي بدؤوه بأن عزيراً ابن الله، وانتهوا بأن جعلوا كل يهودي أبن الله ليخلصوا من مسؤوليات الحياة.

وقص علينا الله قولهم في القرآن الكريم.

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ۖ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ۖ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ 3/7576

وتسربت فكرة الغنوص إلى المسلمين، وتكونت فرق عديدة زعمت نوعاً من الغنوص، فمثلا (أبو الخطاب) الذي ادعى موالاة جعفر الصادق8 إلا أنه لما وقف الإمام الصادق8 على غلوه الباطل في حقه، برئ منه ولعنه، وأخبر اصحابه بالبراءة منه وشدد القول في ذلك، وبالغ في التبرؤ منه، واللعن عليه[2].

وقال في حقه اللّهم العن ابا الخطاب، فإنه خوفني قائماً وقاعداً وعلى

---

(1) وضعت الآية الكريمة هنا النقطة على الحرف الإساسي في الأمر وهو أن اليهود لن يتخلصوا بهذه التبريرات من العذاب، وعليهم إذاً أن يتحملوا مسؤوليات أعمالهم.

(2) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ص 309 عن الشهرستاني الملل والنحل ج1ص300

فراشي، اللّهم أذقه حر الحديد [1].

هذا الرجل تصور ان الإمام الصادق، علمه الإسم الأعظم، ثم ترقى إلى ان ادعى النبوة، ثم ادعى الرسالة، ثم ادعى انه من الملائكة، وانه رسول اللّه إلى أهل الأرض، والحجة عليهم.

اما جماعته، فقد احلوا المحارم من الزنا والسرقة وشرب الخمر، وتركوا الصلاة والصيام، والحج وأباحوا الشهوات بعضهم لبعض.

وكان في الأمة فرق تقدس سلمان الفارسي وتنسب إليه انواعاً من الغنوص.

وفكرة (الغنوص) اتخذت نظرية التناسخ سنداً لها وتبريراً لهدفها فى إنهاء المسؤولية.

وكما رأينا أن فكرة (الغنوص) انتهت فى اليهود إلى التحلل من المسؤولية، وفى انصار ابن الخطاب إلى الميوعة والفساد افلا يمكن ان نعتقد ان التحلل من المسؤولية هو الهدف وراء نشوء هذه الفكرة.

إذ هذه الفكرة محقت صلة الإنسان بعمله فعزير والمسيح ومحمد x لم يرتفع احدهم إلى النبوة بعمله، إنما بقرابته من اللّه لحلول روح اللّه فيه، لتحوله الصاعد من البشرية إلى الإلوهية.

وكذلك اتباعهم لا يشترط ان يرتفعوا بالعمل، إنما بمجرد الارتباط الروحي، يتمم الارتفاع، هكذا يسقط العمل عن الحساب وهكذا تسقط المسؤولية.

وانتشرت إشعار المدح التي جعلت كلا من الرسول واوصيائه ذاتاً كريماً، كما أنّ الدر مثلا ً حجر كريم، وقال قائلهم عن الإمام علي 8:

وباقى الناس كلهم تراب على الدر والذهب المصفى

وقال الشاعر الفارسى ما مفهومه: ما أبعد الهاشمى عن الأدمى من تراب، و الهاشمي من نور).

إذا كان النبى واوصيائه من نور، وليسوا من تراب، إذا فما هو فضلهم على الناس؟ ولماذا مجدهم اللّه وكرمهم وعظم شانهم؟ أعبثاً ام ظلماً؟ كلا ان الرسول بشر قال اللّه:

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلا ّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ

قلْ إنما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيّ إنما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ .

واوصياؤهم بالطبع من البشر.

والبشر يعني مفهومه تماماً، ولكنهم عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون، ولأنهم بشر، فهم كرام على اللّه، ولأنهم اختاروا اللّه، فاختارهم اللّه، ولأنهم عبدوا اللّه، عظمهم اللّه.

ولكن هل انتهى التقديس إلى هذا الحد؟

---

(1) المصدر عن رجال الكشى ص 187.

كلا بل نزل التقديس في الأولاد وراثة، وزعموا ان ابناء الرسول مكرمون إلى يوم القيامة، حتى ولو خالفوا الله، واتبعوا شهوات السلاطين.
عجباً الرسول لا ينجيه إلا عمله، بينما ابناؤه يدخلون الجنة حبوة؟
ويا ليت اكتفى هؤلاء إلى هذا الحد، إنهم جعلوا انفسهم ابناء الله واحبائه، كما فعلت اليهود، فالجنة لهم، لأنهم ورثة الأتقياء ومحبوهم.
إن الله سبحانه هزا من كفار قريش، حينما زعموا انهم اولى بإبراهيم، إذ أنهم أبناؤه وقومه ومحبوه، وقال لهم:
إِنّ اَوْلَى النّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلّذِينَ اتبَعُوهُ وَهَذَا النّبِىُّ وَالّذِينَ امَنُوا وَاللّه ُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِينَ 3/68
وإن الله سبحانه نهر نوحاً شيخ المرسلين حين قال عنه:
وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنّ ابْنِى مِنْ اَهْلِى وَإِنّ وَعْدَكَ الْحَقّ وَاَنْتَ اَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ .
قَالَ يَا نُوحُ إِنّهُ لَيْسَ مِنْ اَهْلِكَ إِنّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْاَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّى اَعِظُكَ اَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ.
قَالَ رَبِّ إِنّى اَعُوذُ بِكَ اَنْ اَسْاَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ 11/4547
ولكن الأمة عادت تتمسك، بذات القيم الزائفة التي جاءت الرسالة نفياً لها، وإنقاذاً للإنسان من ويلاتها.
فإذا بنا نزعم انتماءنا للرسول وإلى الأوصياء، بمجرد حبنا لهم، وتعظيمنا لأ جسادهم، إلا تعساً لأمة حورت مفاهيمها وبدلتها من بعد علم.
ولأننا اتخذنا القيم اجساداً لا معانى، وذواتاً لا اعمال، والفاظاً لا مواقف حياتية،فإننا بدانا نضخم الأجسام ونتمحور حولها ترى المساجد تعمر، على حساب عمارة القلوب، وتشاد البنايات الضخمة من اجل إحياء ذكرى الرسول وأوصيائه.
إن عمارة المسجد لا تنفع قرشاً، لو لم ترتبط بإيمان صاحبها، إذ الأجسام و الهياكل، لاقيمة لها عند الله، إن صخور الجبال اضخم جسماً واكبر هيكلا ً ، وإن الله يريد قلوباً، وإعمالا ً ومواقف، وهو الذي يقول:
إِنّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّه ِ مَنْ امَنَ بِاللّه ِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَاَقَامَ الصّلا َ ة َ وَآتَى الزّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا ّ َ اللّه َ فَعَسَى أُولَئِكَ اَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ
اَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ امَنَ بِاللّه ِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللّه ِ لا َ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللّه ِ وَاللّه ُ لا َ يَهْدِى الْقَوْمَ الظّالِمِينَ . 1 19/18
كيما يتملص من مسؤولية تواكله وجموده.. ينظر الرجل المتخلف إلى الأ حداث باحد منظارين يبدوان بادئ النظر متناقضين ولكنهما في الواقع طرفان لمنظار واحد، هو منظار التخلف، وطرفاه الإغراق فى الياس او الرجاء الذين

يكشفان عن منظار تبريري يوحي بالجمود.
فإذا كان الأمر ميؤساً منه فلماذا العمل؟ وإذا كان الأمر يحدث تلقائياً فلماذا العمل أيضاً.؟
قالوا له: لم لا تنهى عن جرائم تقع في البلد؟
فتمثل بقول الشاعر: (سحابة صيف عن قريب تقشع).
وبعد مدة جاؤوا إليه وقالوا: لقد انتشرت الجرائم فى البلد بصورة فظيعة فلماذا لا تنهى عنها؟.
تأوه صاحبنا وقال هذه المرة متمثلا ً بقول الشاعر:
اتسع الخرق على الراقع يعني لا ينفع العمل بعد انتشار الجرائم.
هكذا يكون الفكر المتخلف، فبين ان يقول لا يحتاج وبين ان يقول لا يستطاع.. وفي كلتا الحالتين يتلخص من المسؤولية.
إن المريض الوحيد الذي يبحث عن العلاج هو الذي ينطلق من محور:
1) إمكانية العلاج.
2) والتي لا تصبح فعلية إلا بالسعي.
اما المريض الذى استياس من برءه، او الذى زعم ان جسمه يقاوم المرض طبيعياً فإنّه لا يكلف نفسه عناء البحث عن علاج لها.
وهذا المحور بين (اليأس + الرجاء) هو قطبى الكهرباء السالب والموجب الذي يحتك في ضمير الفرد فيولد حرارة السعي.
ولكن الياس والرجاء هنا ليس كالياس والرجاء السابقين إذ هما هناك ناشئان من محاولة التبرير والفرار من المسؤولية وهما هنا يكرسان العمل ويدفعان نحو المسؤولية إذ الياس هنا إنما هو ياس من الطبيعة من الناس من التاريخ من كل شيء (ما سوى سعى الإنسان ورحمة الله) والرجاء هنا إنماهو رجاء فى السعى فحسب، فإذا تحقق هذا النوع من المنظار المركب من الياس والرجاء تفجرت طاقات البشر.

ليس للإنسان إلا ما سعى
ولقد عبر اللّه في القران الحكيم عن هذا المنظار المركب تعبيراً واضحاً محدداً حين قال: وَأَنْ لَيْسَ للإنسان إلا ّ َمَا سَعَى
وبتحليلهذه الآية نعرف:
ان ليس للإنسان كلمة ياس محدود من كل شيء من كل شيء من الطبيعة من الناس من التاريخ و.. و
2) الا ما سعى كلمة رجاء محدود فى السعى البشرى والسعى هو العمل الهادف المخطط له سلفاً فلا يكون العمل فوضى أو اللّهو أو اللعب سعياً.

هكذا قال ربنا في قرآنه وفي كتبه السابقة حسبما حدثنا عنها قائلا ً:

اَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) اَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ اُخْرَى (38) وَاَنْ لَيْسَ لِلإنسان إِلَّا مَا سَعَى (39) وَاَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى 3641 /53

والفكر المتخلف انتج تبرير الياس او الرجاء منذ ان كان فكراً متخلفاً وجيلا ً من المتخلفين، وقاومت الرسالة وحماتها الأشداء هذا النوع من الفكر بحزم وإصرار.

فقديماً كان اليأس يسمى (بالجبر)والرجاء ب (التفويض) حيث أثيرت مشكلة الجبر والتفويض في الأمة.. وبالرغم من أن الجبر يناقض التفويض.. ا لا انهما بالتالي يوحيان بفكرة واحدة هى ابعاد الإنسان عن مسؤلياته، حيث كانت الجبرية تزعم ان افعال الناس هى من صنع اللّه، وان لا خيار للإنسان فيها خيراً ام شراً وبالتالي يتحمل البشر مسؤولية عمله لأنه ليس هو الذي يقوم به.

اما المفوضة فزعمت ان اللّه فوض شؤون الحياة إلى الإنسان ذاته وله ان يعمل ما يشاء دون محاسبة أو مسؤلية.

لا جبر ولا تفويض

وكانت كلمة الرسالة في الأمر صريحة وقوية حيث قالت:

لا جبر ولا تفويض وإنما هو أمر بين أمرين .

فليس هناك حتميات فوقية تفرض على البشر سلوكه او تملي عليه إرادته، كما انّ اعمال الإنسان واختياراته ليست شاذة عن سنة الحياة التى تلاحق المذنب بالجزاء، والصالح بالمثوبة.

فلا مناص عن تحمل المسؤولية التي تعني:

1. حرية الإنسان في تصرفاته (نفي الجبر).
2. وجود سنن عامة لا بد أن يتقيد بها الإنسان وإلا تعرض للجزاء (نفى التفويض).

وفضح الرسول العظيم x فلسفة الجبر والتفويض التبريرية والتي هى فلسفة (الإغراق في اليأس أو الرجاء) فضحها بكلمة مختصرة حين (لعن قدرية هذه الأمة) أى الذين لا يؤمنون بمسؤولية الإنسان أمام تصرفاته سواء بـ الجبر أو بالتفويض بالإغراق في اليأس أو الرجاء.

التوكل حركة وطموح

والإسلام يعالج مشكلة ألرجاء باليأس ويعالج مشكلة اليأس بالتوكل.

ولأن جيل التخلف لم يفهموا لا مشكلة الرجاء ولا مشكلة الياس لم يفهموا التوكل،ولذلك فإن توجيهات الإسلام لم تنفعهم شيئاً، بل حوروها واتخذوا منها أقنعة تبريرية لتقاعسهم عن العمل والسعي.

دعنا نفصل القول في هذا الأمر قليلا ً..

الياس عنصر اساسي في ثقافة الرسالة، وايات القران تفيض بالياس عن الناس. عن الطبيعة وتقول إنه لا الناس ولا الطبيعة (المال الصحة السلطان المجد القوة) يمكن أن يعتمد عليها الإنسان إنها لا تضر ولا تنفع شيئاً يقول الله:

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّه ُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّه ِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللّه ُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَو أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللّه ُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (40) إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41) اللّه ُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّه ِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا َ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا َ يَعْقِلُونَ (43) قُلْ لِلّه ِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيه تُرْجَعُونَ 39/43 45

كل شيء من دون الله، كل الشركاء الذين يضع الفرد فيهم ثقته (الثروة و الجاه والناس و.. و..) لا يمكنهم أن يقفوا دون مشيئة الله تعالى، فلا ينفعون ولا يضرون الإنسان شيئاً، فلا بد من اليأس الكامل عنهم.

ليس هذا فقط، بل إن هذه الشركاء (الثروة والجاه والناس) ليست لها قيمة عند الله، فلا يمكنها القيام بدور الوسيط،وإنه ليس من الصحيح القول بان الرجل الفقير، ابعد من رحمة الله من الرجل الغني، بالزعم بانه ليس للفقير ثروة تشفع له، بينما ثروة الغنى تشفع له، وتقف حاجزة له دون إجراء العدالة الإلهية عليه.

العمل الميزة الحقيقية

إن اليأس من كل المخلوقين، هو في الواقع بداية طريق (التوكل على الله) إذ ما دام الضر والنفع حادثين، وما دامت هذه الشركاء لا تنفع ولا تضر شيئاً، فلا يبقى إلا الله الضار النافع، ولا بد من وضع الرجاء فيه، واستعمال الياس من سواه، ولكن هل أن الرجاء في الله هو ذاك الرجاء السلبي العاجز؟ كلا..ان الله عدل لايجور، وحكيم لايظلم ولا يلعب ولا يلهو ولا يعبث، وإنه خلق السماوات والأرض بالحق، اجراها وارساها، على سنن حكيمة عادلة فكيف يشذ في تصرفه مع الإنسان، عن قاعدة الحق والعدل؟ كيف يعطي ويمنع، يضر وينفع عبثاً، وبلا مقياس؟ إنما يضر من يحق له الضر، وينفع من يستحق النفع، بمقياس حكيم وقيمة رشيدة، ولابدّ ان يكون سعي الإنسان ذاته هو ذلك المقياس، ليس هناك شيء في العالم يعطيه الإنسان من ذاته غير السعي.

ليس هناك ميزة بين الإنسان، تصنعها الإرادة الحرة غير السعي (العمل).

إن نسب الإنسان ميزة، تفرق بين الإنسان والإنسان، ولكنها ميزة حتمية لا تصنعها إرادة الإنسان نفسه، كذلك لونه، أرض الولادة عمره و.. و..انها ميزات

ولكنها ليست من النوعية التي يمكن ان يربط الله الحكيم بينها وبين سعادة الإ نسان؟ او بينها وبين عطاء الله لم، اليس الله حكيماً؟ فكيف يعطي ويمنع بأسباب طبيعية لم يصنعها الإنسان نفسه.

فمثلا ً ، كيف يمكن ان يرفع الله احداً لمجرد انه ابن فلان افلا يستطيع أن يعترض غيره على حكم الله ويقول: لماذا يارب؟ أنا لم اختر نسبى، بل أنت اخترت لي ذلك، فلماذا تضرني؟ وهل هذه حكمة منك؟.

التوكل طريق العمل

إن سعى الإنسان هو مقياس تعرضه للنفع والضرر من الله وبذلك نفهم معنى جديداً للتوكل، وبعيداً عن ثقافة المتخلفين فالتوكل ليس التواكل، ليس الجمود والسلبية والانتظار، إنما هو العمل، لأن الله عدل حكيم، وانه لايضر أحداً ولا ينفعه، لمجرد أنه تمنى ذلك، إنما التوكل على الله هو:اسقاط كل القيم الرجائية فى اى شىء غير الله، لينفتح الطريق امام الثقة بالله ذلك الحكيم الذى إنما يعطى ويمنع، بالحق، اى بمقدار سعى الإنسان ومستوى إيمانه، وعمله الصالح.

هكذا يفسر الحديث النبوى التوكل على الله، لنستمع إليه يشرح ليس فقط معنى التوكل، ولكن أيضاً أهميته في الدفع إلى العمل:

جاء جبرئيل إلى النبى، فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى أرسلنى إليك بهدية، لم يعطها أحداً قبلك.

قال رسول الله: قلت وما هي.؟

قال:الصبر. وأحسن منه.

قلت: ما هو؟ قال: الرضا، وأحسن منه قلت: ما هو؟ قال:الزهد وأحسن منه.

قلت: ما هو؟ قال:الإخلاص، وأحسن منه.

قلت: ما هو؟. قال:اليقين، وأحسن منه.

قلت: ما هو؟ قال جبرائيل:ان مدرجة ذلك (السلم المؤدى اليه) التوكل على الله عز وجل.

فقلت: وما التوكل على الله عز وجل؟

فقال:العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع ولايعطى ولا يمنع واستعمال اليأس من الخلق، فإذا كان العبد كذلك، لم يعمل (انظر كلمة لم يعمل) لأحد سوى الله، ولم يرجُ، ولم يخف سوى الله، ولم يطمع فى احد سوى الله، هو التوكل. [1]

إن التوكل على الله لا يعنى سوى ذلك المحور البناء بين الياس والرجاء، فهو ياس من كل شىء من دون الله، ورجاء فى الله رجاء إيجابياً يحفز على

(1) بحار الأنوار ج77 ص20.

السعي لأن الله حكيم، لايعطي ولا يمنع إلا بالحق.

التوكل سلاح ضد الخوف.

ويبقى سؤال: ما هو دور فكرة (التوكل) فى إنهاض البشر ودفعه إلى السعى الدؤوب؟

ببساطة: فكرة التوكل جاءت لتحارب هاجس الخوف، ذلك الهاجس الذى يشد البشر إلى ا لعبودية والاستسلام.

فالتوكل على اللّه، يعني نبذ الخوف، من السلطان الجائر من العدو المتربص، من الطبيعة المهيبة، من كل شيء جديد من الجن والغول، من سائر المشعوذين ، ومن كيد المنافقين،و.. و..

إن القرآن وضع (فكرة التوكل) فى (الموقف الخائف) لينسف الخوف، ويحرر الإنسان من قيوده، ويدفعه قدماً إلى العمل.

تدبر فى الآيات التالية، وحاول ان تبحث عن الموقف الذى امر اللّه فيه بـ التوكل. يقول ربنا عن موقف يتخاذل فيه الناس عن الرسالة، ويخشى الرسول عليها: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ 9/129

وعن موقف يتحدى النبي لعظيم نوح كفار قومه دون أن يخشى جبروتهم، بفضل سلاح التوكل على اللّه.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ 10/71

وعن موقف يدب الذعر فى افئدة الرساليين من قوم موسى ويبيتون على خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ 10/233

هنالك يدعوهم نبيهم موسى إلى التوكل لمقاومة الخوف:

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ 10/84

وتطمئن أفئدتهم إلى ذكر اللّه.

فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ 10/85

وفى موقف يحاول اعداء الرسالة تطويع ابنائها بالتعذيب، هنالك يقول هؤلا ء لأولئك:

وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ 14/912

وفى موقف يخشى ابناء الرسالة من مؤمرات الأعداء وتناجيهم بينهم،

فيطمئنهم الله ربهم فيقول:

إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ 85/10

وحين يوسوس الشيطان في النفس وتزيد حرارة الشهوات، ويخشى المؤمن الوقوع في درك العصيان بفعل كيد الشيطان، هنالك يطمئن الله المؤمنين، ويقول لهم:

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ 16/99

وفى موقف يعتزم الإنسان القيام فى امر ولكن تبقى فى نفسه بقية من تردد..هنالك تعطيه (فكرة التوكل) دفعة إلى الإمام.

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ 3/159

وعندما يأمر الإسلام بالسلم ويخشى المسلمون من السلام..ان يستغله اعداؤهم فى الإعداد لهجوم غادر او لتحصين مواقعهم او وصول تعزيزات جديدة..هنالك يكتنف الموقف خوف فتأتى فكرة التوكل لتطهره من الخوف، وتساعد على إشاعة السلام.

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ 8/61

وحين يامر الإسلام بنبذ طاعة الكفار والمنافقين، يخشى المؤمنون من مغبة التمرد، فيقول الله:

وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ 33/48

فالتوكل اداة لنسف قواعد الخوف من الموقف المتازم، لكيلا يندفع الإنسان في قرارات خاطئة، أو يستسلم للوضع الفاسد خشية تغييره وإصلاحه.

والتوكل بالتالى سلاح للإنسان يدافع به عن حريته فى المواقف الصعبة، وإذ يتحرر الإنسان يندفع للعمل وتتفجر طاقاته البناءة.

التوكل أم الاعتماد على الذات.؟

والحضارة الحديثة جاءت بفكرة أخرى لتحرير طاقات الإنسان إلى العمل.. تلك الفكرة هي (الاعتماد على الذات).

فترى أن كلمات (الاعتماد على الذات) و(الاكتفاء الذاتى) (صنع المستقبل بأيدينا) (التحكم فى الطبيعة) و.. و..هى التى تستخدم فى توجيه الإنسان ودفعه إلى العمل.

والرسالة اهتمت بهذه الفكرة من خلال اهتمامها الكبير بالسعى الذى جعلته محور الحياة، إلا أن (فكرة التوكل) هى أكبر فاعلية وقدرة على تفجير طاقات الإنسان من فكرة (السعي) أو (الاعتماد على الذات).

ذلك ان إيمان الإنسان بطاقاته قد يكون ضعيفاً وثقته بنفسه قد تكون محدودة، بينما ثقة المؤمن بربه لا تحد، وإيمانه بقدرته عظيم.

فبينما يحتاج الفرد إلى تجربة قدراته قبل إن يثق انه قادر على ان ينجز عم لا ً ، لا يحتاج المؤمن إلى مثل ذلك.. لأنه يؤمن سلفاً بأن الله لا يخون وعده بالنصر له.

والاعتماد على الذات يشيع فى القلب هاجس الغرور بينما التوكل يقتل الغرور ويحرق جذوره.

ذلك لأن المؤمن من يعلم ان قواه وقدراته ليست له، إنما هى لله فلذلك لا يعتمد عليها ولا ينخدع بها، ويبقى دائماً يقظاً لكيلا تذهب قدراته إن لم يحسن استغلالها.

ولأن المؤمن من يعلم ان اللّه هو الذى خوله الطاقات التى يمتلكها فهو بسهولة يوجهها فى سبيل الخير والإصلاح، لأنها ليست له وإنما لله واللّه امره بذلك.

بينما الذى يعتمد على ذاته قد يجد صعوبة نفسية فى توجيه طاقاته إلى سبل الخير والإصلاح.

القيادة والمسؤولية البديلة

ليس فقط فى الشيعة اليوم، وإنما فى كل الأمم المتخلفة، ومنذ ان قالت اليهود لنبيهم موسى 8:

فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا ۟ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ

نقول: فى كل الأمم المتخلفة، القيادة تتجسد نوعاً من المسؤولية البديلة عن الناس.

لقد قالت النصارى:ان عيسى حمل آثام أتباعه وذهب بهذا تخلصوا جيمعاً من مسؤولياتهم وألقوا على كاهل المسيح أعباءها.

والشيعة اليوم.. يختلفون عن الشيعة الحقيقيين فى أنهم يزعمون أن قيادتهم تتحمل مسؤوليات المجتمع كلها.

وعن هذه النظرية السطحية الخاطئة تتحدث أسطورة (القردة) حيث بعثوا واحداً منهم إلى البشر ليستطلع حياتهم، فرجع إليهم يقول: لقد رأيت عند هؤلا ء الأحياء (البشر) أمراً عجيباً.

قالوا: ماذا رأيت؟

قال: رأيت أنهم يلتفون حول أحدهم ويلقون عليه كل المسؤوليات والأعباء، ويرمونه بكافة أنواع الملامة والشتم.

قالوا: فهل هو مقيد بين أيديهم؟

قال: لا.

قالوا: فلماذا لايهرب؟

قال: لست أدرى، إنما أعرف أنهم ينادونه (قائد قائد) وأظن أن فى هذه الكلمة سحراً يحافظ عليه.

هذه الأسطورة القديمة تكشف عن طبيعة القيادة فى البلاد المتخلفة إنها نوع من التخلص عن المسؤولية عند الجمهور وبإلقائها على القيادة، فمثلاً حيث إنهم يريدون ان يتعلم اولادهم وهم يتكاسلون عن فتح مدارس لتربيتهم وتعليمهم ولكى يخرجوا من هذا التناقض يزعمون أن المسؤول عن التعليم هي الدولة.

ولكى يكرسوا هذا الواقع فى اذهانهم وفى واقعهم يضفون على القائد هالة من المجد، ويزعمون أن فيه قدرات إضافية هائلة.

وهذا يفسر تحول القادة فى البلاد المتخلفة عموماً وعندنا بوجه خاص إلى رمز خرافي للمجد، ومنبع أسطوري للقدرات الغيبية.

بينما القائد عند غير المتخلفين بشر يتحمل نوعاً محدداً من المسؤولية ولا يكلف إلا وسعه، وله مثل الذي عليه من الحقوق.

وهذا الشعور الغيبي في القائد عندنا يخلق آثاراً سلبية عديدة.

قتل المبادرات الشخصية

1) فالشعور الغيبى يسبب تعطيل قدرات الأفراد وتحديد مبادراتهم الشخصية، وبالتالى يسلب منهم ثقتهم بذاتهم وبافكارهم فالرجل الذى يزعم أن هناك رجلاً آخر (ينتمى إلى فصيلة أسمى وأقوى من فصيلته) هو القائد، يعتقد ان تفكيره مهما كان موضوعياً فسوف لا يصل إلى مستوى تكفير ذلك الرجل إذا لماذا يفكر؟

وقد كان من اسباب هذا الشعور الخاطئ ان الفرد لا يحاسب قياداته محاسبة موضوعية، وبالتالي لا يقوم بواجب إبداء الرأي تجاه أية قضية.

وعلى صعيد السياسة كان من اثار هذه العقلية ضعف الديمقراطية على كل المستويات وحتى فى تلك البلاد النامية التى فرضت عليها الديمقراطية لا تمارس من قبل الجمهور، لأنهم ينطلقون من موضوعة ثابتة وغير قابلة للنقاش وهي أن تفكير القيادة أفضل من تفكيرهم أبداً ودائماً.

وعلى صعيد العسكرية انتجت هذه العقلية هزائم متكررة.. كان من أبرزها (حزيران) حيث إن الخبراء ذهلوا حينما اكتشفوا أن صواريخ (ظافر) التى كانت فى قلب (سيناء) لم تستخدم أبداً، وأن مجموعات من الجيوش كانت مزودة بالمدافع المضادة للطائرات لم تستخدمها بالرغم من تعرضها لقصف طائرات العدو. ولدى التحقيق ثبت أن أجهزة إسرائيل شوشت على أجهزة الا تصال العربية، وبذلك لم تستطع الجيوش تلقى الأوامر من القيادة وحيث إن الجندى العربى يعيش عقلية (ما فيش أوامر) فإنه لم يستطع أن يقوم بمبادرات فعالة في الميدان.

إن من اسوا اثار تحميل القيادة المسؤولية بالنيابة عن القاعدة تعطيل فكرة القاعدة، ومن ثم تعطيل مبادراتها العملية.

ونرى في واقعنا المتخلف ان كثيراً من الفرص المواتية فاتت علينا بسبب هذه العقلية الشاذة، فمثلا ً كانت قيادة الفرقة الأولى فى العراق بيد رجل مؤمن، عندما بدأ نظام (عبد الكريم قاسم) بالانحراف.. وكانت الثورة بالنسبة إليه عملية قرار فقط ولكنه لم يفعلها وإنما جاء يستاذن مرجعه فى الانقلاب، وبما ان المرجع لم يكن يثق بالرجل، او لم تكن لديه رؤية سياسية متكاملة لم ياذن له وبما أن الرجل لم يكن يثق بنفسه لم يفعل، وبالتالي الذي حصل ان الدولة ارتابت في تحركات القائد فعزلته.

وكثيراً ما نصادف هذه الحقيقة.ان مشاريع إسلامية تعرض على التجار فيمتنعون عن تنفيذها إلا بأوامر مباشرة من (المرجع) بالرغم من أن التاجر مقتنع بجدواها. كل ذلك لضعف المبادرة الشخصية عندهم.

القيادة لا تصنع المعاجز

2) وبما أننا ومعنا كل الشعوب المتخلفة نبني القيادة على أسس غيبية فإننا معرضون لفقد الثقة بها فى أية لحظة، إذ انّ الرجل الغيبي ينبغي ان يقوم باعمال كبيرة، كما يجب ان يكون معصوماً، اما إذا اخطا فإن جزاؤه اكبر من جزاء الآخرين.

ومن البسيط جداً تعرض القيادة لنقد الأفراد، إذ انّ الفكرة الغيبية حول القيادة تجعل جميع الأخطاء من نصيب القيادة فتسقط آلياً. ولا تغيب عن ذاكرة التاريخ واقعة (الخوارج) حيث أصروا على الإمام علي 8قبول التحكيم، ثم حينما فشل التحكيم حملوه مسؤولية الفشل وجردوا السيف عليه، وهذه الواقعة تتكرر فى بلادنا باستمرار وحين عرفت القيادة الدينية هذه العقلية الشاذة انسحبت من الحياة انسحاباً مطلقاً ورضيت القاعدة بهذا الانسحاب حيث ارضى فهم الشعور بالتخلف والسلبية.

وحين انسحبت القيادة الدينية تحركت القيادة السياسية لتشغل الفراغ، ولكن القاعدة لم تستجب لها، لأنها لم تكن ترى فيها ذلك المستوى الغيبي، فحدثت فجوة عميقة بين الأنظمة وبين الشعوب هذه الفجوة اعطت القاعدة مزيداً من التقوقع، وأورثت القيادة مزيداً من الضعف.

يقول (الدكتور شاكر مصطفى):

غياب السلطة السياسية كنظام امن وقانون وخدمة وتسلط القوة العسكرية الغريبة على الناس، واستمرار الاستبداد والظلم والبؤس الاجتماعي قروناً بعد قرون، بحيث أصبح المثل الأعلى هو الحاكم العادل.. كل أولئك اسهم فى انكماش الفرد العربي،ثم قوقعته الذاتية واشعره بعزلته أمام مصيره، وبأنه أعزل أمام القهر الحياتي [1].

لقد توطدت لدى الطبقات التحتية مع الأيام عقد من المشاعر المستقرة اعطتها الظروف وتقلب الحكام، وحكم السيف المبرم، الشعور بالعجز والخنوع

(1) محاضرة الدكتور شاكر مصطفى فى ندوة أزمة التطور الحضاري ص26

والهروب من المسؤولية ورفض التعامل مع الحكومة وتحليل سرقتها (أموال المدير حلال) والهروب من دفع الضرائب التى كثيراً ما كانت تسمى (مظالمات حتى المجرمون كان من العيب تسليمهم للسلطات .

وما دامت القاعدة عندنا متمسكة بنظراتها الغيبية تجاه قيادتها التى تنتظر منها ليست العصمة فى الراى والمثالية فى السلوك فقط وإنما ايضاً أن تكون (البديلة) فى تحمل المسؤولية، دون أن تعطيها القيادة الثقة والطاعة الكافيتين ، لأداء المهام القيادية والمسؤوليات العامة المناطة بهم.

ما دامت القاعدة عندنا هكذا فلن تنجب فينا قيادات قادرة على تفجير طاقاتها توجيهها لتحقيق أمانينا في الحياة.

إن مشكلة (التفكك) عندنا نابعة هى الأخرى من رؤيتنا غير الصحيحة إلى القيادة، ولن نتخلص من التفرقة إلا بتغيير هذه الرؤية الشاذة.

ولكن هل هذه هي الرؤية الشاذة الوحيدة فينا؟

كلا، إننا مبتلون اليوم ب (ازمة رؤية) حادة فى كل المجالات وهناك مظاهر عديدة لهذه الأزمة، ولا بد ان يقوم المخلصون من الأمة بعمل عظيم للخروج بأنفسهم من (أزمة الرؤية) التى يعانون منها، وإلى ذلك اليوم ستظل الآمال معقودة بجهاد هذه الفئة المخلصة التي ستنتصر بإذن الله.

إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .

التاريخ المفترى

إن رواية التاريخ، لا تعكس احداثاً مضت فقط، بل تعكس ايضاً حياة تجرى، إذ لا يروى الجيل تاريخه إلا من خلال رؤيته للحياة وافكاره عنها، وفلسفته فيها.. لذلك فلكل جيل تاريخ يناسبه ويعكس نفسته ومشاعره التى يسقطها على الماضي.

وجيل التخلف كان له تاريخ يعكس مفاهيمه ويفلسف واقعه ويبرر سلبياته ومساؤه، ويكرس بالتالي تخلفه مع أنفس أبنائه.

ذلك التاريخ ليس بالتأكيد هو تاريخ الرسالة.. تاريخ جيل الرسالة.. تاريخ رجال النهضة..انما هو تاريخ مصطنع تاريخ مفترى، وله سمات عديدة نابعة جميعها من محاولة التبرير والجمود الذى يلف الجيل..ان كل لقطة تاريخية يقصها علينا جيل التخلف هى حجر عثرة فى طريق النهضة، بل هي عقبة كاداء لأنها تسعى وراء ابعاد دور الإنسان الحالى عن صنع حياته وتلك السمات عديدة ولكن أبرزها هي التالية:

لا.. للحزن البارد

تاريخ جيل التخلف يعكس الحزن البارد، الذي يعيشه هذا الجيل، إنه يقص علينا الماسى والويلات، ويقص علينا النهايات المفجعة التى إليها الرساليون، وكأن الدنيا كانت سلسلة ظلم وكارثة ومأساة.

إنه لا يروى يوماً واحداً تشرق فيه شمس الحياة على الدنيا إلا ويلبدها بغيوم سوداء لا خير فيها، حتى إذا تحدث هذا التاريخ عن انتصار الرسالة فى يوم بدر فإنّه يقص علينا الماسى والويلات، ويقص علينا النهايات المفجعة التى إلى إليها الرساليون، وكأن الدنيا كانت سلسلة ظلم وكارثة ومأساة.

إنه لا يروى يوماً واحداً تشرق فيه شمس الحياة على الدنيا إلا ويلبدها بغيوم سوداء لا خير فيها، حتى إذا تحدث هذا التاريخ عن انتصار الرسالة فى يوم بدر فإنّه يقص لكى يمهد به لقصة الماساة التى انتهت إليها حياة بطل بدر الإ مام علي 8فيمزج الانتصار بالهزيمة بطريقة غير مباشرة.

والمصائب التى صبت على ال البيت لا تروى مقرونة بالانتصارات الرسالية الهائلة التي كسبوها فى افئدة الناس وفى واقع الأمة، إنما تنقل وكان كل الدماء التى اريقت فى محراب مسجد الكوفة وخلف جثمان الإمام الحسن في المدينة، وفي أرض كربلاء وفخ وجوجزان و.. و.. كلها ذهبت هباءً.

إن ثورة المختار الثقفي ومن قبلها انتفاضة التوابين والثورات التى انفجرت ضد الحكم الأموى كلها لا يتحدث عنها هذا التاريخ، اولا ً لا اقل لا يجعلها

مرتبطة بتلك التضحيات التي قدمها آل البيت وأنصار الرسالة.
إن هذه الرواية الكاذبة فى التاريخ تكسى النفوس غلالة من السلبية والياس ، وتجعلها لا تفكر فى العطاء ما دام العطاء لا يجدى نفعاً. وهذه السمة تخالف رواية الرسالة بالتاريخ كما نجدها في القران الحكيم الذى يسلط الأضواء على الانتصارات التى اكتسبها الأنبياء وأنصار الرسالة، بالرغم من كثافة الجهود المعادية التي حاول بها الكفار منع انتشار الرسالة.
هذه الرواية الرسالية للتاريخ تجعلك تمتلئ رجاءً بالمستقبل فتفجر طاقاتك جميعاً.
الإنسان يصنع التاريخ.
2. لكى يخلص نفسه عن ثقل المسؤولية يربط جيل التخلف إحداث الحياة إلى مؤثرات غيبية لا تمت بصلة قريبة أو بعيدة إلى أعماله، فاللّه والأقدار و الشياطين والملائكة هى التى تحرك إحداث الحياة، أما الإنسان فإن هو إلا اداة بسيطة في بعض تلك الأحداث. وقد انعكست هذه الرؤية الغامضة المشوشة على رواية التاريخ، فإذا التاريخ صنيع الغيب، يقلبه كيف يشاء، لاحول للإنسان ولا قوة فيه.. فإذا سألته: لماذا سقطت دولة الرومان؟ ولماذا انتهت حضارة اليونان.؟ ولماذا ضعفت حكومة بنى أمية؟ وكيف قامت دولة بنى العباس؟ أجاب:اللّه أراد ذلك، وكفى.
بهذه الكلمة الموجزة لم يخلص جيل التخلف نفسه من عناء التفكير والبحث فقط،وإنما ابعد عن نفسه المسؤولية ايضاً، فإذا كانت الدول فى التاريخ تقوم وتسقط كاوراق الشجر فإنها اليوم ايضاً كذلك الدول فى التاريخ تقوم وتسقط كاوراق الشجر فإنها اليوم أيضاً كذلك فلماذا اسعى واجهد نفسى، وإنما الأفضل العمل بقول شاعرهم:

ما فاز إلا النوم ناموا ولا تستيقظوا

بينما التاريخ الرسالى يربط بشدة بين أى حدث وبين سعى الإنسان.. فإذا سقطت الدولة فإنما هى بظلم اهلها، وإذا سادت امة فإنما بصبرها ويقينها، وإذا شاع الرخاء فبالإيمان أما إذا ظهر الفساد في الأرض فبما كسبتايدي الناس.

بشر.. لا إنصاف آلهة
وتكريساً للأفكار اليائسة والسلبية يزعم جيل التخلف ان التاريخ يصنعه أنصاف إلهة، هم بشر ولكن: كيف بشر.؟ نفخت، فيهم السماء روح القدرة، فصنعوا التاريخ بالمعجزات.
بهذه الرؤية يبعد جيل التخلف وبين الشعوب كما يفصل بين التاريخ وبين الحاضر، إذ ينسف الجسر الذى ينتقل عليه إلينا خبرات الماضى وعبره، فهم غيرنا ونحن لا نصل إلى مستواهم. إنما الرؤية الرسالية إلى التاريخ لا تنكر دور الشعوب فى صنع الأحداث، ولا دور الأفراد فيها والأفراد هم بشر امثالنا يمكننا

تمثيل أدوارهم، إن خيراً أو شراً.
وهذا القران كتاب الرسالة تحدث عن القرون الخالية كانهم احياء بيننا وحذف بتعمد فاصل الزمان والمكان، وربط بشدة بيننا وبينهم.
وإذا تحدث عن صانعي التاريخ الرسالي الأنبياء الكرام القى عليهم ظلال الألم والخوف والعجز والغضب، لا لامتهانهم إنما لنسف الحاجز الذى يصنعه جيل التخلف بينه وبين عبر التاريخ لكى لا ينتفع بها، ذلك الحاجز هو حاجز الغلو الذي نهى عنه ربنا بشدة حين قال:
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74) وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ .

لنفهم جميع القرون

ولأن اختيار جيل التخلف للتاريخ تم وفق اهوائهم فإنهم اقتطعوا منه جانباً سلطوا عليه الأضواء واهملوا سائر الجوانب ذلك الجانب هو القرن الأول للهجرة ن حيث يتصور أنه المجتمع المثالي الذي لن يتكرر مرة ثانية.
إن ما يعرفه الجمهور من تاريخه، لا يعدو الحديث عن غزوات الرسول وما جرى بعده من خلاف تكرس في واقع الأمة حتى اليوم ولكنه لا يعرف ما جرى على بلاده قبل خمسين عاماً، إذ لا يمكنه ان يفقه علاقة حياته بحياة ابائه الأولين، علاقة واقعية لا تنفصم برغم جهلنا إذ انّ شخصيتنا تصاغ شيئاً فشيئاً عبر الزمن.

لا.. للشعب المختار

ثم إن جيل المتخلفين ابتلى بنظرة شوفينية عن نفسه فإذا به فوق مستوى العالم، وأن تاريخه هو اعلى من تاريخ العالم.
وبهذه النظرة ابتعد جيل المتخلفين عن التفاعل مع تاريخ العالم من حوله، وعن الاستحياء منه بطريقة تتحول إلى طاقة هائلة التأثير في عقلية أبنائه.
إن جميع ابناء العالم كفرة، ولذلك ليس لديهم شيء يمكن ان يحمد إذا فالواجب علينا الانغلاق الكامل عليهم.
ما هي حرب الاستقلال الأمريكى؟ ما هى الثورة الفرنسية؟ ما هى ثورة التحرر الاوربية؟
لا نعرف عنها شيئاً وهي إذا عرفنا فلا ترتبط بنا ما دمنا لا نرتبط بهم، إنهم كفرة ونحن مسلمون والحمد لله.

وإن هذا الانفصال الخطير عن تاريخ الأمم سبب لنا مضاعفتين:

الأولى:ابعدنا عن الاستفادة من روح التاريخ ن لنعرف ما هى سنن الحياة؟ وكيف تقدم من تقدم.؟ وكيف تأخر من تأخر؟ وكيف هلك من هلك؟

الثانية ابعدنا عن فهم تاريخنا، إذ انّ فهم تاريخ الآخرين لو حصل كان يمعق نظراتنا إلى تاريخنا عن طريق المقارنة والتشبيه، إن القران امرنا عبر ايات عديدة بالسير فى الأرض، والنظر إلى تاريخ الشعوب، ولكن هذا الأمر لم نطعه وخسرنا بذلك اشياء كثيرة.

التاريخ ليس بديلا ً

لأن جيل التخلف توقف عن العطاء، ولم يصنع مجداً ولا عملا ً عظيماً، فإنّه يبحث عن العطاء والمجد فى تاريخه فيدعى الانتماء إليه لعله يسد نقصه فيه.

إذا راى جيل التخلف تقدم للغرب فى شتى حقول الحضارة فإن الطريق الطبيعي الذي يجب عليه ان يسلكه هو تحمل مسؤوليته بالعمل من اجل التقدم،اليس كذلك؟ ولكنه ينحرف عن الطريق السوي، ويبحث عن بديلٍ مناسب، يشبع به احساسه بالنقص دون ان يتحمل مسوؤلية او يعمل عملا ً فيجده فى التاريخ فياوى إليه كما تاوى قطيع الغنم إلى الكهف، فى ليلة ماطرة.

وعملية تبديل العصر بالتاريخ تسبب عدة مضاعفات أبرزها:

أصالة القيم لا أصالة التاريخ

الأولى: تقديس التاريخ وتقييم الحاضر به، فإذا كان قطعة مشابهة لقطعة تاريخية فإنها حميدة وإلا فلا.

وتقديس التاريخ لا يبرر الجمود فحسب، وإنما يصبغ عليه صبغة دينية فإذا بكل شيء قديم خير من جديده..الحمير خير م السيارة والسيارات أفضل من الطائرات، والسفن الشراعية افضل من اختها البخارية، وحتى السيارات العادية أفضل من الأوتوماتيك لأنها أقدم.

الساعة شر، لأنها مستحدثة ولكن الساعة اليدوية وبالتوقيت الزوالى اكبر شراً، لأنها أجدد من غيرها.

ولأن الإنسان يدين القديم ويجعله مقدساً انى كان فإنّه يتصور ان كل عمل قام به السلف هو بالضبط ما امر به ربنا تعالى ويقص علينا القران هذهالفكرة حين يقول:

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا اٰبَاءَنَا وَاللّه ُ اَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنّ اللّه َ لا َ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّه ِ مَا لا َ تَعْلَمُونَ 7/78

قَالُوا اَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّه َ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ اٰبَاؤُنَا فَاْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ اَتُجَادِلُونَنِى فِى اَسْمَاءٍ سَمّيْتُمُوهَا اَنْتُمْ وَاٰبَاؤُكُمْ مَا نَزّلَ اللّه ُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ

مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ 70 7/71

إن الكفار زعموا ان العمل الذي قام به اباؤهم اصبح ديناً امر به اللّه، وفي الآية الأولى قال ربنا: ا، هناك اعمالا ً يرتكبها آباؤكم هى سيئة فى عرف العقل و المستحيل ان يأمر اللّه بالسئيات وفي الآية الثانية بين اللّه ان مجرد ارتباط عمل ما بفعل الاباء لا يجعله دينا إلا إذا نزل اللّه به سلطاناً مبيناً.

ورغم هذا التوجيه القرانى الصريح ترى جيل التخلف فينا لا يزال يعتبر السلف الصالح وقدماء الأصحاب حجة شرعية.

لا لتراجع التاريخ

الثانية:الشعور بأن الدنيا تتراجع إلى الخلف فمنذ ظهر الإسلام وحتى اليوم يزعم جيل التخلف ان كل يوم يمضى فيه الإنسان خطوة إلى النهاية المريعة إذ خير العصور عصر الرسول ثم يليه الأقرب فالاقرب كما يقول مؤرخو المسلمين.

إن الثقافة الرسالية تؤمن بتقدمية وتكاملية الحياة فاخر الأنبياء هو افضلهم لانه جاء مكملا ً لرسالاتهم وهو فتح على الأمم افاقاً جديدة، وكل امة يجب ان تمتد عبر افق حتى تتكامل الدنيا وتنتهى عندما يسود الأرض العدل المطلق.

بيد ان الثقافة المتخلفة تجعلنا نشعر وكاننا نتزحلق إلى هاوية دون ان نملك حيلة نوقف سقوطنا المحتم فيها.

باللّه عليك كيف يمكن لهذا الإنسان ان يبنى حياته وهو يشعر انها تنكص على الأعقاب؟

لنعش في عصرنا

الثالثة:الغيبة عن العصر الذي يعيشه ليحضر فى العصور الماضية..انهم لا يعرفون ماذا يجرى حولهم، وإذا عرفوا لا يهتمون بها، إذ يزعمون ان حياتهم تتاثر بقصص الف ليلة وليلة ومحاورات سيبويه والكسائى وخلافات المعتزلى والأشعري.

وجدليات سنى وشيعى اكثر من تاثره بصناعة الصواريخ العابرة للقارات، و القنابل الهيدروجينية، وهبوط الإنسان على سطح القمر، وتقارب الصين وأمريكا والوفاق بين الدول الكبرى على تقسيم مناطق النفوذ.

بينما الواقع يرفض هذا النوع من التفكير وهذا النمط من الحياة. فإنسان اليوم هو ابن عصره قبل إن يكون ابن تاريخه إذ تهاوت حواجز الإقليم امام الوسائل النقلية المجنونة السرعة وكادت حواجز الثقافة تختفى بفعل وسائل ا لاتصال المتعددة والمكثفة والمصالح المشتركة والأخطار المشتركة، جعلت العالم قرية واحدة والناس فيها أسرة واحدة[1]

(1) يقول الدكتور شاكر مصطفى فى محاضرة ألقيت فى ندوة أزمة التطور الحضارى التى التى

انعقدت فى الكريت ـ يقول: (كان التاريخ قارب نجاة للكثيرين مهرباً من الواقع المسكين أو

كان غربة عن العصر بدلا ً من أن يكون اندماجاً متزايداً فيه ومن هنا أيضاً تحل الا

ستمرارية التاريخية محل الأصالة، يحل الامتداد الوحيد الاتجاه محل الانطلاق المتفجر مع

كل الآفاق، وتلتوى الأصالة لتصبح تقليداً وعودة ذليلة إلى الأرض الأولى كما تعود الأشجار

استوائية لتجعل من اعضائها جذوراً بدلا ً من ان تصبح فروعاً للزهور والثمر اُفَمَنْ يَمْشِي

فماذا تعني الغربة في العصر[1]

إنها تعنى مزيداً من الوعى.. مزيداً من اللافاعلية مزيداً من العبودية للآ خرين.. ولقد رضيت الأمة بهذه النتائج السيئة ومع الأسف. والأمة الإسلامية اليوم تواجه اماماً تتخذ من التاريخ جسراً تعبر عليه إلى المستقبل، فالتاريخ عبرة يستفاد فالتاريخ عبرة يستفاد من روحه وقوداً ومن سننه وقوانينه رؤى لتلمس طريق المستقبل.

إنها تستفيد حتى من تاريخه ونحن اعداء بل إنها اعرف بتاريخنا منا، واكثر اهتماماً لكشف رموزه ودروسه وعبرة. ولكى ننجح فى مقاومتنا لهذه الأمة لا بد ان نغير تغييراً جذرياً موقفنا من التاريخ لنجعله فى خدمة عصرنا وفى خدمة اجيالنا القادمة وإلا فنحن مسوؤلون امام اللّه وامام ابنائنا وسنلقى جزاء أعمالنا عاجلا ً أم آجلا ً.

مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ اَهْدَى اَمّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

(1) الرسالة ترفض الغربة من العصر وتقول: كما جاء فى نص صريح العارف بزمانه لاتهجم عليه النوائب.

المجْتَمَعُ الإِ ـِ سْ ـلا
ـَ م ـَ ي



الإنسان بين إرادة الفرد وقانون المجتمع

هناك ثلاث نظريات فيما يخص العلاقة بين الفرد والمجتمع:

النظرية الأولى

إن الفرد هو كل شيء في المجتمع، وهو العامل الحاسم في تحرك التاريخ، ولذلك ينبغي الاهتمام بالمجتمع من حيث هو افراد، وسن المناهج والأنظمة التي تربي أفراداً متفوقين نابغين هم الذين يبنون الحضارة البشرية ويهبون التقدم للإنسانية، ويضربون امثلة على هذه النظرية من واقع عظماء التاريخ ورجالاته الذين استطاعوا ان يغيروا مسيرة التاريخ، ويعيدوا رسم حياة مجتمعاتهم من جديد.

النظرية الثانية

إن الفرد لا قيمة له إطلاقاً فهو اشبه ببرغي صغير في ماكنة المجتمع، وهذه النظرية تتمسك بالحتميات الاجتماعية، وترى بان حركة المجتمعات وتطوراتها نابعة من انظمة عامة يخضع الأفراد لسلطانها، فلا يلمكون ان يواجهوها او يغيروا منها شيئاً إذا ما راوا انها تقودهم في الاتجاه الخاطئ ولذلك فهذه النظرية تؤمن بفكرة الدورات الاجتماعية المنتظمة، أي: إن كل مجتمع لابدّ أن يمرّ بنفس المراحل التي يمر بها الإنسان في حياته، حيث يولد طفلاً رضيعاً ثم يصبح شاباً مراهقاً، فرجلاً ، فكهلاً ، فشيخاً فهرماً ثم يموت والأ مثلة التاريخية على ذلك كثيرة ومتنوعة يعددها أوتولو توينبى فى كتابه المختصر لدراسة التاريخ.

النظرية الثالثة:

والتي يؤيدها الإسلام وتقوم انظمته وشرائعه عليها فهي تقف في الوسط بين النظريتين السابقتين، وهي تعطي للفرد اهميته اللائقة، كما تعطي للمجتمع دوره المؤثر وتنظم العلاقات بينهما بشكل دقيق ومتوازن.. فالمجتمع يؤثر فى الفرد والفرد بدوره يؤثر في المجتمع إنها لا تسلب الفرد إرادته ولا تحرم المجتمع من تلك القوانين والأنظمة الديناميكية التي تعطيه الوقود المناسب في مسيرته الحضارية التكاملية، وعلى هذا فهي لا تنفي تينك النظريتين، وإنما وتربط بينهما بحيث تزيل تلك الهوة الفاصلة بين الفرد والمجتمع وتجل الإثنين لبعضهما لما فيه خير الإنسانية وسعادتها.

كذلك فهى ترى إن الدورة الاجتماعية المنتظمة ليست حتمية ابداً، ففى

التاريخ الحديث مثلا ً نجد ان المجتمع الألمانى كان مجتمعاً حيوياً يتفجر ثورة واندفاعاً وكان باستطاعته ان يبقى زمناً طويلا ً متحكماً فى القارة الأوربية ولكن هذا المجتمع الفتى الشاب ابتلى بطاغوت اهوج كهتلر، وبحزب متطرف كالحزب النازى، فانقاد إلى النهاية المحتومة وانك لترى الآن بعد اكثر من خمسة وثلاثين عاماً من انتهاء الحرب العالمية الثانية، ان المانيا ما زالت منقسمة على نفسها إلى قسمين احدهما تحت مظلة المعسكر الشرقى والآخر تحت مظلة المعسكر الغربي.

وهكذا فالمجتمعات قد تموت فى ايام شبابها، وقد يشيخ المجتمع ويهرم ويشرف على الموت، ولكن لا يلبث ان ينبعث فى داخله مصلح يفجر إمكاناته الذاتية المختزنة فيتحدى المجتمع بإرادة إبناءه تيار الإنحدار، ويتقدم مرة اخرى حتى يثبت نفسه، كما حدث بالنسبة للمجتمعالعربى الجاهلى الذى كان مشرفاً على التفسخ والاندثار، ولكن بعد مجىء النبى محمدX وظهور الإسلام، دبت الروح فى ذلك المجتمع الهرم وإذا العرب يصبحون فى فترة وجيزة سادة العالم وبناة الحضارة.

ديناميكية المجتمع:

إن بناء المجتمع على اساس القيم الصحيحة، والعمل الصالح يعطيه ديناميكية فى الاتجاه الصحيح، وعكس ذلك صحيح ايضاً ولكى نوضح الفكرة دعنا نضرب مثلا ً إذا حفرت نهراً يمتد من ينابيع المياه ويجرى عبر الأراضى الصالحة للزراعة فسوف يروى الاف الهكتارات من الأراضى المزروعة ويصبح سلة خبز لأولئك الذين يعيشون حول هذه المنطقة، اما إذا حفرت ذات النهر عبر أراضي سبخة فإنّه لن ينفع شيئاً وستذهب مياهه هدراً.

إن هذه واحدة من السنن الطبيعية التي تنطبق ايضاً على المجتمع البشرى، فالمجتمع هو مثل ذلك النهر يمتلك طاقة هائلة إذا ما وجهت فى الاتجاه السليم وحفرنا لها قنوات ملائمة،تحركت هذه الطاقة عبر القنوات واعطت ثماراً طيبة، ولكن إذا كانت هذه القنوات غير سليمة ومتناقضة الاتجاهات فإن المجتمع سرعان ما يتحطم ويموت.

مثلا ً ، إذا اقمنا بناء المجتمع على العنصرية، فإن طاقاته ستتوجه عبر هذه القنوات الرديئة،فيفرض الرجل الأبيض سيطرته على الرجل الأسود فى جنوب افريقيا وتكون النتيجة ان بضع مئات من الألوف من البيض يتحكمون فى عدة ملايين من المواطنين السود، وهذا يعنى فيما يعنى ان الرجل الأبيض يعمل ساعتين فى اليوم فيستطيع ان يضمن لنفسه بهما حياة مرفهة، بينما الأسود يعمل اربع عشرة ساعة يومياً حتى يحصل على اجر قليل لا يكفيه، الأول تكون عنده ست ساعات من الفراغ،والثانى يرهق بست ساعات من العمل الإضافى، وبعد فترة يموت الأبيض من الترف والفراغ ويموت الأسود من الجوع والتعب، وينتهي المجتمع شر نهاية وهذه واحدة من السنن الاجتماعية.

والمجتمع البشرى له قوانين وانظمة ذاتية كثيرة نسميها بديناميكية المجتمع وسوف نستعرض هنا جملة منها بشكل موجز من خلال عهد الإمام

على بن أبى طالب 8، لمالك الأشتر لمّا ولاه مصر، يرسم لنا فيه الديناميكية الا جتماعية والقوانين التي تتحكم في المجتمع:

واعلم ان الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غني ببعضها عن بعض فمنها جنود اللّه، ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل،ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها اهل الجزية والخراج من اهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة و المسكنة، وكل قد سمى له اللّه سهمه[1] ووضع على حده فريضة فى كتابه أو سنة نبيهxعهداً منه عندنا محفوظا .

فالجنود بإذن اللّه حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبل الأمن وليس تقوم الرعية إلا بهم.

ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج اللّه لهم من الخراج الذى يقوون به على جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكون من وراء حاجتهم.

ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب، لما يحكمون من المعاقد[2] وما يجمعون منالمنافع، وما يؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها.

ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم[3] ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق[4] بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم.

ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة يحق رفدهم[5] ومعونتهم وفي اللّه لكل سعة، ولكل على الوالي حق بقد ما يصلحهR.

ويمكننا أن نستخلص من هذه القطعة من عهد الإمام علىِ 8 بعض القوانين الاجتماعية للأمة.

قانون التفاضل بالسعي:

أي أن المجتمع يتألف من طبقات:

أولا ً: تقوم على أسس سليمة وهى العلم والخبرة والكفاءة والقدرة البدنية..الخ.

ثانياً: لا يوجد بينها استعلاء ولاتفاخر فأفراد المجتمع متساوون فى الإ

---

(1) سهمه: نصيبه من الحق.
(2) يحكمون من المعاقد: يقومون بتنظيم عقود البيع والشراء، والزواج والطلاق ،وسائر المعاملا ت بين الناس.
(3) المرافق: المنافع التى يجتمعون لأجلها.
(4) الترفق: التكسب.
(5) رفدهم: مساعدتهم وصلتهم.

نسانية، وسواسية امام القانون القضائى، وهذه غير الطبقية البغيضة التى تقوم على اساس العنصر والدم، او الثروة والمال، او المنصب والمركز الا جتماعي أو على أسس عشائرية وطائفية وعائلية وما أشبه.

قانون التعاون:

وهذه الطبقات التى تشكل جسم المجتمع، إنها غير منغلقة على ذاتها، بل تنفتح على بعضها بالتعاون المثمر البناء، ويكمل بعضها بعضاً فلا غنى لواحدة عن الأخرى كما أنّ علاقاتها على الإنسانية والمحبة والاحترام المتبادل.

قانون العدالة:

وهذه اهم ركيزة يقوم عليها المجتمع الحيوى السليم، وينبغى ان تكون العدالة شاملة للجميع حاكماً ومحكوماً، غنياً وفقيراً قوياً وضعيفاً.. وعلى هذا المعدل. حتى تؤتى ثمارها وفقدانها له تأثير هدام مزدوج، فمن ناحية يؤدى إلى التجرؤ على اكل حقوق الآخرين والاعتداء عليهم ومن ناحية اخرى يؤدى إلى تثبيط همم العاملين المنتجين من زراع وتجار وجنود وكتاب ومفكرين و الخ، بسبب قلقهم من احتمال اغتصاب وسرقة جهودهم من قبل الآخرين.

قانون المحافظة على المجتمع:

لكى يحافظ المجتمع على نفسه من الاعتداء، الخارجى او الاضطراب و التفسخ الداخلي فلابد له من عدة ركائز هامة.

أولا ً:القوة العسكرية: جيش أسلحة تدريب تنظيم ..الخ.

ثانياً:القوة الاقتصادية:زراعة صناعة تجارة حرف ومهن الخ.

ثالثاً:القوة القضائية: قضاة حكام شرع كتاب الخ.

رابعاً:القوة الإدارية والتغذية :

وهي جهاز الحكومة بما فيه من وزراء وموظفين، وإداريين.

خامساً:القائد الأعلى أو الرئيس:

هو الذى يجمع كل هذه الخيوط بيده ويكون خاضعاً للقيادة التى تتمثل فى النبى x أو الإمام المعصوم أو الولى الفقيه وهم الأمناء على شريعة الله فى الأ رض.

وبكلمة واحدة لكى يحافظ المجتمع الإسلامى على حيويته وفاعليته فلابد له من حكومة إسلامية.

قانون التكامل والضمان الاجتماعي:

اى ان الفقراء والمساكين وذوى الحاجة ممن قعدت بهم كارثة تعرضوا لها او مرض الم بهم او شيخوخة اصابتهم تنشا لأجل هؤلاء جميعا مؤسسات خاصة تقوم برعايتهم وهم من يسميهم الإمام بعمال الرفق والانصاف وهذا القانون

يجلب الاطمئنان للفرد فيما يخص مستقبله وبالتالى يؤدى إلى زيادة انتاجه إضافة إلى إشاعة روح التراحم بين أفراد المجتمع.

قانون التكامل والضمان الاجتماعي:
اى ان الفقراء والمساكين وذوى الحاجة ممن قعدت بهم كارثة تعرضوا لها او مرض الم بهم او شيخوخة إصابتهم تنشا لأجل هؤلاء جميعاً مؤسسات خاصة تقوم برعايتهم وهم من يسميهم الإمام بعمال الرفق والانصاف وهذا القانون يجلب الاطمئنان للفرد فيما يخص مستقبله وبالتالى يؤدى إلى زيادة انتاجه إضافة إلى إشاعة روح التراحم بين أفراد المجتمع.

قانون إعطاء المجتمع حق العيش بكرامة:
فترى ان اهل الذمة من اليهود والمسلمين والمسيحيين غيرهم يعيشون بين المسلمين ولهم حق العمل والإقامة والتوظف والتنقل.. الخ فى مقابل إن يدفعوا الجزية وهذا ليس إجحافاً بحقهم فالجزية بالنسبة لهم تقوم مقام الخمس والزكاة بالنسبة للمسلمين.
اما الصبغة العامة للمجتمع الإسلامى الصحيح فهى التقوى عقيدة وسلوكاً، ويشير إلى ذلك حديث للإمام على 8أيضاً يقول فيه:
واعْلَمُوا عِبَادَ اللّه ِ أَنّ الْمُتّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدّنْيَا وآجِلِ الآخرةِ فَشَارَكُوا اهل الدّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ولَمْ يُشَارِكُوا اهل الدّنْيَا فِي اخِرَتِهِمْ سَكَنُوا الدّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ وأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ فَحَظُوا مِنَ الدّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ واخَذُوا مِنْهَا مَا اخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبّرُونَ ثمّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزّادِ الْمُبَلِغِ والْمَتْجَرِ الرّابِحِ .
وكما هو واضح من السياق فإن التقوى المقصودة هنا ليست هى التقوى الفردية بل هى تلك التى تاخذ الطابع الجماعى، اى تصبح خاصية من خصائص المجتمع يمتاز ويعرف بها.
وهذا الحديث يبين فلسفة مهمة فى الحياة الاجتماعية الإسلامية ف المسلمون ليسوا هم اولئك الذين تعلقوا بالآخرة فقط وتركوا الدنيا وشؤونها وراء ظهورهم، وليسوا اولئك الضعفاء الفقراء الزاهدين فى متاع الدنيا المعتزلين لأمور الحكم والسياسة والجيش، والذين لا يؤمنون بالعلوم و التكنولوجيا الحديثة، إن هذه افكار رجعية دسها الأجانب الحاقدون فى صفوفنا وحاولوا بها اضعاف المسلمين من جهة، وتشويه وجه الإسلام المشرق من جهة ثانية.
فالمجتمع الإسلامى هو مجتمع القوة والسيطرة والثراء، والتقدم فى كافة المجالات العلمية والتكنولوجيا، وهو مجتمع يبنى حضارة متكاملة بكل ابعادها غاية ما فى الأمر انه بمبادئ محددة فى تعامله مع شؤون الحياة الدنيا ومع المجتمعات الأخرى، تقوم على اساس الحلال والحرام الذى تقرره على اساس الحلال والحرام الذى تقرره الشريعة الإسلامية وعلى اساس القيم والأخلاق

الفاضلة.

ومع ذلك فهو اقوى وابقى من سائر المجتمعات لأسباب عديدة احدها ان الإسلام يوجه طاقة العمل عند المسلمين في الوجهة السليمة ويرفع احدهم والأغلال التي كانت عليهم ويوفر لهم ديناميكية التحرك السريع بالمناهج التي تحدثنا عن بعضها آنفاً.

المجتمع الإسلامي والصراع الحضاري

إن الصراع القائم بين الإسلام والجاهلية صراع ذو ابعاد مختلفة، ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية وعسكرية وبالتالى فهو صراع حضارى شامل لا يختص بجانب من جوانب الحياة. دون جانب آخر وهذا الصراع الشامل ذو الأبعاد المتعددة لا يمكن كسبه إلا بتكثيف الجهود وتركيزها. فنحن كمسلمين لا نستطيع فى الوقت الحاضر ان نقاوم الغرب او الشرق الذين يسعيان للتسلط علينا وقهرنا عن طريق الثورة السياسية وحدها،او بالعمليات العسكرية فحسب او حتى بالثورة الثقافية فقط او بالتحدى الاقتصادي والوصول إلى الاكتفاء الذاتي في حقل الانتاج او بتحدى الاستغلال الاقتصادى للغرب فقط هذه الأ مور ليست كافية بمفرداتها، وإنما علينا ان نقاوم الحضارات المادية العدوانية، بتأسيس حضارة إسلامية متكاملة الأبعاد، تتحداها.

التمسك بالجانب الروحي:

حينما نقول حضارة فإننا نقصد بها التحول البشرى والإجتماعى والثقافى ومن ثم الاقتصادي والسياسى والعسكرى والعمرانى فى كل الجوانب وعلى مدى واسع، وعلينا ان نعمل بجد من اجل تكوين كياننا ولمقاومة تلك الحضارة عن طريق تكثيف وتركيز كل الجهود وذلك غير ممكن إلا عن طريق البرامج السماوية الرسالية ذلك لأن الحضارات المادية قد سبقت الحضارات الروحية زمنياً فلابدّ ان نتسلح بسلاح لا يوجد عند اصحاب تلك الحضارات، ونركب قاطرة أسرع من تلك التى امتطوها حتى بلغوا هذا المستوى. وهذه القاطرة ليست فقط العوامل المادية. فيكفى أن نذهب مثلا ً ونقرأ كتاباً كتبه المفكر الكذائي فى الغرب او فى الشرق يتحدث حول طبيعة الأحداث السياسية وكيفية التحزب والتنظيم، او تحاول ان تستفيد من تجارب الثوار فى أوروغواي أو في السلفادور أو في زيمبابوي، فهذه وحدها ليست كافية.

إننى لا اقول نسد كل الأبواب الفكرية فلا نستفيد من تجارب الآخرين ولا نطلع على ما يجرى فيالمجتمعات الأخرى، كلا، بل علينا ان ننفتح على العالم ولكن دون ان ننسى تلك الميزات الحضارية التى نمتلكها، وتلك الأسلحة الحاسمة التى لا تزال بايدينا والتى ينبغى ان نجعلها فى حسابنا لنستفيد منها عملياً. ذلك لأنه من دون أن تفعل ذلك لاتصل إلى أي واقع إيجابي.

إن الوصول إلى الحضارة الحق غير ممكن إلا عبر البرامج الروحية وإن اولئك يريدون أن يصلوا بامتنا إلى مستوى حضارى ارفع من الحضارات الغربية دون ان ياخذوا الجانب الروحي بنظر الاعتبار، هؤلاء فاشلون سلفاً، وكل الإحصائيات العلمية والتحليلات السياسية والبحوث الاجتماعية تؤكد

على فشلهم هذا، لأن الفجوة تتسع يوماً بعد اخر وبكل ابعادها بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة.

فيكف نلحق بهم؟

وكيف نردم هذه الفجوة الآخذة في الاتساع؟

إن الجهود التى بذلت عبر القنوات القومية او الوطنية او القنوات الحزبيةاو الاشتراكية وما أشبه كانت جهوداً جبارة. ولكنها ليس فقط لم تنجح فى ردم الفجوة وإنما ساهمت فى زيادة اتساعها لأنها كانت بضاعة الغرب ردت إليه، ولأ ن هذه الجهود صبت بالتالى فى تلك القنوات التى حفرتها الإمبريالية بطريقة تعود مرة أخرى إلى الغرب وتصب لصالحه.

وهذه اخر تجربة غربية ماثلة امامنا وهى تجربة حزب البعث الذى اسسه رجل غربى اللغة، غربى الأصالة والفكر وهو ميشيل عفلق. فقد استوحى من الا شتراكية الأوربية والفلسفة القومية الأوربية جوهر نظريته وصبغها ببعض الأ لفاظ العربية والشعارات العربية. وحسب ما ذكر فى كتابه فى سبيل البعث فإنّه اراد ان يوحد الأمة العربية فى ظل الشعار المثلث المعروف وحدة حرية اشتراكية ذلك الشعار المتناقض فى ذاته والمناقض لأعمالهم ومماراستهم و الفاشل عملياً.

فإين الوحدة؟

واين الحرية؟

واين الاشتراكية؟

ليس عبثاً ولا صدفة ان يفشل حزب البعث بل لأن هذا الفكر استعمارى، يصب فى قناة الغرب.. قناة بريطانيا وفرنسا وأمريكا منذ البداية كان هذا الفكر مغشوشاً ودخيلا ً ً. لذلك حينما نؤكد على البرامج الروحية والمناهج السماوية وضرورة العودة إلى كل التعاليم المحمدية لبناء حضارتنا المنشودة فإننا نستوحى من هذا التاكيد من الوقائع الحية التى نعيشها والتى تعمق الألم والمرارة في نفوسنا.

ضرورة التكامل الاجتماعي:

إن طريقنا الصحيح هو ان نعود إلى كل كلمة وردت فى النصوص الإسلا مية. لقد بقينا دهراً نستجدى الأفكار من هذا وذاك، وبعد أن أخذناها وعملنا بها راينا انها افكار تدعو إلى عبوديتنا مرة اخرى لهم، وتعمل على ذلتنا وتفتتنا واستضعافنا [1]

---

(1) يقول نجاح واكيم فى كتابه العالم الثالث والثورة : ص الف ص 76.
إن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية القائمة اليوم فى العالم الثالث ليست نتيجة تخلف طبيعى متاصل فيها. كما يزعم البعض، كما أنها ليست نتيجة توقف عن التطور او بطء فى التطور أصابها عند مرحلة معينة من التاريخ تاريخ تعرفها الاستعمار فلم تستطع بعدها أى تقدم. أو أنها لم تتمكن إلآ من تحقيق تطور طفيف. ولكن هذه الأوضاع هى ثمرة من نوع خاص ف

رفضه الموقع الذى اجبرت عليه هذه البلدان بالقوة داخل النظام الاقتصادى الراسمالى العالمي وتجزأ من هذا النظام. أما عن نتائج هذه العلاقة الاستعمارية فيقول فى ص 128 وفى آخر تقرير أصدره البنك الدولى بعنوان تقرير التنمية فى العالم 1981 ورد ما يلى: حجم ديوان الدول النامية ارتفع من 50/4 مليار دولار فى العام 1970 إلى 128/4 ملياراً فى العام 1975 ثم إلى 251/7 ملياراً فى العام م 1978م وبلغ 294/4 مليار دولار فى

إذاً فلنعد إلى أفكارنا الأصيلة وإلى برامجنا القويمة ولنستوحي منها.

وتكميلا ً للفائدة، حينما نقرا النصوص الإسلامية، علينا ان نضع فى اذهاننا النصوص الفارغة التى كتبها عفلق فى كتابه (فى سبيل البعث) وافتتاحياتالصحف التى تمولها الأنظمة الفاسدة.ونتذكر الفراغ الذى تعيشه ثقافتنا فى كل حقل من حقولها وعن طريق المقارنة نستطيع أن نتوصلإلى إن الإسلام يريد ان يبنيالمجتمع الفاضل والمتعاون والمتكامل ذاتياً وعضوياً بشكل عميق.هذا هو هدف الإسلام وهو يشجع عليه ويرى أن هذا هو الطريق السليم إلى بناء الحضارة الحقة.

يقول الإمام الصادق 8: لا يعظم حرمة المسلمين إلامن عظم الله حرمته على المسلمين ومن كان أبلغ حرمة الله ورسوله كان أشد حرمة للمسلمين. ومن استهان بحرمة المسلمين فقد هتك ستر إيمانه .

وقال رسول الله : إن من إجلال الله إعظام ذوي القربى في الإسلام .

وقال أيضاً: من لم يرحم صغيراً، ولا يوقر كبيراً فليس منا، ولا تكفر مسلماً بذنب تكفره التوبة إلا ما ذكره الله تعالى (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) واشتغل بفعلك الذي أنت به مطالب .

هذه هى الوحدة التي تطالبك بان تجعل تعظيم حرمة المسلمين جزءاً من تعظيم حرمة اللّه وتربط بينها ولكى يعمق الإسلام شعورك بالوحدة فهو يامرك بعدة تعاليم، منها مثلا ً يأمرك بأن تسكن قلبياً إلى أخيك المؤمن ويقول: ان المؤمن ليسكن إلى المؤمن كما يسكن قلب الظمآن إلى الماء البارد

بل يقول لك حينما تجلس عند اخيك المؤمن فاكثر النظر إلى وجهه لأن كثرة النظر تزيد الحب المتبادل، فيقول رسول اللّه x: نظر المؤمن فى وجه أخيه حباً له عبادة ويقول أيضاً:

ألا وإن ود المؤمن من أعظم سبب الإيمان.الا ومن احب فى اللّه وأبغض فى اللّه، واعطى فى اللّه عز وجل فهو من اصفياء المؤمنين عند اللّه تبارك وتعالى الا ان المؤمنين إذا تحابا فى اللّه عز وجل وتصافيا في اللّه كانا كالجسد الواحد، إذا اشتكى احدهما من جسده موضعاً وجد الآخر الم ذلك الموضع .

هكذا ترتفع مستوى الوحدة الإيمانية بل الوحدة الروحية بين المؤمنين، ويؤكد على هذه الفكرة التي تتضمن الوحدةالحقيقية قول أبى عبد اللّه حينما يأتى إليه رجل ويقول له:(انى لألقى الرجل لم اره ولم يرنى فيما مضى قبل يومه ذلك. فأحبه حباً شديداً فإذا كلمته وجدته لى مثل ما انا عليه له.

العام ثم ارتفع مرة اخرى إلى 438/7 مليار في العام 1980 وهذا يعنى ان ديوان الدول النامية تزداد سنوياً خلال السنوات العشر الأخيرة بمعدل 20/5 بالمائة.

او ليس هذا استعماراً من نوع جديد تكلفة اقل او لم اقل لكم ان قنوات التنمية فى بلادنا تصب فى بحيرة الاستعمار لأنه هو الذى حفرها لنا منذ البدء؟.

ويخبرنى أنه يجد لى مثل الذى أجد له. فقال الإمام الصادق فى جواب ذلك الشخص):

صدقت يا سرير.ان ائتلاف قلوب الأبرار إذا التقوا وإن لم يظهروا التودد بألسنتهم كسرعة اختلاط قطر السماء على مياه الأنهار. وإن بعد ائتلاف قلوب الفجار إذا التقوا وان اظهروا التودد بالسنتهم كبعد البهائم من التعاطف وإن ط ال اعتلافها على مزود واحد .

ومن جملة ما يؤكد الإسلام عليه فى معرض التكامل الأجتماعى لبناء الحضارة هو ضرورة قضاء حوائج المؤمنين بعضهم لبعض الإسلام يقول لك اطلب حوائجك من أخيك المؤمن ولاتستحى منه. وكلما تجده فى نفسك اكشفه له بلا تحرج. ويطلب منه فى نفس الوقت ألا يتوانى فى تقديم ما يتمكن عليه. حينما تقضى حاجتى أقضى أنا أيضاً لك حاجتك فأنت تتكامل معى وانا أتكامل معك لأنك تستطيع ان تقوم بعمل لا استطيع هذه اللحظة ان اقوم به، غداً قد اكون استطيع القيام بهذا العمل وتعجز انت من ذلك وهكذا فإن عملية التعاون تبدأ من الجذور ومن الخلايا الصغيرة. وعندما يصبح المجتمع كله كتلة متراصة عندئذ لا يمكن اختراقه.

وتأملوا حديث الإمام الصادق وهو يقول: اوحى الله عز وجل إلى داود، إن العبد من عبادى ليأتينى بالحسنة فابيحه جنتى، فقال داود يا رب وما تلك الحسنة؟ فقال يدخل على عبدى المؤمن سروراً ولو بتمرة، قال: فقال داود 8: حق لمن عرفك ألا يقطع رجاءُه منك .

وكذلك الرسول x فيقول بعدما يسأل أي الأعمال أحب إلى الله..

اتباع سرور المسلم، قيل يا رسول الله وما اتباع سرور المسلم. قال شبعة جوعه وتنفيس كربته، وقضاء دينه .

والإنسان الذى يدخل على قلب اخيه المؤمن السرور فإن الله سبحانه وتعالى سوف يحسب لذلك الإنسان على عمله حسنات، وهكذا يريد الإسلا م..التعاون الصادق العميق بين المؤمنين.

وفى حديث يصور لنا مدى اهمية قضاء حوائج المؤمنين بهذا الأسلوب الرائع.

كنت عند الإمام أبى عبد الله الصادق 8فذكر عنده المؤمن وما يجب من حقه فالتفت إلى أبو عبد الله فقال لى: يا أبا الفضل ألا أحدثك بحال المؤمن عند الله؟ ، فقلت: بلى فحدثني جعلت فداك.. فقال:

إذا قبض الله روح المؤمن صعد ملكاه إلى السماء فقالا يا رب عبدك ونعم العبد، كان سريعاً إلى طاعتك بطيئاً عن معصيتك وقد قبضته إليك فما تامرنا من بعده؟ فيقول الجليل الجبار اهبطا إلى الدنيا وكونا عند قبر عبدى ومجداني وسبحاني وهللاني وكبراني واكتبا لذلك العبد حتى أبعثه من قبره .

ثم قال لي: أزيدك ، قلت بلى فقال:

إذا بعث المؤمن من قبره خرج معه مثال يقدمه امامه، فكلما راى المؤمن هولا ً من اهوال يوم القيامة قال له المثال لا تجزع ولا تحزن وابشرك ب السرور والكرامة من الله عز وجل فما يزال يبشره بالسرور والكرامة من الله سبحانه وتعالى حتى يقف بين يدى الله عز وجل ويحاسبه حساباً يسيراً، وي امر به إلى الجنة والمثال امامه فيقول له المؤمن رحمك الله نعم الخارج معى من قبرى مازلت تبشرنى بالسرور والكرامة من الله عز وجل حتى كان ما كان فمن انت فيقول له المثال انا السرور الذى ادخلته على اخيك المؤمن فى الدنيا خلقني الله لأبشرك .

هذه هى البرامج الإسلامية لبناء المجتمع الفاضل. وكم يكون راقياً ذلك المجتمع الذي يسعى لإدخال السرور والفرح إلى قلوب سائر أبنائه.

وللإمام جعفر الصادق حديث يبين فيه أن تعاون المؤمنين وترابطهم المادي والمعنوي أفضل من العبادات المستحبة:

حججت سنة ثم ذهبت إلى ابى عبد الله الصادق فقال من اين بك يا مشمعى فقلت جعلت فداك كنت حاجاً فقال او تدرى ما للحاج من الثواب؟ فقلت ما أدرى حتى تعلمنى فقال: ان العبد إذا طاف بهذا البيت أسبوعاً أى سبع مرات وصلى ركعتيه وسعى بين الصفا والمروة كتب الله له ستة الاف حسنة وحط عنه ستة الاف سيئة ورفع له ستة الاف درجة وقضى له ستة الا ف حاجة في الدنيا كذا أو ادخر له الآخرة .

فقلت له جعلت فداك إن هذا لكثير.. فقال ألا أخبرك بما هو أكثر من ذاك فقال قلت: بلى، فقال 8:

لقضاء حاجة امرء مؤمن افضل من حجة وحجة وحجة حتى عد عشر حجج .

فهل تملك نفسك بعدما تسمع هذا لحديث وتؤمن به إلا ان تهرع لقضاء حوائج اخوانك المؤمنين وكم يكون سامياً ذلك المجتمع الذى يسعى بل يهرع كل واحد لقضاء حوائج إخوانه بهذه الروحية العالية والنية الخالصة.

ثم إن النبىxيقول: والله لقضاء حاجة المؤمن خير من صيام شهر واعتكافه .

والإمام الصادق يقول حديثا ً ً بالغ الأهمية نرجو أن يصبح مناراً نهتدي به.

إن الرجل ليسالنى الحاجة فابادر بقضائها مخافة ان يستغنى عنها فلا يجد لها موقعاً إذا جاءته .

فحينما يسالك شخص حاجته فبادر إلى قضائها ولا تماطل فقد يتغير الوضع ويستغنى عنها فتفوتك بذلك فرصة عظيمة، حيث يقول 8 فى حديث آخر: من كان فى حاجة أخيه المسلم كان الله فى حاجته ما كان فى حاجة

أخيه .
والإسلام الذي يقول للمقتدر اقض حوائج اخوتك المؤمنين، يقول للمحتاج اطلب من أخيك حوائجك. يقول الإمام الصادق 8: إذا ضاق احدكم فليعلم أخاه ولا يعن على نفسه .
اى يجب على من يقع في مشكلة ان يستعين باخيه المؤمن على حلها ولا يتركها تستفحل ومن مجموع ذلك يتكون المجتمع المتكامل الخالي من المشاكل.
والحديث التالى يشجعنا على الاجتماعات الإيمانية إلى هذا المستوى ويقول:
تبسم المؤمن فى وجه اخيه حسنة، وصرفه القذى حسنة وما عند اللّه بشيء أحب إلى اللّه من إدخال السرور على المؤمن .
أو لا تريد ايّها المسلم ان تجلب لنفسك حب اللّه تبارك وتعالى؟
واكثر من هذا يقول الإسلام لو ان رجلا ً مشركاً كافراً قضى حاجة رجل مؤمن فإن اللّه لا ينسى لذلك الرجل المشرك عمله الحسن..انظروا إلى هذا الحديث، سمعت أبا جعفر 8يقول:
إن في ما ناجى به اللّه عز وجل عبده موسى قال إن لي عباداً ابيحهم جنتي واحكمهم فيها قال يارب من هؤلاء الذين تبيحهم جنتك وتحكمهم فيها؟ قال من أدخل على مؤمن سروراً. ثم قال إن مؤمناً كان في مملكة جبار فولع به فهرب منه إلى دار الشرك، فنزل برجل من اهل الشرك فاظله وارفقه واضافه فلما حضره الموت اوحى اللّه عز وجل إليه وعزتي وجلالي لو كان لك فى جنتي مسكن لأسكنتك فيها ولكنها محرمة على من مات بي مشركاً. ولكن يا نار هيديه ولا تؤذيه، ويؤتى برزقه طرفى النهار، قلت من الجنة؟ قال من حيث شاء اللّه .
فليس من المهم ان ياتي الرزق في نار جهنم من الجنة او من اي مكان، إنما المهم هو ان هذا المشرك الذي بقي مشركاً حتى مات لا يدخل الجنة ولكن بسبب تعاونه مع المؤمنين الصادقين وخصوصاً هذا المؤمن الثائر الذى ولع به الطاغوت فهرب من بلاد الإسلام إلى بلاد الشرك خوفاً على دينه، فإن اللّه لا ينسى لهذا المشرك عمله الحسن بل يجازيه خيراً بهذا الأسلوب.
إن الأحاديث كثيرة، واختصر الكلام وابين بان الإسلام ليس فقط يريدنا ان نسارع نحو قضاء حوائج اخواننا المؤمنين وإنما يشجعنا ايضاً على التعاون و التماسك والارتباط ببعضنا عبر عدة تعاليم تبدو انها ظاهرية ولكنها تهدى إلى حقائق واقعية مثل أخذ الزينة للمساجد والتعطر، والاكتحال وعموماً الحضور فى المساجد وسائر الأماكن المقدسة والاجتماع فى المناسبات الإسلامية وحتى المشاركة في الأعراس وتشييع الجنائز.

التقوى محور المجتمع الإسلامي

هناك كثير من الأنظمة التى يحافظ بها الإسلام على استقامة المجتمع وعلى صلاحه ومن شانها ايضاً ان تنشئ الديناميكة والحيوية داخل المجتمع المسلم وتحفر له القنوات التى تجرى عبرها طاقاته وفاعلياته فى الاتجاه الصحيح. والحديث عن هذه الأنظمة والقنوات ليس حديثاً مقتضباً لأنها كثيرة ومتشعبة،ويجب أن نضرب لها الأمثلة ونبين حكمتها وفلسفتها.إلا أن كل تلك ا لأنظمة والقنوات تعود بالتالى إلى نقطة محورية واحدة هى التقوى تلك الأ رضية الثابتة التى يبنى عليها الإسلام الكيان الاجتماعى. التقوى هى القاسم المشترك لكل التوجيهات والتعاليم الرسالية. وإذا انتزعنا التقوى من مجتمع ما فلن يكون هذا المجتمع إسلامياً او رسالياً حتى لو طبق كل الأنظمة الإسلامية، كما لو انتزعنا الروح من الكائن الحى فإن هذا الكائن الذى لا روح فيه ليس بحي حتى لو قام بكل الأعمال التي يقوم بها الكائن الحي.

إن اكبر الكمبيوترات فى العالم والذى يقوم بمئات الألوف من العمليات الرياضية المعقدة التي يعجز الإنسان عن القيام بها لا يمكن ان نقول إن له عقلا ً لأنه يفتقد الحياة كذلك المجتمع الذى لاتقوى فيه فمهما بنى من حضارة مادية فهو ليس مجتمعاً حياً، ولا يمكن أن يتسم بالإسلام والرسالية أبداً.

السؤال الأول الذي يطرح هو:

ما هي التقوى؟

التقوى هى الالتزام الداخلى بالعقيدة الإسلامية، النابع عن القناعة التامة، وتذليل الشهوات عن طريق الإرادة الصلبة ومع الوعى الكافى.. يمكن أن يكون هذا التعريف مطولا ً ولكنى حاولت أن أفصله لكى نفهم معنى هذه الكلمة. ليست التقوى مجرد عمل. وإنما عمل وراءه التزام وتعهد وتحمل مسؤولية. وليستهى مجرد التزام فقد يلتزم بشىء ادبياً، إنما يجب ان يكون التزامك نابعاً من إيمانك بالله سبحانه وتعالى وباليوم الآخر وبالرسالة.

وهذه القناعة يجب ان تكون نابعة من تذليل شهواتك عن طريق عقلك، فلو كنت إنساناً مستقيماً تعيش بصورة طبيعية فى مجتمع مسلم ولم يسلط عليك ضغط ولم تجد أمامك محرماً حتى تفتتن وتبتلى بارتكابه او عدم ارتكابه فلست متقياً.

المتقى هو الذى يجرب ويقع تحت الضغوط ولكن إرادته وعقله وبالتالى

جوهر إنسانيته هو الذي يجعله يتحدى الضغوط.. ويحافظ على استقامته.
كان هذا تعريفاً مفصلا ً عن التقوى دعنا إذا نبحث عن اهمية التقوى.القرآن الحكيم يذكر التقوى فى آيات كثيرة ويبين أفكاراً شتى حولها.ا لا أنك حين تقرأ القرآن وتتدبر فيه تجد أن التقوى هي المحور الأساسي فيه.
لماذا تصوم؟
لكي تتقي.
لماذا تحج؟
لكي تتقي
لماذا تعطي الزكاة لكي تتقي؟
لماذا شرع القصاص في الإسلام؟
للتقوى
ماذا ينفع الإنفاق بالنسبة للإنسان؟
ينفعه التقوى
وهكذا فالآيات القرانية تبين ان حكمة اكثر الأحكام الشرعية هي الوصول إلى مستوى التقوى. والأحاديث بالطبع تجرى على نفس المنوال لنتدبر فى طائفة من الآيات القرآنية القرآن الحكيم يقول:
لَيْسَ الْبِرّ أنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنّ الْبِرّ مَنْ آمَنَ بِاللّه ِ وَالْيَوْمِ الآخر مَنْ آمَنَ بِاللّه ِ وَالْيَوْمِ الآخر . 177 /البقرة
وفي آية قرآنية يؤكد القرآن الحكيم ويقول:
يَا أَيّها النّاسُ اتقوا رَبّكُمُ الذِى خَلَقكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا 1 النساء
إلى أن يقول:
وَاتّقُوا اللّه َ الذِى تسَاءَلُونَ بِهِ وَالأرْحَامَ إنّ اللّه َ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً 1 النساءR
من هذه الآية نستوحى ان محور المجتمع الإسلامى هو التقوى انظروا Sواتقوا اللّه الذي تساءلون بهR
اِى ان التقوى هى محور سؤالكم بعضكم عن بعض ومحور ثقة بعضكم ببعض وبالتالى هى عمود اجتماعكم وقاعدة كيانكم. فى الآية الأخرى يجعل القرآن العدالة إحدى إفرازات التقوى حين تقول الآية الكريمة:
اعْدِلُوا هُوَ أقْرَبُ لِلتّقْوَى وَاتّقُوا اللّه َ إنّ اللّه َ خَبِيرٌ بِمَا تعْمَلُونَ 8 /المائدةR
وفى اية اخرى يجعل القران الخير والرفاه والسعادة مبنية على اساس

التقوى ويقول:

وَلَوْ أَنَّ اهل القُرَى امَنُوا وَاتقوْا لفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كذّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ 96 الأعراف.

وفى اية اخرى يجعل القران الحكيم التقوى مرة اخرى ركيزة للبناء الا جتماعي الإسلامي ويقول:

لَمَسْجِدٌ أسس عَلَى التقْوَى مِنْ أول يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تقوم فِيهِ 108 التوبة

ثم يبين أن أي بناء لا يقوم على التقوى فهو بناء هاو على عروشه.

افَمَنْ اسس بُنْيَانَهُ عَلَى تقْوَى مِنَ اللّه ِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ام مَنْ اسس بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ 109 التوبة

فالبناء الاجتماعى الذى لاينبنى على اساس التقوى يكون على جرف، على الحافة وهذا البناء سرعان ما ينهار فى نار جهنم وفى الآية الأخرى يؤكد القران الحكيم على ان الحياة الدنيا المعيشة الفاضلة السعادة الدنيوية مبتنية على التقوى ويقول القرآن:

الذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتقْونَ (63) لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرةِ لا تَبْدِيلَ لِكلِمَاتِ اللّه ِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ 64/63 يونس

اى ان هذه الحقيقة ليست حقيقة مرتبطة ببرهة معينة من الزمن يعنى فى زمان الرسول مثلا ً وإنما هكذا Sلا تبديل لكلمات اللهR.

فى اية اخرى يربط القران بين التقوى والإحسان، ويبين بان التقوى اهم نوع من أنواع الإحسان ويقول:

إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فإن اللّه َ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ 90 يوسف

إلى اخر الآيات

التقوى تيار اجتماعي

هناك فكرة تستوحى من الآيات القرانية حول التقوى، وهى ان القران الحكيم يطرح التقوى كتيار اجتماعى وليس كعمل فردى. وبتعبير آخر التقوى لا تعيش وحدها وإنما تعيش ضمن مجموعة بشرية متفاعلة مع بعضها تجد القرآن الحكيم في سورة البقرة يقول:

ا لم (1) ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدى ً لِلمُتقِينَ 1 2 البقرة

ويطرح التقوى كقضية اجتماعية ويقول:

هدى للمتقين

وليس لشخص واحد وفي ايات اخرى نجد هذه الحقيقة تتكرر

وموعظة للمتقين

والعاقبة للتقوى

الأخِلا ءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا ّ المُتقِينَ (67) يَا عِبَادِ لا

خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ 67/الزخرف
وفي هذه الآية تاكيد على فكرة ينبغي ان نقف عندها قليلا انظروا القران يقول: إن أى رابطة تربط الإنسان باخيه الإنسان لو لم تباركها التقوى فإنها ستكون رابطة هشة يمكن أن تنفصم فى أية لحظة. وفى آية أخرى يربط القرآن الحكيم بين التقوى وبين السلام الذى ينشده الإنسان فيقول: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ 51 /الدخان
هذه هى الآيات التى تحدثنا عن اهمية التقوى وإنها قاعدة اساسية لسائر قواعد المجتمع الإسلامي وهناك احاديث تدل على ذات الحقيقة لا باس ان نبين بعضها وهي كثيرة جداً.
مثلا أبو جعفر الباقر8 يقول كان أمير المؤمنين 8يقول: إن لأهل التقوى علامات يعرفون بها.. صدق الحديث، وأداء الأمانة ووفاء بالعهد وقلة العجز والبخل وصلة الارحام ورحمة الضعفاء وقلة المؤاتاة للنساء وبذل المعروف وحسن الخلق، وسعة الحلم، واتباع العلم فيما يقرب إلى اللّه طوبى لهم (حسن مآب) .
إن كل هذه العلامات تتلخص فى قضية واحدة وهى الارتباط بالكيان الا جتماعى ارتباطاً متيناً وحسناً فصدق الحديث قضية اجتماعية وكذلك اداء الأ مانة الوفاء بالعهد، قلة العجز والبخل صلة الأقارب رحمة الضعفاء ...الخ.
فإذا التقوى ركيزة اجتماعية وتجد فى حديث اخر فى نهج البلاغة يقول أمير المؤمنين علي 8:
S كمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إلا الْجُوعُ والظَمَأُ وكمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إلا السَّهَرُ والعَنَاءُ حَبَّذَا نَوْمُ الأ كْ يَ اس ِ وإفْطَارُهُمْ R.
إذاً فالمجتمع الإسلامى لا يقوم على اساس كثرة الصيام او كثرة القيام، إنما على قلب العمل وهو التقوى.
وعن الإمام علي 8يقول: لا يغرنك بكاؤهم فإن التقوى في القلب
ان يبكى الإنسان من خوف اللّه هذا ليس تقوى وإنما التقوى هو ان يحطم ا لإنسان في داخل قلبه الحواجز التي لا تدعه يفهم الحقائق ويؤمن بها.
ولا تدعه يوفق اعماله وفق مناهج اللّه سبحانه وتعالى وفي حديث اخر يقول الإمام علي8: (التقى رئيس الأخلاق)
اي ان سائر الأخلاق كلها تنبني على اساس التقوى وفي حديث مفصل عن ا لإمام علي 8:
أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللّه ِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ وإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ وبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ وإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ ونَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ وإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ فَإِن تَقْوَى اللّه ِ دَوَاءُ دَاء قَلْوبِكُمْ وبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ وشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ وصَلاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ وطُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ وجِلاءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ

وأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ وضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ

فالتقوى بالتالي تعطي الإنسان كل ما يحتاجه إذا كان البشر يحتاج إلى ان يكون قلبه بصيراً فإن التقوى ضياء القلب او يحتاج إلى سلامة الجسد ف التقوى سلامة للجسد أو يحتاج أن يفهم الحياة فالتقوى عين بصيرة للإنسان.

فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللّٰهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ ودَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ ولَطِيفاً بَيْنَ اَضْلاعِكُمْ واَمِيراً فَوْقَ اُمُورِكُمْ ومَنْهَلاً لِحِينِ وُرُودِكُمْ وشَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ وجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ ومَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ وسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ ونَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ فإن طَاعَةَ اللّٰهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ آخر الحديث

إن الإمام علي 8يبين لنا بأنه لا يكفي أن يكون ظاهر الإنسان ملتزماً ببرامج الله سبحانه وتعالى، إنما ينبغي أن يكون قلبه كذلك.

انظروا إلى التعابير اللطيفة، إن للإنسان شعاراً ودثاراً الشعار هو ما يلبسه الإ نسان تحت ثيابه، أما دثاره فهو ثيابه الظاهرة) الإمام فى البداية يقول لتكن التقوى شعاراً دون دثاركم يعنى ثيابكم الألصق إلى قلوبكم، ثم لا يكتفى بذلك فيقول دخيلا دون شعاركم، اى يجب ان تكون التقوى عند الجلد حتى قبل الشعار ثم لا يكتفى بذلك فيقول ولطيفاً بين اضلاعكم اى لا يكفى ان تكون التقوى في جلد الإنسان بل يجب أن تكون مستقرة بين أضلاعه.

ولا يكفى ان تكون التقوى مع سائر اعمال الإنسان اى يكون عنده مجموعة توجهات إحداهما التقوى

لا وإنما ينبغي أن يكون دون أموركم أى: إن ما يعطى كل أموركم صبغتها يجب أن يكون التقوى منهلا لحين وردكم يعنى عطشك، يجب ان تكون ولها للتقوى وان تستصدفها قبل كل شىء لا تفكر أن تبنى بيتاً أو تؤسس أسرة.. الخ بل فكر قبل كل ذلك أن تكون متقياً وفى حديث اخر من الطف ما قاله الإ مام علي8 حول التقوى: التقوى سنخ الإيمان .

ماذا يعني ذلك؟

يعنى ان الإيمان الذى لا يثمر التقوى لاخير فيه ابداً الإيمان هو الذى يعطيك التقوى أما إذا رأيت نفسك مؤمناً بدون تقوى فلابدّ أن تشك في إيمانك.

لقد طال الحديث فى بيان النصوص التى بحثت عن التقوى والسبب اننى موقن بان الركيزة الأساسية للمجتمع الإسلامى كما سبق وقلتهى التقوى وما سنتحدث عنه فى المستقبل من مختلف المناهج والبرامج إنما هو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتقوى .

آثار التقوى في المجتمع الإسلامي

أما الآن فسنقوم ببيان الآثار الإيجابية للتقوى في الكيان الاجتماعي.

إن أهم أثرين للتقوى في المجتمع الإسلامي هما:

الأول:ان التقوى هي قصب السبق الذي يتنافس حوله المسلمون.

الثاني:ان التقوى هي القيادة الحقيقية للمجتمع الإسلامي.
دعنا نشرح هاتين الفكرتيين، قبل كل شيء لا بد ان نتذكر ان الإنسان كما خلق طموحاً ومتطلعاً فكذلك قد خلق من أول يوم متنافساً.اذا عاش الناس جميعاً على الخبز والماء القراح، فكلهم سيكونون قانعين. لكن تعال واعط لإ نسان قصراً من خمسة عشر طابقاً واعط لآخر بناية من خمسين طابقاً تجد ان الاول لن يكون راضياً بقصره، بل يسعى بكل جهده لأن يحصل على ما حصل عليه الآخر وأكثر. فطبيعة الإنسان التنافس وإذا كان الأمر كذلك فلابدّ أن يبحث عن مادة يتنافس حولها حسناً:

ما هي مادة التنافس؟

يمكننا أن نقسم مجالات التنافس في الحياة إلى قسمين:

القسم الأول:

القيم المادية كالجاه والسلطة، والمال والشهرة والمتع الجسدية والتنافس حول هذه الأمور فيه عدة عيوب كبيرة، مثلا ً:

أ. إن هذه الأشياء عرضة للزوال، وحياة الإنسان على الأرض قصيرة جداً فهو سيموت ويترك وراءه كل ما تعب في جمعه والحصول عليه.

ب.ان طبيعة الإنسان محدود بحيث إن تلذذه بالأشياء المادية محدود جداً فمهما كان الإنسان غنياً فإنّه لن يستطيع أن ياكل إلا مقداراً محدوداً من الطعام ولا أن يمارس إلا قدراً محدوداً من المتعة الجنسية.

ج.ان التنافس حول المال سيعود بالإضرار الوخيمة على المجتمع، حيث ستتركز الثروة في ايد قليلة ويبقى السواد الأعظم محروماً فيصبح عرضة للجهل والتخلف ويسود الحقد والكراهية بين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء.

د.ان التنافس حول الجاه والسلطة يخلق الحروب والتقاتل لأنه لا يمكن للجميع ان يصبحوا حكاماً ورؤساء،فالمجتمع يكفيه حاكم واحد وكل تنظيم في هذا المجتمع يكفيه رئيس واحد.

وهكذا فالشهوات والقيم المادية محدودة والبحث عنها والتنافس حولها يحطم الفرد والمجتمع معاً.

القسم الثاني:

القيم المعنوية كالعلم وتهذيب النفس والعمل الصالح ...الخ

وهذه القيم تمتاز بانها لا محدودة، فحينما يتنافس الناس حول العلم يستطيع كل منهم ان يحصل على قدر وافر منه دون ان ينقص من علم الآ خرين شيئاً وحينما يتنافسون في العبادة وتزكية الذات كذلك، وحينما يتنافسون حول الأعمال الخيرة كتاليف الكتب وتزكية النشئ وتاسيس الأجهزة الإعلامية الصادقة كالصحافة والإذاعة والسينما والتلفزيون ...الخ أو كإنشاء

المرافقا لضرورية مثل المدارس والمساجد والمستشفيات والمصانع، وإعداد الجيش الذي يدافع عن الثغور، فإن السجال مفتوح على مصراعيه للجميع.

القرآن الحكيم يحدد لنا هدف التنافس في المجتمع ويقول:

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّه ِ أَتقاكُمْ 13الحجرات

ابحثوا عن التقوى تنافسوا على التقوى

وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ 36 /المطففين

فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ148 البقرة

دعوا سباقكم وتسارعكم وبالتالى تنافسكم يكون حول الخيرات، فالخيرات كثيرة لا يمكن تحديدها وبإمكان الجميع أن يحصلوا عليها. والتقوى باعتبارها ركيزة التنافس وقصب السبق الذى يحاول الجميع أن يصلوا إليه قبل الآخرين فهذا يسبب أن المجتمع دائماً يبحث عن التقدم.

وبالتالى يتقدم الجميع وتتقدم البشرية. من هنا يضرب الإسلام وبكل عنف على هذا الوتر، فالإمام على بن الحسين يقول فى حديث مفصل نقتطف منه هذه الفقرة: Sلا حسب لقرشي ولا لعربي إلا بالتواضع. ولاكرم إلا بالتقوىR

وفى وصية النبى x لأبى ذر يقول: Sعليك بتقوى الله فإنّه رأس الأمر كلهR

فإن كنت تريد ان تصبح رئيساً وتحصل على الرئاسة فعليك بتقوى اللّه سبحانه وتعالى وأما الإمام الصادق 8 فيقول :

من اخرجه اللّه من ذل المعصية إلى عز التقوى اغناه اللّه بلا مال، واعزه بلا عشيرة، وانسه بلا بشر ومن خاف اللّه عز وجل اخاف اللّه منه كل شيء ومن لم يخف الله عزوجل أخافه الله من كل شيء .

وفى حديث آخر ينقل الإمام على8 عن رسول اللهx قوله: المتقون سادة، والفقهاء قادة، والجلوس إليهم عبادة .

هذا من ناحية التنافس، اما من ناحية القيادة، فإن اى مجتمع لا يمكن ان يعيش قيما شتى إنما يعيش عادة قيمة واحدة تكون معولا له فمثلا ً هناك مجتمع يعيش عيمة المادة فاغناهم واكثرهم ثروة هو سيدهم هناك مجتمع يعيش قيمة الجاه والحسب فاقربهم إلى العشيرة الفلانية هناك مجتمع يعيش قيمة القوة فأقواهم هو سيدهم. ولكن المجتمع الإسلامي يعيش قيمة التقوى، لذلك تكون هذه القيمة هي امام المجتمع ويكون اتقىالناس هو سيد الناس وحينما يكون الأمر كذلك تكون قيادةهذا المجتمع قيادة نظيفة مائة بالمائة ومن هنا تجد في ذلك الحديث الإمام علي 8 قال: المتقون سادة

إلى هنا واتصور ان الحديث يكفى حول التقوى باعتبارها ركيزة اساسية للمجتمع الإسلامى ولكن لا باس ان نوجه الأخوة إلى قضية هامة وهى الا يكون حديثنا فقط من أجل المعرفة. فإذا أردنا أن نعرف المسائل فقط،

فسنكون مثلنا مثل ذلك الذي جعل التقوى دثاره والإسلام يعطي مثلا ً سيئا لهؤلاء ويقول: كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارا ً5 الجمعة

إن سيارة الوانيت التي تحمل مجموعة كتب من المطبعة إلى دار النشر، لا تفهم شيئاً من هذه الأسفار وكذلك الإنسان الذى يسمع لا لكى يفهم او يفهم لا لكي يعمل.

لنجعل من المواعظ التى نستفيدها من الأحاديث التى نسمعها، وسيلة لتزكية انفسنا، لنخرق حجب الشهوة والغفلة والضلالة التي تفصل بين قلوبنا وبين الحقائق، لا نردد الكلمات دون ان نكون جديين كتلك العجوز التي يروون قصتها حيث كانت مريضة وتطلب دائماً من اللّه سبحانه وتعالى الموت والخلا ص من الدنيا وصادف ان ثور جيرانها ادخل راسه في برميل فعلق قرنه به وما استطاع ان يخرج راسه، فضل طريقه وبحث عن مكان يدخل فيه فدخل في بيت هذهالعجوز، وكانت لا تزال جالسة تطلب من اللّه سبحانه وتعالى الموت فإذا بها ترى هيكلا ً ضخماً يدخل عليها الباب فتصورت ان هذا هو ملك الموت فأخذت تنادى (إن من كان يريد الموت ليس هنا وإنما فى بيت جيراننا).

يجب الا يكون استماعنا لأحاديث التقوى ومواعظها واهميتها استماعاً للآ خرين او لمجرد الحفظ وقضاء الوقت، فإن الدنيا فرصة وحيدة لنا، وإذا انقضت فليست هناك فرصة اخرى للخلاص من عذاب اللّه الذي يحق للإنسان أن يبحث عن الخلاص منه بكل وسيلة ممكنة.

التقوى ضمانة ضد الانحراف

في الفصل السابق تحدثنا عن التقوى كاساس للمجتمع الإسلامي وجذر يتفرع عنه كل البرامج والمناهج داخل هذا المجتمع، وهنا نتحدث عن ثلاثة أمور هامة:

الأول:اهمية التقوى في إعطاء الحيوية والفاعلية للمجتمع.

الثاني:العلاقة بين التقوى والعمل.

الثالث:ان التقوى هى التى تعطى للمجتمع الإسلامى الحصانة ضد الانحراف الذي يحطمه.

التقوى وحيوية المجتمع:

المجتمع الإسلامي هو المجتمع الذي يوجه ابناءه بحيث يعلمون بان طاقاتهم وإمكاناتهم، وقواهم وفاعليتهم كل ذلك ينصب في قنوات سليمة ويتجه إلى الأهداف التى يتوخونها ويتطلعون نحو تحقيقها، لذلك تجد ان كل فرد مطمئن وموقن إلى انه ذاهب في الجهة الصحيحة ولا يخشى ان يعمل عم لا ً فيستثمر الآخرون نتيجة عمله، انه يعرف ان المكاسب التي يكتسبها بعمله تكون بالتالى له لا لغيره، وهذا سيدفع بهذا المجتمع إلى المزيد من العطاء.

ولكن كيف يثق المجتمع المسلم الذى يطبق كل القيم والمناهج الإسلامية بهذه الحقيقة، إنه يثق بهذه الحقيقة عن طريق واحد وهو ضرب كل يد سارقة تمتد إلى مكاسب الجماهير، وقطعها بحزم وبسرعة، فحينما تقطع الأيادى السارقة ولا يوجد فى داخل المجتمع من يفكر ان يستغل الآخرين، او يستثمر جهودهم، حينئذ تجد كل واحد يعمل مطمئناً لأنه يعلم بان علمه سينتهى ب التالي إليه أما مباشرة وإما بصورة غير مباشرة.

وبتعبير اخر المجتمع الإسلامى يحفر القنوات التى تصب فيها فاعليات الأ فراد بحيث يكون ضفافها هى ضرب كل القيم الفاسدة، فإذا كان فى المجتمع يستطيع الفرد عن طريق السرقة، او الاحتيال او الفسق او الرشوة، او القوة، او الجاه والنسب، او عن طريق فاسد اخر، ان يحصل على عيشه ومكاسبه، انئذ لا يثق الآخرون بالعمل. لماذا يعملون؟

ما دام الطريق الأيسر والأسهل هو ان تسرق وترتشى وتنهب، وتحصل على اي شيء عن طريق الخداع والتضليل، فلماذا تعمل؟

إنك لا تعمل آنئذ.

وذلك حينما يؤكد الإسلام على ضرب الأيادي السارقة لجهود المستضعفين، والكادحين من الجماهير، فليس لأن هؤلاء مجرمون بحق انفسهم او انهم يسرقون بضعة دنانير فقط، وإنما لكي يشيع في الناس الأمن ويعرفوا بان عملهم لا يذهب في مكان اخر لأنهم إذا خافوا من هذا الواقع، وتصوروا ان عملهم سيذهب إلى جيوب الآخرين انئذ لا يعلمون، فتتوقف الدورة الاقتصادية في المجتمع لذلك تجد مثلا ً رسول الله x يقول في حديث كريم حين فتح مكة وقام على الصفا.

Sيا بني هاشم، يابني عبد المطلب، إني رسول الله اليكم، وإني شفيق عليكم، لاتقولوا إن محمداً منا فوالله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلا المتقونR.

هنا يركز الرسول على قاعدة التقوى، ومحوريتها في المجتمع الإسلامي كما قلنا.

Sألا فلا أعرفكم تأتوني يوم القيامة تحملون الدنيا على رقابكم ويأتي الناس يحملون الآخرةR.

اى إذا جئت يا فلان المنسوب إلى رسول الله يوم القيامة وحملت معك البلا د التي فتحتها والأموال التي انتهبتها وما اشبه، ثم جاء غيرك وحمل معه الزهد والتقوى والعمل الصالح انئذ لا اعرفك انت المنسوب إلى بالنسب، إنما أعرف ذلك الذي ينتسب إليّ بالحسب والعمل الصالح.

Sألا وإني قد أعذرت فيما بيني وبينكم، وفيما بيني وبين الله عزوجل وإن لي عملي ولكم عملكمR.

وفي حديث آخر جاء عن الإمام علي 8: Sإن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاؤوا به ثم تلا إنّ أوْلَى النّاسِ بِإبْرَاهِيمَ لَلّذِينَ اتّبَعُوهُ وَهَذَا النّبِيُّ وَالّذِينَ آمَنُوا ثم قال 8إن ولي محمد من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وإن عدو محمد من عصى وإن قربت قرابتهR.

في هذه الرواية تجد الإمام علي 8يؤكد بوضوح بأن ولي محمد x ليس ذلك الرجل الذي ينتسب إلى رسول الله نسباً ويبتعد عنه حسباً وعملا ً إنما العكس هو الصحيح وكذلك الأنبياء % وقصة ابن نوح واضحة ومعروفة، من هنا نجد أهل البيت% يجهدون أنفسهم ولايكتفون بأنهم من أبناء رسول الله القريبين إليه.انما يجهدون أنفسهم عبادة.

والرواية المعروفة عن الإمام زين العابدين ، دليل على هذه السلوكية للأ ئمة % وهي شاهدة على كذب وبطلان كلام أولئك الذين يحسبون أن مجرد الا نتساب إلى رسول الله هو الذي يعطيهم صك الغفران يوم القيامة، كلا الرواية مطولة وسنورد قسماً منها.

Sفاطمة بنت علي بن أبي طالب اتت جابر بن عبد الله الأنصاري وهو

صحابى جليل من أصحاب رسول اللهxفقالت له: يا صاحب رسول إن لنا عليكم حقوقاً وإن من حقنا عليكم إذا رايتم احدنا يهلك نفسه اجتهاداً ان تذكروه اللّه وتدعوه إلى البقيا على نفسه، وهذا على بن الحسين عليهما السلام قد انخرم انفة، وثفنت جبهته، وركبتاه وراحتاه، فاتى جابر بن عبد اللّه باب على بن الحسين 8وبعد حوار طويل بين جابر وبين الإمام الباقر دخل أبو جعفر وهو ابن الإمام زين العابدين إلى ابيه واخبره الخبر وقال إن شيخاً بـ الباب وقد فعل بى كيت وكيت فقال يا بنى ذلك جابر بن عبد اللّه، ثم يقول جابر: وجدته فى محرابه، قد أمضته العبادة، فنهض على وسأله عن حاله سؤلا حثيثاً، ثم اجلسه، فاقبل جابر عليه يقول يا ابن رسول اللّه ما هذا الجهد الذى كلفته نفسك، اما علمت بان اللّه خلق الجنة لكم ولمن احبكم، وخلق النار لمن أبغضكم، فقال له علي بن الحسين :

يا صاحب رسول اللّه، اما علمت ان جدي رسول اللّه قد غفر له اللّه من ذنبه ما تقدم وما تاخر فلم يدع الاجتهاد وقد تعبد بابى هو وامى حتى انتفخ منه الساق وورم القدم، فقيل له اتفعل ذلك وقد غفر لك اللّه عن ذنبك ما تقدم وما تاخر فقال، افلا اكون عبداً شكوراً؟

فلما نظر جابر إلى على بن الحسين وانه ليس يغنى فيه قول من يستميله من الجهد والتعب إلى القصر قال له يا بن رسول اللّه البقاء على نفسك فإنك من اسرة بهم ستدفع البلاء، ويكشف اللاواء، وبهم تستمطر السماء، فقال يا جابر، لا أزال على منهاج آبائى% حتى ألقاهم فأقبل جابر على من حضر وقال واللّه ما رؤي من اولاد الأنبياء مثل علي بن الحسين8 إلا يوسف بن يعقوب .

هكذا كان على بن الحسين ، إنهم لم يكونوا يكتفون بأنهم من أولاد رسول اللّه او من اولاد علي او من اولاد الحسين، إنما كانوا يجهدون انفسهم هذا الإ جهاد كل ذلك لأنه قبل إن يبدا الإسلام بإقامة المجتمع الإسلامى فإنّه ينظف هذا المجتمع من القيم الفاسدة، ولذلك فعندما سال إبراهيم ربه سبحانه وتعالى أن يعطي الملك والإمامة لأولاده جاءه الجواب الإلهي :

لا َيَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ : 124 البقرة

عهدى اى امامتى ولايتى خلافتى، لا يمكن ان يصل إلى الظالمين وسيكون فى ذريتك يا إبراهيم بعض الظالمين قبل كل شىء الإسلام يضرب القيم الفاسدة وذلك يعنى ضرب اولئك الذى يستفيدون من هذه القيم، حينما يقول لك نبى الإسلام بان العصبية فى النار وانه لا عصبية فى الإسلام إلا عصبية عمى حمزة حينما يقول هذه الكلمات الشديدة الحاسمة القوية، فإنّه يقصد بها اولئك الذين يستفيدون من العصبية ويريدون ان يستثمروها، ويقيموا المجتمع البشري على أساسها.

هناك من ينتفع بالعصبية، كالقومية الضيقة والوطنية المزيفة، والإقليمية البغيضة.. فلولا الإقليمية لسقطت عروش، ولولا القومية لتحطمت احزاب ومنظمات مشبوهة، ولولا الوطنية، لما استطاع الطغاة ان يتحكموا برقاب الشعوب، ولكن هذه القيم الفاسدة هى التى مكنت الطغاة من رقاب الجماهيرا

لمؤمنة.الإسلام يضرب هذه القيم الفاسدة لكى تعيش المجتمعات على أساس التقوى والعمل الصالح وحينما يضرب الإسلام بعض الأمور بالأخرى مثل قيمة الدم، والعنصرية، حتى بعض انواعها الخفية، كالعنصرية الجنسية حسب ما اسميها اي تفوق الرجل على المراة ليس بالعمل وإنما لمجرد انه رجل ولمجرد انها امراة، الله سبحانه وتعالى يؤكد بان الرجال قوامون على النساء ولكن بماذا، الرجال قوامون على النساء بما انفقوا من اموالهم، وبسبب ما تفضل بعضهم ببعض اي بالعقل، اما ان يكون الرجل لمجرد انه رجل متفوقاً على المرأة فهذه عنصرية جنسية مرفوضة عند الإسلام. وهذا بخلاف ما يرتبط بـ التنظيم الاجتماعى داخل الأسرة، إنما اقصد عموم المجتمع، فإذا راينا امراة كاتبة تكتب افضل من غيرها، وهناك رجل كاتب ولكن تاليف الرجل وكتابته ودراساته اقل قيمة علمية من اعمال تلك المراة فايهما نقدم؟

إننا لو قدمنا الرجل فى هذه الحالة، فقد كفرنا بقيمة التقوى والعمل الصالح وغيرنا حكم الله سبحانه وتعالى الذي يأمر بأن:

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّه ِ أَتْقاكُمْ

حينما يضرب الإسلام هذه القيم الفاسدة فإنه يصنع حصناً لجهودك ويكون ا لأمر أشبه شيئاً كما قلت بشاطئ النهر اللذين يحفظان مياهه، فإذا لم تكن هناك شواطئ ولم تكن هناك ضفاف للأنهر لكان الماء يسيل فى كل مكان ولم يكن لينفع الزرع والضرع، اما وجود هذه الجدران التى تحفظ المياه فهو الذى يمنح الماء الحصانة الكافية للوصول إلى اهدافه، كذلك جهودك فى المجتمع الذى تسود فيه القيم الفاسدة لا يمكن لها ان تثمر لأنك مهما عملت واجتهدت فإن نتيجة عملك سيكون لمن؟ للآخرين.

إن احد اسباب التخلف فى العالم الثالث هو قلة الأدمغة، ولكن هل خلق اللّه البشر في العالم الثالث اقل ذكاء وفطنة من العالم المتقدم؟

كلا.

إن الله أعطى للناس قدراً متساوياً من العقل والذكاء، قائِماً بِالقِسْطِ لا إِلهَ إِلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ولكننا هنا كلما ربينا أدمغة من المفكرين و المهندسين والأطباء، والخبراء الاجتماعيين والسياسيين ومن اشبه فإنهم لا يجدون المجال المناسب.

يفاجؤون بان من هم اقل منهم علماً وخبرة قد اصبحوا رؤساء عليهم لا عتبارات فاسدة كان يكونوا من الأسرة الحاكمة او من حملة الجنسية الكلذائية... الخ. وعندما يرون انهم قد اجهدوا أنفسهم وعملوا ليل ونهار من اجل وطنهم ومع ذلك لم تقدر جهودهم ولم تحترم شخصياتهم فانهم يحملون امتعتهم وياخذون جوازات سفرهم ويهربون إلى أوربا أو أمريكا..اذهبوا وانظروا كل من عنده مقدار من المعرفة والعلم والنشاط فإنه يهاجر إلى تلك الب لاد حتى انه فى سنة واحدة كتب فى تقرير ان الولايات المتحدة الأمريكية استفادت عشرين مليار دولار من الأدمغة الهاربة من العالم الثالث إلى الولايات

المتحدة الأمريكية، لماذا؟
لعدم وجود احترام لقيمة العلم، والعمل الصالح وبالتالي لقيمة التقوى بسبب سوء النظام الذي يسود بلادنا.

التقوى والعمل

فى حديث شريف ان قليلا ً من العمل مع التقوى خير من العمل بدون تقوى، لماذا؟
لعدة أسباب :

السبب الأول:

إن التقوى ليس فقط تدفعك إلى العمل، وإنما ايضاً توجد فيك تلك الدوافع المباركة الكريمة التي تدعوك إلى الاستمرار في العمل.
وكثير من الناس يتوقون إلى العمل من وحى ويسبب ردود ان العقل وهؤلاء سرعان ما تخبو فى انفسهم جذوة العمل ويتوقفون ويتركون العمل ويكون ضررهم على العمل أكثر من نفعهم، الذى يبنى مثلا ً نصف بناية وليس بناية كاملة ياتي ويحفر الأرض ويضع الأساس ويبنى نصف بناية هذا ضرره على المجتمع أكثر من نفعه، لماذا؟
لأن هذا الإنسان قبل إن يبنى هذه الأرض كانت صالحة للبناء هذهالمواد الإ نشائية كانت مفيدة للبناء اما الآن فإنّه اشغل الأرض وايضاً افسد المواد الإ نشائية، بينما الذى يعمل اندفاعاً لله سبحانه وتعالى وبدافع التقوى فإنّه يستمر في عمله، ولذلك جاء في الحديث.
Sقليل من العمل تدوم عليه خير من كثير لا تدوم عليهR.

السبب الثاني

حينما يكون العمل مع التقوى تكون وجهة العمل وجهة سليمة اما إذا كانت وجهته وجهة باطلة فإنّه ظاهراً قد يكون كبيراً ومفيداً ولكنه في لحظة واحدة يتحطم ويكون مثله مثل البقرة الحلوب التى تعطى مقداراً كبيراً من اللبن السائغ ولكن في آخر لحظة تضرب برجلها إناء الحليب فتقلبه.
كثير من الناس يعمل الواحد منهم ويجتهد، يكتب يحاضر..الخ، ولكن فى سبيل اي شيء؟
فى سبيل ان يصبح رئيس جمهورية، وبعدما اصبح رئيس جمهورية يتحالف مع المنافقين ومع كارترليحطم منافسيه ويستقر فى الحكم مثل ما فعل بني صدر والذي ربما كان يعمل 18ساعة في اليوم ولكن لأي هدف؟
حينما كان هدفه هدفاً فاسداً فإنّه أفسد أكثر ممّا نفع.
والقوى الكبرى كذلك تجتهد وتبني المصانع والمعاهد وتقوم بالدراسات العلمية المكثفة.. الخ ولكن بالتالي من أجل ماذا؟.
من اجل ان يصنعوا قنبلة ذرية، وهدروجينية ونيوترونية وبالتالي ليحطموا

العالم.. رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ .

حينما اعطى الله الزينة والأموال لفرعون لم يعطه ذلك لكى يضل عن سبيل الله ويحطم البلاد، ويس تضعف الجماهير ويستثمرهم إذا التقوى ضمان لوجهة العمل بينما العمل الذى يكون وراءه دافع فاسد يكون ضرره اكبر من نفعه، ولذلك فإن رسول الله x فى إحدى غزواته رأى رجلاً مثقولاً فقال هذا شهيد الحمار، لأن هذا حينما رأى المسلمين يذهبون إلى المعركة، ذهب معهم لأنه يعلم ان فى جبهة العدو حماراً فارهاً قرر ان يستولى عليه، ولكن الدائرة دارت عليه فقتله صاحب الحمار وهكذا خسر دنياه واخرته،ومثل هذا فى الحياة كثيرون ولذلك فإن تعبهم ومجهودهم يضيع هباءً منثوراً.

الإمام على 8فى يوم الخندق حينما جلس على صدر عمرو بن ود،بصق عمرو فى وجه الإمام على 8 فقام الإمام ومشى خطوات ثم عاد فقتله، فتعجب المسلمون وقد كانوا ينتظرون قتل عمرو ويخشون ان تحدث مفاجاة غير مرتقبة، فسألوا علياً :

لماذا اخرت حز راسه والإجهاز عليه؟

قال : لأنه بصق فى وجهى فثار غضبى وكنت أريد أن أعمل هذا العمل تقرباً إلى الله وخالصاً لوجهه تعالى دون ان يداخله غضب لنفسى وانتقام لشخصى، وهكذا الإسلام يجعل العمل في إطار التقوى محوراً للمجتمع.

التقوى ضمانة ضد الان-حراف

العمل قد يخلف رواسب نفسية سلبية داخل نفس العامل إلا العمل الصادر عن التقوى،اى إنسان يعمل يرجو جزاء عمله، لذلك يتعقد إذا لم ير المجتمع شاكراً لعمله وشيئاً فشيئاً يصبح إنساناً معقداً وضميره ضمير اسود، وربما يصبح سبعاً على الناس.اما المتقى الذى يعمل من أجل الله سبحانه وتعالى فإنه لا يزداد بكثرة العمل إلا اجتهاداً، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة هل أتى عن العاملين في سبيل الله:

لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً (9) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10) فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً 10 /الإنسان.

هذا هو العمل السليم وهذا هو السبب الذى يجعل الإسلام يؤكد على محورية العمل فى إطار التقوى،وبعدما يتم هذا الأمر داخل المجتمع المسلم وتنظف ارضية المجتمع منالقيم الفاسدة ومن الذين ينتمون إلى هذه القيم ويعيشون عليها ويكتسبون من ورائها، بعدئذ يبدا الإسلام فى رفع الفرد إلى الجهاد،والجهاد غير العمل بالرغم من ان الإسلام يؤكد على العمل الصالح فى مايزيد على مائة وعشرين مرة فى القران الحكيم، فالجهاد هو ان تبذل كل ما لديك من قوة ومن إمكانية فكرية ومادية وغيرها فى سبيل الله، والمؤمن الحقيقى يفعل ذلك لأنه لا يجد هناك مانعاً امامه بل يجد الدافع الكافى، وذلك

بعد أن تنظف أرضية المجتمع وتكرس قيمة التقوى داخله.

وفى نهاية حديثنا سنتلو عليكم بعض الأحاديث التى تركز القيم الصالحة فى المجتمع الإسلامى.. فى حديث شريف، يقول الإمام على بن الحسين : Sإن أبغض الناس إلى الله عز وجل من يقتدي بسنة إمام ولا يقتدي بأعمالهR.

وإنى لأتصور ان هذه قيمة فاسدة تورط المسلمون فيها مع الأسف فهى سبب رئيسى لكثير من الكسل والتوكل داخل المجتمعات الإسلامية، إنهم يحسبون بمجرد أن قالوا نحن من أتباع على 8 والحسين8 ومحمدJفإن ذلك يكفيهم بينما القران والأحاديث والأئمة يقولون هذا لا يكفى بل يقولون بل يقولون إنهم أبغض الناس إلى الله عز وجل.

ولماذا ابغض الناس؟

لأن سائر الناس لا يعرفون الإمام وانت تعرف وتعترف له بالإمامة ولكنك لا تطبق كلامه!

وفى حديث آخر يقول الإمام الباقر 8: Sيا جابر، جابر الجعفى وليس جابر بن عبد اللّه الأنصارى بلغ شيعتى عنى السلام، واعلمهم انه لا قرابة بيننا وبين اللّه عز وجل ولا يتقرب إليه إلا بالطاعة له، يا جابر، من اطاع اللّه واحبنا فهو ولينا، ومن عصى اللّه لم ينفعه حبناR

وهل نحن بحاجة إلى حديث اكثر صراحة من هذا الحديث وفى حديث آخر يقول الإمام أبو جعفر 8لخيثمة: Sأبلغ شيعتنا أنا لانغنى عنهم من اللّه شيئاً وابلغ شيعتنا انه لا ينال ما عند اللّه إلا بالعمل وابلغ شيعتنا ان أعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلا ً ثم خالفه إلى غيره، وابلغ شيعتنا أنهم إذا قاموا بما أمروا أنهم هم الفائزون يوم القيامةR.

هذه الأحاديث هنا تضرب القيم الفاسدة ومنها هذه القيمة، قيمة الولاء الكلا مى،او ولاء الأمنية إن صح التعبير، هذا الولاء يضربه الإسلام ويضربه القران وكل الأئمّة %وبعدما يؤسس الإسلام قاعدة العمل وينظفها من الدخائل فإنّه يدفع المسلم في العمل بقول الإمام 8، نقلا ً عن رسول اللّه:

Sبادر بأربع قبل أربع، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك،وغناك قبل فقرك،وحياتك قبل موتكR.

وفى حديث يشبه الحديث يقول الرسول x: Sلا تزول قدم عبد يوم القيامة ، حتى يسأل عن أربع.. عن عمره فيما أفناه وشبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن حبنا أهل البيتR.

وفى حديث اخر يدفعك إلى العمل بصورة اخرى يقول الإمام امير المؤمنين ، وقد جاء شيخ من أهل الشام: Sيا شيخ، من اعتدل يوماه فهو مغبون، ومن كانت الدنيا همته اشتدت حسرته عند فراقها، ومن كان غده شر يوميه فمحروم، ومن لم يبال ما رزء من اخرته إذا سلمت له دنياه فهو هالك، ومن لم يتعاهد النقص من نفسه غلب عليه الهوى، ومن كان فى نقص فالموت خير

له .

اليوم هو جزء من عمري وهذا اليوم يذهب دون ان اكسب بديلا ً عنه، اجراً عند الله او مكسباً فى الدنيا، هذا الإنسان الأفضل له ان يموت لأنه ينقص ومن ينقص يوماً بعد يوم فالأفضل ان يذهب، وفى حديث اخر يدفعك الإمام إلى العمل بأسلوب ذكي آخر يقول الإمام علي 8:

Sما من يوم يمر على ابن آدم إلا قال ذلك اليوم، يا ابن آدم أنا يوم جديد، وانا عليك شهيد، فقل فى خيراً واعمل فى خيراً، اشهد لك به يوم القيامة فإنك لن تراني بعده أبداR.

هذا الحساب، هذا الشعور هو الذى يدفعك إلى العمل الجدى،خصوصاً حينما يكرس فيك الإسلام الإيمان بالآخرة فإنك تعرف بان قدميك يوم القيامة لا تزو لان إلا بعد ان تسأل عن كل اعمالك وتصرفاتك فى الدنيا، وما هو موقفك بـ النسبة إلى الطاقات والنعم التي تفضل الله سبحانه وتعالى بها عليك.

ولو اننا استوحيناه من هذه الأحاديث الشريفة ومن النصوص اسلوب حياتنا. وقيم مجتمعاتنا لاستطعنا أن نبنى ذلك المجتمع الحيوى الفاعل الذى يستطيع أن يخرق كل الحجب ويصل إلى أهدافه باندفاع وسرعة بإذن الله.

الاستباق في الخيرات

إن للتنافس والاستباق إلى الخيرات، والمسارعة إلى الجنة،دوراً حاسماً واساسياً فى دفع المجتمع إلى الإمام وفى المحافظة على خطه العام، والإسلام باعتباره الرسالة التى انزلت بعلم اللّه المحيط بكل شىء، لذلك فإنّه يخطط فى بعدين.

البعد الأول:الشعور الذاتي الفطري.

البعد الثاني:الأنظمة الاجتماعية.

الأنظمة الاجتماعية فى الإسلام تتوافق تماماً مع ذلك الشعور النابع من اعمق اعماق الفطرة البشرية، فالإسلام من جهة يبعث فيك الإحساس بالتنافس والشعور بالاستباق وبالتالى يريدك ان تنظر إلى الآخرين وتتخذ من عملهم مقياساً لمدى عملك، ومن جهة ثانية يدفعك إلى ذات القيم التى يدفعك إليها، فطرتك وقلبك وعقلك.

ومن هنا سنقسم حديثنا فى هذا الفصل إلى قسمين يبدوان مختلفين ويسير كل واحد منها في اتجاه ولكنهما في الواقع يلتقيان ويتكاملان.

فى القسم الأول من حديثنا نعود بكم إلى الوراء قليلا ً لنكرر ما قلناه سابقاً حول ماهية الحياة.

الحياة في الجسم الحي عبارة عن وجود نواة ابتدائية صغيرة تتفاعل معها الجزئيات وتكبر هذه النواة مع المحافظة على وحدتها، ما الذي يحافظ على وحدة اليد مع العين مع الرجل؟ وما الذى يجعل خليتين متباعدتين فى جسم ا لإنسان تتفاعلان وتعملان سوية؟ لا نعلم بالضبط ماذا، ولكننا نحن البشر نسمى تلك النواة الواحدة التى تجمع مختلف الخلايا وتوجهها باتجاه واحد، بالروح وعندما تنتزع هذه الروح تنعدم الحياة، وتتجه كل خلية فى اتجاه، بل نتيجة كل مادة كيماوية فى اتجاه معين، الأملاح تذهب إلى الأرض، الماء يتبخر في الجو، الأوكسجين يتطاير، على العموم هذا الجسد الواحد يتبدل إلى عشرات بل مئات المواد المنتشرة، كل مادة تبحث عن مثيلها لتعود إليها.

وهكذا المجتمع الحي هو ذلك المجتمع الذى يتمحور حول نواة واحدة، تربط بين اعضائه المختلفة، بعض الناس يزعمون بان علاقة ابناء المجتمع ببعضهم غير حقيقية، ولكن الحقيقة التى يعترف بها كل العلماء والمفكرين فى العالم هى ان ارتباط اعضاء المجتمع ببعضهم حقيقى، تماماً كارتباط اعضاء الجسد الواحد ببعضه، اى هناك حبل موجود يربطك بى ويربطنى بك، هذا الحبل حق وليس شيئاً وهمياً، ما هو ذلك الحبل؟

في المجتمعات المؤمنة الحبل هو وجود الإحساس الديني عند كل الأفراد وهو الشعور العميق بالاتصال بالله سبحانه وتعالى المتجذر في اعماق قلوب البشر،هذا الشعور هو الذى يربط المؤمنين مع بعضهم فى كل مكان، وإنه شيء حقيقي.

والشعور شيء معنوى لا ينحصر في حيز معين،اي حينما نقول الشعور الديني النابع من الإيمان الصادق بالله سبحانه وتعالى فلا نعني ان هذا الشعور يجري في جسدك كما السائل في الظرف مثلا ً ، كلا وإنما هو شيء فوق المادى كما الجمال والعلم وحب الخير،وكلما ازداد هذا الشعور وتعمق هذا الإحساس وتبلورت هذه الفطرة فى ضميرك وضميرى وقلبك وقلبى كلما ارتبطنا اكثر وتبلورت وحدتنا اكثر،واعتصمنا بذلك الحبل الذي يامر بالاعتصام به القرآن الحكيم حين يقول: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّه ِ جَمِيعاً وَلا َ تفرّقُوا (103 آل عمران)

وهكذا الأحاديث التى تؤكد على ضرورة العمل، ليست بعيدة عن تلك النصوص التي تحدد لنا واجب التنافس والمسارعة إلى الخيرات،فالاحاديث التى تدعونا إلى التنافس، من اجل ان يكون احدنا اقرب إلى الله من الآخرين، إنما تبلور فينا تلك الفطرة القائمة فعلا ً .

والشعور بالتنافس جزء من النزعة الاجتماعية في المجتمع وانها تشبه الروح فى الإنسان، والإسلام حين ينمى هذه النزعة ويطهرها فإنما يضرب على الوتر الحساس.

وخلال تلاوتنا الآن النصوص التنافس، سوف نوضح إن شاءالله هذه الحقيقة.

النصوص الشرعية

التالية تؤكد على العمل والسعي وتدعو إلى التنافس، وتحمل ذات الفكرة التي تؤكدها من أجل الوصول إلى الله.. بالتقوى يقول القرآن الحكيم :

إِنّ الّذِينَ امَنُوا وَالّذِينَ هَادُوا وَالصّابِئُونَ وَالنّصَارَى مَنْ امَنَ بِاللّه ِ وَالْيَوْمِ الآ خر وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا َ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا َ هُمْ يَحْزَنُونَ (62 البقرة.)

ويوحى هذا النص ان التنافس يجب ان يكون حول الإيمان والعمل الصالح اى حول محور التقوى، وان ما عدا ذلك من القيم والأسماء والانتماءات لا تعنى شيئاً بل إنها سوف تتلاشى.

وفي اية اخرى يؤكد القران الحكيم لنا بان ما نعمله سنجده عند الله سبحانه، هذه الآية تثير فينا دفوعات هائلة نحو العمل لأن الإنسان إذا اكتشف ان عمله سيبقى ولن يضيع فإنه سيندفع إلى العمل الصالح لأنه يرى ان عمره يذهب، اما عمله يبقى، فلماذا لا يستفيد من عمره الزائل من اجل عمله الباقى، القرآن يقول:

وَمَا تُقَدّمُوا لأنفسكم مِنْ خَيْرٍ تجِدُوهُ عِنْدَ اللّه ِ إِنّ اللّه َ بِمَا تعْمَلُونَ بَصِيرٌ

110 البقرة

إن كل عمل يعمله الإنسان فى طريق الخير فهو من اجل نفسه حتى ولو كان من أجل الآخرين، لأنك حينما تعمل للآخرين، فإن هذا العمل سيتضاعف ويعود إليك من حيث تشعر أو لاتشعر.

وهناك حديث شريف مضمونه.. حينما تريد أن تدعو بخير ويستجاب دعاؤك فلا تدع بهذا الخير لنفسك وإنما ادع به للآخرين من اخوانك المؤمنين، لأن الله سيكتب لك مثل ذلك. وفي آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى:

وَقَدِّمُوا لأنفسكم وَاتقوا اللّه َ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلا َ ق ُ و ه ُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ 223:البقرة

والآية الأخرى تقول:

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّه ُ نَفْسَهُ وَاللّه ُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ 30 آل عمران

والآية الأخرى فى سورة النساء تبين ذات الفكرة التى سبق وان قلناها وهى أن المحور الأساسي هو العمل الصالح النابع عن الإيمان الحق.القرآن يقول:

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا َ أَمَانِيِّ اهل الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا َ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّه ِ وَلِيّاً وَلا َ نَصِيراً (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنّة وَلا َ يُظْلَمُونَ نَقِيراً 124/123 النساء

وهناك آية تقول:

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8) 7 الزلزلة

إن اعمال الخير واعمال الشر تبقى ولا تزول وهى محور جزاء الإنسان فى الدنيا والآخرة ولكن لا يعرف الإنسان كم من عمل الخير يجب ان يقدم وكم من عمل شيئ يجب ان ينتهى عنه ويجتنبه، من اجل ان يدفعك الإسلام إلى ان تجتهد فى سبيل عمل الخير ولا تدع عمل خير إلا وتقوم به، ولاتبقى من عمرك لحظة إلا وتعمرها بعمل الخير، فإن القرآن يقرر انه فى يوم القيامة ينصبون الميزان، كفة فيها أعمالك الخيرة، وكفة فيها اعمالك الشريرة، مع العلم بان اعمال الخير بعضها تقبل وبعضها لا تقبل، انئذ يشعر الإنسان بقيمة حبة الخردل من عمله، هذه الأعمال الصغيرة التى نستهين بها انئذ نشعر بقيمتها، وإذا كنا الآ ن عقلاء واستشعرنا انفسنا وتحسسنا بذلك الموقف فالآن نستطيع ان نعمل وعملنا ينفع ولكن بعد فوات الأوان لا نستطيع ان نعمل، فنندم والندم لا ينفع شيئاً وأعوذ باللّه من ذلك اليوم، لذلك فى الحديث: ودع فخرك إلى الميزان .

فى ذلك اليوم إذا رجحت كفة الحسنات علىكفة السيئات، فيحق لك ان تفتخر ولكن اليوم قبل إن تعرف مصيرك لا تستطيع ان تقول شيئاً، هذا هوالدافع الذي يدفعنا الإسلام إليه، ويقول القرآن الحكيم:

وَأَمّا مَنْ خَفّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا إدراك مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)

8 القارعة

هذا نهايته، مصيره الهاوية التى هى نار حامية فهل الأفضل ان يعمل الإ نسان أو لايعمل؟ وأن يجتهد أو لا يجتهد، انظروا.. القرآن الحكيم ورسالات السماء تبلور فى نفسك هذا الاحساس، هذا الإحساس ما هو بإحساس اجتماعى، إنه إحساس فردى، تعيشه انت بينك وبين اللّه، حتى ولو كنت على راس جبل يزيدك هذا النوع من الأحاديث والنصوص اندفاعاً إلى العمل ليل نهار، المؤمنون المتقون الذين أيقنوا بان الآخرة حق، تراهم يتعبون انفسهم ويجهدون، بل يكادون يهلكونها في سبيل العمل.

وهذا الإحساس الدينى هو الإحساس الذى لم يفهمه كثير من علماء الا جتماع: ونحن إذ نؤكد على مسألة التنافس لا نراها الدافع الوحيد وقد أخطأ بعض علماء الاجتماع مثل العالم المعروف دور كايم اخطا فى فهمه للدوافع الذاتية عند الإنسان كما يؤكد ذلك الكاتب الدكتور قبارى محمد إسماعيل فى الجزء الثالث من كتابه علم الاجتماع والفلسفة: وقد كانت آفة دور كايم أنه لم يميز بين ما هو اجتماعى، ولم يضع خطاً فاصلا ً بين العنصر الفردى فى الدين والعنصر الاجتماعى،حيث إننا نجد بلاضرورة ان الشعور الدينى هوشعرو ذاتي قبل إن يكون شعوراً اجتماعياً.

وحسب ما يقول اندرولانج وهو أحد العلماء الاجتماعيين البريطانيين:

(لقد بدأ العنصر الدينى نقياً خالصاً، ثم جاء العنصر الاجتماعى كى يغلفه من الخارج بشعائر وطقوس فيحجب الغطاء الاجتماعى الشعور الدينى، ويطغى على الجوانب النقية). وكما يقول أحد العلماء الآخرين وهو رينيه لوسن وهو أحد العلماء الفرنسيين.

إن الشعور الدينى، هو القوة الروحية الباطنة التى تسمو بالإنسان فترفعه من عالم المادة إلى عالم الروح بدافع التجرد الخالص والحب العميق وعندئذ يتجلى الجليل سبحانه وتعالى للقلب الإنساني وينكشف في تجربة روحية خ الصة، وهنا تصبح الألوهية فكرة ذاتية محضة بالنظر إلى اللّه تعالى كموضوع عبادة ومحبة.

حينما يقترب الإنسان إلى اللّه سبحانه بفطرته الأولية النقية فإنه يفعل ذلك حباً فى اللّه، وإحساساً بضرورة الاتصال بينبوع المحبة والعظمة والجمال وهذه الأدعية التى تقرأ فى شهر رمضان وبالذات دعاء البهاء حيث يرد فيه.. اللّهم إنى اسالك من بهائك بابهاه، وكل بهائك بهى اللّهم إنى اسالك ببهائك كله، اللّهم إنى اسالك من جمالك باجلمه، وكل جمالك جميل، اللّهم إنى اسالك بجمالك كله إلى آخر الدعاء.

هذا الدعاء يثير فى اعماق وجدان الإنسان ذلك الإحساس الدينى النقي النظيف المفعم حيوية وروحاً وصفاء ونقاء، ولو لم يكن عند الإنسان هذا الإ حساس فالاف الأدعية والنصوص والتوجهات لم تكن تنفعه شيئاً لذلك يقول أحد المفكرين وهو برتسيون:

إن الدين يتصل بمنابعه فى القلب لأنه نزعة فطرية خالصة قد تدوم بـ المعاناة في عزلة وقد تثمر في المجاهد في خلوة روحية.

ولقد اكد ديسو على قيمة التامل الدينى واكتسابه فى العزلة حين يصل الإ نسان إلى حالة الانجذاب فيتجلى الله سبحانه للفرد.هذا الإحساس الدينى و العميق فى فطرة الإنسان بالعمل وبضرورة خلاص الذات من اهوال يوم القيامة ومن النار، يستفيد منه الإسلام اجتماعياً ايضاً فيجعله متوافقاً مع الشعور الاجتماعى، وهذا هو الفرق الكبير بين المجتمع الإسلامى والمجتمع الجاهلى الذى يعيش حالة الإنفصام والتنافس. ففى هذا المجتمع يدعوك إلى هذا الجانب، بينما تجد من جانب اخر المجتمع يدفعك إلى التنافس على المال، على الجاه، على السلطة، على القيم الفاسدة وما اشبه، فإنك تعيش انئذ الا نفصام،وكلما تبتلع حبوباً مهدئة، وتتجه لاسمح اللّه إلى الخمرة، إلى القمار و المعاقرة، فإنك لاتجد الراحة لأن الإنسان الذى أخذت تتجاذبانه قوتان مختلفتان في اتجاهين متضادين، فإنّه لا يقدر أن يعيش الراحة.

المجتمع الجاهلى مجتمع يعيش التنافس على القيم الزائفة فى الخارج، ويعيش الاندفاع نحو الدين فى الداخل كبشر مفطور على حب الله، لذلك لا يكون مجتمعاً هادئاً فاضلاً ، اما المجتمع الإسلامى فإن ذلك التنافس الخارجي سيتمحور هو الآخر حول ذلك الإحساس الداخلى،وبالتالى يعمق الحياة فى هذا المجتمع؛ لأنه كما قلنا ذلك الإحساس الروحى الداخلى هو الذى يجمعنا مع بعضنا ويفجر فينا ينبوع الحياة ويجعلنا أمة واحدة.

لنقرا الآيات الكريمة التى تدعونا إلى التنافس على الخير وعلى العمل الصالح، القرآن الحكيم يقول في سورة البقرة:

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَين مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّه ُ جَمِيعاً إِنّ اللّه َ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ البقرة 148

فلدى مثلا ً نزعة بناء البيت، ولأخى حب زراعة الأرض اما ابن عمى فعنده هوى التاليف واما ابن خالى فيحب الطباعة ونشر الكتب، وهكذا خلق اللّه البشر، كل واحد منهم يحب شيئاً ويتجه فى اتجاه معين ن القران يقول لا باس ان يختلف الناس ويتفاضلوا بالميزات وكل يتجه فى الحياة، ولكن بشرط ان تكون وجهات الجميع خيراً كل يعمل بالخير فى اتجاه الخاص به، اطبع الكتاب الحق، وابنى البيت من الناس، وافلح الأرض مثلا ً من اجل الاكتفاء الذاتى، وانشر الكتاب المفيد النافع للمجتمع، هذه الأعمال التى يقوم كل واحد بجزء منها، إذا كانت صالحة ستجتمع بالتالي في اتجاه واحد.

أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّه ُ جَمِيعاً

القران الحكيم يقول اعملوا اى عمل شئتم ولكن بشرط ان يكون فى اتجاه الخير، اى نوع من الخير لا باس فيه، المهم ان يكون خيراً وليكن تنافسكم جميعاً فى هذا الاتجاه، وفى اية اخرى حينما يبين القران الحكيم اختلاف الشرائع الناس يبين ان هذه الاختلافات والطبائع المتفاوتة يجب ان تخدم هدفاً واحداً، وهو المسارعة إلى الخيرات والمنافسة عليها،لنقرا المجموعة

التالية من الآيات لتعرفوا السياق، القرآن يقول:

وليحكم أهل الأنجيل بما أنزل الله فيه وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّه ُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47) وَأَنْزَلْنَا إليك الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّه ُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللّه ُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا اتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللّه ِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ 48/47المائدة.

كان من الممكن ان يجعل اللّه الكون كله شكلا ً واحداً وامة واحدة ولكن اللّه أبى أن يخلق البشر هكذا، إنما جعل لكل منكم شرعة ومنهاجاً.

لماذا؟

ولكن ليبلوكم فيما اتاكم

فهذا الاختلاف يخدم حكمة اللّه سبحانه وتعالى فى الكون، القاضية بان يبلو اللّه البشر من النعم التى اعطاها إياهم، اللّه اعطاك العقل واعطاك القوة واعطاك المال واعطاك كل شيئ، لماذا؟

ليختبرك عن طريق وجود الاختلاف الذى يدفعك انت وبدفع ذاك إلى العمل فالأعمال تتفجر من كل صوب وبالتالى تعمر الأرض وتستخرج ما فى الإنسان والطبيعة من طاقات وإمكانات وتسخر من أجل مصلحة البشر.

إذاً، الاختلاف امر طبيعى، ولكن الشىء المهم عند الإسلام ان يكون هذا الا ختلاف في اتجاه الخيرات، أن يكون الاستباق والمنافسة في عمل الخير.

إن للإنسان طاقات لاتحد، وفى الطبيعة قوى لاتنفذ والخلاف يفجر طاقات البشر باتجاه تسخير الطبيعة واستخراج كنوزها.

إن اضخم الانجازات البشرية، كانت فى ظروف الصراع الحاد، او حتى فى أيام الحرب الساخنة.

وربما توحي الآية الكريمة، ويبلوا أخباركم بهذه الطريقة.

بيد ان اتجاه الخلافات البشرية كانت فى مسير الهدم فروسيا وامريكا، ومن يدور فى معسكريهما يتسابقون اليوم فى صنع المزيد من اسلحة الدمار التقليدية والنووية التى يكفى المخزون الجاهز منها لتدمير العالم 11مرة، اما ا لأسلحة الكيماوية فإنها أكبر خطراً.

لماذا لايتنافسون فى القضاء على السرطان او تنمية العالم الثالث او استغلا ل المحيطات لخير البشرية ان القيم السماوية حفرت قنوات البناء ليندفع تيار التنافس فى هذا الاتجاه، ولو تمسك الناس بها اكثر فاكثر لكان تقدم الإنسانية أبعد مدى ممّا هو عليه اليوم أشواطاً وأشواطاً.

الحوافز الاجتماعية

قبل إن ندخل هذا الحقل ونخوض فى موضوع الحوافز الاجتماعية للإ نسان المسلم نحو عمل الخير لا بد ان نمهد للحديث ببيان حس التوافق الا جتماعى الموجود عند الإنسان وكيف ان الإسلام يستثمر هذا الحس فى سبيل دفع أبناء المجتمع نحو العمل الصالح.

نظريات حس التوافق الاجتماعي

هناك نظريتان اجتماعيتان متناقضتان، الأولى تقول بان الأنظمة الاجتماعية مفروضة على الإنسان كما انّ الأنظمة الطبيعية مفروضة عليه، فكما انّ الحر و البرد والظلام والنور والليل والنهار، وكما انّ الصحة والمرض والشباب و الشيخوخة، تفرض ذاتها على الإنسان بحيث لا يستطيع الفرد التخلص من ضغطها فكذلك الأنظمة الاجتماعية.

والنظرية الثانية هى احدث من هذه النظرية واقرب إلى العقل والعلم، وهى تقول إن النظام الاجتماعى يستلهم قوته وشرعيته من داخل الإنسان، فكل فرد من ابناء المجتمع ينجذب بدافع ذاتى نحو تطبيق الأنظمة والقوانين الا جتماعية على نفسه وبدون ضغط خارجى فاول ما يتعلم الإنسان الطاعة إنما يتعلمها من امه والأم هى ينبوع الحنان والحب،والطفل الرضيع لا يطيع أمه خوفاً منها او طمعاً فى لبنها وإنما حباً لها، ومن ثم حينما ينمو الطفل فى محيط ملؤه الحب والحنان ودفئه العاطفة انئذ تراه اميل نحو اقتباس القيم و العادات التي تسود ذلك الجو العائلي.

بينما الطفل الذى يعيش فى مجتمع الصرامة والقسوة قد تكون ردة الفعل عنده تجاه هذه الصرامة اقوى من حس توافقه مع المجتمع الصارم، ف المجتمعات التى تعيش الحب والحنان ويحسب كل فرد فيها نفسه أباً..اخاً.. وابناً لسائر ابناء المجتمع، تعيش التوافق الاجتماعى وابناوءها يطيعون قيمها وتقاليدها أكثر من المجتمعات التي تسودها الصرامة والعنف.

تضيف هذه النظرية باناحساس الإنسان الداخلي هو الذي يدفعه نحو التنافس مع الآخرين، وتقليدهم، الكلمة العربية الشائعة التى تقول،حشر مع الناس عيد، لا تدل على ان الناس هم الذين يفرضون على الفرد ان يحشر معهم ، إنما هو الذى يحب ان يصبح جزءاً من ابناء المجتمع، والتجارب الحديثة التى قام بها علماء الأجتماع وعلماء النفس الاجتماعى وعلماء التربية، ومن اشبه على الفئات البشرية استنبطوا منها هذه الفكرة وهى ان اقوى الغرائز عند البشر هو حس التوافق الاجتماعي أي التكيف مع سائر أبناء المجتمع.

والمثل التالي يضربه علماء الاقتصاد وعلماء الاجتماع في هذا الحقل لقد دلت التجارب على ان العمل الجماعى اكثر قوة وانشط واكثر حيوية من العمل الفردى حتى انهم جعلوا فرداً يعيش في غرفة، والآخرون يعيشون فى غرفة اخرى فإذا قيل لهذا الفرد بان اولئك الذين يعيشون فى تلك الغرفة يعملون مثلما تعمل، فإن العمل عنده يزداد، بينما إذا لم يفهم هذه الحقيقة فإنه سيتباطا عن العمل، فمجرد ان يشعر الإنسان بان اخرين كانوا واين يكونوا يعملون نفس العمل الذي يقوم به، فإن ذلك يدفع به إلى زيادة نشاطه.

وهناك تجربة بسيطة يمكن أن تجربها أنت.. قل لإنسان ما قصة عن نشاط فرد آخر.. حتى ولو كان ذلك الفرد رجلا ً تاريخياً.. قل له قبل 150 عاماً كان هناك عامل يعمل يومياً 16ساعة، ترى أن هذه القصة بغض النظر عن أنها صحيحة او كاذبة، ستخلف اثرها العاجل على من يسمعها فتثور فيهالحمية، ويقول عجيب فلان يعمل 16 ساعة وأنا أعمل 8 ساعات، لماذا يسبقنى؟..ان علي أن الحق به، أن عليّ أن أعمل مثله، وهذه طبيعة من طبائع البشر.

إذاً، وفق هذه النظرية وهى النظرية الأحدث والأقرب إلى التجارب العملية وكذلك الأقرب إلى البصائر الإسلامية نصل إلى هذه النتيجة هى ان التوافق مع ابناء المجتمع وتقليد الناس الآخرين وبالتالى اتباع سلوكياتهم وطرق عملهم ومستويات إنتاجهم إنما هو نابع من فطرة البشر ومن غريزته الذاتية.

والإسلام يحفزك نحو العمل بإثارة إحساس التوافق مع الآخرين، وذلك عبر أسلوبين:

الأسلوب الأول القدوات الصالحة:

إن الإسلام يجعل لك قدوات صالحة، ويعطى لهذه القدوات شرعية اجتماعية اى يرفعها عالية امام عينك لتتخذ منها منهاجاً لعملك ومقياساً لمدى انتاجك وحيوتك، ارايتم كيف أن القران الحكيم يركز على الأنبياء؟ فمن بداية القرانإلى نهايته هناك قصص كثيرة عنهم لماذا؟ لا يحدثنا القران طويلا ً عن الملائكة، وعما يتميزون به من مثابرة واجتهاد وقوة عظيمة.ان لله سبحانه وتعالىملائكة هم فى حالة ركوع وان له ملائكة يسجدون ويبقون على حالة السجود أبداً. وملائكة في حالة وقوف انتظاراً لأمره سبحانه وتعالى بصورة مستمرة او ليست هذه الأمثلة افضل ظاهراً، من صبر ايوب او استقامة نوح، أو جهاد هود وما أشبه، ولكن لماذا يركز القرآن الحكيم على الأنبياء% ويضرب بهم الأمثال؟ السبب فى ذلك هو انهم بشر مثلك، ولأنك عندما تسمع قصة نبى فإنك تتفجر حيوية وتندفع نحو اتباع سيرته والانتهاج بنهجه، وكذلك تاكيد الإ سلام على الأئمّة، القدوات الصالحة للبشرية وتأكيد ولاية الأئمّة% لماذا يقول ا لإمام8، في حديث شريف: بني الإسلام على خمس والدعامة الخامسة كما تقول هذه الرواية، حبنا اهل البيت، او الولاية وهي اهمها؟ لأنك حينما تحب ولياً من اولياء اللّه، وتعتبره اماماً لك وحجة بينك وبين اللّه سبحانه وتعالى، فإنك دائماً تبحث عن سيرته وتفتش عن نهجه، وتحاول تطبيق ذلك المنهج

وتلك السيرة على نفسك، وكذلك تاكيد الإسلام على اهمية المؤمنين الصادقين وضرورة اتباعهم فالإسلام يؤكد على ان الفقيه العادل يجب ان يتبع، لأنه حجة الله سبحانه وتعالى، كما قال الحديث الشريف:

Sإنهم حجتي عليكم وأنا حجة اللهR.

بل تأكيد الإسلام على اتخاذ الأب الصالح، الأستاذ الصالح الصديق الصالح.. قدوة فإذا كان فى الحى الذى تعيش فيه رجل صالح.. يصلى مثلا ً صلاة الليل، صادق اللسان والعهد، محسناً مخلصاً، سباقاً إلى الخيرات.. فإنه سيحشر يوم القيامة حجة عليك كما جاء في الأحاديث، حيث إن اللّه سبحانه وتعالى سيأتي بهذا الرجل ويأتى بك ويقول لك هذا الرجل كان يعيش في المنطقة التى كنت تعيش فيها، وانت كنت تعرفه وظروفه كانت تشبه ظروفك و الضغوط التى كانت عليه مشابهة للضغوط التى واجهتها فلماذا اصبح هذا مؤمناً صادقاً وانت لم تصبح كذلك؟ هكذا يرفع لك الإسلام علماً لتقتدى به، حينما ترى القدوة الصالحة امام ناظريك فإن إحساسك الداخلى وشعورك بضرورة التوافق الاجتماعي سيدفعك إلى اتباع سيرتها ونهجها.

الأسلوب الثاني التنافس الاجتماعي:

إن العبادة هى صلة بين الإنسان وربه فلماذا يشدد الإسلام على صلاة الجماعة فى المسجد أو خارجه. فى البيت فى الدائرة، فى الصحراء وفى أى مكان اخر، ويقرر ان المجتمعين فيها إذا زاد عددهم على خمسين شخصاً، فلا يحصى ثواب تلك الصلاة إلا اللّه سبحانه وتعالى كما جاء فى الحديث؟ الصلاة هى الصلاة ولكن حينما تقف مع الآخرين تصلى، فإنك تسعى لأن تصبح صلاتك اكثر خشوعاً، والأقرب إلى السنة والآداب والمستحبات لأن اللّه فطر البشرية على حس التوافق مع الآخرين، إذا صليت وواحد من المصلين استولت عليه ح الة الخشوع والتهجد واخذ يبكى فى صلاته، وانت تصلى بجانبه، انئذ تحس بنقص، فتقول في نفسك لماذا يبكى هذا الفرد فى صلاته وأنا لا أبكى.؟ لماذا تحصل عنده هذه الحالة ولاتحصل عندى؟ وحينها تشعر عميقاً بضرورة الوصول إلى مستواه،وهذا شعور طبيعى بالنسبة لك، لذلك يحرص الإسلام على الصلاة جماعة.

والإسلام يامرنا بان نعلن بعض الأعمال الصالحة التى نقوم بها،الصدقة مستحبة فى السر والعلن, ولكن جاء فى الحديث الصدقة الواجبة يستحبان تكون علناً لماذا؟. لأنك حينما تدفع الزكاة. والخمس.. والكفارة وما أشبه من الصدقات الواجبة امام الآخرين، فإنهم يتشجعون على دفع صدقاتهم إذ ينمو فيهم الإحساس بالتنافس والتوافق الاجتماعي.

يكون بحيث يجعل كل واحد يضاف إلى الآخر إضافة كيفية وليس إضافة كمية، الواحد يتشجع بالآخر، يتعاون ويتكامل معه، وهكذا تصبح الإضافة النوعية كل جزء من اجزاء الإنسان وكل حركة من حركاته وكل نشاط من نشاطاته كل ذلك يتكامل مع الجزء المقابل عند الإنسان الآخر هناك حديث يدل على ان الإسلام يبنى المجتمع على اساس التفاعل العضوى وليس فقط التراكم

العددي،وهو جزء من وصية الإمام علي 8:

Sوأي كلمة (حكم) جامعة أن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لهاR.

إن هذه هي الكلمة الجامعة الحكيمة الرشيدة التى تعتبر قاعدة لسائر الحكم ، والمواعظ والوصايا، ان تحب للناس ما تحب لنفسك، ثم يضيف الإمام قائلاً :

Sإنك قلما تسلم ممن تسرعت إليه أو تندم إذا فضلت عليه، واعلم أن من الكرم الوفاء بالذمم والصدود آية المقت، وكثرة العلل آية البخلR.

الإمام على 8يقول بأن الإنسان الذى يصد خيره عن الآخرين، إنما يجلب مقتهم وغضبهم على نفسه وان من يتعلل ويتعذر باعذار واهية، إن هذا الإ نسان إنما يكشف عن البخل الكامن فى ذاته وإلا حينما ياتيك رجل طالب حاجة فاعطه حاجته ولا تتعلل بالأعذار.

Sوبعض إمساكك على أخيك مع لطف خير من بذل مع جنفR

الإمام يقول: حينما تريد أن تعطى للآخرين لاتعطيهم تمنناً أعطهم ولو شيئاً قليلاً ً ولكن الطف معهم وهو خير من ان تعطيهم شيئاً كثيراً ثم تحملهم المنّة.

Sومن الكرم صلة الرحم، ومن يثق بك أو يرجو صلتك إذا قطعت قرابتكR أي: إنك قطعت قرابتك فمن الذي يرجو منك الصلة.

التجرم[1] وجه القطيعة احمل نفسك من اخيك عند صرمه إياك على الصلة، وعند صدوده على لطف المسالة، وعند جموده على البذل، وعند تباعده على الدنو، وعند شدته على اللين، وعند تجرمه على الأعذار، حتى كانك له عبد وكانه ذو نعمة عليك، وإياك أن تصنع ذلك فى غير موضعه او تفعله فى غير أهلهR.

الإسلام يريد ان يجعلك انت تندفع وتحاول ان تصلح ما بينك وبين ابناء المجتمع فإذا رايت صدوداً او منعاً او قطيعة من قبل الآخرين، فحاول أن تبادر إلى الخير تجاههم ان هذا الإحساس والذى ينبع من ذات الإنسان من اعمق مشاعره وهو الذى يجعل المجتمع الإسلامى مجتمعاً حيوياً لذلك يؤكد الإمام علي 8على هذه الفكرة ويضيف.

Sولا تتخذن عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقكR

إلى هذا المستوى.. يأمرك الإسلام بأن تحافظ على مشاعر أصدقائك فإذا رايت رجلا ً يعادى صديقاً من اصدقائك فلا تقترب من ذلك الرجل لأن ذلك جفاء لصداقتك مع صديقك:

---

(1) ربما معناه : اعتباره مجرماً.

Sولا تعمل بالخديعة فإنّه خلق لئيم، وامحض اخاك النصيحة، حسنة كانت أو قبيحةR.

إذا رايت فعلا ً حسناً عند اخيك او قبيحاً فاعطه النصيحة محضاً دون تشويه أو تضليل، ودون زيادة أو نقيصة.

وساعده على كل حال، وزل معه حيث زال، ولاتطلبن مجازاة اخيك وإن حثا التراب بفيك

اى حتى إذا كان هناك عدو لك فحاول ان تجود عليه بالفضل طالما انه لم يعلن الحرب ويشهر السيف عليك:

Sوتسلم من الدنيا بحسن الخلق وتجرع الغيظ، فإني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة، ولا الذ منها مغبة ولاتصرم اخاك على الثياب، ولا تقطعه دوناستعتاب ولن لمن غالظك فإنّه يوشك أن يلين لكR.

إذا رايت من اخيك مالا يحمد واردت ان تقاطعه فقبل ذلك اذهب إليه وعاتبه فإذا لأن فلن له.أما إذا بقى على تلك الأخلاق غير الحميدة فيمكنك أن تقاطعه.

انظروا إلى هذه التعاليم وتدبروا فيها إنها تهدف إلى خلق الحيوية الذاتية داخل المجتمع المسلم وليس فقط جمع ابناء المجتمع إلى بعضهم، إنما إيجاد الروابط الداخلية الوشيجة بين القلوب، لتكون هي الحصن الحصين لهذا المجتمع.

حيوية المجتمع وفاعليته

كيف يجعلالإسلام المجتمع حيوياً فاعلا ً ؟

هناك مرحلتان للوصول إلى هذا الهدف :

أولا ً:ايجاد التماسك داخل كيان المجتمع.

ثانياً:ابعاد العقبات التي تعترض فاعلية المجتمع.

بالنسبة إلى المرحلة الأولى، نتساءل كيف يربط الإسلام البشر بعضهم ببعض ويجعلهم متماسكين؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد ان نعرف، ان هناك قوتين تتجاذبان انشطة الإ نسان، قوة العقل، وقوة الشهوات، وكل مجتمع اما ان يكون قائماً على اساس قوة العقل، او على اساس طاقة الشهوات بينما نجد بعض المجتمعات تخلط بين الشهوات والعقل ولكنها فى ساعات الحسم تعود اما إلى العقل وإما إلى الشهوات، والمجتمع الإسلامى يبنى اساسه على قوة العقل لا قوة الشهوات، ف القيم الزائفة، مثل قيمة الأرض، قيمة العنصر قيمة المصلحة وما اشبه، ينسفها ا لإسلام نسفاً وينظف المجتمع منها قبل إن يرسى اسس المجتمع فلا تبقى إلا قيمة واحدة، وهي قيمة التقوى التي تعتمد أساساً على قوة العقل.

بين الحب والشهوة

وهذه القيمة حينما تدخل علاقات المجتمع تسمى بالحب وهنا لا بد ان نذكر الأخوة بالفرق الكبير بين الحب والشهوة، حينما تقول انا اشتهى البرتقال، فذلك يعنى انك تريد ان تاكله، وحينما تقول اشتهى السيارة فذلك يعنى انك تريد أن تركبها وتستهلكها.اما الحب فهو شيء آخر..انت تحب الله يعنى تحب ان تعبد الله، وتخضع له وتطيعه، تحب المستضعفين يعنى تريد ان تخدمهم وليس ان تستخدمهم، تحب الصالحين يعنى تريد ان تعمل بهداهم وتنصرهم، إ ذن فالشهوة هى انك تريد شيئاً او شخصاً من اجل مصلحتك، من اجل غريزتك ، من أجل شهواتك، أما الحب فإنك تريد نفسك من أجل ما تحبه.

إن الحب هو اعمق مشاعر العطاء والإحسان والبذل والإنفاق عند الإنسان، وكما خلق الله سبحانه وتعالى قوة تدعوك إلى إتلاف الأشياء واستخدام الأ شخاص من اجل ذاتك وهى قوة الشهوات، كذلك اغرز فى قلبك قوة تدعوك إلى العطاء للأشياء العطاء للأشخاص والبذل من اجلهم، وكما تشعر باللذة و المتعة تجاه استفادتك من الأشياء كذلك بنفس المقدار واكثر تشعر باللذة حينما تعطى نفسك للأشياء والأشخاص، إن لذة الإنسان الذى يجلس فى

مطعم كبير ويطلب مائدة من الذ الموائد ليست اكبر من لذة ذلك الإنسان الغني الذي يفرش لمجموعة من الأيتام والأرامل والمستضعفين والمساكين مائدة غنية فيأكلون منها وهو ينظر إليهم.ان لذة الإنسان الذي يعدم رجلا ً من أجل مصلحته ومن اجل ذاته ومن أجل سلطانه وطغيانه ليست بالتاكيد اكثر من متعة الإنسان الذي ينقذ غريقاً من الماء او يقوم بجراحة ناجحة لقلب مريض مشرف على الموت وهكذا يجربك اللّه، إذ اللذة ذات اللذة، وانك في كلتى الحالتين ستحصل على نفس المطاليب، ونفس الأهداف والغايات، ولكن إما عن طريق الشهوات الدينية وإما عن طريق العقل الرفيع.

إن المجتمع الإسلامي مبني على اساس الحب، إنكم تقرؤون في القران الحكيم تلك الآية التى حددت ملامح الحزب الذي يسميه القران بحزب اللّه وهو الحزب الذى لا يعرف الحدود والألفاظ والشعارات وما اشبه حيث يقول اللّه سبحانه وتعالى:

يَا ايّها الّذِينَ امَنُوا مَنْ يَرْتدّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَاْتِى اللّه ُ بِقَوْمٍ يُحِبُهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلّةٍ 54/المائدة

هذه هي قاعدة حزب اللّه، هذه هي ارضية هذا الحزب ثم في نهاية السياق يقول القرآن الحكيم :

فَإِنّ حِزْبَ اللّه ِ هُمُ الْغَالِبُونَ 56/المائدة

قاعدة حزب اللّه، قاعدة التجمع الإسلامي الرسالي هي الحب، إنك تحب الآ خرين لا تبحث كيف تستفيد منهم وتستثمرهم وتستغل طاقاتهم، كلا، وإنما تبحث ابداً كيف تخدمهم،كيف تضحي بذاتك من اجلهم هذه هي القاعدة ونجد في كثير من الأحاديث الماثورة عن الأئمّة ان ارفع درجات الإيمان، ان تحب لله وتبغض لله،إذا اردت ان تجرب نفسك هل انت مؤمن ام لا تزال نسبة من الشرك والنفاق في نفسك فهذه هي التجربة، انظر ما هي علاقتك بالآخرين ولماذا ترتبط بهم؟

هل من اجل ان يخدموك او من اجل ان تخدمهم؟

فإن كانت علاقتك بهم لاستغلالهم فاعلم بان نسبة من النفاق ما تزال في قلبك، وإذا رايت العكس فاعلم باتك نقى القلب، صافى الإيمان، وإنك إذا مت في تلك اللحظة سوف تحشر مع المحسنين لأن هذه هى صفتهم، وهى انهم يحبون الناس، ويخدمونهم، وتؤكد الأحاديث على هذه الحقيقة مرة اخرى حينما تقول:

احبب لأخيك المؤمن ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لنفسك

هذا هو الايمان، إذا اردت ان تغتاب احداً، فقل في نفسك هل ارضى بان يغتابنى أحد؟ كلا.اذاً لا تغتبه، إذا أردت أن تتهم الآخرين، إذا أردت أن تسىء الظن بهم، إذا أردت أن تغلبهم، إذا أردت سوءاً بهم. كلما أردت من هذه الصفات السيئة شيئاً فاعلم من جهة ثانية باتك ما دمت لا ترضى بهذه الصفات لنفسك فحريّ بك ألا ترضاها للآخرين وهم أخوتك.

إذا ثبتنا هذه القاعدة الأصلية وهي قاعدة الحب الاجتماعي، انئذ نستطيع ان نبني على هذا القاعدة بناءنا الاجتماعي، وهناك بعض العقبات تعترض بناء هذه القاعدة ولكن الإسلام سرعان ما يصفيها، ثم يوجد بالمقابل العوامل التى تشجع على الحب.

ما هي تلك العقبات؟

العقبة الأولى والرئيسية هي سوء الظن بالآخرين، فهذه من العقبات الرئيسية الكأداء التي تعترض حبك للآخرين، لذلك القرآن الحكيم يقول:

اجْتَنِبُوا كثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ13 الحجرات

هناك بعض القلوب معقدة لذلك تراها تفسر كل عمل تفسيراً معكوساً فإن صلى احد امام الناس قالوا هذا مرائى وإن صلى فى الخفاء قالوا هذا تارك لص لاته، وإن أعطى الزكاة علانية، قالوا: يريد الشهرة، وإن أعطاها بالسر،قالوا: بخيل.

كثيراً ما تسىء الظن باخيك المؤمن وهو من اولياء الله وقد جاء فى الحديث الشريف إن الله سبحانه وتعالى قد اخفى أولياءه فى عباده، وكثيراً ما ترى شخصاً فتستصغره وتذكره بسوء فإذا به من أولياء الله الصديقين لذلك جاء في الحديث: احمل فعل أخيك المؤمن على سبعين محملا ً

جاء رجل إلى الإمام موسى الكاظم 8 وقال أتعرفون فلاناً؟ قال الإمام: نعم، قال: إنى أشك فى ولايته لكم، قال: كيف؟ قال كنت معه عند أحد كبار الأمراء في بغداد فسأله هذا الأمير عنك فقال لا أعتقد بإمامته، فقال الإمام الكاظم 8 لذلك الرجل إنه افقه منك، فلا تسيئ الظن باخيك المؤمن، ويبدو ان الرجل كان من الطيبين فتاثر كثيراً قال يا ابن رسول الله ماذا افعل حتى اصلح خطأى؟. ليس لى مال حتى أعطيه، فسكت الإمام ولكن الرجل بادر وقال: إنى أهب له يوم القيامة ثواب نصف أعمالى، فقال له الإمام : الآن خرجت من النار قد تظن باخيك المؤمن سوء، ولكنه يملك عملا ً صالحاً يقوده إلى الصلاح الكامل، بينما تملك أنت عملا ً سيئاً يسوقك إلى الفساد فالنار.

ولقد قرات قصة فى إحدى الجرائد قديماً لكاتب كان يعمل فى تحضير الأ رواح وله كتاب يبحث فى هذا الموضوع، يقول:احضرت روحاً من الأرواح، فسألته عن وضعه فأجابنى: بأنه في وضع سىء جداً ووصف العذاب الذي يعيشه فى عالم الآخرة بحيث إننى الآن، وبعد مرور ثلاثين سنة، كلما تذكرت فى يوم ما قاله لى ذلك الميت طارت البسمة منى ذلك اليوم يقول: فسألته: كنت مؤمناً فى الدنيا؟ قال:نعم، تصلى؟. قال:نعم، تزكى؟ قال: نعم تبرّ بـ الوالدين؟ قال: نعم، كل أعمال الخير كان يعملها فسألته فلم هذا العذاب؟ قال: لأني كنت سيء الظن بالآخرين.

وقد يكون واجبك الشرعى، يختلف عن واجب اخيك فقد يكون عالماً وهو جاهل، او قوياً وهو ضعيف، او تعيش فى ظروف مختلفة، وقد يكون فقيهاً

اجتهد رأياً وانت توصلت إلى راى اخر يخالفه فهو معذور عن اللّه فى عمله، يتقبل اللّه منه اعماله دونك فلماذا تسيء الظن به؟

اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ . 13 الحجرات

إن سوء الظن هو إحدى العقبات الاجتماعية

نسف الحواجز الاجتماعية

اما العقبة الثانية التى ينسفها الإسلام فهى الحواجز الاجتماعية التى تفصل الناس عن بعضهم، وعندما يحدثنا الإسلام عن هذه النقطة فإنه يتفجر غضباً وتأتى كلمات النصوص لاهبة وكأنها الحمم البركانية. حينما تتحدث النصوص عن الغيبة، عن التهمة، عن النميمة، عن الفحش،وكلما تفسر العلاقات الا جتماعية بل وأكثر من ذلك تجد الإسلام مع تاكيده على حرمة الكذب وان الكذب مفتاح الشر، مع ذلك يقول:الكذب فى الإصلاح صدق عن اللّه سبحانه وتعالى، والصدق فى الإفساد اى إفساد الناس بعضهم مع بعض كذب عند اللّه سبحانه وتعالى لماذا؟

لأن العلاقات الاجتماعية يجب ان تكون نظيفة، حينما ياتى شخص إليك ويتحدث عن شخص اخر بحديث سوء فسوف تخلق فى قلبك عقدة نفسية تجاه ذلك الشخص، وهذه العقدة من ى صيغها؟ العقدة تبقى، كلما تراه من بعيد تتذكر كلام ذاك الشخص، من الممكن ان يكون الكلام كذباً، ولكن النفس البشرية تتاثر حتى بالكذب ولا يرد الإسلام ان تحدث بين الأخوة حواجز نفسية، فمن جهة يقول لك لا تغتب، ومن جهة ثانية يقول لذلك الشخص لا تسمع غيبة، إذا جاءك احد واراد ان يغتاب شخصاً عندك؟ فإذا اصغيت إليه فأنت شريك في الجريمة، رأساً ضع يدك على فمه وقل لا أريد أن أسمع.

ويحكى عن العلامة بحر العلوم وهو بحق من كبار علماء المسلمين وزهادهم فى التاريخ، إنه كان فى مجلس فإذا به ويخرج عنه باكياً، ظنوا بان عقربة قد ل دغته، فاتبعوه وسالوه ممّن بكاؤك؟

قال: كيف اجلس في مجلس يغتاب فيه المؤمنون؟.

سمات المجتمع الإسلامي

التطهير الذاتي

هناك أربع سمات أساسية للمجتمع الإسلامي:
أولاً: التطهير الذاتي.
ثانياً: الفاعلية.
ثالثاً: الجهاد في سبيل الله.
رابعاً: روح التكامل.
هذه السمات الأربع الرئيسية هي صفات هامة للمجتمع الرسالي.

التطهير الذاتي

المجتمع الإسلامي كالنهر يطهر بعضه بعضاً.

المجتمع الإسلامى مجتمع يطهر بعضه بعضاً كماء النهر، إنه مجتمع شاهد على نفسه وشاهد على غيره، والأنظمة الإسلامية التى تجعل هذا المجتمع يطهر نفسه بنفسه كثيرة وسنشير إليها مجرد إشارة، ولكن قبلئذ لابدّ ان نقول إن عوامل الزمن والغفلة وتراكمات الجهل، وحالات الإرهاق والتعب وما اشبه، كلها حالات تعترض المجتمع فتبعده عن قيمه وعن الاستعداد للصراع مع أعدائه.

والمجتمعات كما الفرد تملك شيئاً جامعاً لسائر صفاتها، كما يملك الإنسان شيئاً يجمع سائر صفاته، فالإنسان يملك الروح، والمجتمعات ايضاً تملك الروح، والروح الاجتماعية حسب لغة علماء الاجتماع هى الصبغة العامة للمجتمع، وهي خلاصة تفاعل السمات الداخلية والخارجية في مجتمع من المجتمعات.

وهذه الروح قد يصيبها التعب، وقد تكون روح المجتمع اى الصبغة العامة للمجتمع متاثرة بالإرهاق، فكما يصاب الإنسان بالكسل والضجر،ويعتريه الرهق والعجز كذلك المجتمع.

كثير من المجتمعات فى التاريخ تعيش حياة قصيرة قد لاتتجاوز نصف قرن من الزمان، وبعد ذلك تبدأ رحلة الانهيار،إن هذه المجتمعات إنما تصبح كذلك لأ ن الصفة الأساسية فيها مفقودة، وتلك الصفة هى وجود قانون لتصفية الرواسب، ويشبه حالها حال المريض في كليته.

إن دم الإنسان إذا لم يمر بعملية تصفية عن طريق الكلية التى تبعد عنه

السموم فهل يستطيع الإنسان ان يعيش طويلا ً ، كلا، لأن الدم يسمم الدماغ فيموت الإنسان.

وهكذا المجتمع يتعرض،بسبب الصراعات والتناقضات وظروف الجهل و الغفلة إلى تراكم السموم في عروقه، وهذه السموم يجب ان تخرج عبر قنوات معينة بعيداً عن هذا المجتمع، فبعض المجتمعات تملك الكلية التى تقوم بتصفية دمائها، وبعض المجتمعات لا تملك هذا العضو فتتسمم وتموت، و المجتمعات التي ترى انها ماتت في ايام شبابها او عمرت قصيراً فلأنها لا تملك الأجهزة القادرة على تصفيتها وتنقية دمها وإزالة الرواسب المتراكمة فيها، اما المجتمعات التى تعيش طويلا ً فهى القادرة على إصلاح مسيرتها وتصفية تناقضاتها.

ولنضرب مثلا ً:المجتمعات الديكتاتورية تنفجر مرة واحدة، لماذا؟

لأن رواسبها تبقى فى عروقها، إذا لا يوجد فيها جهاز تصفية ومجارى لنقل هذه الرواسب بعيداً عن المجتمع، فتتجمع هذه الرواسب فى الدورة الدموية للمجتمع وتقضى عليه، أما المجتمعات التى تملك نوعاً من الحرية، فهى تعيش اطول لماذا؟

لأن وجود الحرية يساعد على امتصاص النقمة وتصحيح المسيرة وتصفية الرواسب السامة وتنقية حياة المجتمع.

الإسلام يؤكد على مجموعة انظمة لهذا الشان تساعد على تجدد دم المجتمع وتعيد المجتمع وتعيد إليه حيويته ونقاه.

أولا ً:نظام تعليم الجاهل، وتحمل العلماء مسؤولية علمهم

العلماء يجب عليهم ان يتحملوا مسؤوليتهم ويبينوا للناس علمهم، بكل الأس اليب الممكنة، ذلك لأن العلم حياة القلوب وهو الذى يجدد دم المجتمع، ويسبب تصفية رواسب الجهل والغفلة عنه يقول الحديث المأثور عن رسول الله X:

ايما رجل اتاه الله علماً فكتمه وهو يعلمه لقى الله عز وجل يوم القيامة ملجماً بلجام من نار .

هذه مسؤولية العلم، إنك إذا كنت تعلم حقيقة واحدة فكتمتها ولم تنشرها بين الناس فإنك سوف تقف بين يدى الله وفى حلقك لجام من نار، وفى حديث آخر يقول رسول اللهX:

تناصحوا فى العلم، فإن خيانة احدكم فى علمه اشد من خيانته فى ماله، وإن الله مسائلكم يوم القيامة .

فحينما يكون لأحد من الناس عليك مال، ثم لاترده إليه فإن تلك خيانة عظيمة، ولكن إذا كان عندك علم وهو يطلبك به فلا تعطيه فإن هذه خيانة أعظم لأن ضررها على المجتمع أكبر. فالعلم ليس حكراً على أحد. وإنما هو للناس جميعاً، فالعلم أمانة عند صاحبه يجب ان يؤديها إلى اهلها، ولا يحتفظ بها لنفسه وإلا اعتبر خائناً، ومرتكباً للظلم بحق جميع أفراد المجتمع.

المجتمع الإسلامى يؤمن بتنظيم العلم عبر طرق وسائل عديدة كالجامعات

والمدارس، والمساجد، والمجالس والحفلات وما اشبه، ولكن الإسلام يؤمن ايضاً باسلوب اخر لنشر العلم، وهو اسلوب النشر الذاتى للعلم، اى يجب ان يكون العلم كهذا النور ينتشر الياً دون ان يحتاج إلى دافع لنشره والمجتمع إذا التزم بهذا المنهج وهو ان كلانسان حمل علماً، ونشره فى كل مكان وبكل وسيلة ممكنة فلا يبقى فى المجتمع الإسلامى جاهل واحد، لأن العلم يتدفق إليه من جميع جوانبه، وبهذا الأسلوب يحافظ الإسلام على نقاء المجتمع من شوائب الجهل.

ثانياً: نظام التذكير:

إن تقادم الزمن على الإنسان ينسيه معلوماته، فيخفت نور معرفته، ويكون بحاجة ماسة إلى التذكير لتنشيط معارفه وإحيائها من جديد، وقد كان رسول اللّه Jيستخدم اسلوب الوعظ حتى مع كبار الصحابة كعلى بن ابى طالب 8وابى ذر، وابن مسعود وغيرهم وكان بين حين وآخر يحدث الواحد منهم ويوصيه بامور سبق وان عرفها، ويطرح عليه قضايا سبق ان احاط بها فقهاً وعلماً، وقد جاء فى القران الحكيم امر صريح له بذلك قال اللّه سبحانه وتعالى:

فَذَكِّرْ إنما أَنْتَ مُذَكِّرٌ(21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ : 21 الغاشية

ثالثاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهما اللذان يخلقان الضمير الاجتماعى المتجسد فى رادع ادبى، ذلك ان للإ نسان شعوراً فطرياً بضرورة التوافق مع الناس المحيطين به فهو يلبس ما يلبسه الناس ويتحدث باللغة التى يتحدث بها الناس ويقوم بالأعمال التى يراها الناس صحيحة، ويثير الإسلام هذا الحس، ويوجهه باتجاه تطبيق القيم السماوية، كيف؟

إنك إذا عملت عملا ً سيئاً ثم خرجت إلى الشارع فرايت الناس ينظرون إليك شزراً وكل من راك يؤنبك وعدت إلى البيت لتسمع نفس الكلمات من زوجتك ومن ابيك واخوانك، ثم ذهبت إلى المدرسة فواجهت نفس الموقف من زملائك فمن المستحيل ان تكرر نفس العمل، وقد استخدم الرسول هذا الحس، كعقاب رادع لبعض المتخلفين عن الجهاد، حدث ان ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن الجهاد، فلما عاد رسول اللّه Jمن الغزوة وعلم بخبرهم امر جميع الناس بأن يقاطعوهم، يقول أحدهم: ذهبت إلى البيت فأشاحت زوجتى بوجهها عنى واردت ان اتحدث مع اولادى فلم يصغوا إلىّ وذهبت إلى صديق فتحدثت معه فلم يرد علىّ وذهبت السوق حتى اشترى شيئاً فلم يرض احد أن يبيعنى يقول فضاقت الدنيا علىّ ويقول القرآن الحكيم فى وصفهم:
ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ25 التوبة
لماذا؟

لأنهم وجدوا مقاطعة اجتماعية، ولأن إحساسهم الذاتى بضرورة التوافق الا جتماعى مع الآخرين عصرهم وارهقهم فاضطروا للعودة إلى الطريق الا

جتماعي وتابوا فتاب الله عليهم.

لقد استفاد رسول الله x من هذا الشعور الفطري عند الإنسان فوجهه في هذا الاتجاه، كذلك الإنسان يستفيد من هذه الحالة ويوجهها باتجاه القيم الإسلا مية، فحينما ينحرف احد عن القيم الإسلامية، فإن على الآخرين ان يؤنبوه ويظهروا عدم الرضا عنه حتى يدفعوه بالاتجاه الصحيح، والأمر بالمعروف و النهي عن المنكر واجبان شرعيان معروفان لا نريد إطالة الحديث حولهما.

رابعاً:الإسلام يؤكد على ضرورة العمل باتجاه الجماعة والسنة:

اي الابتعاد عن البدعة التي هي حاجز امام الإنسان يحجب نور الحقيقة، وفي الحديث المعروف عن رسول الله jيقول: عليكم بسنة، فعمل قليل فى سنة خير من عمل كثير في بدعة

فالاتجاه العام للمجتمع لابدّ ان يحفظ ويجب ان يتوافقالإنسان مع ذلك الا تجاه والا ينحرف عن دورة المجتمع وهناك احاديث اخرى فى هذا المجال سوف نبينها فيما بعد إن شاء الله.

خامساً:الإسلام يؤكد على ضرورة تحمل الإنسان مسؤوليته في المجتمع:

يقول الحديث: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته

المسؤولية الاجتماعية غير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إنها تعنى قيام الإنسان بدور الأب بالنسبة إلى الأسرة، وبدور المدير بالنسبة إلى المصنع وبدور القائد بالنسبة إلى المجتمع، فإن القائد لا ينصح ولا يتكلم فقط، إنما يصنع واقعاً، القائد إذا راى مجتمعه عاجزاً اقتصادياً، فإنّه يضع برنامجاً اقتصادياً لكي يرفع عن مجتمعه العجز الاب حينما يخشى على ابنه من الا نحراف فإنّه يزوجه، والزواج ليس كلاماً وإنما هو عمل، وهكذا يفرض الإسلام على أبناء المجتمع الإسلامي أن يتحملوا مسؤولياتهم تجاه الآخرين.

سادساً:الإسلام يضع القوانين الرادعة تجاه المنحرفين:

حينما يصل الانحراف إلى راس المجتمع اي إلى القيادة فحينذاك تجب الثورة، والثورة الرسالية تعنى انك حينما تجد انحرافاً فى المجتمع فعليك ان تسعى لإصلاحه بالكلمة العليا والشجاعة، فإن لم تنفع فبيدك، فإن لم ينفع فبسيفك، فحاول ان تقاتل المنحرفين، وإذا لم ينفع فلا باس ان تقتل نفسك بطريقة او باخرى فى سبيل ان تحدث موجة من المقاومة داخل المجتمع، وسنتحدث عن قوانين الثورة الإسلامية فى مجال اخر إن شاء الله، ولكنى اقول إن هذه القوانين التى تقول بان افضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر، وان الدفاع عن المظلومين والمستضعفين واجب الإنسان المسلم، كما جاء فى الحديث: من رأى سلطاناً جائراً فلم يغير ما عليه بلسانه أو بيده حق لله أن يدخله مدخله .

إن هذه القوانين إنما هي لأجل مقاومة الانحراف في المجتمع الإسلامي.

وفى المجتمع المنحرف لا يمكن ان ينطلق كل الناس لمقاومة الانحراف،

وإنما تبدا المقاومة من بعض العناصر الذين يقومون بدور انفرادى ثم تنتشر المقاومة والمجتمع الذى توجد فيه طائفة يقاومون الانحراف بالعنف كما يوجد فيه حس اجتماعى عام على اساسه يقوم كل الناس بواجبهم فيامرون بـ المعروف وينهون عن المنكر، ويتحملون مسؤولياتهم الاجتماعية، ويقومون بإرشاد الجاهل، وتذكرة الغافل، فإنّه سوف يكون مجتمعاً ذاتى التطهير يكون مثله مثل النهر يطهر بعضه بعضاً وهذا قريب من فكرة التواصى فى المجتمع الـ لإسلامى، كلمة التواصى: تعنى تبادل الوصية، فكل إنسان يصبح متحدثاً بـ الوصية وسامعاً لوصية الآخرين، وكل واحد يشجع الآخر على عمل الخير، حتى ليشبه المجتمع بناء يستند كل حجر فيه على غيره ولا يقوم بمفرده، فهذه العلاقة وهى استناد افراد المجتمع بعضهم إلى بعض موجودة فى النظام الاجتماعى الإسلامى، والتواصى فى المفهوم الإسلامى يعنى ان الإنسان حينما يوصى الآخرين فهو يتحمل مسؤوليته، ولا يقول الناس لا يسمعون كلامى، وحينما يسمع وصية الآخرين أيضاً يتحمل مسؤوليته ويستجيب لوصيتهم.

وكلمة اخيرة ان هذه واحدة من سمات المجتمع الإسلامى المطبق للتعاليم السماوية وإذا وجدنا مجتمعاً ضعيفاً غير متفاعل مع نفسه وغير مقاوم لأعدائه ، فلابدّ ان نعلم انه يفتقر إلى الأنظمة التى وضعها الإسلام من اجل تنقية المجتمع.

الصراع في المجتمع الإسلامي

يتطلع كل مجتمع نحو تحقيق شيء يجسد قضيته وإنما قدرة هذا المجتمع او ذاك تعتمد على مدى فاعلية وسعة القضية التى يحملها فكلما كانت القضية أوسع مدى وأكبر أهمية عند أبناء المجتمع، كانت حيوية المجتمع أكثر. وأما إذا كانت القضية محدودة زمنياً او جغرافياً او كانت غير متبلورة فى ذهنية ابناء المجتمع فإن المجتمع سيصبح أقل حيوية ونشاطاً.

الإنسان ابن أهدافه ولكن كيف؟

الإنسان كفرد كتلة ضخمة من الطاقات الكامنة والإنسان حينما يتصل بالإ نسان الآخر تتضاعف طاقاته وإمكاناته وهكذا يملك المجتمع إمكانات لا يستطيع عقل الإنسان أن يتصور مداها. وأن تفجير طاقات الإنسان الفرد و المجتمع وتحويلها من إمكانات كامنة إلى إمكانات فعلية هذه هى بالذات العملية الحضارية.

الإنسان كان هو الإنسان قبل الوف او ملايين السنين، حينما هبط اول إنسان على وجه كوكبنا ولكن هذا الإنسان بقى احقاباً عديدة فى الكهوف ولم يتحضر إلا عبر ما لا يحصى من السنين والسؤال:

لماذا لم يستطع الإنسان الأول ان يفجر طاقاته وإمكاناته، وبقى يخشى الحيوانات المفترسة، ويلجا إلى الكهوف او الأشجار؟

لأنه لم يجد حاجة فى نفسه، ولأن قدرات الإنسان تتفجر حينما يجد

الحاجة الفعلية عندها، فالحاجة ام الاختراع، وام العلم، والإنسان لا يحركه شيء إلا حينما يكون بحاجة إليه، فاكتشافه للقمح كان بسبب حاجته إليه ليسد به جوعه، واكتشافه لطريقة بناء البيوت كان بسبب حاجته إليها ليحتمى بها من الحر والبرد والشمس والرياح، واكتشافه للسلاح كان بسبب حاجته إليه ليدافع عن نفسه ضد العدو وهكذا، فإن الحاجة هى التى تدفع إلى الأكتشاف و الإبداع والاختراع.

بعض الناس حاجاتهم محدودة، وحينما يصلون إليها تنتهى دوافعهم النفسية، والبعض لا يريد من الدنيا إلا العفاف والكفاف، قرصين من الخبز وطمرين من اللباس، وشبرين من الأرض وكان الله غفوراً رحيماً.ان مثل هؤلاء الناس لا يكونون عادة نشطين، لأنهم يعملون من اجل ان يوفروا هذه الحاجات الطبيعية فتنتهى حاجاتهم وتنتهى بالتالى طاقاتهم التى تحولت إلى إمكانات فعلية.

الحضارات وليدة الحاجة

فى البلاد التى يكون الطقس فيها معتدلا ً ، لم تنم الحضارات بمعدل سريع، والحضارات فى التاريخ إنما نمت فى البلاد الباردة جداً، او فى البلاد التى كانت قريبة من الغابات حسب ما يذكره المؤرخون، وبالتالى حيث كان الخطر فيها على الإنسان كبيراً، ففى تلك الأماكن نمت الحضارات فى العالم لماذا؟

لأن شعور الإنسان بالخطر كان يولد لديه حاجات شديدة تدفعه إلى العمل، اما فى المناطق المعتدلة فكان الإنسان يجد حاجياته ميسرة كالطعام والماوى والراحة، فلم يكن يخشى من اخطار أو من ظروف الطقس الصعبة، ولم يكن يجهد أو يسعى ليقي نفسه شر الحر أو البرد.

والإنسان العادي الذى يكتفى بلقمة العيش ومكان يرتاح فيه، هذا الإنسان لا يكون بانياً لحضارة ولا يتحرك ولا يعمل ولا ينشط لماذا؟

لأنه يجد فى نفسه حاجة إلى التحرك اما الإنسان الذى يحمل هدفاً كبيراً فى حياته ترى انه يتحرك ليلا ً ونهاراً، ويجتهد ويستنفذ طاقاته، ويفجر إمكاناته، ويبدع الإبداعات لأن هناك حاجة نفسية تدعوه إلى هذا العمل. ولذلك يقول القائل: المرء يطير بهمته كما يطير الطائر بجناحيه

فكلما كانت همة الإنسان وتطلعاته عالية، كانت حركته وحيويته وإمكاناته أكبر، هذه هي المعادلة الحضارية في العالم.

هذه الطاقات الكبيرة، وهذا البحر المواج بالإمكانات وهذا العالم الكبير الكامن فى المجتمع إنما يستخرج ويتحول إلى فعل عن طريق الهمة العالمية و التطلعات السامية، وهل هناك تطلع اسمى من حمل رسالة الله على كتف المجتمع؟

إن هذا المجتمع يقول فى نفسه انا مسؤول عن كل إنسان ينام ليله طاوياً على جوع وكل إنسان يقض البرد مضجعه، وكل إنسان يلفه الخوف والحرمان، وانا مسؤول عن المرضى الذين لا يجدون دواءً، وعن اربعمائة مليون إنسان

يعيشون الآن في العالم دون مستوى التغذية التي يحددها الأطباء،ومسؤول عن الشعب الكمبودى حينما يقتل منه مليون إنسان، وانا مسؤول عن شعوب امريكا اللاتينية وعن الهنود الحمر الذين كان البيض يصطادونهم كما يفعلون بـ الحيوانات المتوحشة، وانا مسؤول عن الشعب الإفريقى والذى ينهب موارده بانتظام.هذه مسؤولية كبيرة جداً وهى مسؤولية نشر لواء العدالة على وجه البسيطة كلها. لذلك يتحول الشعور بهذه المسؤولية إلى حاجة نفسية وهدف اجتماعي، وحينما تكون الحاجة النفسية عميقة، والهدف الاجتماعي واضحاً، تتحرك الإمكانات من القوة إلى الفعل، ويتحرك المجتمع إلى تحقيق أهدافه، وبهذه المعادلة يتحول المجتمع إلى مجتمع ديناميكي حيوي.

المجتمع الإسلامى يحمل رسالة، وقضية هذا المجتمع ليست عنصرية او حزبية او قومية إنه لا يفكر فى نفسه وحسب، ولا يفكر فى ان ينتصر على المجتمعات لكى يعيش أفضل عيشة، وتكون له عليهم السلطة كلا. بل إنه يحمل قضية مستضعفى العالم ويندفع نحو تحرير الإنسان من الجهل و العبودية، ومن نوازع الحقد والحسد، ودواعى الكسل والفشل، واغلال المادة ثم يسعى من اجل عمارة الأرض وتحقيق سيطرة البشر على موارد الطبيعة ليستخدمها لمصلحته ومكافحة الفقر والضعف والاستسلام للطبيعة. وإن كانت له زيادة من نشاط أو مال (الأنفال) فإنّه سوف ينفقها فى سبيل قضيته التى هي تحقيق تلك الأهداف النبيلة.

وما اوامر الجهاد، وفلسفة الشهادة، ومفهوم الزهد فى الإسلام، إلا جزءاً هاماً من التركيبة الداخلية لهذا المجتمع، فالإسلام يبنى المجتمع بحيث يكون قادراً على حمل هذه الرسالة العظيمة ومن دون ذلك لا يمكن ان يتحمل المجتمع الإسلامى مسؤوليات هذه الأهداف لأن ذلك يتطلب قدرات هائلة لا توجد في مجتمع إلا إذا بني كل فرد على أساس العطاء والتضحية.

إن الإسلام يامر بالجهاد فى اربعين مورداً فى القران الحكيم، ويامر بالقتال فى اربعين مورداً اخر، والجهاد والقتال كلمتان مترادفتان، بينما يتحدث فى حوالى عشرين مورداً عن الشهادة، وفى موارد كثيرة اخرى يتحدث القران عما يرتبط بذلك، كالإعداد والثبات.

وبالتالى فإن ايات قرانية كثيرة لا نكاد نحصيها تتحدث مباشرة او بصورة غير مباشرة عن الجهاد والقتال، وعن التضحية والإنفاق، وعن تحمل مسؤولية المستضعفين في الأرض، وكلها تهدف إلى بناء المجتمع الإسلامى على اساس حمل هذه الرسالة العالمية، رسالة إنقاذ الإنسان من اغلاله الاجتماعية والنفسية ، ودفعه إلى الإمام باتجاه تسخير الطبيعة لمصلحته.

وحينما نتدبر فى القران الحكيم نجد سورة كاملة تتحدث عن خصائص المجتمع الإسلامي تلك هي سورة النساء.

ولكن دعنا نتدبر في سياق موضوعاتها إنها تتحدث فى البدء عن الأسرة كخلية طبيعية حضارية يقررها الإسلام ثم تتحدث عن العلاقات الاجتماعية، ثم عن المسجد والطهارة والصلاة، وعن كل ما يربط الإنسان باخيه الإنسان، ثم

نجد السورة تتحدث عن الجهاد، ليس فقط جهاد المسلمين في مقابل الأعداء الذين يبادرون بالهجوم المسلح ضد المجتمع الإسلامي، وإنما الجهاد الشامل لحمل رسالة الإسلام إلى كافة المستضعفين في الأرض، وهكذا يتصدر الجهاد في سبيل الله قائمة خصائص المجتمع الإسلامي.

وهذه السورة دليل على واقع التطلع عند المجتمع الإسلامي وانه ليس مجتمعاً منغلقاً على نفسه، مهتماً بمصالحه الذاتية، وإنما هو يحمل رسالته إلى العالم، ولا يفكر في نفسه بقدر ما يفكر في الآخرين كما تبين سورة النساء في بعض اياتها الكريمة ضرورة الجهاد، والقيام بالعمل المسلح ضد الطغاة الذين يريدون خنق الإنسان وكبت حرياته، وبالتالي استغلاله ان القران الحكيم يقول للمسلم عليك ان تتحمل مسؤولياتك، وتنهض لمقاومة هؤلاء الطغاة تدبروا في الآيات التالية:

يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أو انْفِرُوا جَمِيعاً 71 النساء

هنا يامر الإسلام بالإعداد ويقول استعدوا للقيام بالعمل المسلح وللمسيرة الجهادية، ولا تبقوا في حدودكم تفكرون في بلدكم وانفسكم فقط وليس بـ الضرورة ان يكون هذا النفر جماعياً هل كل الدولة وكل المجتمع الإسلامي يتحرك! كلا، فربما تكون الظروف لا تسمح لكل الناس المتواجدين في الدولة ا لإسلامية بالتحرك.انئذ يجب عليك أن تأخذ مجموعة من أخوتك وتنفر معهم..انفروا ثبات أو أنفروا جميعاً أي انفروا كأفراد أو كأمة.

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِن أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّه ُ عَلَيَّ إِذ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (72) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللّه ِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً 73/72 النساء

هاتان الآيتان تبينان حالة الأفراد الشاذين لا يريدون تحمل مسؤولياتهم الإ نسانية بل يريدون لمجتمعهم الانغلاق ويريدون موارد بلدهم ان تكون لأنفسهم فقط.

ولكن هؤلاء ليسوا منكم، انتم المؤمنون يجب ان تتحركوا وتنفروا من اجل ماذا نتحرك؟ من أجل ماذا ننفر يا ربنا؟ يجيب القرآن قائلا ً:

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّه ِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّه ِ فَيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً . 74 النساء

هذه هي فلسفة الإنسان المؤمن، ان يحمل رسالته على كتفه ويتحرك في العالم ليقاتل في سبيل اللّه، لله وحده وليس لأى شيء اخر، ويبيع نفسه لله لأ نه يتعامل مع اللّه في صفقه رابحة على اساس ان يدفع نفسه ويأخذ من اللّه الجنة ويقول اللّه سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم: غير مكتمل لا ندري لماذا

فاعلية المجتمع الإسلامي

تحرك المجتمع وعطاؤه يكون بحجم الرسالة التي يحملها، وبمقدار الشعور باهميتها والإحساس بوجوب تحملها، وهذا من ابرز الأسباب والعوامل المؤدية

إلى فاعلية المجتمع الإسلامي وحيوته، ولكنه ليس العامل الوحيد، وإنما هناك عوامل أخرى أيضاً.

وقبل إن نبين تلك العوامل لابدّ ان نعرف بان بياننا لهذه العوامل يستهدف أمرين:

الأمر الأول:

قياس انفسنا ومجتمعاتنا بما يجب ان يكون عليه المجتمع الإسلامى لكى نعرف ما إذا كان مجتمعنا الذي ننتمي إليه مجتمعاً إسلامياً فعلاً ام انه لا يزال بعيداً عن سمات المجتمع الإسلامي.

الأمر الثاني:

هو السعى من اجل مزيد من الاقتراب إلى قيم المجتمع وصفاته، وبالتالى السعى من اجل تطبيق الإسلام وبناء الحضارة الإسلامية، وإقامة الحكومة الإسلامية التى هى تجسيد لحكم اللّه فى الأرض، وذلك ليس عن طريق الشعارات والتمنيات والإدعاءات وإنما عن طريق إيجاد ذلك المجتمع الإسلامى المتكامل ولو على نطاق صغير وضمن أفراد قلائل.

كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّه ِ 249 البقرة

الطاعة والفاعلية

ومن ابرز العوامل التى تؤدى إلى حيوية المجتمع الإسلامى، وبالتالى تفوقه على سائر المجتمعات ومقدرته الذاتية على الانتصار عاجلا ً ام اجلا ً على اعدائه، هو وجود الطاعة فى هذا المجتمع والطاعة هى النابعة من التسليم الذاتى والقناعة الواعية وقهر الشهوات والذاتية، والأنانيات وتبديلها بطاعة العقل وطاعة من يمثل العقل ويجسده، اى طاعة اللّه، وطاعة من هو خليفة اللّه في الأرض وهو الإمام أو نائبه.

لماذا وكيف تؤثر الطاعة بهذا المفهوم، وعلى هذا المستوى فى حيوية المجتمع وفاعليته وحركته الذاتية؟

قبل الإجابة على هذا السؤال نضرب لكم مثلين من واقعنا الذي نعيشه.

المثل الأول

المزارع التي تروى بالأساليب الحديثة حيث توضع انابيب لنقل المياه من منابعها إلى الأشجار والمزروعات فتعطى كل شجرة وكل نبتة المقدار المناسب من الماء فى هذه الحالة ونحن لا نحتاج إلا إلى المقدار الكافى الذى تحتاجه الشجرة من الماء بينما الطرق التقليدية لرى المزروعات والسقى تضطرنا إلى صرف حوالى 70 % من الماء تتسرب إلى الأرض تتبخر فى الهواء ليصل فقط 30% من أصل المياه إلى الأشجار،ماذا يعنى هذا المثال؟ إنه يعنى أن تنظيم الموارد وتوجيهها ومنع التلف والخسارات ضماناً لتحقيق اكبر قدر من الانتاج بأقل قدر ممكن من الطاقة.

المثل الثاني:

ناخذه من واقع الرياضة، فالذين يتدربون على العدو يشرف عليهم مدربون يحددون لهم حركات أيديهم وارجلهم وطريقة جريهم، فلكى يخطو الرياضى الخطوة باى طريقة يشاءها قد يكلفه ذلك المزيد من الطاقة ويعطيه القليل من الحركة، حينما يقول له المدرب، ارفع رجلك هكذا وضعها هكذا، ووجه حركات يديك هكذا،وبالتالى يتمكن عن طريق استخدام فيزياء الحركة، من ان يندفع إلى الإمام بسرعة كبيرة مع بذل طاقات قليلة.

هذان المثلان البسيطان يبينان لنا بان تنظيم الطاقة، اى ضبط قناة توصل الطاقة من مواردها، إلى المكان الذى يجب أن تصرف فيه من اكبر عوامل النجاح وهذا هو الطريق المستقيم الذى يامر به الإسلام، فإنك حين تريد ان تذهب إلى مكان ما تبحث عن جغرافية الأرض، ولكن تختار الطريق الأقرب، لأنه لا داعى ان تنفق وقتاً وجهداً إضافياً فى الوصول إلى هدفك ما دام بإمكانك ان تصل بوقت وجهد قليلين فإن اللّه عز وجل قد نظم المجتمع بحيث يتمكن ان يعطى الكثير من الإنتاج ببذل القليل من الطاقة،وذلك عبر سنن وقوانين نضرب فيما يلي أمثلة لها:

حسن الظن:

فحينما تحسن ظنك باخيك المؤمن، وتستمع إليه استماع واع وليس استماع ممار ومجادل، فإن هذا يساعد على فهمك له وفهمه لك بصورة ميسورة وسريعة ولكن الكثير من الوقت يذهب منا فى سبيل إقناع بعضنا بعضاً، ولو كان حسن الظن موجوداً بيننا لوفرنا هذا الوقت الإضافي.

ضبط الوعد:

لضبط الميعاد..اثر بالغ في توجيه المجتمع وتقليل الطاقات المصروفة ومضاعفة الانتاج،وكثير من الأوقات يذهب سدى لعدم ضبط الوقت والوفاء بـ الوعد.

إن القرآن الحكيم يمدح النبي إسماعيل 8لأنه كان صادق الوعد.

واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد 54 مريم

فيذكر اللّه بأن اسماعيل 8قد تواعد مع أحد فى مكان فوقف ينتظره فيه، اما ذلك فقد نسى الوعد وذهب لأمره، وبعد سنة مر ذلك الرجل بنفس المكان وإذا به يجد النبى اسماعيل 8واقفاً ينتظره، فقال لماذا أنت واقف هنا؟ قال أو لم تواعدنى ان ابقى هنا إلى ان تاتى لمقابلتى؟ قال منذ سنة وانت واقف فى هذا المكان؟ قال:نعم، إن اللّه أمرنا أن نفي بالوعد.

ج.الوفاء بالعهد:

لولا الثقة الاجتماعية، ولولا ان يقوم كل إنسان بدروه فى إيفاء عهوده مع الآخرين، واداء امانات الناس لديه، إذا لم يبق فى المجتمع شيء يمكن ان يربط ابناءه مع بعضهم البعض، ولو كان الوفاء بالعهد شيئاً عاماً بين الناس لما احتجنا إلى هذه الطاقات الهائلة التى تذهب هدراً، بسبب الروتين الذى نراه فى

الدوائر الحكومية وغيرها.

د.القيادة المطاعة:

اهم كل هذه الأمور، هى القيادة المطاعة بإذن الله، التى تستطيع ان تستقطب طاقات الناس وتعبئها وتوجهها وتحقق مكاسب هائلة بعمل بسيط نسبياً إذا قسناها مع تلك المكاسب، كيف ذلك؟ قد تجد فى سورة النساء إجابة على هذا السؤال علماً بان هذه السورة هي التى سبق وان قلنا بانها مخصصة لبيان التجمع الإسلامي وسماته، يقول القرآن الحكيم ابتداءً من الآية 64:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّه وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا انفسهم جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّه وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّه تَوَّاباً رَحِيماً (64) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمّ لا يَجِدُوا فِي انفسهم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (65) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أو اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً (66) وإذا ل اتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (67) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (68) وَمَنْ يُطِعِ اللّه وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّه عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أولئك رَفِيقاً (69) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّه وَكَفَى بِاللّه عَلِيماً من آية 64 إلى آية 70 النساء

وبالتدبر فى هذه الآيات الكريمة، نجد عدة قضايا هامة فى غاية المتانة و الدقة لا يستطيع النظر العابر ان يلاحظها، يقول الله سبحانه وتعالى بان وجود الرسول هو الذي يمثل القيادة ليس للبركة فقط وإنما للطاعة بصورة أساسية.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّه 64 النساء

ولو كان الرسول موجوداً ولم يطع، فوجوده وعدمه سواء ولن ينفع الناس شيئاً، وكذلك كل من يمثل القيادة الشرعية.

لا تكتف ان تقول انا انتمى إلى الجهة الفلانية واتبع فلاناً، فهذا لا يكفى فهل انت مع فلان وتتبعه، ام تكتفي ببركة اسمه، وهل انت مع الجماعة الكذائية وتندمج معهم ام تكتفي بشعاراتهم، فالانتماء النظرى من دون الطاعة الفعلية مرفوض في المفهوم الإسلامي.

والقرآن يضيف إلى هذه الحقيقة فكرة أخرى حيث يقول:

انَّهُمْ إذ ظَّلَمُوا انفسهم جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّه وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّه تَوَّاباً رَحِيماً 64 النساء

اى ان القيادة الإسلامية يجب ان تكون مطاعة إلى درجة ان الإنسان حينما يقصر فى واجباته الدينية، ولا يطبق برامج هذه القيادة، فلا يكفى ان يستغفر الله وحده وإنما عليه أن ياتى إلى القيادة ويستغفر الله عندها، حتى يستغفر له القائد من تلك الذنوب، وعند ذلك يكون احتمال الغفران وارداً، انظروا.. حتى مغفرة الذنوب والتى تنبع من فضل الله سبحانه ورحمته فإن القرآن يربطه بإذن القيادة، بعدئذ يقول، الطاعة المطلوبة ليست الطاعة القشرية والخارجية

فقط، وإنما يجب أن تكون نابعة من قناعة نفسية، ومن رضا القلب.
فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمّ لا يَجِدُوا فِي أنفسهم حَرَجاً ممّا قَضَيْتَ (أى ضعفاً وقلقاً وعدم رضا) وَيُسَلِّمُوا تسْلِيماً أى تسليما (نفسياً لأوامر القيادة). 65 النساء
ثم إن الطاعة للقيادة يجب الا تكون فى القضايا البسيطة فقط، ولا تكون فقط فى تنظيم طاقاتك التى فجرتها حتىالآن فى نفسك واعطيتها من ذاتك، وإنما يجب أن تكون من أجل أن تبلور شخصيتك، ومن القيام بالأعمال العظيمة التى لا يمكنك القيام بها لوحدك، وإنما تتشجع بامر القيادة على تنفيذها.
وَلَوْ أنا كتَبْنَا عَلَيْهِمْ أنِ اقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ او اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أنّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدّ تثْبِيتاً 66 النساء
هذا هو مستوى طاعة القيادة، فالقائد لو قال لك اقتل نفسك او اخرج من بلدك فلا تتردد، وإن الذين يترددون عن تطبيق الأعمال العظيمة التى تامرهم بها القيادة،يعبرون بذلك عن اهتزازهم وضعف شخصيتهم وفى نهاية امرهم سيصابون بالشر والضر اما الذين يتبعون القائد حتى فى الأوامر الصعبة التى تحتاج إلى أقصى حدود التضحية فإن عاقبتهم ستكون خيراً، (لكان خيراً لهم واشد تثبيتاً)، أولا هذا خيراً ثانياً هو ثبات واستقامة على الطريقة.
ثم يبين لنا القرآن جانباً آخر: وَإذاً لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لدُنّا أجْراً عَظِيماً (67) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (68) وَمَنْ يُطِعِ اللّه وَالرّسُولَ فَاولئِكَ مَعَ الذِينَ انْعَمَ اللّه عَلَيْهِمْ مِنَ النّبِيّينَ وَالصِدّيقِينَ وَالشّهَدَاء وَالصّالِحِينَ وَحَسُنَ اولئك رَفِيقاً (69) ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللّه وَكَفى بِاللّه عَلِيماً 67 68/70 / 69 النساء
بالتدبر فى هذه الآيات نعرف ان هذا المستوى من القيادة سوف يحقق للمجتمع ثلاثة مكاسب:
أولا: حينما يكون المجتمع بهذا المستوى من الطاعة فإنّه سوف يتقدم، ويشمله من الله سبحانه وتعالى فضل كبير.
ثانياً:ان هذا المجتمع سوف يكون على الطريقة السليمة وسيكون وعيه وعلمه ومعرفته فى مستوى من النضج والبلورة بحيث تعصمه من الانزلاق والا نحراف وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً
ثالثاً:هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فإن هذا المجتمع سيحشر S مع النبيين و الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاًR ثم فى الآية الأخيرة، يذكرنا القران الحكيم بان مستوى الطاعة ليست قضية الإدعاء وإنما قضية يعلمها الله سبحانه وتعالى Sذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماR
نستوحى من هذه الآيات الكريمة الإجابة على ذلك السؤال الذى سبق وان طرحناه، وهو:
ما هى العلاقة بين فاعلية المجتمع وحيويته وبين الطاعة التامة للقيادة من

جهة ثانية؟

يبين لنا القرآن الحكيم في هذه الآيات تلك العلاقة بالنقاط التالية:

أولا ً:ان كثيراً من طاقات المجتمع تذهب هدراً، لعدم وجود تنظيم بتكاملية هذه الطاقات، فبدون ذلك التنظيم، وحتى مع وجود العاملين المخلصين الذين يقدمون أقصى ما لديهم فى سبيل المصلحة العامة، فإن المجتمع غالباً لا يجنى ثمار جهوده،فقد يقوم احدهم مثلا ً بتاليف كتاب عن حياة الرسول الأعظم x، وبدل أن يقوم آخر بالتأليف حول حياة النبى إبراهيم فإنه يذهب ويكتب كتاباً فى ذات الموضوع، وهذا يسبب تكراراً وتبديداً للطاقات التي كان ينبغي أن تسير في خط متكامل.

وهناك نتائج هامة لهذا التكامل فى عصرنا الراهن ذلك ان الحضارة الحديثة مبنية على اساس التكامل، فمن دونه لم يقدر ان يشترك ثلاثمائة الف عالم فى صنع (أبو لو) لغزو القمر فلولا التكامل الذى هو نتيجة التنظيم،ولولا التنظيم الذي هو نتيجةالطاعة لما تكاملت جهود هؤلاء العلماء وعلومهم.

القيادات الإسلامية توفر للمجتمع الإسلامى المطيع لها تكاملية الجهود و الطاقات التى تذهب هدراً فى الصراعات الاجتماعية. فكيثراً من طاقات المجتمع تذهب هباء بسبب تحول التنافس البناء فى هذا المجتمع إلى صراع عدوانى. كل جناح وكل جبهة وكل حزب يحاول إيقاف الجناح والجبهة و الحزب الآخر، فيصبح المجتمع اشبه بسيارتين تتدافعان فى اتجاهين متضادين وكلما تتحرك هذه السيارة فإنما تكون حركتها فى سبيل إيقاف حركة السيارة الثانية، فالحركة تذهب هدراً والسيارتان واقفتان في مكانهما.

انظروا..إلى العالم الإسلامى.. وانظروا إلى المجتمعات التى تسمى بالإسلا مية وهى ابعد ما تكون عن الإسلام ثم فكروا كم هى الطاقات التى تبدد فى الصراعات الداخلية، سواء الصراع الذى يبدأ بين زميلين فى المدرسة، او فى العمل،او بين زوج وزوجته او الصراع الذى يكبر ويكبر ويكبر ليصبح بين تيارين اجتماعيين أو بين دولتين.

إن الصراعات الاجتماعية تبدا صغيرة، تبدا بسبب نفوس متوترة تتفجرضمن صراعات اجتماعية كبيرة، والإسلام يريد ان يقضى على جذور الصراع الهدام ويحوله إلى تنافس بناء، فيقول القرآن الحكيم:

فَلا َ وَرَبِّكَ لا َ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمّ لا َ يَجِدُوا فِى أنفسهم حَرَجاً ممّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تسْلِيماً 65 النساء

(أى فيما اختلفوا فيه، وبعدما حكمت يكون هناك جو من الراحة النفسية و السكينة القلبية،) ثُمّ لا َ يَجِدُوا فِى أنفسهم حَرَجاً ممّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تسْلِيماً 65 النساء

إذاً من العوامل الأساسية ان تتكامل جهود المجتمع الإسلامى الذى يتمتع بهذا المستوى الأرفع من الطاعة للقيادة، ولاتتناقض مع بعضها البعض، وان

تتحول صراعاته إلى تنافس بناء متكامل، وهذا يوفر للمجتمع المزيد من الطاعة، وحينما تتوفر هذه الطاقات وتحفظ من التشتت فى إيقاف بعضها البعض، فإنها تكون قادرة على بناء حضارة رسالية.

ثانياً: الطاعة للقيادة توفر حالة من التركيز الشديد القادر على اختراق أعتى المشاكل والعقبات التى تحول بين المجتمع وانطلاقته الحضارية، فانظروا..إلى نور الشمس أنه موجود فى كل مكان ولكنه لا يستطيع أن يسبب ناراً او يحرق شيئاً، ولكن ضع هذا النور بالذات فى زجاجة مقعرة وركز النور من خلالها على شىء معين، تجد انه يسخن ويحترق وهذه الفكرة استخدمها اليونان القدماء فى إحراق سفن الأعداء، وبصفة عامة فإن تركيز اى شىء يسبب نتائج غير النتائج المتسببة من نفس الشيء في غير حالة التركيز.

إن المجتمعات المتخلفة الآن فى العالم تستحوذ فكرة الخطة الخمسية تستخدم بعض هذه العقد، فتركز جهودها وتشد الأحزمة لمدة خمس سنوات ثم تلتحق بعد ذلك بركب الحضارة، ففى الخطة الخمسية الروسية، ركز الاتحاد السوفياتى فيها جهود شعبه، وبدا مسيرته الحضارية التى نراها الآن،وكذلك المانيا واليابان قبل الحرب وبعدها ومختير من بلاد العالم إنما استطاعت ان تصل إلى مستوى متقدم من الحضارة بسبب تركيز جهودها لفترة بسيطة، ولكن لا يزال ثلثي العالم يعيشون الآن حالة التخلف والحرمان.

العقد الحضارية

لماذا اولا ً يملكون الطاقات والموارد؟ او ليسوا بشراً كغيرهم؟

بلى ولكنهم يفتقدون شيئاً واحداً هو تلك القدرة القيادية التى تستطيع ان تعبىء طاقات الأمة في لحظة واحدة وفى اتجاه معين وتتغلب بها على العقد الحضارية لهذه العقدة الموجودة فى الأمم بالذات فى المجتمع الإسلامى والتى اصبحت عقبة فى سبيل تقدم المجتمع ورفاهيته ووحدته، ومن الممكن حلها عن طريق القيادة وهذه تشير إليها الآية الكريمة التي تلوناها آنفاً والتي تقول:

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ او اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا ّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً 66 النساء

إن هذه الموعظة خدمة لهم، وخير لأنفسهم فهى تدفع المجتمع إلى ان يقاوم ضغوط العدو ويصمد أمامه.

مثلا ً المجتمع المسلم فى إيران، والذى استطاع خلال ما يقرب من ثلاث سنوات ان يقاوم ضغوط أمريكا ومن يدور في فلكها، إن هؤلاء الذين حاولوا ان يقوموا بالإفساد والتخريب عن طريق إثارة النعرات الطائفية والعرقية جعل المسلمون الإيرانيون يصمدون امام هذه المشكلة وضحوا، وذهبوا إلى كردستان وحاربوا فى ظروف حرجة جداً وقدموا من دمائهم وافلاذ اكبادهم في حين ان الجيش الإيرانى لم يقدم شيئاً لأنه كان لا يزال أنئذ جيشاً طاغوتياً.

لقد هب الشباب المسلم..الحرس الثورى، واللجان الثورية، وجهاد البناء،

فذهبوا وجاهدوا جميعاً وحزت رؤوس بعضهم ولكنهم صمدوا، ثم كانت قضية تفجيرات القنابل، وبعث المخربون من العراق إلى مناطق ابار البترول ولكن المسلمين صمدوا ثم كانت قضية ربط الخيوط الاستعمارية ببعضها، ومحاولة إيصال جماعة من امثال احمد مدنى، وحسن نزيه إلى مراكز قيادية، فصمد المسلمون امام هذه المؤامرة ايضاً، وصمدوا امام التخريب في الدوائر، ثم صمدوا أمام الحرب الـبعثية،والحصار الاقتصادى، واستمروا على صمودهم هذا ليحرزوا استقلالهم وإذا استمروا على هذه الحالة لسنين قادمة اخرى فانئذ يتعب الأمريكيون والأجانب وعملاؤهم، وييأسوا من هذا الشعب فيكفوا أيديهم ويموتوا بغيظهم، وانئذ فقط تحصل إيران على الاستقلال الحقيقى، وتبقى حرة لمئات السنين.

اما هذا العبد الضعيف الإرادة،المتهاوى الشخصية الجبان الذى يسمى نفسه بانور السادات، لم يصمد لمدة ايام امام الضغط، فلو انه صمد قليلا ً امام الثغرة التى فتحها الإسرائيليون فى حرب اكتوبر 1973م فى دفرسوار لما اضطر إلى هذه الاتفاقية المذلة وهى اتفاقية كامب دايفيد، وإلى ان يبيع مصر وشعب مصر والشعوب العربية لإسرائيل وأسيادها.

لماذا انهارت مصر فى مواجهتها مع امريكا فى حين صمدت إيران ومرغت انف امريكا في التراب؟

الفرق بين الشعبين يكمن فى القيادة، هنا فى إيران قيادة الإمام الخمينى قدس سره وهناك في مصر عميل يحكم الناس باسم أنور السادات.

إن المشلكة فى المجتمع الإسلامي، وفى اى مجتمع اخر، ليست فى القيام با لأعمال الروتينية اليومية وإنما المشكلة الحقيقية تتجسد فى وجود عقبة كاداء امام المجتمع عليه ان يتحداها وان يتغلب عليها عن طريق تركيز جهوده، و القيادة الرشيدة المطاعة هى التى تستطيع ان تركز الجهود وتعبئها فى لحظة واحدة وباتجاه واحد، لتحطم بها العقد التي تشل المجتمع وتكبله.

معرفة الفرد طريقنا إلى معرفة المجتمع

لكى ندرس المجتمع لابدّ ان نلاحظ الفرد، ليس لأن الفرد ابوالمجتمع إذ قد يكون المجتمع اباً للفرد، وإنما لأن دراسة الفرد طريقة لدراسة المجتمع ومفتاح لفهم المجتمع، ذلك أن الفرد مرآة للمؤشرات الاجتماعية. وبدراسته نستطيع أن نفهم المجتمع فهماً أكبر.

الفرد قد يدرس دراسة خارجية، وقد يدرس دراسة ذاتية.الدراسة الخادجية هى أن ندرس فرداً وتقيس المؤثرات التى تتفاعل فى كيانه. وأما الدراسة الذاتية فهى أن تدرس نفسك باعتبارك كياناً شاعراً واعياً، وتقيس فى ذاتك المؤثرات التي تتفاعل فيك.

وهنا يطرح السؤال الذي يحاول علماء الاجتماع معالجته إلى جانب سائر الأ سئلة. بينما يركز علماء النفس والأخلاق أنظارهم عليه وبتعبير آخر، كلا الفريقين يطرح هذا السؤال بيد ان البعض يطرح باعتباره يدور حول موضوعه الرئيسى، وهؤلاء هم علماء النفس والأخلاق والتربية الذين يدرسون الفرد باعتبار أن الفرد هو موضوعهم الرئيسى. بينما الفريق الثانى وهم علماء الا جتماع يطرحون السؤال،ضمن الأسئلة الأخرى التى تطرح فى مجال علمهم، و السؤال هو:

ما هي العوامل المؤثرة في كيان الفرد؟

هنالك عوامل عديدة.. فعامل المصالح، وعامل الاقتصاد، وعامل التاريخ و الوراثة، وعامل الجغرافيا والبيئة، وعامل الشخصية وعامل الإرادة والقيم، هذه العوامل التى يلخصها الإسلام فى كلمتين.. عامل العقل وعامل الجهل، وللعقل جنود سبعون، كما للجهل جنوده السبعين.

وهناك ملاحظتان في هذا الحقل..احداهما علمية والأخرى رسالة.

الملاحظة العلمية:

فهى ان العلم قد بلغ الآن مرحلة من النضج بحيث اضحى يعترف بكل العوامل المؤثرة في توجيه الإنسان الفرد ومن ثم المجتمع، من هذه العوامل التى سبق ان اشرت إليها، ابتداء من عامل الوراثة، وانتهاء بعامل الطقس والأ نواء، ولم يعد العلم اليوم يعترف بالمذاهب ذات البعد الواحد الجامدة التى تركز نظرها فى واحد من العوامل وتعتقد أنها العامل الوحيد، او البعض الذين يبحثون أبداً عن دور الطبيعة والجغرافيا.

كلا، فالعلم الآن يعترف بكل العوامل، وقد وصل مرحلة من النضج العقلى

حتى أخذا يتواضع لكل المذاهب 0ويستوحى منها الأفكار والمعلومات الصحيحة دون تطرف أو تحيز. ولكن كعقبة كأداء لاتزال أمام علماء الاجتماع لا بدّ ان يبحثوا طويلا ً حتى تجاوزها هى معرفة نسبة تاثير هذا العامل او ذاك في صناعة المجتمع.

والواقع ان هذه العوامل ليست مؤثرة تاثيراً متساوياً لا من حيث ذاتها، ولا من حيث افرادها، فمن ناحية ذاتها نجد ان عامل الاقتصاد اقوى تاثيراً من عامل الجغرافيا.. فمثلا ً الجزيرة العربية لها جغرافية معينة وأجواء خاصة ك الحر الشديد والبرد القاس وهبوب الرياح السامة، والرطوبة القاسية على شواطئ البحار.هذه الأجواء تؤثر فى بناء شخصية مجتمع الجزيرة، فيصبح مجتمعاً عنيفاً متحدياً يعيش فى المدن الصغيرة وما أشبه. ولكن حينما تفجر البترول فى ارض الجزيرة، وتغيرت حالة المعيشة،تغيرت تبعاً لذلك علاقة الإ نسان بالطبيعة، فبينما كان الإنسان سابقاً محكوماً بالطبيعة اصبح بفضل البترول مسيطراً على الطبيعة. ولهذا السبب نجد أن إنسان الجزيرة قد تغير تغيراً كلياً.

فبينما كان في السابق يمتطى الجمل الذى يعتبره سفينة الصحراء، اما الآن فإنه يركب احدث السيارات او الطائرات، ويتحرك عبر طرق اوتوستراد معبدة، وينتقل من عاصمة اوروبية إلى مصيف امريكى إلى منتجع تايلاندى، وبسبب هذه السياحة الواسعة الأبعاد، تتغير نفسيته وطباعه.

فمثلا ً اختيار ابناء هذا المجتمع للألوان، إذا اردنا ان نفهم المجتمع من خلا ل هذا الاختيار، نجد فى خلال ثلاثين عاماً كيف ان الألوان القديمة كانت الواناً شديدة وصارخة، واما الآن فتختار الألوان الهادئة، دليلا ً على ان النفسية الشديدة العنيفة التى كانت تواجه الطبيعة بعنف، وتواجهها، الطبيعة بحدة، هذه النفسية تغيرت بفضل البترودولار، والآن هى تحب الطبيعة وتختار الألوان الهادئة.

إذا فإن تغير الاقتصاد يؤثر على الطبيعة المتغيرة وليس العكس.

فحينما نقول إن من عوامل التاثر في الفرد، الاقتصاد والطبيعة، فلا يعنى ذلك ان تاثير الاقتصاد يكون بنفس نسبة تاثير الطبيعة او العكس، كلا، فبعض العوامل مؤثرة (100 درجة) وبعضها (90 درجة) وبعضها (80 درجة) وهكذا وهذا ما نسميه التغير الذاتى او الاختلاف الذاتى بين العوامل، وهناك اختلاف فردى، أى: إن كل مرحلة وكل لحظة تاريخية محكومة بأحد العوامل أكثر من سائرها.

فمثلا ً عامل الشخصية، وخصوصاً إذا اردنا ان نفهم هذا العامل وقلنا عامل شخصية القائد. لا ريب أن للقائد وصفاته الشخصية وعوامله النفسية تأثيراً ملحوظاً على طبيعة المجتمع. وربما إذا كان قائد الثورة الإسلامية شخصاً غير الإمام الخمينى، لكانت الثورة اخذت مساراً اخر، فللشخصية اثرها، إذا كانت الشخصية قوية فأثرها فى المجتمع يكون 100% وإذا كانت أضعف يكون 90 % فى المائة وهكذا إلى أن يصل أثر الشخصية إلى درجة لا يكاد

يكون يبين.

وكذلك عامل الاقتصاد، فللاقتصاد اثره، ولكن بعض انواع الاقتصاد اثاره حادة، مثلا ً الاقتصاد الكوري الجنوبي تاثر من قبل الحرب الكورية وبعدها بسبب الانتماء إلى المعسكر الغربي وتم تطوير صناعتهم عن طريق الدعم الغربي لها. والآن معدل النمو في كوريا الجنوبية يبلغ 12% إلى 13% سنوياً وهذا معدل مرتفع جداً كما أنّ أجور العامل هناك ترتفع بمعدل 20% إلى 30% سنوياً وهذا يؤثر تأثيراً اقتصادياً في المجتمع.

ولكن قد تجد بلداً مثل ٍ ليبيا، إلى الأمس القريب لم يكن فيه اى نوع من انواع البترول، او قليلا ً من الثروة ثم تفجرت آبار البترول وانهمرت الثروة، إذن الاقتصاد هنا يؤثر، ولكن لأن التغير كان كبيراً فالتاثير ايضاً يكون كبيراً، لأن العوامل ليست كلها من ناحية مقدرتها الفردية بشكل واحد.

مراحل الحضارة

تتجمع العوامل المؤثرة فى الفرد كما تتجمع فى المجتمع لتصنع وجه التاريخ، بالإضافة إلى عامل الإرادة والقيم. وبالتالى تكون نظرتنا إلى التاريخ مستوحاة من نظرتنا إلى تلك العوامل التى أشرنا إليها مع تينك الملاحظتين السابقتين التى كانت اولاهما مرتبطة بالعلم والثانية بـ الرسالة.

الدورة التاريخية

الدورات التاريخية التى نراها عادة عبر التاريخ البشرى، حيث إن الأمم تنشا ثم تتقدم ثم تنكمش، ثم تتحدى ثم تنكسر، ثم تتقدم ثم تنبعث لفترة قصيرة ثم تنتهى.هذه الدورات التى غالبا ما نجدها صحيحة فى الحضارات لا تقع بطريقة واحدة فى كل مكان، ولا يمكن أن نعتبرها قضية مطلقة، كالقضايا الرياضية التى قوامها القوانين المجردة والكلية، مثلا ً (2×2= 4دائما) لدورات التاريخية ليست هكذا، وإنما تحتفظ بـ الجانب الإنسانى فيها وهو الجانب الإرادى المتميز، حيث إن كل عامل يؤثر فى ظرف تاريخى معين تاثيراً بمقدار مختلف عن تاثيره فى ظروف أخرى. ويمكننا أن نقسم المراحل الحضارية للتاريخ بصفة عامة إلى:

أولا:المرحلة البدائية.

وهي عبارة عن مجموعة من البشر اجسادهم مجتمعة وافكارهم متفرقة، لا يحملون رسالة ولا يطمحون لتحقيق هدف، ولا يبحثون عن تقدم، ولا يعنيهم إلا الحصول على ضرورات معاشهم.هذه المجموعة البشرية تبقى هكذا عبر الوف السينين، تعيش فى عزلة عن العالم وعن العلم، كالعرب في الجاهلية، وشعوب أخرى غيرهم.

ثانيا: المرحلة الرسالية.

ثم تنبعث فيها فكرة رسالية، عادة ما تكون مستوحاة من نبي بعث إليهم مباشرة، أو رسالة نقلت إليهم عبر وسيط بشرى من غير الأنبياء. وحين تنبعث فيهم هذه الرسالة، فإنها تقوم بدور معين، ذلك الدور هو إشعارهم بوضعهم المتردى الذى يتوجب عليهم تغييره وإعطاؤهم رسالة فوق تطلعاتهم المادية الضيقة، حيث يتشبثون بها ويتمحورون حولها،

ويفجرون طاقاتهم من أجل تحقيقها. وأخيرا تحدد لهم برامج ومناهج، وسلوكيات واحكاما وانظمة معينة يسيرون عليها، وهنا تغرس النواة الأولى للمدنية التي لا تلبث أن تنمو حتى تحقق مدنية جديدة.

ثالثا: مرحلة الاصطدام.

هذه المدنية تصطدم أول ما تنمو بما حولها، الأفكار والمجتمعات صدمة عنيفة، حتى أنّ هذه الصدمة قد تؤثر فيها تاثيرا سلبيا، فتنهزم أمام جيوش الأعداء، وتصاب بنواقص كثيرة. وجاء في القران الحكيم: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(.

الآية الكريمة تشير إلى المشاكل التي تنشأ من بعد نمو الحضارة وتكون على أساس الرسال. وقد تسبب هذه الصدمة وهذا التحدي انكماشا في هذه المدينة حتى ليبدو للذي يرى الصراع من بعيد ان هذه الرسالة وهذه الحضارة التي بنيت عليها قد انتهت، ومالها من فرصة للانتصار على اعدائها، وذلك بسبب الظروف الصعبة التي تعيشها، والاختلافات الداخلية، وأسباب أخرى. وفي هذه المرحلة تتميز هذه الأمة التي تعيش عبر الرسالة بروح الغرورالسيالة المفجرة، والشجاعة البالغة التي تعطي هذه الروح الوثوب في سبيل التضحية والفداء، كما في هذه المرحلة، لا يهتم الناس بالأسلحة والتنظيم، وبتهيئة الوسائل والحصول على المكاسب المادية باستخدام الوسائل والأساليب العلمية والطبيعية، بل يتحركون في الأرض هكذا ارتجاليا وبكل صراحة، يحملون الكتاب بيد، و السلاح باليد الأخرى، زادهم إيمانهم وشجاعتهم.

رابعا: مرحلة المراجعة والتنظيم.

ولكن هذه الرسالة لا تلبث ان تجدد نفسها بعد سنين قد تطول وقد تقصر، ويتجدد إيمان اتباعها بها، لأنهم بعد ان ينهزموا نوعا ما امام الصعوبات وسيل الأعداء فانهم يجلسون ويفكرون ثم يطرحون على أنفسهم هذه الأسئلة: لماذا انهزمنا؟ ما هي الثغرات؟ وكيف نتقدم؟.

وهكذا تنبعث فيهم روح جديدة مرة أخرى فيتحركوا، هذه هي المرحلة الجدية في الحضارة، وتتميز بعدم الاعتماد على الإيمان وحده ، بل يتوجه الاهتمام إلى التطوير والتنظيم، وتهيئة الوسائل والسعي إلى زيادة الحلفاء والحصول على الأسلحة.. وعموما، الأخذ بكل الأسباب العلمية والمادية، وذلك اعتبارا بما حصل لهم من دروس مرة، ومن انتكاسات صعبة، فينطلقوا. وتدوم هذه المرحلة فترة لا باس بها قد تبلغ مائتين أو ثلاثمائة سنة أو أكثر، تنمو خلالها الحضارة وتتقدم، وتحتفظ ذاكرة الحضارة بعبرها السابقة لكي لا تتكرر التجارب الفاشلة مرة أخرى.

خامسا: مرحلة التحجر.

ولكن مع استمرار الوقت وطول الزمن، تهترىء الذاكرة الحضارية، وتنسى تجاربها تقريبا، سواء التجارب الإيمانية كالشجاعة والتضحية، أو التجارب المادية التي حصلت عليها في المراحل السابقة، قال ربنا س في كتابه الحكيم: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ

وقسوة القلب عبارة عن التحجر، بحيث إن الأمة تصبح في وضع بحيث لا تعطى ولا تاخذ، ولا تتاثر بحقائق الحياة ولا تستجيب للعوامل الطبيعية والسنن الصحيحة , فتصبح مثل الحجر الذى لا يتفاعل مع ما حوله.. كما لو أخذت وردة بيد، وباليد الأخرى حجرا، فإنك ترى الوردة تستجيب للنسيم فتتحرك أوراقها، وتعطيه عبيرا ينشره فى الهواء.اما الحجر فلا ترى فيه أى استجابة أو تأثر بذلك النسيم. وكذلك الحضارة بعد ان تتطاول عليها السنون، فإنها تصل إلى مرحلة التحجر، وتصاب بحالة التعب والإرهاق. والقرآن عادة لا يذكر التعب والإرهاق، فالحضارة ليست كانسان واحد، بل هى ناس يموتون ويأتى مكانهم آخرون، فالأ بناء لا يتعبون بتعب ابائهم بالمعنى المفهوم، وإنما يكون التعب معنويا يعبر عنه القرآن بقسوة القلب، أى التبلد الفكرى، والتوقف الذهنى، وحسب تعبير بعض المؤرخين توقف الإبداع في كمبيوتر الحضارة.

سادسا : بعد هذه المرحلة تبدأ الصراعات الداخلية والأنانيات، و القوميات، والنعرات العنصرية والطائفية. وتبدأ مرحلة صعبة فى الحضارة تتشرذم عناصرها، وربما تصل إلى مشارف النهاية. وبالتالى تسقط الدولة، ويتفتت المجتمع، وننسى الأفكار.الا أن الغرور والكبرياء الناشئ عن الأمجاد السابقة يبقى.هذه الأمجاد ليتذكرها الإنسان هي آخر ما ينساها، لأن الأمجاد تكون قد تحولت إلى إنجازات بعضها ظاهرة كالآ ثار المعمارية والأحداث التاريخية المروية لها خطها فى تفسير شيء يسميه بعض المؤرخين بطيف الحضارة، أى آخر مرحلة من انتهاء هذه الحضارة.

وهذه الحالة العاطفية التى تنبع من الانتماء إلى الأمجاد، والمكاسب التاريخية والافتخار بها تعود لتكون شيئا ما، وعادة ما يكون ذلك دولة كبيرة أو الفاظا ضخمة، ولكن دون أن يكون فيها أى نوع من أنواع الإبداع والتطوير أو العطاء أو حمل رسالة حقيقية، وإنما هى فقط طيف الحضارة أو حلمها. وهذه المرحلة غالبا ما تكون قصيرة الأمد، وبعدها ينتهي كل شيء، وبانتهائها تذهب آخر فرصة لهذه الحضارة في البقاء.

كل الحضارات التاريخية عادة، وحسب ما يذكر المؤرخون، مرت بهذه المراحل، ولكن هل هذه المراحل حتمية وإنها دائما بشكل واحد؟

كلا، أنها ليست حتمية.. لأن الحضارة يمكنها أن تستوعب تجارب الحضارات الأخرى في أول مراحلها، فتضم إلى روح التضحية والشجاعة والإقدام، الأخذ بالعوامل المادية والسنن الطبيعية التي توصلت إليها الأمم السابقة، ولا تدع مجالا لغرور ان يصيبها وبذلك يمكنها ان تبقى فترة أطول.

ولا باس ان اعرض تجربتين لبيان أثر الغرور في الحضارة، دون أن احاول المقارنة الدقيقة لأن الأمثلة التي اضربها ليست حضارات وإنما هي دول. ولكن يمكننا أن نضرب بها أمثله على واقع الحضارات.

المانيا في عهد بسمارك حيث كان رئيسا للوزراء في بروسيا فجعل بسمارك من هذه الولاية نواة لدولة اتحادية كبيرة في اوروبا وهي المانيا الاتحادية، بفضل جهوده، وبفضل نشاط وحيوية الشعب البروسي.

إلا أن بسمارك لم يلبث ان اغتر بالسكك الحديدية الجديدة، والأسلحة الحديثة، والجيوش المنظمة، والطاعة التامة والانضباط العسكري الكامل، والتقدم الاقتصادي، فقام يضرب ذات اليمين وذات الشمال، وخاض حروبا عديدة إلى أن ضعفت المانيا سريعا واصبحت دولة عادية، بينما كان بالإمكان ان يصبح لفترة طويلة مركز الثقل الحضاري في أوروبا.

ولكن من جهة ثانية، نجد ان الولايات المتحدة الأمريكية عاشت فترة طويلة نسبيا بعد استقلالها وازدهارها، لأن الشعب الأمريكي رفض كل المحاولات التي قامت لإقحامه في الحروب، والتدخلات في شؤون الدول الأخرى. فقد رفض وبكل شدة في سنة 1913م نظرية نشأت في البلاد تدعو إلى احتلال المكسيك، وكان انتصار روزفلت على منافسه الا نتخابي بسبب رفعه شعار أبقاء أمريكا بعيدة عن مشاكل العالم.. وقد واجه معارضة من الشعب الأمريكي لما انحرف عن هذه السياسة , وقام بمحاولات عديدة وحيل كثيرة من اجل إدخال الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية.

لقد كان الأمريكيون من سلالة الأوروبيين، وكانوا يعلمون ماذا تعني الفتوحات، والتدخل العسكري هنا وهناك وتحمل مشاكل،، لا ناقة لهم فيها ولا جمل،، كانوا يعرفون بالضبط ماذا يعني ذلك وكانت ذاكرتهم لا تزال تحتفظ بالتجارب الأوروبية القاسية، لأنهم اوروبيون انتقلوا إلى أمريكا. فقرروا إلا يعيدوا التجربة هناك، وظلوا فترة طويلة هكذا، إلى أن تم إدخالهم أخيرا في الحرب العالمية الثانية وبعدها اصبحوا ورثة الا

ستعمار القديم، وتدخلوا في كل بقعة من العالم والآن هم يعانون نقصا كبيرا فى كثير من المجالات بسبب هذه الأعمال، وخصوصا بعد الحرب الفيتنامية، فقد أصيب الشعب الأمريكى بهزة عميقة فى كيانه الداخلي، ولا اعتقد أن بإمكان هذا الشعبان يتجاوز هذه الهزة.

لقد كان الشعب الأمريكى فى فترة من الشعوب التى لا تقهر فموارده كبيرة، وقواه عظيمة، وإنجازاته التكنولوجية باهرة. ولكن ثبت الآن بأن ا لأمريكيين ليس يقهرون فقط وإنما يتخلفون أيضاً بسبب غرورهم وصلفهم.

وفى حالة هبوط روح الحضارة والمدنية، وقسوة القلب،اى تحول الحضارة إلى حقيقة استاتيكية جامدة وفى هذه المرحلة أيضاً يمكن أن يلعب الفكر والثقافة، والإرادة والقيم دورا هاما. فبعد أن تقسوا القلوب، وتتحول النظرات الرسالية إلى توجهات مادية، ويحين وقت الانهيار فإن بالإمكان وبتحول جذرى داخل الحضارة وبهمة عالية من بعض ابنائها، أن يوقفوا انهيارها وتدهورها. مثل ما حدث مع قوم يونس.

فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلى حِينٍ

فقد كان قوم يونس يعيشون فى آخر لحظات حضارتهم والتدهور الذى كان يرتقب ان ينتهى بصاعقة من السماء، تداركوه بعد ان هجرهم نبيهم، ولاحت نذر العقاب الشديد، فلجئوا إلى علمائهم وسمعوا نصيحتهم ثم غيروا مسيرتهم، وأوقفوا بذلك الانهيار المحتوم.

هذه قضية هامة وفريدة فى تاريخ الأمم واهميتها ناشئة من انها تدل على أن إرادة الإنسان أقوى من مسيرة الزمان وظروفه , والسؤال الكبير الذى ربما يكون كل حديثنا مقدمة لإثارته وطرحه هو, هل هناك قوانين وانظمة نستطيع أن نكتشفها فى مجال مقاومة الانهيار ومحاولة الا ستمرار في الحضارة؟

هل هى الصدفة، والقضاء والقدر، أم أن هناك شيء يمكن تخطيطه معتمدين على إرادة البشر وتفكيرهم؟

نحن نعتقد ان عامل الإرادة له قوانينه وانظمته الذاتية والبعيدة عن تاثير العوامل الأخرى، والتفكير فيها ومحاولة تنظيمها ووضع قنوات لها، يعطينا القدرة على الاستفادة من هذا العامل العظيم، وهذا هو الحديث عن الثورات. فالثورة ما هى إلا الاستفادة من عامل الإرادة البشرية، ومن قدرة الإنسان على تحدى واقعه ليس بالاشياء المادية، وإنما بالأفكار الروحية والقيم.

والأمة التى تعرف سر الثورة لا تموت ابدا، لأن هذه الأمة كلما ضعفت فيها العوامل المادية، تدخل العامل الإرادى ليعوض عن تلك العوامل، وليعطى الأمة دفعة جديدة إلى الإمام. وربما نستطيع أن نقول أن الأمة الإ سلامية هى من أكثر الأمم التى عرفت وتعرف إلى الآن سر الثورة وأهميتها فى حياتها الداخلية. والمذهب الرسالى لأهل البيت ، هو ذلك السر، وتلك النواة التى لو عرف قدرها ' وتبلورت فى ذهنية الأمم، لا ستطاعت ان تكون ماكينة تسحب قطار الأمة، وتعطيها المزيد من المقاومة للظروف الصعبة، والقدرة على التحدي.

الإنسان بين الشهوات والقيم

للإنسان قوتان تتجاذبانه.. قوة الطبيعة وقوة القيم، وقد تقوده إحدى القوتين بصورة مطلقة أو تشتركان فى قيادته عبر ظروف مختلفة وفى حالات متباينة وفى المجتمع قد تكون القوة الغالبة و الحاكمة تتجسد فى الطبيعة أو فى القيم، وذلك عبر المجموعة التى غلبت طبيعتها قيمها أو غلبت قيمها طبيعتها، فتكون الصفة العامة لهذا المجتمع اما صبغة الطبيعة واما صبغة القيم فإن كانت الأولى هى السائدة وصبغتها هى الظاهرة فذلك هو مجتمع الطاغوت، وان كانت الثانية هي السائدة فذلك هو مجتمع الرسالة والإيمان.

وكما انّ الإنسان الفرد قد يخضع للمال باعتباره مجسدا لقوة الطبيعة فى ذاته، ومحققا للأهداف المادية، كذلك المجتمع قد يقوده المال وأصحابه باعتبارهم مجسدين لتلك القوة الطبيعية.

وقد طرحت البشرية منذ ان كانت هذه المشكلة مسألة كيفية التخلص من قوة المال كقوة طاغية حاكمة على المجتمع كله.

صور متعددة، وجوهر واحد.

فى يوم ما كان الإقطاع مشكلة الإنسان الأولى، حيث كان ملاك الأرض يستغلون الناس بقوة المال ويفرضون عليهم سلطتهم المستمدة من ثروتهم، وبالتالى تقود المجتمع الطبيعة المتجسدة فى الثروة. وبعد أن ثار الثائرون واسقطوا صنم الإقطاع ليعبد اللّه لم يلبثوا ان اختاروا لأنفسهم صنما آخر سموه بصنم الراسمالية وكان ذلك الصنم معبرا عن غلبة وتفوق قوة الطبيعة فى ذاتهم على قوة القيم. وثارت الثائرة مرة أخرى، فدارت المعارك وازهقت الأنفس واريقت الدماء حتى اسقطوا صنم الراسمالية الخبيث، وزعموا بانهم قد ارتاحوا نهائيا من المشكلة الحادة فى حياة البشرية، وهى مشكلة تسلط اصحاب الثروة والمال على رقاب البائسين والفقراء، وبعد ان انجلت الغبرة واستكنّت النفوس وظهرت الحقيقة، فإذا بصنم آخر يعبد من دون اللّه وهو صنم الدولة المستبدة والمستغلة للمال.

وسواء كانت الثروة بيد الإقطاع متجسدة فى امتلاك الأرض ومن

عليها، أو كانت بيد التجار، أو بيد السلطة فإنها هى الثروة، وهى الصنم، وبالتالى فهى الحاكمة، فالصور تتبدل، والأشكال تتغير والجوهر هو الجوهر.

المشكلة في ذات الإنسان.

لكن المشكلة هى فى خضوع الإنسان للثروة، وغلبة الطبيعة على القيم فى ذاته. وحينما تذوب القيم فى بوتقة الثروة فلا جدوى من السؤال عمن يملك هذه الثروة ويتسلط على الناس باسمها، فقد تملك الثروة هرة، وقد يملكها صنم من حجر وهو يحكم الناس ولكن المهم هو تجاوز الناس لسلطانالقيم واستسلامهم لسلطان الطبيعة والثروة.

الحل الإسلامي لهذه المشكلة.

ألف: على مستوى الفرد.

الحل فى الإسلام يبدا من العمق من داخل ذات الإنسان فهو يجعل سلطة القيم هى الحاكمة على الطبيعة فى ذات الإنسان. فإذا كانت نظرتك إلى المال نظرة استعلاء وتسامى، وإلى زينة الحياة الدنيا نظرة تملك وتسخير، وإلى الطبيعة نظرة إصلاح وإعمار، فإنك تنتصر على مشكلة الثروة في ذاتك.

لذلك نجد القران الحكيم يركز على هذا الموضوع في عدة آيات.

المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيرٌ أَمَلًا 18 /46

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنعَامِ وَالحَرثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسنُ المَآبِ3 /14

هذه الآيات والتعاليم الإسلامية الأخرى تدفع الإنسان إلى أن ينتمى لمجتمع القيم المجتمع الذى يقوده خير الناس علما وتقوى وكفاءة، وليس أثقلهم جيبا وأوفرهم قوة وجاها.

باء: على صعيد المجتمع.

يشدد الإسلام على عدم تركيز السلطة بيد الأغنياء، بل يجعلهم تابعين وخاضعين للعلماء والنصوص الإسلامية تؤكد على أن احترام الغنى لغناه جريمة وخطيئة كبيرة.

S من احترم غنيا لغناه اكبه الله على منخريه في النار R.

كما تؤكد الآيات القرانية على أن الأغنياء غير الأتقياء هم من شرار الناس كمثال على ذلك قصة الجنتين وصاحبها الذى دخلهما وهو ظالم لنفسه.

قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا **35M/N18** وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا 18/ 36قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا 18 / 37لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا

وقصة قارون الذي أوتى من الكنوز:

وَآتَينَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصبَةِ أُولِي القُوَّةِ 76القصص

ثم كانت عاقبته:

فَخَسَفنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ 28 /81

وكذلك يحمل الإسلام حملة عنيفة على الأغنياء الذين لا ينفقون أموالهم في سبيل اللّه:

وَلا يَحسَبَنَّ الذِينَ يَبخَلونَ بِمَا آتاهُمُ اللهُ مِن فَضلِهِ هُوَ خَيرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌ لَهُمْ سَيُطوَّقونَ مَا بَخِلوا بِهِ يَومَ القِيَامَةِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَاللهُ بِمَا تعمَلونَ خَبِيرٌ 3 /180

كل هذه النصوص والتعاليم تريد ان تفصل المال عن السلطة داخل المجتمع حتى لا يعبد الأغنياء من دون اللّه، ولكى لا يتخذ الغنى صنما باسم الإقطاع يوما، وباسم الرأسمالية يوما آخر وباسم الحزب الحاكم لمهم هو فصل هذا التجمع القائم على المال والثروة عن السلطة الا جتماعية والسياسية، ولكن كيف يتم تحقيق هذا الهدف؟

الضمانات التي يقررها الإسلام لفصل السلطة عن الثروة.

أولا: التوزيع العادل للثروة.

وذلك عن طريق فرض الضرائب التصاعدية، وغير التصاعدية، كضريبة الخمس والزكاة، والحق المعلوم لو كان غيرهما، وتقسيم الأ موال بالإرث، وكذلك بعض الكفارات والديات المالية، هذه الأحكام الشرعية لا تدع المال يصبح دولة بين الأغنياء يتداولونه كما تحلو لهم شهواتهم، ولا يدعون الآخرين يستفيدون منه. ثم إن الإسلام يؤكد على ضرورة تقسيم المال لو سبب ضررا على المجتمع الإسلامى، ولو كان بغير الطرق السالفة الذكر حيث يقول:

S لا ضرر ولا ضرار R.

S الأرض لله ولمن احياها R.

ثانيا: القضاء على احتكار الأرض.

أن الإسلام بمعالجته لمشكلة الأرض ذلك المورد الرئيسى الهام للإنسان، وعدم جعلها حكرا على مجموعة خاصة، تستغل الناس يوما باسم الإ قطاع، واخر باسم الشركات الزراعية، بذلك يقضى على الإقطاعية القديمة والجديدة هذا الإقطاع البشع الذى يضيق الخناق على الناس ويعيق مسيرة التقدم في الحياة.

ثالثا. محاربة احتكار المواد الأولية الضرورية.

ان بعض المواد الضرورية وبسبب حاجة الناس الماسة إليها تكون مشتركة المنافع فيما بينهم، وهذا يدل على أن كل مادة أصبحت ذات حاجة اجتماعية شاملة، فالناس شركاء فيها، كالنفط مثلا. ويقول الإسلا

م في ذلك
S الناس شركاء في ثلاثة الماء، والكلاء، والنارR

رابعا: تأميم التجارة الخارجية.

ان التجارة الخارجية فى الدولة الإسلامية فى ما يختص بالمواد الضرورية، كالتى تعتبر اساسا لسائر الصناعات مثل الحديد والبترول وما اشبه، إو المواد الغذائية الرئيسية كالقمح والأرز واللحم والسكر وغ يرها والتى يحتاج إليها الناس فى حياتهم اليومية، وادنى ما يحتاجونه من الملابس، ووسائل النقل، ووسائل البناء يجب إلا تصبح أداة للاستغلا ل من قبل التجار.

ومن هنا يجب مراقبة التجار وإلزامهم بمراعاة الحدود المشروعة فى أعمالهم ونشاطاتهم.. وإذا رأى المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية أن هؤلاء يحتكرون هذه المواد ويستغلون الناس بها ويفرضون وصايتهم على الناس عن طريقها، ولا يوفرونها بصورة تكون سببا لرفاه الناس فمن الواجب على الدولة ان تؤمم التجارة الخارجية كما بدات تفعل ذلك الحكومة الإسلاميةة في إيران.

خامسا: فصل العلم عن الثروة.

وهو من الضمانات الإسلامية الهامة فى هذا المجال، إذ أنّ الثروة لا تستطيع أن تستغل الناس إلا تحت غطاء العلم، وعن طريق العلماء. ف العلماء الراكعون على أبواب الأغنياء والتجار، والذين يبيعون علمهم بثمن بخس للمستكبرين كانوا دائما أداة طيعة بى اصحاب الثروة، لكى يحولوا ثروتهم إلى سلطة يفسدون بها في الأرض.

سادسا: رفع مستوى الناس علميا واقتصاديا.

من الناحية التاريخية ثبت أن المجتمعات التى تحكمها الدكتاتورية، ويتسلط عليها الاستبداد، هى المجتمعات الأقل وعيا والأكثر فقرا.اى انه إذا ارتفع مستوى الجماهير إلى حد معين من الوعى والرفاه الاقتصادى فإن قدرة أصحاب المال والثروة على التسلط والاستغلال تتلاشى. وفى هذا المجال اود ان افصل الحديث قليلا،، المجتمع الأمى الذى لا يقرا ولا يكتب يكون مادة دسمة للمستغلين لذلك فالأمية خطر على حرية الإنسان ، والإسلام يسعى إلى محو الأمية ويعتبره واجبا شرعيا ويؤكد الحديث المعروف:

Sطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة R.

والإسلام يفرض على المسلم ان يقسم اوقاته اربعة اقسام، يجعل قسما منها لطلب العلم. ولقد كان أحد شروط النبى لإطلاق أسرى حرب

بدر أن يعلم الأسير عشرة من المسلمين القراءة والكتابة.

ان الإسلام يجعل طلب العلم فوق كل الواجبات ويشترط ان يقترن ذلك بالوعي، فلا يجتهد الناس في طلب علوم بعيدة عن واقعهم،بل ينبغي أن يكون العلم فيما يخص الإنسان مباشرة، ويعالج مشاكله ويلبي احتياجاته، التي يتعرض لها في زمانه وأهل زمانه، وطبيعة القوى و التيارات الحاكمة في الحياة، أي: إن يكون علما سياسيا بالمعنى الإسلامي الشامل للسياسة: وهذه من صفات المؤمنين.

Sعارفا بأهل زمانهR.

S من عرف زمانه لا تهجم عليه النوائبR.

وكذلك بالنسبة إلى الاقتصاد. حينما تقول المجتمع الذي يملك أبناؤه مستوى معينا من الثروة والغنى فانهم يرفضون الديكتاتورية، ليس المقصود بذلك إيراد الفرد كبيرا , فلو كان راتبه الشهري ألف دينار، ومصروفه الفا وخمسين لكان فقيرا، والفقير في الإسلام هو الذي يكون إنفاقه أكثر من دخوله، والمؤمن يجب أن يبتعد عن الفقر الذي هو سواد الوجه في الدارين. ولا يعني ذلك أن يحصل على المزيد من المال بل المقصود ان يقتصد في مصروفه والا يجعل ميزانيته دائما خاسرة وعلى المؤمن أن يدخر العون على الدين والدنيا الغنى.

والغنى ان تكون يدك مبسوطة يوم الحاجة، وهو ذلك اليوم الذي يحاول فيه الغني أن يستغلك. فحينما تقرر سلطة الأغنياء أن تتحكم في مصيرك، وتكون قادرا على المعاملة بأن تضرب عن العمل مثلا وعندما يقطعون راتبك فانت تمتلك مدخر تعيش عليه، وتصمد إلى أن ترغمهم ان يعطوك حقوقك، وبالتالي ترغم السلطة السياسية الحاكمة في البلد على الرضوخ للحق. لذلك فإن الديكتاتورية مقرونة بقلة الوعي والمال عند الجماهير. وكلما توزعت الثروة وانتشر الوعي كلما ضعفت سلطة الدكتاتورية.

سابعا: اعتبار الخضوع لغير سلطان الله شركا.

هنا تاتي الضمانة الدينية وهي الأهم، حيث إن الإسلام يحرم على المسلم الخضوع لسلطان غير سلطان اللّه، ولحاكم غير من أمر اللّه به، ويعتبر ذلك شركا. والشرك عند اللّه ظلم عظيم غير قابل للغفران. و القران من بدايته إلى نهايته حديث عن الشرك والمشركين، وعن ضرورة مقاومة الشركاء من دون اللّه، والآلهة هؤلاء هم اصحاب الثروة الذين يتسلطون على الناس ويستغلونهم.

إذن فهدف الإسلام فى الحياة الاجتماعية هو أن يجعل المال خاضعا وليس حاكما، وان يجعل الإنسان مسخرا للحياة لا تابعا لما فيها من متاع زائل. وهذا الهدف العام يحققه الإسلام عبر مجموعة ضخمة من التعليمات التربوية، والأحكام الاجتماعية، والوصايا والأخلاق، وحتى من التوجيهات الأيديولوجية.

وإذا استطاع مجتمع ان يفلت من قيد المال ويجعله مملوكا، فإنه ليس فقط تنطلق مواهبه وتتفجر إمكاناته ويتحرر من الجمود، وإنما تنمو ثروته ايضا، ويستطيع ان يفلت وإلى الأبد من قيد الفقر فالمال حيث يعبد من دون الله يصبح فقرا. والمجتمع الذى يحكمه المال هو المجتمع الفقير.

كيف يصحح الإسلام.. موقف الإنتاج من الدنيا

فى سياق حديثنا عن المجتمع الإسلام الرسالى الذى يتبع رؤى الإسلام ومناهجه، يطرح السؤال:

ما هى علاقة هذا المجتمع بما فى الدنيا من زينة، بالمال، والإعمار، و التقدم والحضارة؟

لا بد أن نقول أن هناك عدة أبعاد لزينة الحياة الدنيا:

البعد الأول:

هو ان الإسلام يسعى من أجل تزكية النفس البشرية وتطهيرها، وإعطائها دفعات من الإرادة التى تتقلب بها على جاذبية المادة. ومن أجل ان يحقق هذا الهدف الرفيع فهو يوصى ويؤكد على ضرورة التسامى على الدنيا وزينتها، لأن جاذبيتها وضغطها ومن ثم قدرتها على تذويب إرادة الإنتاج وتمييعها كبيرة جدا. لقد خلق الإنتاج هكذا.. ترابيا. وللتراب سلطانه على أبنائه. فحينما يجوع البطن ويعطش الكبد، وتثور الشهوة، ويتالم الجسد، وتسيطر الرغبة فى التفاخر والتكاثر فى الأموال والأولاد،انئذ ترى أن الرادة الإنتاج ضعيفة أمام هذه المؤثرات. فلذلك كان البشر بحاجة إلى من يعطيهم قرة للتغلب على جاذبية هذه الأمور. ولم يكونوا بحاجة إلى من يأمرهم بالاهتمام فى متاع الدنيا، لأنهم إذا تركوا على طبيعتهم فسوف يفعلون غريزيا.

ومن هنا لا تدل الوصايا الإسلامية علة ان موقف الإسلام من أمور الدنيا موقف سلبي، كما قد يتبادر إلى الذهن حينما تقرا الآيات التالية:

وَاعْلَمُوا إنما أَمْوَالكُمْ وَأَوْلا َ د ُ ك ُ م ْ فِتْنَةٌ

إنّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَهَا

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

ان هذه الوصايا والمواعظ القرانية، والتعاليم الإسلامية الأخرى التي صدرت على لسان النبى والأئمة المعصومين لا تدل ابد على أن المال والبنين وسائر اقسام زينة الحياة الدنيا مرفوضة ومكروهة عند الإسلام، وإنما تدل على أن الإسلام يريد أن يوجد التوازن فى نفسية الإنتاج حتى لا ينكب على متاع الدنيا انكبابا أعمى.

ويؤيد هذه الحقيقة جملة من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وهنا نذكر فسما منها:

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً

وتقول أولاد أخرى في صفة المتقين:

وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاما

ويقول الحديث الشريف:

S اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا، واعمل لاخرتك كانك تموت غداR

ويقول الإمام علي :

S أيّها الناس اوصيكم بالاخرة، اما الدنيا فانتم مستوصون بهاR

اى إننى لا اوصيكم بالدنيا، لأن الدنيا ذات جاذبية، وهناك من اوصاكم بها، إنما الآخرة هي التي تحتاج إلى الوصية.

البعد الثاني :

هو ان مصلحة الإنتاج الذى يواجه الحياة الدنيا وزينتها هو الذى يحدد موقف الإسلام منها. فالإسلام لا يريد أن ينفى الدنيا وزهرتها، وإنما يسعى من أجل ان ينفى الجانب السلبى منها وهو الذى يؤثر فى النفس تأثيرا ضارا.ان زهرة الدنيا بذاتها هى حسنة ومطلوبة، والقران الحكيم يؤكد عليه بقوله على لسان المؤمنين: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

الا ان موقف الاستسلام المطلق،والذوبان التام فى بوتقة الشهوات هو المرفوض فى الإسلام. وحينما يقول الإسلام: Sحب الدنيا راس كل خطيئة R

فبالضبط يعني هذه الحقيقة، بدليل انه لم يقل شهوات الدنيا راس كل خطيئة، لأن لكل إنسان شهوات وإنما يقول حب الدنيا، والحب هو الا ستسلام للشيء وجعله هو الغاية.اما أن تأخذ الأشياء لنفسك فليس هذا حبا وإنما هو نوع من التملك. وحينما يقول الإسلام على لسان الإمام على :Sليس الزهد ألا تملك شيئا، وامنا الزهد ألا يملكك شيءR

فهو يحدد معنى الأحاديث والآيات الأخرى، حيث إن النصوص الإسلا مية يفسر بعضها بعضا.

ان الموقف الاستسلامى تجاه زينة الدنيا ومتاعها هو موقف التبعية والخضوع، وفقدان العقل والرؤية اما حوادث الدنيا ومتغيراتها هو الموقف السلبى الذى يحاول الإسلام نفيه. فالزهرة موجودة، والزينة حسنة والمؤمنون أحق بها، وحسب ما جاء فى حديث شريف :S أن اللّه س أكرم ممن أن يحاسب المؤمن على نعمة أعطاها له فاستفاد منها R.

فاللّه لا يحاسبك لماذا تاكل أو تشرب أو تنام، ولا يحاسبك ان تبنى بيتا أو تقيم حضارة وتعمر الأرض.

وإنما يحاسبك على انه اعطاك الدنيا لتسخيرها فاصبحت انت مسخرا لها.. وحينما تتسخر للحياة الدنيا وتستسلم لزينتها وجاذبيتها فإنك لا تحصل على الدنيا ولا تكتسب الآخرة.

فحتى عمارة الأرض، وزينة الدنيا وزهرتها لا تحصل عن طريق الا ستسلام المطلق لها. وإنما يستسيغ الشراب ويمرا الطعام ذل الذى يشرب حين يشتهى بقدر ما يشتهى وينتفع، وهكذا يأكل.اما الذى يأكل كالأنعام ويشرب كالبهائم، فإن الشراب والطعام لا يهنئان له. وإذا أهناه الآن فلن يأمن من الآثار السيئة مستقبلا. فلرب أكلة منعت أكلات، ولرب شربة سببت أمراضا وآفات.

الإسلام يريدك ان تسخر الحياة وتتمتع بها وتستفيد منها ولكن بشرط ان تكون انت المهيمن عليها، إذن موقف الإسلام من الدنيا هو الوقف الذي يحقق للإنسان المسلم لفضل النتائج في العاجل والآجل.

فالإسلام ينهى عن الإسراف، لأن الإسراف لا يضر بالدنيا وإنما يضر بالإ نسان أيضا. بقول اللّه عز وجل: وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ

والإسلام ينهي عن التبذير بقوله :

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً

الكفور هو مقابل الشكور، والتبذير فى الدنيا كفر بنعم اللّه أى استفادة

خاطئة وانتفاع شاذ من الدنيا.

والإسلام يامر بالإصلاح في الأرض، وينهى عن الإفساد

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

ويقول سبحانه وتعالى عن المنافقين

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ

ويقول عن المؤمنين أن بعضهم يصلح الآخر:

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

فعلاقتهم بالحياة هي علاقة الإصلاح. وهذه الصفة يقررها الإسلام ويؤكد عليها لأن الاستفادة من الحياة تعتمد عليها وهذا هو الموقف الصحيح.

فحينما يامر الإسلام بالزهد، فليس معنى ذلك انه يتخذ موقفا سلبيا مطلقا من الحياة ولا يعنى انه يمنع التفاعل معها والاستفادة من متاعها، فلقد كان الإمام علي ازهد أهل زمانه، حتى قال عنه رسول الله :

Sمن اراد ان ينظر إلى عيسى فى زهده فلينظر إلى على بن ابى طالب R

ولكن اموال علي وثرواته كانت كثيرة وضياعه وحقوله عديدة وكان يتعب نفسه ويجتهد فى زراعة الأرض واستصلاحها وحسب ما جاء فى بعض الأحاديث انه كان يصل إيراده اليومى إلى سبعين الف دينار من ضياعه وممتلكاته، إلا انه بعد ان يحصل على هذه الأموال الطائلة كان يوزعها على الفقراء والمحتاجين وينفقها لخير المجتمع وإصلاحه، ولا يستبقي لنفسه إلا الكفاف. وهذا هو المنهج الصحيح لعمارة الأرض.

البعد الثالث

هوان الإسلام يعتبر التنافس البناء من أجل زينة الحياة الدنيا، عاملا أساسيا فى عمارة الأرض. فلولا التنافس على بناء البيوت وإنشاء المصانع وتطوير التجارة لم تنشا مدنيه أو حضارة، ولو اكتفى كل إنسان برغيف خبز ياكله، وقطعة ثوب يلبسها، ورقعة ارض يسكنها فهل كانت تبنى هذه القصور والعمارات، وتلك المصانع والموئسات؟ ولو لم يكن التنافس في تحجى مجتمع لمجتمع اخر، لم تتسابق المجتمعات نحو الإ بداع والابتكارات والصناعات، ولو لم يكن التنافس بين ابناءالمجتمع لم يرهق الناس أنفسهم فى المزيد من العمل ولركنوا إلى القعود والكسل، ولكن التنافس هو الذى يدفعهم إلى مواصلة الليل بالنهار، والكدح فى

سبيل الحصول على المال والثروة والتكاثر فيها.

وقوانين الإسلام فى الملكية الفردية، تدفع الناس إلى التنافس البناء لعمارة الأرض وإصلاحها، لأن غريزة التملك عند الإنسان من اقوى الغرائز التي تدفع إلى العمل والإبداع.

ولقد حاولت النظرية الشيوعية التى لم تطبق حتى الآن فى العلم بـ الرغم من المحاولات العديدة التى بذلت فى هذا الشان ان تجرب إلغاء نزعة الملكية الفردية فى بعض التجمع التى تسمى بالسوفيت فى الاتحاد السوفيتى وبالكولخور فى الصين، فكانت النتيجة ان انعدم الحماس للعمل عند افراد هذه المراكز، ولكنهم بعد ان اعادوا جزئيا فكرة التملك عن طريق منح امتيازات مادية ومعنوية لمن يعمل اكثر، وجدوا ان النشاط قد دب في هؤلاء، وبدؤوا يعملون.

إذن الملكية الفردية بحدودها المشروعة يؤمن بها الإسلام، ويؤكد عليها. بل إن ملكية الإنسان لأمواله تمتد إلى ما بعد وفاته وذلك عن طريق الإرث والوصايا. لأن الإنسان إذا عرف بأنه سوف يفعل فى أمواله ما يشاء فى حياته وبعد مماته، فإنه يشعر بالاطمئنان تجاه هذا الجهد المركز الذي نسميه بالمال.

وعند ما يقول الإسلام بأن حرمة اموال الآخرين كحرمة أنفسهم، فإنه يشدد بذلك على احترام الملكية الفردية،لان ذلك فى الواقع هو احترام ا لإنسان نفسه، فالمال إنما هو جهد مدخر، وحينما لا تحترم جهد أحد فكأنك لا تحترمه شخصيا. ومن هنا يأتى موقف الإسلام الحاسم تجاه المال.

القيادة في المجتمع الإسلامي

ولا تزال أمامنا عدة مواضيع هامة تخص المجتمع الإسلامى أهمها (موضوع القيادة) ذلك لأن القيادة تعتبر رمزا تتجلى به قيم المجتمع ووجهته. وقد أعطى الإسلام أهمية كبرى لمسالة القيادة بمفهومها العام وهو وجهة الإنسان فى الحياة. كما أعطى أهمية مماثلة لها بمفهومها الخاص وهي القيادة السياسية والاجتماعية للإنسان.

ونقسم حديثنا عن القيادة إلى ثلاثة ابعاد، القيادة كحالة اجتماعية، و القيادة كتسلسل تنظيمى، والقيادة كرمز للمجتمع. والإسلام يعالج هذه الأ بعاد جميعا، ومن دون ذلك لا يمكن أن تكون قيادة إسلامية بالمعنى الحقيقي للكلمة.

القيادة حالة اجتماعية:

القيادة الإسلامية حالة داخل المجتمع الإسلامى، تتجسد فى التسلسل التنظيمى، وفى من يقف على راس الهرم القيادى، وهو الرسول والإ مام المعصوم أو الولي الفقيه.

فلننظر إلى أمر القيادة الرسالية كحالة اجتماعية ما هى أرضيتها داخل المجتمع؟

قبل كل شىء يجب أن نعرف أن القيادة الرسالية هى قيادة القلوب وليست قيادة الأبدان، وهى قيادة الرضا وليست قيادة الضغط. وهى قيادة التسليم وليست قيادة الإرهاب. ومن دون أيجاد حالة الرضا التى هى الحالة القيادية فى المجتمع يستحيل إيجادها فى قمة الهرم التى تشكل القائد الأعلى لهذه الأمة،

فمن الصفات الأساسية للمسلم الرضا، وذلك يعنى إيمان الإنسان بمحورية الحق فى هذه الحياة. فإذا كان هناك إنسان اسود اللون فى مجتمع يكون السواد قيمة سلبية فلا يجوز ان يموت قلقا ويقول لماذا خلقني الله هكذا؟

إذا كان هنالك رجل قمىء فى مجتمع كل ابناءه طوال القامة فليس له ان يقلق نفسه ويغتاظ وينظر إلى الحياة عبر نظارة سوداء، لماذا انا

قصير القامة؟

الإنسان يجب أن يرضى بما هو، أو بتعبير أفضل أن يبدأ من حيث هو. فإذا كان طالب ثانوية، فيبدأ من هذه النقطة ويدرس حتى يصبح خريج جامعة، ويبدأ من تلك النقطة مرة أخرى ليحوز على شهادة الدكتوراه، وعلى هذا المعدل، فيبدأ في كل مرة من حيث هو.

اما حينما يرى طالب الثانوية نفسه خريج الجامعة، أو يرى نفسه دكتوراه فهذه حالة مناقضة للرضا.

الرضا هو اعتراف الإنسان وتسليمه واقتناعه بدوره المحدد له في الحياة وبحالته المتميزة في المجتمع ثم الشروع ابتداء من تلك النقطة للتحرك إلى الإمام، والذي في اعلى الجبل، الرضا بالنسبة إليه هو اعترافه بأنه فوق الجبل. وعليه أن يتحمل مسؤوليته كانسان واقف فوق القمة.ا ما الذى لا يزال فى السفح أو الذى يعيش فى الوادى، فيجب ان يرى نفسه حيث هو حتى يبدأ من تلك النقطة المنحدرة فيرتفع إلى الأعلى.

هذا هو معنى الرضا،، والمجتمع المسلم هو مجتمع الرضا، كل فرد يؤمن بحجمه ودوره، وتكون نظرته إلي نفسه وإلى إمكاناته وإلى موقعه الاجتماعى وإلى واجباته فى هذا الموقع نظرة سليمة، نظرة الحق، نظرة لا تتبع الهوى أو الأمانى هناك أناس يعيشون في مواقفهم,,الأمانى فمث لا ً يتمنى شخص ان يكون رئيس جمهورية، ويتعامل مع اهله في البيت على هذا الأساس، وإذا ذهب إلى عمله وهو مدرس مثلا ً يتعامل مع طلابه وكانه الرئيس وهم رعيته، وإذا خرج إلى السوق فهو يتعامل مع الباعة والتجار بهذه النظرة أيضا. وهكذا.هذا الإنسان يرى الحياة من خلال امانيه وليس من خلال واقعه فى الحياة وهذا خطأ كبير ينهى الإ سلام عن الوقوع فيه.

وكانت في أهل الكتاب طائفة لا يعرفون الكتاب إلا امانى، عقائدهم بـ النسبة إلى الرسالة نابعة من امانى واحلام، والقران يعيب عليهم هذه الحالة، فيقول: (ومنه أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) البقرة ثم يقول بعد ذلك: (الحق من ربك، فلا تكن من الممترين) البقرة،

عليك ان ترى الحياة بما فيها من خير وشر، وان ترضى بدورك فيها وبمسئوليتك تجاهها.. وان ترى الحياة بما هى ولا تنظر إليها من خلال نظارة الأماني.

المجتمع الإسلامي هو مجتمع الرضا، ومن اعز صفات المؤمنين.هى صفة الرضا.. ونرى القرآن الحكيم يعبر عن هذه الصفة بعدة أساليب فقد يعبر عنها بالرضا قائلا: (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية

مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) الفجر،
وجوه يومئذ ناعمة، لسعيها راضية، في جنة عالية، الغاشية،
وقد يعبر باليقين قائلا:
وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ السجدة
وقد يعبر عنها بالصبر:
إنما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ الزمر
وقد يعبر عنها بالتسليم:
إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا 33 /56، الأحزاب
وقد يعبر عنها بالإسلام، الذي هو تعبير عن التسليم:
إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلام ، ال عمران
وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ال عمران
وقد يعبر عنها بالاطمئنان، فيقول في قصة إبراهيم
قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي البقرة
فالرضا، واليقين، والصبر، والإسلام، والتسليم والطمانينة، والسكينة تعابير مختلفة لحالة واحدة، وهي قبول الواقع الحق والابتداء من حيث هو ثم التحرك إلى الإمام والارتقاء إلى الأعلى.

وإنما اختلف التعبير عن هذه الحالة. لأن أبعادها تختلف.. فباعتبار قناعة الإنسان بما هو واقع في الخارج تسمى هذه الحالة بالرضا، وباعتبار انعكاس هذه القناعة على النفس البشرية وإعطائها الهدوء، تسمى بالسكينة، وباعتبار تطابق هذه القناعة مع الحق الخارجي، تسمى باليقين، وباعتبار أن هذه الحالة تسبب خضوع صاحبها لمناهج الله تسمى بالإسلام أو التسليم. فالحالة واحدة بينما الاعتبارات مختلفة ومقتضى كل اعتبار يسمي القران هذه الحالة باسم معين.

كيف نحصل على اليقين؟

ونستوحي من هذه الآيات المباركة ان الرضا، واليقين والطمانينة و السكينة ... أهداف كبيرة يجب أن يسعى الفرد من أجل تحقيقها في ذاته. لذلك ترى ان إبراهيم يتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ان يريه كيف يحي الموتى لماذا؟ لكي يطمئن قلبه. ونحن بدورنا نسعى من أجل الحصول على اليقين عن طريق تأمل آيات الله في الكون. والتدبر في آيات الله في القران، ففي سورة الأنفال يقول القران الحكيم:
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ،الأنفال، وفي سورن التوبة يقول القران:

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ،التوبة.

انهم حينما يزدادون ايمانا يستبشرون، لأن هذا الحالة هى حالة السكينة والرضا والهدوء النفسى فتظهر على وجوههم ويمضى القران لتكملة الصورة فيقول:

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ، التوبة،

وفى سورة الكهف يقول الله تبارك وتعالى: إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ الكهف.

قلب الإنسان فى اهتزاز وقلق، وكأن الإيمان حزام أمان يربط أطرافه فلا يدعه قلقا متوترا.

وعند مواجهة الأعداء يحكى القران حالة المؤمنين وذلك فى سورة الأحزاب:

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأحزاب قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ، الأحزاب.

وايمانهم بايات الله وبوعده زادهم ايمانا وخلق فى أنفسهم شعورا بالرضا والتسليم وهو تمام الأيمان.

وفي سورة الفتح يقول القران الحكيم:

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ الفتح،

وفي سورة المجادلة:

لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَو أَبْنَاءَهُمْ أَو إِخْوَانَهُمْ او عَشِيرَتَهُمْ اولئك كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ المجادلة

هنا يعبر القران الحكيم عن تلك الحالة النفسية التي يعيشها المؤمن وهى حالة السكينة والهدوء بانها بسبب تاييد روح من قبل الله سبحانه وتعالى.

المجتمع المسلم مجتمع الرضا، مجتمع التسليم هذه هي قاعدة هذا المجتمع النفسية، فى مثل هذا المجتمع تصبح الطاعة للقيادة قضية طبيعية لماذا؟

لان الفرد هنا يعترف بمستواه الحق. ويرضى أن يتعامل على أساسه بعكس الإنسان الذى يرى نفسه فوق مستواه ويزعم أن الناس يسيئون إليه مثلا ً الفرد الذى يتصور نفسه بمستوى رئيس جمهورية ولكن يعمل كمعلم فى مدرسة، أو الإنسان الذى يرى نفسه بمستوى المرجع الأعلى

ويتعاملون معه كطالب علم بسيط، أو من يرى انه ينبغي أن يكون مديرا لهذه الإدارة فينصب كاتبا بسيطاهذا الإنسان يعيش القلق ولذلك فمن الصعب عليه أن يطيع قيادته، إلا ان تفرض هذه عليه فرضا قراراتها الآن لأن القرارات التى تاتى من فوق مصدر لا يؤمن بجدارته لا تجد قبولا فى نفسيته بل تجد بدل ذلك الرفض وقيد الغضب حتى عندما يطبق هذه القرارات فإنه يفعل ذلك مرغما ولا يعطى العمل حقه لأن تطبيق القرار بدون إرادة الإنسان يثبط رغبته ويحول دون إبداعه فتأتى النتائج مخالفة تماما لما أرادته القيادة.

هذه حالة الدول البيروقراطية التى كلما بحثوا عن حلها لم ينجحوا إلى شىء بينما كان السبب يكمن فى نفسية الموظفين الذين لا يطبقون القرار باعتباره واجبا إنسانيا واجتماعيا، وإنما يبحثون ابدا عن الطرق الملتوية للتهرب من واجباتهم فترى الموظف ينظر خلال الدوام عشر مرات إلى ساعته متلهفا لانتهاء الدوام ويقفز من مكتبه خارجا قبل ربع ساعة من الموعد المحدد. لماذا؟

لأنه لا يرى نفسه حيث هو بل يفتش عن شىء آخر ويعيش فى اجواء أخرى؟ فالطاعة فى هذا المجتمع الذى يعيش ابناءه القلق النفسى وحالة عدم الرضا والتسليم تصبح قسرا والقسر لا يدوم.

اما فى المجتمع الإسلامي فالقائد بإمكانه ان يجلس ويخطط ويفكر ويقوم بالواجبات الأساسية للقيادة التى سنشرحها فيما بعد لأنه يعلم انه حينما يقول كلاما فالناس سيطبقونه بدون تردد بل برغبة وعزيمة؟

وحالة القيادة تؤثر سلبيا أو إيجابيا على قرارات القيادة فإذا فقدت حالة الرضا والتسليم من المجتمع يصبح حال قائده كحال الإمام على حيث يتأوه ويقول: ويلكم أفسدتم علي رأيي

قالها عندما ظهرت حالة التمرد والعصيان فى صفوف اصحابه واخذوا لا يطبقون قرارات القيادة بالشكل المطلوب ففى هذه الحالة يجد القائد نفسه حائرا لا يدرى أي قرار يتخذ وكيف يخطط لأنه كلما رسم خطة افسدها الناس بعدم الطاعة والتسليم؟ ويقول فى حديث آخر: لا راي لمن لا يطاع

ان المجتمع الذى تعدم فيه حالة الطاعة لا يستفيد من القيادة الناجحة ولو كانت تجسد قمة القيادات كالإمام علي .

التسلسل التنظيمي

وبعد أن تتمتن الأرضية القيادية داخل المجتمع (وهى حالة الرضا والاطمئنان) يأمر الإسلام بالتدرج القيادي أو التسلسل التنظيمي.

فماذا يعني ذلك؟

أن المجتمع أشبه شيء بشجرة كثيفة الأغصان فالشجرة لا تتصل أوراقها بالساق مباشرة وإنما تحمل هذه الأوراق الفروع والأغصان المختلفة متدرجة فى ذلك صغرا وكبرا حتى تتصل الساق بالساق وتستمد قوتها بل وشرعيتها منها أليس كذلك؟

وفى دراسة عن المجتمعات المتحضرة وعن الفرق بينها وبين المجتمعات البدائية يذكر بعض علماء الاجتماع هذه الحقيقة.. كلما زادت الفروع التى تتفرع عن الساق الواحدة فى مجتمع أي زادت الحلقات فى السلسلة القيادية كلما كان هذا المجتمع اقوى أما إذا فقد المجتمع ذلك التسلسل فوجد فيه رأس الهرم ووجدت فيه القاعدة، ولكن لا توجد بين الراس والقاعدة الحلقات الوسيطة فإن هذا المجتمع يكون ضعيفا بل يصبح كالموجودات الطحلبية التى تفتقر إلى الارتباط الوظيفي حيث تعمل كل خلية بمفردها وان كانت ضمن كتلة واحدة. ومشكلة مجتمعاتنا الإسلامية وخصوصا مشكلة الحركات الإسلامية هى مشكلة فقدان الوسائط القيادية ففى هذه الأمة نجد القيادات العليا من الطليعيين ومن العلماء الربانيين كما توجد القاعدة العريضة المؤمنة المخلصة ولكن هناك فجوة واسعة بين الأرضية الجماهيرية وبين القيادة المطبقة لبرامج السماء والملهم لأفراد الشعب لا توجد الوسائط الكافية فتكون العلاقات مفقودة.

ويعود هذا الأمر إلى نقصين أساسيين:

النقص الأول:

يعود إلى أن أبناء المجتمع الإسلامي يطيعون لا يطيقون قياداتهم طاعة اعتبارية وإنما طاعة ذاتية. وهناك فرق بين الاثنين.

قد ترى شخصا مؤهلا للقيادة، مؤمنا صادقا عالما زاهدا فتطيعه طاعة ذاتية، وقد يأتيك رجل قمىء دميم الوجه لا يعرف أن يتكلم بطلا قة ويقول عندى أمر من الرئيس الكذائى بانى انا قائدك، فتطيع هذا الإ نسان ليس لأجل جمال وجهه ولا لطلاقة لسانه، ولا لكفاءته الإدارية وإنما لأجل القانون انه يحمل حكما من ذلك القائد الذى تحترمه وتطيعه.هذه الطاعة تسمى طاعة اعتبارية.

والمجتمعات الناجحة تقاس بمقدار طاعتها الاعتبارية للقيادات لأن الطاعة الذاتية للقيادة مسألة مالوفة فإذا وجدت مثلا ً رجلا ذكيا، فاهما عالما، مؤهلا مديرا مدبرا قاطعته فإنك لم تات بشيء جديد لأن مثل هذا الرجل يطيعه اغلب الناس ثم لتعرف مثل هذا الإنسان فإنك بحاجة إلى وقت طويل حتى وقد لا تتسنى لك معرفته أبدا ممّا يؤدى إلى الفوضى والاضطراب. بينما المجتمع السليم يطيع اعتباريا.

ان مجتمع الرسول الذى كان مجتمعا يتسم بالحيوية والفاعلية كان يطيع قياداته اعتباريا، فلأن الرسول يعطى حكم القيادة لهذا الإنسان فإنه يطاع، وقد يكون هذا الإنسان أسامة بن زيد وهو شاب عمره 16 سنه. يؤمره رسول الله على راس جيش فيه ثلاثة آلاف من المسلمين وفيهم كبار الصحابة، فلم يرفضوا ولم يحتجوا على صغر سنه.هكذا كانت القيادة عند المسلمين وعند كل مجتمع متقدم.اما المجتمعات المتخلفة التى ننتمى إليها فهى لا تحمل هذه الصفة ولكنها تطيع فقط من ترى فيه أهلية مباشرة للقيادة وليس من يحمل امرا من قبل القائد ا لأعلى.

النقص الثاني :

هو فينا وينعكس على مسألة التسلسل التنظيمي وذلك في فقدان التشجيع الكافي للقيادات الوسيطة بين أبنائنا إذ كل واحد منا يريد أن يتصل مباشرة بالقائد الأعلى بطريقة أو باخرى، ولا يفكر ان هذا القائد لا يملك مائة قلب فى جوفه يتمكن بها من إدارة كل الشئون مباشرة , ثم لنفترض ان عنده الإمكانيات الكافية لقيادة المجتمع ولكن افلا يوجد فى هذا المجتمع من يقوم بدور اخر؟ هل انحصرت الأعمال كلها فى القائد الأعلى.ان هذا النوع من التفكير الخاطئ يسبب وأد القيادات الوسيطة في بلادنا بانعدام التشجيع الكافي لها.

ونستطيع أن نضرب مثلا ً واضحا من واقع المجال العسكرى. ف الجيش الذى يفقد ضابط الصف والعرفاء،ورؤساء العرفاء وما اشبه ولا يملك إلا كبار الضابط لا يستطيع ابدا ان يقوم بعمل ناجح ويفتقد القدرة تماما على تنفيذ العمليات التكتيكية، ولا يستطيع إلا أن يقوم بعملية استعراضية كالتظاهرات ان كان يامر القائد الجنود يهجمون بطريقة عفوية.اما العمليات التكتيكية عمليات الهجوم والدفاع التى تحتاج إلى المفارز والأفواج السرايا والكتائب وما يحتاج إلى تدرج الأوامر إلى الجنود من قبل القائد العام فى الظروف المختلفة فليس بإمكان هذا الجيش أجراءها. وذلك بسبب انعدام القيادات الوسيطة.

وهذا يسرى أيضاً على الأعمال الإنشائية والعمرانية وكذلك على الأ نظمة الجامعية والنشاطات الأخرى فى المجتمع والسبب يعود إلى هذين الآن :

الأول: عدم وجود القيادة الاعتبارية.

الثانى: عدم وجود التشجيع الكافى لنمو القيادات الوسيطة داخل التنظيمات والكيانات المختلفة.

القيادة والانبعاث الإسلامي الجديد

كيف يخلق الإسلام القيادات الوسطية بين راس الهرم وهو القائد الأ على وبين القاعدة المطيعة لأوامره؟

للإجابة على هذا السؤال لابدّ أن نذكر:

أولا:

ان الطاعة في الإسلام خاصة بالله سبحانه وتعالى إذ لا يجوز ان يطيع المسلم أحدا من دون الله أنّى كان، ويعتبر ذلك شركا بالله. ولكن فرق بين طاعة ذاتية وطاعة امتدادية، فالطاعة الذاتية إنما هى وحده لا شريك له.اما الطاعة الامتدادية التى تكون لله وبأذن الله (ولكن عبر عبد من عباد الله أمر الله باتباعه وطاعته) فإنها تكون بأذن الله أيضا، فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الحكيم:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا ۖ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ (النساء)

فإذا الرسول هو الوسيط بين طاعة الله وطاعة عباد الله.

لماذا نطيع رسول الله. لماذا نطيع الإمام؟

لماذا نطيع ولي الأمر؟

الجواب: لأن الله امرنا بذلك.

ولولا ان الله امرنا بطاعة رسوله وطاعة اوليائه لكانت تلك الطاعة نوعا من الشرك، وكان ذلك طاعة للطاغوت فكل من يطاع بدون إذن الله يعتبر طاغوتا ويحرم على الإنسان أن يطيعه.

والإسلام يعود الإنسان على الطاعة بإذن الله أي على اعتبار ان الطاعة لله أولا، ولمن أمر الله بطاعته.

ثانيا:

إننا لا نرى في القران الحكيم اية تامرنا بطاعة أحد إلا بعد ان تامرنا بطاعة الله..او تذكر إذن الله يقول ربنا: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولوا الأمر منكم، النساء

فتاتى كلمة اطيعوا الله اولا، ثم بعد ذلك كلمة اطيعوا الرسول واولى

الأمر. وإذا أمر الله بالاهتمام والمحبة والمودة للأقارب وللأب والأم ومن أشبه ترى انه يبدأالحديث بعبادة الله..

أَلا ۟ تَعْبُدُوا إِلا ۟ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا الإسراء

في البداية يذكرنا بعبادة الله أي طاعة الله والطاعة لا تكون إلا لله.. واما الإحسان إلى الوالدين فإنّه سيكون من ضمن طاعة الله وليس شيئا مستقلا.

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا النساء

فالطاعة إذن خاصة باللّه سبحانه وتعالى، وايات القران تعودنا على هذه الحالة فتجعل طاعتنا امتدادا لتلك الطاعة. وحينما تتعود النفس على هذا النوع من الطاعة فباستطاعتها ان تخضع لأي إنسان مهما كانت قناعتها به ومهما كانت صفاته، لا لشيء إلا لأن اللّه أمر بذلك واذن به، وإذا سحب اللّه امره وإذنه فإن ذلك الإنسان يسقط مباشرة عن اعتبار الطاعة.

وتحضرني هنا قصة طريفة وهي أن الإمام الجواد وكان قد عهد إليه بالإمامة في باكورة شبابه وكان عم أبيه من فقهاء الطائفة في زمانه وكان قد ابيضت كريمته في الفقه وكان ذا جاه عريض في المجتمع فجاء إليه بعض الناس فقالوا له كيف تطيع هذا الشاب الصغير العمر وانت بهذه المنزلة، وكيف تعتبره إماما لك وأنت رجل كبير وجاهك عند الناس عظيم، وما أنت عليه من العلم والفقه؟

فقال: ماذا لو أن اللّه لم يجد في هذه الشيبة صلاحية الإمامة، ووجدها عند هذا الفتى؟ ءانكر فضله؟

كان هذا الشيخ يصفّ حذاء الإمام الجواد امامه؟ لأن تكريم الإمام الجواد وطاعته لم تكن لأنه أكبر العائلة سنا كما هو الحال في التقاليد العشائرية ولأنه صاحب شيبة لذلك تتوجه إليه الأفكار والانظار، وليس لأ نه مشهور عند الناس وذو جاه عريض. أو لأنه صاحب مال وافر كلا، وإنما لأن اللّه أمر بطاعته. فالطاعة لله وبأذن اللّه فقط وفقط.

ومن هنا تجد ان الإمام عليا حينما يبين لنا الحكمة في أن اللّه لم يزود أنبيائه بالسلطة المادية أو بالثروة والمال يقول..

لان ذلك ابلغ في الاختبار وامتحان الناس .

لو كان الأنبياء أصحاب اموال عريضة، وسلطة قوية لما كان هناك ابت لاء حقيقي للبشر.

واتصور ان هذه الفكرة تستنبط من قوله سبحانه في قصة نوح حينما جادله قومه وقالوا إننا لا نجد لكم فضلا علينا بل نظنكم من

الكاذبين، رد نوح عليهم..

أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كارِهُونَ هود

أي إننى لم ات برسالة ورائها قوة الحديد والنار أو إغراء المال و الثروة، أو تكتيكات السياسة. وإنما جئت برسالة بينة ويؤمن بها من يؤمن عن بينة، ويكفر من يكفر عن بينة. فالإيمان والكفر يجازى عليهما من قبل اللّه إذا كانا بكامل اختيار الإنسان ووعيه حتى يصبح ذلك امتحانا وفتنة للإنسان، وإلا تبطل حكمة خلق الخلق وإنشاء الكون.

إذن الطاعة ليست إلا لله وحينما يحل الإسلام هذه العقدة من المشكلة السياسية والاجتماعية فى المجتمع انئذ ترى ان القيادات الوسيطة تبرز إلى الوجود دون موانع وعقبات..المجتمع يطيع القائد الأعلى وهو الولى الفقيه أو إمام الأمة، وهو بدوره يطاع بإذن اللّه، والذين ينصبهم كولاة ل لأقاليم والأقطار يطاعون هم أيضا بإذن اللّه، وهكذا يستمر التسلسل التنظيمى الهابط من راس الهرم القيادى حتى يصل إلى قاعدة الهرم المتمثلة بعامة الشعب. فكل فرد يطيع الرئيس المباشر له ويكون بذلك قد أطاع اللّه فى النهاية: وتكون هذه الطاعة طاعة رضا وقناعة وليست طاعة ذاتية. وتكون الأمة كما كانت فى عصر الرسول فى أعلى درجات الانضباط حيث نجد أسامة بن زيد وهو صغير السن يؤمر على جيش كبير وان الرسول يعطى الصلاحيات القيادية لبعض العناصر لحكمة معينة حتى ولو كانت الجماهير لا تقبل بذلك لعدم فهمها لحكمة الرسول ص ولكن الجماهير كانت تخضع بالتالى، لأن طاعة هذا الإنسان إنما هى طاعة لله.

ويذكر المؤرخون ان الانضباط التنظيمى فى الجيش الإسلامى كان أعلى انضباط عرفته الجيوش عبر التاريخ.اذا قال القائد شيئا، سكت الجميع.

وَشَاوِرْهُمْ فِى الأمر فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكلْ عَلَى اللّه ِ إِنّ اللّه َ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ، ال عمران

هذه الكلمة كانت شعار الجيوش الإسلامية. ولم نجد فى الجيوش الإ سلامية اهتزازا أو تشرذما، بل كانت هناك الوحدة والتماسك والاندفاع نحو تطبيق الأوامر وتحقيق الأهداف بإذن اللّه لأن الطاعة الاعتبارية كانت موجودة.هذا عن السؤال الذي سبق وان طرحناه.

قلنا فى حديث سابق ان المجتمع الإسلامى الحق هو المجتمع الذى يتمتع بحالة قيادية وتسلسل قيادي ويكون راس الهرم رساليا.

اما الآن فينبغى ان نشير إلى نقطة أساسية فى التسلسل القيادى فى

هذا المجتمع وهى ان القيادات الوسيطة لا بد ان تكون بذات الم واصفات التى كانت فى راس الهرم.القائد الإسلامى لا يختار القيادات الوسيطة حسب مستطاعه انطلاقا من وجاهتها وشهرتها أو ثورتها أو سلطتها أو قوتها أو شرفها العشائرى إلى غير ذلك وإنما يختارها وفق المقاييس الحقة أي وفق التقوى.

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّه ِ أَتقاكُمْ ، الحجرات

يختار الأكفأ الأعلم، الأفضل إدارة ووعيا.. ول أن الناس يتبعون القائد ب لا مناقشة وباذن اللّه فسوف يتبعون من يعينه القائد على أمر من الأمور ، وبهذا الاتباع ستتوفر للأمة الإسلامية فرصة وجود قيادات فاضلة جداً ونابعة من عمق الواقع.

اما إذا ل م تكن الخيرة بيد القائد الأعلى، كما هو الحال فى الأمة الإسلا مية فى يومنا هذا وارادت المجموعات الإسلامية ان تختار قياداتها الموقعية الميدانية فكيف تتصرف؟ لو افترضنا ان هناك تجمعا إسلاميا مصغرا فى بعض ولايات الهند أو بلاد افريقيا أو قرى إندونيسيا فكيف يختار قيادته؟

الجواب أن الإسلام يقول:

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّه ِ أَتقاكُمْ ، الحجرات

وهذا يعنى انه لا ينبغي أن يختار القائد لأنه أكثر لباقة وطلاقة لسان أو لأنه الأكبر سنا، أو لأنه الأسبق إلى النضال أو لأنه أكثر مالا وجاها.. فهذا هو الانحراف، بل هو الشرك الخفى، وإنما يجب أن يختار بمقاييس إسلا مية.. فيفكر أعضاء الجماعة لو أن رسول اللّه بينهم وأراد أن يختار لهم قائداً فمن يختار؟ هل كان يختار صاحب المال والجاه، هل كان يختار الأ كبر سنا والأشيب شعرا.. وإنما كان يختار الأفضل من النواحى الإيمانية والإدارية. فإذا اختاروا الأفضل، والأتقى، والأكبر والأكفأ إدارة وبالتالى إذا انطلقوا من قيم إسلامية فى اختيارهم فسوف تكون هذه الخيرة من قبلهم سببا فى ديناميكية التجمع وفى المزيد من فاعليته، وفى ان كل واحد من افراد ذلك التجمع يسعى لتحصيل ذات القيم التى اختاروا القائد انطلاقا منها، ولكننا إذا اخترنا القائد باعتباره أكثر مالا ً إلا مثلا ً فكل واحد سيقول حسنا ساحاول الحصول على المال الكثير حتى يختارونى قائدا، ولو اخترنا القائد باعتبار قبيلته، أو عشيرته ونسبه فكل واحداً أيضاً سيسعى للتطبيل والتزمير والدعاية لقبيلته وعائلته لكى ينتخب قائدا، وهكذا يكون تركيز المجتمع على القيم المادية الزائفة.

مثل من واقع العراق:

إذن لو كانت القيادة تنشا فى بلد باعتبار ان هذا الشخص من تكريت

كما هو الوضع في عهد نظام صدام فستكون حتى القطة التكريتية مسئولة فى الدولة ومثل هذه السلطة لا يهمها كفاءة من تـوليهم المناصب إنما المهم لديها الولاء التكريتى..الملازم فلان ابن عم الرئيس، فيجب ان يكون وزيراً للدفاع حتى ولو كان حديث التخرج من الكلية العسكرية وحتى لو كان يوجد فى الجيش العراقى من يحمل اعلى الرتب العسكرية ! فى ظل هذهالنظرة الضيقة سيكون هم الكثيرين منصبا على التزلف إلى العائلة الحاكمة ومن الأمراء المتسلطين لأن هذا هو الطريق الوحيد لإحراز المكاسب وإلى الحصول على النافع.

فعلى التجمعات الإسلامية اتى انشئت ان تحذر من التورط فى الا نحراف الرئيسى، وهو الانحراف فى اختيار القادة وفق المقاييس الجاهلية.منذ البدء يجب أن تختار قياداتها وفق المقاييس والمفاهيم الإ سلامية الحقة.

وفى أحاديث كثيرة يبين لنا الإسلام كيفية اختيار القيادة وسنورد بعضها في الفصول القادمة إنشاء الله.

أين تكمن دخائر الحضارة الإسلامية

والآن اود ان اذكر بمسالة هامة امهد لها ببيان حقيقية تاريخية وهى ان الحضارات البشرية تجليات بعد انطواءات أى انها تسير بين قطبى الكمون والظهور حسب التعبير الفلسفى فتكمن وتختفى لفترة ثم تنبعث من جديد فى فترة أخرى فنرى الحضارة الهيلينية مثلا ً اختفت فترة ثم ظهرت باسم آخر وبشكل آخر ولكن جوهرها ذات الجوهر وتسمى الفترة بين ظهور وظهور بفترة السبات وفى هذه الفترة تبقى مجموعة من الناس خازنة للحضارة تحتفظ بقيمها وأساليبها وارتباطاتها وعلاقاتها. حتى تأتى مرحلة مواتية لانبثاق هذه الحضارة من جديد، فمث لا ً ما يسمى بالحضارة الغربية التى هى امتداد للحضارة الهيلينية ظلت لفترة من الوقت فى سبات عميق. ثم بعد فترة وإذا بها تبدأ من جديد وتنطلق خلال هذه الفترة التى دامت قرونا، من الذى حافظ على هذه الحضارة وقيمها فى الفترة بين سنتى 370م إلى 650م؟.ا لمؤرخون يذكرون بأن الكنيسة هى التى حافظت على قيم هذه الحضارة. وكما تكتب التجارب فى كتاب وتسجل فى سفر ويبقى ويخزن فى مكان أمين حتى يأتى من يضع محتوياته موضع التنفيذ كانت الكنيسة تحافظ على الحضارة المسيحية علما بأن الكنيسة فى الفترة التى اشرنا إليها وإلى بداية ظهور الإسلام وانتشاره، كانت تقريبا على حق باعتبار ان الرسالة السماوية القائمة انذاك كانت هى الرسالة المسيحية، رسالة المسيح عيسىابن مريم ..هكذا ظلت هذه الحضارة

محفوظة عند الأحبار والرهبان إلى أن ظهرت مرة أخرى.

ونحن في العالم الإسلامي نعيش اليوم فترة السبات أو لا اقل نعيش نهاية هذه الفترة التي بدات منذ القرن السابع الهجري حيث انطوت الأمة على نفسها وقعد الناس قادة وعلماء في بيوتهم وما ظهر في الأمة الإسلامية من حكومات ودول لم تكن في الواقع إلا محاكاة وتقليد للحضارة السابقة ولم يكن لديها إبداع ولم تات بجديد، وظلت على هذا الحال من الركود إلى الآن حيث يبدو انها الآن بدات مرحلة جديدة وهي مرحلة اليقظة والظهور، والذي جرى في إيران حسب ما يرى دارس الحضارات.اي انبعاث الثورة الإسلامية لم يكن إلا جزءا من ظهور وتجلي الحضارة الإسلامية. ونحن نرجو أن يكون الأمر كذلك.

دعنا نتساءل: خلال هذه الفترة من الذي حافظ ويحافظ على الإسلام ؟.

هل الذي حافظ على الإسلام الحق هي هذه العسكرتارية الحاكمة و المتحكمة في البلاد؟.

هل كان المثقفون المتاثرون بأساطير وخرافات الجاهلية قد فعلوا ذلك؟.

هل كانت الجامعات المتاثرة والمحاكية والمقلدة لأفكار الغرب و الشرق هي التي تكفلت بذلك؟.

كلا..انما الذي حافظ على المكتسبات الحضارية للأمة الإسلامية كانت هي الحوزات العلمية. كانت تلك الصفوة من المؤمنين الذين وازنو العلم والهدى وحافظو على العلاقات الإيمانية بينهم واحتفظوا بمكاسب الحضارة.

والآن حين نشهد البعث الإسلامي الأصيل نراه لا يأتي من الجامعات. ولم ينطلق من أروقة السياسة ولا من المجالس البرلمانية. ولا من الغرف العسكرية ولا من دور النشر التي همها ترجمة الكتب المؤلفة في الشرق والغرب.. ولكنك ترى أن الانبعاثة الجديدة جاءت على يد شخص قضى عمره في المحافل العلمية في حوزة قم متاثرا بذات الأساليب الإسلامية التي طبقها النبي محمد ، وبذات العلاقات الإيمانية والمناهج الفقهية ترى أن الإمام الخميني حفظه اللّه هو الذي قاد هذا (البعث الإسلامي)، لأن هذا البعث يجب أن ينطلق من هذه الحوزات، ولان الثقافات والأفكار الغربية أو الشرقية التي حاكتها وقلدتها جامعاتنا وساستنا وعسكريونا ونوابنا في المجالس وطبقاتنا المرفهة لم تكن قادرة على تفجير البعث ا لإسلامي، بل كانت بضاعة جاهلية ردت إلى اصحابها، كانت هذه الثقافات قنوات صبت بالتالي في بحيرة الشرق والغرب.

البعث الإسلامى انطلق من هناك، وهذا هو تفسير ما يقوله كبار المفكرين الغربيين معترفين بأن لا خلاص للأمة الإسلامية ولا تقدم ولا حضارة إلا على يد علماء الدين.

هذا الكلام يقوله المفكر الغربي الذي يسمه الكتاب الغربيون بالعلامة.

(هاملتون جب)، يقول بكل صراحة لا يمكن للأمة الإسلامية ان تصل إلى مستوى من الحضارة إلا على يد علماء الدين. وهذه الفكرة تعكس فى الواقع الحقيقية بعينها.

علماء الدين.. خريجو الأزهر.. مراجع النجف وكربلاء وقم وقيروان وغيرهم هم الذين طردوا الاستعمار العسكري من البلاد الإسلامية. من كان السنوسى، ومن كان المهدى، ومن كان الأفغانى، ومن كان الشيرازى، ومن كان عبد الكريم الخطابي، ومن كان عبد القادر الجزائري؟

من كان هؤلاء الذين نهضوا في وجه الاستعمار؟

فى أى جامعة من جامعات الغرب درس هؤلاء، ومن أى منهل من مناهل الفكر الغربي شربوا؟

لقد كانت ثقافتهم إسلامية خاصة ولذلك تمكنوا من إنقاذ البلاد الإسلا مية من سيطرة الأجانب العسكرية.اما أولئك الساسة الذين خضعوا للثقافة الغربية وتاثروا بها فلم يتمكنوا إلا ان يعيدوا البلاد الإسلامية هدية متواضعة وباردة إلى اسيادهم، لأن هؤلاء الذين درسوا فى جامعات الشرق والغرب وتاثروا بالمناهج الاستعمارية، كانوا عبيدا مجانا للمستعمرين كانت ذواتهم تدين بالعبودية للشرق والغرب لم يكونوا يرون خلاصا لنا إلا باتباع الشرق أو الغرب. كانوا مهزومين نفسيا بل انهم كانوا من أبناء الشرق والغرب ولم يكونوا من أبناء الأمة الإسلامية حقا، وان انتموا ماديا (فيزيقيا) إلى بلاد الإسلام، المادة لا تستطيع أن تصنع شيئا في عالم السياسة. والروح هي التي تعمل كل شيء.

لذلك تجد ان القيادات الإسلاميةالتى ندعو إليها والتى نشير إلى مراكزها ومنطلقاتها ومرابض رجالها، هى التى تستطيع أن تنقذ بلادنا من ايدى الشرق والغرب وان تبعث روحا جديدة فى هذه الأمة وتبنى حضارة تليدة وجديدة بإذن الله وهى الحضارة الإسلامية. وهذه هى قصة الهرم التى ندعو إليها فى التجمع الإسلامى. قمة الهرم التى تأتى خ الصة من نفس الينبوع الذى تفجر على يدى النبى الأعظم والأئمة المعصومين .

ان العالم ينتظر البعث الإسلامى على يد أولئك الذين حافظوا على الحضارة الإسلامية خلال فترة الرقاد العميق فى العالم الإسلامى.اما تلك

الفئات والطبقات والأحزاب والمنظمات التى انساقت مع الشرق والغرب واستعبدت عبودية ثقافية من قبل الأجانب فإنها لا تزيدناالا ضلالة وتيها وابتعادا عن ذاتيتنا وعن أصالتنا وحضارتنا.

القدوات الصالحة

الحوزات العلمية هي المستودع الأمين الذى حفظ القيم الإسلامية، عبر القرون الطويلة، وقاوم كل محاولات التذويب وكل إغراءات التقليد للثقافات الأجنبية وبالتالى فهى الرحم النظيف والمناسب لولادة الحضارة الإسلامية من جديد. لقد جسدت فى واقعها العلاقات الإيمانية فاستطاعت أن تصمد بصلابة إمام الحركات الاحتوائية.ان علماء الدين والمجموعة المصطفاة من المؤمنين المجاهدين من حولهم.هم الذين حافظو على نور الإسلام فى عصور الظلمات وفى فترة السبات العميق و الركود والتخلف الذى كانت تعيشه أمتنا الإسلامية على طول القرون السبعة الأخيرة.

ولتوضيح هذه الفكرة دعنا نضرب مثلا ً من واقع التاريخ وعلى لسان المؤرخ البريطانى المعروف ارنولد توينبى، الذى يحكى لنا، قصة الحضارة الغربية وكيف انها ولدت من رحم الكنيسة وعلى يد حملة رسالة المسيح، الذين عاشوا محتفظين بهذهالرسالة عبر قرون الظلمات التى امتدت من عام 375م، إلى حوالى عام 675م، أى قبيل ظهور الرسالة الإسلامية. يقول هذا المؤرخ: والواقع أن الإمبراطورية (يقصد الإ مبراطورية الرومانية) سقطت وبقيت من بعدها الكنيسة لأن الكنيسة ن الت الزعامة وكسبت ولاء الناس لها، بينما فشلت الإمبراطورية حقبة طويلة فى الفوز بهذا أو ذاك،وبالتالى غدت الكنيسة وهى التى تخلفت عن مجتمع متحضر، الرحم الذي خرج منهالمجتمع الجديد.

ويقول: (إذا ما قورن ما أدته تلك الدول للمجتمع الغربى بما قامت به الكنيسة له، نجد أن دور تلك الدول سلبى ولا يعتد به، إذ هلكت جميعها تقريبا بفعل العنف قبل نهاية فترة الفراغ).

كما يحدثنا طويلا عن هذه الدول كيف هلكت ولم يبق منها شيء، ثم يقول عن سبب بقاء الكنيسة حافظة لرسالة السيد المسيح وبالتالى لرسالة السماء آنئذ يقول (يجد انه بينما تنتمي الكنيسة إلى الماضى و المستقبل على السواء، انتمت الدول التى اقامها البرابرة بكليتها إلى الماضي فقط).

وهكذا نجد ان التاريخ يعيد نفسه، فكما الحضارة الأوروبية النى انبعثت من رحم الكنيسة وقتئذ لأن بقية من نور الرسالة السماوية التى هبطت على سيدنا المسيح كانت تشع فى اقبية الكنيسة ذاتها، ثم

خرجت وأعادت حضارة أولئك الناس، الذين اقتبسوا قليلا أو كثيرا من ذلك النور.نجد أن هذا التاريخ يعيد نفسه فى بلادنا مرة أخرى، حيث إن البعث الإسلامى الأصيل ينبثق من رحم الحوزات العلمية، وعلى ايدى المؤمنين الصادقين الذين ابقوا على الإسلام يحتضنونه ويدافعون عنه فى زوايا المساجد وفى فصول المدارس الدينية، ان هذه الحضارة انطلقت مرة أخرى من ذات الرحم وهذا ما يؤكد على أن التاريخ يعيد نفسه، أن لم يكن كاملا فلا ريب في سننه العامة التي لا تتغير.

علماء الإسلام والقيادات الوسيطة:

لقد اكدنا فيما سبق ان حلقات القيادات الوسيطة فى المجتمع الإسلا مى لا بد ان تتسم بذات المواصفات التى اتسمت بها القيادة العليا، ف المجتمعات الرسالية المحلية تختار قيادتها من منطلق القيم الإسلامية و التعاليم السماوية وعدم الخضوع للأهواء والاعتبارات المادية والمظاهر الزائفة فتكون أسس الاختيار هى العلم والزهد، والتقوى، والكفاءة الإ دارية، والروح الثورية وما أشبه. فلو فرضنا جماعة معدودة من المؤمنين يعيشون فى جزيرة نائية وارادوا ان يختاروا لأنفسهم قائدا فإن اختيارهم لا يكون نابعا من اهوائهم أو عن القيم الجاهلية، كقيمة المال والشهرة وقيمة العمر.انما يجب عليهم أن كانوا مؤمنين حقا أن ينظروا فى اختيارهم لقيادتهم إلى الم واصفات الإسلامية الحقة والتى تتجسد فى التقوى والعلم والكفاءة والزهد والقدرة الإدارية ... الخ. وهذا هو قمة الحضارة والتقدم، ان يتبع تجمع ما قيما نظيفة اصيلة كقيمة العلم وقيمة النشاط والإرادة والعمل الصالح.

ان الإسلام يريدنا ان نتمحور فى جميع الأصعدة وعلى مستوى كل الطبقات حول الرجال الأكفاء المخلصين فى عبوديتهم لله وحده، فلو اردنا ان نختار رجلا لكى يصبح مختارا لقريتنا، أو قائدا لمحلتنا وبلدنا الذى نعيش فيه، أو اردنا ان نختار رجلا يمثلنا فى مجلس الشورى، فيجب أن ننطلق فى اختيارنا من تلك القواعد الإيمانية. والإسلام من أجل أن يكرس هذه الفكرة فى المجتمع الم سلم فهو يهتم بأن يرسم مواصفات الرجال الصالحين ليخلق منهم النموذج المتبع والمقتدى، الذى يحاول ويسعى كل فرد ان يقترب إليه أو ان يتمثله فى واقعه وبالتالى تنشا شخصيات قيادية يمكن للناس ان يلتفوا حولها ويعملوا تحت لوائها.

جاء فى حديث شريف عن الإمام محمد العسكرى تقييما صادقا للناس ومقياسا لاختيار الرجال الصالحين حيث يقول:

Sإذا رايتم الرجل قد حسن سمته وهديه، وتماوت فى منطقه

وتخاضع فى حركاته، فرويدا لا يغركم، فما أكثر من يعجزه تناول الدنيا وركوب الحرام منها لضعف بنيته ومهانته وجبن قلبه، فنصب الدين فخا لها فهو لا يزال يختل الناس بظاهره فإن تمكن من حرام اقتحمهR.

فهذا النموذج من الناس ليس النموذج المقتدى وهو الإنسان الذي يتخاضع ويتماوت ويتحدث إليك بكلمات لينة ولا يرفع صوته، ويتحرك فى مسيره ببطء وهذا ما يسمى فى الأنماط الاجتماعية المتخلفة ب (الرجل الطيب) وهو الرجل الذى يذهب فى دربه ويعود في دربه دون أن يفكر في الناس أو يقتحم الميادين، فالإمام يقول لا يغركم هذا فإنه قد يكون ذئبا فى اهاب شاة، وقد تكون روحه روحا فاسدة الا ان ضعفه وذله وصغاره فى اعين الناس هو الذى يمنعه من أن يقتحم الحرام وليست إرادته، وإذا وجدتموه يعف عن المال الحرام فرويدا لا يغركم فإن شهوات الخلق مختلفة فما أكثر من يثبو عن المال الحرام وان كثر ويحمل نفسه على سوئها قبيحة فياتى منها محرما فإذا وجدتموه يعف عن ذلك فرويدا ً ً لا يغرنكم حتى تنتظروا ما عقدة عقله، فما أكثر من ترك ذلك اجمع، ثم لا يرجع إلى عقل متين فيكون ما يفسده بجهله أكثر ممّا يصلحه بعقله. قد يكون الرجل يعف عن المال الحرام ولكنه لا يعف عن الشهوات الأخرى فلا يغركم عفافه عن المال الحرام، وقد يكون متقيا يعف عن سائر الشهوات ولكن لا يكفى ذلك لاتباعه وجعله قدوة فقد يكون إنسانا متقيا وورعا ولكنه لا يعود إلى عقل سليم فيقول الإمام انظروا إلى عقله، فإذا وجدتم عقله متينا فرويدا لا يغرنكم حتى تنظروا امع هواه يكون على عقله، أو يكون مع عقله على هواه، حينما تختلف الرايات يعرف الرجال اما فى حالة وحدة الرآيات فى مسيرة عريضة واحدة لا تعرف ان هذا الإنسان يمشى مع عقله أم مع هواه يمشى معك أو ضدك لأن الطريق واحد ولكن ما أن تتفرق السبل انئذ تكتشف الرجل في أي اتجاه يسير، وكيف محبته للرئاسات الباطلة، وزهده فيها. فإن من الناس من يترك لذة الأموال والنعم المباحة المحللة فيترك ذلك اجمع طلبا للرئاسة حتى إذا قيل له اتق اللّه اخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد، قد يكون الرجل يترك كل الشهوات وعقله سليم ووعيه كاف ولكنه يسقط إذا امتحن فى مضمار الرئاسة الولايات مضامير الرجال كما فى الحديث، وحينما تامره بالمعروف تجده يتكبر وتاخذه الحمية الجاهلية، لأن عقدة الرئاسة تمنعه من تقبل النصح من أي كان..ه ذا المضمار والمختبر الحقيقى لجوهر الإنسان، لذلك ترى ان هذا الإنسان العاقل الواعى الزاهد، المتعفف، عندما يتسلط عليه حب الرئاسة فإنه يقتحم ميادينها، وقد حجبت بصره وبصيرته وعلمه حجب داكنة غامقة سميكة فيقتحم المهالك ولا يهتم إذا هلك قومه وشعبه وتضررت أمته..ا لمهم ان يبقى هو سيادة الرئيس فهذا يكفيه وهو لا يريد الأكل والشرب

والراحة ولكنه يريد الرئاسة فقط فهو يتخبط تخبط عشواء يقوده أول باطل إلي ابعد غاية الخسارة ويمده ربه بعد طلبه لما لا يقدر عليه فى طغيانه فهو يحل ما حرم الله ويحرم ما احل الله لا يبالى بما فات من دينه إذا سلمت رئاسته التى قد شقى من اجلها فاولئك الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم عذابا مهينا، إذن هؤلاء الرجال كلهم سقطوا ولم يستطع أي واحد منهم أن يصبح قدوة للناس. فمن هو الرجل؟

الإمام يعين لك الرجل الذى يجب أن تقتدى به ولكن الرجل، كل الرجل هو الذى جعل هواه تبعا لأمر الله، وقواه مبذولة فى رضا الله، يرى الذل مع الحق اقرب إلى عز الأبد، من العز فى الباطل، ويعلم ان قليل ما يحتمله من ضرائها يؤديه إلى دوام النعيم فى دار لا تبيد ولا تنفذ، وان كثير ما يلحقه من سرائها ان اتبع هواه يؤديه إلى عذاب لا انقطاع له ولا يزال، فذلكم الرجل نعم الرجل فبه فتمسكوا، وسنته فاعملوا وإلى ربكم فتوسلوا فإنه لا ترد له دعوة.

بعدما يحدد الإمام مقاييس ثابتة لتقييم الرجال ويحدد مواصفات القائد انئذ يقول لك تمسك بذلك الرجل الذى لا يريد أن يعز نفسه مع الباطل ولكنه يتمسك بالحق ولو ادى ذلك إلى ذلة عند الناس، العز فى الدنيا محدود لنفترض سابقى ملكا لمدة سبعين عاما ثم ماذا بعد ذلك؟ إذا كنت ساحترق بنار جهنم يوم القيامة مع عقارب كالبغال وحيات كالجبال وزبانية تعذيب يتميزون غضبا فماذا ينفع ان ملايين البشر يمدحونني ويعظمونني فماذا اصنع بمدحهم وتعظيمهم؟ ماذا اصنع بصوري ملصوقة على الجدران هنا وهناك؟

صفات القدوة:

نوح عاش أكثر من الفى عام فلم يبنى لنفسه بيتا، فجاءه ملك الموت فإذا به يرى نوحا (ع) نائما فى كوخ يظلل نصف جسمه، قال يا نوح لماذا لم تبنى لنفسك بيتا تعيش فيه، قال يا هذا من انت؟ وأراه كيف يبنى البيت؟ هذا الإنسان بهذه الروحية يمكن أن تتبعه بشرط ان يكون سليما، ووعيه كاملا، يفضل الذل فى الدنيا مع الحق، على السلطة والشهرة مع الباطل هذا الإنسان تمسكوا به واجعلوه بينكم وبين الله فإنه لا يرد له دعوة.

هل عرفتم كيف يريد الإسلام صنع القيادات الوسيطة من هذه النماذج، والله لا تتخلف أمة تتبع مثل هؤلاء القادة الذين يعطينا الإمام علي بعض مواصفاتهم وهو يتحدث عن أصحاب محمد :

لقد رايت اصحاب محمد فما ارى احدا يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا، قد باتوا سجدا وقياما يراوحون بين جباههم وخدودهم

ويقضون على مثل الجمر من ذكر معادهم كان بين اعنيهم ركب المعزى من طول سجودهم، إذا ذكر اللّه هملت اعينهم حتى تبل جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف خوفا من العقاب ورجاء للثواب .

او ليس هؤلاء هم الذى يجب أن نتمثل هداهم ونقتدى بسيرتهم ونختار قياداتنا وفق مواصفاتهم.ان هؤلاء لم يكونوا أنبياء وإنما كانوا اصحاب محمد ص اقتبسوا من نور الرسالة شعلة اوقدت فى قلوبهم محبة اللّه وخوف القيامة واثيرت فى نفوسهم تلك الفطرة السليمة التي أودعها اللّه في كل إنسان، ونحن باستطاعتنا أن نكون مثلهم.

ويقول الإمام على فى حديث آخر من نهج البلاغة وهو يتاوه شوقا إلى أولئك الذين وجدهم فى عصر الرسول ، فاستشهدوا أو ماتوا وتركوه وحيدا (أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه وقرءوا القران فاحكموه وهيجوا إلى الجهاد فولهوا إليه وله اللقاح إلى اولادها، وسلبوا السيوف اغمادها واخذوا باطراف الأرض زحفا زحفا، وصفا صفا، بعض هلك وبعض نجا لا يبشرون بالأحياء ولا يعزون عن الموتى مره العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، علة وجوههم غبرة الخاشعين، أولئك إخوانى الذاهبون حق لنا أن نظما إليهم ونعض الأيدي على فراقهمR

انظروا..إلى صفات هؤلاء.. فمن جهة تراهم حينما يدعوا إلى الجهاد يهرعون إليه كما تهرع الأم إلى أولادها، ويواصلون جهادهم فى أطراف الأرض زحفا زحفا، وصفا صفا، أى مصرين على إدامة الحرب ولو زحفا على صدورهم وفى نفس الوقت متحدين صفا كالبنيان المرصوص ومن جهة أخرى عندما يسدل الليل استاره تجدهم غبر الوجوه خمص البطون، مره العيون أى عيونهم قد خرجت من البكاء ساهرين الليل فى التهجد و العبادة فهؤلاء هم قواتنا، وقادة التجمعات الرسالية في المجتمع المسلم.

ليس اللسان الطليق والكلمات المنمقة والأحاديث المزخرفة والا دعاءات الباطلة مقاييس فى التجمع الرسالى الذى نسميه حزب اللّه.انما المقياس هو هذا، نجد الرجل بعيد عن الدنيا وما فيها متوجها إلى اللّه فهذا هو النموذج الذي يجب أن تختاره، ويختاره المجتمع المسلم.

الأقلية الواعية تقود المجتمع:

ان المجتمع البشرى يشبه إلى حد بعيد جسد الإنسان الذى يتكون من اعضاء كثيرة تخضع كلها جميعا لقيادة العقل وتمتثل له، وهذه الأعضاء لا تتلقى الأوامر الصادرة من العقل مباشرة وإنما عبر شبكة من الأجهزة التنظيمية المتسلسلة كالمخ والجهاز العصبى الغدد والقلب والأوعية الدموية والعضلات، وهكذا حتى تصل الأوامر بالتالى إلى الأعضاء

المعنية فتقوم بالعمل المطلوب، وكذلك المجتمع فالأمر الصادر من القائد الأعلى يمر عبر شبكة من الحلقات التنظيمية المتمثلة فى الأجهزة والإ دارات والمؤسسات والمسئولين حتى يصل إلى القاعدة أى الأفراد المطلوب منهم القيام بالتنفيذ.

والأغلبية الساحقة من افراد المجتمع لا يملكون التوجيه الذاتى وقد يكون 90 % أو أكثر يتبعون موجها. ذلك لأن التقليد فطرة طبيعية عند البشر، فمنذ ان كان الإنسان وإلى اليوم كانت هناك اقلية مبدعة تحكم الناس، وان الأغلبية العظمى من أبناء المجتمعات تتبع هذه الأقلية الواعية والمبدعة، ولكن هناك فرق كبير بين أنواع الأقلية المبدعة التى تقود المجتمع فقد تكون من شيوخ العشائر أو كبار السن أو كهنة الدين أو أدعياء العلم، كما فى الشعوب المتخلفة.اذهب إلى الشعوب المتخلفة وابحث عمن يقودهم.

هل هم يقودون أنفسهم؟

كلا.ان الذى يقودهم هو شيخ العشيرة وعلى تلك الأسس التقليدية المتوارثة أو الذى يقودهم هو كاهن اوجراو من يدعى انه عالم دين وذلك على أسس بالية متحجرة.

وهكذا فى المجتمعات المتقدمة، والثورية ينقاد المجتمع ولكن من يقوده؟.

إنما يقوده اصحاب العقول النيرة ذات الابتكار والإبداع، وذات الرؤية البعيدة والتطلعات السامية، وهم رواد المجتمع. وأصحاب رسول الله كانوا تلك الصفوة القادرة على الإبداع والابتكار، والاجتهاد بتعبير اخر، وا لاستنباط بتعبير ثالث، هؤلاءهم الذين كانوا يقودون الأمة الإسلامية فى بداية انطلاقها، إذا رايت صحابيا من اصحاب رسول الله فى بلد فيه مليون إنسان فإنك تجد ان ذلك الصحابى سوف يصبح محورا لكل تحرك في هذا المجتمع.

وفي الثورات الشعبية، وبالرغم من أن الثورة تقوم بها كل الجماهير ولكن الجماهير ليست كلها واعية وعاقلة وحكيمة ومخططة، وإنما هناك مجموعة بسيطة من الثوار هم الذين يقودون هذه الجماهير الملتهبة و النشطة الني تتبعهم وتعمل تحت قيادتهم.

فالفرق إنما هو فى الأقلية الحاكمة القائدة والمجتمع حتما منقاد وابناءه ينقادون ولكن لمن؟

الإسلام يريد أن يغير الأقلية الحاكمة فى المجتمع لتكون هذه الأقلية القائدة مختارة على أسس سليمة وليس على اعتبارات زائفة، والحركة ا

لإصلاحية الإسلامية تدعوا إلى تغيير الأقلية الموجهة وليس إلى تغيير المجتمع بمعنى إبعاد كل أعضائه المنحرفين وإحلال اناس صالحين مكانهم.

لنفرض ان قطارا يسير على سكة حديدية وقد تسببت مؤثرات معينة، كالإنزلاقات الأرضية في تلوى هذه السكة فى مرحلة من مراحلها الجبلية. بحيث لو سار عليها القطار تهوى إلى الوادى وتحطم، فهل تفكر فى تغيير القطار نفسه فى هذه الحالة؟ وإنما الصحيح ان نبق على القطار ونغير السكة فيصل القطار إلى الهدف بسلام فبدلا من أن يذهب قطار المجتمع عبر سكة الضلالة إلى النار يغير الإسلام وجهته عبر تغييره للسكة التى يسير عليها حتى يتحرك قطار المجتمع إلى الجنة والسعادة والفلاح وعبر سكة الحق.

ان الأحاديث التى تلوناها وكثير من امثالها تريد ان تغير قيادة المجتمع، ان تجعل المتقين الصادقين النموذج المقتدى وليس اصحاب الأهواء والضلالات.

والمؤرخ الذي تحدثنا عنه وهو (ارنولد توينبى) يعلل فى كلمة تحكمية نجاح الشعب البريطانى بقوله،، لأنه كان مقلدا أكثر من غيره ومحافظا ومتبعا أكثر من غيره لقيادته،، ولكن القيادة تبدلت عنده فيقول هذا المؤرخ فى كلمات غامضة وبفكرة تشبه الفكرة التى طرحناها، بيد انه عندما تقطع فرصة العادة، يعاد توجيه ملكة المحاكاة التى ظلت توجه حتى هذا الوقت إلى الخلف صوب المسنين أو الأجداد، باعتبارهم تجسيدا للتقليد الاجتماعى غير المتغير، لتتغير صوب الشخصيات المبدعة التى تهوى قيادة رفاقها معها صوب ارض الميعاد،، أى صوب التطلعات السامية،، ويلتزم المجتمع الأخذ فى الارتقاء من الآن فصاعدا بأن يعيش حياة تحمل طابع المجازفة.

فى حين يتمثل الشرط المطلوب لتحقيق المحاكاة الفعالة التى هى ذاتها ضرورة لازمة للارتقاء فى توافر درجة جوهرية من ذاتية الحركة الشبيهة بالآلهة (). ولقد كان ثانى هذين الأمرين في ذهن،، (والتر بوجهوت)،، وقتما انبأ قراءه الإنجليز بطريقته الساخرة بأن قدرا كبيرا من نجاحهم النسبى كان يرجع إلى غبائهم،، يقصد الغباء انهم يتبعون زعمائهم اتباعا اليا،، اما ان الزعماء اخيار فنعم إلا ان الزعماء الصالحين لم يكن ليتوفر لهم اتباع صالحون ان اعتزمت جمهرة هؤلاء الاتباع ان تفكر لنفسها على انهم لو كانوا جميعا اغبياء فاين موضع الزعامة؟

هنا يحدد هذا الكاتب فكرة سبق وأن ذكرتها، وهى ان المهم فى المجتمع هو قيادة الصالحين.. وتحقيق ما يقوله الله س، وهو حق عباده بذلك: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ

105 الأنبياء

فإذا كان الزعماء صالحين وكانت القيادة بيدهم عندئذ ستكون وجهة المجتمع إلى الإمام حتى ولو لم يكن كل اعضاء هذا المجتمع صالحين، الصلاح يجب أن يكون فى اتباع القادة الصالحين، وهذه هى فلسفة التقليد بمفهومه الأوسع فى النظرية الإسلامية الرسالية. التى سنقوم بمزيد من البحث حولها في البحوث القادمة.

العلم والمال في المجتمعات الرسالية

الحياة تعتمد على قاعدتين أساسيتين هما..العلم والعمل، والعمل حينما يتكثف يتحول إلى رصيد متراكم يسمى مالا. فالمال فى الواقع ليس إلا عملا مركزا ومتراكما، انت تعمل طوال شهر وعوض عملك تقبض مالا.

إذن المال ليس هو إلا العمل، أما العلم فهو جانب الرؤية إلى الحياة، ومعرفة الأنظمة الحاكمة فيها وطريقة تسخير الأرض ومعادنها، ومعرفة النظام الكونى الذى نعيش فيه، كل ذلك هو العلم وحياة البشر فوق البسيطة تعتمد على هذين العنصرين العلم والمال.

وحينما نقيس العلم والمال فلا ريب ان العلم يسمو على المال، ذلك لأ نه لولا معرفة الإنسان بالحياة لما كان هناك فرق بين البشر وبين سائر الأ حياء، بل لم يكن هناك فرق بين الإنسان وبين الطبيعة، والإنسان إنما سخر الطبيعة بعلمه، لذلك نجد فى الآيات القرانية تذكرة بهذه الحقيقة حيث يقول الله س في قصة نبينا آدم :

عَلَّمَ ادَمَ الأسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلا ئ ِ ك َ ة ِ فَقَالَ انْبِئُونِي فَقَالَ انْبِئُونِي بِأسْمَاءِ هَؤُلا ء ِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ (32) قَالَ يَا ادَمُ انْبِئْهُمْ بِأسْمَائِهِمْ فَلَمّا انْبَأهُمْ بِأسْمَائِهِمْ قَالَ ألَمْ أقُلْ لَكُمْ إِنّي أعْلَمُ غَيْبَ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَأعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تكْتُمُونَ (33) وَإِذ قُلْنَا لِلمَلا ئ ِ ك َ ة ِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إبليس أبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكافِرِينَ البقرة 31... 34

لماذا سجدوا للإنسان؟

لان اللّه علم الإنسان ما لم يعلم، حينما زود اللّه ابن ادم بالعلم اسجد له ملائكته وإذا كانت الملائكة هى الحقائق الغيبية الموكلة بالطبيعة فلقد اسجد اللّه للإنسان كل الطبيعة وسخرها له باستثناء شيء واحد هو نفس الإنسان الأمارة بالسوء التى تمثل تمرد إبليس وعصيانه لأمر الخالق جل شانه وإذا استطاع الإنسان أن يخضع نفسه الأمارة بالسوء، عندها ينتصر على الشيطان وبذلك تكون الطبيعة قد سخرت للإنسان بشكل تام، ويكون قد حقق السيادة الكلية على الكون، وذلك ما يريدهالله عز وجل حيث قال :

لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تقويمٍ 4 التين

كيف يستطيع الإنسان ان يخضع نفسه الشهوانية لعقله النّير؟

وينتصر على عدوه الأكبر الشيطان؟

ان ذلك يتم بالعلم ايضا، ذلك العلم الإلهى الذى اودعه اللّه س فى الإ نسان، ان إبليس حينما عصى وتمرد لم يخرج عن حكم اللّه وسلطانه، و اللّه عز وجل قادر على اخذه متى شاء، فكذلك الإنسان الذى يحمل العلم الإلهى يستطيع أن يقهر إبليس وينتصر عليه إذا اراد ذلك وإذا قرات القران فاستعذ باللّه من الشيطان الرجيم انه ليس له سلطان على الذين يؤمنون باللّه.

إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلا مَنِ اتبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ 42 الحجر

فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشّيْطَانِ إِنّ كَيْدَ الشّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً 76 النساء

وهكذا نجد أهمية العلم وتاكيد الإسلام على هذه الأهمية إننا إذا سلبنا من الإنسان علمه لأصبح ليس فقط كسائر الحيوانات، بل اقل قيمة واضل سبيلا، والسبب واضح لأن الحيوانات التى لم تزود بالعلم قد زودت بالغرائز و القوى الطبيعية، والقدرة على التكيف مع ظروف البيئة وقوانين الحياة، بينما الإنسان لم يزود على نفس المستوى بهذه الأشياء إنما زود بافضل من الغريزة وافضل من القدرة العضوية وهو العلم، ولولا العلم لأصبح اقل من الأحياء التى زودت بهذه الغريزة وتلك القدرة التى لم يزود بها ا لإنسان.. مثلا الحمام يطير فى السماء بغريزته وقدرته على التكيف مع المجال المغناطيسى للأرض لذلك تجد الحمامة تستطيع أن تهتدى إلى بيتها ولو كان يبعد عنها مئات الكيلومترات، دون أن تخطىء انها مزودة بـ الأجنحة وبجهاز رادار يكشف لها الاتجاهات ويحدد الأماكن بدقة مستعينا بمغناطيسية الأرض ولكن الإنسان لا يستطيع أن يطير ولا يمتلك فى جسمه جهازا راداريا،غير انه بعقله وعلمه استطاع ان يتفوق على الحمامة فاخترع الطائرات السريعة الجبارة، وانشا أجهزة الرادار الإ لكترونية التى مكنته من الوصول إلى كل بقعة من بقاع الأرض بحرية وسهولة وسرعة، وبغير العلم كان سيصبح محتاجا كما سليمان الملك و النبي، إلى الهدهد، وكما الناس قديما إلى الحمام الزاجل.

كذلك القدرة السمعية للأذن فى الإنسان اقل بكثير منها ممّا عند بعض الحيوانات كالحصان أو القط مثلا، ولكن الإنسان المزود بالعلم استطاع ان يخترع أجهزة سمعية كالتلفزيون واللاسلكى وإذا به يتفوق على تلك الحيوانات بمراحل ويتمكن من سماع اصوات تحدث على بعد الاف الأ ميال بين العلم والمال: وفي مقايستنا بين العلم، ولو قسنا أيضاً العمل بالعلم لتوصلنا إلى ان العمل لا قيمة له إلا إذا اهتدى بضوء العلم لذلك تجد علياً فى

حديثه المعروف يبين أفضلية العلم على المال فيقول:

Sالعلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الفراعنةR.

العلم يحرسك، وأنت تحرس المالR.

العلم يبقى، والمال يفنىR.

Sهلك خزان الأموال، والعلماء باقون ما بقي الدهرR.

ولكن هل يستطيع العلم وحده أن يقود المجتمع ويدير شئونه؟

هل تنجح دولة تقام على أسس علمانية مجردة وبعيدة عن القيم؟

هذا السؤالان حينما نطرحهما على الإسلام، يجيب بسرعة ويقول ک لا. فالعلم بدون التقوى لا ينفع شيئا بل سيكون ضرره أكبر من نفعه.ان العلم طاقة كبرى لا ريب فى ذلك، كما انّ المال طاقة كبرى، ولكن أين يوجه القلم؟ وأين يوجه المال؟.

إذا وجه العلم باتجاه الشر فسوف يكون ضرره كبير ا بقدر خطورة وكبر وعظمة هذه الطاقة ذاتها، وإذا وجه المال فى طريق الشر فستكون هذه الطاقة أيضاً مضرة بقدر خطورتها.ان العلم والمالاذا سيئ استعمالهما يكونان سببا لتدمير العالم عن طريق إنتاج الأسلحة النووية!ا لمدمرة، العلم والمال إذا وجها توجيها خاطئا يكونان أداة بيد البنتاغون وبيد السى أى ايه وما اشبه من الأجهزة الحاقدة فى العالم والتى تسعى لتحطيم الحضارة الإنسانية.

حينما لا يحددالعلم بالتقوى، يصبح كما أصبح فعلا بيد شخص مثل بلعم بن باعوراء الذى استعمل علمه لتدمير حياة المجتمع عن طريق دعمه لسلطة الطاغوت فرعون.العلم هو العلم الذى جعل من شريح القاضى رجلا ً ً يكتب فتوى بقتل ابن بنت رسول اللّه ص الحسين بن على (ع) ويكون مساهما فى جريمة نكراء لم يشهد ولن يشهد لها التاريخ مثيلاه!ذا هو العلم حينما لا يحدد بقيمة أخرى.

لذلك نقول ان العلم طاقة والعمل طاقة أو بتعبير آخر المال والثروة طاقتان ولكن هاتين الطاقتين الكبيرتين يجب أن توجها عن طريق التقوى.

لكان اشرف خلق اللّه لو كان فى العلم من دون التقى
إبليس شرف

لذلك يفصل الإسلام وبكل قوى السلطة عن اصحاب المال أو يؤسس نظاما اقتصاديا واجتماعيا رصينا لا ينفذ فيه صاحب المال إلى مركز السلطة فى البلد، إنها قضية أساسية فى تركيبة المجتمع الإسلامى وهكذا بالنسبة إلى العلم، فمع ان الإسلام يعطى المزيد من الوجاهة لأهل العلم و

العلماء فهو أيضاً يفصل فصلا أكيدا وواضحا بين علماء السوء والعلماء ا لأبرار بين الربانيين الأتقياء وبين أناس أمثال بلعم بن باعوراء وشريح القاضى ومن لف لفهما، وهكذا يفصل الإسلام بين هذين النوعين من الناس بين علماء الشر وبين علماء الخير.

وبهذا الفصل المبين يبعد عن المجتمع أولئك الذين يستخدمون العلم من أجل شهواتهم، وبالتالى يجعلون العلم تابعا للمال.. فالإنسان الذى يسترزق بعلمه هو الذى يبيع علمه ومعلوماته ومعارفه لما يؤمن مصالحه هذا الإنسان يجعل المال والثروة وبالتالى يجعل اصحاب المال والثروة هم القادة الحقيقيين للأمة، وليس العلم واصحاب العلم، حينما نجد رجلا يبيع نفسه كما باع بلعم بن باعوراء نفسه أو كما باع شريح القاضى شرفه واصدر فتوى يدعم بها الطغاة، فماذا يكون من أمره وما يكون قيمة المال المتحصل من وراء ذلك مهما يكن الثمن الذى باع العالم من اجله نفسه فإن العلم اثمن منه بكثير وكثير، واغلى بما لا يقاس ويكون قد باع نفسه بثمن بخس.

إن العلم هو العائد والملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك.

S إذا وجدتم العلماء على أبواب الملوك فبئس الملوك وبئس العلماء، وإذا وجدتم الملوك على أبواب العلماء فنعم الملوك ونعم العلماء R.

هذا هو حديث رسول اللّه ، فهل تريدون ان تروا راى العين مثلا ً لهذه الحقيقة المرة التى طالما حطمت العالم وسحقت المحرومين وعذبتالبشرية المستضعفة إذا أردتم أن تروا مثلا ً لها فانظروا..إلى البنتاغون وابحثوا فى اروقة البيت الأبيض وكرملين وفى كل مكان يباع فيه العلم لصاحب المال والسلطة، ترون ان بروفيسورا ذكيا مستوعبا لكثير من العلوم قضى عمره فى البحث والدراسة، ياتى ويصبح موظفا بسيطا عند رجل اعمال مثل ديفيد روكفلر واضر به حيث دعم هذا الطاغية بعلمه من أجل أن يمكنه من قهر المستضعفين وهضم حقوق المحرومين هذا العلم الذى خلقه اللّه من أجل تحرير الإ نسان من نير الطبيعة، وتحريره من ضعفه وعجزه وحدوديته، يستخدمه هذا العالم الذى استؤمن على العلم من قبل اللّه من أجل اذلال الإنسان وتكبيله وبالتالي تخلفه وتقهقره إلى الوراء.

هذا هو معنى بيع العلم.. بيع العلم أن يخترع رجل خبير فى الكيماويات بعض العقاقير من أجل انتزاع الاعترافات من السجين لإ دانته ثم بالنتيجة إعدامه بهذه الاعترافات، هذا هو العلم عندما يسخر من أجل المال والسلطة.

لذلك ترى القران الحكيم دائما يؤكد على عدم بيع العلم بدراهم معدودة لأنه مهما كان الثمن المدفوع كبيرا فإنه لا يقاس بشيء إلى جانب العلم الذى هو دائما اغلى من كل شيء فاول ما يفعل الإسلام هو فصل العلم عن المال، ثم فصل العلم الذى لا يستند على التقوى فى إدارة المجتمع، لا يقول الإسلام أن اكرمكم عند الله اعلمكم بالرغم من أن القران الحكيم يقول:

يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ 11 مجادلة

فالعلم فضيلة ولكن متى يكون العلم قائدا وقائما فى قمة الهرم الا جتماعى؟يكون كذلك حينما يكون موجها بتوجيه التقوى وفى الاتجاه الصحيح.

من الذي يحدد الاتجاه الصحيح؟

ان الذي يحدد ذلك الاتجاه هو اللّه عز وجل عبر برامجه المنزلة على انبيائه، لذلك لا تجد اية أو رواية تذكر العلم وتعطى للعلماء أهمية إلا وتشترط ان يكون هؤلاء العلماء فى الخط الصحيح، مثلا ً الحديث الشريف يقول: S من كان من الفقهاء صائنا لنفسه حافظا لدينه مطيعا لأ مر مولاه مخالفا لهواه ـ فآنئذ يقول ـ فللعوأم أن يقلدوه R.

كم نجد من الأحاديث تحذرنا من خطورة علماء السوء وتصف عذاب علماء السوء، أنفسهم أو لم تسمعوا حديث رسول اللّه ل، حينما راى فى ليلة المعراج رجلا يقرض لسانه بمقاريض من نار.. فهذا هو العالم الذي استفاد من علمه بغير الطريق الصحيح، فعلماء السوء يوم القيامة يكونون داخل تابوت نتن وجيفة افواههم توذى أهل النار على ما هم فيه من الأذى والكرب الشديد، وفى حديث الإمام الصادق ، عن علماء السوء وأخلاقهم يقول:

اولئك أخطر على الإسلام من جيش شمر بن ذى الجوشن الذى قتل جدي الحسينR.

وفى مقابل هذه الفئة من علماء السوء، العلماء الأبرار وهم القدوة الحقيقية للمجتمع لأنهم من جهة مزودون بطاقة العلم، ومن جهة ثانية مزودون بقدرة توجيهية لهذه الطاقة فلا يستغلون العلم من أجل تكريس شهواتهم وتحقيق ماربهم الشخصية، ولا يستفيدون من العلم لأجل الحصول على بعض الدراهم والوقوف على أبواب الملوك أو على اعتاب أصحاب الثروة والمال وإنما يستفيدون من العلم في الصالح العام.

هذه هى خلاصة رؤية الإسلام حول قيادة المجتمع في أن راس الهرم الاجتماعى يجب أن يكون تقيا، قبل أى شيء ثم يكون عالما كفوءا إداريا وهكذا الصفات الأخرى في القيادة الإسلامية.

صفات القائد في القران

القران الحكيم حينما يبين صفات القائد الإسلامى يدقق فى اختيار الأ لفاظ ولا يستعمل التعابير العادية الشائعة لماذا؟

لفلسفة لا باس ببيانها، اللغة العربية لغة واسعة وذات إيحاءات ومعار يض حسب تعبير الأئمّة فحين تريد العرب أن تعبر عن الظلام.. فمرة تقول الق لس، مرة تقول الغ سق وأخرى الدهمة وهكذا تعبر كلمات عديدة بإيحاءاتها عن درجات الظلام.. فهناك ظلام مشوب بالنور وهناك الظلام العادى وأخر الظلام الحالك، فلكل درجة من درجات الظلام لفظة خاصة بها، وكذلك في سائر الأمور.

والصفات الأساسية للقيادة الإسلامية من تلك الصفات ذات الدرجات المختلفة والمتفاوتة، مثلا ً صفة العلم , أيضاً أقسام ودرجات، فقد يكون هناك علم عادى، وقد يكون هناك علم اليقين، وقد يتحول علم اليقين إلى حق اليقين، وقد يسمو حق اليقين فيصبح عين اليقين فالعلم هو العلم، ولكن استيعاب الإنسان للعلم ورؤيته للحياة عبر هذا العلم.. تختلف من إنسان لإنسان آخر، وهكذا تختلف وتتدرج سائر الصفات.

ويشترط الإسلام فى أولئك الذين يريدون ان يصبحوا ائمة الناس يشترط ان يكون لديهم اعلى درجات الصفات الأساسية للقيادة العامة وفى مقدمتها التقوى. والتقوى على درجات فهناك تقوى للناس العاديين، وفى الظروف العادية فقد يهب اللّه للإنسان روح التقوى، ولا يتورط فى الذنب لكن إذا تغيرت الظروف وحانت ساعة الابتلاء فد تجد تقواه تنهار ولكن التقوى التى يجب أن يتزود ويتسلح بها الإمام القائد هى التقوى التى تصل إلى درجة الصبر والاستقامة امام عواصف الشهوات ونزول المصائب واشتداد المكاره، فلا تتاثر إرادته الصلبة بالضغوط المختلفة وان عظمت وتصاعدت لذلك تجد القران الحكيم يقول:

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ 24 السجدة

من هنا وعبر فلسفة أخرى سنذكرها فى بحوثنا القادمة إنشاء اللّه، فإن الإسلام لا يرضى بأن يقودك إنسان عالم تقى ايا كانت درجة علمه ويقينه، بل يجب أن تبحث عن اعلم الناس واتقاهم وتتخذ منه إماما لك ان اللّه قد جعل هذا الإنسان إمامك لماذا؟

لأنه كلما تكون قيمة التقوى وقيمة العلم هما القيمتان الأساسيتان لقيادة المجتمع وكلما زادت وتكثفت هاتان القيمتان فى شخص كانت قيادته اقوى وارسخ وافضل عند اللّه س، ولأنه الأضمن والأقرب إلى الا حتياط على الدين والدنيا، لذلك تجد القران الحكيم حينما يذكرنا

بشروط القيادة الإسلامية، يبين لنا كلمتين..الكلمة الأولى كلمة (الأحبار) والكلمة الثانية كلمة (الربيون)، الربيون هم العلماء الممحضون فى اللّه، هم الأتقياء أولا والعلماء ثانيا، ولذلك فانهم القادة الحقيقيون للمجتمع، ولكن فى حالة افتقادنا إلى الربيين انئذ تاتى مرحلة الأحبار، وهم العلماء أولا والأتقياء ثانيا، والدرجة الثانية قال اللّه :

إِنّا اَنْزَلْنَا التّوْرَاة فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النّبِيُّونَ الّذِينَ اَسْلَمُوا لِلّذِينَ هَادُوا وَالرّبّانِيُّونَ وَالأحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللّه ِ 44 المائدة

القائد النموذج:

في حديث رواه رجل اسمه نوف يقول:

اقبلنا إلى مسجد الكوفة لنرى عليا فى قضية. مررنا فإذا به مع مجموعة من أصحابه وفيما بينهم ابن اخى همام بن عبادة بن خثيم وكان من اصحاب البرانس (أى العبادة) (وهمام هذا كان ممن يلازم عليا ، فاعرفوا من هو على ولماذا ينبغى أن نتخذه إماما)، فاقبلنا معتمدين لقاء أمير المؤمنين، فالفيناه حين خرج يؤم المسجد فافضى ونحن معه إلى نفر مبدّنين، قدافاضوا فى الإحدوثات تفكها وبعضهم يلهى بعضا، «اى يقضون وقتهم بالأحاديث الفارغة» فلما اشرف عليهم أمير المؤمنين اسرعوا إليه قياما فسلموا، فرد التحية ثم قال من هؤلاء القوم؟ قالوا أ ناس من شيعتك يا أمير المؤمنين قال لهم خيرا، ثم قال يا هؤلاء مالى لا أرى فيكم سمة شيعتنا وحلية أحبتنا أهل البيت، فامسك القوم حياء، ق ال نوف فاقبل عليه جندب والربيع فقالا ما سمة شيعتكم، أوصفهم يا أمير المؤمنين؟ فتثاقل عن جوابهما وقال اتقيا اللّه أيّها الرجلان واحسنا فإن اللّه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فقال همام بن عبادة وكان عابدا مجتهدا، أسألك بالذى أكرمكم أهل البيت.. وخصكم وحباكم وفضلكم تفضيلا إلا انباتنا بصفة شيعتكم فقال لا تقسم فسانبئكم جميعا واخذ بيد همام فدخل المسجد فصلى ركعتين اوجزهما واكملها وجلس ثم اقبل علينا وحف القوم به، فحمد اللّه واثنى عليه وصلى على النبى ثم قال:

اما بعد فإن اللّه جل ثناؤه وتقدست اسماؤه خلق خلقه فالزمهم عبادته، وكلفهم طاعته، وقسم بينهم معايشهم، ووضعهم فى الدنيا حيث وضعهم وهو فى ذلك غنى عنهم لا تنفعه طاعة من اطاعه، ولا تضره معصية من عصاه منهم، لكنه تعالى علم قصورهم عما تصلح عليه شئونهم وتستقيم به دهماؤهم فى عاجلهم واجلهم، فارتبطهم باذنه فى امره فامرهم تخييرا، وكلفهم يسيرا، واثابهم كثيرا، وامر سبحانه بعدل حكمه وحكمته بين الموجف من انامه إلى مرضاته ومحبته وبين المبطئ

عنها والمستظهر منهم على نعمته بمعصيته، فذلك قول اللّه عز وجل، Sام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين امنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون R ثم وضع أمير المؤمنين ع يده على منكب عبادة فقال، الا من سال عن شيعة أهل البيت الذين اذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم فى كتابه مع نبيه تطهيرا، فهم العارفون باللّه، العاملون بأمر اللّه، أهل الفضائل والفواضل منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع، نجعوا لله تعالى بطاعته وخضعوا له بعبادته فمضوا غاضين ابصارهم عما حرم اللّه عليهم، واقفين اسماعهم على العلم بدينهم، نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالذى نزلت منهم فى الرخاء رضى عن اللّه بالقضاء، فلولا الآجال التى كتب اللّه لهم لم تستقر ارواحهم فى اجسادهم طرفة عين شوقا إلى لقاء اللّه والثواب وخوفا من العقاب، عظم الخالق فى أنفسهم وصغر ما دونه فى اعينهم فهم والجنة كمن راها فهم على ارائكها متكئون وهم والنار كمن ادخلها فهم فيها معذبون، قلوبهم محزونة وشرورهم مامونه واجسادهم نحيفة وحوائجهم خفيفة وانفسهم عفيفة ومعرفتهم فى الإسلام عظيمة صبروا اياما قليلة فاعقبتهم راحة طويلة وتجارة مربحة يسرها لهم رب كريم، أناس اكياس ارادتهم الدنيا فلم يريدوها وطلبتهم فاعجزوها، اما الليل فصافون اقدامهم، تالون لأجزاء القران يرتلونه ترتيلا، يعظون أنفسهم بامثاله ويستشفون لدائهم بدوائه، تارة وتارة مفترشون جباههم واكفهم وركبهم واطراف اقدامهم، تجرى دموعهم على خدودهم يمجدون جبارا عظيما، ويجارون إليه جل جلاله فى فكاك رقابهم، هذا ليلهم، فاما النهار فحلماء علماء بررة اتقياء براهم خوف بارئهم فهم أمثال القراح، يحسبهم الناظر إليهم مرضى وما بالقوم من مرض، أو قد خولطوا وقد خالط القوم من عظمة ربهم وشدة سلطانه أمر عظيم، طاشت له قلوبهم، وذهلت منه عقولهم، فإذا استقاموا من ذلك بادروا إلى اللّه تعالى بالأعمال الزاكية لا يرضون له بالقليل، ولا يستكثرون له الجزيل، فهم متهمون ومن اعمالهم مشفقون،إن زكى أحدهم خاف ممّا يقولون وقال انا اعلم بنفسى من غيرى، وربى أعلم بى اللّهم لا تؤاخذنى بما يقولون، واجعلنى خيرا ممّا يظنون واغفر لى ما لا يعلمون، فإنك علام الغيوب وساتر العيوب، هذا ومن علامات أحدهم ان ترى له قوة فى دين، وجزما فى لين، وايمانا فى يقين، وحرصا على علم، وفهما فى فقه، وعلما فى حلم، وكيسا فى رفق وقصدا فى غنى، وتجملا فى فاقة وصبرا فى شدة وخشوعا فى عبادة، ورحمة للمجهود، وإعطاء فى حق، ورفقا فى كسب، وطلب فى حلال، وتعففا فى طمع، وطمعا فى غير طبع دنس ونشاطا فى هدى، واعتصاما فى شهوة، وبرا فى استقامة لا يغره ما جهله، ولا يدع إحصاء ما عمله، يستبطئ نفسه فى العمل، وهو من ص

الح عملة علي وجل يصبح وشغله الذكر، ويمسى وهمه الشكر، يبيت حذرا من سنة الغفلة، ويصبح فرحا بما أصاب من الفضل والرحمة، ان استصعبت عليه نفسه في ما تكره، لم يعطها سؤلها فيما إليه تشره، رغبته في ما يتبقى وزهادته فيما يغنى R

وهكذا بدا الإمام على ، يذكر صفات المتقين حتى كان من أمثال همام ما كان حيث إن همام صاح صيحة ووقع مغشيا عليه، فحركوه فإذا هو قد فارق الدنيا ورحمة الله عليه، فاستعبر الربيع باكيا وقال لأ سرع ما اودت موعظتك يا أمير المؤمنين بابن اخى ولوددت لو انى بمكانه فقال أمير المؤمنين: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها.اما والله لقد كنت اخافها عليه.

هذه أيّها الاخوة صفة المؤمنين الصادقين الذين يريد الإسلام أن يكونوا قدوة للمجتمع وقادة وائمة للبشرية، هؤلاء أفضل أم تلك الأقزام التى تحكم العباد والبلاد تخيروا، فإن الله سزودنا بالعقل لكى نتخير ونبحث عن الأفضل، فإن كان هؤلاء هم خير لنا فلنبحث عنهم، ولا بد أننا سوف نجد أمثالهم، إن الأرض لا تخلوا من حجة لله.

كيف يضمن الإسلام استقلال العلم

هناك قضية رئيسية، هى علاقة العلم بالمال، وكيفية تحصين العلم عن تابعية الثروة والقوة، وكيف نضمن استقلال العلم وان لا يعرض العلماء أنفسهم فى المزاد العلنى، ونتسائل من الذى كان يحجب الحقيقة عن اعين الملايين هؤلاء هم العلماء التابعون المفكرون العبيد، اليسوا هؤلاء هم الذين خانوا امانة العلم، وباعوا انفسهم بثمن بخس، واعانوا الطغاة في سبيل تذليل الناس وسحقهم، استثمارهم واستغلال طاقاتهم.

لذلك يكون هذا السؤال حاسما، ما هو الضمان الذى يعطيه الإسلام للعلم لكى يبقى مستقلا، بعيدا عن ضغوط الجبابرة، وبعيدا عن استغلال القوى المنحرفة فى المجتمع وكيف يحصن العلماء أنفسهم امام هذه الضغوط الهائلة؟.

هناك عدة ضمانات يعطيها الإسلام:

الضمانة الأولى:

هى إعطاء العلم قيمة ذاتية كبيرة، ليكون العلم وليس المال أو السلطة محورا يستقطب حوله قدرات الجماهير وطاقاتهم وإمكاناتهم.

الضمانة الثانية:

هى ان الإسلام يزكى دوافع العلماء، من بداية انطلاقهم لطلب العلم، يجعل تطلعاتهم سامية.

الضمانة الثالثة:

هى تحطيم سمعة علماء السوء وإبعادهم عن تجمع العلماء وعن الجماهير وفضح دورهم في تغطية جرائم الطغاة.

هذه هي الضمانات الثلاثة التى نبحثها تباعا بإذن اللّه، ولكن قبل ذلك لابدّ أن اذكركم ان ما فى العالم من تقدم ورقى وحضارة ولا اقل فى الجوانب المادية منها إنما هو رهين العلم، وان الطغاة فى الأرض يسرقون مكاسب العلماء ويستغلون تقدم الشعوب ان هؤلاء ليسوا هم الذين يقودون العالم.

ليس كنيدى أو نيكسون أو برجنيف الذين يطلقون مركبات الفضاء أو

يحققون إنجازات العلم، إنما هم العلماء التابعون لهم. والمستغلون من قبلهم.

واهمية طرح هذا الموضوع تكمن في نقطة هامة هي انه على طول التاريخ كان العلم أداة فعالة بايدي الطغاة والجبابرة لتطويع الشعوب وترويضها لقد كان لكل فرعون هامان يؤيده ويؤازره، وبلعم باعوراء يؤمن له التغطية الدينية المزيفة، وكان لكل معاوية رجال أمثال كعب بن الأحبار ولكل يزيد رجال أمثال شريح القاضى ولكل طاغوت سواء كان يتستر بستار الدين، أو بستار مادي، مجموعة من العلماء الخدمة.

فلولا كيسنجر وامثاله لم يستطع نيكسون ان يلعب بمصير العالم، ولولا بريجنسكى وامثاله لم يستطع كارتر ان يقوم بما قام به من إفساد فى الأرض ولولا سوسولوف لم يستطع بريجينيف ومن قبله خروتشوف ان يروضوا ربع مليار إنسان فى الاتحاد السوفيتى ويعبثوا بمقدرات العالم، العلماء التابعون سواء الذين يتسترون بستار الدين أو يتفوهون باسم الحرية أو ما أشبه..هؤلاء كانوا اليد الضاربة التى استخدمها الطغاة والجبابرة فى الأرض على امتداد التاريخ ولا يزالون، فلولا رجال أمثال ميشيل عفلق، وطوبيه حنا المعروف بطارق عزيز، من الذى كان يكتب لصدام العراق هذه الخطب الطويلة التى يتحدث بها عبر ساعتين أو يزيد، من الذى كان يلقنه هذه الأفكار الشيطانية، ويبرر حتى هزائمه فى المعارك ببعض التبريرات المظللة، ولولا الصحفيون الذين يشترون بالأموال يبيعون أنفسهم، لهذا الطاغوت أو ذاك لقد سميت كبرى القواعد الفضائية فى الولايات المتحدة باسم جون كنيدى وهى قاعدة (كيب كندى) ولكن الآخرين هم الذين يعملون ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف عالم فى مختلف الحقول هم الذين بعثوا مركبة ابولو إلى الفضاء ومثلهم من العلماء فى مكان آخر هم الذين اطلقوا مركبة سويوز، ولكن الحكام المتسلطين يسرقون بريق التقدم لمصلحة تسلطهم وأفكارهم الجاهلية.

الراسمالية ليست سببا لتقدم الشعوب فى امريكا والاشتراكية الماركسية ليست هى الأخرى السبب فى تقدم الشعوب فى الاتحاد السوفيتى.. والنظريات المادية الجاهلية ليست هى السبب فى تقدم الشعب الأمريكى، لطرح هذا السؤال.. لماذا الشعب الروسى تعدم أيضاً بينما الشعب الروسي لا يؤمن بالرأسمالية بل يكفر بها ويحاربها .

ولو كانت الاشتراكية الشيوعية هى السبب فى تقدم الاتحاد السوفيتى، لطرح هذا السؤال ... إذن لماذا الشعب اليابانى يتقدم؟ ان اصحاب النظرية هذه يسرقون جهود الملايين، وينسبون التقدم والازدهار وسائر مظاهر الحضارة إلى أنفسهم، وهى بعبدة عنهم، بل هم فى الواقع عقبة في طريقها.

واليك هذه المعادلة: لولا أربعمائة مليار دولار التى تخصص سنويا فى الولايات المتحدة لميزانيات الدفاع وفى الواقع لميزانيات التدمير و الفساد، لكانت الشعوب الآن فى رفاهية وازدهار، لازدهرت الحضارة فى العالم أكثر فاكثر تلك الميزانيات الحربية اللامحدودة هى التى تمتص جهود الملايين من البشر، وهي التي تسرق تقدم العلم.

العلم هو سبب التقدم والازدهار، ولكن المشكلة ان العلم يسرق، وان العلم تابع وليس مستقلا، العالم يتحرك وراء الطغاة ونظرياتهم فى العالم ، هذه هى المشكلة الرئيسية للحضارة البشرية اليوم ومن هنا أيضاً لا يعنى تاكيدنا على استقلالية العلم، عدم التاكيد على أهمية العلم ذاته، و المكاسب العلمية الهائلة التى بلغتها البشرية بالعلم، وليس تخلف بلادنا لوجود الأنظمة الفاسدة فيها فحسب، كما انه ليس فقط بسبب الديكتاتوريات الإرهابية والفاشية. لأن هذه الأنظمة المتخلفة موجودة أيضاً في أمريكا، وأوربا، واليابان والاتحاد السوفيتي.

الأنظمة هي الأنظمة..نظام،، صدام،، نسخة عن نظام،، تاتشر،، نظام حكام الجزيرة نسخة أخرى عم نظام،، ميتران،، ؛ النظام القائم فى مصر ليس بعيداً عن النظام الأمريكي،وإنما الفرق ان شعوب تلك البلاد اندفعت نحو العلم، واستوعبت المعارف الطبيعية فتقدمت وانت ترى انهناك فارقا بين رفاهية الشعب الأمريكى وانت ترى ان هناك فارقا بين رفاهية الشعب الأمريكى وضنك الشعب المصرى بالرغم من تشابه الأ نظمة الحاكمة في البلدين.

الرفاهية وليدة العلم، فمشاكلنا ليست فقط من الأنظمة، نعم لو استطعنا إسقاط هذه الأنظمة، وتحرير طاقات الشعوب، وتعبئتها نحو التقدم والأزدهار تكون قد فعلنا الكثير، ولكن ليست هذه هى المشكلة الوحيدة، وإنما هى أحد الأسباب أو بتعبير أفضل، أحد مظاهر التخلف، ان التخلف واقع فاسد له مظاهر عديدة منها الأنظمة الفاسدة، ومنها البؤس والحرمان، ومنها تفشى الجهل والأمية، وفقدان العناية وضعف القوة العسكرية، وفساد النظام السياسي، هذه مظاهر عديدة لذات الحقيقة.

إننا نتساءل.. لماذا نجد بلدا آسيويا،، وليس فى أوربا،، كاليابان ويعيش فى منطقة فقيرة فى المواد الطبيعية كالنفط والمعادن، وليست منطقة استراتيجية فى العالم..هذا البلد يتقدم يوما بعد يوم وتبدأ فيها الثورة الثالثة فى عالم الصناعة ويغزو بإنتاجه أوربا وأمريكا ذاتها... ولو كانت نفوس اليابانيين بعدد سكان الصين ولو كانت اليابان مثل الجزيرة العربية تملك موارد نفطية هائلة، أو كانت اليابان دولة أوربية (حيث إن الحضارة والتقدم والرفاهية ظلت حكرا على الأوربيين لقرون عديدة

حتى صارت وكأنها الطابع المميز لأوربا) لاتصلت بالعلوم الحديثة قبل الآ خرين بل كانت أول مدرسة علمية اسست فى اليابان فى نفس السنة التى اسست فيها مدرسة حديثة فى إيران وفى مصر أقول لو كانت اليابان كذلك إذا قسرنا القضية باحد العوامل المادية وإذ لم تتوفر فى اليابان كل هذه العوامل، ومع ذلك وصلوا إلى ما وصلوا إليه نتساءل لماذا؟ دعنا نستمع الجواب من فم باحث امريكى، يتحدث عنه مؤلف كتاب، التحدى العالمى، جان جاك سوفان شريير إذا كان ثمة عامل يفسر النجاح اليابانى، فهو البحث الدائم الجماعى عن المعرفة. وعندما أعلن، دانيال بيل، وبيتر داكر، وبعضة اخرون بداية مجتمع ما بعد الصناعة الذى تحل فيه المعرفة كمورد اساسى محل راس المال، لم يكونوا يتخيلون إلى أى حد سيشق هذا المفهوم الجديد طريقه بسرعة خاطفة فى جميع الأوساط القيادية فى اليابان، ثم سريعا فى كل شرائح الشعب لقد اجمع البلد على الأهمية القصوى التى يجب أن تولى لمتابعة التعليم و المعرفة باستمرار طوال سنوات العمر، اليابان إذا تقدمت بالعلم، وليس تقدمت بالنظام السياسى أو الاقتصادى، ومن هنا نفهم مدى أهمية وعظمة الإسلام حينما يؤكد على العلم. وتأكيد الإسلام على العلم منذ أربعة عشر قرنا اكبر شاهد على تفوق أهميته.

دعنا نضرب مثلا ً من هذا التاكيد نابعا من ليلة القدر التى تحدد عمر الفرد، حسب ما جاء في القران الحكيم:

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ 4القدر

فعمل الإنسان فى هذه الليلة قد يفوق عمل ثمانين سنة ونيف، ولكن افضل الأعمال فيها حسب ما يقول كبار العلماء هو طلب العلم، لأنك عن طريق العلم تستطيع أن تفهم ماذا تطلب من اللّه س ولا تصبح كالعابد الذى كان يعبد اللّه فى سفح واقام على ذلك زمنا، فدعا له أحد الملائكة ربه قائلا: الهى هذا عبدك المطيع يصوم النهار ويقوم الليل، ويتبتل إليك، قال له اللّه..انزل واعبدنى معه، فنزل الملك، فرحب به العابد وقال له؟ حسنا، هناك شيء يحيرنى منذ مدة أليس من الأفضل لو كان لله حمارا يرعى في هذه المرج الواسعة؟

عقل هذا العابد كان محدودا إلى درجة كان يتصور ان لله تعالى حمارا وان هذه المروج أفضل مرعى لهذا الحمار، فصعد الملك إلى اللّه وقال: الهى علمت الآن لماذا لم تعط لهذا العابد درجة كبيرة بقدر عبادته، وأعطيته بقدر عقله.

العلم قيمة اجتماعية.

العلم وليس العمل وحده هو الذى يرفع درجاتك عند اللّه س، وتاكيد ا

لإسلام على العلم لعدة أسباب :

السبب الأول: هو أن الحضارة البشرية مبنية على قاعدة العلم.

السبب الثانى: لكى يعطى الإسلام العلم قيمة اجتماعية ليكون العلم و العلماء هم محور المجتمع، وهذا واحد من الضمانات الأساسية لجعل العلم مستقلا عن المال والقوة واذكر فيما يلى لكم بعض الأحاديث فى هذا المجال.

الحديث الأول ننقله عن الإمام الحسن العسكرى وقبل إن ارويه لكم ابيّن لكم حقيقة هى ان أكثر أحاديث العلم والعلماء الموجودة فى كتاب بحار الأنوار الجزء الثانى فى الفصل الأول منه، رويت عن الإمام الحسن العسكري ، لماذا؟

حكمة ذلك أن الإمام الحسن العسكرى ، كان تقريبا آخر الأئمّة، لأن الحجة من بعده عاش مائة عام فى الغيبة الصغرى ثم فى الغيبة الكبرى، وفى هذا المنعطف التاريخي كان يجب أن تتحول القيادة من كتف الأئمّة إلى كاهل العلماء، ولذلك كان الإمام يريد أن يوجه المسلمين إلى أهمية العلماء ليكونوا هم قادة هذا المجتمع.

والحديث الثانى يشير إلى هذه..قال حدثنى أبى عن آبائه عن رسول اللّه ، انه قال:

اشد من يتم اليتيم الذى انقطع عن ابيه، يتيم انقطع عن إمامه، ولا يقدر على الوصول إليه، ولا يدرى كيف حكمه فيما يبتلى به من شرائع دينه الا فمن كان من شيعتنا عالما بعلومنا، وهذا الجاهل بشريعتنا المنقطع عن مشاهدتنا يتيم فى حجره، الا فمن هداه وارشده وعلمه شريعتنا كان معنا في الرفيق الأعلىR.

والحديث هذا يدل أن على درجة العلماء الذين يقومون بمسؤولياتهم القيادية للمجتمع قريبة من درجة الأنبياء والأئمة والأولياء ، وفى حديث آخر يقول الإمام ابو محمد العسكرى نقلا عن جده على بن الحسين :

Sاوحى اللّه تعالى إلى موسى حببنى إلى خلقى، وحبب خلقى الى، ق ال يا رب كيف افعل؟ قال ذكرهم الائى، ونعمائي ليحبونى، فلئن ترد ابقا عن بابى، أو ضالا عن فنائى أفضل لك من عبادة مائة سنة بصيام نهارها وقيام لياليها، قال موسى ومن هذا العبد الآبق منك؟ قال اللّه، العاصى المتمرد، قال فمن الضال عن فنائك؟ قال الجاهل بإمام زمانه تُعرّفه، و الغائب عنه بعدما عرفه الجاهل بشريعة دينه تُعرّفه شريعته، وما يعبد به ربه، ويتوصل به إلى مرضاته ثم قال على بن الحسين ، فابشروا علماء

شريعتنا بالثواب الأعظم، والجزاء الأوفرR.

تدبروا فى الحديث كيف ان اللّه جنبه عن الذى ضل عن طريق العلم يشبهه بالعبد الآبق الذى هرب من سيده. والعالم يسعى بهذا العبد إلى العلم و إلى رحاب اللّه، وعمله هذا يساوى عبادة مائة سنه، يصوم النهار ويقوم الليل طاعة لله اما فى يوم القيامة فيقال للعابد Sنعم الرجل كنت ، همتك ذات نفسك وكفيت الناس مؤونتك فادخل الجنة، الا ان الفقيه من افاض على الناس خيره وانقذهم من اعدائهم ووفر عليهم منعم جنات اللّه، وحصل لهم رضوان اللّه تعالى ويقال للفقيه يا أيّها الكافل لأيتام آل محمد، الهادى لضعفاء محبيهم ومواليهم، قف.. حتى تشفع لمن اخذ عنك، أو تعلم منك، فيقف، فيدخل الجنة معه فئاما، وفئاما، وفئاما حتى قال عشرا، وهم الذين اخذوا عنه علومه، واخذوا عمن اخذ عنه، وعمن اخذ عمن اخذ عنه إلى يوم القيامةR.

فانظروا.. كم الفرق بين المنزلتين، منزلة العابد، ومنزلة العالم، إذا الفت كتابا فكل من قرأ كتابك واهتدى به يستطيع أن يدخل معك الجنة، ليس هؤلاء فقط وإنما أولئك الذين قرءوا كتابا مقتبسا من كتابك وهكذا بالتسلسل إلى يوم القيامة وفئاما وفئاما وفئاما[1] وفى حديث آخر للإمام أبي محمد عن الحسن العسكري :

ان من محبى محمد وال محمد مساكين مواساتهم أفضل من مواساة مساكين الفقراءالمسكين الذى اجلسه جهله فى بيته، والذى أصبح عبدا لغيره، ومسحوقا بسنابك الطغاة..احوج إلى المساعدة من الذى اسكنه جوعه فى بيته، وهم الذين سكنت جوارحهم وضعفت قواهم عن مقاومة أعداء اللّه الذين يعيرونهم بدينهم (الجماهير التى سكنت وضعفت واستكانت بسبب فقدانها لسلاح العلم والوعى، هؤلاء هم المساكين الحقيقيون)، ألا فمن قواهم بفقهه وعلمه حتى أزال مسكنتهم، ثم سلطهم على الأعداء الظاهرين النواصب وعلى الأعداء الباطنين إبليس ومردته، حتى يهزموهم عن دين اللّه، ويذودوهم عن اولياء آل رسول اللّه، حول اللّه تعالى تلك المسكنة إلى شياطينهم، فاعجزهم عن إضلالهم، قضى اللّه تعالى بذلك قضاء حق على لسان رسول اللّه .

وهذه هى إرادة اللّه، انه لو تحرك العلماء، وقاموا بدورهم فى توعية الجماهير، فالجماهير تتسلح بسلاح العلم، وتتحول مسكنة الجماهير إلى اعدائهم الذين كانوا متسلطين عليهم، أى حينما يأتى عالم ربانى ويبث

(1) فئاما فى اللغة العربية تعنى مائة ألف إنسان، يقول الإمام : فئاما عشر مرات، فتعنى ذلك مليون إنسان، وهو لم يقصد الوقوف عند هذا الحد إنما كان يريد التعبير عن الكثرة الهائلة.

الوعي، ويبث الروح والأمل فى نفوس الجماهير المسلمة فى إيران، تتحرك هذه الجماهير وحينذاك تبعد الجبابرة المفسدين، وحينما يطاح بهم يصبحون صعاليك يتسكعون على أبواب أسيادهم الشرقيين و الغربيين فتتحول المسكنة من الشعب إلى جلاديه، وهذا هو مضمون حديث الإمام الحسن العسكري .

بهذه الطريقة يعطى الإسلام ضمانة للعلم ويرفع قيمة العلم والعلماء إلى أعلى مستوى ويقول:

Sفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجومR.

يقول ان منزلة العالم الذي يطلب العلم أفضل من الملائكة لأن الملائكة تفرش اجنحتها امام طالب العلم رضاء به، أو حينما يقول الإسلام أن الملا ئكة فى السماوات والدواب فى الأرض، والحيتان فى البحر يستغفرون لطالب العلم، فإنما يرى ان يجعل من العلم قيمة اجتماعية رئيسية مستقلة تتمحور حولها طاقات الأمة، وتتعبا بها إمكانات الجماهير، ثم تنطلق في الاتجاه الصحيح والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدا.

تزكية النفوس الضمانة الثانية.

المحافظة على استقلالية العلم، هى تزكية النفوس التى تطلب العلم. حينما يوقع طالب جامعي على وثيقة يتعهد بموجبها ان يخدم النظام أو المعهد الذى يعلمه العلم، لمدة خمس أو عشر سنوات، فإنما هو يوقع على وثيقة ارتباطه بذلك المعهد أو النظام، لأن النظام أو المعهد لا يوفر له إمكانات التعلم قربة إلى الله [، أو لأجل سواد عينيه، وإنما من أجل أن يستخدمه بعد تخرجه فى المجال الذى يخدم مصالح النظام المعهد، وهكذا يصبح العلم وبصورة الية تابعا للمال بينما يجب علينا أن نبعد العلم عن المال والقوة، وان يجعل العلم مستقلا ولا نجعل طالب العلم يطلب العلم من أجل ان يوظف أو ان يصبح شيئا عند الناس، أو ان يستغل الجماهير بأن يكون وزيرا لفرعون، أو مفتيا ليزيد، أو مستشارا لكارتر أو منظرا لبريجينيف وإنما يتعلم من أجل ان يهدى الناس، وتعلمه لله.

ولذلك تجد النصوص الإسلامية تؤكد على ضرورة نظافة نية المؤمن الذى يطلب العلم وان يكون طلب العلم لله، وحينما يكون العلم لله.. يكون للجماهير، ويكون للمصلحة العامة.

لنتدبر في هذا الحديث الماثور عن أمير المؤمنين ع، نتلوه عليكم فى هذه الليلة التى تنسب إلى الإمام على لأنها ليلة وفاته، وافضل ذكرى لعلى هو استعادة أحاديثه ذلك لأن عليا ضحى بنفسه.. من أجل هذه الأ

فكار.. ولا يفيد عليا أن نذكر فقط انه استشهد، ونبين بعض فضائله فحسب، إنما يجب أن نبين رسالته، ومن جملة رسالة على هذا الحديث.

S طلبة هذا العلم على ثلاثة اصناف، اقول فاعرفوهم واعيانهم ، أى حينما تعرفون احدا بصفته فابحثوا عمن تتجسد فيه هذه الصفات فى الواقع الخارجى فعندنا صفات مثل: كافر، منافق، مسلم مؤمن، مجاهد، متقى، عالم وما اشبه هذه صفات مجردة لا تنفعنا فى الحياة العلمية ع لينا أن نبحث فى المجتمع الذى نعيش فيه.. لنعرف من تتجسد فيه عينيا هذه الصفات من المنافق؟ ومن الكافر. ومن المشرك. ومن المؤمن؟ من العالم. ومن المتقى هكذا، لا يكفى أن نعرف أن فى المجتمع علماء خير، وعلماء سوء على وجه الإجمال وإنما ينبغى أن نبحث عنهم ونتقصى الحقيقة حتى نميز عالم السوء بشخصه وباسمه عن عالم الخير صنف ـ يتعلمون للمراء والجهل، وصنف منهم يتعلمون للاستطالة والختل، وصنف منهم يتعلمون للفقه والعقل ـ قسم منهم يتعلمون لكى يستعلوا على الآخرين ويتكبروا عليهم ويخطوا بقرب الملوك والسلاطين، واصحاب النفوذ والأموال، وقسم يتعلمون لكى يستثمروا الناس ويستغلوا الجماهير وقسم يتعلمون لكى ينفعوا الناس، وليس من أجل مصالحهم ولا رئاستهم فاما صاحب المراء والجهل، تراه مؤذيا، مماريا ـ مجادلا ـ للرجال فى اندية المقال، قد تسربل بالخشوع، وتخلى من الورع ظاهره خاشع ولكن لا توجد فى قلبه ذرة من الورع والتقوى فدق الله من هذا حيزومه ـ أى قطع ظهره وقطع منه خيشومه ـ أى رغم أنفه ـ واما صاحب الاستطالة والختل، فإنه يستطيل على اشباهه من اشكاله، ويتواضع للأغنياء من دونهم، فهو لحلوائه هاضم ولدينه حاطم، فاعمى الله من هذا بصره وقطع من آثار العلماء اثره ـ الإسلام يريد أن يبعد علماء السوء من تجمع العلماء، وان يلحقهم بمتبوعيهم ـ أى بالأغنياء واصحاب السلطة والجاه ومن اشبه ـ واما صاحب الفقه والعقل تراه ذا كابة وحزن ، قد قام الليل فى حندسه ـ ظ لامه ـ وقد انحنى فى برنسه ـ لباس الزهد يعمل ويخشى خائفا وجلا من كل أحد الا من كل ثقة من إخوانه ـ انه لا يثق من يحومون حوله من شياطين الأنس هؤلاء الذين يدورون حول العلماء ويشكلون بطانتهم الفاسدة، هؤلاء مشكلة من المشاكل لأن ا لأغنياء والسلاطين وكل الفاسدين والمفسدين قد لا يستطيعون التاثير فى العالم الا عن طريق بطانته، فيؤثرون على البطانة، وهم عادة مجموعة من الجهلة، لذلك لا يطمئن العالم الورع إلى من حوله باستثناء الثقاة من إخوانه، يطمئن إلى العلماء الآخرين مثله، وليس إلى الجهالة الذين يدورون حول العلماء ودائما يمدحونهم..العالم الكبير، المرجع الأ على، فضيلة الكذا،سماحة الكذا، ثم بهذه الكلمات يسرقون من العالم ت

قواه فشدّ الله من هذا أركانه، وأعطاه يوم القيامة امانه.

هذه ضمانة أخرى من الإسلام لإعطاء الاستقلالية للعلم والعلماء فى المجتمع الإسلامي.

المجتمع الإسلامي وضرورة الإمامة الشرعية

مجاري الأمور بيد العلماء بالله، الأمناء على حلاله وحرامه

ومجارى الأمور تعنى أزمة الأمور: قيادتها، وتوجيهها وبالتالى فإن توجيه شؤون الحياة يجب أن تكون بيد العلماء وتحديد العلماء بالله.فهناك علماء وهناك علماء بالله. وهنا يطرح السؤال:

ماذا تعني هاتان الكلمتان؟

علماء الدين وعلماء العلم.

أن العلماء بالله..هم الذين يتصلون بالله، مستمدون منه ويكون علمهم في خط تحقيق أهداف البشرية التي أمر بها الله جل شانه.

اما العلماء فهذه الكلمة مطلقة وغير مقيدة وفى هذا الحديث لا نجد تفسيرا لها..فمن هم هؤلاء العلماء وفى أى حقل علمى يكون تخصصهم؟ هل هو فى حقل الفيزياء أم الكيمياء، أم الطبيعة، أم علم طبقات الأرض، أم التاريخ أم الطب، أم الصيدلة ...؟

يبدو أن هذا الإطلاق يفيد أن:

الأمر الأول:

العموم، أى: إن العالم يجب أن يكون عالما بكل شيء، ولكن لأن العلم بكل شيء أمر مستحيل إلا بالنسبة إلى الله، فإن ذلك لا يتاتى إلا لمن شاء الله.

الأمر الثاني:

هو إعادة الكلمة إلى العرف، أى: إن العالم يجب أن يكون عالما بتلك القضايا التى يريد أن يديرها والتى تخص كيان الأمة ومصيرها. فإذا قلنا للمريض اذهب إلى الخبير، فلا يعنى ان يذهب إلى الخبير فى الهندسة وإذا قلنا لمن يريد أن يبنى بيتا اذهب إلى العالم، فلا يعنى ان يذهب إلى الطبيب ليبنى له البيت، وإذا قلنا لمن يشكو وجع العين راجع الأخصائى، من البديهي فإنه يراجع أخصائي العين.

وحينما يقول لنا الإسلام أن مجارى الأمور بيد العلماء، فإنه يقصد بذلك أولئك العلماء الذين يفهمون ذلك المجارى، ويعرفون طبيعة القضايا

التى يتوجب عليهم أن يهتموا بها ويعالجوها. ولكن بشرط أن يكون هؤ لاء العلماء فى خط اللّه، ولتحقيق أهداف السماء ويجب إلا تكون معرفتهم بالقضايا الاجتماعية والإنسانية بعيدة عن الإسلام وبمناى عن التقوى.بل يجب أن يكونوا:العلماء باللّه..الأمناء على حلاله وحرامه.

ضرورات العالم.

انطلاقا من تفسير هذا الحديث، ومن أحاديث ونصوص وايات أخرى، وحتى من وحى العقل نقول: أن القائد للمجتمع الإسلامى يجب أن يتفاعل لديه نوعان من العلوم:

نوع يرتبط بواقع الحياة.

نوع يرتبط بالقيم.

فالعالم الذي يقود السياسة يجب أن يكون عالما بمريْن:

يعرف السياسة ويدرك أبعادها.

يعرف الدين ويفقه أحكامه بالنسبة إلى السياسة.

والعالم الذي يقود الاقتصاد ويفتى فيه يجب أن يكون عالما بأمريْن:

يعرف الاقتصاد وابعاده

يعرف الدين وأحكامه في الاقتصاد.

وكذلك فى حقل الاجتماع، وعلم النفس والتربية وسائر الحقول الإ نسانية والاجتماعية.

اما من يعرف فقط القضايا السياسية دون أن يعرف حكم اللّه في السياسة فهذا لا يحق له ان يقود الناس وان ينصب من نفسه حجة عليهم، لأنه لا يعرف حكم اللّه فى مجال السياسة، ولذلك فمن أبسط الضرورات الدينية واوضحها، هو أن الطغاة الذين يحكمون البلاد الإسلا مية لا يمثلون الإسلام ابدا، وليسوا هم اولى الأمر كما يدعى بعضهم فهؤلا ء لا يمكن أن ينصبهم اللّه اولياء على عباده لأنهم اساسا لا يعرفون أحكام اللّه وكثير منهم لا يعرفاين القبلة، أو يصلى بدون ركوع، هؤلاء لا يعرفون من القران اية واحدة، ولا يحفظون حديثا واحدا، وعندما يرتقى أحدهم المنبر ويرىد ان يقرا اية أو يورد حديثا فإنه يرتكب اخطاء كثيرة ومعيبة. فهؤلاء لا يحق لهم أن يجعلوا من أنفسهم ممثلين للإسلام وأحكام اللّه.

وكذلك العالم الذى يعرف الدينای يعرف القرآن الحكيم والأحاديث الشريفة، ويعرف التاريخ، دون أن يعرف زمانه وما يجرى حوله، فهذا هو الآخر لا يحق له ان يقود الناس، لأن معرفة الأحكام الشرعية دون معرفة

موارد تطبيقها، ومتغيرات الظروف الاجتماعية التى تتغير بعض الأحكام الشرعية وفقها قد يكون ضرر هذه المعرفة أكبر من نفعها.

فحكم الصوم مثلا ً بالنسبة للمسافر يختلف عنه للحاضر وبالنسبة لكثير السفر يختلف عنه لقليل السفر، وبالنسبة لسفر المعصية يختلف عنه فى سفر الطاعة، أليس كذلك ! أليست هذه أحكام شرعية ! أو ليست الأحكام الشرعية تختلف حسب الموارد والقضايا المختلفة ! حسنا، إذا كان كذلك فهل يمكننا ان نعطى حكما واحدا كاسحا لكل الظروف والمجا لات؟

كلا. لذلك تجد الإمام محمد الجواد يحضر مجلس المأمون الخليفة العباسى فيساله شخص عن حكم الصيد فى الحرم، فهو يشق له الشقوق ، ويفرع له الفروع ويقول أكان ذلك الرجل فى حل أم فى حرم؟ حرا أم عبداً؟ صاد فى الليل أم فى النهار؟ صيده من البهائم الوحشية أو الأ ليفة؟ يصيد للمرة الأولى أو الثانية؟ عامدا أو جاهلا؟ وهكذا حتى دوّخا لسائل من كثرة التفريعات التي بسطها أمامه. لماذا؟

لأن الحكم الشرعي ليس مطلقا، وإنما يتبع الوقائع المرتبطة.

ولذلك تأتى الرواية الكريمة لتقول: S أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثناR

الحوادث جمع حادثة، والحادثة فى اللغة العربية هى الظاهرة المتغيرة ، والشريعة الإسلامية فيها من المرونة ما يستوعب كل التغييرات و التطورات.

لماذا لا نكتفي بالقرآن والسنة. بل ونقول يجب أن يكون لدينا فقها؟

لأن القضايا تختلف بحسب الزمان والمكان، والفقهاء فقط هم الذين باستطاعتهم أن يستنبطوا أحكامها المناسبة من الشريعة.

لماذا لا يجوز ان تقلد الأموات تقليدا ابتدائيا، وفى راى كثير من الفقهاء لا يجوز تقليد الأموات حتى استمراريا.

ولماذا نقول ان المسالة التى لم تعمل بها فى حياة المجتهد، لا يجوز لك ان تقلده فيها بعد مماته؟

ولماذا يقول الإسلام.. كتاب وإمام وشريعة وقائد؟ لماذا نحن لا نوافق من يقول، حسبنا كتاب اللّه؟

كل ذلك لأن متغيرات الزمان تتطلب فقيها يعرفها ويعرف الحكم الشرعى فيها. أما إذا لم يعرف الفقيه أحكام الشرع بالنسبة إلى متغيرات الزمان، وتصدى للمرجعية فهو ليس بقائد وإمام.

ان أخطر ما ابتليت به الأمة الإسلامية منذ بداية انطلاقها وإلى الآن

كان أمثال هؤلاء الذين يدعون العلم وهم لا يعرفون الزمان، والذى لا يعرف الزمان لا يعرف الدين بأنه تطبيق قيم اللّه س على متغيرات الزمان.

يقول الإمام على في وصيته لكميل: يا كميل الدين لله تعالى فلا يقبل اللّه تعالى من أحد القيام به إلا رسولاً أو نبيااو وصيا .

Sيا كميل لو كان هناك إنسان واحد فى العالم واراد ان يعمل بالإسلام فهل يحق له ذلك؟ ثم يجيب هو ويقول كلا، إلا أن يكون حجةR

الإنسان الواحد إذا كان موجودا ولم يكن حجة ولم يكن متصلا بـ الوحي أي لم يكن إماما، فإن عمله لن يكون صحيحا، لأنه عمل دون تقليد وبلا اتباعالإمام الشرعى، وبالتالى لا يكون هذا العمل لله، ولن يرضى اللّه عنه.

ويقول الإمام فى حديث آخر: S لو كان هناك رجلان لكان أحدهما إماما والثاني مأموماR

لماذا نحتاج إلى الإمام؟ لأنه دون الإمام لا نتمكن ان نتخذ القرارات الصحيحة فى خضم متغيرات هذا الزمان ومن هنا نجد فقرة من حديث في صفات العلماء..

Sعارفا لأهل زمانهR

ويأتي في الحديث الآخر..

Sالعالم بزمانه لا تهجم عليه الغوائلR

ذلك لأن الأحكام تتغير فى إطار القيم الثابتة وفق متغيرات الزمان.. فتارة يجلس الإمام على في بيته، وتارة يحمل السيف ويقتحم الحروب وقد جاوز الستين.. وتارة يحارب الإمام الحسن وتارة يصالح وتارة يحارب الحسين بالخطاب والقلم. وتارة يحارب بالسيف.. وفي ظروف معينة يتخذ زين العابدين منهج الدعاء كسلاح يحارب السلطةا لجائرة ويقوم بعتق العبيد وتربيةالكوادر.. وفى ظروف أخرى يتخذ الإ مام الباقر اسلوب الوعى وبث المعارف الإسلامية.. وينهض الإمام الصادق ليكمل برنامجه فيقوم بنشر الفقه.. وهكذا نجد الإمام موسي الكاظم يقوم بالإعداد والتهيئة للثورة لما رايان الأرضية ملائمة لذلك.. كما نرى أن الإمام على الرضا يقوم بقبول ولاية العهد للمأمون لأ ن المصلحة كانت تقتضي ذلك.. كل هذه القرارات كانت لمصلحة الأرض، وكلهم أيضاً كانوا فى طريق الحق، ولكنالزمان كان يختلف. لذلك اختلفت قراراتهم السياسية ’ ومن هنا فإن الواجب فى القائدالإسلامى أن يكون عالما بجانبين.. عالما بالدين، وبالقيم الإسلامية ...عالما بالحياة

وبالظروف الاجتماعية، ولا يكفى ان يكون علمه فى الدين، أو فى الحياة علما تقليديا، بل يجب أن يكون استنباطيا اجتهاديا.

رجل دين وسياسة

لا يكفى ان ياتى ذلك الرئيس ويقول انا عالم بالسياسة، وساخذ رسالة عملية لفلان واقراها فاكون قائدا شرعيا، ان هذا غير ممكن لأن الرسالة العملية التى يقرا ُها لا يمكن أن يطبقها على الظواهر السياسية المتغيرة.

وكذلك لا يكفى عالم الدين أن يقول انا عالم بالدين فقط وساخذ نظر المستشارين فى القضايا السياسية، والإنسانية يجب أن يكون عالما بقضايا السياسة.

لذلك فمن الأسباب والعوامل الرئيسية لانتصار الثورة الإسلامية، ان اللّه هيا لإيران عالما كالإمام الخميني ، فلقد انتظرت الإمامة الإسلامية طويلا طويلا انتظرت الجامعات التى لم تنتج إلا مجموعة مثقفين ذيليين، كما انتظرت بعض الحوزات العلمية التى لم تنتج إلا مقلدين للتاريخ يعيشون فى عصور غابرة، وانتظرت طويلا المفكرين الإسلاميين الذين ظلوا يراوحون بين تقليد الغرب وتقليد الماضي.

ولكن الإمام الخمينى قبل اربعين عاما، وفى تلك الظروف التى تعتبر ظروف الظلمات وعصر السبات العميق.. كان يدرس لتلاميذه القوانين الوضعية حسبما ينقل عنه.

كان الإمام طوال حياته مراقبا للأحداث السياسية فتجده يذكر لنا تفاصيل المؤامراتالتى جرت فى أيام ثورة الدستور..انسان شاهد على الحدث مراقب لمجريات الأمور، متوغل فى فهم كل المتغيرات فى الساحة هذا هو الإمام الذي قاد الثورة إلى النصر.

لذلك يجب علينا أن نفهم ونعى من الذى ينبغى أن يقودنا، ومن الذى نجعله بيننا وبين اللّه.. فقد لا يقبل اللّه أبدا عذر أى إنسان يتبع رجل الدين الذى لا يعترف بأن السياسة جزء من الإسلام، ولا يعترف بابسط معانى القيادة الإسلامية، انه لا يحق للمسلم أن يتبع مثل هذا الإنسان مهما كان يحمل من علم وورع.

أن اللّه أودع فيك العقلايها الإنسان لتفهم. وأعطاك الكتاب لتقراه ولتتدبر فيه، ثم تنظر هل ان اقوال هذا العالم أو ذاك تتناسب مع القران مع آيات الذكر أم لا. بل يجب أن نقرا القران ونتدبر آياته، فهى تحدد لنا بدقة معالم القيادة الشرعية.يقول الإمام الرضا فى حديثه المطول المذكور في كتاب «الاحتجاج»

S عالم بالسياسةR.
فهذا من صفات الأئمّة ومن صفات القادة، وحينما يقول الإمام المهدى في حديث شريف:
S انهم حجتي عليكم وانا حجة اللّه عليهم R
فهذا يعنى ان هؤلاء العلماء استمرار لخط الأئمّة ومن أبرز صفات الأئمة علمهم بالسياسة. فهل يصح للإنسان أن يقول أنا رجل دين ولست برجل سياسة؟
هل يقبل منه هذا في منطق الإسلام؟
لو كانت السياسة شيئا والعلم شيئا اخر، إذا لجاز للحسين ان يذهب إلى الجبل ويعبد اللّه وعليه ألا يتدخل فى الشؤون السياسية، فلماذا أراق دمه إذن؟

طالب العلم وطالب العلوم

ان للقضية وجهة أخرى، تلك هى ان طلبةالعلوم الدينية، وطلبة العلوم الحديثةهؤلاء يجب أن يلتقوا فى خط واحد يجب أن يصبح كل عالم بـ السياسة عالماً بالدين، وكل عالم بالدين عالما بالسياسة يجب أن نقضى وا لابد على هذا الانفصام الذى أوجده التخلف والاستعمار فى بلادنا.؟. ف التخلف أبعدنا عن عصرنا، والاستعمار أبعدنا عن ديننا.
وهذا الهدف لا يمكن تحقيقه من دون جهود مكثفة، لأن هذين التيارين العلميين متباعدين، فهناك عوامل تصر على إبعادهما عن بعضهما. وهناك من يصر على تجهيل علماء الدين وطلبة العلوم الدينية وإبعادهم عن قضايا السياسة والاجتماع والاقتصاد، وهناك من يصر على إبعاد طلبة العلوم الحديثة عن القرآن والسنة والتاريخ الإسلامى، فعلينا حينما نريد أن نقاوم هذه العوامل أن نبذل جهود مكثفة.
ان مطالعة الطلبة اليوم لكتاب دينى، ثم لكتاب علمى ثم اختمار الفكرتين فى أذهانهم وتحولها إلى فكرة واحدة، لهو جهاد عظيم.ان تقدم الإسلام وانتصاره يحتاج اليوم إلى أولئك العلماءالذين مدادهم أفضل من دماء الشهداء، وهم العلماء الذين يرسمون بمدادهم حلولا لمشاكل الأمة بصورة جذرية وناجحة.
ان الأمة الإسلامية الآن فى حالة انفصام، وفى حالة تفتت ذاتى، ف المهندس لا يعرف من دينه إلا كلمات قشرية وكأن الدين لا يرتبط بـ الهندسة، والطبيب يفكر بأن علمه بعيد عن الدين، وعالم الدين فى بعض المناطق يزعم بأن بعيد عن السياسة والطب والهندسة وهذه هى المأساة.

وان من المستحيل لأمتنا أن تتقدم دون القضاء على هذه المأساة.ه ذه كلمة قالها،، هاملتون، قبل خمسين عاما، واكد عليها كل المفكرينا لمنصفين من الغربيين حيث قالوا بأن حضارةالأمة الإسلامية لا تتحقق إ لا على يد علماء الدين.وهذه الكلمة يؤكدها توينبى،، أيضاً فى كتابه المختصر لدراسة التاريخ، بالإضافة إلى أن تلك الفكرة قد اثبتتها كذلك تجارب عصرنا التي مرت بنا.

أولئك الذين ارادوا تحديث بلادنا كان مصيرهم ما رايناه فى مصر، وفى تركيا، وفى إيران الشاه، فففى إيران العهد البائد، وبعد الثورة البيضاء التى اعلنها الشاه المقبور، كانت الزراعة الإيرانية تنتج للشعب سبعمائة الف طن فقط من القمح سنويا، والآن وبعد كل المآسى وكل الإ فساد الذى سببهما سموه بالإصلاح الزراعى، وكل التدمير المنظم لزراعة إيران، فإن إنتاج القمح قد بلغ وبعد اقل من ثلاث سنوات على الثورة حوالى خمسة ملايين وخمسمائةالف طن سنويا، انظروا إلى هذا الفرق أن هذه هي الحضارة الحقة.

الحضارة هى ان يقود المجتمع عالم الدين الملم بالسياسة، لا رجل ينكر السياسة ولا رجل سياسة لا يعترف بالدين. الحضارة هى ما يقوم به الثوار الإيرانيون الآن لقد ترجم فى إيران من الكتب العلمية وخلال سنة واحدة أكثر ممّا ترجم فى عهد الشاه، لقد ترجم حوالى ثلاثة الاف كتاب علمي في هذه السنة التي سميت بسنة الثورةالثقافية.

لقد حاول الشاه والأنظمة العميلة فى هذه البلادان يكرسوا تخلفنا، ويكتفوا بترديد الشعارات وان يرسلوا اولادنا إلى الغرب والشرق لا ليتعلموا العلم، وإنما يبحثوا عن كل رذيلة هناك، ويأتوا بها هدية إلى بلا دنا.

نحن حينما نقول الثورة الثقافية، فلا نعنى فقط ان نحصل على معلومات حديثة مضافة إلى المعلومات الدينيةاو العكس. كلا، وإنما نريد ايجاد بنية جديدة وكيان جديد لثقافةالعصر انه كيان يعتمد فى ارضيته على قيم الإسلام والرسالة، وينمو من أجل المستضعفين، ومن أجل الفقراء الذين سحقهم الاستبداد والاستغلال.

نحن نريد ان نربى دكتورا فى الطب، هو فى نفس الوقت ناصح دينى، وناصح أخلاقى، ومرب لمرضاه. ولا نريد أن يصبح الطباداة بيد المستغلين، ونريد ان يصبح الطب قضية إنسانية بيد الأطباء، وهكذا فى الهندسة، وعلم التاريخ والجغرافيا، وعلم السياسة وسائرالعلوم الإ نسانية والطبيعية، وسنثبت للعالم ذلك قريبا بأذن الله.

ولقد فهم بريجنسكى.. مستشار الرئيس السابق كارتر للأمن القومى،

القضية أيضاً حينما قال: انه بعث إسلامى أصيل، ذلك الذى يجرى فى إيران.نعم انه بعث إسلامى..انها روح جديدة ولدت فى هذه المنطقة، وهذه الروح من أهم وأبرز أبعادها هى ربط العلم بالدين والقضاء على تلك اللعنة التاريخية التى جرت فى فرنسا ابان الثورة العلميةابعدوا العلم عن الدين، وسببوا هذه الماسي للبشرية.

نحن إذ نريد القضاء على هذهاللعنة التاريخية، إعادة تعاون الدين و العلم لبناء الحياة الفاضلة.

وهذا لا يتم إلا بجهود العلماء السياسيين والأمة لا تخرج عن طبيعتها لمجرد ان ديكتاتورا يريد ذلك فهذا شيء مستحيل بل إن الأمة تبقى على اصالتها وتظل محتفظة بقيمها، وترى فى هذا الشيء الذى يسمونه بـ العصرية والتكنولوجيا والتقدم تناقضا مع اصالتها وقيمها، وبالتالى ترى فيه عدوا لدودا تجابهه وتبقى الأمة وتفشل التجربة.

اما حينما يامر الإمام الخمينى مثلا ً بضرورة بناء الطائرات فى إيران وبناء القاعدةالمتينة للاقتصاد والصناعة الثقيلة فى بلادنا، فإن الأ مر يختلف فالعامل فى المصنع يعلم بأن الذى يامره بذلك لا يريد ان يسلب دينه وقيمه وارتباطاته وعلاقاته وجذوره.انه يرى الذى يأمره بهذا يعطيه أيضاً فرصة للصيام فى شهر رمضان وان الذى يامره ان يصبح اعلى العلماء فى الفيزياء والهندسة وما اشبه يامره ايضاان يلتزم بالصدق والوفاء وان يرتبط بأمه وأبيه ومجتمعه.انه لا يريد أن يفصله عن دوره، لذلك فهو يندفع في مجال العلوم التكنولوجية.

وهذا هو الذى يدعونا إلى أن نؤكد على أن ما يجرى فى إيران ليس قضية تبديل نظام بنظام كما يزعم البعض وإنما هو انبعاث جديد فى العالمالإسلامى. وفوران فى القيم الأصيلة، تلك القيم التى ظلت حتى ا لآن محتفظة بنقائها فلقد تفجرت ينابيع أمتنا تلك التى لم تستطيع الحروب الصليبية والاجتياح التترى والاستعمار الغربى ان يقضى عليها ومعنى تفجرها هو إنها قاومت فى الفترةالماضية تلك الضغوط الخارجية، وألان بدأت مرحلة الظهور والتحدي.

أن الذى يجرى فى إيران اليوم هو رد فعل قوى لكل انتكاسات الأمة. فلا يمكن القضاء على هذه الثورة بسهولة. وهكذا لم يكن تحرك الشعب من أجل طرد الشاه وإقامة نظام بديل عنه، وانا شخصيا اعتقد جازما بأن محاولات ريغان وبيغن واذنابهما سوف تفشل باذن اللّه، لأن القضية أعمق ممّا يتصورون.

ان الثورة هى حل جذرى لإشكالية الأمة التى كانت تعيش أزمة حضارية.. فهى من جهة تنتمى إلى ماض مشرق مجيد، وإلى قيم أصيلة

، ونظرات سماوية، ورسالة عالمية، ومن جهة ثانية تريد اللحاق بالعصر.ه ذه هى الأزمة الحضارية قد انحلت هنا فى إيران، على يد رجل تجسدت صفات اصحاب النبـ ي واستوعب بنفس النسبة متغيرات العصر وقوانينه، وباد الثورة السياسية، فى منطقة تتشابك فيها العلاقات الدولية التى عجزت العقول الإلكترونية الشرقية والغربية عن تقييم الوضع فيها.

فى هذه المنطقة بالذات جاء الإمام وقاد لثورة السياسية، ولم يمكنه ا ن يفعل ذلك إلا بعد ان استوعب طبيعة الأوضاع والعلاقاتالدولية ومتغيرات العصر والقوى الفاعلة بالإضافة إلى العلوم الدينية.. فمن جهة أخرى يفتى فى قضية صلاة المسافر، فهو ينتمى إلى اصالة الماضى كما ينتمى إلى عصره وأرضه ومجتمعه انتماء حقيقيا واقعيا. جاء واستطاع بهذه التكاملية أن يفجر هذه الثورة بطريقة جديدة ويقول.. لا شرقية. ولا غربية ثورة إسلامية.

هذه ليست ممّا يمكن للشرق أو الغرب، أن ينالوا منها، وهى ليست بمستواهم، بل إنها أصلا ليست في مجال تفكيرهم.

S

E 5
أوليات الثقافة 5
معالم الثقافة السليمة 22
التمهيد 54
كيف يجب أن نفهم الإسلام؟ 55
الدين لماذا؟ 62
العلم..ام الدين؟ 67
ماذا..هو الإسلام؟ 72
الإ ِ س ْلامُ وَالحَيَاة 79
الدين ضرورة نفسية 80
الدين ضرورة حياتية 83
الدين ضرورة سعادة 86
الدين تربية وتعليم 89
الدين منهج شامل 91
الدين منهج دائم 94
فلسفة الدين الإسلامي 98
الإيمان تعقل 101
الإيمان: طمأنينة 109
الإيمان: سعادة 112
الإيمان.. عمل 117
الإيمان حاجة 123
الإيمان حاجة نفسية 126
الإيمان: تحدي 129
الإيمان: مسؤولية 137
حضارة في بيت العنكبوت 140
حضارة بلا مصير 152
البناء الحضاري بين لا ونعم 163
حضارتنا في عصر البترول 178
حضارتنا ومتى وكيف؟ 188
الثّقافَةُ الرّسَالِيّة 203

ما هي دعائم التشيع وأبرز مفاهيمه؟ 204
حين تصبح الرموز قشوراً 216
القرآن حروف بلا معنى 225
تطبيق الأحكام الشرعية تطبيق رسالي 233
الثقافة الرسالية معالمها وقيمها 239
الفكرة المسؤولة 247
المسؤولية بين الحرية الجزاء 256
الأفكار اللا مسؤولة.. كيف ولماذا؟ 263
دور الثقافة التبريرية في انهيار الأمم 268
التاريخ المفترى 293
المجْتَمَعُ الإِسْلاَمِي 299
الإنسان بين إرادة الفرد وقانون المجتمع 300
المجتمع الإسلامي والصراع الحضاري 305
التقوى محور المجتمع الإسلامي 312
التقوى ضمانة ضد الانحراف 320
الاستباق في الخيرات 328
الحوافز الاجتماعية 335
حيوية المجتمع وفاعليته 340
سمات المجتمع الإسلامي 344
معرفة الفرد طريقنا إلى معرفة المجتمع 360
مراحل الحضارة 363
الإنسان بين الشهوات والقيم 368
الحل الإسلامي لهذه المشكلة. 370
القيادة في المجتمع الإسلامي 379
القيادة والانبعاث الإسلامي الجديد 386
العلم والمال في المجتمعات الرسالية 399
كيف يضمن الإسلام استقلال العلم 407
المجتمع الإسلامي وضرورة الإمامة الشرعية 415
المحتويات 423